مفاهيم في العقيدة

الجزء الثاني

القول الفصل في مفهوم الإيمان شرعا

ثائر سلامة (أبو مالك)

الطبعة الرابعة : مزيدة ومنقحة

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

هذا الكتـاب نتـاج ما يزيد عـن العشـر سـنوات من

البحث الجاد في بطون الكتب، وأراء العلماء.

وهو يعبر عن رأي كاتبه الشخصي

في المواضيع المطروحة.

:: مفاهيم في العقيدة ::

القول الفصل في آيات طال حولها الجدل

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾

﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ ﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ ﴾

﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ﴾

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ ﴾

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

الجزء الثاني

القول الفصل في

مفهوم الإيمان شرعا

- علاقة الإيمان باليقين.
- مسألة تفاضل الإيمان.
- علاقة الإيمان بالإسلام.
- تبعض الإيمان.
- علاقة الإيمان بالعمل.
- علاقة أهل الكتاب بالإيمان.
- علاقة المؤمن بالمسلم وهل يخرج المرء من الإيمان إلى الإسلام أم إلى الكفر
- أدلة الاعتقاد ووجوب الجزم فيها ومنع الاعتقاد عن أدلة ظنية.
- التقليد في الاعتقاد.
- شروط صحة الاعتقاد.
- نواقض الايمان.

الفهرس

نحو تأصيل مفهوم شرعي للإيمان ١٣

مقدمة الطبعة الثالثة:.. ٢٤

بين يدي اللغة:.. ٢٧

نحت التعريف (الحد) الجامع المانع للإيمان:.. ٣٣

الباب الأول: نحت الحد:.. ٣٣

الباب الثاني: الركن والشرط: ٤٥

الباب الثالث: احترازات وقيود تدخل في التعريف لتحقق منع دخول غيره فيه:........... ٥٧

الباب الرابع: الركن الزائد (المحتمل للسقوط) والشرط:.................................. ٦٠

مفهوم الإيمان واليقين ٦٤

الباب الأول: الإيمان: نظرة سريعة تستعرض بعض أقوال الأوائل في الايمان: ٦٤

الباب الثاني: مقامات تصديق الخبر ومعنى مطابقة الواقع، معنى الاعتقاد:.................. ٩٠

الباب الثالث: الاعتقاد ما هو؟ ٩٨

فصل: الإيمان له حقيقة لغوية وعرفية وشرعية والمؤمن حقيقة شرعية لا غير: ١٠٤

باب: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ... ١١٩

باب: (ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا): الفعل المُكفِرُ.. ١٢٧

الباب الأول: الفعل المُكْفِرُ بنص قطعي على أنه فعل مكفر: ١٣٠

الباب الثاني: الفعل المُكْفِرُ لمخالفة ما أمر به من الاعتقاد أو لتفرعه عن اعتقاد مناقض للإسلام:.. ١٣٦

الباب الثالث: الفعل المـُكْفِرُ لمناقضة التصديق بما طلب التصديق بـه جزما مما يتعلق بفعل الجوارح: ١٣٧

الباب الرابع: القيام بالفعل المـُكْفِرِ لا يفضي بالضرورة إلى تكفير المعين: ١٤١

الباب الخامس: العلاقة بين الفعل المكفر وبين تعريف الايمان: ١٤٥

فصل: في ماهية الإيمان ١٤٧

باب: أولا: لنثبت أن محل الإيمان هو القلب... ١٤٨

باب: ثانيا: طبيعة أفكار الإيمان والموقف منها موقف فكري: ١٥٣

باب: ثالثاً: الإيمان أفكار (هدى) قابلة للاعتقاد: ١٦٤

باب رابعاً: العقيدة الاسلامية عقيدة عقلية: ١٨٤

باب: خامسًا: العلاقة بين الاتباع والإيمان ١٩٤

باب: سادسًا: التصديق والتكذيب، والمعرفة والإنكار، والإذعان والجحود.................... ٢١٠

أولا: مقدمة مهمة لمسألة التصديق والمعرفة: ٢١٠

ثانيا: التصديق والتكذيب ٢١٣

ثالثا: التصديق ما هو؟ التصور والتصديق: ٢١٩

رابعاً: التصديق والتصديق المنطقي:... ٢٢٢

خامسا: التصور والتصديق:.. ٢٢٧

سادساً: الإقرار... ٢٣٨

ما أراه في موضوع الإقرار: ٢٥٠

سابعا: المعرفة والإنكار والجحود:.. ٢٦٣

ثامناً: التحقيق في معاني المعرفة في كلام الأصوليين:...................................... ٢٦٧

تاسعاً: علاقة التصديق والمعرفة والجحود والإنكار بالإيمان: ٢٧٤
عاشراً: ما أراه في المسألة:.. ٢٨٩
هامش: باب: سابعاً: العلم والمعرفة والتصور والتصديق................................... ٣٢٠
ثامناً: الفرق بين الإيمان والتصديق:.. ٣٣٣
باب: الحب والبغض وانفعالات القلب.. ٣٤٣
فصل: مدرستان في النظر إلى طبيعة الإيمان ٣٥٦
فصل: الإيمان نوعان، أصل، لا يتفاضل، ونوع آخر: يتفاضل................................ ٣٦٤
باب: المؤمن والمؤمن حقاً:... ٣٩٢
فصل: تعريف اليقين ومفهومه.. ٣٩٦
فصل: اليقين لا يتفاضل؛ والإيمان يزيد وينقص.. ٣٩٨
باب: رأي الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في تفاضل الإيمان ٤٢٢
باب: مقدمة لما أراه في المسألة... ٤٢٦
فصل: هل يتفاضل الإيمان؟ تحرير موضع النزاع ٤٣٢
فصل: في التفريق بين الإيمان واليقين: ٤٣٥
الباب الأول: نواقض تحول بين المصدق جزما عن دليل وبين الدخول في الايمان......... ٤٣٥
هل تعريف الايمان على أنه التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل جامع مانع؟..... ٤٣٥
الباب الثاني: في التفريق بين الايمان واليقين:....................................... ٤٤١
فصل: اليقين درجة واحدة لا يتفاوت بين الناس.. ٤٦١
فصل: فهم آخر لزيادة الإيمان، وهو ضروري لفهم ماهية الإيمان:........................ ٤٧٣
فصل: محاولة تلمس الفرق بين اليقين والإيمان لغة...................................... ٤٧٩

فصل: استكمال الإيمان.. ٤٩٠

فصل: المؤمن والمسلم:.. ٥٠١

المطلب الأول: اكثر اختلاف العلماء في تعريف الايمان وفهمه يعود إلى تفريقهم أو عدم تفريقهم بين الاسلام والايمان ٥٠٧

المطلب الثاني: لنستعرض بعض أقوال أهل العلم في هذا الموضوع: ٥١٠

المطلب الثالث: رأي العلامة ابن تيمية رحمه الله في هذه المسألة:........................ ٥٢٤

المطلب الرابع: ما أراه في المسألة، تفسير آية: قالت الأعراب:............................... ٥٤٠

المطلب الخامس: حديث سعد رضي الله عنه: ٥٦١

المطلب السادس: البحث في أحاديث المصطفى عليه السلام في هذه المسألة: ٥٦٥

المدار السابع للنقاش، حديث الرسول الأكرم عليه السلام: ٥٦٨

ورود الإسلام والإيمان في آية واحدة هل هو دليل على أنهما مختلفان أو متفاوتان. ٥٧٢

المطلب الثامن: لا يزني الزاني وهو مؤمن:... ٥٧٨

باب: أيقول المؤمن أنا مؤمن:.. ٥٨١

فصل: (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان)... ٥٨٦

ما أراه في هذه الآية:... ٥٩١

فصل: هل يتبعض الإيمان؟ ٥٩٥

باب: ما أراه في المسألة:... ٦١٦

باب: لفظ الكفر حقيقة واستعمال لفظه قرينة:.. ٦٢٤

فصل: إيمان ونفاق في القلب ٦٣٠

فصل: غير المؤمن كافر؛ وغير الإيمان كفر: ٦٣٤

فصل: (فإن علمتموهن مؤمنات):.. ٦٣٦
فصل: ترك الصلاة: ٦٤٣
فصل: علاقة الإيمان بالعمل: ٦٤٦
باب: الفرق بين العقيدة والحكم الشرعي ٦٤٦
باب: هل فرض الله الفرائض ولم يرد منا عملها؟ ٦٥٢
باب علاقة الإيمان بالعمل: بعض آراء أهل العلم في المسألة: ٦٥٨
باب: ما أراه في المسألة:.. ٦٨٦
باب: الفئة الأولى: الأمر بالإيمان مجرداً عن أي أمر آخر............................... ٦٨٨
باب الفئة الثانية: الآيات التي قابلت بين الإيمان والكفر...................................... ٦٩٠
باب: الفئة الثالثة: اقتران الإيمان بالعمل الصالح ٦٩١
باب: الفئة الرابعة: أمر المؤمنين بالقيام بالطاعات والأعمال المختلفة ونهيهم عن أفعال أخرى.. ٦٩٢
باب: الفئة الخامسة: أمر المؤمنين بالإيمان.. ٦٩٣
باب: الفئة السادسة: بيان أن الإيمان الحق لا بد من أن يكون نتاج أعمال معينة ٦٩٥
باب: الفئة السابعة: آيات تثبت وصف الإيمان لمن لم يقم بأفعال معينة أو إثبات الإيمان لمن لم يقم بما وصفه الإيمان الحق... ٦٩٧
باب الفئة الثامنة: بيان أن من لم يقم بأعمال معينة فإنه لا يمكن أن يكون مؤمناً بله هو منافق، وإن ادعى الإيمان بلسانه. ٦٩٩
فصل: التحقيق في علاقة الإيمان بالعمل.. ٧٠١
باب: قتال مانعي الزكاة:.. ٧٠٥

باب: هل جنس العمل من الايمان؟ ٧١٣
باب: عطف الأعمال على الايمان:.. ٧١٧
باب: حديث وفد عبد القيس.. ٧١٩
باب هل المطلوب هو الإقرار فقط أم العمل بما نقر به؟ ٧٣٥
هذا ملخص الدليل، وللجواب أقول وبالله تعالى التوفيق:..............................٧٣٦
باب الإقرار مع أعمال الكفر هل يسمى إيمانا؟ ٧٣٧
باب: الإيمان والعمل مفاتيح الجنة ٧٤٠
باب: الأعمال شرط كمال لا شرط صحة للإيمان ٧٤٨
باب: الإيمان بضع وسبعون شعبة: ٧٥٠
باب: الفرق بين المؤمنين والمؤمنين حقاً والصادقين في إيمانهم.............................. ٧٦١
فصل: الخلاصة فيما أراه في وصف المرء بالإسلام والإيمان: ٧٦٧
فصل: الشهادتان وعلاقتهما بالاعتقاد، ومسألة القول:..٧٧٢
فصل: الإيمان والمؤمن:.. ٧٨١
باب: نواقض تحول بين المصدق جزما عن دليل وبين الدخول في الايمان..................٧٨٢
هل تعريف الايمان على أنه التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل جامع مانع؟٧٨٢
فصل: هل يوصف أهل الكتاب بالمؤمنين؟ ٧٩٤
الباب الأول: بيان أن أهل الكتاب كفار..٧٩٤
الباب الثاني: إثبات علم بعض أهل الكتاب بصدق الرسول عليه السلام:...................... ٧٩٨
الباب الثالث: انقسام علماء أهل الكتاب إلى مؤمن وكافر رغم وجود العلم لديهم.........٧٩٩
الباب الرابع: الطلب من أهل الكتاب أن يؤمنوا بالرسول وإلا فهم كفار......................٨٠٠

الباب الخامس: بيان أن من أهل الكتاب مؤمنين ٨٠٢
الباب السادس: هل عندهم "بعض إيمان"؟ ٨٠٤
باب: تحليل الآيات: ٨٠٥
المحور الثاني وهو المهم والدقيق: هل إذا بقي الكتابي على دينه –غير المحرف – دون اتباع النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم، ويعمل الصالحات ينجو؟ ٨١٤
وسألخص ما رآه العلامة وتلميذه ابن القيم في هذه الآيات فهو من أجود ما قيل: . ٨٢٠
باب: ما أراه في الموضوع: (إن الذين ءامنوا والذين هادوا): ٨٢٨
باب: (لَيْسواْ سوَاَء) ٨٣٧
باب: (يأيها الذين آمَنوا آمِنوا) ٨٤٠
باب: آمَنوا و آمَنوا ٨٤٥
باب: (إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ) ٨٤٧
باب: التوبة سبقت الإيمان! ٨٤٩
فصل: نواقض الايمان: الايمان والكفر ٨٥١
(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) ٨٥٥
الانتقال من الكفر إلى الايمان: ٨٥٨
أَقْسَامُ الكُفْر ٨٦٧
حقيقة الكفر: ٨٧٣
البلاغ المبين، والنذارة تسبق العذاب ٨٧٦
حقيقة التكذيب: ٨٧٧
المعرفة الإيجابية والمعرفة السلبية كلاهما يفضي للكفر: ٨٨٧

مقدمة مهمة لمسألة التصديق والمعرفة:.. ٨٨٨
البلاغ المبين:... ٨٨٩
التبليغ والإنذار وإقامة الحجة ٨٩٠
المسئولية عن كفر الكافر وحمل الدعوة إليه: ٨٩٩
الحد الأدنى من النذارة الذي به تقام الحجة: ٩٠٦
(وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) ٩٠٧
واجب الوصول للحق وإيصاله يتوزع على صُعُدٍ ثلاثة.................................. ٩١١
المعجزة... ٩١٤
سؤال وجوابه: ٩١٧
العقل وحده لا يكفي لإقامة الحجة ٩٢٢
التحقيق في الحد الأدنى من النذارة... ٩٢٤
طريق الإيمان: ٩٣٧
أهل الفترة:.. ٩٤١
التحقيق في مفهوم أهل الفترة.. ٩٤٣
حجة القائلين بأن أهل الفترة في النار ٩٤٩
رد خصومهم على هذه الحجج: ٩٥٣
واقع أهل الكتاب، وأولادهم، ومن اتبع دينهم: ٩٥٨
فهل من عبد غير الله من أهل الفترة لا يعذب ولا يوصف بالكفر؟ ٩٦٣
ملحق: كتاب الإيمان من فيض الباري شرح صحيح البخاري للعلامة الكشميري............ ٩٦٤
كتاب الإِيْمَان ٩٦٤

الإيمانُ ومَعَنْاهُ اللُّغوي ٩٦٤
الإيمانُ وتَفْسِيْرُهُ عند الشَّرْع ٩٦٧
بحث في معنى الإِقْرار ٩٧٢
المحورُ الذي يدورُ عليه الإيمان ٩٧٤
المَعْرِفَةُ شرطٌ في الإيمان أم لا؟ ٩٧٩
قول وعمل ٩٨١
تتمَّةٌ في بَحْثِ الزِّيَادةِ والنُّقْصَان ٩٩٥
محل الإيمان ٩٩٦
النِّسْبَةُ بين الإسْلام والإِيْمَان ٩٩٨
بحثُ في معنى الضَّرورَةِ وما يَتَعلَّقُ بها ١٠٠٠
أقسَامُ التَّوَاتُر ١٠٠٣
أَقْسَامُ الكُفْر ١٠٠٥
ملحق: في بحث الحد وشروط صحته: ١٠٠٧
خاتمة ١٠٢٢
المراجع ١٠٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

نحو تأصيل مفهوم شرعي للإيمان

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وبعد..

فقد جاء القران الكريم بمفاهيم جديدة قلبت التاريخ وهدت البشرية إلى الصراط المستقيم، ونقلتها من الظلمات إلى النور، ولا شك أن القران كان دائماً بالغ الدقة في مفاهيمه، بما يتناسب مع قوة الأفكار التي تحملها هذه المفاهيم.

ولا شك أن من أهمها تلك المفاهيم التي تتعلق بالاعتقاد، فقد ضبطها القران الكريم ضبطاً محكماً، وجاء بأقوى المصطلحات اللغوية التي تناسبها،

ونقل معاني بعض هذه المصطلحات من معناها اللغوي إلى معنى شرعي، التصق بها بحيث لا يُذكر إلا ويتبادر إلى الذهن هذا المفهوم الذي يحمله.

ولقد تلقى الصحابة الكرام منهجا فريدا في التعامل مع قضايا الإيمان والاعتقاد، وعملوا به، وحملوه في دعوتهم غضا طريا نقيا، مقنعا، إلى أن بدأت تثار إشكاليات التعامل مع مفاهيم الاعتقاد، فبدأت أفكار الخوارج والمعتزلة والجهمية والكرامية والأشاعرة والتيمية وغيرهم بالتفاوت والتناقض حول هذه القضايا، حتى إنك أحيانا يصعب عليك تحديد موقف تلك الفرق على وجه الدقة، من مسألة ما مثل مسألة علاقة الإيمان بالتصديق أو بالمعرفة أو بالعمل أو بالإقرار، فبعض العلماء يقررون أن الفرقة الفلانية تقول كذا، وبعضهم يقرر غير ذلك، وبعض أهل العلم ينطلقون في تقرير موقفهم من تلك القضية من زاوية الرد على تلك الفرقة التي يعارضونها، فتجد أن منهج الصحابة الفريد هذا يكاد يضيع في ثنايا الخصومة بين الفرق، فعزمت على أن أضع صورة شبه متكاملة، ما استطعت سبيلا، للموقف الشرعي المنطلق أساسا من القرآن والسنة، تجاه قضايا الإيمان الكبرى، بغض النظر عن الخصومات، فكل يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم، واستعملت في بحثي هذا أسلوب الوقوف على أدلة الكتاب والسنة، ثم ما يثار من أفكار حول القضية المعينة، من اعتراضات وإلزامات، تشكل الوعي الحقيقي على الموقف الصحيح من

هذه القضايا، لذا كان التنقيب في كتاب اللّه وسنة رسوله عن أدلة، كما وفي بطون الكتب وآراء العلماء، بغية الوصول إلى مثل هذه الفرائد، لتعين الباحث عن الحق على فهم موقفه الصحيح من قضايا الإيمان.

وقد تتبعتُ مفهوم الإيمان واليقين والظن والشك وما تعلق بها من أفكار في آراء العلماء، بحثت فيها وخرجت بآراء جديدة، أو أزلت الشوائب عن بعض ما قيل عنها، لعلها تعين على الوصول إلى المفاهيم القرآنية الدقيقة، بحول اللّه.

إن بحث موضوع الإيمان من الأهمية في حياة المسلم والأمة، ما لا يستطيع منكر التشكيك فيه، لأن العقيدة الإسلامية هي الركن الركين والأساس المتين للمسلم والأمة، إن صلحت صلح أمر الدنيا والآخرة، وحاجة المسلمين اليوم لمنهج الصحابة في فهم العقيدة وحملها للناس غضة طرية صافية نقية، حاجة العطشان للماء.

والباحث في هذا الموضوع ينبغي له أن يفهم أن له زوايا كثيرة ينظر إليه من خلالها، كزاوية أحكام الدنيا والآخرة، في اعتبار الإيمان والكفر، وزاوية المؤمن كشخصية إسلامية، تتفاوت هذه الشخصيات، ويتفاضل أثر إيمانها على حياتها، تتفاوت في إدراك صلتها باللّه حال القيام بالأعمال، فيقال يتفاضل إيمانها، مقابل المؤمن كمعتقد للعقيدة الإسلامية لا يساوره

فيها شك، يستدل عليها بما يجعل إيمانه جازما، فلا يقال فيها أن الإيمان يتفاضل.

فصاحب الشخصية الإسلامية حتى ينطبق عليه لقب المؤمن الذي يميزه عن الكافر، نعرف المؤمن بأنه: المصدق تصديقا جازماً مطابقاً للواقع عن دليل بكافة ما جاء به الرسول إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم. ونضع له شروطا لتحقق إيمانه هي: المقر العارف المتبع، ولكمال إيمانه: العامل المخبت المحب لله ورسوله.

أما الايمان فهو قطعا: التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل. (بكافة ما جاء به الرسول إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم.).

<u>اختلفت المذاهب في الإيمان، أهو عمل القلب وحده، أم القلب واللسان، أم القلب واللسان والجوارح، والحقيقة أن الجواب على هذا وتقرير أيها الحق، هو ما سيفضي إليه هذا البحث كله إن شاء الله، منها ما هو من شروط الكمال كأعمال الجوارح، على أن لأعمال الجوارح متعلقات بالإيمان، كالتصديق بأنها أوامر الله وفروضه، والتصديق بثبوت ما وصل إلينا منها جزما، وما إلى ذلك مما فصلنا فيه في موقعه، ومنها أركان زائدة قد يتحقق الإيمان بدونها، مثل الإقرار باللسان، والفقهاء اعتبروها شرطا لا ركنا، فهي</u>

وإن لم تظهر في التعريف، لأنه يدخل فيه الحدود التي يتوقف وجود الإيمان مطلقا عليها، وينتفي بانتفائها، والتي لا يتصور انفصاله عنها حتى ولا في حالة الإكراه، (كما هو الحال في الإقرار)، أي التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، إلا أنها من الشروط اللازمة لتحقق الإيمان، وذلك مثلا كالرضى والتسليم، وكالاتباع، فهي شروط لا بد منها لتحقق الإيمان، لكنها لا تدخل بنيان التعريف.

وزاوية الفرق بين الإيمان واليقين، فاليقين مرحلة لازمة للإيمان قد تتخلف، أي قد يصل المرءُ اليقينَ ولكنه لا يدخل في الإيمان، إلا إن أتى بشروط معينة، فهذا حال علماء بني إسرائيل وحال إبليس، ومن شاكلهم، فالقيام بعمل مُكفرٍ أو تبعيض الإيمان بأن يؤمن ببعض ما أمر أن يعتقده جازما، ويكفر ببعض، أو مشاققة الرسول عليه السلام بعد أن تبين له الهدى، هذه الزوايا تنفي عنه الإيمان مع أنه يعلم يقينا أن الرسول حق.

وكذلك زاوية النظر إلى اختصاص الإسلام بالأعمال والإيمان بالتصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، تزيل الغبش عن فكرة مهمة عظيمة وهي أن ما سوى الإيمان هو الكفر، فالأفكار في الدنيا، والعقائد، إما إيمان أو كفر، فما سوى الإيمان الحق المتمثل باعتناق ما أمر الإسلام باعتناقه، كفر،

فالديمقراطية[1] والعلمانية والاشتراكية والليبرالية كفر، وما وافق الإسلام، وما لا يتعارض مع الإسلام، كفر[2]، لأن أصله لم يأت من الوحي، بل أتى به أقوام جراء انضباعهم بالغرب الكافر، ليدخلوه في حياة المسلمين بحجة أنه لا يخالف الإسلام، أو أنه موافق للإسلام، كالديمقراطية ادعوا أنها تتوافق مع

---

١) لا يعني هذا أن من ينادي بالديمقراطية يكفر، إلا أن يكون معتنقا لها عقيدة بديلة عن العقيدة الاسلامية، أو أن ينادي بها على أنها أصلح من الاسلام، أو أنها بديل عنه، وأن تقام عليه الحجة، وللموضوع تفصيل سيرد لاحقا ان شاء الله، إلا أننا نوهنا لهذا هنا كي لا يظن أن كل من ينادي بالديمقراطية يكفر، إذ أنه لا يكفر لو دعا لها أو طبقها على المسلمين إلا بمسوغات معينة، فرب مناد بها على أنها الانتخابات فقط، منفصلة عن عقيدة إعطاء البشر الحق في التشريع، فلا يكفر مثل هذا، إلا أن فكرة الديمقراطية نفسها بمعنى أن التشريع للبشر، فكرة كفر يحرم الدعوة لها ويحرم أخذها ويحرم تطبيقها.

٢) فتح باب الأخذ بالتشريعات الغربية مثلا في العالم الاسلامي إن لم تكن تتعارض مع الاسلام، أو على أنها تتوافق مع الاسلام، بابا عظيما للشر، وفاعل ذلك إما مضبوع بالغرب وتقنيناته، يريد الأخذ عنهم بأي شكل، ولا يأخذ الفكرة أو التشريع على أنه من الوحي، بل يأخذه من الغرب، ويبحث فيجد رأيا ما عند عالم ما يتوافق مع هذا التشريع فيدلس على الناس بأن هذه الفكرة لا تتعارض مع الاسلام، مع أن الأمر حتى يكون إسلاما لا بد أن يكون أصله الوحي، وذلك العالم إذ وصل لرأيه ذلك، فإنه اجتهد في النصوص الشرعية فعمله محمود، أما هذا فاجتهد في الأخذ عن الغرب، ولم يجتهد في استنباط الحكم من مظانه، فتقنينه غربي وليس بإسلامي، ومثاله لو أخذ أحدهم من غير الاسلام مثلا عقوبة قطع يد السارق على أنها تشريع يردع المجرمين وأنه يوافق العقل، ومن ثم فإنه لم يأخذه على أنه تشريع رب العالمين، فإن ما أخذه حكم عقل، لا حكم الشرع لأن مصدره العقل لا الشرع فهما وإن توافقا في النتيجة إلا أن الشرع يحاسب الانسان على اتباع الوحي لا على اتباع العقول، ويعتبر اتباع تشريعات البشر اتباعا للهوى.

الشورى، قاتلهم الله أنى يؤفكون، مع أن أبسط نظرة تقول أن الإسلام لا بد أن يكون مصدره الوحي، لقول الله تعالى: [قل إنما أنذركم بالوحي]، فخص النذارة بأن يكون مصدرها الوحي، فهي صيغة حصر، [قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي]، [إِنْ أَتَّبِعُ إلا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ] ، فالأفكار التي تدخل في حضارة الأمة وتسيير أعمال المسلم، يجب أن يكون مصدرها الوحي لتعتبر إسلاما أي من الإسلام، وما سوى الإسلام هو الكفر، فأخطأ أقوام باعتبار المرء يخرج من الإيمان إلى الإسلام.

كما لا بد من ملاحظة أن المرء يقوم بالتصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل ثم يأتي بفعل كفر يخرج به من دائرة الايمان إلى الكفر، فالزاوية التي ننظر إليه منها غاية في الأهمية.

ومن الزوايا الدقيقة التي ينبغي الوقوف عليها حال البحث في مسألة الإيمان: أن في الأعمال نواحي تدخل في الاعتقاد، فصلت في بيانها في باب: هل فرض الله الفرائض ولم يرد منا عملها؟

وبالمقابل بحثت في العمل والحب وما شابه من أركان وضعها العلماء الذين رأوا هذه الأركان داخلة في تعريف الإيمان وأثبت أنها شروط كمال لا شروط صحة، وأثرت إشكاليات ومسائل وأدلة لأحاول الوصول إلى الفهم

الدقيق، وفرقت بين محض الإيمان والإيمان الحق، أي كمال الإيمان بانضمام العمل إليه.

وبحثت في تبعض الإيمان، وفي أدلة الاعتقاد، وفي قواعد التكفير، وأثبت أن الإيمان يجب أن يبنى على أدلة قطعية، وأتبعت هذا الكتاب بجزء ثالث ناقشت فيه حجية أخبار الآحاد في العقيدة، وخصصت بحثاً لأحاديث الصحيحين، وناقشت فكرة إجماع الأمة وتلقيها بالقبول وهل يفيد ذلك العلم أم لا؟ وأسميته أدلة الاعتقاد.

وقد قمت بحول الله بتفسير كثير من الآيات المتعلقة بهذه المواضيع تفسيراً فيه من الجدة ما يجعل من هذا البحث بحول الله تعالى تأصيلا جديداً لمفهوم جديد للإيمان في الكتاب والسنة.

وخلاصة البحث أنه يبحث في مفهوم الإيمان؛ واليقين؛ والدليل؛ والظن؛ والشك؛ والريب؛ وشروط صحة الاعتقاد.

لقد كان القرآن والحديث الصحيح عمدتي دائماً في الفصل بين المفاهيم، عملا بأمر الله [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً] ٥٩ النساء.

أجل هذه المصطلحات وهذه المفاهيم شرعية لا بد من بيان الفصل فيها من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ولهذا كان هذا البحث تدقيقاً لهذه المفاهيم أينما وردت في القرآن والسنة، ليتناسب النص بعضه مع بعض وليفسر بعضه بعضاً، والله المستعان.

وقد ترى في البحث طولا، وإعادة لبعض الأفكار، وكثرة استشهاد بأقوال العلماء، وكل ذلك لأن موضوع الإيمان ليس كأي موضوع، ولا مجال فيه إلا للدقيق من القول.

فلا بد من قراءة البحث حتى آخره لأن بعض الأفكار قد ترد في ثناياه تناقش بتفصيل في موضعها الذي يأتي لاحقاً، لغايات ترتيب البحث وسترى أن على كل فكرة فيه أدلة تثبتها، فإذا ما انتهيت منه اتضحت الصورة الجلية بحول الله تعالى للإيمان.

كما وأنوه إلى أن الكثير الكثير من المراجع قد تم تضمينها في مواضعها برابط يفضي إلى مواقعها في الشبكة العنكبوتية، فحيثما وجدت النص مظللا واستطعت أن تنقر على مفتاح ctrl مع النقر على الفأرة، فستصل إلى رابط النص مباشرة من الكتاب الأصلي، أو إلى مراجع إضافية تناولت الموضوع للتوسع عند الحاجة.

وبعد، فقد كَتب الآلاف قبلي في هذا الموضوع، فهل كان السبب في كتابة هذا البحث هو زيادة كتاب على هذه الآلاف المؤلفة؟ بالطبع لا، فإني أدعي أن فيه بحول الله طَرْقٌ نوعيٌّ جديدٌ للموضوع يستحق إن شاء الله أن يضاف إليها، وقد كان هذا الكتاب – يعلم الله – جهد المقل الذي أسأل الله تعالى عليه الثواب والأجر، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين وأن يجعله في ميزان حسناتنا وأن ينفعنا بما علمنا وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن يزيدنا علماً وعملا إنه سميع مجيب.

على أن أكثر ما صنف في موضوع الإيمان، كان فصلا من كتاب تناول موضوعات أخرى، أو كان يتناول الإيمان في ثنايا حديث ورد في مسألة يرد فيها كاتبه على رأي فرقة، أو يوضح رأيه فيها، فكان من المهم بمكان جمع أطراف الموضوع في كتاب واحد يستقصي الآراء المختلفة ويحللها ويعرضها على الكتاب والسنة.

ملاحظة: في ضمن النصوص المنقولة عن الغير، حيثما تجد كلاما بين قوسين هكذا [ ]، يكون الكلام داخلهما لي، تعليقاً على الكلام في موضعه وليس الكلام داخلهما من النص الأصلي لذا اقتضى التنويه.

ويقتضي التنويه كذلك أن هذا البحث جهد بشر قابل للخطأ، ومن حق المسلم على أخيه أن ينصح له، فأرجو في حال إبداء الآراء ونقد الأفكار الواردة فيه أن ترسل إلي على العنوان الإلكتروني أدناه، email:

mailto: abu_malek_١@hotmail.com

imammalek@hotmail.com

رمضان ١٤٢٦هـ.

مقدمة الطبعة الثالثة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد، فقد من الله علي بوقت استطعت فيه مراجعة مادة الكتاب، ووجدت غموضا اكتنف مفاهيم المعرفة والإقرار، وعلاقة التصديق بالتكذيب، وغيرها من القضايا، ثم أبحرت في التنقيب عما يجلي هذه المفاهيم، فإذ بمادة الكتاب تتوسع، وتدق ويزال الغبار عن كثير مما علق به ولله الحمد وله الفضل والمنة، فالآن أزعم أن من يقرأه إن شاء الله سيقع على مفاهيم جلية واضحة مدعمة بالأدلة.

ثم إني رأيت أن علي أن أوضح أمرًا مهما في هذه المقدمة، وهو أن الدارس لهذا الكتاب يرى أنه يكثر من عرض آراء الإمام العلامة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحراني عليه رحمة الله تعالى، ففي كل مسألة تقريبا من مسائل الكتاب، تدارست آراء العلماء، وأفردت لآرائه أبوابا خاصة بها، وذلك لأن لآرائه اعتبارا مهما في قضايا الإيمان حرية بأن تدرس، وأن تحقق، كما وأني لاحظت من قراءاتي في كتب الإمام ابن تيمية رحمه الله أن كثيرًا من القضايا له فيها أكثر من رأي، في مواضع مختلفة من كتبه، فلعل فيها المتقدم والمتأخر، لعل فيها ما يناسب المقام، فأن تستخرج منها رأيا قطعيا تنسبه إليه، أمر بحاجة إلى تحقيق، وقد واجهت صعوبة في التحقق من رأيه – رحمه الله – في بعض القضايا لهذا السبب، كما وأني أدعي أن بعض الآراء

المنسوبة إليه في كتبه، تحتاج لتحقيق، فهذه دعوة للبحاثة في التحقيق في ما ينسب إليه من آراء بعرضها بعضها على بعض، في ذات القضية، مع استدلالاته، وعرضها على الكتاب والسنة، لتنقية كتبه من الشوائب[٣].

وعلى كل، ففي كل قضية عرضت آراءه – عليه واسع رحمة الله – على القرآن والسنة، وعلى فهم العلماء، وعلى بعض آرائه هو في مواضع أخرى من كتبه، لأبين ما أراه الحق في تلك القضايا، وأحيانا وجدت رأيه هو الصواب، فلم أتعامل مع آرائه بآراء مسبقة حول الصواب والخطأ في تلكم القضايا، فالله يشهد بأني أُجلُّ هذا العالم كثيرا، مع أني لا أوافقه في آراء كثيرة جدا.

وأنا أزعم، أن إحدى الآفات الخطيرة في البحث في القضايا الكبرى، تناوُلها من زاوية مذهبية أو فِرَقِيَّةٍ ضيقة، تحجب الباحث عن نور كثير من الحق لدى هذا العالم أو ذاك، فترى المنتسب للسلفية اليوم مثلا يهرق دم كل ما صدر عن السادة الأشاعرة، وليته يدري أنه بذا يشطب على كبار كبار علماء الأمة وآرائهم، وبالمثل يحجب بحاثة من مذاهب أخرى على تراث

---

٣) كان له رحمه الله الكثير من الأعداء ولا يستبعد أنهم دسوا عليه بعض الآراء في كتبه هنا أو هناك، لذا كان لا بد من التحقيق في مفاهيمه حول الأفكار المعينة، وعرض أفكاره بعضها على بعض وعلى الكتاب والسنة، والخروج برأي راجح يمثل رأيه فيها.

عظيم كتراث ابن تيمية، للخلاف القديم الجديد بينهما، أو لأنه يرى خطأ موقف ابن تيمية من قضايا الصفات مثلا، فتراه لا ينظر فيما يقول في قضايا أخرى أبدع فيها رحمه اللّه تعالى.

وهذا كله ما اجتنبته كل الاجتناب في هذا البحث، لأني لا أعرف الحق بالرجال، وإنما أعرف الرجال بالحق، وميزان الحق لدي هو العرض على الكتاب والسنة، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم.

ثم إن النقاش في هذا الكتاب، موجه بشكل كبير إلى أتباع "التيار السلفي" هذا الأيام، لنقف وإياهم على الحق، نلزمه ولا نتبع غيره، فستجد فيه نقاشا مستفيضا للقضايا الكبرى مثل علاقة الإيمان بالعمل، وتعريف الإيمان، وما شاكلها، عارضا آراء العلماء فيها، باحثا عن إلزاماتهم، واعتراضاتهم، وأدلتهم، وحججهم، ومن ثم مرجحا أحد الرأيين على الثاني بالأدلة. والحمد للّه رب العالمين. رمضان ١٤٣٠هـ.

بين يدي اللغة:

الايمان: قال في اللسان: و الأَمْنُ ضدُّ الخوف. و الأمانةُ ضدُّ الخِيانة. و الإيمانُ ضدُّ الكفر. و الإيمان بمعنى التصديق، ضدُّه التكذيب. يقال: آمَنَ به قومٌ وكذَّب به قومٌ، فأما آمَنْتُه المتعدي فهو ضدُّ أَخَفْتُه. وفي التنزيل العزيز: [وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ]. و آمَنَ بالشيء: صَدَّقَ وأَمِنَ كَذِبَ مَنْ أخبره. وحدَّ الزجاجُ الإيمانَ فقال: الإيمانُ إظهارُ الخضوع والقبولِ للشَّريعة ولِما أَتَى به النبيُّ عليه السلام، واعتقادُه وتصديقُه بالقلب، فمن كان على هذه الصِّفة فهو مُؤْمِنٌ مُسْلِم غير مُرْتابٍ ولا شاكٍّ، وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجبٌ عليه لا يدخله في ذلك ريبٌ. وفي التنزيل العزيز: [وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا] أي بمُصدِّقٍ. والإيمانُ التصديقُ. وقال الله تعالى حكاية عن إخْوة يوسف لأَبيهم: [وما أنت بمُؤْمِنٍ لنا ولو كُنّا صادقين] لم يختلف أهل التفسير أنّ معناه ما أنت بمُصدِّقٍ لنا، والأَصلُ في الإيمان الدخولُ في صِدْقِ الأَمانةِ التي ائْتَمَنه الله عليها، فإذا اعتقد التصديقَ بقلبه كما صدَّقَ بِلِسانِه فقد أدّى الأَمانةَ وهو مؤمنٌ، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤدٍّ للأَمانة التي ائتمنه الله عليها، وهو مُنافِقٌ.

والاعتقاد: جاء في اللسان: العَقْد نقيض الحَلّ؛ واعتَقَدَه كعَقَدَه واعتقدَ الشيءُ: صَلُبَ واشتد. وقال في محيط المحيط: الاعتقاد مصدر اعتقد وهو

يُطلَق على التصديق مطلقًا أعمَّ من أن يكـون جازمًـا أو غيـر جـازم مطابقًـا أو غير مطابقٍ ثابتًا أو غير ثابت وهذا متبادل مشـهور. وقـد يقـال لأحـد قسـمي العِلْم وهو اليقين.

وقيـل الاعتقـاد اطمئْنـان القلـوب علـى شـيءٍ مـا يجـوز أن ينحـلَّ عنـهُ ج اعتقادات.

وقال في الموسوعة الفقهية الكويتيـة: (اعْتِقَـادٌ) التَّعْرِيـفُ: ١ - الِاعْتِقَـادُ لُغَـةً: مَصْـدَرُ اعْتَقَـدَ. وَاعْتَقَـدْت كَـذَا: عَقَـدْت عَلَيْـهِ الْقَلْـبَ وَالضَّـمِيرَ، وَقِيـلَ: الْعَقِيدَةُ، مَا يَدِينُ الْإِنْسَانُ بِهِ. وَاصْطِلَاحًا: يُطْلَقُ الِاعْتِقَادُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: الْـأَوَّلُ: التَّصْدِيقُ مُطْلَقًا، أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ جَازِمًا أَوْ غَيْرَ جَازِمٍ، مُطَابِقًا أَوْ غَيْرَ مُطَـابِقٍ، ثَابِتًا أَوْ غَيْرَ ثَابِتٍ. الثَّانِي: أَحَدُ أَقْسَـامِ الْعِلْـمِ، وَهُـوَ الْيَقِـينُ، وَسَـيَأْتِي تَعْرِيفُـهُ. الْعِلْـمُ: ٣ - يُطْلَـقُ الْعِلْـمُ عَلَـى مَعَـانٍ: مِنْهَـا الْـإِدْرَاكُ مُطْلَقًـا، تَصَـوُّرًا كَـانَ أَوْ تَصْدِيقًا، يَقِينِيًّا أَوْ غَيْرَ يَقِينِيٍّ. وَبِهَذَا الْمَعْنَـى يَكُـونُ الْعِلْـمُ أَعَـمَّ مِـنْ الِاعْتِقَـادِ مُطْلَقًا. وَمِنْ مَعَانِي الْعِلْمِ الْيَقِـينُ، وَبِهَـذَا الْمَعْنَـى يَكُـونُ الْعِلْـمُ أَخَـصَّ مِـنْ الِاعْتِقَادِ بِالْمَعْنَى الْأَوَّلِ، وَمُسَاوِيًا لَهُ بِـالْمَعْنَى الثَّـانِي، أَيْ الْيَقِـينِ. ج - الْيَقِـينُ فِي اللُّغَةِ: الْعِلْمُ الَّذِي لَا شَـكَّ فِيـهِ. الْيَقِـينُ: ٤ - الْيَقِـينُ هُـوَ الِاعْتِقَـادُ الْجَـازِمُ الْمُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ الثَّابِتِ، أَيْ الَّذِي لَا يَقْبَلُ التَّشْكِيكَ. وَيُعَرِّفُهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ عِلْـمٌ يُورِثُ سُكُونَ النَّفْسِ وَثَلْجَ الصَّدْرِ بِمَا عَلِمَ، بَعْدَ حَيْـرَةٍ وَشَـكٍّ. وَالْيَقِـينُ أَخَـصُّ

مِنْ الْعِلْمِ، وَمِنْ الِاعْتِقَادِ. وَفِي الِاصْطِلَاحِ: اعْتِقَادُ الشَّيْءِ بِأَنَّهُ كَذَا، مَعَ اعْتِقَادِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِلَّا كَذَا، مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ غَيْر مُمْكِنِ الزَّوَالِ.

٥ - الظَّنُّ: هُوَ إِدْرَاكُ الطَّرَفِ الرَّاجِحِ مَعَ احْتِمَالِ النَّقِيضِ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الْيَقِينِ وَالشَّكِّ، تَجَوُّزًا. فَالظَّنُّ مُبَايِنٌ لِلِاعْتِقَادِ بِمَعْنَى الْيَقِينِ. الظَّنُّ هُوَ الِاعْتِقَادُ الرَّاجِحُ مَعَ احْتِمَالِ النَّقِيضِ، وَيُسْتَعْمَلُ أَيْضًا فِي الْيَقِينِ وَالشَّكِّ. وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ الْوَهْمَ الطَّرَفُ الْمَرْجُوحُ مُطْلَقًا وَقِيلَ: الظَّنُّ أَحَدُ طَرَفَيْ الشَّكِّ بِصِفَةِ الرُّجْحَانِ وَقِيلَ: الظَّنُّ الطَّرَفُ الرَّاجِحُ الْمُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ، الْوَهْمُ: الطَّرَفُ الرَّاجِحُ غَيْرُ الْمُطَابِقِ لِلْوَاقِعِ. (الْحُكْمُ الْإِجْمَالِيُّ):

٦ - يَعْرِضُ لِحُكْمِ الِاعْتِقَادِ وُجُوهٌ: أ - بِالنِّسْبَةِ لِلصِّحَّةِ وَالْفَسَادِ: يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ، صَحِيحٌ وَفَاسِدٌ. فَالِاعْتِقَادُ الصَّحِيحُ، هُوَ مَا طَابَقَ الْوَاقِعَ، كَاعْتِقَادِ أَنَّ صَلَاةَ الضُّحَى مَنْدُوبَةٌ. وَالِاعْتِقَادُ الْفَاسِدُ هُوَ غَيْرُ الْمُطَابِقِ لِلْوَاقِعِ، كَاعْتِقَادِ الْفَلَاسِفَةِ أَنَّ الْعَالَمَ قَدِيمٌ. ب - بِالنِّسْبَةِ لِلْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ: لَا يَجُوزُ اعْتِقَادُ حُكْمٍ مِنْ الْأَحْكَامِ الْخَمْسَةِ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ فَرْضِيَّةٍ أَوْ سُنِّيَّةٍ أَوْ إِبَاحَةٍ أَوْ كَرَاهَةٍ أَوْ تَحْرِيمٍ، فَاعْتِقَادُ إِبَاحَةِ الْمُبَاحِ وَاجِبٌ مَثَلًا، فَلَوْ اعْتَقَدَهُ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فَذَلِكَ خَطَأٌ. وَيَتَعَلَّقُ الْإِثْمُ بِذَلِكَ الْخَطَأِ فِي الْأُمُورِ الْمَعْلُومَةِ مِنْ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، وَمَا عَدَاهَا فَيُعْذَرُ بِالْجَهْلِ وَالْخَطَأِ فِيهَا، إِذَا أَخْطَأَ فِي الِاجْتِهَادِ، أَوْ أَخْطَأَ مُقَلِّدُهُ تَبَعًا لَهُ.

٤ - الشَّكُّ هُوَ التَّرَدُّدُ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ بِلَا تَرْجِيحٍ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ عِنْدَ الشَّاكِّ وَقِيلَ: الشَّكُّ مَا اسْتَوَى طَرَفَاهُ، وَهُوَ الْوُقُوفُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ لَا يَمِيلُ الْقَلْبُ إِلَى أَحَدِهِمَا، فَإِذَا تَرَجَّحَ أَحَدُهُمَا وَلَمْ يُطْرَحْ الْآخَرُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْيَقِينِ.

والجزم قال في اللسان: الجَزْمُ القطع. جَزَمْتُ الشيءَ أَجْزِمُه جَزْماً قطعته. وكل أمر قطعته قطعاً لا عَوْدَةَ فيه، فقد جَزَمْتَه... والمُطابَقةُ المُوافَقة. و التَّطابُق الاتفاق. وطابَقْتُ بين الشيئين إذا جعلتهما على حَذْو واحد وألزقتهما. وهذا الشيءُ وَفْقُ هذا ووِفاقُه... والدَّلِيل ما يُسْتَدَلُّ به. والدَّلِيل: الدَّالُّ.

إِقْرَارُ التَّعْرِيفُ ١ - مِنْ مَعَانِي الْإِقْرَارِ فِي اللُّغَةِ: الِاعْتِرَافُ. يُقَالُ: أَقَرَّ بِالْحَقِّ إِذَا اعْتَرَفَ بِهِ. وَفِي اصْطِلَاحِ الْفُقَهَاءِ، الْإِقْرَارُ: هُوَ الْإِخْبَارُ عَنْ ثُبُوتِ حَقٍّ لِلْغَيْرِ عَلَى الْمُخْبِرِ، وَهَذَا تَعْرِيفُ الْجُمْهُورِ. وَذَهَبَ بَعْضُ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى أَنَّهُ إِنْشَاءٌ، وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّهُ إِخْبَارٌ مِنْ وَجْهٍ، وَإِنْشَاءٌ مِنْ وَجْهٍ. وَالْإِقْرَارُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْأُصُولِيِّينَ هُوَ: عَدَمُ الْإِنْكَارِ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ صدرَ أمامَهُ. ب - (الْإِنْكَارُ): ٣ - الْإِنْكَارُ: ضِدُّ الْإِقْرَارِ. يُقَالُ فِي اللُّغَةِ: أَنْكَرْت حَقَّهُ: إِذَا جَحَدْتَه. وَلَا يَخْرُجُ الْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيُّ عَنْ الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ.

قال الكشميري[٤] : الإيمانُ وَمَعْنَاهُ اللُّغوي: الإيمان في اللغة: عبارة عن التّصديق، وقد يجيءُ بمعنى الوثُوق، لأنه إفعال من الأمن، وهمزة الإفعال إذا دخلت على الفعل المتعدي، فإما أنْ يعديه إلى مفعولٍ ثانٍ، أو يجعله لازماً على معنى الصَّيرورة؛ فالأول، أي التَّصديق، منقولٌ من الأفعال المتعدية، يقال: آمنته فلاناً، أي جعلتُه آمناً منه، وآمَنْته غيري، أي جعلت غيري آمناً منه، وكلا المعنيين اللغويين، معنيان حقيقيان لِلَفظ الإيمان، وُضِعَ أولاً لجعل الشيء أمناً من أمر، ثم وُضِع ثانياً لمعنىً يناسبه وهو التَّصديق، فإنك إذا صَدَّقْتَ المخبر فقد أمنته من تكذيبكَ إياه. وتعدِيتُهُ بالباء لتضمِينه معنى الاعتراف، فإنك إذا صدَّقت شيئاً فقد اعترفت به.

والمعنى الثاني منقول من الأفعال اللازمة، بمعنى صار ذَا أمن، فيتعدى بالباء، ليقال: آمن به، أي وثِقَ به، لأن الواثِقَ بالشيء صار ذا أمنٍ منه، وحينئذٍ لا يحتاج إلى التَّضمين. وأضاف الحافظ ابن تيمية رحمه الله تعالى على معناه اللغوي، فبدأ قيداً آخر، وقال: إن الإيمان اسم للتَّصديق بالمغيبات خاصة، ولا يطلق الإيمان على غير ذلك[٥]، فلا يقال: آمنت بذلك في جواب من قال: السماء فوقنا، ولذا قال تعالى: [يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ] البقرة٣، فقيَّد الإيمانَ

---

٤) محمد أنور شاه الكشميري المحدث الكبير والفقيه المحقق الحجة المولود سنة ١٢٩٢ والمتوفى سنة ١٣٥٢ رحمه الله تعالى

٥) الايمان متعلق بما يحتاج الى أدلة تزيح عن مطالبه الخبرية الشك، من ذلك الايمان بالغيب.

بالغيبِ، لأنه لا يتعلق إلا به، وقال: إن الإيمانَ هو تصديق السامعِ للمخاطب، واثِقَاً بأمانته، ومعتمداً على دِيانته.

وأصلُ الإيمان تبجيل الذاتِ وتعظيمها، ثم استعمل في التصديق مطلقاً، ويتعلق بالذوات والأخبار. فإن تَعَلَّقَ بالذات يُؤْتَى بالباء في صِلته، وإن تعلق بالأخبار فباللام لتضمينه معنى الإقرار، وعليه قوله تعالى [وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا] يوسف ١٧ أي بمقر لنا، ولم يقولوا: بنا، لأن المرادَ التصديق بخبرهم دونَ ذَوَاتِهِم، وفي خلافه يكون التَّضمين، ولم نجد تعديتُهُ بعلى إلا ما عند مسلم: (ما مِنْ نبيَ إلا أُتِي من الآيات ما مثلُهُ آمن عليه البشرُ) أي آمن معتمداً عليه البشر. ثم الكفر لغةً: الستر وجَحْدُ النِّعمة وتناسيها، وحينئذٍ لم يبق التقابل بين الإيمان والكفر لغة إلا باعتبار اللازم، فإنّ جحود النعمةِ والتناسي لا يجتمع مع التَّصديق بأحد، وتصديقه لا يجتمع معه جحود نُعمتِهِ، وأما ضِدُّه الصريح فهو الخيانة، كما أن ضِدُّ الكفر هو الشكر.[٦]

---

٦) الكشميري في فيض الباري شرح صحيح البخاري كتاب الإيمان

نحت التعريف (الحد) الجامع المانع للإيمان:

الباب الأول: نحت الحد:

سنشرح بالتفصيل كيف ننحت التعريف الجامع المانع، ولعل هذا الفصل هو أصعب فصول الكتاب، ولا يضير أن لا تحيط به، وملخصه ما يلي:

لدينا أن التعريف حد يوجد المحدود دائما بوجوده، وكلما انتفى الحد انتفى المحدود. ولا بد أن يكون الحد جامعا مانعا، يجمع سائر أفراد المحدود ويمنع غيرها من الدخول في الحد؛ والقصد منه التمييز بين الشيء وبين غيره،

أي الفصل بين الشيء وغيره بوضع اليد على خاصية الشيء أو حقيقة الشيء التي بها يقع الفصل بينه وبين غيره.

فإن كان الغرض من وضع الحد هل هو لحصر الذاتيات؟ أم مجرد التمييز؟ اختلف الحد بناء على الغاية منه،

فالتعريف إما أن يدل على ماهية الشيء، فيميزها عن غيرها من الماهيات تمييزا يجعل الذهن ينصرف إلى تلك الحقيقة إذا ما ذكر التعريف، أو يدلنا

على خاصية الشيء، وهو هنا ليس بالضرورة أن يميز لنا الشيء، وذلك بحسب الموضوع المبحوث أهو حقيقة الشيء؟ أم خصائصه؟

وقد يكون لشرح حقيقة الشيء، شرحا يُكتَفى فيه باستقصاء ما يتبادر إلى الذهن من خواص الشيء التي تميز بها عن غيره، أو يجمع بين عوارض الشيء ولوازمه، بحيث يجمع أجزاء الشيء ويمنع غيرها من الدخول فيه،

أو يكون الهدف معرفة ماهية الشيء وحقيقة ذاته بشكل يفضي إلى تمييز الشيء عن غيره.

وبناء على ذلك تنقسم الحدود إلى حد لفظي، وحد رسمي، وحد حقيقي.

وعلى من يبتغي اقتناص الحد أي نحت التعريف أن يميز بين عوارض الشيء ولوازمه،

وأن يميز بين الصفات الذاتية والعرضية، وأن يميز بين الفصول والأجناس،

ونرى ما يمكن أن ينفصل عن الشيء دون أن ينتج عن تصور مفارقته للشيء ما يخل بتصور كنه الشيء وحقيقته، ونبقي على الصفات الذاتية التي لا يتصور انفصالها، لنقتنص الحد.

وتفصيل ذلك كله ما يلي:

كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلْ الْإِيمَانَ فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا. البخاري.

قال الإمام السرخسي شمس الأئمة رحمه الله في المبسوط: الحد في اللغة هو المنع، وسمي اللفظ الجامع المانع حداً، لأنه يجمع معاني الشيء ويمنع دخول غيره فيه، فسميت العقوبات حدوداً لكونها مانعةً من ارتكاب أسبابها.[٧]

وقال ابن نجيم: الحد في اللغة المنع ومنه سمي البواب حداداً لمنعه الناس عن الدخول، والسجان حداداً لمنعه عن الخروج، وحدود الديار نهاياتها لمنعها عن دخول ملك الغير فيها وخروج بعضها إليه، وسمي اللفظ الجامع المانع حداً لأنه يجمع معنى الشيء ويمنع دخول غيره فيه.[٨]

وفي شرح الوقاية: ويُسمى التعريفُ الجَامِعُ المانعُ حداً لأنه يجمعُ معاني الشيء ويمنعُ دخولَ غيرِه فيه.[٩]

---

٧) المبسوط لشمس الأئمة السرخسي كتاب الحدود

٨) البحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم. كتاب الحدود

٩) شرح الوقاية في الفقه الحنفي. كتاب الحدود.

وقال المناوي: التعريف اللفظي أن يكون اللفظ واضح الدلالة على معنى فيفسر بلفظ أوضح دلالة على ذلك المعنى كالغضنفر للأسد وليس هذا تعريفا حقيقيا يراد به إفادة تصور غير حاصل وإنما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين جميع المعاني. التعريف الحقيقي أن يكون حقيقة ما وضع اللفظ بإزائه من حيث هي فيعرف بغيرها.[١٠]

سأقوم بشرح مفهوم الحد، ناقلا عن كتب أصول الفقه، ومبينا، ثم في نهاية الكتاب أضع ملحقا فيه ثبت النقولات من مصادرها إن شاء اللّه: قال الزركشي: "[شُرُوطُ صِحَّةِ الْحَدِّ] وَأَمَّا شُرُوطُ صِحَّتِهِ: فَمِنْهَا مَا يَرْجِعُ إلَى اللَّفْظِ، وَمِنْهَا مَا يَرْجِعُ إلَى الْمَعْنَى. فَمِنْ الْمَعْنَوِيَّةِ أَنْ يَكُونَ جَامِعًا لِسَائِرِ أَفْرَادِ الْمَحْدُودِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ: الِاطِّرَادُ، وَمَانِعًا عَنْ دُخُولِ غَيْرِ الْمَحْدُودِ فِي الْحَدِّ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ: الِانْعِكَاسُ. قَالَهُ الْقَرَافِيُّ. وَقَالَ الْغَزَالِيُّ، وَابْنُ الْحَاجِبِ: الْمُطَّرِدُ هُوَ الْمَانِعُ وَالْمُنْعَكِسُ هُوَ الْجَامِعُ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ أَوْفَقُ لِلِاسْتِعْمَالِ اللُّغَوِيِّ.

وقولنا أنه شرط: يعني أنه: لَمْ يَلْزَمْ مِنْ وُجُودِهِ صِحَّةُ الْحَدِّ، وَيَلْزَمُ مِنْ الِانْتِفَاءِ الْفَسَادُ."

---

١٠) المناوي في التوقيف على مهمات التعريف

جاء في شرح الكوكب المنير: "شَرْطُ الْحَدِّ الصَّحِيحِ (أَنْ يَكُونَ مُطَّرِدًا وَهُوَ) أَيْ وَالْمُطَّرِدُ هُوَ (الْمَانِعُ) وَالْمَانِعُ هُوَ الَّذِي (كُلَّمَا وُجِدَ) الْحَدُّ (وُجِدَ الْمَحْدُودُ) وَأَنْ يَكُونَ أَيْضًا (مُنْعَكِسًا وَهُوَ) أَيْ الْمُنْعَكِسُ هُوَ (الْجَامِعُ) الَّذِي (كُلَّمَا وُجِدَ الْمَحْدُودُ وُجِدَ) الْحَدُّ فَإِنَّهُ عَكْسُ الِاطِّرَادِ الَّذِي هُوَ كُلَّمَا وُجِدَ الْحَدُّ وُجِدَ الْمَحْدُودُ (وَيَلْزَمُ) مِنْ ذَلِكَ (أَنَّهُ كُلَّمَا انْتَفَى الْحَدُّ انْتَفَى الْمَحْدُودُ) قَالَ فِي شَرْحِ التَّحْرِيرِ: وَفَسَّرَهُ ابْنُ الْحَاجِبِ وَغَيْرُهُ بِلَازِمِهِ. فَقَالَ: الْمُنْعَكِسُ كُلَّمَا انْتَفَى الْحَدُّ انْتَفَى الْمَحْدُودُ. وَالتَّحْقِيقُ الْأَوَّلُ".

الْقَصْدَ مِنْ الْحَدِّ التَّمْيِيزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ الْأَنْصَارِيُّ فِي "شَرْحِ الْإِرْشَادِ": قَالَ إمَامُ الْحَرَمَيْنِ: الْقَصْدُ مِنْ التَّحْدِيدِ فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَكَلِّمِينَ: الْفَرْقُ بِخَاصَّةِ الشَّيْءِ وَحَقِيقَتِهِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْفَصْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ. ا هـ.

وقال الزركشي: "حقيقة الحد: فَالْقَوْلُ الدَّالُّ عَلَى مَاهِيَّةِ الشَّيْءِ. وَقِيلَ: خَاصِّيَّةُ الشَّيْءِ عَلَى الْخِلَافِ فِي تَفْسِيرِ مَا هُوَ الْغَرَضُ بِالْحَدِّ؟ هَلْ حَصْرُ الذَّاتِيَّاتِ أَوْ مُجَرَّدُ التَّمْيِيزِ كَيْفَ اتَّفَقَ؟ أَوْ الشَّرْطُ أَنْ يَكُونَ لِوَصْفٍ خَاصٍّ؟."

قال الغزالي في المستصفى: "الْمَطْلَبُ الثَّانِي: مَا يُطْلَبُ بِصِيغَةِ " مَا ". وَيُطْلَقُ لِطَلَبِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يُطْلَبَ بِهِ شَرْحُ اللَّفْظِ كَمَا يَقُولُ مَنْ لَا يَدْرِي الْعُقَارَ: مَا الْعُقَارُ؟ فَيُقَالُ لَهُ: الْخَمْرُ، إذَا كَانَ يَعْرِفُ لَفْظَ الْخَمْرِ، الثَّانِي: أَنْ يُطْلَبَ لَفْظٌ مُحَرَّرٌ جَامِعٌ

مَانِعٌ يَتَمَيَّزُ بِهِ الْمَسْئُولُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِهِ كَيْفَمَا كَانَ الْكَلَامُ سَوَاءٌ كَانَ عِبَارَةً عَنْ عَوَارِضِ ذَاتِهِ وَلَوَازِمِهِ الْبَعِيدَةِ عَنْ حَقِيقَةِ ذَاتِهِ أَوْ حَقِيقَةِ ذَاتِهِ كَمَا سَيَأْتِي الْفَرْقُ بَيْنَ الذَّاتِيِّ وَالْعَرَضِيِّ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ: مَا الْخَمْرُ؟ فَيُقَالُ: هُوَ الْمَائِعُ الَّذِي يَقْذِفُ بِالزَّبَدِ ثُمَّ يَسْتَحِيلُ إلَى الْحُمُوضَةِ وَيُحْفَظُ فِي الدَّنِّ.

وَالْمَقْصُودُ أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِحَقِيقَةِ ذَاتِهِ بَلْ يُجْمَعُ مِنْ عَوَارِضِهِ وَلَوَازِمِهِ مَا يُسَاوِي بِجُمْلَتِهِ الْخَمْرَ بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ خَمْرٌ وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ مَا لَيْسَ بِخَمْرٍ.

وَالثَّالِثُ: أَنْ يُطْلَبَ بِهِ مَاهِيَّةُ الشَّيْءِ وَحَقِيقَةُ ذَاتِهِ، كَمَنْ يَقُولُ: مَا الْخَمْرُ؟ فَيُقَالُ: هُوَ شَرَابٌ مُسْكِرٌ مُعْتَصَرٌ مِنْ الْعِنَبِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ كَاشِفًا عَنْ حَقِيقَتِهِ ثُمَّ يَتْبَعُهُ لَا مَحَالَةَ التَّمْيِيزُ.

وَاسْمُ الْحَدِّ فِي الْعَادَةِ. يُطْلَقُ عَلَى هَذِهِ الْأَوْجُهِ الثَّلَاثَةِ بِالِاشْتِرَاكِ،

فَلْنَخْتَرِعْ لِكُلِّ وَاحِدٍ اسْمًا، وَلْنُسَمِّ الْأَوَّلَ حَدًّا لَفْظِيًّا إذْ السَّائِلُ لَا يَطْلُبُ بِهِ إلَّا شَرْحَ اللَّفْظِ، وَلْنُسَمِّ الثَّانِيَ حَدًّا رَسْمِيًّا إذْ هُوَ مَطْلَبٌ مُرْتَسِمٌ بِالْعِلْمِ غَيْرُ مُتَشَوِّفٍ إلَى دَرْكِ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ، وَلِنُسَمِّ الثَّالِثَ حَدًّا حَقِيقِيًّا إذْ مَطْلَبُ الطَّالِبِ مِنْهُ دَرْكُ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ، وَهَذَا الثَّالِثُ شَرْطُهُ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى جَمِيعِ ذَاتِيَّاتِ الشَّيْءِ،"

إذن نتنبه إلى أن التعريف الحقيقي للشيء يأتي جوابا على سؤال ما هو؟

إذن فالمطلوب من التعريف أن يميز لنا بين الشيء وبين غيره، إذا كان المطلوب هو معرفة حقيقة أو ماهية الشيء،

قَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو مَنْصُورٍ: "الْحَدُّ وَالْحَقِيقَةُ عِنْدَنَا بِمَعْنًى؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الشَّيْءِ مَانِعَةٌ لَهُ مِنْ الِالْتِبَاسِ بِغَيْرِهِ نَاطِقَةٌ بِمَا لَيْس مِنْهُ مِنْ الدُّخُولِ فِي حُكْمِهِ"

وقال الزركشي:: "فَالْحَقِيقِيُّ هُوَ مَا اشْتَمَلَ عَلَى مُقَوِّمَاتِ الشَّيْءِ الْمُشْتَرَكَةِ وَالْخَاصَّةِ. وَالرَّسْمِيُّ مَا اشْتَمَلَ عَلَى عَوَارِضِهِ وَخَوَاصِّهِ اللَّازِمَةِ. "

ولنحت التعريف فن، عبروا عنه: باقتناص الحد، يكون كما يلي:

قال الزركشي: "أَنْ تَجْمَعَ الْأَوْصَافُ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ تُحْمَلَ عَلَى الشَّيْءِ الْمَحْدُودِ كُلُّهَا، ثُمَّ تَنْظُرَ مَا فِيهَا ذَاتِيٌّ وَمَا فِيهَا عَرَضِيٌّ، فَتَطْرَحَ الْعَرَضِيَّ، ثُمَّ تَرْجِعَ إلَى الذَّاتِيِّ فَتَأْخُذَ مِنْهَا الْمَقُولَ فِي جَوَابِ مَا هُوَ؟

فَتَجْمَعَهَا كُلَّهَا، ثُمَّ تَطرَحَ الْأَعَمَّ فَالْأَعَمَّ حَتَّى تَنْتَهِيَ إلَى الْجِنْسِ الْأَقْرَبِ، ثُمَّ تَرْجِعَ إلَى الْفُصُولِ فَتَجْمَعَهَا أَيْضًا كُلَّهَا، ثُمَّ تَطْرَحَ الْأَبْعَدَ فَالْأَبْعَدَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إلَى الْفَصْلِ الْقَرِيبِ جِدًّا، وَحِينَئِذٍ فَيَكْمُلُ"

إذن: فلدينا علائق كثيرة يظن أنها تتعلق بماهية معينة، من هذه العلائق، ما يسمى بالأجناس، ومنها الفصول، منها ما هو ذاتي ومنها ما هو عرضي، فما هو معنى هذه المصطلحات؟

قال الآمدي عن الاسم: "على كل تقدير إما أن يكون ذاتياً للمشتركات فيه أو عرضياً.

فإن كان ذاتياً فالمشتركات فيه إما أن تكون مختلفة بالذوات أو بالعرض:

فإن كان الأول فإما أن يقال عليها في جواب ما هي فهو الجنس أو لا يقال كذلك فهو ذاتي مشترك إما جنس جنس أو فصل جنس، وإن كانت مختلفة بالعرض فإما أن يقال عليها في جواب ما أو لا والأول هو النوع والثاني هو فصل النوع".

فالمقصود هنا: الجنس والفصل، عبر الآمدي عن مرادنا بالجنس بمسمى: الجنس.

وعن مرادنا بالفصل بأنواع أربعة: بجنس الجنس، وفصل الجنس، وبالنوع، وبفصل النوع.

لو قلنا مثلاً: الإنسان حيوان كاتب، فالذات هي الجنس، والصفة التي هي الكاتب: هي الفصل.

ومثلا: لو قلنا: الحيوان الأبيض، فالحيوان جنس، والأبيض: فصل، إذ أنه به يتميز عن الحيوان الأسود، فالماهية إذن تركبت منهما: من الجنس والفصل.

قال الغزالي: "الْقَانُونُ الثَّانِي: أَنَّ الْحَادَّ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِالْفَرْقِ بَيْنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ وَاللَّازِمَةِ وَالْعَرَضِيَّةِ،

وَذَلِكَ غَامِضٌ فَلَا بُدَّ مِنْ بَيَانِهِ

فَنَقُولُ: الْمَعْنَى إذَا نُسِبَ إلَى الْمَعْنَى الَّذِي يُمْكِنُ وَصْفُهُ بِهِ وُجِدَ بِالْإِضَافَةِ إلَى الْمَوْصُوفِ، إمَّا ذَاتِيًّا لَهُ وَيُسَمَّى صِفَةَ نَفْسٍ، وَإِمَّا لَازِمًا وَيُسَمَّى تَابِعًا، وَإِمَّا عَارِضًا لَا يَبْعُدُ أَنْ يَنْفَصِلَ عَنْهُ فِي الْوُجُودِ،

أَمَّا الذَّاتِيُّ أَعْنِي بِهِ كُلَّ دَاخِلٍ فِي مَاهِيَّةِ الشَّيْءِ وَحَقِيقَتِهِ دُخُولًا لَا يُتَصَوَّرُ فَهْمُ الْمَعْنَى دُونَ فَهْمِهِ، وَذَلِكَ كَاللَّوْنِيَّةِ لِلسَّوَادِ وَالْجِسْمِيَّةِ لِلْفَرَسِ وَالشَّجَرِ فَإِنَّ مَنْ فَهِمَ الشَّجَرَ فَقَدْ فَهِمَ جِسْمًا مَخْصُوصًا فَتَكُونُ الْجِسْمِيَّةُ دَاخِلَةً فِي ذَاتِ الشَّجَرِيَّةِ دُخُولًا بِهِ قِوَامُهَا فِي الْوُجُودِ، وَالْعَقْلِ لَوْ قُدِّرَ عَدَمُهَا لَبَطَلَ وُجُودُ الشَّجَرِيَّةِ،

وَكَذَا الْفَرَسُ، وَلَوْ قُدِّرَ خُرُوجُهَا عَنْ الذِّهْنِ لَبَطَلَ فَهْمُ الشَّجَرِ وَالْفَرَسِ مِنْ الذِّهْنِ وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى فَلَا بُدَّ مِنْ إدْرَاجِهِ فِي حَدِّ الشَّيْءِ، فَمَنْ يَحُدُّ النَّبَاتَ يَلْزَمُهُ أَنْ يَقُولَ: " جِسْمٌ نَامٍ " لَا مَحَالَةَ.

وَأَمَّا اللَّازِمُ فَمَا لَا يُفَارِقُ الذَّاتَ أَلْبَتَّةَ وَلَكِنَّ فَهْمَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَاهِيَّةِ غَيْرُ مَوْقُوفٍ عَلَيْهِ، كَوُقُوعِ الظِّلِّ لِشَخْصِ الْفَرَسِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَازِمٌ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُفَارِقَ وُجُودَهُ عِنْدَ مَنْ يُعَبِّرُ عَنْ مَجَارِي الْعَادَاتِ بِاللُّزُومِ وَيَعْتَقِدُهُ وَلَكِنَّهُ مِنْ تَوَابِعِ الذَّاتِ وَلَوَازِمِهِ وَلَيْسَ بِذَاتِيٍّ لَهُ،

وَأَعْنِي بِهِ أَنَّ فَهْمَ حَقِيقَتِهِ غَيْرُ مَوْقُوفٍ عَلَى فَهْمِ ذَلِكَ لَهُ إِذْ الْغَافِلُ عَنْ وُقُوعِ الظِّلِّ يَفْهَمُ الْفَرَسَ وَالنَّبَاتَ بَلْ يَفْهَمُ الْجِسْمَ الَّذِي هُوَ أَعَمُّ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَخْطِرْ بِبَالِهِ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ كَوْنُ الْأَرْضِ مَخْلُوقَةً وَصْفٌ لَازِمٌ لِلْأَرْضِ لَا يُتَصَوَّرُ مُفَارَقَتُهُ لَهُ، وَلَكِنْ فَهْمُ الْأَرْضِ غَيْرُ مَوْقُوفٍ عَلَى فَهْمِ كَوْنِهَا مَخْلُوقَةً فَقَدْ يُدْرِكُ حَقِيقَةَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ مَنْ لَمْ يُدْرِكْ بَعْدُ أَنَّهُمَا مَخْلُوقَتَانِ فَإِنَّا نَعْلَمُ أَوَّلًا حَقِيقَةَ الْجِسْمِ ثُمَّ نَطْلُبُ بِالْبُرْهَانِ كَوْنَهُ مَخْلُوقًا، وَلَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَعْلَمَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ مَا لَمْ نَعْلَمْ الْجِسْمَ.

وَأَمَّا الْعَارِضُ فَأَعْنِي بِهِ مَا لَيْسَ مِنْ ضَرُورَتِهِ أَنْ يُلَازِمَ بَلْ يُتَصَوَّرُ مُفَارَقَتُهُ إِمَّا سَرِيعًا كَحُمْرَةِ الْخَجَلِ أَوْ بَطِيئًا كَصُفْرَةِ الذَّهَبِ وَزُرْقَةِ الْعَيْنِ وَسَوَادِ الزِّنْجِيِّ، وَرُبَّمَا لَا يَزُولُ فِي الْوُجُودِ كَزُرْقَةِ الْعَيْنِ وَلَكِنْ يُمْكِنُ رَفْعُهُ فِي الْوَهْمِ. وَأَمَّا كَوْنُ الْأَرْضِ مَخْلُوقَةً وَكَوْنُ الْجِسْمِ الْكَثِيفِ ذَا ظِلٍّ مَانِعٍ نُورَ الشَّمْسِ فَإِنَّهُ مُلَازِمٌ لَا تُتَصَوَّرُ مُفَارَقَتُهُ.

وَمِنْ مُثَارَاتِ الْأَغَالِيطِ الْكَثِيرَةِ الْتِبَاسُ اللَّازِمِ التَّابِعِ بِالذَّاتِيِّ فَإِنَّهُمَا مُشْتَرِكَانِ فِي اسْتِحَالَةِ الْمُفَارَقَةِ، وَاسْتِقْصَاءُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ الَّتِي هِيَ كَالْعِلَاوَةِ عَلَى هَذَا الْعِلْمِ غَيْرُ مُمْكِنٍ، وَقَدْ اسْتَقْصَيْنَاهُ فِي كِتَابِ مِعْيَارِ الْعِلْمِ.

فَإِذَا فَهِمْتَ الْفَرْقَ بَيْنَ الذَّاتِيِّ وَاللَّازِمِ فَلَا تُورِدُ فِي الْحَدِّ الْحَقِيقِيِّ إلَّا الذَّاتِيَّاتُ، وَيَنْبَغِي أَنْ تُورِدَ جَمِيعُ الذَّاتِيَّاتِ حَتَّى يُتَصَوَّرَ بِهَا كُنْهُ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَمَاهِيَّتُهُ، وَأَعْنِي بِالْمَاهِيَّةِ مَا يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ فِي جَوَابِ " مَا هُوَ " فَإِنَّ الْقَائِلَ: مَا هُوَ؟ يَطْلُبُ حَقِيقَةَ الشَّيْءِ فَلَا يَدْخُلُ فِي جَوَابِهِ إلَّا الذَّاتِيُّ.

وَالذَّاتِيُّ يَنْقَسِمُ إلَى عَامٍّ وَيُسَمَّى جِنْسًا وَإِلَى خَاصٍّ وَيُسَمَّى نَوْعًا..."

بعد هذه التفصيلات، أقول بأنني سأورد مزيدا منها حول الحد، في نهاية الكتاب إن شاء الله تعالى، فليراجع، ولكني أريد أن أبين علاقة هذا كله بموضوع الايمان وتعريفه.

فعندما نحد حدا للإيمان، علينا أن نتبين ما هي الأمور التي يوجد بوجودها وينتفي بانتفائها ولا يتصور مفارقته لها إلا بذهابه؟ فهذه لا بد أن تدخل في تعريفه، مثل التصديق، والجزم بهذا التصديق، فإن انتفاء التصديق، بل دخول الشك ولو مثقال ذرة يبطل الإيمان كله، وإن مفهوم هذا الشك القليل هو انتفاء الجزم، من هنا فإن أي تعريف للإيمان يخلو من أن يبدا بالتصديق الجازم لا يفضي إلى إدراك حقيقة الإيمان.

الباب الثاني: الركن والشرط:

وقال زكريا الأنصاري: الركن: ما يتم به الشيء وهو داخل فيه؛ الشرط: لغة إلزام الشيء والتزامه واصطلاحا ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم ذاته ويقال ما يتم به الشيء وهو خارج عنه.[١١]

قال الرازي: والشرط هو الذي يلزم عند عدمه عدم المشروط، لكن لا يلزم عند وجوده وجود المشروط،[١٢]

قال الإمام النبهاني في الشخصية الإسلامية: الشرط هو ما كان وصفاً مُكمِلاً لمشروطه فيما اقتضاه ذلك المشروط أو فيما اقتضاه الحكم في ذلك المشروط. فالحوْل في زكاة النقد مكمِل لملكية النصاب، هو شرط في ملكية النصاب حتى تجب فيه الزكاة، فيكون مما اقتضاه المشروط. والإحصان في رجم الزاني المحصَن مكمِل لوصف الزاني، فهو شرط في الزاني حتى يجب عليه الرجم فيكون مما اقتضاه المشروط. والوضوء مكمِل لفعل الصلاة فيما يقتضيه الحكم فيها، فهو شرط في الصلاة وهو مما اقتضاه الحكم في ذلك المشروط. وهكذا سائر الشروط.

---

١١) زكريا الأنصاري في الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة

١٢) تفسير سورة آل عمران من تفسير الرازي.

وهو – أي الشرط- مغاير للمشروط لأنه وصف مكمِل له وليس جزءاً من أجزائه، وبهذا يختلف عن الركن، لأن الركن جزء من أجزاء الشيء وليس منفصلاً عنه. ولا يقال عن الركن إنه مغاير للشيء أو مماثل له، لأنه جزء من أجزائه، أمّا الشرط فلا بد أن يكون مغايراً للشيء وأن يكون في نفس الوقت مكمِلاً له[13].

وقال سعد الدين التفتازاني في شرح التلويح على التوضيح: (فَالشَّيْءُ الـمُتَعَلِّقُ إنْ كَانَ دَاخِلا فِي الآخَرِ، فَهُوَ رُكْنٌ، وَإلا فَإِنْ كَانَ مُؤَثِّرًا فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي الْقِيَاسِ فَعِلَّةٌ، وَإلا فَإِنْ كَانَ مُوَصِّلا إلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ فَسَبَبٌ، وَإلا فَإِنْ تَوَقَّفَ عَلَيْهِ وُجُودُهُ فَشَرْطٌ، وَإلا فَلا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَدُلَّ عَلَى وُجُودِهِ فَعَلامَةٌ. وَأَمَّا الرُّكْنُ فَمَا يَقُومُ بِهِ الشَّيْءُ، وَقَدْ شَنَّعَ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى أَصْحَابِنَا فِيمَا قَالُوا: الإِقْرَارُ رُكْنٌ زَائِدٌ وَالتَّصْدِيقُ رُكْنٌ أَصْلِيٌّ فَإِنَّهُ إنْ كَانَ (أَيْ الإِقْرَارُ) رُكْنًا يَلْزَمُ مِنْ انْتِفَائِهِ انْتِفَاءُ الـمُرَكَّبِ كَمَا تَنْتَفِي الْعَشَرَةُ بِانْتِفَاءِ الْوَاحِدِ فَنَقُولُ الرُّكْنُ الزَّائِدُ شَيْءٌ اعْتَبَرَهُ الشَّارِعُ فِي وُجُودِ الـمُرَكَّبِ لَكِنْ إنْ عُدِمَ بِنَاءً عَلَى ضَرُورَةٍ جَعَلَ الشَّارِعُ عَدَمَهُ عَفْوًا وَاعْتَبَرَ الـمُرَكَّبَ مَوْجُودًا حُكْمًا. وَقَوْلُهُمْ: لِلأَكْثَرِ حُكْمُ

---

١٣) الشخصية الإسلامية الجزء الثالث باب الشرط.

الْكُلِّ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَهَذَا نَظِيرُ أَعْضَاءِ الإِنْسَانِ فَالرَّأسُ رُكْنٌ يَنْتَفِي الإِنْسَانُ بِانْتِفَائِهِ وَالْيَدُ رُكْنٌ لا يَنْتَفِي بِانْتِفَائِهِ وَلَكِنْ يَنْقُصُ.)[١٤]

والواقع أن الجملة الأخيرة بحاجة لتدقيق، فالركن ما يقوم به الشيء، قال علاء الدين الكاساني: والأصل أن كل متركب من معان متغايرة ينطلق اسم المركب عليها عند اجتماعها كان كل معنى منها ركناً للمركب؛ كأركان البيت في المحسوسات، والإيجاب والقبول في باب البيع في المشروعات، وكل ما يتغير الشيء به ولا ينطلق عليه اسم ذلك الشيء كان شرطاً كالشهود في باب النكاح، فهذا تعريف الركن، والشرط بالتحديد.[١٥]

فالانسان مقطوع اليد كالانسان مقطوع الرأس، لم ينقلب بقطع رأسه قطا، فإن كان كلامنا عن الحي مقابل الميت، فقطع اليد قد يوصل الموت مثل قطع الرأس إن لم يطبب، فمقطوع الرأس الميت، كمقطوع اليد الذي لم يطبب، فالحاصل أن التفريق بينهما في الإنسانية، غير صحيح، بل احتجنا لوصف منضبط يخرج اليد المطببة منه ولا يخرج الرأس المقطوعة، وهو وصف الإنسان الميت مقابل الإنسان الحي، فاليد المطببة، وقرنية العين، والكلية وغيرها مما لا يحصل الموت بانتزاعه من الجسم غالبا، لا يدخل في

---

١٤) سعد الدين التفتازاني في شرح التلويح على التوضيح باب في الحكم وهو قسمان
١٥) بدائع الصنائع للكاساني كتاب الصلاة

تعريف الإنسان الميت، كذلك مثلا وصف البياض ينطبق على الأبيض الناصع وعلى ما لم تشبه شوائب تقلبه للرمادي، فطالما يغلب البياض عليه للناظر قيل أبيض، فإن أردنا الدقة فلكل لون اصطلاح ينطبق عليه لتفريقه عن غيره، فالأبيض الناصع وصف منضبط للون الأبيض غير المشوب بلون آخر، فإن شابته شوائب انتقل إلى صفة أخرى تتدرج حتى تصل الرمادي، وكل ماهية تختلف عن سابقتها كاختلاف الرمادي عن الأبيض وهكذا.

فلاعتبار أن العمل مثلا ركن في تعريف الإيمان، لكنه يفترق عن التصديق في الدرجة بحيث يترتب انتفاء الإيمان لانتفاء التصديق، ولا يترتب انتفاء الإيمان لانتفاء العمل، حينها، لا يصلح أن يقال أن هذا ركن يقوم به الشيء وهذا ركن لا ينتفي الشيء بانتفائه، فهو إذن ليس بركن، إلا أن ينتفي بانتفائه الشيء لأن انتفاء الجزء سيفضي إلى انتفاء الشيء، كالعشرة، إذا انتفى بعض أجزائها، لم تعد عشرة، بل صارت تسعة أو خمسة مثلا، أي أصبحت ماهية أخرى.

قال ابن تيمية رحمه الله جوابا: فيقال لهم المركبات في ذلك على وجهين منها ما يكون التركيب شرطاً في إطلاق الاسم ومنها ما لا يكون

كذلك[16]، فالأول كاسم العشرة وكذلك السكنجبين ومنها ما يبقي الاسم بعد زوال بعض الأجزاء، وجميع المركبات المتشابهة الأجزاء من هذا الباب،[17] وكذلك كثير من المختلفة الأجزاء فإن المكيلات والموزونات تسمى حنطة وهي بعد النقص حنطة وكذلك التراب والماء ونحو ذلك، وكذلك لفظ العبادة والطاعة والخير والحسنة والإحسان والصدقة والعلم ونحو ذلك مما يدخل فيه أمور كثيرة يطلق الاسم عليها قليلها وكثيرها، وعند زوال بعض الأجزاء وبقاء بعض[18]

قال الآمدي: فإن جزءَ الشيء، إذا شاركَ كلَّهُ في معناه، كان مشاركاً لهُ في اسمهِ، ولهذا يُقال إنَّ بعضَ اللحمِ لحم، وبعض العظم عظم، وبعض الماءِ ماء، لاشتراك الكلّ والبعض في المعنى المسمى بذلك الاسم، وإنما

---

١٦) إذن فلا نزاع، إذ أنه يقرر عين ما نقرر من أن الشيء قد يكون ركنا فيكون التركيب شرطا في إطلاق الإسم، أو إن لم يكن ركنا فلا يشترط، فلا نزاع.

١٧) هنا حصل الخلط، فمتشابهة الأجزاء، يعني بها مثلا مثقالا من حنطة، أزيل من الحنطة نفسها، وهذا تمثيل لا يصلح على المسألة، إذ أن السؤال عن الأركان التي يتركب منها الشيء، كالماء يتركب من هيدروجين وأكسجين، فإن أزيل بعضها لم يعد ماء، أما نقصان الماء بأخذ كوب منه فلا يصلح للتمثيل على المسألة، إذ أن نقطة من الماء تسمى ماء، وعشرة أكواب تسمى ماء أيضا، فلم يتركب اسم الماء من هذه المقادير ليقال أن اسمه يتوقف أو لا يتوقف على زوالها، بينما توقف اسم الماء على تركبه من هيدروجين وأكسجين، فالفرق بين الأمرين هائل والخلط واضح.

١٨) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٠٥- ٥٣٠

يـمتنعُ ذلك فـيـما كان البعضُ فـيهِ غير مشاركٍ للكلّ فـي الـمعنى الـمسمى بذلك الاسم. ولهـذا لا يُقـال: بعـض العشـرة عشـرة، وبعـضُ الـمائـة مائـة، وبعضُ الرغيف رغيف، وبعضُ الدار دار.[19]

والصواب، أن ما كان لازما في إطـلاق الإسـم هـو الـركن، أو جـزء الشـيء، الذي يتوقف وجوده على وجـود هـذا الشـيء، فصـحيح أن الواحـد إن زال مـن العشرة بقي التسعة، فلم تزل التسعة بزواله، لكـن هـذا الإسـم زال، أي اسـم العشرة، وماهية التسعة غير ماهية العشرة، لاحظ الفرق بين زوال التصـديق، ينتفي بزواله بل ينتسف الإيمان ولا تبقى منه باقية، بينمـا لـو زال عمـل مـن الأعمال مثلا، فإن قيل زال الإيمان يعني دخلنا فـي الكفـر، فهـذا مـا لا يكـون حتى يلج الجمل في سم الخياط[20]، وهو مذهب الخـوارج ويقـرب مـن مـذهب المعتزلة، وأما نقصان شيء من التـراب، يبقـى اسـم وماهيـة التـراب للبـاقي، فالذي زال ليس مركبا يتركب منه التراب، بل زال عدد منه، أو مكيال، لذا فإن قلنا كان معنا مكيال أوقية من التراب، وزال نصفها، فالبـاقي لا ينطبـق عليـه وصف الأوقية من التراب، لكن لو قلنـا أن التـراب مكـون مـن عناصـر معينـة،

---

١٩) الإحكام في أصول الأحكام لسيف الدين الآمدي باب: القاعدة الأولى.

٢٠) لاحظ أننا هنا لا نتكلم عن القيام بالعمل المكفـر، كالصـلاة فـي كنيسـة صـلاة النصـارى، أو لبس الصليب، ذلك الفعل المكفر سيأتي بيـان تفصـيله لاحقـا ان شـاء اللّه تعـالى، نحـن هنـا نتحدث عن نقصان عمل من الأعمال لا ينتفي الإيمان بانتفاء هذا العمل.

وزال أحد هذه العناصر، ينتفي وصف التراب عن الباقي، كالماء يتكون من الأوكسجين والهيدروجين، فإن زال أحدهما انقلب المركب شيئا آخر غير الماء، بينما نقصان كوب من الماء، لا يصلح تمثيلا على انتفاء أبعاض الإيمان كالتصديق والعمل، التي قيل أنه يتكون منها.

إذ أن السؤال عن الأركان التي يتركب منها الشيء، كالماء يتركب من هيدروجين وأكسجين، فإن أزيل بعضها لم يعد ماء، أما نقصان الماء بأخذ كوب منه فلا يصلح للتمثيل على المسألة، إذ أن نقطة من الماء تسمى ماء، وعشرة أكواب تسمى ماء أيضا، فلم يتركب اسم الماء من هذه المقادير ليقال أن اسمه يتوقف أو لا يتوقف على زوالها، بينما توقف اسم الماء على تركبه من هيدروجين وأكسجين، فالفرق بين الأمرين هائل والخلط واضح.

وكزيادة في التمثيل نقول: العلم بوجود الله علم، والعلم بأنه الرزاق علم، والعلم بأنه واحد لم يلد ولم يولد علم، فهذه علوم تتعلق بمتعلقات معينة، فلو جمعنا مجموع ما يتعلق بالله تعالى من علوم، وسميناه علم التوحيد، فكان من لوازمه أن نعلم أن الله واحد، فجاء شخص وقال أنا عندي علم بأن الله رزاق وهو واجب الوجود، وأتى بكل ما كان من أركان علم التوحيد إلا أنه لم يؤمن أنه واحد أحد، فبهذا قطعا تنتفي عنه صفة أنه عالم بتوحيد الله، زال العلم زوالا كاملا منه، مع أن لديه باقي أجزائه، لكن هذه الأجزاء تنتفي بانتفاء هذا البعض، فهو ركن في علم التوحيد.

لكن هب أن لدينا عالما بالفيزياء، يعلم منها فروعا كثيرة ويجهل بعض فروعها، فإنه عالم بالفيزياء، لا يزول عنه الاسم بانتفاء علمه ببعض علوم الفيزياء كالذرة مثلا، لكن السؤال: هل يجب عليه أن يعلم علم الذرة مثلا حتى يطلق عليه عرفا اسم عالم فيزياء؟ فإن قيل نعم، زال عنه الاسم، وإن قيل لا، لم يزل لأنه ليس ركنا في اصطلاح عالم الفيزياء، فإن ازداد علما أو انتقص علمه، بقي اسمه عالم فيزياء، طالما أن ما كان ينقصه قبل الزيادة، أو ما نقص إليه بعد أن كان لديه، لا ينتفي بانتفائه اسم عالم الفيزياء، فتمثيل ابن تيمية رحمه الله تعالى في الجواب على غير الواقع محل الكلام، وهو توصيف لوقائع لا ينطبق عليها الاحتجاج، فالحنطة، والتراب، والماء، إن زال عدد منه لا يصلح تمثيلا على زوال عناصره التي يتكون منها، والفرق بين هذا وذاك شاسع.

فإن قيل المجتهد يسمى فقيها وهو يعلم أحكام الصلاة والطهارة والحج، ويسمى فقيها إن زاد عليها فقه الجهاد والحدود، ويبقى اسمه مجتهدا إن لم يعلم أحكام الطلاق، فهذه أبعاض الفقه، لا يلزم معرفته بها كلها ليسمى مجتهدا، قلنا: إن المجتهد هو الذي يستنبط أحكام هذه وتلك من مصادرها، لا من يعرفها دون آلية الاجتهاد، فالمجتهد هو الفقيه، والفقه في حالة المجتهد هنا علم استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها، فمن امتلك الآلية كان فقيها، فيلزمه قدر كاف من العلم بالعربية يؤهله للتعامل مع النصوص،

وقدر من العلوم الشرعية لتؤهله للتعامل مع الأدلة، فهذا القدر الكافي إن لم يتوفر لديه لم يمتلك آلة الاجتهاد فلا يسمى فقيها مجتهدا، فإن امتلك الآلة واجتهد في كل شيء سمي مجتهدا مطلقا، وإلا فمجتهد المسألة ايضا مجتهد وإن لم يجتهد في أحكام الطلاق كما هو الحال أعلاه.

ومن عرف العلوم كلها من بطون الكتب، كأن درس الفتاوى، فإنه لا يكون فقيها إلا أن يمتلك آلية الاجتهاد، لذلك كان للفقيه شروط معينة لا يكون فقيها حتى يمتلك ناصيتها، وأقرب مثال هو تفريق أهل العلم بين مجتهد المسألة ومجتهد المذهب والمجتهد المطلق، فكل واحد منها وصف منطبق على نوع معين من الفقهاء، لا بد له من شروط معينة تتحقق فيه ليوصف بذا.

فإن قيل: انظر إلى الطحين، لم يزل اسمه طحينا بزوال بعضه، قلت: كلامكم عن الطحين وحده أم عن الطحين والماء اتحدا معا فنتج العجين؟ فإن زال الماء لم يصر عجينا، وإنما بقي الطحين وحده، فحين نتحدث عن الإيمان والعمل، أو عن الإيمان والتصديق، أو عن الإيمان ومطابقة الواقع، فنحن نتحدث عن الشيء الذي نبحث في تكونه أو عدم تكونه من هذه الحدود، فإن زال العمل، أو زال التصديق، فإننا نتحدث عن أثر زوال هذا البعض على المسمى الكلي الشامل لهذه الأبعاض، وهو الإيمان، وهذا يختلف عن قولنا زال بعض الطحين أو الحنطة، إذ كأننا نمثل عليها بزوال

بعض الإيمان الناتج عن اجتماع الكل فيه، ولا تصلح تمثيلا على زوال الأبعاض التي يتكون منها هذا الكل.

على أننا لو سايرنا، وقلنا: هب أن الكلام عن أبعاض الإيمان، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، هذه أبعاض الإيمان بغض النظر عن الحدود التي تدخل في تعريف الإيمان، فالإيمان بالله لا بد فيه من التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، ولنقل جدلا، وأيضا القول والعمل والحب.. الخ، ومثلها الإيمان بالملائكة، وهكذا، فكل واحد من هذه الأبعاض (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله) تكون أصلا على حدة من (التصديق والجزم ومطابقة الواقع والدليل والعمل والحب... الخ) فكلامنا عن زوال الأبعاض التي هي الإيمان (بالله وملائكته ورسله) ينسف الإيمان، أيضا، إلا أن يكون هذا البعض، لا ينتفي الإيمان بانتفائه، فلا يكون ركنا، لا يكون جزءا يزول بزواله، بل يكون حينها شرطا لكماله مثلا، أو شرطا له، والشرط مغاير للمشروط، فتنتهي القضية بأنك كيفما بحثتها وجدت أن الجزء إن كان مما يتوقف على وجوده اسم الشيء، زال اسم الشيء بزواله، وإن كان شرطا كان مغايرا له.

فإن قيل: فإماطة الأذى عن الطريق شعبة من الإيمان، إن زالت لم يزل اسم الإيمان، قلنا فإن رتبنا نظيراتها من الأعمال عليها، وقلنا هي أبعاض الإيمان التي لا يزول بزوالها، وأطلق عليها اسم الإيمان أو شعب الإيمان،

فإن الشيء الذي لا يزول المسمى بزواله لا يكون ركنا فيه، ولا يترتب الإسم عليه، فهي شروط كمال، أي لكمال الإيمان.

ألم تر أن الزاني إذا مات وُرّث وإن مات له مورِّثٌ ورثه، وأنه إن مات دفن في مقابر المسلمين؟ وعلى هذا كان عمل الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة، فثبت أن اسم الإيمان لم يزل عنه بارتكابه الكبيرة، أي بفعل المنهي عنه أو بترك المأمور به، فثبت أن العمل لا يكون مما يكون به اسم الإيمان وجودا وعملا، إلا عند المعتزلة والخوارج، لذا قال ابن تيمية رحمه الله: (وليس المقصود هنا ذكر عمل معين) (وقد تقدم أن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب)[٢١] فقالوا أن المقصود إذن هو جنس العمل، وهذا ما أفردت له فصلا ناقشتهم فيه فارجع إليه.

من هنا، فإن وصف رسول الله عليه سلام الله لإماطة الأذى عن الطريق بأنها شعبة من شعب الإيمان، لا يفهم منها أنها ركن من أركانه التي يوجد بوجودها وينتفي بانتفائها، إذ أن من لم يمط الأذى عن الطريق لا يخرج من الإيمان قولا واحدا، بله من فعل نقيض ذلك ووضع الأذى في الطريق لا يكفر، وإن كان يفعل منهيا عنه، فالتعبير بأنها شعبة لا يفهم منه بحال أنها ركن، ونظيرها لا يزني الزاني وهو مؤمن، فها هو عليه سلام الله ورثه ومنع

---

٢١) عقيدة أدعياء السلفية ٣٤ مجموع الفتاوى. ابن تيمية ٣٤٠/٧ و٣٧٥

الكافرَ الميراثَ فلو عامله معاملة الكافر بارتكابه فعل الزنا، لما ورثه، فيفهم من هذا أن انتفاء الإيمان عنه حال الزنا، ليس خروجا من الإيمان إلى الكفر، بل لها مفهوم آخر سيأتي لاحقا شرحه ان شاء اللّه.

قال الشيخ عطية محمد سالم في أضواء البيان: وعملوا الصالحات: العطف يقتضي المغايرة، ولذا قال بعض الناس: إن الأعمال ليست داخلة في تعريف الإيمان ومقالاتهم معروفة. والجمهور: أن الإيمان اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالجوارح. فالعمل داخل فيه ويزيد وينقص، وقد قدمنا: أن العمل شرط أقرب من أن يكون جزءاً، أي أن الإيمان يصدق بالاعتقاد، ولا يتوقف وجوده على العمل، ولكن العمل شرط في الانتفاع بالإيمان، إذا تمكن العبد من العمل، ومما يدل لكون الإيمان يصدق عليه حد الاعتقاد والنطق، ولو لم يتمكن العبد من العمل، قصة الصحابي الذي أسلم عند بدء المعركة، وقاتل، واستشهد ولم يصلّ للّه ركعة، فدخل الجنة.[٢٢]

٢٢) أضواء البيان للشنقيطي تفسير سورة العصر، وهذا الجزء من الكتاب كتبه الشيخ عطية محمد سالم في كتاب تتمة اضواء البيان

الباب الثالث: احترازات وقيود تدخل في التعريف لتحقق منع دخول غيره فيه:

فإن قيل: فما بال الدليل والمطابقة للواقع؟ أهي برتبة تجعل انتفاءها يدخل في الكفر؟ فأغلب المسلمين لا يملك أدلة قطعية على مسائل الاعتقاد؟ نقول: إن الركن هو التصديق، وقد احترزنا له باحترازات، تمنع دخول ما هو تصديق ولا ينتمي إلى الإيمان إليه، فالتصديق قد يكون غير جازم، وهذا لا يسمى عقيدة ولا إيمانا، فوجب الاحتراز بالجزم لمنع التصديق غير الجازم، فاحترزنا به عن الظن والشك، والمطابقة للواقع احترزنا بها عن الجهل أن يدخل في الإيمان، أي أن يصدق المرء جازما بأمر لا واقع له، كالقول بالتثليث، أو أن لله ولد – سبحانه-، وضابط الدليل لمنع التقليد، وهو (أي الدليل) أيضا بمعنى المعرفة اللازمة للدخول في الإيمان، فهذه احترازات أضيفت للتصديق لتبين نوع التصديق الذي يوصف بأنه إيمان.

لا بد لكل حد يدخل في تعريف الإيمان أن يجمع معاني تشرح حقيقة ما وضع لفظ الإيمان إزاءه، جمعا يستقصي كل ما لا بد منه في التعريف، ومانعا من دخول ما ليس منه فيه، بحيث يحترز عما يمنع وجوده في التعريف بالمفاهيم التي اصطلح على أنها خلت من هذا المانع، فمثلا: نحت علماء الأصول تعريفا لليقين، قالوا فيه: اليقين: (في اللغة العلم الذي لا شك معه،

وفي الاصطلاح اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد بأنه لا يمكن إلا كذا مطابقًا للواقع غير ممكن الزوال، والقيد الأول جنس يشتمل على الظن أيضاً، والثاني يخرج الظن، والثالث يخرج الجهل والرابع يخرج المقلد المصيب)[٢٣]، فهذه القيود تمنع تسرب ما يمكن أن يقع في اعتقاد الشيء بأنه كذا، فالقيود الأربعة هي: اعتقاد أنه كذا، وقيد اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا، وقيد: المطابقة للواقع، وقيد غير ممكن الزوال، تخرج الظن والجهل والمقلد المصيب، أي تمنع ما ينسف اليقين نسفا من الدخول في هذه الماهية.

قال الآمدي في الإحكام: أما الدليل فقد يطلق في اللغة بمعنى الدال وهو الناصب للدليل وقيل هو الذاكر للدليل وقد يطلق على ما فيه دلالة وإرشاد وهذا هو المسمى دليلاً في عرف الفقهاء وسواء كان موصلاً إلى علم أو ظن والأصوليون يفرقون بين ما أوصل إلى العلم وما أوصل إلى الظن فيخصون اسم الدليل بما أوصل إلى العلم واسم الأمارة بما أوصل إلى الظن.

وعلى هذا فحده على أصول الفقهاء: أنه الذي يمكن أن يتوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري.

---

٢٣) الاستدلال بالظني في العقيدة.فتحي سليم ٢١ التعريفات للجرجاني١١٣.

فالقيد الأول احتراز عما لم يتوصل به إلى المطلوب لعدم النظر فيه فإنه لا يخرج بذلك عن كونه دليلاً لما كان التوصل به ممكناً والقيد الثاني احتراز عما إذا كان الناظر في الدليل بنظر فاسد والثالث احتراز عن الحد الموصل إلى العلم التصوري وهو عام للقاطع والظني؛ وأما حده على العرف الأصولي: فهو ما يمكن التوصل به إلى العلم بمطلوب خبري[٢٤]

---

٢٤) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي في تحقيق مفهوم أصول الفقه.

الباب الرابع: الركن الزائد (المحتمل للسقوط) والشرط:

على أن جعل منزلة الأعمال من الإيمان غير منزلة التصديق، وعدم جعلها حدا من حدود التعريف، لا يعني أنها لا تدخل فيه البتة، فقد فصلت في ذلك أيما تفصيل، فهي شرط كمال، لا شرط صحة، فعلى سبيل المثال: زوال الإقرار أي الاعتراف، في حالات معينة كالمكره، أو الذي أسلم ولم تتح له فرصة للنطق، بل مات قبل ذلك، كل أولئك لا يُقال أنه انتفى الإيمان لديهم، فهذا يعني أن الإقرار "ركن زائد" أو شرط على الأصح، لأن الإيمان عمل قلبي، فلا يدخل في التعريف، ولكن الإيمان لا يكون متصورا من دونه، وإن طلب من الشخص الإتيان به ورفض كان كافرا كفر عناد، أي أنه ينتفي الإيمان بانتفائه في حالات معينة.

فالبحث هنا عن حدود تعريف الإيمان، وهذا لا يعني أن غيرها ليس بإيمان! فافهم هذا جيدا

فإن من أركان الصلاة السجود مثلا، لكن الطهارة، وستر العورة شروط صحة فإن قام مسلم بالصلاة من غير وضوء، بطلت صلاته وهو أتى بكل أركانها، لكن هذا لا يعني أن ندخل الوضوء ركنا في الصلاة!! فافهم.

فالوضوء هنا شرط صحة للصلاة، والعمل شرط كمال للإيمان.

قال البزدوي: الإيمَانِ بِاَللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ حَسَنٌ لِعَيْنِهِ غَيْرَ أَنَّهُ نَوْعَانِ: تَصْدِيقٌ هُوَ رُكْنٌ لا يَحْتَمِلُ السُّقُوطَ بِحَالٍ حَتَّى أَنَّهُ مَتَى تَبَدَّلَ ضِدُّهُ كَانَ كُفْرًا، وَإِقْرَارٌ هُوَ رُكْنٌ مُلْحَقٌ بِهِ لَكِنَّهُ يَحْتَمِلُ السُّقُوطَ بِحَالٍ حَتَّى أَنَّهُ مَتَى تَبَدَّلَ بِضِدِّهِ بِعُذْرِ الإِكْرَاهِ لَمْ يَعُدْ كُفْرًا؛ لأَنَّ اللِّسَانَ لَيْس مَعْدِنَ التَّصْدِيقِ لَكِنَّ تَرْكَ الْبَيَانِ مِنْ غَيْر عُذْرٍ يَدُلُّ عَلَى فَوَاتِ التَّصْدِيقِ فَكَانَ رُكْنًا دُونَ الأَوَّلِ فَمَنْ صَدَّقَ بِقَلْبِهِ وَتَرَكَ الْبَيَانَ مِنْ غَيْر عُذْرٍ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا وَمَنْ لَمْ يُصَادِفْ وَقْتًا يَتَمَكَّنُ فِيهِ مِنْ الْبَيَانِ وَكَانَ مُخْتَارًا فِي التَّصْدِيقِ كَانَ مُؤْمِنًا إنْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ.[٢٥]

ولما كانت الآراء في هذه الحدود التي أدخلت في تعريف الإيمان شديدة التفاوت، وجدنا مثلا في التعريفات الحدود التالية: التصديق، الاعتقاد، الجازم، المطابق للواقع، عن دليل، قول القلب، المعرفة، الإقرار، العمل، الاتباع، الحب والبغض، الإذعان، الاستسلام، وما إلى ذلك، كان لا بد من ضوابط تضبط ما له علاقة بالإيمان، وما لا علاقة له، وما هو ركن (لا يقوم الإيمان إلا به) وما هو شرط، (إن عدم انعدم الإيمان، ولكنه إن وجد فليس بالضرورة أن يوجد الإيمان) وهو شرط الصحة، وما هو شرط كمال، (وهو اللازم عند الانتفاء انتفاء الكمال وهو غير قادح في أصل الايمان) (المعنى إنّ

---

٢٥) أصول فخر الإسلام للبزدوي باب بيان صفة الحسن للمأمور به وهو نوعان.

الصحة لا تتوقف عليها فلا ينافي وجوبها له) منها ما هو ركن أصلي يقوم الإيمان به، وما هو ركن زائد، منها ما يدخل في غيره، فلا يقوم هذا الغير إلا به، فإذ لم يذكر في التعريف فلا بد منه لتحقق ما ذكر في التعريف، فالتصديق مثلا؛ اختلف في الإقرار (الاعتراف) أيدخل في التصديق القلبي؟ والتصديق له علاقة بالمعرفة، فهل إذا ذكر لم نحتج إلى ذكرها؟ وهكذا، فإذا نظرنا إلى قول القائل مثلا: الإيمان قول وعمل، فهل يا ترى يصلح هذا ليكون تعريفا؟ فأين الحدود والاحترازات والقيود؟ أين نجد حد التصديق؟ أين الجزم؟ هل يجمعها مصطلح: القول؟ أم تجدها في العمل؟ فتعريفهم الإيمان بأنه: تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح أكمل.

لكن هل يمنع من لديه تصديق جنان وقول لسان وعمل جوارح لكن كل ذلك من العقائد الفاسدة، أن يدخل في حياض الإيمان؟ فمثلا: النصراني، لديه القول بالتثليث يصدقه جزما، ويقوله بلسانه ويعمل بناء عليه، فأين هي الاحترازات التي تمنع وصف هذا بالمؤمن؟ أو تنفي عنه صفة الإيمان؟

لذا كان نحت تعريف الإيمان الجامع المانع مسألة مهمة، ومن أجل بلوغ مرامها، لا بد من سبر أغوار هذه المفاهيم التي تتعلق بالإيمان، لنرى موقعها من هذا التعريف ومن ثم نصل إلى تعريف جامع مانع للإيمان بإذن الله تعالى.

مفهوم الإيمان واليقين

الباب الأول: الإيمان: نظرة سريعة تستعرض بعض أقوال الأوائل في الايمان:

أرجو التنبه في هذا الباب إلى القضايا التالية: قول اللسان ومواطأة القلب، وبالتالي الشهادة،، التصديق، الجزم، العمل، الإقرار، الدليل، الايمان من زاوية أحكام الدنيا، ومن زاوية ما هو معتبر عند الله، الزيادة والنقص، شرط الصحة وشرط الكمال، بم يكون الدخول في الايمان.

الايمان: قيل هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل[٢٦]، ومحله القلب؛ وقيل: ما وقر في القلب وصدقه العمل، قال الامام ابن حجر

---

٢٦) التعريفات للجرجاني ٤١؛ التحصيل من المحصول للأرموي ١٦٩/١؛ المحصول ١٢/١؛ إجابة السائل للصنعاني ٦٠؛ تفسير الرازي ٢٧/٢-٦١؛ تفسير ابن كثير٤٠/١؛ حاشيتا التفتازاني والجرجاني على ابن الحاجب ٦٠/١-٦١؛ شعب الإيمان ٣٥/١؛ الشخصية الإسلامية للنبهاني ١٩/١؛ الواضح في إبطال المصالح محمد الشويكي ٣٤؛ الإستدلال بالظني في العقيدة. فتحي سليم ٢٢. ورد في كتاب: نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر للعلامة الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني الناشر فاروقي كتب خانة ملتان- باكستان في الصفحة ١٤ واليقين: هو الاعتقاد الجازم المطابق، مثل هذا التعريف للإيمان قال به السيوطي في كتابه تدريب الراوي صفحة ١٣١ وذكر الإمام القرافي في تنقيح الفصول

صفحة ١٩٢ مثل ذلك، وفي تفسير غرائب القرآن في تفسير قوله تعالى: وما قتلوه يقينا: واليقين عقد جازم مطابق ثابت لدليل، وقال في نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ الْأُصُولِيُّونَ، وَهُوَ الْجَازِمُ الْمُطَابِقُ لِدَلِيلٍ. في الشرح قال: (قَوْلُهُ: وَهُوَ الْجَازِمُ) أَيْ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ (قَوْلُهُ: الْمُطَابِقُ) قَيَّدَ بِهِ؛ لِيَكُونَ اعْتِقَادًا صَحِيحًا، وَإِلَّا فَغَيْرُ الْمُطَابِقِ اعْتِقَادٌ فَاسِدٌ، وَمَحَلُّ تَسْمِيَتِهِ اعْتِقَادًا حَيْثُ قَبِلَ التَّغْيِيرَ وَإِلَّا فَهُوَ عِلْمٌ. نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج > كتاب صلاة الجماعة وأحكامها > فصل في صفة الأئمة ومتعلقاتها.

وقال السبكي في فتاواه: الْمَعْنَى الثَّانِي لِلتَّقْلِيدِ أَنَّهُ الِاعْتِقَادُ الْجَازِمُ لَا الْمُوجِبُ وَرُبَّمَا قِيلَ الِاعْتِقَادُ الْجَازِمُ الْمُطَابِقُ لَا الْمُوجِبُ. إنْ عَرَفْت مَعْنَى التَّقْلِيدِ فَهُوَ بِالْمَعْنَى الْأَوَّلِ قَدْ يَكُونُ ظَنًّا وَقَدْ يَكُونُ وَهْمًا كَمَا يُرَى فِي تَقْلِيدِ إمَامٍ فِي فَرْعٍ مِنْ الْفُرُوعِ مَعَ تَجْوِيزِ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ فِي خِلَافِهِ وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا لَا يَكْفِي فِي الْإِيمَانِ، وَإِذَا وُجِدَ فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِنْ الْأَئِمَّةِ أَنَّ التَّقْلِيدَ لَا يَكْفِي فِي أُصُولِ الدِّينِ فَالْمُرَادُ مِنْهُ هَذَا. انتهى فتاوى السبكي > باب عقد الذمة

وقال في التقرير والتحبير: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَ لِجَمَاعَةٍ كَابْنِ الْحَاجِبِ تَعْرِيفُ الْأُصُولِ بِالْعِلْمِ بِالْقَوَاعِدِ، وَفَسَّرَهُ أَعْيَانٌ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ كَشَمْسِ الدِّينِ الْأَصْفَهَانِيِّ وَسِرَاجِ الدِّينِ الْهِنْدِيِّ وَسَعْدِ الدِّينِ التَّفْتَازَانِيِّ بِأَنَّهُ الِاعْتِقَادُ الْجَازِمُ الْمُطَابِقُ وَوَقَعَ عِنْدَ الْمُصَنِّفِ عَدَمُ اشْتِرَاطِ الْمُطَابَقَةِ وَالْجَزْمِ لِوُجُودِ الْمُقْتَضِي لِعَدَمِ اشْتِرَاطِهِمَا أَفَاضَ فِي بَيَانِ ذَلِكَ فَقَالَ (وَجَعْلِ الْجِنْسِ) فِي تَعْرِيفِ الْأُصُولِ إذَا كَانَ مَوْضُوعًا بِإِزَاءِ الْإِدْرَاكِ (الِاعْتِقَادَ الْجَازِمَ الْمُطَابِقَ) لِلْوَاقِعِ لِمُوجِبٍ احْتِرَازًا بِالْجَزْمِ عَنْ الظَّنِّ وَبِالْمُطَابَقَةِ عَنْ الْجَهْلِ. التقرير والتحبير > المقدمة أربعة أمور > الأمر الأول مفهوم اسم هذا العلم وهو لفظ أصول الفقه

وقال المناوي: العلم الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع إذ هو صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض. التوقيف على مهمات التعريف. باب العين.

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير: و{وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٌۗ}، أي ليس لهم به اعتقاد جازم لأنّ الاعتقاد الجازم لا يكون إلاّ عن دليل، والباطل لا يمكن حصول دليل عليه. تفسير سورة الحج.

وقال الحافظ زين الدين العراقي في شرح البهجة في فصل في بيان صلاة الجماعة: (قَوْلُهُ: عَلِمَ مِنْهُ بُطْلَانَهَا) أَيْ: لِعِلْمِهِ أَنَّ اجْتِهَادَهُ، أَوْ اجْتِهَادَ مُقَلِّدِهِ بِالْفَتْحِ أَدَّاهُ أَيْ: أَدَّى إمَامَهُ

العسقلاني في كتاب الايمان: قوله: (باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم - : بني الإسلام على خمس)،.... قوله: (وهو) أي: الإيمان (قول وفعل ويزيد وينقص)،... والكلام هنا في مقامين: أحدهما: كونه قولا وعملا، والثاني: كونه يزيد وينقص،،، فأما القول: فالمراد به النطق بالشهادتين، وأما العمل: فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح، ليدخل الاعتقاد والعبادات.

ومراد من أدخل ذلك في تعريف الإيمان ومن نفاه إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى، فالسلف قالوا: هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان.

وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله. ومن هنا نشأ ثم القول بالزيادة والنقص كما سيأتي.

والمرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط،، والكرامية قالوا: هو نطق فقط،، والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد،، والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطا في صحته.

إِلَى بُطْلانِهَا حِينَئِذٍ فَهُوَ اعْتِقَادٌ جَازِمٌ مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ لِدَلِيلٍ، فَإِنْ كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ قَطْعِيَّةً فَالأَمْرُ ظَاهِرٌ فَلْيَتَأَمَّلْ.

والسلف جعلوها شرطا في كماله، وهذا كله كما قلنا بالنظر إلى ما عند الله تعالى.

أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقر أجريت عليه الأحكام في الدنيا، ولم يحكم عليه بكفر إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم، فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى إقراره، ومن نفى عنه الإيمان فبالنظر إلى كماله، ومن أطلق عليه الكفر فبالنظر إلى أنه فعل الكافر، ومن نفاه عنه فبالنظر إلى حقيقته. [٢٧] انتهى كلام ابن حجر رحمه الله.

وقال الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمه الله: ومن هذا القبيل الاشكال السابق في قوله سبحانه [وما هم بخارجين منها] ودفعه باقرأ ما قبله. [إن الذين كفروا] (قال): أي ابن عباس (فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية) أي التي فيها الاستثناء إليه، (فلما قرأت عليه، قال وحشي: إن في هذه الآية شروطاً) وكان يظن أن العمل الصالح شرط صحة الإيمان، كما ذهب إليه بعض أهل البدعة، ولم يدر أنه شرط كمال الإيمان، وسبب

---

٢٧) كتاب الايمان من فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس. ونقلها عنه أبو العلا المباركفوري في تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي.

الخلاص من الدخول في النيران والوصول ابتدأ إلى الدرجات العالية في الجنان.[٢٨]

وقال العلامة ابن تيمية في كتاب الايمان الكبير: (والمقصود هنا) أن من قال من السلف: الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح؛ ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ومن قال: قول وعمل ونية قال: القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل إنما أرادوا ما كان مشروعا من الأقوال والأعمال ولكن كان مقصودهم الرد على " المرجئة " الذين جعلوه قولا فقط فقالوا: بل هو قول وعمل.[٢٩]

وقال البزدوي: فَيَكُونُ مَعْنَاهُ غَيْرَ أَنَّهُ رُكْنَانِ أَيْ هُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى رُكْنَيْنِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَصْدِيقٌ وَهُوَ رُكْنٌ وَإِقْرَارٌ هُوَ رُكْنٌ. وَاعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَصْحَابِنَا أَنَّ الإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ وَالإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ شَرْطُ إجْرَاءِ الأَحْكَامِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى أَنَّ مَنْ صَدَّقَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يُقِرَّ بِلِسَانِهِ مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْ

---

٢٨) مسند أبي حنيفة رضي الله عنه، شرح المسند.

٢٩) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧١ كتاب الايمان الكبير ص ١٧١

الْبَيَانِ كَانَ مُؤْمِنًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرَ مُؤْمِنٍ فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا، كَمَا أَنَّ الْمُنَافِقَ إذَا وُجِدَ مِنْهُ الإِقْرَارُ دُونَ التَّصْدِيقِ كَانَ مُؤْمِنًا فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا لِوُجُودِ شَرْطِهِ وَهُوَ الإِقْرَارُ كَافِرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لِعَدَمِ التَّصْدِيقِ. وَقَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِنَا: إنَّ الإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ وَالإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ إلا أَنَّ الإِقْرَارَ رُكْنٌ زَائِدٌ يَحْتَمِلُ السُّقُوطَ بِعُذْرِ الإِكْرَاهِ وَالتَّصْدِيقُ رُكْنٌ أَصْلِيٌّ لا يَحْتَمِلُ السُّقُوطَ فَعِنْدَ هَؤُلاءِ لَوْ صَدَّقَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يُقِرَّ بِلِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَكَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مَذْهَبُ الْمُصَنِّفِ وَشَمْسِ الأَئِمَّةِ وَكَثِيرٍ مِنْ الْفُقَهَاءِ[٣٠]

وقال العدوي: قوله: (حتى ينطق بالشهادتين) أي بناء على أن الشهادتين ركن في الإيمان أو شرط صحة، والمعتمد أنه شرط كمال.[٣١]

وقال ابن أبي زيد القيرواني: وَكَلامُ الْمُصَنِّفِ هُنَا كَالصَّرِيحِ فِي أَنَّ الإِيمَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ التَّصْدِيقِ بِالْقَلْبِ وَالنُّطْقِ بِاللِّسَانِ، وَيُعَيِّنُ هَذَا قَوْلُهُ الآتِي: وَإِنَّ الإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَإِخْلاصٌ بِالْقَلْبِ، وَأَمَّا الْعَمَلُ بِالْجَوَارِحِ فَشَرْطٌ فِي كَمَالِهِ كَمَا يَأْتِي فِي قَوْلِهِ: وَلا يَكْمُلُ قَوْلُ الإِيمَانِ إلا بِالْعَمَلِ، وَقَدَّمْنَا قَبْلَ الْبَابِ عِنْدَ قَوْلِهِ: فَآمَنُوا بِاللَّهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ نَاطِقِينَ وَبِقُلُوبِهِمْ مُخْلِصِينَ وَبِمَا أَتَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُ وَكُتُبُهُ عَامِلِينَ، أَنَّ هَذَا مَذْهَبُ السَّلَفِ وَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ الْمُصَنِّفِ هُنَا:

٣٠) أصول فخر الإسلام للبزدوي باب بيان صفة الحسن للمأمور به وهو نوعان.

٣١) حاشية العدوي على كفاية الطالب. باب جمل.

مِنْ ذَلِكَ الإِيمَانُ بِالْقَلْبِ وَالنُّطْقُ بِاللِّسَانِ أَنَّ اللَّهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَه غَيْرُهُ، وَسَكَتَ عَنْ الأَعْمَالِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا غَيْرُ رُكْنٍ مِنْهُ وَإِنَّمَا هِيَ شَرْطُ كَمَالٍ كَمَا سَيُصَرِّحُ بِهِ فِيمَا يَأْتِي بِقَوْلِهِ: وَلا يَكْمُلُ قَوْلُ الإِيمَانِ إلا بِالْعَمَلِ، وَلا يُشْكِلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ آخِرَ الْبَابِ: وَإِنَّ الإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَإِخْلاصٌ بِالْقَلْبِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ الْمُوهِمِ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلاثَةٍ[٣٢]

قال العلامة الإمام ابن عاشور: ونفي الإيمان عنهم مع قولهم [مَن] [في قوله تعالى: [وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين] دليل صريح على أن مسمى الإيمان التصديق وأن النطق بما يدل على الإيمان قد يكون كاذباً فلا يكون ذلك النطق إيماناً، والإيمان في الشرع هو الاعتقاد الجازم بثبوت ما يعلم أنه من الدين علماً ضرورياً بحيث يكون ثابتاً بدليل قطعي عند جميع أئمة الدين ويشتهر كونه من مقومات الاعتقاد الإسلامي اللازم لكل مسلم اشتهاراً بين الخاصة من علماء الدين والعامة من المسلمين بحيث لا نزاع فيه فقد نقل الإيمان في الشرع إلى تصديق خاص وقد أفصح عنه الحديث الصحيح عن عُمر أن جبريل جاء فسأل النبي

---

٣٢) الفواكه الدواني شرح رسالة القيرواني لابن أبي زيد القيرواني باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب.

صلى اللّه عليه وسلّم عن الإيمان فقال: «الإيمانُ أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليومِ الآخر وتؤمنَ بالقدَر خيره وشره».

وقد اختلفت علماء الأمة في ماهية الإيمان ما هو وتطرقوا أيضاً إلى حقيقة الإسلام ونحن نجمع متناثر المنقول منهم مع ما للمحققين من تحقيق مذاهبهم في جملة مختصرة. وقد أرجعنا متفرق أقوالهم في ذلك إلى خمسة أقوال:

القول الأول: قول جمهور المحققين من علماء الأمة قالوا إن الإيمان هو التصديق لا مسمى له غيرُ ذلك وهو مسماه اللغوي فينبغي ألا ينقل من معناه لأن الأصل عدم النقل إلا أنه أطلق على تصديق خاص بأشياء بيّنها الدين وليس استعمال اللفظ العام في بعض أفراده بنقله له عن معناه اللغوي وغلب في لسان الشرعيين على ذلك التصديق واحتجوا بعدة أدلة هي من أخبار الآحاد ولكنها كثيرة كثرةً تلحقها بالمستفيض.

من ذلك حديث جبريل المتقدم وحديث سعد أنه قال «يا رسول اللّه: مالك عن فلان فإني لأراه مؤمناً فقال: أوْ مسلماً»، قالوا وأما النطق والأعمال فهي من الإسلام لا من مفهوم الإيمان لأن الإسلام الاستسلام والانقياد بالجسد دون القلب ودليل التفرقة بينهما اللغة وحديث جبريل، وقوله تعالى: [قَالَتِ ٱلأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا] (الحجرات: ١٤)

ولما رواه مسلم عن طلحة بن عبيد الله أنه جاء رجل من نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول، فإذا هو يسأل عن الإسلام فبين له النبي صلى الله عليه وسلّم أن الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، ونسب هذا القول إلى مالك بن أنس أخذاً من قوله في «المدونة»: «من اغتسل وقد أجمع على الإسلام بقلبه أجزأه» قال ابن رشد لأن إسلامه بقلبه فلو مات مات مؤمناً، وهو مأخذ بعيد وستعلم أن قول مالك بخلافه. ونسب هذا أيضاً إلى الأشعري قال إمام الحرمين في «الإرشاد» وهو المرضي عندنا، وبه قال الزهري من التابعين.

القول الثاني: إن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان بالشهادتين للإقرار بذلك الاعتقاد فيكون الإيمان منقولاً شرعاً لهذا المعنى فلا يعتد بالاعتقاد شرعاً إلا إذا انضم إليه النطق ونقل هذا عن أبي حنيفة ونسبه النووي إلى جمهور الفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين ونسبه الفخر إلى الأشعري وبشر المريسي، ونسبه الخفاجي إلى محققي الأشاعرة واختاره ابن العربي، قال النووي وبذلك يكون الإنسان من أهل القبلة.

قلت ولا أحسب أن بين هذا والقول الأول فرقاً وإنما نظر كل قيل إلى جانب، فالأول نظر إلى جانب المفهوم والثاني نظر إلى الاعتداد ولم يعتنوا بضبط عباراتهم حتى يرتفع الخلاف بينهم وإن كان قد وقع الخلاف بينهم

في أن الاقتصار على الاعتقاد هل هو منج فيما بين المرء وبين ربه أو لا بد من الإقرار؟ حكاه البيضاوي في «التفسير» ومال إلى الثاني ويؤخذ من كلامهم أنه لو ترك الإقرار لا عن مكابرة كان ناجياً مثل الأخرس والمغفل والمشتغل شغلاً اتصل بموته. واحتجوا بإطلاق الإيمان على الإسلام والعكس في مواضع من الكتاب والسنة، قال تعالى: [فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٣٦] الذاريات وفي حديث وفد عبد القيس أن النبي صلى اللّه عليه وسلّم قال لهم: «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع الإيمان باللّه أتدرون ما الإيمان باللّه؟ شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه وإقام الصلاة» الخ وهذه أخبار آحاد فالاستدلال بها في أصل من الدين إنما هو مجرد تقريب على أن معظمها لا يدل على إطلاق الإيمان على حالة ليس معها حالة إسلام[٣٣].

القول الثالث: قول جمهور السلف من الصحابة والتابعين أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل ذلك أنهم لكمال حالهم ومجيئهم في فاتحة انبثاق أنوار الدين لم يكونوا يفرضون في الإيمان أحوالاً تقصر في الامتثال، ونسب ذلك إلى مالك وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والأوزاعي وابن جريج والنخعي والحسن وعطاء وطاووس ومجاهد وابن المبارك والبخاري ونسب لابن

---

٣٣) راجع تفسير هذه الآيات في هذا الكتاب

مسعود وحذيفة وبه قال ابن حزم من الظاهرية وتمسك به أهل الحديث لأخذهم بظاهر ألفاظ الأحاديث، وبذلك أثبتوا الزيادة والنقص في الإيمان بزيادة الأعمال ونقصها لقوله تعالى: [لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ] (الفتح: ٤) الخ. وجاء في الحديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة» فدل ذلك على قبوله للتفاضل. وعلى ذلك حمل قوله صلى الله عليه وسلّم «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» أي ليس متصفاً حينئذٍ بكمال الإيمان.

ونقل عن مالك أنه يزيد ولا ينقص فقيل إنما أمسك مالك عن القول بنقصانه خشية أن يظن به موافقة الخوارج الذين يكفرون بالذنوب. قال ابن بطال وهذا لا يخالف قول مالك بأن الإيمان هو التصديق وهو لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق أول منازل الإيمان ويوجب للمصدق الدخول فيه ولا يوجب له استكمال منازله وإنما أراد هؤلاء الأئمة الرد على المرجئة في قولهم إن الإيمان قول بلا عمل ا هـ. ولم يتابعهم عليه المتأخرون لأنهم رأوه شرحاً للإيمان الكامل وليس فيه النزاع إنما النزاع في أصل مسمى الإيمان وأول درجات النجاة من الخلود ولذلك أنكر أكثر المتكلمين أن يقال الإيمان يزيد وينقص وتأولوا نحو قوله تعالى: [لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا] (الفتح: ٤) بأن المراد تعدد الأدلة حتى يدوموا على الإيمان وهو التحقيق.

القول الرابع: قول الخوارج والمعتزلة إن الإيمان اعتقاد ونطق وعمل كما جاء في القول الثالث إلا أنهم أرادوا من قولهم حقيقة ظاهره من تركب

الإيمان من مجموع الثلاثة بحيث إذا اختل واحد منها بطل الإيمان، ولهم في تقرير بطلانه بنقص الأعمال الواجبة مذاهب غير منتظمة ولا معضودة بأدلة سوى التعلق بظواهر بعض الآثار مع الإهمال لما يعارضها من مثلها.

فأما الخوارج فقالوا إن تارك شيء من الأعمال كافر غير مؤمن وهو خالد في النار فالأعمال جزء من الإيمان وأرادوا من الأعمال فعل الواجبات وترك المحرمات ولو صغائر، إذ جميع الذنوب عندهم كبائر، وأما غير ذلك من الأعمال كالمندوبات والمستحبات فلا يوجب تركها خلوداً، إذ لا يقول مسلم إن ترك السنن والمندوبات يوجب الكفر والخلود في النار، وكذلك فعل المكروهات.

القول الخامس: قالت الكرامية الإيمان هو الإقرار باللسان إذا لم يخالف الاعتقادُ القولَ فلا يشترط في مسمى الإيمان شيء من المعرفة والتصديق،

قال ابن عاشور: هذه جوامع أقوال الفرق الإسلامية في مسمى الإيمان. وأنا أقول كلمة أربأُ بها عن الانحيَاز إلى نصرة وهي أن اختلاف المسلمين في أول خطوات مسيرهم وأول موقف من مواقف أنظارهم وقد مضت عليه الأيام بعد الأيام وتعاقبت الأقوام بعد الأقوام يعد نقصاً علمياً لا ينبغي البقاء عليه، ولا أعْرِفَنِّي بعد هذا اليوم ملتفتاً إليه.

لا جرم أن الشريعة أول ما طلبت من الناس الإيمان والإسلام ليخرجوا بذلك من عقائد الشرك، ومناوأة هذا الدين، فإذا حصل ذلك تهيأت النفوس لقبول الخيرات وأفاضت الشريعة عليها من تلك النيرات فكانت في تلقي ذلك على حسب استعدادها زينة لمعاشها في هذا العالم ومعادها، فالإيمان والإسلام هما الأصلان اللذان تنبعث عنهما الخيرات، وهما الحد الفاصل بين أهل الشقاء وأهل الخير حداً لا يقبل تفاوتاً ولا تشككاً، لأن شأن الحدود أن لا تكون متفاوتة كما قال الله تعالى: [فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا ٱلضَّلالُ] (يونس:٣٢)، ولا يدعي أحد أن مفهوم الإيمان هو مفهوم الإسلام، فيكابرَ لغة تتلَى عليه، كيف وقد فسره الرسول لذلك الجالس عند ركبتيه. فما الذين ادَّعَوْه إلا قومٌ قد ضاقت عليهم العبارة فأرادوا أن الاعتداد في هذا الذي لا يكون إلا بالأمرين وبذلك يتضح وجه الاكتفاء في كثير من مواد الكتاب والسنة بأحد اللفظين، في مقام خطاب الذين تحلوا بكلتا الخصلتين، فانتظم القولان الأول والثاني. فحاصل معنى الإيمان حصول الاعتقاد بما يجب اعتقاده، وحاصل معنى الإسلام إظهار المرء أنه أسلم نفسه لاتِّباع الدين ودعوة الرسول، قال تعالى: [إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ] (الأحزاب: ٣٥) الآية.[٣٤]

---

٣٤) التحرير والتنوير للعلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى في تفسير سورة البقرة.

قال بدر الدين العيني في عمدة القاري كلاما نفيسا نلخصه فيما يلي:
بابُ الإيمانِ وقولُ النَّبيِّ صلى اللّه عليه وسلّم: «بُنِي الإسْلاَمُ على خَمْسٍ»: في معناه باعتبار عرف الشرع: فقد اختلف أهل القبلة في مسمى الإيمان في عرف الشرع على أربع فرق.

١- فرقة: قالوا: الإيمان فعل القلب فقط، وهؤلاء قد اختلفوا على قولين:

أحدهما: هو مذهب المحققين، وإليه ذهب الأشعري (٣٢٤هـ)-أحد قوليه- وأكثر الأئمة كالقاضي عبد الجبار (٤١٥هـ)، والاستاذ أبي إسحاق الاسفرايني (٤٨١هـ)، والحسين بن الفضل (٢٨٢هـ) وغيرهم، أنه مجرد التصديق بالقلب أي: تصديق الرسول، عليه السلام، في كل ما علم مجيئه به بالضرورة تصديقاً جازماً مطلقاً.

والقول الثاني: إن الإيمان معرفة اللّه تعالى وحده بالقلب والإقرار باللسان ليس بركن فيه ولا شرط، حتى إن من عرف اللّه بقلبه، ثم جحد بلسانه، ومات قبل أن يقر به فهو مؤمن كامل الإيمان، وهو قول جهم بن صفوان (١٢٨هـ)...

٢- والفرقة الثانية: قالوا: إن الإيمان عمل باللسان فقط، وهم أيضاً فريقان.

الأول: إن الإقرار باللسان هو الإيمان فقط، ولكن شرط كونه إيماناً حصول المعرفة في القلب، فالمعرفة شرط لكون الإقرار اللساني إيماناً، لأنها داخلة في مسمى الإيمان، وهو قول غيلان بن مسلم الدمشقي (١٠٥هـ)، والفضل الرقاشي (٢٠٠هـ).

الثاني: أن الإيمان مجرد الإقرار باللسان، وهو قول الكرامية (أتباع محمد بن كرام ٢٠٩هـ)، وزعموا أن المنافق مؤمن الظاهر كافر السريرة، فيثبت له حكم المؤمنين في الدنيا، وحكم الكافرين في الآخرة.

٣- والفرقة الثالثة: قالوا: إن الإيمان عمل القلب واللسان معاً، أي: في الإيمان الإستدلالي دون الذي بين العبد وبين ربه. وقد اختلف هؤلاء على أقوال.

الأول: إن الإيمان إقرار باللسان ومعرفة بالقلب، وهو قول أبي حنيفة (١٥٠هـ) وعامة الفقهاء، وبعض المتكلمين.

الثاني: إن الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان معاً. وهو قول بشر المريسي (٢١٨هـ)، وأبي الحسن الأشعري - أحد قوليه-. الثالث: إن الإيمان إقرار باللسان. وإخلاص بالقلب....

٤- والفرقة الرابعة: قالوا: إن الإيمان فعل القلب واللسان مع سائر الجوارح،

وهم أصحاب الحديث، ومالك (١٧٩هـ)، والشافعي (٢٠٤هـ)، وأحمد (٢٤١هـ)، والأوزاعي (١٥٧هـ). وقال الإمام: وهو مذهب المعتزلة، والخوارج، والزيدية.

أما أصحاب الحديث فلهم أقوال ثلاثة.

الأول: إن المعرفة إيمان كامل، وهو الأصل، ثم بعد ذلك كل طاعة إيمان على حدة، وزعموا أن الجحود وإنكار القلب كفر، ثم كل معصية بعده كفر على حدة، ولم يجعلوا شيئاً من الطاعات إيماناً ما لم توجد المعرفة والإقرار، ولا شيئاً من المعاصي كفراً ما لم يوجد الجحود والإنكار، لأن أصل الطاعات الإيمان، وأصل المعاصي الكفر، والفرع لا يحصل دون ما هو أصله، وهو قول عبد الله بن سعيد (٢٥٧هـ).

القول الثاني: إن الإيمان اسم للطاعات كلها: فرائضها ونوافلها، وهي بجملتها إيمان واحد، وإن من ترك شيئاً من الفرائض فقد انتقص إيمانه ومن ترك النوافل لا ينقص إيمانه.

القول الثالث: إن الإيمان اسم للفرائض دون النوافل.

وأما المعتزلة فقد اتفقوا على أن الإيمان إذا عدي بالباء فالمراد به في الشرع التصديق، يقال: آمن بالله أي: صدق. فإن الإيمان بمعنى أداء الواجبات لا يمكن فيه هذه التعدية، لا يقال: فلان آمن بكذا إذا صلى أو

صام، بل يقال: آمن لله. كما يقال: صلى لله، فالإيمان المعدى بالباء يجري على طريق اللغة. وأما إذا ذكر مطلقاً غير معدى، فقد اتفقوا على أنه منقول نقلاً ثانياً من معنى التصديق إلى معنى آخر. ثم اختلفوا فيه على وجوه:

أحدها: أن الإيمان عبارة عن فعل كل الطاعات، سواء كانت واجبة أو مندوبة، أو من باب الاعتقادات، أو الأقوال والأفعال، وهو قول واصل بن عطاء (١٣١هـ)، وأبي الهذيل (٢٣٤هـ)، والقاضي عبد الجبار.

والثاني: أنه عبارة عن فعل الواجبات فقط دون النوافل، وهو قول أبي علي الجبائي (٣٠٣هـ)، وأبي هاشم (٣٢١هـ). والثالث: أن الإيمان عبارة عن اجتناب كل ما جاء فيه الوعيد، وهو قول النظام (٢٣١هـ)، ومن أصحابه من قال: شرط كونه مؤمناً، عندنا وعند الله، اجتناب كل الكبائر.

وأما الخوارج فقد اتفقوا على أن الإيمان بالله يتناول معرفة الله تعالى، ومعرفة كل ما نصب الله عليه دليلاً عقلياً أو نقلياً، ويتناول طاعة الله تعالى في جميع ما أمر به ونهى، صغيراً كان أو كبيراً. قالوا: مجموع هذه الأشياء هو الإيمان.

ويقرب من مذهب المعتزلة مذهب الخوارج؛ ويقرب من مذهبهما ما ذهب إليه السلف وأهل الأثر أن الإيمان عبارة عن مجموع ثلاثة أشياء: التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. إلاَّ أن بين هذه

المذاهب فرقاً، وهو: أن من ترك شيئاً من الطاعات، سواء أكان من الأفعال أو الأقوال، خرج من الإيمان عند المعتزلة، ولم يدخل في الكفر، بل وقع في مرتبة بينهما، يسمونها: منزلة بين المنزلتين. وعند الخوارج: دخل في الكفر، لأن ترك كل واحدة من الطاعات كفر عندهم، وعند السلف: لم يخرج من الإيمان. (إنتهى كلام العيني مختصرا)[٣٥]

قال العراقي في طرح التثريب: قَالَ النَّوَوِيُّ فِي قَوْلِهِ فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ {وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْت بِهِ} فِيهِ دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ لِمَذْهَبِ الْمُحَقِّقِينَ وَالْجَمَاهِيرِ مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إذَا اعْتَقَدَ دِينَ الْإِسْلَامِ اعْتِقَادًا جَازِمًا لَا تَرَدُّدَ فِيهِ كَفَاهُ ذَلِكَ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ مِنْ الْمُوَحِّدِينَ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ تَعَلُّمُ أَدِلَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَمَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا خِلَافًا لِمَنْ أَوْجَبَ ذَلِكَ، وَجَعَلَهُ شَرْطًا فِي كَوْنِهِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُ حُكْمُ الْمُسْلِمِينَ إلَّا بِهِ، وَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَبَعْضِ أَصْحَابِنَا الْمُتَكَلِّمِينَ، وَهُوَ خَطَأٌ ظَاهِرٌ فَإِنَّ الْمُرَادَ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ، وَقَدْ حَصَلَ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اكْتَفَى بِالتَّصْدِيقِ بِمَا جَاءَ بِهِ، وَلَمْ يَشْتَرِطْ الْمَعْرِفَةَ بِالدَّلِيلِ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ بِهَذَا أَحَادِيثُ فِي الصَّحِيحِ يُحَصِّلُ مَجْمُوعُهَا التَّوَاتُرَ بِأَصْلِهَا وَالْعِلْمِ الْقَطْعِيِّ انْتَهَى.

---

٣٥) عمدة القاري - بدر الدين العيني ٨٥٥هـ. ج١ ص١٠٢، تلخيص الأخ إبراهيم فرحات، مع مراعاة اختلاف الروايات عن الأئمة والمذاهب في ما ينسب إليهم من أقوال في الإيمان، خصوصا رأي الإمام الأشعري ورأي أبي حنيفة رضي الله عنهما.

وقال العراقي في طرح التثريب: (الرَّابِعَةُ) اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَمَا كَانَ مِثْلَهُ الْكَرَّامِيَّةُ، وَبَعْضُ الْمُرْجِئَةِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ دُونَ عَقْدِ الْقَلْبِ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُعْتَبَرْ سِوَى ذَلِكَ، وَجَوَابُ الْجَمَاعَةِ عَنْهُ أَنَّهُ إنَّمَا عَلَّقَهُ بِالْقَوْلِ لِأَنَّهُ الَّذِي يَظْهَرُ، وَتُرَتَّبُ عَلَيْهِ الْأَحْكَامُ. وَأَمَّا الِاعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ فَلَا سَبِيلَ لَنَا إلَى مَعْرِفَتِهِ لَكِنَّهُ لَا يَصِيرُ فِي الْبَاطِنِ مُسْلِمًا بِدُونِهِ، وَلَوْ اعْتَرَفَ لَنَا بِاعْتِقَادِهِ حَكَمْنَا بِكُفْرِهِ، وَمِنْ أَقْوَى مَا يُرَدُّ بِهِ عَلَى هَؤُلَاءِ إجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى إكْفَارِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا الشَّهَادَتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى [وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ] إلَى قَوْلِهِ [وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ]، وَمِمَّا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْت بِهِ، وَأَيْضًا فَلَفْظُ الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى فِي الصَّحِيحِ حَتَّى يَشْهَدُوا، وَالشَّهَادَةُ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ مُوَاطَأَةِ الْقَلْبِ لِلِّسَانِ بِدَلِيلِ تَكْذِيبِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ [نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ].[36]

قال ابن علان الصديقي: تنبيه: الإسلام له في الشرع إطلاقان: يطلق على الأعمال الظاهرة كما في هذا الحديث، وعلى الاستسلام والانقياد،

---

٣٦) طرح التثريب > كتاب الجنايات والقصاص والديات > حديث لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه > فائدة قتل تارك الصلاة ومانع الزكاة

والتلازم بينه وبين الإيمان اعتبار لما صدق شرعاً إنما هو باعتبار المعنى الثاني، وأما باعتبار المعنى الأول فالإيمان ينفك عنه، إذ قد يوجد التصديق والاستسلام الباطني بدون الأعمال المشروعة؛ وأما الإسلام بمعنى الأعمال المشروعة فلا يمكن أن ينفك عنه الإيمان لاشتراطه لصحتها وهي لا تشترط لصحته خلافاً للمعتزلة[٣٧]

قال ابن قيم الجوزية في كتاب الفوائد: وهذا وصف الذين قيل فيهم [وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ] (٦١) سبأ.... قال ابن القيم:... فالاول حال من رآى بعينه ما دعي عليه وأخبر به. والثاني حال من علم صدق المخبر وتيقنه وقال: "يكفيني خبره" فهو في مقام الايمان، والاول في مقام الاحسان. هذا وقد وصل الى علم اليقين، وترقى قلبه منه الى منزلة عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الاسلام. إ.هـ.[٣٨]

قال ابن حزم: (الإيمان هو التصديق في اللغة، وضرورةً كل من صدق بشيء –لغة- فهو مؤمن به وكل الفِرَق لا توقع اسم الإيمان على كل من صدّق بشيء ما ولا تطلقه إلا على صفة محدودة دون سائر الصفات، وهي

---

٣٧) دليل الفالحين لابن علان الصديقي باب المراقبة.

٣٨) ابن قيم الجوزية في كتاب الفوائد: قاعدة جليلة: الانتفاع بالقران وشروطه

من صدق بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبكل ما جاء به القرآن والبعث والجنة والنار والصلاة والزكاة وغير ذلك مما قد أجمعت الأمة على أنه لا يكون مؤمناً من لم يصدق به [لذا خرج الإيمان عن حقيقته اللغوية والعرفية إلى حقيقة شرعية تطلق على نوع معين من التصديق بشروط معينة لحقائق معينة مجتمعة] ونص القرآن يشهد أن أقواماً يؤمنون ببعض الرسل وبالله تعالى ويكفرون ببعض فلم يجز مع ذلك أن يطلق عليهم اسم الإيمان أصلا بل أوجب لهم اسم الكفر بنص القرآن [إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ١٥٠ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا] ١٥١ النساء.

وقال: إننا لا نسمي في الشريعة اسماً إلا بأن يأمرنا الله تعالى أن نسميه أو يبيح لنا بالنص أن نسميه، لأننا لا ندري مراد الله عز وجل منا إلا بوحي وارد من عنده علينا ومع هذا فإن الله عز وجل يقول منكراً لمن سمى في الشريعة شيئاً بغير إذنه عز وجل [إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ٢٣ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى] ٢٤ النجم، فصح أن لا تسمية مباحة لملَكٍ ولا لنبي، دون الله تعالى ومن خالف هذا فقد افترى على الله عز وجل الكذب، وخالف القرآن فنحن لا نسمي مؤمناً إلا من سماه الله عز

وجل مؤمناً ولا نسقط الإيمان بعد وجوبه إلا عمن أسقطه الله عز وجل عنه، ووجدنا بعض الأعمال التي سماها الله عز وجل إيماناً لم يسقط الله عز وجل اسم الإيمان عن تاركها فلم يجز لنا أن نسقط عنه لذلك، لكن نقول: إنه ضيّع بعض الإيمان ولم يضيّعه كله).

وقال: (أصل الإيمان في اللغة: التصديق بالقلب وباللسان معاً. بأي شيء صدق المصدق –لا شيء دون شيء البتة؛ إلا أن الله عز وجل على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقع لفظة الإيمان على العقد بالقلب لأشياء محدودة مخصوصة معروفة، لا على العقد لكل شيء وأوقعها أيضاً –تعالى- على الإقرار باللسان بتلك الأشياء خاصة لا بما سواها وأوقعها أيضاً على أعمال الجوارح لكل ما هو طاعة له –تعالى- فقط، فلا يحل لأحد خلاف الله تعالى فيما أنزل وحكم به.) [٣٩]

قال الشيخ العطار في حاشية العطار: ثُمَّ هَذَا كُلُّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّصْدِيقِ الَّذِي هُوَ مُسَمَّى الْإِيمَانِ هُوَ التَّصْدِيقُ الْمَنْطِقِيُّ وَهُوَ مَا عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ الْمُحَقِّقِينَ، فَيَكُونُ مِنْ جِنْسِ الْعُلُومِ لَكِنَّهُ مَشْرُوطٌ بِقُيُودٍ وَخُصُوصِيَّاتٍ كَالتَّحْصِيلِ وَالِاخْتِيَارِ وَتَرْكِ الْجُحُودِ وَالِاسْتِكْبَارِ وَيَدُلُّ لَهُ مَا ذَكَرَهُ أَمِيرُ

---

٣٩) الفصل في الملل والأهواء والنحل. ابن حزم ٣/ ٢٣٠-٢٣١ بتصرف

الْمُؤْمِنِينَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّ الْإِيمَانَ مَعْرِفَةٌ وَالْمَعْرِفَةَ تَسْلِيمٌ وَالتَّسْلِيمَ تَصْدِيقٌ.[٤٠]

وقال في متن العقائد النسفية: والإيمان هو التصديق بما جاء به من عند اللّه تعالى والإقرار به. فأما الأعمال فهي تتزايد في نفسها، والإيمان لا يزيد ولا ينقص. والإيمان والإسلام واحد، وإذا وجد من العبد التصديق والإقرار صحَّ له أن يقول: أنا مؤمن حقاً، ولا ينبغي أن يقول: أنا مؤمن إن شاء اللّه.[٤١]

قال التفتازاني في شرح العقائد النسفية: (والإيمان) في اللغة التصديق، أي إذعان حكم المخبر وقبوله وجعله صادقاً، إفعال من الأمن، كان حقيقة آمن به آمنه من التكذيب، والمخالفة...

وليس حقيقة التصديق أنى وقع في القلب نسبة الصدق إلى الخبر أو المخبر من غير إذعان وقبول، بل هو إذعان وقبول لذلك بحيث يقع عليه اسم التسليم على ما صرح به الإمام الغزالي. وإذا عرفت حقيقة معنى التصديق فاعلم أن الإيمان في الشرع: (هو التصديق بما جاء به من عند اللّه

---

٤٠) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع > الكلام في المقدمات في أصول الفقه > تعريف العلم

٤١) متن العقائد النسفية

تعالى) أي تصديق النبي عليه السلام بالقلب في جميع ما علم بالضرورة مجيئه به من عند اللّه تعالى إجمالاً وأنه كاف في الخروج عن عهدة الإيمان، ولا تنحط درجته عن الإيمان التفصيلي، فالمشرك المصدق بوجود الصانع وصفاته لا يكون مؤمناً إلا بحسب اللغة دون الشرع، لإخلاله بالتوحيد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: [وما يؤمن أكثرهم باللّه إلا وهم مشركون]. (والإقرار به) أي باللسان، إلا أن التصديق ركن لا يحتمل السقوط أصلاً، والإقرار قد يحتمله كما في حالة الإكراه.[42]

وقال الامام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الايمان: وإنا رددنا الأمر إلى ما ابتعث اللّه عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وأنزل به كتابه، فوجدناه قد جعل بدء الإيمان شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدا رسول اللّه، صلى اللّه عليه، فأقام النبي صلى اللّه عليه وسلم بمكة بعد النبوة عشر سنين أو بضع عشر سنة يدعو إلى هذه الشهادة خاصة، وليس الإيمان المفترض على العباد يومئذ سواها، فمن أجاب إليها كان مؤمنا، لا يلزمه اسم في الدين غيره، وليس يجب عليهم زكاة ولا صيام ولا غير ذلك من شرائع الدين،... فجعل ذلك الإقرار بالألسن وحدها هو الإيمان المفترض على الناس يومئذ، فكانوا على ذلك إقامتهم بمكة كلها، وبضعة عشر شهرا بالمدينة وبعد

---

٤٢) شرح العقائد النسفية للتفتازاني

الهجرة،.... ثم خاطبهم وهم بالمدينة باسم الإيمان المتقدم لهم، في كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه، فقال في الأمر: [يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا] الحج /٧٧ وقال في النهى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً] آل عمران / ١٣٠، وعلى هذا كل مخاطبة كانت لهم فيها أمر أو نهي بعد الهجرة وإنما سماهم بهذا الاسم بالإقرار وحده إذ لم يكن هناك فرض غيره، فلما نزلت الشرائع بعد هذا وجبت عليهم وجوب الأول سواء، لا فرق بينها، لأنها جميعا من عند اللّه وبأمره وبإيجابه، فلو أنهم عند تحويل القبلة إلى الكعبة أبوا أن يصلوا إليها وتمسكوا بذلك الإيمان الذي لزمهم اسمهم، والقبلة التي كانوا عليها، لم يكن ذلك مغنيا عنهم شيئا، ولكان فيه نقض لإقرارهم، لأن الطاعة الأولى ليست بأحق باسم الإيمان من الطاعة الثانية، فلما أجابوا اللّه ورسوله إلى قبول الصلاة كإجابتهم إلى الإقرار، صارا جميعا معا هما يؤمئذ الإيمان، إذ أضيفت الصلاة إلى الإقرار.[٤٣]

قال ابن حزم رحمه اللّه في كتابه الفصل بين الملل والنحل: (واقرب فرق المرجئة الى اهل السنة من ذهب مذهب ابي حنيفة: النعمان بن ثابت الفقيه رحمه اللّه تعالى: في انّ الايمان هو التصديق باللسان والقلب معا، وانّ الاعمال إنما هي شرائع الايمان وفرائضه فقط، وأبعدهم أصحاب جهم

٤٣) كتاب الإيمان ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢

بن صفوان وأبو الحسن الأشعري ومحمد بن كرام السجستاني.. فان جهما والاشعري يقولون: الايمان عقد بالقلب فقط، وان أظهر الكفر والتثليث بلسانه، وعبد الصليب في دار الاسلام بلا تقية، ومحمد بن كرّام يقول: هو القول باللسان وان اعتقد الكفر بقلبه.انتهى[٤٤] ملاحظة: أنكر المحققان صحة نسبة القول لابي الحسن الاشعري، راجع حاشية ص٢٦٦ من الكتاب المحقق، وحاشاه أن يقول ذلك.

٤٤) ص ٢٦٦ من الفصل - طبعة دارالجيل - بيروت لبنان ١٩٨٥م تحقيق د. محمد ابراهيم نصر ود. عبد الرحمن عميرة

الباب الثاني: مقامات تصديق الخبر ومعنى مطابقة الواقع،

معنى الاعتقاد:

أما أنـه (الإيمـان) تصـديق جـازم: -أي: (قناعـة قاطعـة لا تحتمـل ريبـاً ولا يتطرق إليها شك)-[45] فإنه لا يتأتى أن يصير التصديق بـالمطلوب الخبـري: أي بما يطلب الإيمان به إيمانًا، إلا إذا كـان تصـديقًا[46] وكـان جازمًـا لا مكـان لظن أو شك أو وهم أو تكذيب أن يدخل فيـه، والذي يوصله إلى هذه الدرجة هو الدليـل، أي أنـه يوصل التصديق إلى العلم، والعلم هو اليـقين أو القطـع، والمطلـوب هـو التصـديق المطـابق للواقـع لا مجـرد التصـور، أي أن تكـون الحقيقـة التـي نـؤمن بهـا حقًـا موجـودة أو موجِـدة تصـدقها الوقائـع ولا تناقضها وتطابق التصديق؛ لا مجرد فكـرة متخيَّلـة تُـشبع غريـزة التقـديس مثلا، (الظن منشأه ضعـف الإدراك إما لعدم الجزم أو لعدم المطابقة [للواقع] أو لعدم استناده إلى موجب).[47]،

---

٤٥) التيسير في أصول التفسير. عطا أبو الرشتة. ص٤٧

٤٦) قلنا في التعريف: التصديق الجازم ولم نقل الاعتقاد الجازم.

٤٧) نشر البنود على مراقي السعود. سيدي عبد الله الشنقيطي ج ١ ص ٦٢

قال الفخر الرازي في المحصول: (في تحديد العلم والظن: هذا المقصود إنما يتحقق ببحثين:

الأول: أن حكم الذهن بأمر على أمر إما أن يكون جازماً أو لا يكون؛ فإن كان جازماً فإما أن يكون مطابقاً للمحكوم عليه أو لا يكون؛ فإن كان مطابقاً فإما أن يكون لموجب أو لا يكون؛ فإن كان لموجِب فالموجب إما أن يكون حسياً أو عقلياً أو مركباً منهما؛ فإن كان حسياً فهو العلم الحاصل من الحواس الخمسة، ويقرب منه العلم بالأمور الوجدانية كاللذة والألم؛ وإن كان عقلياً فإما أن يكون الموجِب مجرد تصور طَرَفي القضية أو لا بد من شيء آخر من القضايا: فالأول هو البديهيات، والثاني: النظريات.

وأما إن كان الموجِب مركباً من الحس والعقل: فإما أن يكون من السمع والعقل وهو المتواترات؛ أو من سائر الحواس والعقل: وهو التجريبيات والحدسيات؛ وأما الذي لا يكون لموجِب فهو: اعتقاد المقلد؛ وأما الجازم غير المطابق فهو الجهل؛ وأما الذي لا يكون جازماً: فالتردد بين الطرفين: إن كان على السوية فهو الشك؛ وإلا: فالراجح ظن والمرجوح وهم.... ثم العبارة المحرَّرة أن الظن: تغليب لأحد مُجَوَّزين ظاهري التجويز، وهنا دقيقة: وهي أن التغليب إما أن يكون في المُعتَقَد أو في الاعتقاد؛ أما الذي في المعتقَد: فهو أن يكون الشيء ممكن الوجود والعدم إلا أن أحد الطرفين به أولى، كالغيم الرطب: فإن نزول المطر منه وعدم نزوله ممكنان لكن النزول أولى؛

وأما الذي يكون في الاعتقاد فهو أن يحصل اعتقاد الوقوع واعتقاد اللاوقوع كل واحد مع تجويز النقيض؛ لكن اعتقاد الوقوع يكون أظهر عنده من اعتقاد اللاوقوع فظهر أن اعتقاد رجحان الوقوع مغاير لاعتقاد رجحان اللاوقوع فهذا الثاني هو الظن فإن كان مطابقاً للمظنون: كان ظناً صادقاً وإلا كان ظناً كاذباً.

وأما الأول: وهو اعتقاد رجحان الوقوع: فإن كان مطابقاً للمعتقَد كان علماً أو تقليداً على التفصيل المتقدم وإلا كان جهلاً. والله أعلم. إهـ.) [٤٨]

وقال الزركشي في البحر المحيط: ضَابِطٌ: [الْـإِدْرَاكُ] الْـإِدْرَاكُ بِلَا حُكْمٍ تَصَوُّرٌ، وَمَعَ الْحُكْمِ تَصْدِيقٌ، لَكِنْ مَجْمُوعُهُمَا أَوْ الْحُكْمُ وَحْدَهُ فِيهِ خِلَافٌ، فَذَهَبَ الْقُدَمَاءُ إلَى أَنَّهُ الْحُكْمُ. وَاخْتَارَ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ أَنَّهُ الْمَجْمُوعُ. وَمَالَ إلَيْهِ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ فِي شَرْحِ الْعُنْوَانِ "، وَهُوَ جَهْلٌ، إنْ كَانَ جَازِمًا غَيْرَ مُطَابِقٍ، وَتَقْلِيدٌ إنْ طَابَقَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِمُوجِبٍ، وَعِلْمٌ إنْ كَانَ لِمُوجِبٍ عَقْلِيٍّ أَوْ حِسِّيٍّ، أَوْ مُرَكَّبٍ مِنْهُمَا وَهُوَ الْمُتَوَاتِرَات، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَازِمًا فَإِنْ تَسَاوَى

---

٤٨) المحصول في علم أصول الفقه. الفخر الرازي ١/٩-١٦

طَرَفَاهُ، فَهُوَ الشَّكُّ، وَإِلَّا فَالرَّاجِحُ ظَنٌّ صَادِقٌ إِنْ طَابَقَ، أَوْ كَاذِبٌ إِنْ لَمْ يُطَابِقْ، وَالْمَرْجُوحُ وَهْمٌ.[49]

وقال الزركشي أيضا في البحر المحيط: مسألة الظن:

الظَّنُّ هُوَ الاعْتِقَادُ الرَّاجِحُ مِنْ اعْتِقَادَيْ الطَّرَفَيْنِ، وَكَذَا رُجْحَانُ الاعْتِقَادِ لا اعْتِقَادُ الرَّاجِحِ أَوْ الرُّجْحَانِ، فَاعْتِقَادُ الرُّجْحَانِ لِمَا فِي نَفْسِ الأَمْرِ إمَّا مُحَقَّقٌ عَنْ بُرْهَانٍ، وَهُوَ الْعِلْمُ، أَوْ لا، وَهُوَ التَّقْلِيدُ وَالْجَهْلُ. فَهُوَ مُتَعَلَّقُ نَفْسِ الرُّجْحَانِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ ثَابِتٌ لا رُجْحَانَ فِيهِ، وَأَمَّا رُجْحَانُ الاعْتِقَادِ بِأَنْ يَكُونَ فِي النَّفْسِ احْتِمَالانِ مُتَعَارِضَانِ إلا أَنَّ أَحَدَهُمَا أَرْجَحُ فِي نَظَرِهِ، فَالأَوَّلُ قَدْ يَكُونُ مَوْجُودًا فِي الْخَارِجِ، وَأَمَّا الثَّانِي فَلا يُتَصَوَّرُ إلا فِي الذِّهْنِ، وَقِيلَ: تَجْوِيزُ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَقْوَى مِنْ الآخَرِ. وَنُقِضَ بِالْجَزْمِ تَجْوِيزُ أَمْرَيْنِ وَلَيْسَ بِظَنٍّ. وَقِيلَ: تَغْلِيبُ أَحَدِ الْمُجَوَّزَيْنِ وَفِيهِ إجْمَالٌ؛ لأَنَّ التَّغْلِيبَ إمَّا فِي نَفْسِ الْمُجَوِّزِ، وَإِمَّا فِي نَفْسِ الأَمْرِ، وَقَدْ يَكُونُ جَزْمًا وَقَدْ لا يَكُونُ، وَالثَّانِي قَرِيبٌ. وَقَالَ الآمِدِيُّ أَخِيرًا: إنَّهُ تَرَجُّحُ أَحَدِ مُمْكِنَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ فِي النَّفْسِ عَلَى الآخَرِ مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ، وَتَارَةً: إنَّهُ تَرَجُّحُ وُقُوعِ أَحَدِ مُمْكِنَيْنِ عَلَى الآخَرِ مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ. وَقَوْلُهُ: " مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ ": يَعْنِي عِنْدَ ذِكْرِ الاحْتِمَالِ إلا أَنْ يُرِيدَ مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ بِالتَّرْجِيحِ. وَحِينَئِذٍ فَهُوَ تَرَدُّدٌ

---

[49]) البحر المحيط > المقدمات > مفهوم النظر > أقسام النظر > مسألة النظر الفاسد لا يستلزم الجهل

بَـيْنَ إرَادَةِ رُجْحَـانِ الاعْتِقَـادِ، وَهُـوَ الْحَـقُّ، وَبَـيْـنَ رُجْحَـانِ الْمُعْتَقَـدِ، أَوْ اعْتِقَـادِ الرُّجْحَانِ وَلَيْسَ ذَلِكَ ظَنًّا.[٥٠]

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الشَّيْخَ حَـافِظَ الـدِّينِ النَّسَـفِيَّ ذَكَـرَ فِـي أَوَائِـلِ كَشْـفِ الْأَسْـرَارِ تَقْسِيمًا يَخْرُجُ مِنْهُ تَفْسِيرُ الْعِلْمِ وَغَيْرِهِ،... قَـالَ - رَحِمَـهُ اللَّـهُ -: اعْلَـمْ أَنَّ حُكْـمَ الذِّهْنِ بِأَمْرٍ عَلَى آخَرَ إنْ كَانَ جَازِمًا فَجَهْلٌ إنْ لَمْ يُطَابِقْ وَتَقْلِيدٌ إنْ طَابَقَ وَلَـمْ يَكُنْ لِمُوجِبٍ، وَعِلْمٌ لَوْ كَانَ لِمُوجِبٍ عَقْلِـيٍّ أَوْ حِسِّـيٍّ أَوْ مُرَكَّـبٍ مِنْهُمَـا فَالْـأَوَّلُ بَدِيهِيٌّ إنْ كَفَى تَصَوُّرُ طَرَفَيْهِ لِحُصُولِهِ، وَإِلَّا فِكْرِيٌّ وَالثَّانِي عِلْمٌ بِالْمَحْسُوسَـاتِ وَالثَّالِثُ بِالْمُتَوَاتِرَاتِ وَالْحَدْسِـيَّاتِ وَالْمُجَرَّبَـاتِ، وَإِنْ لَـمْ يَكُـنْ جَازِمًـا فَشَـكٌّ إنْ تَسَاوَى طَرَفَاهُ، وَإِلَّا فَالرَّاجِحُ ظَنٌّ، وَالْمَرْجُوحُ وَهْمٌ. إ. هـ.[٥١]

قال الصنعاني رحمه الله: واعلم أنه قـد تحصـل مـن قولـه والعلـم معنـى يقتضي السـكون إلـى هنا تعريـف الأقسـام كلهـا فـالعلم هـو المعنـى الـذي اقتضى سكون الـنفس بمـا علمتـه وهـو الـذي يعبـرون عنـه بانـه التصـديق الجازم المطابق مع سكون الـنفس والاعتقـاد الصـحيح هـو التصـديق الجـازم المطـابق مـع عـدم سـكونها والاعتقـاد الفاسـد هـو التصـديق الجـازم غيـر

---

٥٠) البحر المحيط للزركشي مسألة الظن.

٥١) التقرير والتحبير > المقدمة أربعة أمور > الأمر الثالث المقدمات المنطقية مباحث النظر

المطابق والظن هو الإدراك الراجح غير الجازم والوهم هو الإدراك غير الجازم المرجوح والشك هو الإدراك غير الجازم المستوي الطرفين.[٥٢]

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: ...(ميل النفس إلى التصديق بالشيء له أربع مقامات: الأول: أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك؛ الثاني: أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول، كما إذا سُئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح، ومع هذا فأنت تُجوّز اختفاء أمر موجب للعقاب في باطنه وسريرته، فهذا التجويز مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه، فهذه الحالة تسمى ظناً.

الثالث: أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله، ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز، وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها إذ رسخ في نفوسهم بمجرد السماع، حتى

---

٥٢) إجابة السائل شرح بغية الآمل للصنعاني ١ / ٦١

إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها؛ ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله.

الرابع: المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء [المتكلمين]... وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً؛ فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك ... وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في نفي الشك.) [٥٣]

قال الشعراوي: (النسب أنواع متعددة؛ نسبة أنا جازم بها وفي الواقع أنها واقعة كقولنا محمد مجتهد أنا أجزم بذلك والواقع كذلك وأستطيع أن أدلل عليه فهذا هو العلم؛ وإن كنت جازمًا بها وهي واقعة ولا أستطيع التدليل عليها فهذا هو التقليد؛ فإن كنت جازماً بها وهي مخالفة للواقع فهذا هو الجهل والجهل غير الأمية؛ إذ الأمية أن لا تعلم أما الجهل فأن تعلم ما يخالف الواقع، لذلك كان التعامل مع الجاهل أصعب لأن عليك أن تنتزع الباطل منه أولا؛ فإن كنت غير جازم فإن كانت النسبة متأرجحة فالشك؛ وإن كانت راجحة فالظن أو مرجوحة فالوهم)[٥٤].

---

٥٣) إحياء علوم الدين. للإمام أبي حامد الغزالي. المجلد ١ ص ٨٨-٨٩

٥٤) تفسير الشيخ محمد متولي الشعراوي. الآية١٥٧ النساء. أقراص مدمجة

وقد يُقال: ففيم هذه التقسيمات، وقد يختلط أحيانا استعمال هذه الألفاظ في كتب أهل العلم أو اللغة، فنقول أننا احتجنا إلى تحديد ما ينجي من الإيمان عند الله، كي لا يقع العبد في قوله تعالى: [وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ] ٣٢ الجاثية، وحتى يدخل في قوله تعالى: [فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ] ١٩ محمد؛ وقوله [اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ٩٨ المائدة؛ وقوله [وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ] ٢٢٣ البقرة؛ فلا بد من ضوابط تخرج الجهل، فكان شرط المطابقة، وتحترز عن الظن والشك فكان شرط الجزم، وتخرج التقليد فكان شرط: الدليل أي لموجب، فكان لا بد من حد هذه الحدود في التعريف، ولا بد من نحت تعريفات أصولية لمصطلحات تصف كل مقام من مقامات تصديق الخبر أو ما يوجبه الخبر عند سامعه، كي نضبط مفاهيم الإيمان ضبطا محكما يناسب مفاهيم الإيمان ودقتها.

الباب الثالث: الاعتقاد ما هو؟

بعد هذا التفصيل فلنضع بعض الأمور في نصابها: من قال من أهل العلم أن الايمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، فقد فصَّل، في طريق الوصول إلى التعريف الجامع المانع، ولنسترجع قول العلامة ابن تيمية رحمه الله في كتاب الايمان الكبير: (والمقصود هنا) أن من قال من السلف: الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح؛ ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ومن قال: قول وعمل ونية قال: القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان إ.هـ. [٥٥].

فالاعتقاد المذكور هنا كما هو بيّن واضح من جملة ما نقلناه من نقول لا مجال للتشكيك في صحة مفهومها لا بد أن يكون التصديق الجازم المطابق للواقع، وبالتالي فالايمان عند العلامة ابن تيمية رحمه الله هو التصديق الجازم المطابق للواقع مضافا إليه قول اللسان وعمل الجوارح، وسيمر لاحقا بحول الله تعالى معنا في مواضع كثيرة من كلام العلامة ما يثبت ذلك، مثلا ما نصه: وأحمد ذكر أنه لابد من المعرفة والتصديق مع

---

٥٥) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧١ كتاب الايمان الكبير ص ١٧١

الإقرار وقال أن من جحد المعرفة والتصديق فقد قال قولا عظيماً، فإن فساد هذا القول معلوم من دين الإسلام.[٥٦]

وقوله رحمه الله: وَأَجْمَعَ السَّلَفُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ قَوْلُ الْقَلْبِ وَعَمَلُ الْقَلْبِ ثُمَّ قَوْلُ اللِّسَانِ وَعَمَلُ الْجَوَارِحِ. فَأَمَّا قَوْلُ الْقَلْبِ فَهُوَ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَدْخُلُ فِيهِ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ النَّاسُ فِي هَذَا عَلَى أَقْسَامٍ: مِنْهُمْ مَنْ صَدَّقَ بِهِ جُمْلَةً وَلَمْ يَعْرِفْ التَّفْصِيلَ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّقَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَدُومُ اسْتِحْضَارُهُ وَذِكْرُهُ لِهَذَا التَّصْدِيقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْفُلُ عَنْهُ وَيَذْهَلُ وَمِنْهُمْ مَنْ اسْتَبْصَرَ فِيهِ بِمَا قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ النُّورِ وَالْإِيمَانِ وَمِنْهُمْ مَنْ جَزَمَ بِهِ لِدَلِيلِ قَدْ تَعْتَرِضُ فِيهِ شُبْهَةٌ أَوْ تَقْلِيدٌ جَازِمٌ وَهَذَا التَّصْدِيقُ يَتْبَعُهُ عَمَلُ الْقَلْبِ وَهُوَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْظِيمُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِيرُ الرَّسُولِ وَتَوْقِيرُهُ وَخَشْيَةُ اللَّهِ وَالْإِنَابَةُ إلَيْهِ وَالْإِخْلَاصُ لَهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَحْوَالِ فَهَذِهِ الْأَعْمَالُ الْقَلْبِيَّةُ كُلُّهَا مِنْ الْإِيمَانِ وَهِيَ مِمَّا يُوجِبُهَا التَّصْدِيقُ وَالِاعْتِقَادُ إيجَابَ الْعِلَّةِ لِلْمَعْلُولِ.

---

٥٦) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٩٤-٤٠٠

وَيَتْبَعُ الِاعْتِقَادَ قَوْلُ اللِّسَانِ وَيَتْبَعُ عَمَلَ الْقَلْبِ الْجَوَارِحُ مِنْ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ. [٥٧]

وقال ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسلة: الوجه السابع والثمانون: إن حقيقة قول المعارضين بين النصوص الإلهية النبوية وآراء الرجال وتقديم الآراء عليها أن لا يحتج بالقرآن والسنة على شيء من المسائل العلمية بل ولا يستفاد التصديق الجازم بشيء من أخبار الله ورسوله البتة... وعدم العلم بالمعارض لا يستلزم العلم بعدمه فهو يجوز أن يكون ثم معارض ولا علم له به وهذا يمنع الجزم بالتصديق قطعا كما تقدم التنبيه عليه فظهر أن هذه الطريقة تمنع التصديق الجازم فيما أخبر به الرسول من الغيب وتحول بين القلب وبين الإيمان. وسر المسألة أنه متى جوز أن يكون في العقل ما يناقض خبر الله ورسوله امتنع منه الإيمان الجازم. والإيمان اليقيني الجازم وهذا التجويز لا يجتمعان أبدا. إ.هـ. [٥٨]

ولو رجعنا قليلا للوراء وناقشنا القول التالي: (والمقصود هنا) أن من قال من السلف: الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب

---

٥٧) مجموع فتاوى ابن تيمية > العقيدة > كتاب الإيمان > مسألة: معنى حديث النبي إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه

٥٨) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم

والجوارح؛ ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ومن قال: قول وعمل ونية قال: القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان إ.هـ.

نقول: إن الاكتفاء بالقول دون الاعتقاد (التصديق) خطأ واضح، نستذكر ما قال العراقي في طرح التثريب: (الرَّابِعَةُ) اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَمَا كَانَ مِثْلَهُ الْكَرَّامِيَّةُ، وَبَعْضُ الْمُرْجِئَةِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ دُونَ عَقْدِ الْقَلْبِ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُعْتَبَرْ سِوَى ذَلِكَ، وَجَوَابُ الْجَمَاعَةِ عَنْهُ أَنَّهُ إنَّمَا عَلَّقَهُ بِالْقَوْلِ لِأَنَّهُ الَّذِي يَظْهَرُ، وَتُرَتَّبُ عَلَيْهِ الْأَحْكَامُ. وَأَمَّا الِاعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ فَلَا سَبِيلَ لَنَا إلَى مَعْرِفَتِهِ لَكِنَّهُ لَا يَصِيرُ فِي الْبَاطِنِ مُسْلِمًا بِدُونِهِ، وَلَوْ اعْتَرَفَ لَنَا بِاعْتِقَادِهِ حَكَمْنَا بِكُفْرِهِ، وَمِنْ أَقْوَى مَا يُرَدُّ بِهِ عَلَى هَؤُلَاءِ إجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى إكْفَارِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا الشَّهَادَتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى [وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إنَّهُمْ كَفَرُوا بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ] إلَى قَوْلِهِ [وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ]، وَمِمَّا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، وَأَيْضًا فَلَفْظُ الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى فِي الصَّحِيحِ حَتَّى يَشْهَدُوا، وَالشَّهَادَةُ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ مُوَاطَأَةِ الْقَلْبِ

لِلِّسَانِ بِدَلِيلِ تَكْذِيبِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ [نَشْهَدُ إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ]. [٥٩]

من هنا كان القول باللسان وحده غير مجزئ في تعريف الايمان ولا يدل على اعتقاد القلب، فلا شك أن الاستدراك الذي بينه العلامة رحمه الله تعالى في محله إذ قال: ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب.

ولا شك أن هذا يعني أنه ثمة فرق بين الاعتقاد بالقلب وبين القول باللسان (الإقرار) وقد فسر الاعتقاد بالقلب أو قول القلب كما سماه في الموضع الآخر بأنه التصديق الجازم.

من هنا فلا شك أن تفصيل تعريف الايمان يبدأ بأنه: التصديق الجازم المطابق للواقع ولا خلاف ان شاء الله ولكن لنر بقية أركان التعريف ومواطن الخلاف لعلنا نصل بحول الله تعالى إلى تعريف جامع مانع للايمان.

قال الامام أبو عبيد القاسم: فهكذا الإيمان هو درجات ومنازل، وإن كان سمى أهله اسما واحدا وإنما هو عمل من أعمال تعبد الله به عباده وفرضه

---

٥٩) طرح التثريب > كتاب الجنايات والقصاص والديات > حديث لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله > فائدة قتل تارك الصلاة ومانع الزكاة

على جوارحهم، وجعل أصله في معرفة القلب، ثم جعل المنطق شاهدا عليه، ثم الأعمال مصدقة له، وإنما أعطى الله كل جارحة عملا لم يعطه الأخرى فعمل القلب الاعتقاد، وعمل اللسان القول، وعمل اليد التناول، وعمل الرجل المشي، وكلها يجمعها اسم العمل، فالإيمان على هذا التناول إنما هو كله مبني على العمل، من أوله إلى آخره، إلا أنه يتفاضل في الدرجات على ما وصفنا. [٦٠]

٦٠) الايمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٧٦

فصل: الإيمان له حقيقة لغوية وعرفية وشرعية والمؤمن حقيقة شرعية لا غير:

الإيمان لغة التصديق، واصطلاحاً: التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، وهذا هو معناه العرفي، والقول الفصل هنا أن الايمان قد يطلق بمعناه اللغوي فقط على غير الايمان بشرائع وحقائق الايمان (بالله وملائكته...)، من باب بيان مقدار تغلغل الباطل لكن دون تحقيق لهذا المعنى على وجهه الحقيقي أي أن يكون الايمان حقيقة مستوفيا لما به ينتقل التصديق إلى الجزم المطابق للواقع عن دليل، ولا لأن يستوفي ما به يكون المؤمن مؤمنا من إيمان بحقائق الايمان وأركانه، فيقال مثلا [يؤمنون بالجبت والطاغوت]، ولكن الإيمان على حقيقته ومفهومه السليم الذي يراد به إخراج الناس من ظلمات الشرك والضلال إلى نور الحق والهدى مقصور على الايمان بمعناه الشرعي، من هنا فالإيمان حقيقة شرعية فقط لا يتحقق الصواب فيه إلا عبر ما جاء به الاسلام، والايمان العرفي لا يمكن أن يتحقق بوجهه الصحيح إلا عبر الايمان الشرعي، لأن الدليل لا بد أن يقود إلى الايمان الصحيح، والمطابقة للواقع لا بد أن تقود للواقع الموجود حقا لا ما تتخيله الأذهان وهو غير صحيح، وبالتالي فأي إطلاق للايمان على غير حقائق هذا الاسلام يكون إطلاقا لغويا لبيان مدى تغلغل الباطل في النفوس.

أما الايمان العرفي أو الاصطلاحي فقد يوجد لدى شخص ما كبعض علماء أهل الكتاب التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل ولا ينتقلون به إلى حظيرة المؤمنين لعدم استكمالهم شروطا معينة أو لقيامهم بأفعال مكفرة، فهؤلاء لديهم الايمان العرفي لا الشرعي فلا يمنع إطلاق الايمان بمعناه اللغوي أو العرفي عليهم وقد أطلقه القرآن عليهم.

وبيان ذلك: أن الإيمان بمعناه العرفي يشترط مطابقة الواقع فيما نؤمن به، وقد نرى أن ثمة معتقدين جزما بأمور لا تطابق الواقع؛ فالملحد يؤمن بقدم العالم، هو تفكَّرَ حتى وصل إلى هذه القناعة، فنصف ما وصل إليه بأنه الاعتقاد بالنسبة له، رغم مخالفته للواقع؛ فقط من باب الاطلاق اللغوي، أو من باب الاعتقاد الفاسد، لأن الدليل الصحيح لا بد أن يقود إلى حقيقة أن العالم غير أزلي ومطابقة الواقع كذلك. قال الشيخ عبد السلام اللقاني في شرح جوهرة التوحيد لوالده: قد يكون الاعتقاد لا يطابق الواقع كاعتقاد الفلسفي قدم العالم.[٦١]

فالضابط الذي وضعه العلماء من مطابقة الواقع للمعتقَد هو لتمييز الإعتقاد الصحيح من الفاسد، والحقيقي من الخرص،، قال الصنعاني في إجابة السائل: فكأنه قيل الاعتقاد هو الجزم الذي يقبل التشكيك في الجملة

٦١) الإستدلال بالظني في العقيدة. فتحي سليم. دار البيارق. ص ٢٢

أشار إليه السعد في حواشي شرح العضد ثم إنه ينقسم الاعتقاد إلى صحيح وفاسد كما أفاده قولنا مطابقا فهو الصحيح أو عدا ذلك هو فاسد وجهل فالصحيح من الاعتقاد ما طابق الواقع والفاسد بخلافه فالأول كاعتقاد المقلد بمشروعية رفع اليدين في تكبيرة الإحرام في الصلاة مثلا والثاني كاعتقاد الملاحدة أن العالم قديم فهو اعتقاد فاسد ويقال له جهل مركب أيضا إذ هو جهل لما في الواقع وجهل بكونه جاهلا واعلم أن مطابقته للواقع قد تكون معلومة بالدليل لنا كاعتقاد حدوث العالم لقيام الأدلة عليه التي يمكن معها معرفة مطابقة الاعتقاد للواقع ومثل مسألة رفع اليدين فيما مثل وقد لا يعلم بالأدلة ولا ضير في ذلك لأن حقيقة الاعتقاد الصحيح مطابقته للواقع لا الاطلاع عليها.[٦٢]

وقد وصف الله سبحانه الكافرين بوصف أنهم آمنوا بالباطل: فقال تعالى [قُلْ كَفَى بِاللَّه بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّه أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] ٥٢ العنكبوت. وقال تعالى [ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّه وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ] ١٢ غافر. [ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا

---

٦٢) إجابة السائل شرح بغية الآمل للصنعاني ١ / ٦٠

سبيلا] النساء ١٥٤ فهل هذا يعني أن الإيمان يطلق على أي تصديق جازم، فها هو يطلق على الكفار وصف الإيمان نظير تصديقهم الجازم بمعتقداتهم؟

حقيقة هذا السؤال يحتاج لدقة: فالإطلاق من باب استعمال المعنى اللغوي لا شيء فيه،، وها أنت ترى أن الحق سبحانه يصف مدى كفرهم بالحق أنه ايمان بالباطل، فهذا من باب استعمال المعنى اللغوي، لأن إيمانهم لا يستكمل أركان التعريف الاصطلاحي، فهو لا يقوم على دليل ولا يطابق الواقع فهو مجرد تصديق جازم انعقد القلب عليه.

من هنا أرى أنه لا بد من إضافة ضابط المطابقة للواقع والدليل على تعريف الايمان كي لا يوصف بالايمان كل من صدق جازماً بحقيقة ما.

أما لفظ الايمان الذي يترتب عليه وصف "مؤمن" وعلى هذا الوصف يترتب ثواب وعقاب، إيمان وكفر، فللإيمان حينها معنى شرعي لا يمكن إطلاقه قطعا على غير المسلمين وبيان ذلك من جوانب:

أهمها أن الحق سبحانه بين أن فريقاً من أهل الكتاب كحيي بن أخطب مثلا يعلم أن ما جاء به الرسول حق، كانوا ينتظرونه ولديهم علاماته،...الخ وأنهم يعرفون هذا النبي معرفتهم بأبنائهم، وما إلى ذلك، فهم يعلمون

الحقائق التي بها يسمى المسلم مؤمناً، فقد كانوا على دين أنبيائهم مؤمنين بالله وملائكته... ولا ينقصهم إلا الايمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولما جاءهم عرفوه ولكن... ومع ذلك فهم كفار،

قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً] ١٣٦ النساء فإذا كان من يعلم (ويستيقن، أي يصدق جازماً كما سيأتي) حقائق هذا الدين أي أنه يصدق جازماً بأمرٍ حق، ولكنه غير مؤمن، إذ لم تتوفر فيه شرائط معينة فهو غير مؤمن، بل هو كافر بنص القرآن، فكيف لنا أن نصف من يصدق بأمر مناقض لهذا الحق، أنّى لنا أن نصفه بالمؤمن، والشاهد هنا أننا لو فرضنا أن هذا (المؤمن) بالطاغوت يصدق جازماً بما يعتقد، وذلك الكتابي العالم يصدق جازماً بحقائق الإيمان أو ببعضها، فكما لا يوصف هذا بالمؤمن فالأول من باب أولى.

والثانية: أن من يؤمن ببعض العقائد ويكفر ببعضها كافر بنص الكتاب، فكيف لنا أن نصِف من (يؤمن) بنقيضها بأنه مؤمن، أي أرمي من ذلك أن مصطلح المؤمن شرعي فقط، وأما مصطلح الإيمان فاصطلاحي وشرعي وأن الذي يقوم بالتصديق الجازم يلزمه أن لا يقوم بفعل مكفر ولا أن يبعض إيمانه فيؤمن ببعض الحقائق ويكفر ببعض وما إلى ذلك ليصبح مؤمنا، إذ

أن المؤمن ليس فقط من يؤمن بوجود اللّه دون الإيمان بالآخرة مثلا وهكذا لا بد من جمع كل حقائق الايمان ولا بد أيضا من شروط أخرى كالرضا والتسليم كما سيأتي بيانه لاحقا ان شاء اللّه، فتصديقه الجازم ببعض حقائق الايمان لا يخلع عليه وصف المؤمن، حتى يضم إليها كل ما طلب الإيمان به وأن يرضى ويسلم.

والثالثة: نقول أن الإيمان في هذه الآيات ليس إلا نتاج تقليد بلا دليل، فهو مجرد تصديق بلا دليل، ولا يمكن أن يكون الإيمان – حتى العرفي منه – بلا دليل، فالدليل هو الذي يحقق الجزم وينفي الظن والشك (وهو شرط الإيمان)، لذا قلنا بأن الاطلاق هنا من باب الاطلاق اللغوي! وما وصفهم به في هذه الآيات إلا لمناسبة ذلك للسياق، فانظر: يقول تعالى: [بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ٤٩ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥١ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] ٥٢ العنكبوت، فهم يطلبون الآيات وهي أمام أعينهم، وهي رحمة من اللّه يعمون عنها ويصدفون عنها، ويمعنون في جحودهم، فيخاطبهم الحق سبحانه واصفاً تعنتهم بسخرية ووعيد بأنه إيمان بالباطل وكفر باللّه، واعداً

إياهم بالخسران، هذا هو السياق، يصف مقدار الجحود والعمى، باستهزاء بهم، وتوعد، كأنه يقول لهم افرحوا بهذا الضلال الذي بلغ أقصى حالاته وليكن في أعينكم إيماناً، بلغتم به أقصى حالات الكفر ببلوغكم نقيض ما أمرتكم به من إيمان، رغم أنه حتى لا يستند إلى أدلة ولا إلى تفكير ولا مطابقة للواقع، فهو عمى وكفر، وقد يكون الإطلاق هنا من باب إطلاق المعنى اللغوي على تصديقهم لبيان مدى تغلغل الباطل في قلوبهم، فهو وصل إلى مرحلة الاعتقاد لا عن عقيدة من تأمل وفكر، ولكن عن ضلال وتعنت.

والملاحظة المهمة هنا هي أن حقيقة الإيمان الخالي من نواقضه المستكمل لشرائطه ينتج عنها لقب يوصف حامله بأنه مؤمن، فمن تحققت فيه هذه الحقيقة سمي مؤمناً، ودخل في خطاب [يا أيها الذين ءامنوا]، ووجبت له الجنة، وقد ميز القرآن فيما لا حصر له بين المؤمنين والكفار، فلئن وصف فعلهم هنا بأنه إيمان بالباطل، فإنه ضرورة لا يطلق عليهم لقب مؤمنين، كمن آمن مثلا -مع الفارق- بالله وبالبعث ولم يؤمن بالملائكة مثلا فهذا لا يطلق عليه لقب مؤمن بل هو كافر قطعاً، فمن هنا نميز بين من صدق جازماً بأمر ما فإذا لم يجمع إليه كل حقائق الإيمان فلا يمكن أن يسمى مؤمناً، فالمؤمن حقيقة شرعية لا غير، ويكون وصف فعله بأنه إيمان من الإطلاق اللغوي أو العرفي.

وعلى هذا قس الآيات الأخرى التي وصف الله تعالى جحودهم فيها بأنه إيمان. والله أعلم.

قال الامام تقي الدين النبهاني رحمه الله: ومما يجب أن يُلفت النظر إليه أن اعتناق العقيدة الإسلامية معناه الإيمان بكافة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم. ويجب أن يعلم أن مجرد المعرفة لا يغني، وأن التمرد على أصغر شيء ثابت يقيناً من الإسلام يخرج الشخص ويفصله من العقيدة. والإسلام كلٌ غير قابل للتجزئة من حيث الإيمان والتقبل فلا يجوز في الإسلام إلا أن يُتقبل كاملاً، والتنازل عن بعضه كفر،...[٦٣]

قال في أقاويل الثقات: فإن الإيمان المعتبر في الشرع هو تصديق القلب الجازم بما علم ضرورة مجيء الرسول به من عند الله تفصيلا فيما علم تفصيلا كالتوحيد والنبوة وإجمالا فيما علم إجمالا كالأنبياء السالفة والصفات القديمة التي نطق بها القرآن وهذا هو الحق.[٦٤]

---

٦٣) الشخصية الاسلامية الجزء الأول لتقي الدين النبهاني فصل الثغرات في السلوك

٦٤) أقاويل الثقات لمرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي ١/ ٦٩

وقال في تحفة المحتاج في شرح المنهاج: إذْ مَفْهُومُ الْإِسْلَامِ الِاسْتِسْلَامُ وَالِانْقِيَادُ وَمَفْهُومُ الْإِيمَانِ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ بِكُلِّ مَا عُلِمَ مَجِيئُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ بِالضَّرُورَةِ إجْمَالًا فِي الْإِجْمَالِيِّ وَتَفْصِيلًا فِي التَّفْصِيلِيِّ هَذَا.[٦٥]

قال الزمخشري في الكشاف في تفسير هذه الآية: [والذين آمنوا بالباطل]...المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان الا ان الكلام ورد مورد الانصاف كقوله [وإنّا أو إياكم لعلى هدى او في ضلال مبين] سبأ: ٢٤ وكقول حسان: فشركما لخيركما الفداء. إ.هـ

قال ابن تيمية: إذا عرف أن أصل الإيمان في القلب، فاسم [الإيمان] تارة يطلق على ما في القلب من الأقوال القلبية والأعمال القلبية من التصديق والمحبة والتعظيم ونحو ذلك، وتكون الأقوال الظاهرة والأعمال لوازمه وموجباته ودلائله، وتارة على ما في القلب والبدن جعلا لموجب الإيمان ومقتضاه داخلا في مسماه،... وأيضًا، فإن اللّه سبحانه قال: [ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا] النساء:٥١، وقال: [فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ] البقرة:١٥٦، فتبين أن الطاغوت يؤمن به ويكفر به. ومعلوم أن مجرد التصديق بوجوده وما هو

---

٦٥) تحفة المحتاج في شرح المنهاج > خطبة الكتاب

عليه من الصفات يشترك فيه المؤمن والكافر؛ فإن الأصنام والشيطان والسحر يشترك في العلم بحاله المؤمن والكافر، وقد قال الله تعالى في السحر: [حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه] إلى قوله: [ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق] البقرة: ١٠٢ فهؤلاء الذين اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، يعلمون أنه لا خلاق لهم في الآخرة، ومع هذا فيكفرون[٦٦]. إ.هـ.

المغزى هنا خمسة أمور: أولا أن الايمان يمكن إطلاقه على الطاغوت والباطل،، فتقول يؤمن بالباطل، أي أن من صدق جازمًا بأمر كان مؤمنًا به (لغة فقط) لكنه لا يدخل في مسمى المؤمن الشرعي الذي لا يطلق إلا على من آمن بحقائق الايمان التي في دين الله.

والثاني: أنه ثمة مصدقين جزمًا بحقائق هذا الدين أو ببعضها كاليهود مثلا أوكمن يتبع ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان عالما بأنه ما له في الآخرة من خلاق، ومثل إبليس لكنهم لا يمكن نعتهم بالمؤمنين بهذه الحقائق التي يصدقون بها جازمين لانتفاء الاتباع (أي أنهم يشاققون

---

٦٦) في مجموع الفتاوى الجزء السابع

والتسليم أي بالاسلام وحقائقه وعقائده التي يصدقون جزما بها أو ببعضها أو للقيام بعمل مكفر.

والثالث: أن هؤلاء إلى جانب أنهم لم يستكملوا الشرائط التي تنقل المصدق جازما إلى وصف المؤمن فهم قاموا بأفعال مكفرة، ولا يشك عاقل في أن إبليس الذي رأى الملكوت الأعلى ويعلم أن الحساب حق والنار حق وما إلى ذلك كافر لا لانتفاء التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل لديه، ولكنه لقيامه بفعل مكفر كفر كالتكبر والجحود في حضرة رب العالمين، ولتمرده على الحقائق التي لا بد من الانقياد لها للدخول في حياض المؤمنين، فهو بذا ليس لديه التصديق الجازم بكل ما جاء به الحق، لأن من شروطه التسليم والانقياد، ومن شروطه التصديق بكل ما جاء به، فتمرده على أمر اللّه له بالسجود علامة على أنه لا يصدق بأن عليه طاعة أمر اللّه وكفى بها أمرا مكفرا.

والرابع: أن العلامة رحمه الله هنا يوافق على إطلاق مسمى الايمان على حقائق كفرية كالجبت والطاغوت فتقول يؤمن بالطاغوت، وبالتالي فلا بد من التسليم بوجود حقيقة عرفية اصطلاحية للايمان يمكن إطلاقها على غير المسلمين المؤمنين قوامها التصديق الجازم لو تأملت كلامه مليا لرأيت فيه أمرًا دقيقا ربما لم يلتفت له وهو: "يعلمون أنه لا خلاق لهم في الآخرة، ومع هذا فيكفرون"، فمع علمهم بأنهم على باطل إلا أنهم كفروا فلم نطلق

عليهم وصف المؤمنين الشرعي لكن في الوقت نفسه لم يمنع ذلك من إطلاق وصف الايمان العرفي عليهم، وأنهم لم يدخلوا الايمان الشرعي لأنهم قاموا بفعل مكفر لا لانتفاء التصديق لديهم، أو لنقل بدقة أنهم صدقوا ببعض ما أمروا به ولم يصدقوا ببعض، فكان انتفاء التصديق الشامل أمرا مهلكا لهم.

والخامس: أن هؤلاء القوم والمسلمين يشتركون بجامع مشترك، فالمسلم يعلم حقيقة الاصنام وحقيقة الطاغوت وكذلك المؤمن بالطاغوت فالمسلم يصدق جازمًا بأن هذا النظام الذي وضعه البشر وصفه وحقيقته كذا وكذا، على نفس الشاكلة التي يصدق به بها المؤمن به، ولكن شيئًا ما منع وصف هذا بالمؤمن بالطاغوت ووصف الآخر بذلك.

تماما كما وصفنا المؤمن بالله بأنه مؤمن به بتحقق أمور معينة لم تتحقق لدى الكافر الذي يصدق جزمًا بأن الاسلام دين حق كإبليس أو كيهود ففي الحالتين لما وجد التبعض في الايمان انتفى وصف الايمان أو لما قام الكافر بعمل مكفر انتفى الايمان، وأيضاً الاتباع وهكذا.

من هنا فلا بد من ضوابط تبين الحد الفاصل بين الاطلاق اللغوي أو الاصطلاحي وبين الحقيقة الشرعية من جهة ومن جهة ثانية، لما رأينا الحق سبحانه في الكتاب والسنة جعل للايمان حقيقة معينة رتب عليها الدين كله

ثوابًا وعقابًا، إيمانًا وكفرًا فلا بد من حصر استعمال الايمان بحقيقته الشرعية والتي نبحث لها عن ضوابط نعرفها بها في هذا الكتاب.

وبذلك لا يمكن أن نطلق التعريف عاماً بقولنا الإيمان هو التصديق الجازم دونما ضابط يمنع وصف من صدق جازماً بأي شيء على أنه مؤمن، فلا يقال للكافر كالنصراني مثلا أنه مؤمن بدينه، ولا نطلق عليهم لقب مؤمن أبداً، بل هم كفار بنص القرآن، والإيمان خاص بدين الله وأتباعه فقط، بنص القرآن القطعي الدلالة، أي أنه حقيقة شرعية فقط خاصة بالمسلمين دون غيرهم، فالإيمان الذي تتحقق في صاحبه الحقيقة الشرعية التي بها يوصف بأنه مؤمن، وبها يدخله في خطاب [يا أيها الذين ءامنوا] وبالتالي يدخل الجنة، يختلف عن ذلك الإيمان العرفي بضرورة تحقق شروط معينة فيه.

كما ننبه ثانية إلى أن ضابط مطابقة الواقع يضمن عدم دخول الكفار في مسمى الايمان لأن معتقداتهم لا تطابق الواقع، وهذا ما يضمن أن يجعل التعريف جامعا مانعا، كما أن الدليل الصحيح لا بد أن يوصل إلى الاعتقاد الصحيح وإلا فلا يمكن أن يكون دليلا على الحقيقة.

أما النصراني الذي يصدق جازمًا بدينه فهو يؤمن بالطاغوت من باب الاطلاق اللغوي إذا تعلق التصديق بحقائق دينه والعرفي إذا تعلق التصديق

بصدق ما جاء في الاسلام لأن هنا فقط تتحقق المطابقة للواقع والدليل وما شاكل وهنالك تنتفي ولكن ما يمنع تحول هذا الايمان العرفي إلى الايمان الشرعي هو الأعمال المكفرة أو التبعيض في الايمان أو غير ذلك.

أما الايمان العرفي، فقد أطلق الحق سبحانه عليهم وصف أنهم أمنوا عندما تعلق الأمر بتصديقهم الجازم المطابق للواقع عن دليل بحقائق الاسلام لكن وجد لديهم الجحود أو الأعمال المكفرة أو التصور الخاطئ أحيانا كأن ظن بعض اليهود أن محمدا نبي للعرب أو للأميين ولم يؤمن به،، أو تبعيض الايمان كالايمان ببعض الرسل والكفر ببعض،، وغير ذلك، وطلب منهم ما عليهم القيام به ليدخلوا في الايمان الحق ويدخلوا في عداد الذين آمنوا وإلا فهم كفار ولو كان معهم التصديق الجازم والعلم، في غير موضع من القرآن فقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً] ١٣٧النساء [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ] ٢٠ الأنعام. [وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ...] ١٠٩البقرة؛ وقوله [ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ

اللّه فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ] ٩ محمد؛ [وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٤٦ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ] ٤٧ العنكبوت. (أنظر فصل في التفريق بين الإيمان واليقين، ويراجع فصل هل يوصف أهل الكتاب بالمؤمنين، ففيهما الكفاية لهذه النقطة).

باب: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّه إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ

ولنناقش هنا تفسير آية كريمة في سورة يوسف [وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ١٠٤ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّه إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦]

فهل وصف اللّه تعالى هنا من عنده شرك بأنه مؤمن؟

أولا: الآية لا تتحدث عن المؤمنين بل عن المشركين من الكفار، ولا يمكن اعتبار أن لديهم اختلاط بين الايمان والشرك، لكن ثمة من يقول أنها تصف بعض ما عند الكفار بالإيمان فنقول:

لاحظ معي ابتداء: أن من يقول بأن الايمان قول وعمل،، ويقول بأن موضوع الاية الكفار تصفهم بأن لديهم إيمان وشرك، يلاحظ هنا أن الكفار لا يوجد لديهم حظ من أعمال (فصلاتهم مكاء وتصدية وطوافهم بالبيت عراة...) فقولنا باختلاط الايمان والشرك لو جعلنا المقصود من الايمان هنا ما نعلم ونصف الكفار بأن لديهم شيء منه: هذا يفضي حتما إلى وجود إيمان بلا عمل وهو ما يفرون منه،، كما أنه يفضي إلى القول بتبعض الايمان!!

ثانيا: يجب أن نلاحظ أن الآية تبين أنهم يمرون على الآيات وهم عنها معرضون، (والمؤمنون ليست هذه أفعالهم ولا صفاتهم) فلا يمكن أن يكون ثمة إيمان بدون دليل.

الثالثة: هي أنهم إذ يسيرون في طريق الإيمان فإنهم لا يتم لهم ذلك بسبب الشرك، فمثلا لا ينكرون أن الله هو الخالق، ولكنهم بشركهم لا يصلون إلى حقيقة الإيمان فيخترعون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى! فمعنى الآية لولا الشرك لوصلوا إلى الإيمان.

الرابعة: نفى سبحانه عنهم صفة الإيمان في الآية ١٠٣ [وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين] فليسوا بالمؤمنين مع حرص النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم على أن يؤمنوا! وهذا أيضا يثبت أن الآية تتحدث فقط عن المشركين.

الخامسة: هي أنه تعالى قال بعد ذلك [قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّه عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّه وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] ١٠٨ يوسف، فبين وفسر بها تلك الآية، فهم بضلالهم وشركهم ليسوا على بصيرة، وهو ليس منهم وهم المشركون، فليسوا بالمؤمنين أبداً، ولا يمكن أن يوصفوا بالمؤمنين فنفي الإيمان تم قبل الآية وبعدها، خاصة لأنهم لا يتبعون.

والسادسة الأهم: أن التصور المغلوط عن حقائق الإيمان لا يعد حتى بعض إيمان وهذا ما نحب الالتفات إليه فليس بمؤمن من يؤمن بوجود إله دون أن يكون إيمانه هذا بالله على الصورة التي نعلم مما خوطبنا به من توحيد وصفات وما شابه، وإلا فالنصارى يصدقون بوجود الله وبأنبيائه لكنهم كفار وتصور يهود عن الله تعالى أنه يدرس التلمود على علمائهم ويستريح السبت وما شاكل، فالتصور المغلوط عن حقائق الايمان ليس بإيمان.

وقد فصلت هذا في فصل إيمان أهل الكتاب فارجع إليه.

قال الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى المجلد الأول: وقد يكون كونهم عبيداً: هو اعترافهم بالصانع وخضوعهم له وإن كانوا كفاراً، كقوله: [وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّه إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ] وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى المجلد الثاني: وأما توحيد الإلهية فهو الشرك العام الغالب، الذي دخل من أقرَّ أنه لا خالق إلا الله، ولا رب غيره من أصناف المشركين، كما قال تعالى: [وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّه إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ]، كما قد بسطنا هذا في غير هذا الموضع.

وقال في مجموع الفتاوى المجلد الحادي عشر: فأما [توحيد الربوبية] وهو الإقرار بأنه خالق كل شيء، فهذا قد أقر به المشركون الذين قال الله فيهم:

[وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّه إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ] قال ابن عباس: تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: / اللّه، وهم يعبدون غيره.

وقال في مجموع الفتاوى المجلد الرابع عشر: والثانى حال الكفار والفساق والعصاة الذين فيهم إيمان به وإن كانوا كفاراً، كما قال: [وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّه إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ]

فهم مؤمنون بربوبيته، مشركون فى عبادته، كما قال النبى صلى اللّه عليه وسلم لحُصَيْن الخزاعى: (يا حصين، كم تعبد؟) قال: سبعة آلهة؛ ستة فى الأرض وواحدا فى السماء، قال: (فمن الذي تدع لرَغْبَتك ورَهْبَتك؟)، قال: الذي فى السماء، قال: (أسلم حتى أعلمك كلمة ينفعك اللّه تعالى بها)، فأسلم، فقال: (قل: اللهم ألهمني رشدي، وقِنِي شر نفسي) رواه أحمد وغيره.

وقال في المجلد السادس عشر: فإن قيل: فالمشرك يعبد اللّه وغيره بدليل قول الخليل: [قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ] [الشعراء: ٧٥،٧٧]، فقد استثناه مما يعبدون، فدل على أنهم كانوا يعبدون اللّه. وكذلك قوله: [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ] [الزخرف:٢٦،٢٧] قيل: هذا قول المشركين، كما تقول اليهود والنصارى: نحن نعبد اللّه. فهم يظنون أن عبادته مع الشرك به عبادة وهم كاذبون في هذا. وأما قول الخليل، ففيه

قولان؛ قال طائفة: إنه استثناء منقطع، وقال عبد الرحمن بن زيد: كانوا يعبدون الله مع آلهتهم. وعلى هذا، فهذا لفظ مقيد. فإنه قال: [مَا تَعْبُدُونَ]. فسماه عبادة إذا عرف المراد، لكن ليست هي العبادة التي هي عند الله عبادة. فإنه كما قال تعالى: (أنا أغني الشركاء عن الشرك. من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو كله للذي أشرك). وهذا كقوله تعالى: [وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّه إلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ]. سماه إيمانًا مع التقييد، وإلا فالمشرك الذي جعل مع اللّه إلهًا آخر لا يدخل في مسمي الإيمان عند الإطلاق. وقد قال: [يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ] [النساء: ٥١]، [فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ] [التوبة: ٣٤]. فهذا مع التقييد. ومع الإطلاق. فالإيمان هو الإيمان باللّه، والبشارة بالخير.[٦٧] إ.هـ.

---

٦٧) وهذا الاقتباس الأخير، خير ما يرد به ابن تيمية رحمه اللّه على نفسه في الاقتباسات الثلاث الأولى، فليس صحيحا أن يوصف الكفار بأن لديهم توحيد ربوبية، فمنطوق القرآن خلاف ذلك في مواضع كثيرة: (ألا يسجدوا للّه الذي يخرج الخبء في السموات والأرض)، (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا)، (أأرباب متفرقون خير أم اللّه الواحد القهار)، (وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي)، وأما هم فلم يجعلوه ربا. (تاللّه إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) والمقام أضيق من التوسع في ذلك، والمهم أنه ليس لديهم توحيد ربوبية، بل هم كفار مشركون، ليس لديهم ولا بعض إيمان.

قال أبو الرشتة[٦٨] : (ومن الجدير بالذكر أن (الإيمان) حيث ورد عرياً عن القرائن كان مدلوله هو المذكور آنفاً [أي التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل] وإن ورد بغير هذا المعنى فالقرينة توضحه؛ مثلا: [وَمَا كَانَ اللّه لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ] يعني صلاتكم لأن المسلمين بعد أن حولت القبلة نزلت الآية [وما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّه وَمَا كَانَ اللّه لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّه بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ] البقرة ١٤٣ تطميناً للمسلمين أن صلاتهم السابقة جهة القبلة الأولى مقبولة)[٦٩]

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا سَبِيلًا وَسُنَّةً دُعَاؤُكُمْ إِيمَانُكُمْ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ [قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ] وَمَعْنَى الدُّعَاءِ فِي اللُّغَةِ الْإِيمَانُ. البخاري.

فالقول الفصل هنا أن الايمان قد يطلق بمعناه اللغوي فقط على غير الايمان بشرائع وحقائق الايمان (الاسلام) من باب بيان مقدار تغلغل الباطل لكن دون تحقيق لهذا المعنى على وجهه الحقيقي أي أن يكون الايمان حقيقة مستوف لما به ينتقل التصديق إلى الجزم المطابق للواقع عن دليل، (

---

٦٨) موقع العالم عطاء بن خليل أبو الرشتة

٦٩) التيسير في أصول التفسير. عطا أبو الرشتة. ص ٤٦-٥٠

أي نفي الشك وتجاوز الظن إلى اليقين) أما المعنى الاصطلاحي فأحد أمرين: إما أن يكون مصحوباً بالتسليم والاتباع وخاليا من الأعمال المكفرة ومن التبعيض ومن التصورات الخطأ، ومن النواقض عموما، فينتقل إلى معناه الشرعي فورا.

والثانية: أن لا يخلو من هذه أو لا تصاحبه تلك فلا ينتقل الايمان من معناه العرفي إلى الشرعي بل يدخل مباشرة في الكفر كحال علماء أهل الكتاب وإبليس وغير ذلك.

ففي الحالتين لا يطلق الايمان عرفًا ولا شرعًا على غير الحقائق المتعلقة بحقائق الاسلام مهما بلغ الاعتقاد بها وعقد القلب عليها لانتفاء أركان التعريف الاصطلاحي المنضبطة بدقة.

فيقال [يؤمنون بالجبت والطاغوت] مثلا، من باب الاطلاق اللغوي، ويقال [يا أيها الذين آمنوا] مخاطبا أهل الكتاب ثم يطلب منهم بعدها مباشرة أن يؤمنوا: [يا أيها الذين آمنوا آمنوا]، أي يا من وجد لديكم الايمان العرفي أدخلوا في الايمان الشرعي باستكمال أركانه وشرائطه وانتفاء مبطلاته وإلا فأنتم كفار كما هو واضح من نص الاية.

ولكن الإيمان على حقيقته ومفهومه السليم الذي يراد به إخراج الناس من ظلمات الشرك والضلال إلى نور الحق والهدى فهو مقصور على الايمان

بمعناه الشرعي، من هنا فالإيمان حقيقة شرعية فقط لا يتحقق الصواب فيه إلا عبر ما جاء به الاسلام، والايمان العرفي لا يمكن أن يتحقق بوجهه الصحيح إلا عبر الايمان الشرعي، لأن الدليل الصحيح لا بد أن يقود إلى الايمان الصحيح، والمطابقة للواقع لا بد أن تقود للواقع الموجود حقا لا ما تتخيله الأذهان وهو غير صحيح، ولكن هذا الايمان العرفي لا يكفي وحده لينجو المرء بل قد يدخل وهو معه في الكفر، كأن يقوم بفعل مكفر مثلا، أو لا يتبع أو ما شابه والله أعلم.

باب: ﴿ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ﴾: الفعل المُكفِر:

يقول الحق سبحانه وتعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ٥٩ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ٦١ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ٦٢ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ٦٣ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ٦٤ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ٦٥] النساء:

هنالك ثلاثة جوانب سأبحثها في هذا الباب، الجانب الأول متعلق بالفعل المكفر نفسه، أي ذلك الفعل الذي يعتبر مكفرا بنص قطعي، ويتفرع عن هذا

أن فاعل هذا الفعل قد لا يكفر بالضرورة، ففرق بين تكفير المعين، وبين اعتبار أن ذات الفعل هذا فعل مكفر، إذ لا بد من إقامة الحجة على فاعل الفعل المكفر لتكفر عينه،

فثمة مجموعة من الأفعال نص النص القطعي على أنها أفعال مكفرة، كالاستهزاء بالله وبرسوله، وشتم الله ورسوله، فهذه الأفعال مكفرة، سواء أقام بها من قام بها جاهلا أم عالما، فإنه قام بفعل مكفر، وكما أسلفنا لا يكفر فاعل الفعل المكفر بالضرورة.

والجانب الثاني: أفعال مخالفة لما أمر الله به من الاعتقاد، كالسجود للصنم، أمر الله المؤمنين أن يعبدو الله إلها واحدا وأن لا يشركوا به شيئا، فإذا قام المرء بالسجود للصنم فإن فعل الجوارح هذا مخالف لما أمر الله به من الاعتقاد، فهو فعل مكفر، ومثل هذا أن يكون الفعل فرعا عن عقيدة، كالصلاة صلاة النصارى، تكون علامة على عدم انتفاء الاعتقاد بالتثليث انتفاء تاما، فهي علامة على عدم الكفر بعقيدة النصارى، وهذا فعل مكفر، وكذلك لبس الصليب.

والجانب الثالث يتعلق بالأفعال التي لم ينص الشارع على أنها مكفرة بذاتها، فيها جانب متعلق بالتصديق، إن انتفى أو نوقض أضحى الفعل مكفرا، كمن لا يصوم جاحدا فرضية الصيام، أو من لم يصدق بأن قطع يد

السارق هي العلاج الصحيح والحكم الصحيح في حق السارق، فمن قام بـذلك، أي لم يصم منكرا فرضية الصيام، أو من لم يقطع وهو يعتقد بعدم صلاحية هذه المعالجة، هذا الفعل مكفر، وقد يحصل ذات الفعل من مسلم آخر لم يفعله من ذات الزاوية، بل فعله تكاسلا، أو وهو يعتقد صلاحية الحكم ولكنه مكره مثلا عليه، فهذا لا يكفر مع أنهما كليهما قاما بذات "فعل الجوارح" كلاهما لم يصم أو لم يقطع، ولكن هذا كفر وهذا قد عصى ولم يكفر.

فليلاحظ إذن في هذا الباب أن الموضوع يطرق متناولا هذه وتلك، ولكل أحكام لها تفصيل سيرد ان شاء اللّه.

الباب الأول: الفعل الـمُكْفِرُ بنص قطعي على أنه فعل مكفر:

قال الكشميري: وههنا إشكالٌ يردُ على الفقهاءِ والمتكلمين وهو أن بعضَ أفعال الكفر قد توجد من الـمُصدِّق، كالسجود للصنم والاستخفاف بالمصحف، فإن قلنا: إنه كافر، ناقض قولنا: إن الإيمان هو التصديق. ومعلومٌ أنه بهذه الأفعال لم ينسلخ عن التصديق، فكيف يُحْكم عليه بالكفر؟ وإن قلنا: إنه مسلم، فذلك خلافُ الإجماع. وأجاب عنه الكَسْتلِّي تبعاً للجُرْجَاني: أنه كافر قضاءً، ومسلم دِيَانَة. وهذا الجواب باطلٌ مما لا يُصْغى إليه، فإنه كافر دِيَانة وقضاءً قطعاً، فالحق في الجواب ما ذكره ابن الهمام رحمه اللّه تعالى، وحاصله: أن بعض الأفعال تقوم مَقَام الجحود، نحو العلائم المختصة بالكفر، وإنما يجب في الإيمان التبرؤ عن مثلها أيضاً، كما يجب التبرؤ عن نفس الكفر

... فدل على أنّ مثلَ تلك الأفعال إذا وجدت في رجل يُحكم عليه بالكفر، ولا يُنظر إلى تصديقه في قلبه، ولا يلتفت إلى أنها كانت منه خوضاً وهزأً فقط، أو كانت عقيدة. ومن ههنا تسمعهم يقولون: إن التأويل في ضروريات الدين غيرُ مقبول، وذلك لأن التأويلَ فيها يُساوق الجحود وبالجملة: إن

التصديق المجامعَ مع أخصِّ أفعال الكفر، لم يعتبره الشرع تصديقاً، فمن أتى بالأفعال المذكورة فكأنه فاقدٌ للتصديق عنده وأوضحه الجصَّاص، فراجعه.[٧٠]

ومعنى كلام العلامة الكشميري رحمه الله تعالى أعلاه مانقله عن ابن الهمام: أن بعض الأفعال تكشف عن عدم تحقق التصديق في القلب، وبيانه:

فالأفعال المكفرة إنما أكفرت أصحابها لارتباطها بالعقائد، فهي أظهرت أصل الإيمان في القلب أنه مجرد زعم، وأثبتت كذب ادعاء أصحابها بأنهم مؤمنون،

وسأفصل في شرح ما نقله الكشميري عن ابن الهمام أعلاه بما يلي: عندما نقول الإيمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، فإن لدينا في التعريف ضابط اسمه الدليل، هذا الضابط أو الاحتراز، اصطلح الفقهاء عليه على أنه: المعرفة، وأنا أعني الفقهاء دون المتكلمين، وسيمر تفصيل ذلك في باب المعرفة فراجعه، أقول: هذه المعرفة قالوا أنها شرط في الإيمان، وهي التي اختلفوا مع المعتزلة فيها، فقالت المعتزلة أنها تسبق الإيمان وقال الفقهاء بل هي شرط له لا أكثر، بل منهم من لم يشترطها، وهنا دقيقة: فالذين لم يشترطوها إنما كانوا لا يشترطون المعرفة أو

---

٧٠) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

الاستدلال على العقيدة على طريقة المتكلمين من معرفة بالأدلة وموجبات العقول، ودفع الشبهات... الخ، أي الاستدلال التفصيلي، فقالوا: المطلوب هو الأدلة الجُملية، أي الأدلة المجملة التي تنفي الشك وقالوا أنه عليه سلام اللّه لم يشترط على أحد دخل الإسلام أن يستدل عليه... الخ،

فها أنا قد حررت لك موضع النزاع، وهو ما عبر عنه الكشميري أعلاه بقوله: إن التأويل في ضروريات الدين غيرُ مقبول، وذلك لأن التأويلَ فيها يُساوق الجحود وبالجملة: إن التصديق المجامعَ مع أخصِّ أفعال الكفر، لم يعتبره الشرع تصديقاً، فمن أتى بالأفعال المذكورة فكأنه فاقدٌ للتصديق عنده. انتهى

فأقول: إذن لا بد لنا من أدلة جملية، حتى تنقل الإيمان من الظن إلى القطع، وتنفي عنه التقليد.

هذا المقدار من الأدلة، هو محل كلامنا في الفعل المكفر هنا:

فأساس الإيمان الذي ينتقل المرء به من الكفر، لا بد له عليه من أدلة جملية، وهي التي ستقيم بها الحجة على فاعل الكفر هذا لتقول له أن إيمانه ينتقض بالفعل المكفر، فإن عاند أو جحد انتقض أصل المعرفة لديه أي كان مصدقا بلا معرفة، بأخص ما يجب عليه المعرفة به في أصل الإيمان، في لا إله إلا اللّه!

لـذا كـان تصـديقه غيـر مبنـي علـى معرفـة أي علـى أدلـة جمليـة، فكـان تصديقه ادعاء

أي أنه يظن نفسـه مصـدقا، لكـن حـد التصـديق عنـد المحققين هـو أن يتجاوز مرحلـة التصـور ليصـل بمطابقـة مـا خوطـب بـه مـن مطالـب خبريـة للواقع، ليصل إلى التصديق، وهذا لا يتم إلا بالمعرفة أو بالاستدلال، فإذا لـم يقم به في أخص خصائص الإيمان وهو اعتقاد لا إله إلا اللّه، فإنه يتوهم أنه مصدق وهـو لـيس بمصـدق، فالفعـل المكفـر كشـف عـن انتفـاء المعرفـة أو الاستدلال على أخص خصائص الإيمان التي بدونها لا يحصـل الانتقـال مـن الكفـر إلـى الإيمـان، فهـذا تفسـيري وتعليلـي للفعـل المكفـر لِـمَ يحصـلُ بـه الكشف عن أنه لا تصديق.

وهذا طبعا يختلف عن اعتقاد العامي، الذي يحصل بناء على أدلـة مجملـة، يجدها في نفسه وفي الكون من حوله، بسيطة تنقل إيمانه إلى درجة الجـزم وقد فصلت في هذا في كتاب أدلة الاعتقاد فراجعه.

يقول الأستاذ أبو عثمان نبيل بن حساين في بحثه: التكفير وضـوابطه[٧١]: ونواقض الإسلام كما تكون في الاعتقاد تكون في الأعمال، وكمـا تكـون فـي

---

٧١) منشور في مجلة الزيتونة

الشك والارتياب تكون في الأقوال. فالأفعال والأقوال التي دلت الأدلة على أنها كفر هي من نواقض الإسلام بغض النظر أوافقتها القلوب أم خالفتها أي بغض النظر عن الاعتقاد فهي بذاتها كفر حتى ولو صح الاعتقاد. صحيح أن دخول الكافر في الإيمان يثبت بالنطق بالشهادتين نطقا صريحا، فبمجرد حصول الإيمان له بهذا الركن وحده هو كاف لثبوت الإيمان له والدخول في الإسلام دون أن ننتظر منه باقي أركان الإيمان أو أي ركن آخر فضلا عن باقي فروع الإيمان أو فروع الأحكام، فالإيمان بأن لا اله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه هو بوابة الدخول لدين الإسلام، ولكن هذا لا يعني أنها هي وحدها بوابة الخروج من الإسلام، ثم لا يعني كذلك كون الإيمان هو التصديق الجازم أن الخروج من الإسلام لا يكون إلا إذا انتفى أو اختلّ هذا التصديق فحسب، نعم ليس الخروج من الإسلام يكون فقط كما كان الدخول فيه كما يقول المرجئة، والسبب بسيط جدا؛ لأن هذا القول مبني على قياس أحكام الخروج من الإسلام على حكم الدخول به والقياس في معرض النص فاسد، فقد وردت نصوص صريحة كفرت بأفعال وأقوال فلا يلتفت معها إلى القياس.

ومن الأقوال المكفرة سب اللّه ورسوله والقرآن والدين ونحو ذلك من الأركان كما هو شائع في هذه الأيام، أو الاستهزاء بها. قال تعالى: [يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ]. إذ قالوا:

[يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ]، فقد وصف الله قولهم هذا بالكفر وكفّرهم به، وهو قولهم للرسول صلى الله عليه وسلم ووصفهم إياه بالأذل، وقال سبحانه: [وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ]. وكان من مقولتهم في ذلك ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء- يعنون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم- أرغب بطونا، وأكذب ألسنا، وأجبن عند اللقاء، ليتضاحكوا ويطووا عن أنفسهم بعد السفر. انتهى

الباب الثاني: الفعل الـمُكْفِرُ لمخالفة ما أمر به من الاعتقاد أو لتفرعه عن اعتقاد مناقض للإسلام:

وذلك كالسجود للصنم والصلاة صلاة النصارى، ولبس الصليب.

المتأمل في الآيات أعلاه من سورة النساء، يجد أن قوما أرادوا، مجرد رغبة أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به، فاعتبر إيمانهم مجرد زعم، ومثل أولئك من سجد لصنم وقد أُمِرَ أن يكفر به، فكان فعله علامة على أن إيمانه مجرد زعم، وهكذا فإن المرء يكفر بأفعال يفعلها تناقض أصل ما أمر الإيمان به فاعتبر القيام بهذه الأفعال علامة على أن الإيمان مجرد زعم.

الباب الثالث: الفعل الـمُكْفِرُ لمناقضة التصديق بما طلب التصديق به جزما مما يتعلق بفعل الجوارح:

وأما النوع الثالث من الأفعال التي تفضي إلى الكفر، فإنه ثمة نواحي تتعلق بالتصديق في كل فعل فصلنا فيها في باب: هل فرض الله الفرائض ولم يرد منا عملها؟ فراجعها، هذه النواحي التصديقية في الفعل، هي غير عمل الجوارح، لكن المرء إذا لم يصدق بها كفر، فقد يظهر لغير المحقق أنه كفر لأنه قام بالفعل أي بعمل الجوارح، لكن المدقق يرى أنها تتعلق بالناحية التصديقية، ففرق بين من لم يصم رمضان تكاسلا، وبين من أنكر فرضية الصوم، فعمل الجوارح هو هو، كلاهما لم يصم، لكن النتيجة التي ترتبت اختلفت نتيجة تعلقها بالناحية التصديقية لا بعمل الجوارح نفسه.

وأما إن لم يرد نص قطعي على اعتباره مكفرا، لم يكن فعل الجوارح ذاته هو الفيصل بين الايمان والكفر، بل هو اقترانه بأنه علامة على ما في القلب، تأمل مثلا قول الله تعالى: [وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ] ٤٤ المائدة، وقوله تعالى: [وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ] ٤٧، فالفعل هو هو، حاكم يحكم بغير ما أنزل الله، مرة أخذ حكم الكافر ومرة أخذ حكم الفاسق ومرة أخذ حكم الظالم، فالفعل هو هو، لكن ارتباطه بما في القلب، وارتباطه بالاعتقاد، نقل النتيجة التي ترتبت عليه

من الفسق أو الظلم إلى الكفر، فمن حكم بغير ما أنزل الله وهو يعتقد أن حكم الله حق، وأنه يفعل ذلك لا كبرا ولا جحودا ولا عنادا، فلا يكفر، خلاف من رآى حكمه خيرا من حكم الله، أو جحد.

قال الإمام تقي الدين النبهاني: إن الحكم فعل وليس اعتقادا والفعل إن كان مخالفا لما أمر الله به كان معصية ولم يكن كفرا إلا أن يكون العمل ذاته كفرا. وذلك أن العمل اما أن يكون لما أمر الله به من الاحكام أو مخالفا لما أمر الله به من الاعتقاد فان كان مخالفا ما امر الله به من الاحكام كان معصية ولا يكون كفرا الا إن جاء نص قطعي الدلالة قطعي الثبوت على أنه كفر، فطاعة الوالدين قد أمرنا بالقيام بها ولا يتضمن الأمر أمرا بالاعتقاد ولهذا فإن عاق والديه عاص وليس بكافر بخلاف السجود لله فإنه قد أمرنا بالاعتقاد به وأمرنا بالعمل به تبعا لذلك الاعتقاد ولهذا لو سجد مسلم للصنم أو صلى بالكنيسة فإنه يكفر لان معنى (لا إله إلا الله) التي أمرنا بالاعتقاد بها، لا معبود إلا الله ومن هنا كان القيام بخلافه كفرا، لكن لو كان تُرك عمل من أعمال الصلاة كترك القنوت فانه لا شيء فيه ولو ترك السجود لم تصح صلاته. فمخالفة أوامر الله لا تكون كفرا إلا إذا كانت مصحوبة بالاعتقاد بعدم صلاحها أو بعدم الاعتقاد بها، فالشرع أمر بالاعتقاد وامر بالعمل ويختلف حكم مخالف الامر بالاعتقاد عن حكم مخالف الامر بالعمل ولما كان الحكم بغير ما انزل الله مخالفا للامر بالعمل وليس مخالفا للامر

بالاعتقاد فقد كان معصية ولم يكن كفرا، على أن واقع الحكم بغير ما أنزل اللّه ليس عمل كفر وذلك لسببين احدهما: أن الشرع لم يقل عنه أنه كفر ولذلك لا يعتبر عمل كفر، ويؤيد هذا أن معاوية أخذ البيعة ليزيد بالاكراه على مرأى ومسمع من الصحابة وهو حكم بغير ما أنزل اللّه ولا نعلم أن احدا قال أنه كفر بذلك، والسبب الثاني: هو أن الحكم بغير ما أنزل اللّه ليس فرعا عن عقيدة كالسجود للصنم والصلاة مع النصارى ولذلك لم يكن عمل كفر، فهو من نوع مخالفة ما امر اللّه به وليس من نوع ما امر بالاعتقاد به، فلو أن حاكما حابى أحد أقربائه وهو سارق فحكم عليه بالسجن ولم يقطع يده فهذا عاص وليس بكافر بخلاف ما لو حكم على سارق بالسجن دون القطع رادا حكم القطع معتقدا خطأ قطع اليد وصواب الحكم بالسجن فهذا كافر، فكلا الحاكمين حكم بغير ما أنزل اللّه وكلا الحكمين حكم بغير ما أنزل اللّه ولكن قد فرق بينهما فكان أحدهما عاصيا وكان الاخر كافرا، والتفريق بينهما إنما جاء الاعتقاد فلو كان الحكم بغير ما أنزل اللّه عمل كفر لكان من حكمها واحدا. ولهذا فان الحكم بغير ما أنزل اللّه لا يعتبر عمل كفر بل هو عمل كسائر الاعمال التي تعتبر معصية على أن الحاكم لو حكم بغير ما أنزل اللّه ولم يعتقد به لانه ظني الثبوت او ظني الدلالة لا يكفر وانما يكفر اذا كان ما حكم به ولم يعتقد به قطعي الثبوت قطعي الدلالة وهذا دليل على ان

الحكم بغير ما انزل اللّه وحده لا يكفر فاعله الا اذا صحب ذلك الاعتقاد وكان الاعتقاد برد ما هو قطعي الثبوت قطعي الدلالة[٧٢].

---

٧٢) جواب سؤال للإمام النبهاني حول قوله تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون. بتاريخ ٢٢ ربيع الثاني ١٣٨١، ٢/١٠/١٩٦١

الباب الرابع: القيام بالفعل الـمُكْفِر لا يفضي بالضرورة إلى تكفير المعين:

بقي تحرير مسألة مهمة، وهي هل يترتب على القيام بالفعل المكفر الدخول بالكفر أو الحكم على الشخص الذي يقوم بعمل الكفر بأنه كافر؟

قال العلامة ابن تيمية رحمه الله تعالى: وَسَبَبُ هَذَا التَّنَازُعِ تَعَارُضُ الْأَدِلَّةِ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَدِلَّةً تُوجِبُ إلْحَاقَ أَحْكَامِ الْكُفْرِ بِهِمْ ثُمَّ إنَّهُمْ يَرَوْنَ مِنْ الْأَعْيَانِ الَّذِينَ قَالُوا تِلْكَ الْمَقَالَاتِ مَنْ قَامَ بِهِ مِنْ الْإِيمَانِ مَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ كَافِرًا فَيَتَعَارَضُ عِنْدَهُمْ الدَّلِيلَانِ وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُمْ أَصَابَهُمْ فِي أَلْفَاظِ الْعُمُومِ فِي كَلَامِ الْأَئِمَّةِ مَا أَصَابَ الْأَوَّلِينَ فِي أَلْفَاظِ الْعُمُومِ فِي نُصُوصِ الشَّارِعِ كُلَّمَا رَأَوْهُمْ قَالُوا: مَنْ قَالَ كَذَا فَهُوَ كَافِرٌ اعْتَقَدَ الْمُسْتَمِعُ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ شَامِلٌ لِكُلِّ مَنْ قَالَهُ وَلَمْ يَتَدَبَّرُوا أَنَّ التَّكْفِيرَ لَهُ شُرُوطٌ وَمَوَانِعُ قَدْ تَنْتَفِي فِي حَقِّ الْمُعَيَّنِ وَأَنَّ تَكْفِيرَ الْمُطْلَقِ لَا يَسْتَلْزِمُ تَكْفِيرَ الـمُعَيَّنِ إلَّا إذَا وُجِدَتْ الشُّرُوطُ وَانْتَفَتْ الْمَوَانِعُ يُبَيِّنُ هَذَا أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَد وَعَامَّةَ الْأَئِمَّةِ: الَّذِينَ أَطْلَقُوا هَذِهِ العمومات لَمْ يُكَفِّرُوا أَكْثَرَ مَنْ تَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ بِعَيْنِهِ.

وقال: وَإِذَا عُرِفَ هَذَا فَتَكْفِيرُ " الْمُعَيَّنِ " مِنْ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالِ وَأَمْثَالِهِمْ - بِحَيْثُ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنْ الْكُفَّارِ - لَا يَجُوزُ الْإِقْدَامُ عَلَيْهِ إلَّا بَعْدَ أَنْ تَقُومَ عَلَى

أَحَدِهِمْ الْحُجَّةُ الرسالية الَّتِي يَتَبَيَّنُ بِهَا أَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ لَا رَيْبَ أَنَّهَا كُفْرٌ.[٧٣]

وقال الأستاذ أبو عثمان نبيل بن حساين في بحثه: التكفير وضوابطه[٧٤]: هذه بعض نواقض الإسلام كما دلت عليها الأدلة الشرعية دلالة قاطعة، ونحن لم نأت على ذكرها جميعها، والعمدة في هذا المقام أن يكون الدليل صريحا لا يقبل معنى آخر، هذا من حيث الحكم على الأفعال والأقوال ووصفها بالكفر، أما من حيث الحكم على عين الفاعل أو القائل بالكفر فهو أمر مختلف له منحى آخر. نعم، لقد فرق العلماء والمحققون بين تكفير القول المطلق وبين تكفير القائل المعين، فالتكفير المطلق: هو تنزيل الحكم بالكفر على السبب المجرد، كأن تقول: من سب الله كفر ومن صلى مع النصارى كفر ومن آمن بالديمقراطية كفر، أي معرفة الحكم مُطلقاً دون تنزيل الحكم بالكفر على شخص معين وإن كان قد أتى بهذا السبب، أما تكفير المعين: فهو الحكم بالكفر على الشخص المعين الذي فعل السبب القول أو الفعل المكفر كأن تقول زيد كافر، وهذا متوقف على ثبوت هذا السبب وتوافر شروطه والتحقق من انتفاء موانعه، فهو أشبه ما يكون

---

٧٣) مجموع فتاوى ابن تيمية > التفسير > كتاب القرآن كلام الله حقيقة > الكيلانية > فصل تكفير أهل البدع والأهواء > فصل مسائل التكفير والتفسيق من مسائل الأسماء والأحكام.

٧٤) منشور في مجلة الزيتونة

باللعن، فقد روى البخاري في صحيحه عن عمر أمير المؤمنين رضي اللّه عنه أن رجلاً كان على عهد النبي صلى اللّه عليه وسلم وكان اسمه عبد اللّه، وكان يلقب حماراً، وكان يضحك النبي صلى اللّه عليه وسلم، وكان النبي قد جلده في الشراب، فأتى به يوماً، فأمر بجلده، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: "لا تلعنه، فو اللّه ما علمت إلا أنه يحب اللّه ورسوله"، مع أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم لعن في الخمر عشرا ومنها شاربها، ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين خاصة إذا كان فيه ما يمنع لحوق اللعنة به كحبه للّه ورسوله، وقد كان هذا منهج السلف وعلماء الأمة توجيها وسلوكا. قال المحقق شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: "أن المقالة التي هي كفر بالكتاب والسنة والإجماع يقال هي كفر قولاً يطلق، كما دل على ذلك الدلائل الشرعية، فإن الإيمان من الأحكام المتلقاة عن اللّه ورسوله، ليس ذلك مما يحكم فيه الناس بظنونهم وأهوائهم، ولا يجب أن يحكم في كل شخص قال ذلك بأنه كافر حتى يثبت في حقه شروط التكفير، وتنتفي موانعه". وهذا التفريق بين التكفير المطلق والتكفير المعين مارسه كذلك كبار الأئمة من علماء المسلمين، يقول شارح الطحاوية: "وكما قد قال كثير من أهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن، وأن اللّه لا يرى في الآخرة، ولا يعلم الأشياء قبل وقوعها، وعن أبي يوسف رحمه اللّه أنه قال: ناظرت أبا حنيفة

رحمه اللّه مدة حتى اتفق رأيي ورأيه أن من قال بخلق القرآن فهو كافر"، وعلى الرغم من اتفاقهم على كفر القول بخلق القرآن فإنهم لم يقولوا بكفر معين ممن شارك في فتنة خلق القرآن، فقد كان الإمام أحمد يكفِّر الجهمية المنكرين لأسماء اللّه وصفاته، لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم ظاهرة بينة لكن ما كان يكفر أعيانهم، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية، ويدعون الناس إلى ذلك ويعاقبونهم، ويكفرون من لم يجبهم، ومع هذا فالإمام أحمد ترحم عليهم، واستغفر لهم، لعلمه بأنهم لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول، ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطأوا، وقلدوا من قال لهم ذلك. وكذلك الشافعي لما قال لحفص الفرد - حين قال: (القرآن مخلوق) -: كفْر باللّه العظيم، بيّن له أن هذا القول كفر، ولم يحكم بردة حفص بمجرد ذلك، لأنه لم يتبين له الحجة التي يكفر بها، وقد صرح في كتبه بقبول شهادة أهل الأهواء والصلاة خلفهم. ومن هنا لم يكن مجرد الفقه في الأقوال والأفعال المكفرة مسوغا لتكفير الأعيان. انتهى

الباب الخامس: العلاقة بين الفعل المكفر وبين تعريف الايمان:

بقي أن نبحث العلاقة بين الفعل المكفر وبين تعريف الايمان، فهذه أفعال اعتبرها الشارع مؤذنة بانتقاض الايمان، فهل هذا يعني أن الأفعال تدخل في تعريف الايمان؟ والجواب أولا أن هذه أفعال مخصوصة لا مطلق أفعال، فيقال إذن: أن الايمان يشترط فيه أن لا يقوم المؤمن بالفعل المكفر، فهي شروط صحة للإيمان لا أركان في تعريفه، وثانيا كما أسلف أخونا بن حساين، فإن مسألة الخروج من الايمان، لا تقاس على مسألة الدخول في الايمان، وهما بحثان منفصلان، وهذا يعني أنه لا يلزم من القول أن هذا الفعل يخرج من الايمان، أن يقال أن نقيض هذا الفعل يدخل في الايمان.

وأخيرا، فإن الملاحظ في هذه الأفعال كلها التي بها يخرج المرء من الايمان أنها مرتبطة بالعقيدة ارتباطا مباشرا، فالسجود للصنم، وصلاة النصارى، ولبس الصليب وما شاكلها من أفعال فرع عن عقيدة أمرنا الكفر بها،

والاستهزاء بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، يدل على انتفاء التصديق من القلب أو على عدم دخوله، ويدل على أن المعلوم من الدين بالضرورة غير معلوم، فالتأويل في ضروريات الدين غير مقبول ويدل على أن

المرء لم يعرف ولم يتصور ولم يصدق، فالفعل المكفر يـرتبط ارتباطـا وثيقـا بالتصديق وبالاعتقاد، وهو الذي جعله مكفرا. واللّه أعلم.

فصل: في ماهية الإيمان

فإذا علمنا أن الإيمان لا بد أن يبنى على التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل قطعي؛ فهل ثمة أركان أخرى لا بد من توافرها لنصل إلى تعريف دقيق للإيمان يكون جامعاً مانعاً؟ وما هو أصل الإيمان، وما يكمله، وهل يتفاضل، وهل يتفاوت بين الناس وهل يتبعض؟ وهل انتفاء الإيمان يعني الدخول في الكفر أم أن المرء إذا لم يكن مؤمناً فقد لا يكون كافراً كأن يكون مسلماً مثلا، وهل يكون في القلب إيمان وكفر أو نفاق، وما هي علاقة الإيمان بالعمل وهل الإيمان هو اليقين؟ وما إلى ذلك من الأسئلة.

باب: أولا: لنثبت أن محل الإيمان هو القلب.

قال تعالى: [قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي] ٢٦٠ البقرة؛ [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ] إلى قوله تعالى [أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ] الآية ٤١ المائدة [وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ] ١٠ العنكبوت [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ] ... إلى قوله تعالى [أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ] ٦٠-٦٣النساء [مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] ١١ التغابن [وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١٠ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ] ١١١ الأنعام [ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا

كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ] ٧٤يونس [فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً] ١٥٥ النساء [إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ] ٢٢ النحل [وَإِذَا ذُكِرَ اللّه وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ] ٤٥ الزمر [رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ] ٨٨ يونس [قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ] ١١٣ المائدة [وَلَكِنَّ اللّه حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ] ٧ الحجرات [مَن كَفَرَ بِاللّه مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّه وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] ١٠٦ النحل [لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] المجادلة (٢٢) وقوله تعالى: [وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] ١٤ الحجرات يقطع بأن الإيمان محله القلب.

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلْ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ اللّه عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعْ اللّه عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ. مسند أحمد أول مسند البصريين.

وفي صحيح ابن حبان: حَدَّثنا الحُسينُ بنُ واقدٍ، عن أَوْفَى بنِ دَلْهَمٍ، عن نافعٍ عن ابنِ عُمَرَ، قال: صَعِدَ رسولُ اللَّهِ هذا المِنْبَرَ، فنادى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، وقال: «يا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ، ولَمْ يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ، لا تُؤْذُوا المُسْلِمِينَ، ولا تُعَيِّرُوهُمْ، ولا تَطْلُبوا عَثَرَاتِهِمْ، فإنهُ مَنْ يَطْلُبْ عَوْرَةَ المُسْلِمِ، يَطْلُبِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَطْلُبِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، يَفْضَحْهُ ولو في جَوْفِ بَيْتِهِ».

قَالَ أَبُو ذَرٍّ إِنَّ رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيمًا وَلِسَانَهُ صَادِقًا وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً وَجَعَلَ أُذُنَهُ مُسْتَمِعَةً وَعَيْنَهُ نَاظِرَةً فَأَمَّا الْأُذُنُ فَقَمِعٌ وَالْعَيْنُ بِمُقِرَّةٍ لِمَا يُوعَى الْقَلْبُ وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ جَعَلَ قَلْبَهُ وَاعِيًا. مسند الإمام أحمد؛ مسند الأنصار.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَالْكُفْرُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ وَلَا يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا تَجْتَمِعُ الْخِيَانَةُ وَالْأَمَانَةُ جَمِيعًا مسند أحمد باقي مسند المكثرين.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ كُنَّا نَلْقَى النَّفَرَ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فَيَقْطَعُونَ حَدِيثَهُمْ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَحَدَّثُونَ فَإِذَا رَأَوْا الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي قَطَعُوا حَدِيثَهُمْ وَاللَّه لَا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الْإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّهُمْ لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِهِمْ مِنِّي. ابن ماجة كتاب المقدمة.

وفي حديث البخاري عن أبي سفيان إذ سأله قيصر الأسئلة المشهورة: وسألتُكَ أشرافُ الناسِ اتَّبَعوه أم ضُعَفاؤُهُمْ؟ فذكرتَ أنَّ ضُعفاءهمْ اتَّبعوه، وهم أتْباعُ الرُّسُل، وسألتُكَ أيَزيدُونَ أم يَنْقُصون؟ فَذكرتَ أنَّهمْ يَزيدُون، وكذلِكَ أمرُ الإيمانِ حتى يَتِمَّ. وسألتُكَ أيَرْتَدُّ أحدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بعدَ أنْ يَدخُلَ فيهِ، فذكرت أنْ لا، وكذلِكَ الإيمانُ حِينَ تُخالِطُ بَشاشَتُه القلوبَ.

اختلفت المذاهب في الإيمان، أهو عمل القلب وحده، أم القلب واللسان، أم القلب واللسان والجوارح على ما مر من تفصيل، والحقيقة أن الجواب على هذا وتقرير أيها الحق، هو ما سيفضي إليه هذا البحث كله إن شاء اللّه، منها ما هو من شروط الكمال كأعمال الجوارح، على أن من أعمال الجوارح ما يتعلق بالإيمان، كالتصديق بأنها أوامر اللّه وفروضه، والتصديق بثبوت ما وصل إلينا منها جزما، وما إلى ذلك مما فصلنا فيه في موقعه، ومنها أركان زائدة، قد يتحقق الإيمان بدونها، مثل الإقرار باللسان، والفقهاء اعتبروها شرطا لا ركنا، فهي وإن لم تظهر في التعريف، لأنه يدخل فيه الحدود التي

يتوقف وجود الإيمان مطلقا عليها، وينتفي بانتفائها، أي التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، إلا أنها من الشروط اللازمة لتحقق الإيمان، وذلك مثلا كالرضى والتسليم، وكالاتباع، فهي شروط لا بد منها لوجود الإيمان، لكنها لا تدخل بنيان التعريف.

ولكن المقصود هنا أن الإيمان أفكار، قابلة للاعتقاد، وليست قابلة لأن يعمل بها، وإن كان العمل يترتب على هذا الاعتقاد، أي أن الاعتقاد يدفع إلى العمل، فعندما نقول إن محل الإيمان القلب- أي العقل مع انعقاد القلب عليه- فإننا نعني أن الإيمان تصديق جازم مطابق للواقع عن دليل بأفكار أي بمطالب خبرية أمر الحق سبحانه باعتقادها جزما.

فإذا علمت أن الإيمان عمل قلبي فلندرس بعض الأعمال القلبية التي ذكرت مقرونة بالإيمان كالإرادة والمعرفة والتصديق؛ والحب والبغض والسخط والفرح والغم والاطمئنان والسكينة والإنكار وما إلى ذلك من الانفعالات التي تحدث في القلب تجاه قضايا الإيمان.

ولنرجئ الحديث عن عمل الجوارح وعلاقته بالإيمان إلى موضعه.

باب: ثانيا: طبيعة أفكار الإيمان والموقف منها موقف فكري:

قال الصنعاني في إجابة السائل: فكأنه قيل الاعتقاد هو الجزم الذي يقبل التشكيك في الجملة أشار إليه السعد في حواشي شرح العضد.[٧٥]، وينتهي الغزالي إلى أن مصدر اليقين ينتهي إلى الشك –ليس الشك المطلق- ويقول (الشك هو أصل العلم اليقيني، فالعلم الحقيقي يبتدي بالشك ليصل إلى اليقين نفسه، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق) ويضع قاعدته الشهيرة (من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال)[٧٦] قال ابن حجر الهيتمي: (قَوْلُهُ: وَهُوَ الْجَازِمُ) أَيْ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ (قَوْلُهُ: الْمُطَابِقُ) قَيَّدَ بِهِ؛ لِيَكُونَ اعْتِقَادًا صَحِيحًا، وَإِلا فَغَيْرُ الْمُطَابِقِ اعْتِقَادٌ فَاسِدٌ، وَمَحَلُّ تَسْمِيَتِهِ اعْتِقَادًا حَيْثُ قَبِلَ التَّغْيِيرَ وَإِلا فَهُوَ عِلْمٌ.[٧٧] انتهى

جاء في حاشية العطار: (قَوْلُهُ: إذْ هُوَ) أَيْ الْحُكْمُ لَا الْمُرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ التَّصَوُّرَاتِ؛ لِأَنَّ التَّصَوُّرَاتِ لَا يُتَصَوَّرُ فِيهَا غَيْرُ الْجَزْمِ. (قَوْلُهُ: الَّذِي لَا يَقْبَلُ إلَخْ) اُعْتُرِضَ بِأَنَّ الْعِلْمَ كَثِيرًا مَا يَتَغَيَّرُ بِمَا يُعَارِضُهُ مِنْ الشُّبَهِ وَالْأَوْهَامِ فَإِنْ كَانَ مُرَادُهُ لَا يَقْبَلُ التَّغَيُّرَ أَصْلًا فَلَا يُسَلَّمُ وَإِنْ أَرَادَ لَا يَقْبَلُهُ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ

---

٧٥) إجابة السائل شرح بغية الآمل للصنعاني ١ / ٦٠

٧٦) (ميزان العمل الغزالي ص ١٧٥)

٧٧) نهاية المحتاج على شرح المنهاج لابن حجر الهيتمي كتاب صلاة الجماعة وأحكامها.

الْمُعَارِضِ لِقُوَّتِهِ فَفِيهِ أَنَّ الِاعْتِقَادَ كَذَلِكَ وَحِينَئِذٍ لَا يَظْهَرُ فَرْقٌ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ. وَأُجِيبَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِعَدَمِ قَبُولِ التَّغَيُّرِ هُنَا مَعْنًى خَاصٌّ هُوَ كَوْنُهُ لِمُوجِبٍ وَمَتَى كَانَ لِمُوجِبٍ لَا يَقْبَلُ التَّغَيُّرَ بِخِلَافِ الِاعْتِقَادِ فَإِنَّهُ لِغَيْرِ مُوجِبٍ وَلِهَذَا قَبِلَ التَّغَيُّرَ. [٧٨]

فالاعتقاد يفترق عن العلم بأنه قابل للتغير، قابل لأن يكون مطابقا للواقع أو غير مطابق، فهو يشمل الاعتقاد الفاسد والصحيح، والاعتقاد الصحيح هو العلم.

إلا أن الشارع بين أنه لا يقبل إلا الاعتقاد الصحيح، فقد منع الظن، والأوهام، والخرص، ومنع التقليد في العقيدة، وأمر بإيصالها إلى مرحلة الجزم، أي القطع، ووضع قيودا أخرج بها الجهل والتقليد من جملة ما حمده من اعتقاد المؤمنين، ووصف من لديهم هذا الاعتقاد بأنهم مؤمنون، فبهذا كله أصبحت العقيدة الإسلامية عَلَما على العلم، عَلَماً على المؤمنين، حملتها، دون غيرهم من أصحاب العقائد الفاسدة، فأخذت معنى مطابقا للعلم، فهي قائمة على أدلة قطعية، تنفي عنها إمكانية التغير، لأن الشك بها أو بما أوجبته من حقائق، يفضي إلى الدخول في نقيضها.

---

٧٨) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع > الكلام في المقدمات في أصول الفقه > تعريف الدليل.

مع أن المقلد فيها لا يخرج منها بتقليده، إلا أنه قام بمذموم فيها واعتقاده صحيح لمطابقته للواقع.

قال صاحب الفواكه الدواني: الِاعْتِقَادُ هُوَ الذِّكْرُ النَّفْسِيُّ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ مُتَعَلِّقُهُ النَّقِيضَ عِنْدَ الذَّاكِرِ، فَالْمُرَادُ بِالِاعْتِقَادِ الْعِلْمُ وَهُوَ ظَاهِرٌ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِهِ هُنَا حَقِيقَتُهُ وَهُوَ حُكْمُ الذِّهْنِ الْجَازِمِ الْقَابِلِ لِلتَّغْيِيرِ، وَقَالَ ابْنُ السُّبْكِيّ أَيْضًا: وَجَازِمُهُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ التَّغْيِيرَ عِلْمٌ، وَقَابَلَهُ اعْتِقَادٌ صَحِيحٌ إنْ طَابَقَ الْوَاقِعَ كَاعْتِقَادِ الْمُقَلِّدِ سُنِّيَّةَ الضُّحَى، وَفَاسِدٌ إنْ لَمْ يُطَابِقْ كَاعْتِقَادِ الْفَلْسَفِيِّ قِدَمِ الْعَالَمِ،[٧٩]

إلا أن الإنسان في طور اعتقاد هذه العقيدة، المطلوب منه أن يتفكر فيها، حتى ينفي عن حقائقها الشك، المطلوب منه أن يصل إلى الإدراك، إلى الحكم عليها بالصدق، ومن ثم تصديقها، بمطابقة هذه الحقائق للواقع، والتدليل على صحتها، فهذا الموقف كله موقف فكري عقلي، وهو ما يتسق ويتناسب مع ما أمر به رب العالمين تجاه هذا الهدى.

وما يهمنا هنا أيضا هو طبيعة الأمور التي تدخل في مسمى الاعتقاد، فهي ما يقبل التشكيك، ما يقبل التغيير، ما تدفعه المرجحات من جانب

---

٧٩) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني > باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب

الشك إلى الظن، إلى جانب الجزم، من هنا فوجود مكة مثلا لا يدخل في مسمى الاعتقاد، فهو ليس بأمر غيبي يحتمل التشكيك، وهذا مهم لنا في تحديد ما يدخل من حقائق في الاعتقاد والإيمان.

قال في البحر المحيط: ضَابِطٌ: [الإِدْرَاكُ] الإِدْرَاكُ بِلا حُكْمٍ تَصَوُّرٌ، وَمَعَ الْحُكْمِ تَصْدِيقٌ، [٨٠]

قال في الإبهاج: وقد علمت مما ذكرناه ان الخبر منحصر في الصدق والكذب لأنه إما مطابق للواقع وهو الصدق أو لا وهو الكذب. [٨١] ومثله حرفيا في التمهيد ١ /٤٤٤

وقال ابن أمير الحجاج في التقرير والتحبير: (ثُمَّ يَنْحَصِرُ) الْخَبَرُ (فِي صِدْقٍ إنْ طَابَقَ) حُكْمُهُ (الْوَاقِعَ) أيْ الْخَارِجَ الْكَائِنَ لِنِسْبَةِ الْكَلَامِ الْخَبَرِيِّ بِأَنْ كَانَتْ نِسْبَتُهُ الذِّهْنِيَّةُ مُوَافِقَةً لِنِسْبَتِهِ الْخَارِجِيَّةِ فِي الْكَيْفِ بِأَنْ كَانَتَا ثُبُوتِيَّتَيْنِ أَوْ سَلْبِيَّتَيْنِ (وَكَذِبٍ إنْ لَا) تُطَابِقَ نِسْبَتُهُ الذِّهْنِيَّةُ النِّسْبَةَ الْخَارِجِيَّةَ فِي الْكَيْفِ بِأَنْ كَانَتْ إحْدَاهُمَا ثُبُوتِيَّةً وَالْأُخْرَى سَلْبِيَّةً سَوَاءٌ اعْتَقَدَ الْمُطَابَقَةَ أَوْ عَدَمَهَا فَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا. إ.هـ.

---

٨٠) البحر المحيط للزركشي أقسام النظر مسألة النظر الفاسد لا يستلزم الجهل

٨١) الإبهاج في شرح المنهاج ٢/ ٢٨٢ وانظر: التمهيد للأسنوي ١ /٤٤٤

وقال بعد ذلك: وَقَالَ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ الصِّدْقُ الْمُطَابَقَةُ الْخَارِجِيَّةُ مَعَ اعْتِقَادِهَا فَإِنْ فُقِدَ كُلٌّ مِنْهُمَا سَوَاءٌ صَدَقَ فَقْدُ اعْتِقَادِ الْمُطَابَقَةِ بِاعْتِقَادِ عَدَمِهَا أَمْ بِعَدَمِ اعْتِقَادِ شَيْءٍ فَكَذِبٌ وَإِنْ فُقِدَ أَحَدُهُمَا يُوصَفُ بِالصِّدْقِ مِنْ حَيْثُ مُطَابَقَتُهُ لِلِاعْتِقَادِ أَوْ لِلْخَارِجِ وَبِالْكَذِبِ مِنْ حَيْثُ انْتِفَاءُ الْمُطَابَقَةِ لِلْخَارِجِ أَوْ اعْتِقَادُهَا فِيهِ وَفِي الْأَسْرَارِ الْإِلَهِيَّةِ وَقِيلَ إنْ طَابَقَ فَصِدْقٌ وَإِنْ لَمْ يُطَابِقْ فَإِنْ عَلِمَ الْمُتَكَلِّمُ بِعَدَمِ الْمُطَابَقَةِ فَكَذِبٌ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ فَخَطَأٌ لَا كَذِبٌ وَهَذَا الِاصْطِلَاحُ وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى [أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ] لِأَنَّهُمْ نَسَبُوهُ إلَى أَنَّهُ أَخْطَأَ فِي إخْبَارِهِ عَنْ الْبَعْثِ عَنْ غَيْرِ عَمْدِ الْكَذِبِ فَصَارَ فِي خِطَابِهِ كَذِي الْجِنَّةِ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ انْتَهَى قُلْت وَيُوَافِقُهُ ظَاهِرًا مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ عَائِشَةَ أَمَا إنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ وَلَكِنَّهُ نَسِيَ أَوْ أَخْطَأَ.

وقال: وَالْمُوجِبُ لِهَذَا التَّأْوِيلِ (وَمَا قَبْلَهُ) مِنْ تَأْوِيلِ قَوْلِ عَائِشَةَ (الْقَطْعُ مِنْ اللُّغَةِ بِالْحُكْمِ بِصِدْقِ قَوْلِ الْكَافِرِ كَلِمَةَ الْحَقِّ) كَالْإِسْلَامِ حَقٌّ لِكَوْنِهِ مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ مَعَ عَدَمِ مُطَابَقَةِ اعْتِقَادِهِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الِاعْتِبَارَ فِي ذَلِكَ لِمُطَابَقَةِ الْوَاقِعِ دُونَ الِاعْتِقَادِ.[٨٢]

---

٨٢) التقرير والتحبير المقالة الثانية في أحوال الموضوع > الباب الثالث السنة > فصل في حجية السنة.

وقال رحمه الله: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَ لِجَمَاعَةٍ كَابْنِ الْحَاجِبِ تَعْرِيفُ الْأُصُولِ بِالْعِلْمِ بِالْقَوَاعِدِ، وَفَسَّرَهُ أَعْيَانٌ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ كَشَمْسِ الدِّينِ الْأَصْفَهَانِيِّ وَسِرَاجِ الدِّينِ الْهِنْدِيِّ وَسَعْدِ الدِّينِ التَّفْتَازَانِيِّ بِأَنَّهُ الِاعْتِقَادُ الْجَازِمُ الْمُطَابِقُ وَوَقَعَ عِنْدَ الْمُصَنِّفِ عَدَمُ اشْتِرَاطِ الْمُطَابَقَةِ وَالْجَزْمِ لِوُجُودِ الْمُقْتَضِي لِعَدَمِ اشْتِرَاطِهِمَا أَفَاضَ فِي بَيَانِ ذَلِكَ فَقَالَ (وَجَعْلِ الْجِنْسِ) فِي تَعْرِيفِ الْأُصُولِ إذَا كَانَ مَوْضُوعًا بِإِزَاءِ الْإِدْرَاكِ (الِاعْتِقَادَ الْجَازِمَ الْمُطَابِقَ) لِلْوَاقِعِ لِمُوجِبٍ احْتِرَازًا بِالْجَزْمِ عَنْ الظَّنِّ وَبِالْمُطَابَقَةِ عَنْ الْجَهْلِ[83]

وبالرجوعِ إلى كتابِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى نجدُ دوماً في خطابِ العقيدةِ، في الخطاب المتعلق بالمطالب الخبرية التي يراد اعتقادها، نرى التركيزَ الشديدَ على التفكر والتدبر والتعقلِ ليصلَ الإنسانُ إلى صدقِ العقيدةِ الإسلاميةِ، بلْ إنّ الحقَّ سبحانَهُ جعلَ استعمالَ العقلِ هو الفاصلَ بينَ الخاسر من أهلِ النارِ والفائزِ بالجنةِ: [وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ] [البقرة: ١٧١] ولو عقَلوا لاهتدَوْا، ولو استَعمَلوا السمْعَ والأبصارَ لَفَقِهوا وفهمُوا إذْ هي وسائلُ نقلِ الحسِّ بالواقعِ إلى الدماغِ ليحكمَ من خلالِها على الواقعِ، قالَ تعالى: [كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ

٨٣) التقرير والتحبير > المقدمة أربعة أمور > الأمر الأول مفهوم اسم هذا العلم وهو لفظ أصول الفقه

آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] [البقرة: ٢٤٢] وقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ: [إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ] [الأنفال: ٢٢-٢٣] وقالَ جلَّ وعلا: [وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ] [يونس: ٤٢]. فمَنْ لا يعقل فلنْ يتوصلَ إلى الحقِّ، فجعلَ الحقُّ –سبحانَهُ- العقلَ وسيلةَ الوصولِ إلى الهدايةِ أيْ إلى النجاةِ.

وسأكتفيْ بهذه الآيةِ الكريمةِ التي تُغْنِي في البحثِ: [وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (*) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (*) قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ] [يونس: ٩٩ - ١٠١].

فالأساسُ الذي تقومُ به العقيدةُ هو العقلُ بمعنى التفكر والتدبر ليصلَ إلى أن العقيدةَ الإسلاميةَ هي الحقُّ، أيْ استعمالُ العقلِ للوصولِ لحقائقِ الإيمانِ، ولذلكَ نقولُ إن العقيدةَ الإسلاميةَ عقيدةٌ عقليةٌ، أيْ أن العقلَ هو طريقُ الإيمانِ حتى يتوصلَ المرءُ إلى صدقِ الإسلامِ ومِنْ ثَمَّ يجعلَ العقلَ وسيلةً لفهمِ ما أمرَ به الشرعُ، فالعقلُ يؤمنُ ثُمَّ يفهمُ ولا حكمَ له على الشرعِ.

وعن أبي الضحى قولُه في آيةِ [وإلـهُكُمْ إلهٌ واحدٌ] الآيةَ: «لما نزلتْ هـذه الآيةُ عَجِبَ المشركونَ وقالوا: إن محمـداً يقـولُ: وإلــهُكم إلـهٌ واحـدٌ. فليأتِنـا بآيةٍ إنْ كـانَ مـنَ الصـادقينَ. فـأنزلَ اللّهُ عـزَّ وجـلَّ: [إِنَّ فِـي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَـعُ النَّـاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَـا وَبَـثَّ فِيهَـا مِـن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْـمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَـوْمٍ يَعْقِلُونَ] [البقرة: ١٦٤] ».

فالعقـلُ إذنْ يوصِـلُ الإنسـانَ إلـى حَـلِّ العقـدةِ الكبـرى وإيجـادِ القاعـدةِ الفكريةِ التي يَبنيْ عليها تنظيمَ حياتِه ألا وهي العقيدةُ.

حقـائق الاعتقـاد، مطالـب خبريـة ومباحـث عقليـة، أمرنـا بـالتفكر فيهـا لاعتقادهـا جزمـا، فوجـود اللّه تعـالى، حقيقـة يسـلط الانسـان عليهـا فكـره، متفكرا في الكون والانسان والحياة، ليستدل مما فيها مـن آيـات علـى وجـود الخالق، ثم يتفكر في الكون نفسه، وفي الحياة نفسـها، فالعقيـدة هـي فكـرة كلية عن الكون والإنسان والحياة، وعما قبل هذه الحياة الـدنيا، وعمـا بعـدها وعن علاقتها بما قبلها ومـا بعـدها، وينبثـق عـن هـذه العقيـدة: نظـام حيـاة للإنسان، فيه معالجات لمشـاكل الإنسـان، وبيـان لكيفيـة تنفيـذ المعالجـات، والمحافظة على العقيدة، وحمل المبدأ الإسلامي.

العقيدة هي ما انعقد عليه القلب، والقلب يطلق على العقل ويطلق على القلب المعروف ويراد منه في هذه الحالة الوجدان. ومعنى انعقاد القلب عليها هو احتواؤه لها وضمها اليه ضما كاملا واكيدا بارتياح. [قال بلى ولكن ليطمئن قلبي]. وهذا يعني ان يأخذ الوجدان هذه الفكرة ويشدها اليه ويوافقه العقل على ذلك ولو موافقة تسليم.

فالاعتقاد أصله انعقاد القلب على موافقة العقل، أي أصله التصديق الجازم من قبل القلب أي من قبل الوجدان ولكن شرط هذا التصديق الجازم موافقة العقل، فاذا تم هذا الامران: التصديق الجازم من قبل القلب اي الوجدان، وموافقة العقل لهذا التصديق، فقد حصل انعقاد القلب اي حصلت العقيدة بمعنى حصل الاعتقاد.

وكذلك الانسان في وجوده في الدنيا عليه أن يستعمل عقله ليصل إلى تفسير سر وجوده في الكون والغاية من ذلك، ومن أوجده وماذا يريد منه من أوجده، ومن أوجد الكون، وتمثل الاجابة على هذه التساؤلات لدى الانسان قضية مصيرية تتوقف عليها حياته، وذلك لأن هذه الإجابات تشكل لديه المفاهيم عن الحياة، وهذه المفاهيم هي التي تحدد للانسان معنى وجوده في الحياة والغاية من هذا الوجود، وبالتالي تصبغ سلوكه تجاه الأشياء بصبغة معينة تجعله منسجما مع هذه الأفكار التي آمن بها، وبالتالي يكون متميزا بهذه الأفكار.

لكننا نبحث في موضوع طريق الايمان مسألة الوجود، وجود اللّه ومسألة إثبات صحة نبوة النبي صلى اللّه عليه وسلم، وإثبات وجود الاعجاز في القرآن الكريم، وهي ما تكفينا في مسألة طريق الايمان لنبني أساسا راسخا للايمان، أي أصل الاعتقاد.

أما العقل فبالنسبة للاعتقاد فدوره أن يتوصل إلى أصل الاعتقاد أي إلى أساس الاسلام، وأساس الايمان هو اليقين القطعي بوجود الإله، واليقين القطعي بأن القران كلام اللّه، واليقين القطعي بأن محمدا رسول اللّه. هذا اليقين القطعي بهذه الثلاث معا هو أساس الاسلام وعنها تتفرع جميع عقائد الاسلام وأحكامه.

يتوصل المرء إلى هذه الحقائق بالنظر والتفكر، وعند حصوله على اليقين بها، بمطابقة الواقع لحكم عقله عنها، يحصل لديه التصديق بالإسلام، أي بدين الإسلام، فينتقل من الكفر إلى الإيمان، فيصدق جازما بما جاءه من خبر في القرآن على لسان سيد الخلق محمد صلى اللّه عليه وسلم عن قضايا الإيمان الأساسية، الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيرهما وشرهما من اللّه تعالى، كما ويصدق جزما بكل ما ثبت بطريق القطع، كل هذا يجعل القرآن لا العقل أساس الاعتقاد به، إذ أنه استعمل العقل للوصول إلى أصل الإسلام، ومن ثم يجعل القرآن هو الأساس في مطالبه الخبرية التي يطلب منه الإيمان بها.

وكل هذه المطالب المتعلقة بموضوع الإيمان لها طبيعة فكرية، عقلية، تتطلب منه أن يحكم عليها بأنها حق، أي أنها مطابقة للواقع، فيصدق بنعيم الجنة وعذاب النار، وبالحشر وما إلى ذلك، كما يصدق جزما بوجود أنبياء اللّه ورسله وكتبه، وبالملائكة وكل ما طلب منه التصديق به.

هذا التصديق الجازم طبيعته أنه أمر فكري يعقد عليه القلب وليس بأمر عملي أي ليس بعمل متعلق بالجوارح. وإليك المزيد:

باب: ثالثاً: الإيمان أفكار (هدى) قابلة للاعتقاد:

فإذا علمت أن الايمان عمل قلبي (يعني عقلي) أي أنه فكر، وسنستعير كلمة أفكار مكان كلمة هدى، لعلاقتها بما يقوم به الإنسان في عقله، ولربما تسألني قلبي فهمناها من الكتاب والسنة فكيف تقول عقلي؟؟ أقول لك ما يلي:

جعل الحق سبحانه في غير موضع من القرآن محل الفقه أي الفهم القلب كناية عن العقل لأننا نعرف أن الانسان يفكر ويعقل ويتدبر بعقله ولا ضير من استعمال القلب بهذا المعنى وحتى لو لم يوافقني البعض بذلك فلا ضير المهم أن القلب هو محل الفهم أي الفقه أي التفكير، كما أن ما يُعقل هو الأفكار قطعاً مما يدل على أن الايمان أفكار قطعا ولا جدال،، والآيات تشير بوضوح إلى أن العملية التي تتم مع قضايا الايمان في القلب / العقل هي الفهم والفقه أي أنها أفكار. [أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ] (٤٦) الحج

معلوم أن الأبصار في الوجه وآلتها العيون، وأن الذي يعمى حقيقة هو الأبصار ولكنه تعالى -كما قال الزمخشري في الكشاف-: "**والمعنى: أنّ أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها. وإنما العمى بقلوبهم.**

أو لا يعتدّ بعمى الأبصار، فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب. فإن قلت: أي فائدة في ذكر الصدور؟ قلت: الذي قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها. واستعماله في القلب استعارة ومثل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف، ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار، كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: «الذي بين فكيك» تقرير لمّا ادّعيته للسانه وتثبيت لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهواً مني، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً". إ.هـ.

قال الشيخ الأستاذ نور الدين التميمي غفر الله له: هذا الإنسان يشكل العقل عنده كل ما يتعلق بحكمه على الأشياء، وفهمه للواقع، وبالتالي الأثر الذي يترتب على إدراكه كالمشاعر، فالمشاعر مرتبطة بالعقل أي بالفكر، وإن كان ظاهرها أنها في القلب كما يقول البعض، إلا أن القلب باعتبار أنه الجهاز الذي يزود الجسم بالدم وذلك بعد تنقيته وإعادة ضخه، فإنه يستجيب لإشارات العقل، ولذا أصبح هو مرآة العقل، التي ينعكس عليها كل أثر للفكر، فإن غضب الإنسان قال غضب قلبي، وإن كره قال كره قلبي وإن أحب قال أحب قلبي، ولا علاقة للقلب بالغضب والكراهية والحب، فكيف تكون له علاقة

بالفكر، هذه المرآة أوجدت لبسا عند من قال أن القلب هو العقل، ففات عليه أن يدرك أن القلب ما هو إلا مؤشر، وليس أصلا، ولذا عندما قال تعالى: [وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ] [الأعراف: ١٧٩] لم يقل أحد أن القلب (بخلاف من قالوا أن القلب هو العقل) يفقه ولكنه العقل، كما لا تعني الآية أن العين لا تبصر، وأن الأذن لا تسمع، بل العين تبصر والأذن تسمع، ولكنها عندهم لا قيمة لها، فأقام الحاسة مقام الأصل وهو العقل، لأنها ركن مهم في العقل للإدراك.[٨٤]

وبالمثل فمحل الفهم والتفكر هو العقل ولكن في مسائل الاعتقاد والايمان بعد أن تتم العملية العقلية المفروض أن تصل الأفكار لدرجة الاطمئنان والسكينة وربط القلب عليها وبالتالي تنتقل هذه الأفكار من العقل إلى القلب ليحصل العقد عليها والاعتقاد بها فلا تتنازعها الشكوك ولا يداخلها الريب،، من هنا استعار المولى سبحانه القلب في قضايا الايمان مكان العقل / الدماغ والله تعالى أعلم، وعلى كل فليس هذا الأمر محل نزاع فمن شاء أخذ به ومن شاء ترك المهم أن القضية الباقية الواضحة أن

---

٨٤) في جواب سؤال له على منتدى العقاب.

العقائد أفكار والايمان يتم بطريق الفهم والعقل والتدبر ولك أن تحصي عشرات الآيات التي تطلب من المؤمنين التفكر والعقل والتدبر ليحصل لديهم الايمان كدليل آخر على أن الايمان أفكار تُصَدَّقُ جزما، فاحفظ ذلك جيدا لتعلم أن العقيدة الاسلامية عقيدة عقلية.

[وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ] (٢٥) الأنعام، [رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ] (٨٧)التوبة [وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ] (١٢٧) التوبة

[وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً] (٤٦) الاسراء،، وغير ذلك مما يبين لك أن القلب أي العقل هو الذي أناط به الشرع الفهم والتفكر والتدبر ليؤمن، لاحظ أن التعامل مع قضايا الايمان هو الفهم أي التدبر والتفكير، إذ الفقه لغة الفهم.[٨٥]

---

٨٥) قال ابن عاشور في التحرير والتنويرفي تفسير الآية ٤٦ من الحج: وأطلقت القلوب على تقاسيم العقل على وجه المجاز المرسل لأن القلب هو مُفيض الدم ـ وهو مادة الحياة ـ على

الأعضاء الرئيسية وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل، ولذلك قال: [يعقلون بها] وإنما آلة العقل هي الدماغ ولكن الكلام جرَى أوله على متعارف أهل اللغة ثم أجري عقب ذلك على الحقيقة العلمية فقال: [يعقلون بها] فأشار إلى أن القلوب هي العقل. ونزّلت عقولهم منزلة المعدوم كما نزّل سَيْرهم في الأرض منزلة المعدوم..... وفي ذكرالآذان اكتفاء عن ذكر الأبصار إذ يعلم أن القلوب التي تعقل إنما طريق علمها مشاهدة آثار العذاب والاستئصال كما أشارإليه قوله بعد ذلك: [فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور] فحصل من مجموع نظم الآية أنهم بمنزلة الأنعام لهم آلات الاستدلال وقد انعدمت منهم آثارها فلهم قلوب لا يعقلون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها. إ.هـ. وقال الألوسي في تفسير هذه الآية: وبقوله تعالى: [فَتَكُونَ] الخ على أن محل العقل القلب لا الرأس، قاله الجلال السيوطي في أحكام القرآن العظيم. وقال الإمام الرازي: في الآية دلالة على أن العقل هوالعلم وعلى أن محله هو القلب، وأنت تعلم أن كون العقل هو العلم هو اختيار أبي إسحق الاسفرائيني واستدل عليه بأنه يقال لمن عقل شيئاً علمه ولمن علم شيئاً عقله، وعلى تقدير التغاير لا يقال ذلك وهو غير سديد لأنه إن أريد بالعلم كل علم يلزم منه أن لا يكون عاقلاً من فاته بعض العلوم مع كونه محصلاً لما عداهوإن أريد بعض العلوم فالتعريف غير حاصل لعدم التمييز وما ذكر من الاستدلال غير صحيح لجواز أن يكون العلم مغايراً للعقل وهما متلازمان. وقال الأشعري: لا فرق بين العقل والعلم إلا في العموم والخصوص والعلم أعم من العقل فالعقل إذاًعلم مخصوص فقيل: هو العلم الصارف عن القبيح الداعي إلى الحسن وهو قول الجبائي، وقيل: هو العلم بخير الخيرين وشرالشرين وهو قول لبعض المعتزلة أيضاً ولهم أقوال أخر، والذي اختاره القاضي أبو بكر أنه بعض العلوم الضرورية كالعلم باستحالة اجتماع الضدين وأنه لا واسطة بين النفي والإثبات وأن الموجود لا يخرج عن أن يكون قديماً أو حادثاً ونحو ذلك. واحتج إمام الحرمين على صحة ذلك وإبطال ما عداه بما ذكره الآمدي في ابكار الأفكار بما له وعليه. واختار المحاسبي عليه الرحمة أنه غريزة يتوصل بها إلى المعرفة، ورد بأنه إن أراد بالغريزة العلم لزمه ما لزم القائل بأنه العلم وإن أراد بها غير العلم فقد لا يسلم وجود أمر وراء العلم يتوصل به إلى المعرفة. وقال صاحب القاموس بعد نقل عدة أقوال في العقل: والحق أنه نور روحاني به تدرك النفس

العلوم الضرورية والنظرية، ولعنا نحقق ذلك في موضع آخر إن شاء الله تعالى،... بل كل جزء من أجزاء بدن الإنسان إذا قام به إدراك وعلم فهو مدرك عالم، وكون ذلك هما يقوم بالقلب أو غيره مما لايجب عقلا ولا يمتنع لكن دل الشرع على القيام بالقلب لقوله تعالى: [إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ] (ق:٣٧) وقوله سبحانه: [فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا] وقوله عز وجل [أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا] (محمد:٢٤) انتهى، ولا يخفى أن الاستدلال بما ذكر على محلية القلب للعلم لا يخلو عن شيء، نعم لا ينكر دلالة الآيات على أن للقلب الإنساني لما أودع فيه مدخلاً تاماً في الإدراك، والوجدان يشهد بمدخلية ما أودع في الدماغ في ذلك أيضاً، ومن هنا لا أرى للقول بأن لأحدهما مدخلاً دون الآخر وجهاً، وكون الإنسان قد يضرب على رأسه فيذهب عقله لا يدل على أن لما أودع في الدماغ لا غير مدخلاً في العلم كمالا يخفى على من له قلب سليم وذهن مستقيم فتأمل. إ.هـ.

وقال الشوكاني في فتح القدير: ومعنى [فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا] أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه وأسند التعقل إلى القلوب لأنها محل العقل، كما أن الآذان محل السمع؛ وقيل: إن العقل محله الدماغ ولا مانع من ذلك، فإن القلب هو الذي يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجاً عنه. إ.هـ.

وقال القرطبي: [فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ] أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن. وقد قيل: إن العقل محله الدماغ؛ وروي عن أبي حنيفة، وما أراها عنه صحيحة. إ.هـ. وقال في لسان العرب: وقد يعبر بالقَلْبِ عن العَقْل، قال الفراءُ في قوله تعالى: [إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ]؛ أي عَقْلٌ، قال الفراء: وجائزٌ في العربية أن تقولَ: ما لَكَ قَلْبٌ، وما قَلْبُك معك، تقول: ما عَقْلُكَ معكَ، وأين ذَهَبَ قَلْبُك؟ أي أين ذهب عَقْلُكَ؟ وقال غيره: لمن كان له قَلْبٌ أي تَفَهُّمٌ وتَدَبُّرٌ. ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أتاكم أهل اليَمن، هم أَرَقُّ قلوباً، وأَلْينُ أَفْئِدَةً. فوَصَفَ القلوبَ بالرِّقة، والأَفْئِدَةَ باللِّين. وكأَنَّ القَلْبَ أَخَصُّ من الفُؤَاد في الاستعمال، ولذلك قالوا: أَصَبْتُ حَبَّةَ قلبه، وسُوَيْداءَ قلبه، وقال بعضهم: سُمِّي القَلْبُ قَلْباً لتَقَلُّبه؛ وأَنشد:

ما سُمِّيَ القَلْبُ إلاَّ مِنْ تَقَلُّبه   والرَّأْيُ يَصْرِفُ بالإنْسان أَطْوارا

كما أنه قال في اللسان: والقَلْبُ: هو الجُمَّارُ، وقَلْبُ كلّ شيءٍ: لُبُّه، وخالِصُه، ومَحْضُه، تقول: جئْتُك بهذا الأمر قَلْباً أي مَحْضاً لا يَشُوبُه شيءٌ. وفي الحديث إن لكلِّ شيءٍ قَلْباً، وقلبُ القرآن يس... وفي الحديث: كان عليٌّ قُرَشياً قَلْباً أي خالصاً من صميم قريش. وقيل: أراد فَهِماً فَطِناً، من قوله تعالى [لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ] انتهى

إذن فالايمان فكر يتدبر العاقل حقائقه فيقر بها أو يعرض عنها فيَقَرُ الايمان في القلب المؤمن وأما المنافق فيصدق بلسانه دون قلبه وما أولئك بالمؤمنين،، إذن فأول التفكر في الأفكار هذه التي بالطبع هي مطالب خبرية أي أول طريق الايمان هو التصديق ابتداء لتتجاوز مرحلة التكذيب فالشك فالظن،، وهو ما يسمى بالتصديق الجازم، لأن الايمان فكر،، وهو عبارة عن مطالب خبرية: إخبار عن الله وعن القيامة وعن البعث والملائكة... وهذه المطالب إما أن تكذبها أو تصدقها أو تشك فيها أو تظن وسبق أن بينا أن المطابقة للواقع تعتبر ضابطا مهما يحول بين كل من صدق جازما بأية حقيقة من الحقائق وبين أن يطلق عليه لقب المؤمن، كما أنها تحول بين كثير من أوهام العقول التي عاب القرآن على أصحابها جهالاتهم وبين أن تصبح هذه الأوهام قضايا إيمان معتبرة.

فالجن ظنوا أن لن يبعث الله أحدا،، والكفار اتخذوا الأصنام لتقربهم من الله زلفى،، والنصارى قالوا اتخذ الله ولدا، سبحانه، وهكذا فهذه القضايا لولا

مسألة عدم المطابقة للواقع لجاز لكل من أراد أن يخرص شيئا أن يسمي خرصه اعتقادا، ولما أمكننا التمييز بين الاعتقاد الصحيح والفاسد، لكن ضابط المطابقة للواقع يحول بينه وبين ذلك، وذلك كله لتقتصر حقيقة الايمان على المعنى الشرعي وكذلك لا يمكن الوصول إلى الجزم إلا عن دليل،، وسيأتي بيان ذلك بشكل مفصل أكثر لاحقا ان شاء الله تعالى.

قلنا أن الايمان فكر،، فمثلا وجود الله سبحانه هذه مسألة يتفكر العقل فيها ليصل إلى رأي إما أن يجزم بها أو يكذب بها أو يتخذ حيالها موقفا فكريا فحسب،، ولا يقال هنا يعمل بها لأنها أفكار قابلة للاعتقاد أي للتصديق أو التكذيب أو الشك أو الظن فقط وليس فيها قابلية العمل.

وجود الجنة مثلا أيضا فكرة ليس فيها قابلية العمل،، إما أن تجزم بوجود الجنة أو لا، لكن هذه الفكرة أيضا تدفع للعمل.

فمن آمن بالله أي بوجود الله خاف عقابه وعلم أنه فرض عليه فرائض فيعمل بموجب هذا الايمان،، فالايمان يدعو إلى العمل ولكن فكرة وجود الله وفكرة البعث والنشور وفكرة الرزق بيد الله وما إلى ذلك من أفكار العقيدة طبيعتها أنها أفكار قابلة للاعتقاد وغير قابلة للعمل

ولا يقال أن الرزق بيد الله يُعمل بهذه الفكرة، ومثلا الصلاة [أقم الصلاة] فكرة لكنها قابلة للتطبيق،، يعمل المرء بها أو لا يعمل،، لكن لا اله

الا الله فكرة قابلة للاعتقاد، والعمل نتيجة من نتائجها وثمرة مرجوة من ثمارها يصدق الايمان بها أو يكذبه،، العمل يصدق الايمان أو يكذبه، تماما مثلما تزني العين وزناها النظر والفرج يصدق ذلك أو يكذبه.

فالفكرة التي يجب أن تكون واضحة: أن أفكار العقيدة أفكار قابلة للاعتقاد أي للتصديق الجازم

أما أفكار العمل فأفكار قابلة للتطبيق أي للعمل.

إن العقائد والأحكام الشرعية كلها أفكار، فلا إله إلا الله فكر، و [حرمت عليكم الميتة] فكر والفرق بينهما هو أن الحكم الشرعي متعلق بفعل العبد، أما العقيدة فهي ما طلب الإيمان به، وأما ما طلب فيه العمل فهو من الأحكام الشرعية.

فالعقيدة يقيم الأصولي أفكارها ويصل لأركانها وحقائقها وينصب الدليل عليها من النظر في الكون والإنسان والحياة، وبالتالي ينتج بحثه أفكارًا، قابلة للاعتقاد.

والفقيه يبحث في مصادر التشريع ليستنبط منها حكمًا شرعيًا، فينظر في الأمارات ليثبت أن الحكم موجود فيها، وما ينتجه بحثه هو أفكار قابلة للتطبيق.

ومثلا مسألة عذاب القبر وعلاقتها بالعمل، فلنبحث الأمر هنا لتوضيح معنى أن الايمان أفكار قابلة للاعتقاد ولا يقال يعمل بها: روى البخاري إن النبي صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال: إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، أما هذا فكان لا يستنزه من البول، وأما هذا فكان يمشي بالنميمة، وروى الدارقطني: تنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر منه، وروى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (دخلت عليّ امرأة من اليهود، فقالت: إن عذاب القبر من البول، فقلت: كذبت، فقالت: بلى، إنا لنقرض منه الجلد والثوب، فخرج رسول اله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة، وقد ارتفعت أصواتنا، فقال: ما هذا؟ فأخبرته بما قالت: فقال: صدقت. قالت: فما صلى بعد يومئذ إلا قال دبر كل صلاة: رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أعذني من حر النار وعذاب القبر (رواه النسائي)،

وهذا الذي أشار إليه الحديث من أن بني إسرائيل كانوا يقرضون من البول الجلد والثوب، هو من الدين الذي شرعه الله لهم، ولذلك لما نهاهم من نهاهم عن فعل ذلك عذب في قبره بسبب نهيه، في حديث عبدالرحمن بن حسنة أن رسول الله صلى الله عليه سلم قال: (ألم تعلموا ما لقي صاحب بني اسرائيل، كانوا إذا أصابهم البول قطعوا ما أصابه البول منهم، فنهاهم عن ذلك، فعذب في قبره) رواه الترمذي وابن ماجه، وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تنزهوا من البول، فإن عامة عذاب

القبر منه) ورواه ابن عباس بلفظ (عامة عذاب القبر من البول فتنزهوا منه) ورواه أبو هريرة لفظ (أكثر عذاب القبر من البول)، قال عنه الألباني: صحيح، وعزا رواية أنس إلى الدارقطني ورواية ابن عباس إلى الدارقطني والحاكم والبزار والطبراني.

نقول أن عذاب القبر جُعل عقوبة على المشي بالنميمة وعدم التنزه من البول، وفي روايات مر على مظلوم فلم ينصره، وبعضها صلى بلا طهور، إضافة إلى من لا يدري من ربه، من رسوله وهذا من الاعتقاد، فمن قام بهذه الأفعال عوقب بعذاب القبر، أي أنه عندما يقدم المسلم على المشي بالنميمة يتذكر أن هناك عذابا سيعذبه في قبره على فعله هذا فيمتنع، من هنا يكون الايمان وازعًا يزعه عن عمل أشياء أو دافعًا لعمل أخرى،

والملاحظ أن من تفكر في مسألة عذاب القبر ليعتقدها عليه أن يبحث في أدلتها، ومن ثم يصدق جزما بها، ليصل بها إلى مرتبة الاعتقاد، لا يدخل في بحثه العمل، ولا يرى أثرا للعمل في هذا البحث، ولو قلنا أن العمل جزء من البحث أي جزء من عملية الاعتقاد، فكما ترى أن أعمالا مخصوصة نص الشارع على أن عليها عقوبة في القبر، دون غيرها، فمن الناس، من يمشي بالنميمة ثم يتوب، فيتوب الله عليه ولا يعذبه في القبر، فانفصل العمل عن القضية التي تعلق بها، دون أن يتأثر الإيمان، ومن الناس من يمشي بالنميمة ولا يشك لحظة أن على مثل فعله عذاب، فهذا لا يحصل في

اعتقاده نقض لقيامه بالعمل، فالحالة الوحيدة التي يحصل فيها الانتقاض هي الشك في العذاب نفسه، أو رد الخبر الذي بين أن على مثل هذا الفعل عقوبة، أو القيام بالعمل عنادًا وجحودًا وتكبرًا على أمر اللّه، فانتقاض العقيدة لم يحصل ولا في حالة جراء القيام بالفعل، أي لو كان القيام بالفعل هو السبب لدار مع المسبب وجودا وعدما.

لكن في المقابل: فإن هذا يعني أن الارتباط بين الإيمان والعمل وثيق، فعندما يخص الاسلام أفعالا معينة بعقوبات معينة، فإنه يربط العمل بالإيمان أي يجعل العمل منبثقا عن الإيمان، عن العقيدة، فالمسلم دوما يربط تصرفاته بقاعدة أنه يأتمر بأوامر اللّه، وينتهي عن نواهيه، ويجعل الحكم الشرعي مقياس أفعاله، على اعتبار أنه أوامر اللّه.

من هنا، كان صرف القضية عن مسارها الصحيح من قبل المرجئة، خطأ فاحشا، ومسايرتهم في البحث أيضا لم يحمل إعادةً للقضية لبعدها الصحيح، بالقول أن العمل من الإيمان، فأعمال معينة عليها عقوبات معينة، والإيمان بهذه العقوبات على هذه الأفعال من الإيمان، وهو غير القيام بعمل الجوارح، وعندما اكتفت بعض الفرق بالإيمان دون العمل للنجاة، كان الصواب أن يقال لهم: بل على أعمال معينة رتبت عقوبات معينة، فلم يكفِ الإيمانُ ليكُفَّ عن هذه العقوبات، إلا أن يرحم اللّه ويتوب ويغفر، فالإيمان بهذه العقوبات من الإيمان:

ومثلا روى البخاري رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها، حرمها في الآخرة). فهذا الايمان يمنعه من شرب الخمر في الدنيا، لكن هل عدم التنزه من البول أو هل المشي بالنميمة أو هل أن شرب الخمر في الدنيا هو شرط صحة للإيمان بعذاب القبر أو بالجنة؟

ليس كذلك، ولكن الحديث هذا يحرض المؤمن على الانتهاء عن شرب الخمر، فالإيمان وازع ودافع للعمل.

وما ثبت بالقطع أنه عقوبة على عمل معين يجب اعتقاده، فمثلا: ما سلككم في سقر؟ قالوا لم نك من المصلين... الآيات، فيجب اعتقاد أن عقوبة سقر على ترك الصلاة وما صاحبها من آيات، أي لم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين. الآيات، فاعتقاد العقوبة هذا غير مسألة عمل الجوارح نفسه.

عندما نسأل: هل تؤمن بعذاب القبر مثلا فإننا لا نعني بحال إلا هل تصدق جزما به وهل هذا التصديق مطابق للواقع وهل عليه دليل؟ فإن تحقق ذلك كان إيمانا، ونفس الشيء نقوله عن هل تؤمن بالقيامة؟ تصديق جازم مطابق للواقع عن دليل، لأنها أخبار يقف المرء حيالها إما مصدقا أو شاكا أو ظانا أو مكذبا، ويقيم الحجج والبراهين على واقعها وما إلى ذلك؛

أولا ترى معي أنه قد يمشي المؤمن بالنميمة وهو يعلم يقينًا أنه سيعذب على فعله هذا، فإيمانه لم ينتقض بفعله هذا ولكن فعله لم يصدق هذا الايمان بل كذبه، أو مثلا: غلبته شهوته، وضعف فلم يكن إيمانه بالقوة الكافية لردعه، فلا يقال حينها أن الفعل كذب الإيمان، بينما لو قام نفس الشخص بالفعل نفسه وهو لا يصدق أنه سيعذب عليه فإن إيمانه سينتقض، مع أن الفعل واحد لكن الفرق في الاعتقاد!!

وبينما لو قام هذا الشخص نفسه بالشك في وجود عذاب القبر أو الشك في أن المرء إن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، فإن إيمانه بهذه القضايا ينتقض رأسا على عقب!!

فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن العمل نتيجة للايمان يصدقه أو يكذبه لكنه ليس شرطًا لصحته، كما يدل على أن الايمان أفكار قابلة للاعتقاد لا للعمل.

هنا أركز على أننا لا نبحث في جنس الأعمال ولكننا نبحث عن أعمال بعينها، فمن قال أنها من الايمان إما وافق المعتزلة أو الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة أو جعله بين بين.

قال الشيخ النبهاني رحمه الله: فهذه المخالفة لأوامر الله ونواهيه لا تطعن في وجود العقيدة عنده، وإنما تطعن في تقيده بهذا العمل وحده

بالعقيدة، ولذلك لا يعتبر العاصي أو الفاسق مرتداً، وإنما يعتبر مسلماً عاصياً في العمل الذي عصى به وحده، ويعاقب عليه وحده، ويبقى مسلماً مادام يعتنق عقيدة الإسلام.[٨٦] يراجع هنا فصل هل يتبعض الاعتقاد ففي قول الامام ابن تيمية هناك ما يثبت هذا في ص ١٧٨ ومن ضمن ما قال: وبهذا تبين أن الشارع ينفي اسم الإيمان عن الشخص لانتفاء كماله الواجب وإن كان معه بعض أجزائه كما قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ومنه قوله من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا فإن صيغة أنا ونحن ونحو ذلك من ضمير المتكلم في مثل ذلك يتناول النبي والمؤمنين معه الإيمان المطلق الذي يستحقون به الثواب بلا عقاب ومن هنا قيل أن الفاسق الملة يجوز أن يقال هو مؤمن باعتبار ويجوز أن يقال ليس مؤمناً باعتبار وبهذا تبين أن الرجل قد يكون مسلماً لا مؤمناً ولا منافقاً مطلقاً بل يكون معه أصل الإيمان دون حقيقته الواجبة ولهذا أنكر أحمد وغيره من الأئمة على من فسر قوله ليس منا ليس مثلنا أو ليس من خيارنا وقال هذا تفسير المرجئة وقالوا لو لم يفعل هذه الكبيرة كان يكون مثل

---

٨٦) الشخصية الاسلامية الجزء الأول ص ١٨

النبي وكذلك تفسير الخوارج والمعتزلة بأنه يخرج من الإيمان بالكلية ويستحق الخلود في النار تأويل منكر.) [٨٧]

وهنا ألفت الانتباه إلى التفريق الذي يفرقه العلامة بين المؤمن والمؤمن حقا، فهو يتناول هنا المؤمن ويقول في موضع آخر: قال ابن تيمية رحمه الله: (أي الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقاً فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة). [٨٨]

على أنه أيضا يوجد في العمل ناحية من الاعتقاد أي من الايمان، فمثلا الصلاة كعمل هي من الاحكام الشرعية العملية أمر من الله تعالى بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فالقيام بالعمل شيء، والايمان بأن هذا الفرض فرض الله شيء آخر، فمن جحد فرض الصلاة كفر،، فهو بذا ينكر أن الله سبحانه فرض الصلاة فهذا من الايمان أي هذا الجزء من الفعل من العقيدة وليس من الاحكام الشرعية العملية،، فكل فعل فيه جانب عملي (عمل الجوارح وفيه جانب عقدي من أنكر الجانب العقدي كفر كمن أنكر ركعتي سنة الفجر لأنهما ثابتتين بالقطع يكفر،، لكن من لم يصل ركعتي سنة الفجر لا شيء عليه،، هل لاحظت الفرق؟

---

٨٧) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٠٥- ٥٣٠

٨٨) (مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٨٢)

من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا لحكم الله ومعاندا له ومرتضيا غيره بدلا له يكفر

لكن من تهاون في التطبيق وهو لا يجحد حكم الله ولا يعتبر غيره أفضل منه....الخ لا يكفر بل يفسق،، فالفعل الذي هو الحكم بغير ما أنزل الله: إما أن يصاحبه اعتقاد أن حكم الله هو الصحيح ولكنه يتهاون في الفعل، أو يصاحبه اعتقاد بأن حكم الله لا يصلح.... الخ

فالجانب العقدي من العمل هو الذي يفضي إلى الكفر، بينما الجانب العملي يدخل المرء في دائرة التهاون أو الفسق أو....الخ.

وعلى كل سنبحث المسألة باستفاضة وبأدلة كافية لإدخال الطمأنينة لقلب كل مؤمن بحول الله في موضعه من هذا الكتاب فنرجو الرجوع إليها في موضعها في فصل علاقة الايمان بالعمل.

على أننا هنا يجب أن نقرر حقيقة مهمة في البحث نبه إليها أخونا الباحث خالد صدقي في بحث قيم له يرد فيه على من رمى من قال أن الايمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل بالإرجاء، وهي أن العلماء انطلقوا في بحث مسألة الايمان من منطلقات مختلفة، وعلى أساسها اختلفوا، فمنهم من كان يتحدث عن الاسلام والايمان على أنهما ذات الشيء، فلم يفرق بين الاسلام والايمان بل كان حديثه عن الايمان حديثه عن الاسلام،

وهنا لا بد أن يدخل العمل في صلب تعريف الإيمان / الإسلام، ومثال عليهم الإمام ابو عبيد القاسم بن سلام رحمه اللّه، ودلل على ذلك بجمل من كتابه الإيمان منها قوله رحمه اللّه:

وبهذا القول كان يأخذ سفيان والأوزاعي ومالك بن أنس، يرون أعمال البر جميعا من الازدياد في الإسلام، لأنها كلها عندهم منه. وحجتهم في ذلك ما وصف اللّه به المؤمنين في خمس مواضع من كتابه منه قوله [الَّذِينَ قَالَ لَهمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ] (آل عمران/ ١٧٣) وقوله [لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إيمَانًا] (المدثر / ٣١) وقوله: [لِيَزْدَادُوا إيمَانًا مَّعَ إيمَانِهِمْ] (الفتح / ٤). وموضعان آخران قد ذكرناهما في الباب الأول، فاتبع أهل السنة هذه الآيات وتأولوها أن الزيادات هي الأعمال الزاكية، وأما الذين رأوا الإيمان قولا ولا عمل.....انتهى [٨٩] لاحظ قوله في البداية: {... يرون اعمال البر جميعا من الازدياد في الاسلام لانها كلها عندهم منه.....} ثمّ قوله بعدها عن المخالفين: {وأما الذين رأوا الإيمان قولا ولا عمل فهو لم يفرق في حديثه عن الاسلام او الايمان.وتقرير ابي عبيد ان الايمان بمعنى العقيدة هو عمل القلب يبين بوضوح ان معنى

---

٨٩) كتاب الايمان لأبي عبيد ص ٧٢

الايمان هنا هو الاسلام فكأنه قال منكرا: {وأما الذين رأوا الإيمان (الاسلام) قولا ولا عمل}.

ونحن لا نقول ان الاسلام لا عمل فيه وندرك نحن بدورنا ان الذي تحدثوا عن الايمان هنا ممن انكر عليهم تحدثوا عنه بمعنى الاعتقاد والتصديق الذي محله القلب مع عدم انكارهم أهمية الاقرار باللسان وأهمية القيام بالاعمال لأن كلّ ذلك هو الاسلام وهو الدين، اللهم إلا فرقا من المتكلمين كابن كرام والجهم مثلا ممن قصروا الايمان على القول باللسان أو الاعتراف أو ما سبق بيانه فهؤلاء لا يفقهون المفهوم الشرعي للإيمان.

وكذلك ممن لم يفرقوا بين الاسلام والايمان ابن حزم رحمه اللّه تعالى، فهو إذ يتحدث عنهما يتحدث عن مسمى واحد قال رحمه اللّه في كتابه الفصل بين الملل والنحل: فهذا نص جلي على ان الاسلام هو الايمان، وقد وجب قبل بما ذكرنا ان اعمال البر كلها هي الاسلام، والاسلام هو الايمان، فاعمال البر كلها ايمان[٩٠] ويؤكد ذلك قوله عند تعليقه على حديث الرسول صلى اللّه عليه وسلم: " لا يدخل الجنّة الا نفس مسلمة ": {فهذا هو الاسلام الذي هو الايمان فصح ان الاسلام لفظة مشتركة كما ذكرنا}[٩١] وعلى كل

---

٩٠) الفصل بين الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٣/ ٢٤٣
٩١) المرجع السابق ٣ / ٢٧٠

فقد ناقشت وفصلت في ذلك في فصل الاسلام والايمان وما أحببت لفت النظر إليه هو أن على الباحث أن يدرس ابتداء المنطلق الذي اتخذه العالم في بحث الايمان أهو بالنسبة لأحكام الدنيا؟ أم ما اعتبر عند الله إيمانا، وما تعلق بأحكام الآخرة؟ أم هل فرق بين الاسلام والايمان؟ فهو إذ يتحدث عنهما يتحدث عن شيء واحد ونحن نقرر ونقول أن الاسلام مختص بأعمال الجوارح والإخلاص والإقرار، وما شابه وأن العقائد افكار وهي من عمل القلوب.

باب رابعاً: العقيدة الاسلامية عقيدة عقلية:

أما الآيات التي منها نستدل على أن العقيدة الاسلامية عقيدة عقلية فأكثر من أن تحصى، وهذا يخدم بحثنا في إثبات أن الايمان أفكار قابلة للاعتقاد: وقد اخترت من كتاب اللّه تعالى الآيات التي تتعلق مباشرة بقضايا الاعتقاد، ليلمس القارئ الكريم كيف أن رب العالمين بين أن طريق الايمان هو استعمال العقل والتدبر والتفكر، وأنه بهذا الأمر يمتاز الانسان عن الحيوان، [وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ] (١٧٩) الأعراف، [أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً] (٤٤) الفرقان: قال رب العزة سبحانه [فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] (٧٣) البقرة، [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] (١٦٤) البقرة، [وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ] (٣٢) الأنعام، [وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ

تَعْقِلُونَ] (١٦٩) الأعراف، [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ] (٢٤) الأنفال، [وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] (٤) الرعد [أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ] (٤٦) الحج، [قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ] (٢٨) الشعراء، [إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ] (٤٤) العنكبوت، [وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ] (٦) الجاثية، [وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ] (١٠) الملك.

[أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ] (٢٦٦) البقرة، [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ] (١٩١) آل عمران، [إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (٢٤) يونس، [أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ] (٩) الروم، [اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (٤٢) الزمر، [وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (١٣) الجاثية [لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ

لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] (٢١) الحشر [أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً] (٨٢) النساء، [أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا] (٢٤) محمد. [وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] (٢٤) الروم.

لا شك أن الاسلام جاء للبشرية قاطبة مخاطبًا إياها مخرجًا لها من الظلمات إلى النور، وأننا أمام حالات بشرية، منها من كان كافرًا ويراد هدايته للاسلام، ومنها من كان مقلدًا في اعتقاده ولا يقوى إيمانه على الصمود أمام أي تشكيك ولا يدرك من أمر اعتقاده ما يثبته في قلبه، ومنها من يعتقد قضايا نهى الشرع عنها وبحاجة لضبط مفاهيم الاعتقاد لديه، ومنها من هو مؤمن راسخ الايمان.

ثمة طرق ثلاثة للوصول إلى مطالب الاعتقاد وتركيزها في النفس، أولها النقل، أي خبر الوحي، وثانيها العقل، أي التفكير والتدبر والنظر، وثالثها الوجدان أو الفطرة.

كما وأن قضايا الاعتقاد على نوعين: نوع يقع عليه الحس وبالتالي يمكن البحث العقلي فيه للوصول للنتيجة، كإثبات وجود الله تعالى، وأن القرآن

معجزة رسوله وكنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره من الأنبياء، ونوع لا يقع عليه الحس وهذا لا بد أن يستند إلى موجب وقع عليه الحس ابتداء كأخبار الجنة والنار، والملائكة والرسل، فلا بد أن يبنى الايمان بها على دليل نقلي ثبت أصلا أنه صحيح بالعقل، أي بالحس، وبما أن هذا الدليل نفسه الذي سيفضي إلى استيقان هذه القضايا الغيبية هو مما يقع الحس عليه فمن هنا كانت كل قضايا العقيدة عقلية.

قال الشيخ تقي الدين النبهاني قدس الله روحه في كتابه نظام الاسلام:
نعم إن الإيمان بالخالق المدبر فطري في كل إنسان، إلا أن هذا الإيمان الفطري يأتي عن طريق الوجدان، وهو طريق غير مأمون العاقبة، وغير موصل إلى تركيز إذا ترك وحده. فالوجدان كثيراً ما يضفي على ما يؤمن به أشياء لا حقائق لها، ولكن الوجدان تخيلها صفات لازمة لما آمن به، فوقع في الكفر أو الضلال.

وما عبادة الأوثان، وما الخرافات والترهات إلا نتيجة لخطأ الوجدان، ولهذا لم يترك الإسلام الوجدان وحده طريقة للإيمان، حتى لا يجعل لله صفات تتناقض مع الألوهية، أو يجعله ممكن التجسد في أشياء مادية، أو يتصور إمكان التقرب إليه بعبادة أشياء مادية، فيؤدي إما إلى الكفر أو الإشراك، وإما إلى الأوهام والخرافات التي يأباها الإيمان الصادق.

ولذلك حتم الإسلام استعمال العقل مع الوجدان، وأوجب على المسلم استعمال عقله حين يؤمن بالله تعالى، ونهى عن التقليد في العقيدة ولذلك جعل العقل حكماً في الإيمان بالله تعالى.

قال تعالى: [إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب] ولهذا كان واجباً على كل مسلم أن يجعل إيمانه صادراً عن تفكير وبحث ونظر، وأن يحكم العقل تحكيماً مطلقاً في الإيمان بالله تعالى. (والدعوة إلى النظر في الكون لاستنباط سننه وللاهتداء إلى الإيمان ببارئه، يكررها القرآن مئات المرات في سوره المختلفة، وكلها موجهة إلى قوى الإنسان العاقلة تدعوه إلى التدبر والتأمل ليكون إيمانه عن عقل وبينة وتحذره الأخذ بما وجد عليه آباءه من غير نظر فيه وتمحيص له وثقة ذاتية بمبلغه من الحق. هذا هو الإيمان الذي دعا الإسلام إليه، وهو ليس هذا الإيمان الذي يسمونه إيمان العجائز، إنما هو إيمان المستنير المستيقن الذي نظر ونظر، ثم فكر وفكر، ثم وصل من طريق النظر والتفكير إلى اليقين بالله جلت قدرته).

ورغم وجوب استعمال الإنسان العقل في الوصول إلى الإيمان بالله تعالى فإنه لا يمكنه إدراك ما هو فوق حسه وفوق عقله، وذلك لأن العقل الإنساني محدود، ومحدودة قوته مهما سمت ونمت بحدود لا تتعداها، ولذلك كان محدود الإدراك، ومن هنا كان لا بد أن يقصر العقل دون إدراك ذات الله، وأن

يعجز عن إدراك حقيقته، لأن الله وراء الكون والإنسان والحياة، والعقل في الإنسان لا يدرك حقيقة ما وراء الإنسان، ولذلك كان عاجزاً عن إدراك ذات الله. [٩٢]

وقال: والعقيدة الإسلامية وحدها هي العقيدة العقلية التي تقرر ما في فطرة الإنسان وهو التدين. لأن ما عداها من العقائد إما أن توافق غريزة التدين عن طريق الوجدان لا عن طريق العقل وليست عقيدة عقلية، وإما أن تكون عقيدة عقلية ولكنها لا تقرر ما في فطرة الإنسان أي لا توافق غريزة التدين، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية وحدها هي العقيدة الصحيحة. [٩٣]

وقال رحمه الله: والدليل إما أن يكون عقلياً وإما أن يكون نقلياً؛ والذي يعيِّن كون الدليل عقلياً أو نقلياً هو واقع الموضوع الذي يستدل به عليه للإيمان به، فإن كان الموضوع واقعاً محسوساً تدركه الحواس فإنَّ دليله يكون عقلياً حتماً وليس نقلياً، وإن كان مما لا تدركه الحواس فإن دليله نقلي، ولما كان الدليل النقلي نفسه هو مما تدركه الحواس أي أن كونه دليلاً يدخل تحت الحس وتدركه الحواس، كان لابد من أن يكون اعتبار

---

٩٢) نظام الاسلام، الطبعة السابعة لتقي الدين النبهاني ص ٤ والجملة التي بين الأقواس مقتبسة من كلام الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله بالحرف.

٩٣) الشخصية الاسلامية الجزء الأول ص ١٥

الدليل النقلي دليلاً يصلح للإيمان متوقفاً على ثبوت كونه دليلاً بالدليل العقلي. [٩٤]

وهنا نذكر دليلا يثبت صحة هذا القول من جملة أدلة بالعشرات، [وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (٣٩) فصلت، فهنا مثال لقضية غيبية الدليل عليها مستند للحس وعقلي.

وقال النبهاني رحمه الله: فالعقل هو الذي يدرك وجود الله وهو الذي يُتخذ طريقة للإيمان، لذلك أوجب الإسلام استعمال العقل وجعله الحكم في الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى، ومن هنا كان الدليل على وجود الله دليلاً عقلياً.[٩٥]

لاحظ أن الحق سبحانه عاب على الكفار أنهم لا يستعملون عقولهم للوصول إلى حقائق الايمان واعتبر من لم يستعمل عقله أنه أضل من الأنعام، وهذا ينبيك بوضوح أن الحق سبحانه جعل العقل هو السبيل إلى الوصول إلى الاعتقاد، لكن هذا في طريق الايمان، أي لإثبات وجود الله وصدق نبوة رسوله عليه السلام وإثبات أن القرآن كلام الله، وبعد أن يصل

---

٩٤) الشخصية الاسلامية الجزء الأول ص ٢١
٩٥) الشخصية الاسلامية الجزء الأول ص ٢٥

المرء لهذه الحقائق فإن كان كافراً يدخل في الاسلام، أو مسلمًا ينبغي عليه أن يعقد قلبه على الايمان بحيث لا يبني إيمانه على التقليد، أو مؤمنًا راسخًا يبغي الزيادة في الايمان، عندها يأخذ طريق الايمان منعطفًا جديدًا، وهو أن العقل لا يعود هو أساس البحث بل القرآن والوحي.

قال النبهاني رحمه الله في بيان خطأ المتكلمين في منهجهم ما نصه:

رابعاً - أن منهج المتكلمين يجعل العقل أساس البحث في الإيمان كله، فترتب على ذلك أن جعلوا العقل أساساً للقرآن ولم يجعلوا القرآن أساساً للعقل. وقد بنوا تفسيرهم للقرآن بمقتضى ذلك على أسسهم من التنزيه المطلق وحرية الإرادة والعدل وفعل الأصلح إلى غير ذلك، وحكّموا العقل بالآيات التي ظاهرها التعارض وجعلوه الفيصل بين المتشابهات وأولوا الآيات التي لا تتفق والرأي الذي يذهبون إليه حتى صار التأويل طريقة لهم لا فرق بين المعتزلة وأهل السنة والجبرية، لأن الأساس ليس الآية وإنما الأساس عندهم العقل، والآية يجب أن تؤول لتطابق العقل، وهكذا أدى جعل العقل أساساً للقرآن إلى خطأ في البحث، وخطأ فيما يبحث، ولو جعلوا القرآن أساساً للبحث والعقل مبنياً على القرآن لَما وقعوا فيما وقعوا فيه.

نعم إن الإيمان بكون القرآن كلام الله مبني على العقل فقط، ولكن القرآن نفسه بعد أن يتم الإيمان به يصبح هو الأساس للإيمان بما جاء به

وليس العقل، ولهذا يجب إذا وردت آيات في القرآن أن لا يحكم العقل في صحة معناها أو عدم صحته وإنما تحكم الآيات نفسها، والعقل وظيفته في هذه الحالة الفهم فقط، ولكن المتكلمين لم يفعلوا ذلك، بل جعلوا العقل أساساً للقرآن، ومن أجل هذا حصل لديهم التأويل في آيات القرآن.[٩٦]

وهنا لا بد من توضيح بسيط، فالحق سبحانه أمر أن ينظر الانسان في الكون والحياة ليصل إلى إثبات قضايا الايمان: [أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ] (٢٠)الغاشية، فالعقل ينظر في الكون وما فيه من آيات ليثبت وجود الله لا ليبحث في ذاته وصفاته، وفرق شاسع بين هذه وتلك، فوجود الله قضية عقلية يصل العقل إليها بالنظر والتفكر والتدبر، بينما الذات والصفات غيبيات لا يدرك العقل منها إلا ما نزل به الوحي في حدود ما نزل به الوحي، فهما بحثان لهما طبيعتان مختلفتان.

---

٩٦) الشخصية الاسلامية الجزء الأول ص ٤٩، وحيثما ورد مصطلح أهل السنة في مبحث أهل الكلام في كتاب الشخصية فالمعني به هم السادة الأشاعرة لأنهم تسموا بهذا الاسم وقتها.

باب: خامساً: العلاقة بين الاتباع والإيمان

من المهم جدا أن نتبين علاقة الاتباع بالايمان ومفهومه القرآني، لذا ننقل بعض الآيات التي تجلي لنا هذا المفهوم بحول الله: [قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٣٩)] البقرة، الاتباع هنا ضده الكفر والتكذيب بالآيات، أي أنه التصديق بالايات والدخول في الايمان، بعد مجيء الهدى ومعرفته.

[وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ](٣٦) إبراهيم

قابل الله تعالى بين معصية الرسول إذ يدعو للهدى وبين الاتباع، فالدخول في الدعوة والاستجابة لها يكون من مقتضيات الاتباع.

[وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً] (١٢٥)النساء؛ [يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ

السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ](١٦) المائدة.

[إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى] (١٦)طه؛ [ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى] (١٢٧) طه [فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] (٥٠) القصص [ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن

نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ] (٣٠) الروم، [فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] (٩٥) آل عمران؛ [قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧)وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ] (٣٩) يوسف.

حتى يترك المرء ملة قوم كانت سائدة في زمنه، كنصراني مثلا يعيش بين النصارى، فحتى يترك الملة ويتبع ملة أخرى فلا بد أنه قد تفكر في الآيات التي تبين صدق إحدى الدعوتين وتنقض الأخرى، فهنا يحصل الترك والاتباع، والدقيقة هنا أن المرء قد يدرك الحق ويتبين له الحق ولكن لا يتبع، أي لا يذعن ويستسلم لقناعاته بل يتبع أهواءه، فالاتباع لا بد أن يصحبه التسليم؛ لكن لاحظنا دوما أن مفهوم الاتباع في القرآن الكريم يقترن بمتبوع وتابع، أي يجلي ما نسميه القيادة الفكرية، فإما أن يكون هدى الرحمن هو القيادة الفكرية التي تقود المرء في الدنيا نحو الرشد وإما أن

تكون الأهواء، ولعل أدق ما نصف به مفهوم الاتباع في القرآن الكريم هو أن يجعل المرء الايمان أي العقيدة الاسلامية قيادته الفكرية التي تسير سلوكه في معترك الحياة.

[وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ] (١٢٠) البقرة

[وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ] (٢١) الطور، [فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ] (١١١) الشعراء، [قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] (١٠٨) يوسف.

قال في اللسان: تَبِعَ الشيءَ تَبَعاً وتَباعاً في الأفعال وتَبِعْتُ الشيءَ تُبوعاً سِرْت في إِثْرِه؛ واتَّبَعَه وأَتْبَعَه وتتَبَّعه قَفاه وتَطلَّبه مُتَّبعاً له، وتَبِعْت القوم تَبَعاً وتَباعةً بالفتح، إذا مشيت خلفهم أو مَرُّوا بك فمضَيْتَ معهم... وأَتْبَعه الشيءَ: جعله له تابعاً وقيل: أَتبَعَ الرجلَ سبقه فلَحِقَه. وتَبِعَه تَبَعاً واتَّبَعه مرَّ به فمضَى معه.

واتَّبَعَ القرآنَ: ائْتَمَّ به وعَمِلَ بما فيه. وفي حديث أبي موسى الأشعري، "إنَّ هذا القرآن كائنٌ لكم أجراً وكائن عليكم وزْراً فاتَّبِعوا القرآن ولا يَتَّبِعنَّكُم القرآنُ، فإنه من يَتَّبِعِ القرآن يَهْبِطْ به على رياضِ الجنة، ومَن يَتَّبِعْه القرآنُ يَزُخّ في قَفاه حتى يَقْذِفَ به في نار جهنم"؛ يقول: اجعلوه أمامكم ثم اتلوه كما قال تعالى: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ] أي يَتَّبِعونه حقَّ اتِّباعه، وأراد لا تَدَعُوا تِلاوته والعملَ به فتكونوا قد جعلتموه وراءَكم كما فَعَل اليهود حين نَبَذُوا ما أُمروا به وراء ظهورهم، لأنه إذا اتَّبَعَه كان بين يديه، وإذا خالفه كان خَلْفَه، وقيل: معنى قوله لا يتبعنكم القرآن أي لا يَطْلُبَنَّكُم القرآنُ بتضييعكم إياه كما يطلُب الرجلُ صاحبَه بالتَّبِعة؛ قال أبو عبيد: وهذا معنى حسن يُصَدِّقه الحديث الآخر: "إن القرآن شافِعٌ مُشَفَّعٌ وماحِلٌ مُصَدَّقٌ" فجعله يَمْحَل صاحبَه إذا لم يَتَّبِعْ ما فيه. إ.هـ.

أولا: نفرق بين الاتباع والتقليد: قال تعالى: [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ] (٢١) الطور، فلو كان الاتباع هو عين التقليد لما لزم أن يضبط اتباعهم بوصف: بإيمان، كما أن آيات أخرى كثيرة نعت على التقليد في الاعتقاد وسيأتي بيانها ان شاء اللّه.

كما أن الحق سبحانه قد بين نوع الاتباع المحمود وهو ما كان على بصيرة، وأنّى للمقلد أن يمتلك البصيرة التي تقوده في الدنيا، [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي] (١٠٨) يوسف.

[بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩)] عاب الحق سبحانه عليهم الاتباع بغير علم فمن باب أولى أن لا يرضاه للمؤمنين.

قال ابن عبد البر: قال أبو عمر رضي اللّه عنه: حد العلم عند العلماء والمتكلمين في هذا المعنى هو ما استيقنته وتبينته وكل من استيقن شيئا وتبينه فقد علمه، وعلى هذا من لم يستيقن الشيء وقال به تقليدا فلم يعلمه، والتقليد عند العلماء غير الاتباع؛ لأن الاتباع هو تتبع القائل على ما بان لك من فضل قوله وصحة مذهبه، والتقليد أن تقول بقوله وأنت لا تعرف وجه القول ولا معناه وتأبى من سواه، أو أن يتبين لك خطؤه فتتبعه مهابة خلافه وأنت قد بان لك فساد قوله وهذا محرم القول به في دين اللّه سبحانه وتعالى،[٩٧]

ثانيا: نفرق بين الاتباع والتسليم: [وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للّه وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً] (١٢٥)النساء، لعلنا نلمس هنا أن الاتباع مع التسليم مع الاحسان ينتج الدين المقبول الكامل عند اللّه، ولربما كان لا بد من إقرار أن التسليم وحده لا يفضي إلى الوصول للدين المرتضى عند رب العالمين إذ لا بد من الاتباع

٩٧) جامع بيان العلم وأهله لابن عبد البر، باب العبارة عن حدود العلم.

وهو كما فهمنا سابقا التفكر للوصول إلى حقائق الايمان ومن ثم اعتناقها وجعلها القيادة الفكرية إذ أنه لا شك يوجد من عرف الحق ولم يتبعه أي لم يجعله قيادته الفكرية البتة، وبالتالي لم يدخل في حياض المؤمنين وكذلك يوجد من سلم دون تفكر وبالتالي كان إيمانه مبنيا على التقليد، والله تعالى يريد الايمان المبني على التسليم والاتباع معا، والتسليم قد يكون دون تفكير وقد يكون بعد تفكير وهو المحمود، والله أعلم.

الاتباع: السير في الأثر مقتفيا الخطو، وبذا ففي مجال الاعتقاد يكون الاتباع أن تؤمن بما آمن به، وأن تصل إلى هذا الايمان بالكيفية التي أمر بالوصول إليها، وإلا كان تقليدا، أي أن تتفكر في الأدلة وتصل إلى القناعة التامة التي لا تبقي مكانا لشك أو ظن.

وهذا واضح جلي في آيات طه السابقة ١٢٢- ١٢٧؛... [فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى]... [وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي]... [قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا].... [وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ.] الآيات، وكذا في البقرة ٣٨ – ٣٩ [فَمَن تَبِعَ هُدَايَ]... [وَالَّذِينَ كَفَروا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا]. الآيات

والاتباع في الأحكام الشرعية: أن تقتفي الأثر في تتبع الحكم على وجهه، والتزامه بالصورة التي تخلو من الابتداع وليس هذا موضوعنا هنا. [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً،... قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً.]

الاتباع إذن أن تقيم وجهك للدين حنيفا كما أقام إبراهيم عليه السلام وجهه للدين حنيفا.

ثالثا: علاقة الاتباع بالايمان توضحه الآيات السابقة بشكل جلي:

[كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ] (٣٠) الروم [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ](٣٦) إبراهيم [وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً] (١٢٥)النساء [فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٩٤ قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ]٩٥ آل عمران.

فالآيات واضحة بينة جلية، من تفكر فيها وتدبر علم الحق، قال تعالى: [قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله] ومن عرف الحق فهو أمام خيارين: إما أن يتبع، فيقر ويسلم ويذعن ويؤمن، أو يشاقق، [وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا] ١١٥ النساء. وقد أفردت لهذه الآية فصلا كاملا فارجع إليه. وبالمقابل: [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي] (١٠٨) يوسف.

[إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ] (٣٢) محمد، [وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (١٠٩) البقرة، [إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥)] محمد. فمن تبين له الهدى ولم يتبع دخل في الشقاق وبالتالي كفر.

مهم أن نفهم ذلك، فالمشاققة، أن يكون المرء في شق غير الشق الذي فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو تبين له الحق، لكنه أصر على أن يتبع غير دين الحق، أصر على أن يكون في الشق الآخر، فالمؤمنون اتبعوا سبيل الرسول صلى الله عليه وسلم: [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ

وَمَنِ اتَّبَعَنِي] (١٠٨)يوسف. فهناك سبيل معينة واضحة من دخل فيها اتبع ودخل في الايمان ومن حاد عنها اتبع هواه وضل وخرج من الايمان: [بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا] هذه السبيل قوامها أن من وصل إلى الحق، لزمه أن يتبعه، أي أن ينقاد له، أي أن ينقاد للايمان وللعقيدة، وليس بالضرورة معناها هنا أن يقوم بالأعمال، بل المطلوب ابتداء -كما هو واضح من موضوع الآيات إذ أن موضوعها يتعلق بتبين الحق وتبين الهدى أي الايمان- هو الخضوع للحق واتباعه، بمعنى أنك حين تتوصل إلى أن العقيدة الاسلامية هي الحق، عليك كنصراني أن تنبذ النصرانية، وتسلم للاسلام قيادك، فهذا هو معنى الاتباع هنا، أي أن لا يتولى على أعقابه، كي لا يشاقق بعد أن تبين له أن العقيدة الاسلامية هي الحق:

[وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ (١٣٨)] البقرة.

نربط بين الآيات السابقة ليتضح مفهوم الاتباع وعلاقته بالايمان:

تبيُّنُ الهدى يعني المعرفة اليقينية بالمطالب الخبرية التي بها يصبح المرء مؤمنا، فيشترط لانتقال المرء الذي تبين له الهدى لرحاب الإيمان لا بد له من الاتباع، تمييزا له عن الذي تبين الهدى ولم يدخل رحاب الإيمان، فالاتباع شرط، وليس ركنا من أجزاء الإيمان، فهو أمر خارج عنه مطلوب لتحقيقه، لذا لا يدخل الاتباع في تعريف الإيمان، هذا إن نظرنا للإذعان على أنه خارج عن التصديق.

قال الرازي في تفسيره: أما الشقاق والمشاققة فقد ذكرنا في سورة البقرة أنه عبارة عن كون كل واحد منهما في شق آخر من الأمر، أو عن كون كل واحد منهما فاعلاً فعلاً يقتضي لحوق مشقة بصاحبه، وقوله [مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَى] أي من بعد ما ظهر له بالدليل صحة دين الإسلام... المسألة الخامسة: الآية دالة على أنه لا يمكن تصحيح الدين إلا بالدليل والنظر والاستدلال، وذلك لأنه تعالى شرط حصول الوعيد بتبين الهدى، ولو لم يكن تبين الهدى معتبراً في صحة الدين وإلا لم يكن لهذا الشرط معنى.. المسألة السادسة: الآية دالة على أن الهدى اسم للدليل لا للعلم، إذ

لو كان الهدى اسماً للعلم لكان تبين الهدى إضافة الشيء إلى نفسه وأنه فاسد.[٩٨]

لننظر إلى الصورة الكبيرة للإيمان: فهو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، بكافة ما جاء به الرسول إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم.

فإن لم يتقبل ذلك، أو لم يتقبل بعضه، عن رضى وتسليم، لا يتحقق فيه وصف: التصديق، لاحظ أننا نتكلم عن الإيمان بكل ما جاء به الرسول، عليه سلام الله، فمثلا: عندما جاء موسى عليه سلام الله قومَ فرعون بالآيات المبصرات، استيقنوها، أي استيقنوا هذه الأدلة، فكان لديهم التصديق الجازم بصدقه فيها، لكنهم لم يصدقوا باليوم الآخر، ومثلا، علماء بني إسرائيل عرفوا محمدا عليه السلام بكل علاماته، لكنهم فرقوا بين أنبياء الله، فآمنوا ببعضهم وكفروا ببعضهم، فتصديقهم لم يكن بكل ما جاء به الرسول، وهذه عادتهم فلا تستغربنها، فهم رأوا من موسى عليه السلام الآيات العظيمة ولكنهم عبدوا العجل عند أول سانحة، فهذا يدل على أن التصديق إن توفر ببعض حقائق الإعتقاد، فإنه قد لا يتوفر في البعض الآخر،

٩٨) مفاتيح الغيب للرازي تفسير الآية ١١٥ من سورة النساء.

فلا يكون لدى صاحبه: التصديق الذي هو حد من حدود تعريف الإيمان، فإن ثبت لك هذا فاسمع ما يلي:

قال الألوسي: (والإيمان في اللغة التصديق أي إذعان حكم المخبر وقبوله وجعله صادقاً، وهو إفعال من الأمن كأنّ حقيقة آمن به آمَنَهُ التكذيب والمخالفة، ويتعدى باللام كما في قوله تعالى [قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ] ١١١ الشعراء وبالباء كما في قوله صلى اللّه عليه وسلم: "الإيمان أن تؤمن باللّه" الحديث، قالوا: والأول باعتبار تضمينه معنى الإذعان والثاني باعتبار تضمينه معنى الاعتراف إشارة إلى أن التصديق لا يعتبر ما لم يقترن به الاعتراف، وقد يُطلق بمعنى الوثوق من حيث أن الواثق صار ذا أمن، وهو [الإيمان] فيه حقيقة عرفية أيضاً كما في الأساس، وأما في الشرع فهو التصديق بما علم مجيء النبي صلى اللّه عليه وسلم به ضرورة وتفصيلا فيما علم تفصيلا، وإجمالا فيما علم إجمالا.) [٩٩]

إذن: فالإذعان الذي به يتحقق الاتباع، جزء من تعريف التصديق الذي به يدخل المرء بالإيمان، الإذعان بكل ما جاء به الرسول، والتصديق بكل ما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم.

---

٩٩) تفسير روح المعاني. الألوسي ١/ ١١٠

وقال ملا علي قاري في مرقاة المفاتيح: ثم التصديق إذعان النفس وقبولها بما يجب قبوله وهو تقليدي وتحقيقي، والتحقيقي إما استدلالي أو ذوقي، والذوقي إما كشفي واقف على حد العلم أو الغيب، أو غيبي غير واقف عليه، والغيبي إما مشاهدة أو شهود، والأول هو الإعتقاد الجازم المطابق الممتنع الزوال، والثاني الإعتقاد الجازم الثابت بالبرهان، والثالث الممتنع الزوال الثابت بالوجدان، والثلاثة مراتب الإيمان بالغيب، والأخيران علم اليقين، والرابع هو المشاهدة الروحانية مع بقاء الأثنينية ويسمى عين اليقين، والخامس هو الشهود الحقاني عند تجلي الوحدة الذاتية وزوال الأثنينية ويسمى حق اليقين، [١٠٠]

إذن فالاتباع، إذعان واعتراف بالحق مُتَضمَّنٌ في مفهوم: التصديق الذي هو من تعريف الإيمان. قال ابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج في شرح المنهاج:

وَالإسْلامُ وَالإِيمَانُ طَالَ فِيمَا بَيْنَهُمَا مِنْ النَّسَبِ الْكَلام وَالْحَقُّ أَنَّهُمَا مُتَّحِدَانِ مَاصَدَقًا إذْ لا يُوجَدُ شَرْعًا مُؤْمِنٌ غَيْرُ مُسْلِمٍ وَلا عَكْسُهُ وَمَنْ آمَنَ بِقَلْبِهِ وَتَرَكَ التَّلَفُّظَ بِلِسَانِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ نَقَلَ الْمُصَنِّفُ الإِجْمَاعَ عَلَى تَخْلِيدِهِ فِي النَّار لَكِنْ اُعْتُرِضَ بِأَنَّ كَثِيرِينَ بَلْ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى خِلافِهِ مُخْتَلِفَانِ مَفْهُومًا

---

١٠٠) ملا علي قاري في مرقاة المفاتيح كتاب الإيمان

إذْ مَفْهُومُ الإِسْلامِ الاسْتِسْلامُ وَالانْقِيَادُ وَمَفْهُومُ الإِيمَانِ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ بِكُلِّ مَا عُلِمَ مَجِيئُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ بِالضَّرُورَةِ إجْمَالا فِي الإِجْمَالِيِّ وَتَفْصِيلا فِي التَّفْصِيلِيِّ هَذَا.[١٠١] انتهى،

وحتى لا يحصل الخلط لدينا في المفاهيم، ففرق بين الاسلام الذي هو علم على هذا الدين، وبين الاسلام الذي هو الأعمال، كما وصفه الحبيب صلى اللّه عليه وسلم في حديث جبريل حين سأله ما الاسلام؟، فكلام العلامة ابن حجر الهيتمي أعلاه فيه شيء من اللبس، والذي أراه والعلم عند اللّه تعالى أن التسليم أو الانقياد هنا هو مما يدخل في التصديق، أي في الايمان، فالايمان ابتداء معاقدة على التصديق بكل ما جاء به الحبيب عليه سلام اللّه عن ربه، وهذا هو معنى الاستسلام، أي أمر يثبت أنه من اللّه تعالى أنا أستسلم له وأنقاد له، وكذلك الانقياد أيضا أن أنقاد للمنظومة الفكرية التي مثلت الهدى حين تبينته، فلا أحيد عنها فأشاقق، فهذا مما يدخل في الايمان،

على أن الغزالي رحمه اللّه قال: وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح، فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود فموجب

---

١٠١) ابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج في شرح المنهاج خطبة الكتاب.

اللغة أن الإسلام أعم والإسلام أخص فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام فإذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقاً.)[١٠٢]

فالانقياد إن تعلق بالأعمال، أي ما عاقدت الرسول عليه سلام الله على قبوله مما يتعلق بالأعمال: لم يكن من الإيمان ولا يترتب على تركه كفر، وإن تعلق بالإيمان، أي تعلق بأعمال القلب، أي بالتصديق، أي بالانقياد للعقيدة نفسها، فإنه يترتب عليه كفر، فمن علم أنه الحق ولم ينقد، كان كافرا.

والله تعالى أعلى وأعلم.

١٠٢) إحياء علوم الدين. الغزالي. ١/١٤٥-١٤٧.

باب: سادسًا: التصديق والتكذيب، والمعرفة والإنكار، والإذعان والجحود

أولا: مقدمة مهمة لمسألة التصديق والمعرفة:

قبل الشروع بتفصيل هذه القضايا المهمة سأعيد النص السابق لأهميته القصوى هنا:

لننظر إلى الصورة الكبيرة للإيمان: فهو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، بكافة ما جاء به الرسول إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم.

فإن لم يتقبل ذلك، أو لم يتقبل بعضه، عن رضى وتسليم، لا يتحقق فيه وصف: التصديق، لاحظ أننا نتكلم عن الإيمان بكل ما جاء به الرسول، عليه سلام الله، فمثلا: عندما جاء موسى عليه سلام الله قومَ فرعون بالآيات المبصرات، استيقنوها، أي استيقنوا هذه الأدلة، فكان لديهم التصديق الجازم بصدقه فيها، لكنهم لم يصدقوا باليوم الآخر، ومثلا، علماء بني إسرائيل عرفوا محمدا عليه السلام بكل علاماته، لكنهم فرقوا بين أنبياء الله، فآمنوا ببعضهم وكفروا ببعضهم، فتصديقهم لم يكن بكل ما جاء به الرسول، وهذه عادتهم فلا تستغربنها، فهم رأوا من موسى عليه السلام

الآيات العظيمة ولكنهم عبدوا العجل عند أول سانحة، فهذا يدل على أن التصديق إن توفر ببعض حقائق الاعتقاد، فإنه قد لا يتوفر في البعض الآخر، فلا يكون لدى صاحبه: التصديق الذي هو حد من حدود تعريف الإيمان، وهذا لا ينفي وجود التصديق لديه بالحقائق التي استيقنها، كالآيات المبصرات عند قوم فرعون.

كذلك، عندما بحث أهل العلم في المعرفة، وعلاقتها بالإيمان، انطلقوا من زوايا متعددة، فمنهم من انطلق من زاوية: هل يحتاج المؤمن تعلم أدلة المتكلمين، وموجبات العقول، حتى يعرف، ويدخل في حياض المؤمنين، أم يكتفي بالأدلة الجملية؟ تلك التي تقضي على الشك لديه، وتكفيه ليجعل إيمانه راسخا؟ فالمعرفة إذن: هل هي متعلقة بكل فيه موجبات عقول، وأدلة وشبهات، ورد عليها، أم هي متعلقة بمعرفة عامة، تتعلق بأصل الإيمان، وبقضاياه الرئيسة وخطوطه العريضة، توصل المرء إلى الجزم، وتكفيه؟ فعلى هذا، تكون المعرفة: علما مجملا يثبت صحة هذا الدين، لا معرفة تفصيلية.

والزاوية الثانية هي هل المعرفة هي العلم؟ فقد أطلقها تعالى وصفا لما عند علماء بني إسرائيل في حق الرسول صلى الله عليه وسلم: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ] ٢٠ الأنعام فهذه المعرفة علم عن دليل خبري أو سمعي حيث

كانت كتبهم تحوي بشائر عن نبوة محمد عليه السلام، [وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ] ١١٤ الأنعام فعبر عن نفس الشيء مرة بالعلم ومرة بالمعرفة، فما لدى العالم معرفة، فهي التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، فكل قضية عرفتها فقد علمتها، على تفاوت في الاستعمال اللغوي كما سيأتي إن شاء اللّه.

إذا تبين لك هذا، فمرادي من ذكره هنا هو أنني سأثبت بعد قليل إن شاء اللّه، أن لدى الكفار تصديق جازم مطابق للواقع عن دليل بقضايا معينة، كقوم فرعون، إذ جاءتهم الآيات المبصرة، وكعلماء بني إسرائيل، عرفوا قضايا معينة من المطالب الخبرية التي لديهم خبرها في كتبهم، إلا أنه ليس لديهم التصديق الجازم بكل ما جاء به الرسول عليه سلام اللّه، وليست لديهم المعرفة بقضايا بعَّضوا فيها الإيمان، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كتبعيضهم في الإيمان بالرسل، فنفي التصديق بكل ما جاء به الرسول عليه السلام لا يعني نفي التصديق بما أخبر الحق سبحانه أنهم عرفوه أو استيقنوه، فحتى لا يظنن أحد أنني وقعت في التناقض استفتحت هذا الباب بهذا الشرح فافهمه.

ثانيا: التصديق والتكذيب

[قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَـكِنَّ الظَّـلِمِينَ بِـئايَـتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَـهُمْ نَصْرُنَا...] (الأنعام ٣٣-٣٤)

قال النسفي في تفسيره لهذه الآية:"والمعنى أن تكذيبك أمر راجع إلى اللّه لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون اللّه، لأن تكذيب الرسول تكذيب المرسل. [وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ] [الأنعام:٣٤] تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم وهو دليل على أن قوله [فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ] [الأنعام:٣٣] ليس بنفي لتكذيبه وإنما هو من قولك لغلامك إذا أهانه بعض الناس «إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني {فَصَبَرُواْ} والصبر حبس النفس على المكروه [عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ] [الأنعام:٣٤] على تكذيبهم وإيذائهم" إ.هـ..

وفي قوله تعالى: [فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ] آل عمران ١٨٤

دليل على أن الرسول قد كُذِّب وكذلك رسل من قبله حتى بعد أن جاءتهم البينات أي بعد أن تيقنوا.

وفي قوله تعالى أيضاً: [فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ] القلم٤٤ [وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً] المزمل١١ [فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ] القلم ٨

دليل على أن الرسول قد كُذِّب، فهو خطاب موجه للرسول.

إستنتجت من آية [وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ] النمل ١٤ أن فرعون وقومه حصل عندهم التصديق المقابل للتكذيب وذلك من كلمة [استيقنتها] كون اليقين عندي هو نفسه التصديق الجازم.

ولندقق لنرى أن القرآن يقول مفرقا بين التصديق المعتبر في الإيمان والتصديق المعتبر في اليقين: [ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ* إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ* فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ* فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ] المؤمنون ٤٥-٤٨ [كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ] الأنفال٥٤ [وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى] طه ٥٦ [فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى* فَكَذَّبَ وَعَصَى] النازعات ٢٠-٢١ والتكذيب عكس التصديق، فهم لم يصدقوا مع أنهم استيقنوا، فدل على أن التصديق مغاير للإيمان مع أنه

موجود في اليقين لأنهم لم يصدقوا بكل ما أمروا به انتفى عنهم التصديق المعتبر في الإيمان ووصفوا بالمكذبين، مع أنهم وصفوا أيضا بالموقنين.

ورب قائل يقول: فهم قد كذبوا بآيات الله، وقد وصفهم الحق في سورة النمل بأنهم استيقنتها أنفسهم، فكيف نوفق بين هذا وذاك؟

قال كثير من المفسرين: [كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ] تكرير للتأكيد، أو لأن في الأولى الأخذ بالذنوب بلا بيان ذلك، وهنا بين أن ذلك هو الإهلاك والاستئصال [وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ] وفي قوله [بِآيَاتِ رَبِّهِمْ] زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق.[١٠٣] فالآية السابقة: [ذلك بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ]، ثم إن الحق سبحانه قال في سورة النمل: [فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٣ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ] ١٤ النمل، فالتصديق الجازم هو اليقين، فإن صاحبه جحود وإعراض عن الحق سمي تكذيبا، فالشخص العارف بصدق الرسول عليه سلام الله، مصدق لما عرف، سواء نسبه لنفسه أم لم ينسبه، لا يجتمع في القلب تجاه خبر واحد تصديق وتكذيب في اللحظة المعينة، إلا أنه إذا

---

١٠٣) تفسير النسفي للآية ٥٤ من سورة الأنفال.

اجتمع مع التصديق هذا الجحود ولم يصاحبه الخضوع للحق، كانت حال الشخص في المحصلة أنه مكذب، ولو كان مستيقنا.

فها أنت ترى أن الحق سبحانه وصفهم بأن أنفسهم استيقنت، ومع ذلك وصفهم بأنهم مكذبين ووصفهم بأنهم كفار، فالمستيقن، والعالم، في حال استيقانه وعلمه ومعرفته مصدق، لكنه إذ لم يتبع، وإذ شاقق، فإنه يوصف بالتكذيب والكفر، كمحصلة نهائية لحاله، أي أنه صدق خبرًا وكذب أخبارا فالمحصلة أنه مكذب، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية: فإن أفعال القلوب من التقلب بما لا مكان لإنكاره، وذلك بعد قسوتها وانشغالها بالحياة بما يجمع عليها طبقات من "الرين" [كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ] ١٤ المطففين فينقلب التصديق واليقين تكذيباً، فنتصور أن الشخص إذ يرى الآية مبصرة أمامه تملأ نفسه يقينا بأنها صادقة، حتى إذا انقلب إلى الدنيا، أو واجه سلطان الدنيا، ومصالحه فيها، وجاهه، وملكه، راجع نفسه فلم يثبت عنده هذا التصديق فانقلب تكذيبا، وهذا ما نشاهده في الواقع المعاش، فكم من مسلم تقنعه بالعمل لاستئناف الحياة الإسلامية ولإقامة دولة الخلافة الراشدة الثانية على منهاج النبوة، فتراه بكل مشاعره معك، ثم تخبو جذوة هذا الحماس إن لم يكن عن فهم وعلم وخوف من الله، لينقلب أحيانا إلى النقيض ليبرر لنفسه أو لغيره انتكاسته عن نصرة الحق.

ويدل كذلك على ذلك قول الحق سبحانه عن فرعون [فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَى] ٢١ النازعات، وسبق بيان وصف فرعون بأنه يعلم أن الآيات من الله، [وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ، قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا] ١٠١-١٠٢ الإسراء.

ألم تر كيف وصف الله أقواما فقال فيهم: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً] ١٣٧ النساء. فهم يتقلبون بين الإيمان والكفر، تقلب هؤلاء من التصديق إلى التكذيب.

كما وأن التكذيب وصف للحال العامة تجاه دعوة هذا الرسول، فهو إذ يستيقن هذه الآيات، فهي ليست مقصودة لذاتها، بل هي أدلة على النبوة، فإذا استيقنها ولم يتبع، كان مكذبا بالنبوة، وهو مستيقن صدق الآيات، فيقال كذب بالنبوة ويستعار لذلك وصف التكذيب بالآيات، لبيان مقدار تغلغل الجحود في نفسه بعد أن امتلأت يقينا.

على أني أود أن أذكر آيتين عامتين في هذا الشأن: [وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ] الإنشقاق ٢١-٢٢ ولم

يقل"يصدقون"، [بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ] البروج١٩ ولم يقل "في تصديق" وهذا صحيح، فالكفر صنو التكذيب. فهم يكذبون ببعض حقائق الإيمان أو بها كلها، وهذا يجعلهم في تكذيب ويجعلهم من المكذبين الكفار، لكن هذا لا ينفي أنهم يصدقون ببعض قضايا الإيمان، وهذا بديهي، فليس أدل عليه من مواقف أكثر من أن تحصى من كفار قريش، فهذا الوليد بن المغيرة: فكر وقدر، نظر وعبس وبسر، وأدبر عن الحق لما عرفه واستكبر، فكان مقتله في أنه فكر وقدر في نفسه كلاما غير الحق، لم يذعن ولم يتبع، لم ينْقَدْ للحق، فلا شك أنه صدق أن القرآن له حلاوة وأن عليه طلاوة وأن أعلاه مثمر وأن أسفله مغدق وأنه يعلو ولا يعلى عليه وأنه ليس بكلام الشعر ولا بزمزمات الكهان، ولا تمتمات السحرة، فهل نقول أنه لم يصدق بشيء من هذا؟ لا شك أنه صدق، لكن التصديق المعتبر في الإيمان ليس لديه، لأنه لا بد حتى يحصل عليه أن يصدق بكل ما جاء به الرسول وأن يكون ذلك عن رضى وتسليم، فالمحصلة: أنه كافر مكذب، فهو إذن موقن بما صدقه من قضايا، مكذب بما دونها، فليس لديه التصديق المعتبر في الإيمان، وهذا لا يمنع من وصفه بالمصدق بما استيقنه لأن العقول تأبى أن تتخيل أو تقبل أن يستيقن شخص بأمر ولا يكون مصدقا له.

ثالثا: التصديق ما هو؟ التصور والتصديق:

وقال ابن أمير الحجاج في التقرير والتحبير: (ثُمَّ يَنْحَصِرُ) الْخَبَرُ (فِي صِدْقٍ إنْ طَابَقَ) حُكْمُهُ (الْوَاقِعَ) أَيْ الْخَارِجَ الْكَائِنَ لِنِسْبَةِ الْكَلَامِ الْخَبَرِيِّ بِأَنْ كَانَتْ نِسْبَتُهُ الذِّهْنِيَّةُ مُوَافِقَةً لِنِسْبَتِهِ الْخَارِجِيَّةِ فِي الْكَيْفِ بِأَنْ كَانَتَا ثُبُوتِيَّتَيْنِ أَوْ سَلْبِيَّتَيْنِ (وَكَذِبٍ إنْ لَا) تُطَابِقَ نِسْبَتُهُ الذِّهْنِيَّةُ النِّسْبَةَ الْخَارِجِيَّةَ فِي الْكَيْفِ بِأَنْ كَانَتْ إحْدَاهُمَا ثُبُوتِيَّةً وَالْأُخْرَى سَلْبِيَّةً سَوَاءٌ اعْتَقَدَ الْمُطَابَقَةَ أَوْ عَدَمَهَا فَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا. إ.هـ.

وقال بعد ذلك: وَقَالَ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ الصِّدْقُ الْمُطَابَقَةُ الْخَارِجِيَّةُ مَعَ اعْتِقَادِهَا فَإِنَّ فُقِدَ كُلٌّ مِنْهُمَا سَوَاءٌ صَدَقَ فَقْدُ اعْتِقَادِ الْمُطَابَقَةِ بِاعْتِقَادِ عَدَمِهَا أَمْ بِعَدَمِ اعْتِقَادِ شَيْءٍ فَكَذِبٌ وَإِنَّ فُقِدَ أَحَدُهُمَا يُوصَفُ بِالصِّدْقِ مِنْ حَيْثُ مُطَابَقَتُهُ لِلِاعْتِقَادِ أَوْ لِلْخَارِجِ وَبِالْكَذِبِ مِنْ حَيْثُ انْتِفَاءُ الْمُطَابَقَةِ لِلْخَارِجِ أَوْ اعْتِقَادُهَا فِيهِ وَفِي الْأَسْرَارِ الْإِلَهِيَّةِ وَقِيلَ إنْ طَابَقَ فَصِدْقٌ وَإِنْ لَمْ يُطَابِقْ فَإِنْ عَلِمَ الْمُتَكَلِّمُ بِعَدَمِ الْمُطَابَقَةِ فَكَذِبٌ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ فَخَطَأٌ.[١٠٤]

---

١٠٤) التقرير والتحبير المقالة الثانية في أحوال الموضوع > الباب الثالث السنة > فصل في حجية السنة.

إذن: فثمة كلام خبري، يتم التحقق من موافقة نسبته الذهنية: أي الحكم عليه، بثبوت التطابق في الكيف بين حكم العقل عليه وبين واقعه، فإن ثبتت النسبة في كليهما، كان صدقا، فالإدراك مع الحكم تصديق.

قال الزركشي في البحر المحيط: ضَابِطٌ: [الْإِدْرَاكُ] الْإِدْرَاكُ بِلَا حُكْمٍ تَصَوُّرٌ، وَمَعَ الْحُكْمِ تَصْدِيقٌ.[105]

جاء في حاشية العطار: (وَالْإِدْرَاكُ) أَيْ وُصُولُ النَّفْسِ إلَى الْمَعْنَى بِتَمَامِهِ مِنْ نِسْبَةٍ أَوْ غَيْرِهَا (بِلَا حُكْمٍ) مَعَهُ مِنْ إيقَاعِ النِّسْبَةِ أَوْ انْتِزَاعِهَا (تَصَوُّرٌ) وَيُسَمَّى عِلْمًا أَيْضًا كَمَا عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَمَّا وُصُولُ النَّفْسِ إلَى الْمَعْنَى لَا بِتَمَامِهِ فَيُسَمَّى شُعُورًا (وَبِحُكْمٍ) يَعْنِي وَالْإِدْرَاكُ لِلنِّسْبَةِ وَطَرَفَيْهَا مَعَ الْحُكْمِ الْمَسْبُوقِ بِالْإِدْرَاكِ لِذَلِكَ (تَصْدِيقٌ) كَإِدْرَاكِ الْإِنْسَانِ وَالْكَاتِبِ وَكَوْنِ الْكَاتِبِ ثَابِتًا لِلْإِنْسَانِ وَإِيقَاعِ أَنَّ الْكَاتِبَ ثَابِتٌ لِلْإِنْسَانِ أَوْ انْتِزَاعِ ذَلِكَ أَيْ نَفْيِهِ فِي التَّصْدِيقِ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ كَاتِبٌ أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ بِكَاتِبٍ الصَّادِقَيْنِ فِي الْجُمْلَةِ.[106]

---

١٠٥) البحر المحيط > المقدمات > مفهوم النظر > أقسام النظر > مسألة النظر الفاسد لا يستلزم الجهل

١٠٦) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع > الكلام في المقدمات في أصول الفقه > تعريف الدليل

قال الألوسي: (والإيمان في اللغة التصديق أي إذعان حكم المخبر وقبوله وجعله صادقاً، وهو إفعال من الأمن كأنّ حقيقة آمن به آمَنَهُ التكذيب والمخالفة، ويتعدى باللام كما في قوله تعالى [قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ] ١١١ الشعراء وبالباء كما في قوله صلى اللّه عليه وسلم: "الإيمان أن تؤمن باللّه" الحديث، قالوا: والأول باعتبار تضمينه معنى الإذعان والثاني باعتبار تضمينه معنى الاعتراف إشارة إلى أن التصديق لا يعتبر ما لم يقترن به الاعتراف، وقد يُطلق بمعنى الوثوق من حيث أن الواثق صار ذا أمن، وهو [الإيمان] فيه حقيقة عرفية أيضاً كما في الأساس، وأما في الشرع فهو التصديق بما علم مجيء النبي صلى اللّه عليه وسلم به ضرورة وتفصيلا فيما علم تفصيلا، وإجمالا فيما علم إجمالا.) [١٠٧]

إذن: فالإذعان الذي به يتحقق الاتباع، جزء من تعريف التصديق الذي به يدخل المرء بالإيمان، الإذعان بكل ما جاء به الرسول، والتصديق بكل ما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم.

---

١٠٧) تفسير روح المعاني. الألوسي ١/ ١١٠

رابعاً: التصديق والتصديق المنطقي:

الصدق غير التصديق، الصدق هو مطابقة القول للواقع، وقيل أن التصديق هو نسبة الصدق للمتكلم، وفيه نظر،

قال صاحب شرح التلويح: وَلَقَدْ طَالَ النِّزَاعُ بَيْنَ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَبَيْنَ بَعْضِ مُعَاصِرِيهِ فِي تَفْسِيرِ التَّصْدِيقِ الْمُعْتَبَرِ فِي الْإِيمَانِ وَأَنَّهُ تَصْدِيقُ الَّذِي قَسَّمَ الْعِلْمَ إلَيْهِ وَإِلَى التَّصَوُّرِ فِي أَوَائِلِ الْمَنْطِقِ أَوْ غَيْرُهُ، وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَعْنَاهُ هُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ بِالْفَارِسِيَّةِ كرويدن وَهُوَ الْمُرَادُ بِالتَّصْدِيقِ فِي الْمَنْطِقِ عَلَى مَا صَرَّحَ بِهِ ابْنُ سِينَا، وَحَاصِلُهُ إذْعَانٌ وَقَبُولٌ لِوُقُوعِ النِّسْبَةِ أَوْ لَا وُقُوعِهَا وَتَسْمِيَتُهُ تَسْلِيمًا زِيَادَةُ تَوْضِيحٍ لِلْمَقْصُودِ وَجَعْلُهُ مُغَايِرًا لِلتَّصْدِيقِ الْمَنْطِقِيِّ وَهْمٌ وَحُصُولُهُ لِلْكُفَّارِ مَمْنُوعٌ، وَلَوْ سُلِّمَ فِي الْبَعْضِ يَكُونُ كُفْرُهُ بِاعْتِبَارِ جُحُودِهِ بِاللِّسَانِ وَاسْتِكْبَارِهِ عَنْ الْإِذْعَانِ وَعَدَمِ رِضَاهُ بِالْإِيمَانِ، وَكَثِيرٌ مِنْ الْمُصَدِّقِينَ الْمُقِرِّينَ يَكْفُرُ بِمَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ أَمَارَاتِ الْإِنْكَارِ وَعَلَامَاتِ الِاسْتِكْبَارِ، فَإِنْ قِيلَ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ التَّصْدِيقُ مِنْ الْكَيْفِيَّاتِ دُونَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ فَكَيْفَ يَصِحُّ الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ.؟ قُلْنَا بِاعْتِبَارِ اشْتِمَالِهِ عَلَى الْإِقْرَارِ وَعَلَى صَرْفِ الْقُوَّةِ وَتَرْتِيبِ الْمُقَدِّمَاتِ وَرَفْعِ الْمَوَانِعِ وَاسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ تِلْكَ الْكَيْفِيَّاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ كَمَا يَصِحُّ الْأَمْرُ بِالْعِلْمِ وَالتَّيَقُّنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَذَكَرَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ التَّصْدِيقَ أَمْرٌ اخْتِيَارِيٌّ هُوَ نِسْبَةُ الصِّدْقِ إلَى الْمُخْبِرِ اخْتِيَارًا حَتَّى لَوْ وَقَعَ فِي الْقَلْبِ صِدْقُ الْمُخْبِرِ

ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْسُبَهُ إلَيْهِ اخْتِيَارًا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ تَصْدِيقًا، وَنَحْنُ إذَا قَطَعْنَا النَّظَرَ عَنْ فِعْلِ اللِّسَانِ لَا نَفْهَمُ مِنْ نِسْبَةِ الصِّدْقِ إلَى الْمُتَكَلِّمِ إلَّا قَوْلٌ حُكْمُهُ الْإِذْعَانُ لَهُ، وَبِالْجُمْلَةِ الْمَعْنَى الَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ فِي الْفَارِسِيَّةِ بكرويدن تَصْدِيقٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِلْقَلْبِ اخْتِيَارٌ فِي نَفْسِ ذَلِكَ الْمَعْنَى،[١٠٨]

وقال العطار: وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ: الْمُعْتَبَرُ فِي الْإِيمَانِ هُوَ التَّصْدِيقُ الِاخْتِيَارِيُّ وَمَعْنَاهُ نِسْبَةُ الصِّدْقِ إلَى الْمُتَكَلِّمِ اخْتِيَارًا، وَبِهَذَا الْقَيْدِ يَمْتَازُ عَنْ التَّصْدِيقِ الْمَنْطِقِيِّ الْمُقَابِلِ لِلتَّصَوُّرِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَخْلُو عَنْ الِاخْتِيَارِ كَمَا إذَا ادَّعَى النُّبُوَّةَ وَأَظْهَرَ الْمُعْجِزَةَ فَوَقَعَ فِي الْقَلْبِ صَدَّقَهُ ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْسُبَهُ إلَيْهِ اخْتِيَارًا، فَإِنَّهُ لَا يُقَالُ فِي اللُّغَةِ: إنَّهُ صَدَّقَهُ فَلَا يَكُونُ إيمَانًا شَرْعًا، كَيْفَ وَالتَّصْدِيقُ مَأْمُورٌ بِهِ فَيَكُونُ فِعْلًا اخْتِيَارِيًّا زَائِدًا عَلَى الْعِلْمِ لِكَوْنِهِ كَيْفِيَّةً نَفْسَانِيَّةً أَوْ انْفِعَالًا وَهُوَ حُصُولُ الْمَعْنَى فِي الْقَلْبِ، وَالْفِعْلُ الْقَلْبِيُّ لَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ هُوَ إيقَاعُ النِّسْبَةِ اخْتِيَارًا الَّذِي هُوَ كَلَامُ النَّفْسِ وَيُسَمَّى عَقْدَ الْقَلْبِ ا هـ. وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ الْإِيمَانُ مِنْ جِنْسِ الْعِلْمِ أَصْلًا لِكَوْنِهِ فِعْلًا اخْتِيَارِيًّا، وَالْعِلْمُ كَيْفٌ أَوْ انْفِعَالٌ فَهُوَ أَمْرٌ وَرَاءَ الْعِلْمِ وَعَلَيْهِ لَا سُؤَالَ وَلَا جَوَابَ لَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ مُزَيَّفٌ بِمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي حَوَاشِي شَرْحِ الْجَلَالِ الدَّوَانِيِّ عَلَى الْعَقَائِدِ

---

١٠٨) شرح التلويح على التوضيح > القسم الأول من الكتاب في الأدلة الشرعية وهي > الركن الأول في الكتاب أي القرآن > الباب الثاني في إفادة اللفظ الحكم الشرعي > فصل لا بد للمأمور به من الحسن > المأمور به في صفة الحسن نوعان > الحسن لمعنى في نفسه

الْعَضُدِيَّةِ. وبَقِي هَاهُنَا بَحْثٌ وَهُوَ أنْ يُقَالَ: إنَّهُ يَلْزَمُ عَلَى الْقَوْلِ بِاتِّحَادِ الْعِلْمِ أنْ تَكُونَ عُلُومُ آحَادِ الْأُمَمِ مُمَاثِلَةً لِعُلُومِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأنْ لَا يَتَرَجَّحَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَعْضٍ فِي الْعِرْفَانِ وَلَا شَكَّ أنَّ مَقَامَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أجْمَعِينَ فِي الْعِرْفَانِ وَهُوَ الْعِلْمُ بِاَللَّهِ فَوْقَ مَقَامِ الْأُمَمِ، وَلَا شَكَّ أيْضًا فِي تَفَاوُتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْعِرْفَانِ.[١٠٩]

(قَوْلُهُ: وَالإِيمَانُ تَصْدِيقُ الْقَلْبِ) قَالَ عَبْدُ الْحَكِيمِ فِي حَوَاشِي الْخَيَالِيِّ أنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي الإِيمَانِ هُوَ التَّصْدِيقُ اللُّغَوِيُّ وَأنَّ التَّصْدِيقَ الْمَنْطِقِيَّ بِعَيْنِهِ التَّصْدِيقُ اللُّغَوِيُّ وَيُؤَيِّدُهُ مَا أوْرَدَهُ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ فِي حَاشِيَةِ شَرْحِ التَّلْخِيصِ أنَّ الْمَنْطِقِيَّ إنَّمَا بَيَّنَ مَا هُوَ فِي الْعُرْفِ وَاللُّغَةِ وَقَالَ صَدْرُ الشَّرِيعَةِ إنَّ التَّصْدِيقَ اللُّغَوِيَّ أخَصُّ مِنْ الْمَنْطِقِيِّ فَإِنَّ الصُّورَةَ الْحَاصِلَةَ مِنْ النِّسْبَةِ التَّامَّةِ الْخَبَرِيَّةِ تَصْدِيقٌ قَطْعًا فَإِنْ كَانَ حَاصِلا بِالْقَصْدِ وَالاخْتِيَار بِحَيْثُ يَسْتَلْزِمُ الإِذْعَانَ وَالْقَبُول فَهُوَ تَصْدِيقٌ لُغَوِيٌّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَمَنْ وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى شَيْءٍ فَعَلِمَ أنَّهُ جِدَارٌ أوْ فَرَسٌ فَهُوَ مَعْرِفَةٌ يَقِينِيَّةٌ وَلَيْس بِتَصْدِيقٍ لُغَوِيٍّ ا هـ. مُلَخَّصًا. وَأُورِدُ أنَّ التَّصْدِيقَ الْمَنْطِقِيَّ يَعُمُّ الظَّنَّ فَمُقْتَضَاهُ كِفَايَةُ الظَّنِّ فِي الإِيمَانِ وَأُجِيبَ بِأنَّ السَّيِّدَ صَرَّحَ فِي شَرْحِ الْمَوَاقِفِ بِأنَّ الظَّنَّ الْغَالِبَ الَّذِي لا

---

١٠٩) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع > الكلام في المقدمات في أصول الفقه > تعريف العلم

يَخْطُرُ مَعَهُ احْتِمَالُ النَّقِيضِ حُكْمُهُ حُكْمُ الْيَقِينِ فِي كَوْنِهِ إيمَانًا حَقِيقِيًّا فَإِنَّ إيمَانَ أَكْثَرِ الْعَوَامّ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ا هـ. وَلَكِنَّ الْجُمْهُورَ عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ عِبَارَةٌ عَنْ التَّصْدِيقِ الْجَازِمِ الثَّابِتِ وَإِنْ قَالَ بَعْضُهُمْ عَدَمُ كِفَايَةِ الظَّنِّ الْقَوِيِّ الَّذِي لا يَخْطُرُ مَعَهُ احْتِمَالُ النَّقِيضِ مَحَلُّ كَلامٍ هَذَا وَالَّذِي يَنْشَرِحُ لَه الصَّدْرُ مَا اخْتَارَهُ صَدْرُ الشَّرِيعَةِ وَلِذَا قَالَ الشَّارِحُ أَيْ الإِذْعَانُ لِذَلِكَ وَالْقَبُولُ لَهُ فَإِنَّ هَذَا قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى التَّصْدِيقِ الْمَنْطِقِيِّ فَإِنَّهُ قَدْ يَحْصُلُ بِدُونِ الإِذْعَانِ وَالانْقِيَادِ قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْكُفَّار [يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ] وَقَالَ تَعَالَى [وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا] [١١٠]

قال الألوسي في تفسيره: (وحاصل ذلك منع حصول التصديق للمعاند فإنه ضد الإنكار، وإنما الحاصل له المعرفة التي هي ضد النكارة والجهالة، وقد اتفقوا على أن تلك المعرفة خارجة عن التصديق اللغوي وهو المعتبر في الإيمان، نعم اختلفوا في أنها هل هي داخلة في التصور أم في التصديق المنطقي، فالعلامة الثاني على الأول، وأنه يجوز أن تكون الصورة الحاصلة من النسبة التامة الخبرية تصوراً، وأن التصديق المنطقي بعينه التصديق اللغوي (وهو ما يخالف التكذيب والإنكار وهذا بعينه المعنى اللغوي) ولذا يكفي في باب الإيمان التصديق البالغ حد الجزم والإذعان مع أن التصديق

---

١١٠) شرح جلال المحلي الكتاب السابع في الاجتهاد

المنطقي يعم الظني بالاتفاق، فإنهم يقسمون العلم بالمعنى الأعم تقسيماً حاصراً إلى التصور والتصديق، توسلا به إلى بيان الحاجة إلى المنطق بجميع أجزائه التي منها القياس الجدلي المتألف من المشهورات والمسلمات ومنها القياس الخطابي المتألف من المقبولات والمظنونات، والشِّعريّ المتألف من المخيلات، فلو لم يكن التصديق المنطقي عاماً لم يثبت الاحتجاج إلى هذه الأجزاء وهو ظاهر وصدر الشريعة على الأخير، فإن الصورة الحاصلة من النسبة التامة الخبرية تصديق قطعاً فإن كان حاصلا بالقصد والاختيار بحيث يستلزم الإذعان والقبول فهو تصديق لغوي وإن لم يكن كذلك كمن وقع بصره على شيء فعلم أنه جدار مثلا فهو معرفة يقينية وليس بتصديق لغوي فالتصديق اللغوي عنده أخص من المنطقي)[111].

---

111) تفسير روح المعاني. الألوسي ١/١١٠-١١٢

خامسا: التصور والتصديق:

وقبل أن نستعرض بعض أقوال أهل العلم في هذه المسألة أحب أن أبين أنني أريد الوصول إلى الأمور الهامة التالية:

أولا: التصديق هو الركيزة الأولى في تعريف الإيمان وأحد مكوناته التي لا تنفصل عنه.

ثانياً: وجود التصديق لدى كل من يوقن، بما فيهم الكفار الذين يوقنون ويعلمون حقائق هذا الدين، بعضها أو كلها، فقد وصف الحق سبحانه بعض أهل الكتاب بأنهم يعلمون وفرعون وقومه بأنهم يستيقنون بعد أن عرض عليهم موسى عليه السلام ما عنده من الآيات المبصرة، وقد حاول بعض أهل العلم أن يبين أنهم لا يصدقون، وقد قمت بإثبات أن ما عندهم هو اليقين نفسه الذي عند المؤمنين، تجاه تلك القضايا، فهم والمؤمنون مستيقنون لتلك القضايا، وهذا اليقين يقوم على التصديق ابتداء.

ثالثاً: ملاحظة إمكان وصف الكافر بالعلم واليقين، وهو عين العلم واليقين الذي عند المؤمنين.

رابعًا: أن هذا العلم واليقين هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل.

خامساً: وأن له ما يكمله ويلزمه للانتقال إلى وصف الايمان، أو أن هناك ما يمنعه من الانتقال من اليقين إلى الايمان كفعل مكفر مثلا،، أو تبعيض الإيمان، أي أن الايمان يختلف عن العلم واليقين بأركان لا بد من توافرها فيه وجدت لدى المؤمنين وانتفت من عند علماء أهل الكتاب؛ وتفصيل ذلك في باب ما أراه في المسألة بعد عرض آراء أهل العلم بحول الله.

سادسا: سأحاول تبسيط مسألة التصور والتصديق، التصور: حصول صورة الشيء في العقل،

فلو قلت مثلا: القرآن معجزة تثبت صدق الرسول عليه السلام، فثمة أربع قضايا:

القرآن ذاته تلمسه بيديك، وتقرأه،

والمعجزة ما هي وكونها الدليل على صدق الرسول وكونها الخارق للعادة الذي يجريه الله تعالى على يد مدعي النبوة لإثبات صدق دعواه،

والقضية الثالثة: الارتباط بين المعجزة والقرآن وذلك قبل الحكم بتحقق هذه النسبة أو عدم تحققها، لأنه في هذا الطور ما زال الربط بناء على نسبة غير خبرية، فعندها تتحقق مثلا من وجود الاعجاز البلاغي بالمقارنة مثلا بالشعر وما إلى ذلك، فما زلت إذن في طور ما قبل تحقق النسبة الخبرية، والحكم عليها بالإثبات أو النفي، وأطلقنا عليها التصور لأن العملية العقلية

فيها في طور ربط المعلومات السابقة بالواقع قبل إصدار الحكم بالتصديق، كذلك ما زلنا في طور إدراك الماهية التي لم نحكم عليها بعد، فهو تصور، أي ما زلت في طور علم المعجزة بذاتها أهي معجزة أم لا، هل تتحقق فيها مواصفات المعجزة أم لا، فهو تصور، فهذه القضايا الثلاث تدخل في التصور، ولا تفضي إلى العلم، لأن العلم صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض ويلزمها التعلق بمعلوم،

رابعًا: فإن تم الربط وحكم بالاثبات على هذه النسبة خرجت من دائرة التصور لتدخل في دائرة التصديق المفضي إلى الجزم أي إلى العلم.

والفرق بين القضية الثالثة والرابعه: هو أن القضية الثالثة تعلم فيها ماهية كون القرآن معجزة والرابعة تعلم منها حصول المعجزة التي تثبت صدق الرسول عليه السلام، أي كون الله تعالى أجرى على يد محمد صلى الله عليه وسلم معجزة تثبت صدق نبوته، أي أن التصور علمها في نفسها والتصديق علم حصولها.

والتصورات لا تحتمل ولا توصف بعدم المطابقة بخلاف التصديقات فإنا إذا رأينا من بعيد شبحًا هو حجراً مثلا وحصل منه في أذهاننا صورة إنسان فتلك الصورة صورة إنسان وتجوزا نقول: علم تصوري له، لأن العلم لا يتعلق بالتصور بل بالتصديق، والخطأ إنما هو في حكم العقل بأن هذه الصورة

للشبح المرئي إنسان فالتصورات كلها مطابقة له موجودا كان أو معدوما أو ممتنعا وعدم المطابقة في أحكام العقل المقارن لتلك التصورات، فإذا ما طابق الواقع التصور انتقل إلى التصديق.

جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: التَّصَوُّرُ هُوَ حُصُولُ صُورَةِ الشَّيْءِ فِي الْعَقْلِ، وَإِدْرَاكُ الْمَاهِيَّةِ مِنْ غَيْر أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهَا بِنَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّوَهُّمِ وَالتَّصَوُّرِ: أَنَّ تَصَوُّرَ الشَّيْءِ يَكُونُ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ، وَتَوَهُّمَهُ لَا يَكُونُ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ؛ لِأَنَّ التَّوَهُّمَ مِنْ قَبِيلِ التَّجْوِيزِ، وَالتَّجْوِيزُ يُنَافِي الْعِلْمَ،. التَّوَهُّمُ فِي الِاصْطِلَاحِ عَرَّفَهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بِأَنَّهُ: تَجْوِيزُ وُجُودِ الشَّيْءِ فِي الذِّهْنِ تَجْوِيزًا مَرْجُوحًا وَيَتَنَاوَلُ الْمُدْرَكَ وَغَيْرَ الْمُدْرَكِ.[١١٢]

قال الجرجاني في التعريفات: التصور حصول صورة الشيء في العقل وقال: التصديق وهو أن تنسب باختيارك الصدق إلى المخبر [١١٣]

وقال الأسنوي في الإبهاج: العلم جنس يشمل التصور والتصديق القطعي وإنما قلنا ذلك لأن العلم صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض ويلزمها التعلق بمعلوم فإن كان المعلوم ذاتًا أو معنى مفردًا أو نسبة غير خبرية فهو التصور وإن كان نسبة خبرية فهو التصديق القطعي.

---

١١٢) الموسوعة الفقهية الكويتية مادة: توهم

١١٣) التعريفات. الجرجاني ص٦١

مثاله العالم حادث وههنا أربعة: ذات العالم ومعنى الحدوث في نفسه والارتباط بينهما من غير حكم بثبوته أو بانتفائه والعلم بهذه الثلاثة تصور والرابع هو ثبوت ذلك الارتباط أو انتفاؤه وهو النسبة الخبرية وهو التصديق وهكذا في كل قضية موضوعها ومحمولها مفردا [أي: ولو حكما بإجمالية النسبة.] والارتباط بينهما نسبة تقييدية وهو من قبيل المفرد ووقوع تلك النسبة و عدم وقوعها أمر رابع فتعلق العلم بتلك الثلاث تصور وتعلقه بالرابع تصديق والفرق بين الثالث والرابع دقيق فإنك تقول علمت حدوث العالم بمعنى تصورته وعلمت حدوث العالم بمعنى صدقت به فالنسبة واحدة ولكن التصور علمها في نفسها والتصديق علم حصولها فحقيقة المعلوم في التصديق كحقيقة المخبر به في الخبر بل هي حقيقة واحدة إن تعلق بها الكلام سمي خبرا وإن تعلق بها العلم سمي تصديقا، والتصور أخص من العلم مطلقا، والتصديق أخص منه من وجه لأن التصديق قد يكون بالخبر وليس بعلم لخروجه من حد العلم، وتفسير التصديق بما قلناه وهو العلم بالنفي والإثبات يصحح انقسام العلم الذي هو الإدراك إلى التصور والتصديق بخلاف ما إذا فسرناه بالحكم أو بالحكم مع التصور فلا يصح انقسام العلم إليه إلا إذا قيل إن العلم بالنفي او الإثبات حكم والمعروف أن الحكم إيقاع النسبة وكشف اللبس في ذلك أن الحكم هو نسبة أمر إلى أمر بالإثبات أو النفي وهو قسم من أقسام الكلام قد يكون بالنفس وقد يكون

باللسان فإذا قلنا حكم الذهن فإنما نريد الإخبار النفساني، ثم إن هذا الإخبار محتمل للتصديق والتكذيب والتصديق والتكذيب إما بالإخبار بأن يقال لقائله صدقت أو كذبت، وإما بالعلم والاعتقاد فإن من علم صدق المخبر يقال له مصدق له ومن علم كذبه يقال أنه مكذب له، فسمى العلم المتعلق بذلك الخبر أو بمضمون الخبر تصديقا لما قلناه لأنه مصدق له فالعلم يتعلق بالحكم أو بمضمونه لا ينقسم إليه، وقولنا بمضمونه لأن العلم قد يتعلق بالنسبة الخارجية وقد يتعلق بالخبر عنها فالثاني تصديق للخبر والأول تصديق لمضمونه والحكم منه ما هو تصديق وهو الاخبار بصدق الصادق ومنه ما ليس بتصديق وهو تقييد الأحكام وأنما شاع في العرف إطلاق التصديقات على القضايا مطلقا لأنها قابلة لأن تصدق، فكأنهم قالوا الصادقة ومن هنا يتبين أن أحق القضايا باسم التصديق ما كان مقطوعا به لأنه الذي يصدقه العلم أما المظنونة والمشكوك فيها والموهومة فلا يوثق بأيها إذا عرضت على العلم بصدقها أو بكذبها فإن أطلق عليها اسم التصديق فإنما هو بطريق احتمالها له، وإنما تسمى حكما وجميع الأشياء معروضة على العلم وهو الميزان لها فالمفردات بتصورها والأحكام الصحيحة بصدقها والباطلة بصدق نقيضها ولما كان دائما في القضايا مصدقا لها ولنقيضها، سمي تعلقه بها تصديقا وترك لفظ التكذيب للاستغناء عنه بنقيضه ولهجر لفظه، وإنما سمى العلم بالصدق تصديقا لأن

به يصدق فهو الأصل في الأصل في التصديق وإطلاق التصديق على الحكم بالصدق للزومه له وإطلاقه على الحكم بذلك بطريق الظن فيه بعيد وإطلاقه على الحكم مطلقا سواء كان تصديقا بخبر أم لا بعيد عن اسم التصديق وقد أطلنا في هذا لأنا لم نجد من حققه هكذا وفي العلم اصطلاح آخر خاص لا يندرج فيه التصور يقال فيه الاعتقاد الجازم المطابق لموجب وهذا هو أحد قسمي العلم العام وهو العلم التصديقي فإنا قدمنا أنه لا بد وأن يكون قطعيا فقولنا جازم مخرج الظن والشك والوهم وقولنا مطابق مخرج الجهل وقولنا لموجب مخرج التقليد ومنهم من يقول لثابت بدل قولنا لموجب لأن اعتقاد المقلد غير ثابت لأنه يمكنه اعتقاد نقيضه واليقين لا يمكن اعتقاد نقيضه وهذا النوع من العلم لا يكون معلومه إلا حكما بإسناد أمر إلى أمر محتملا للتصديق والتكذيب أو مضمون ذلك الحكم وهو وقوع تلك النسبة في نفس الأمر كما بيناه إذا عرفت الاصطلاحين في العلم فلك أن تجعله في كلام المصنف بالمعنى الأعم ويخرج التصور بما بعده وهو الذي سلكه الإمام وعليه سؤال سنورده ولك أن تجعله بالمعنى الأخص فلا يكون التصور داخلا فيه ولا يكون قوله بالأحكام مخرجا لشيء بل توطئة للشرعية وعلى كلا التقديرين لا يندرج الظن فيه ولذلك أورد عليه السؤال الذي سيأتي.

وقد يطلق العلم باصطلاح ثالث على الصناعة كما تقول علم النحو أي صناعته فيندرج فيه الظن واليقين وكل ما يتعلق بنظر في المعقولات لتحصيل مطلوب يسمى علما ويسمى صناعة وعلى هذا الاصطلاح لا يرد سؤال الظن لكنهم كلهم أوردوه فكأنهم لم يريدوا هذا الاصطلاح أو أرادوه ولحظوا معه معنى العلم في الأصل ويطلق النحاة العلم أيضا على المعرفة وقد أصابوا ولكن ليس فيها اعتقاد ولا ظن بل تصور محض ولا يجوز أن تكون هي المراد ههنا لأن الفقه تصديق لا تصور.[١١٤]

---

١١٤) الابهاج للأسنوي ١ /٢٨ – ٣١: وللوقوف على تفسير ما جاء في كلام الأسنوي رحمه الله قال النورسي: فصل في انواع العلم الحادث: ادراك[*] مفرد[**] تصوراً [***] علم ودرك[****] نسبة[##] بتصديق وسم. [*] للنفس في الادراك فعل، يستتبع اضافة، تستلزم انفعالاً، يستولد كيفية، تسترذف صورة. مع انها علم معلوم ايضا. والاول صفة. والثاني مظروف للذهن. (مع انها علم معلوم ايضا) أي الادراك عبارة عن الصورة الحاصلة في الذهن. فتلك الصورة من حيث ينتقش ويتصف بها الذهن تكون علماً وصفة.

ومن حيث حصولها في الذهن تكون مظروفة للذهن ومعلوماً لتعلق ذلك الانتقاش به. [**] اي ولو حكما بإجمالية النسبة. [***] الاطلاق المستفاد من الاطلاق تقييد. اي التصور المطلق لا مطلق التصور. دفعٌ لما يوهمه قول الناظم من عدم المطابقة بين التعريف والمعرف، اذ المتبادر من قوله (تصوراً علم) مطلق التصور أي سواء كان ذلك التصور مع الحكم او لا. وهذا عام يشمل التصور مع الحكم ايضا، لان محل حصوله الذهن. وبهذا الاعتبار يكون المعرف أعم من التعريف. [****] غيّر لمغايرة النوعين في التعلق لا في المتعلق فقط؛ فان الاول كالحل، والثاني كالربط والعقد. (غير لمغايرة الخ) أي بدّل الادراك بالدرك، لان التصور والتصديق كما تغايرا في المتعلق لأنه في الاول المفرد وفي الثاني

قال الصنعاني: واعلم أنه قد تحصل من قوله والعلم معنى يقتضي السكون إلى هنا تعريف الأقسام كلها فالعلم هو المعنى الذي اقتضى سكون النفس بما علمته وهو الذي يعبرون عنه بانه التصديق الجازم المطابق مع سكون النفس والاعتقاد الصحيح هو التصديق الجازم المطابق مع عدم سكونها والاعتقاد الفاسد هو التصديق الجازم غير المطابق والظن هو الإدراك الراجح غير الجازم والوهم هو الإدراك غير الجازم المرجوح والشك هو الإدراك غير الجازم المستوي الطرفين وبقي من الأقسام المشار إليها في

الحكم تغايرا في التعلق ايضا. لان التعلق في الاول بطرفي القضية وفي الثاني بالنسبة بينهما. ولا يخفى ان وجود النسبة يتوقف على العقد والربط بين الطرفين والاول يدل على الانفصال بين الطرفين وانحلالهما عن النسبة. [##] أي درك ان النسبة واقعة مفصلة مستردف الاذعان. لا درك نسبة؛ فانه شرط او شطر. ولا درك وقوع النسبة؛ فانه تابع. (اي درك ان النسبة واقعة) يعني ان الظاهر من هذا القول: ان الناظم ذاهب الى مذهب القدماء من أن التصديق عندهم عبارة عن درك النسبة التامة الخبرية أي درك الثبوت بين الطرفين. بناء على ان اجزاء القضية عندهم ثلاثة: الموضوع والمحمول وثبوت الثاني للاول. لكن عند المتأخرين عبارة عن درك وقوع الثبوت بينهما. فالاجزاء عندهم اربعة ان جعل الثبوت المسمى عندهم بالنسبة بين بين شطراً اي جزء او ثلاثة ان جعل شرطا.

وجه الدفع ان المعرف هنا اعني (تصورا) لكونه غير مقيد، مقيد بالاطلاق، أي التصور المطلق. وهو خاص لايشمل التصور مع الحكم. فالمعرف يساوي التعريف فلا اشكال. وصف الاستاذ ذلك الادراك بالاذعان في سائر رسائله اي الاطمئنان القلبي إشارة إلى ان القائل «لكلمة التوحيد» من غير اذعان واطمئنان بمفهومها لايفوز بحقيقة الايمان. أنظر: صيقل الإسلام/قزل إيجاز على سلم المنطق لبديع الزمان سعيد النورسي- ص: ١٨٢

النظم الجهل وهو قسمان مركب وبسيط فأشار إلى الأول قولنا مركب جاء بهذا النقل صفة لقوله جهل فالجهل المركب هو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع وإنما سمي مركبا لأنه جهل المدرك ما في الواقع فهذا جهل أول وجهل أنه جاهل فهذا جهل ثان فكان مركبا وهو الاعتقاد الفاسد ومثاله المثال المتقدم وسواء كان هذا الإدراك مستندا إلى شبهة أو تقليد قال المحققون إن هذا الجهل يختص بالتصديقات ولا يجري في التصورات بناء على ما هو عندهم من الحق من أن التصورات لا تحتمل عدم المطابقة بخلاف التصديقات قال في شرح المواقف لا يوصف التصور بعدم المطابقة أصلا فإنا إذا رأينا من بعيد شبحا هو حجر مثلا وحصل منه في أذهاننا صورة إنسان فتلك الصورة صورة إنسان وعلم تصوري له والخطأ إنما هو في حكم العقل بأن هذه الصورة للشبح المرئي إنسان فالتصورات كلها مطابقة له موجودا كان أو معدوما أو ممتنعا وعدم المطابقة في أحكام العقل المقارن لتلك التصورات فهذا هو القسم الأول من قسمي الجهل والثاني منه ما في قولنا والفقد للعلم يسمى جهلا وهو البسيط. إ.هـ. [١١٥]

---

١١٥) إجابة السائل شرح بغية الآمل الصنعاني ١ / ٦١

قال أصحاب الشافعي: الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية والمراد بالحكم النسبة التامة الخبرية التي العلم بها تصديق وبغيرها تصور (٢/ ٤٠١). [١١٦]

---

١١٦) أبجد العلوم المجلد الثاني باب علم الفقه

سادساً: الإقرار

وقال اسماعيل البروسوي في روح البيان: وفي علم الكلام ذهب جمهور المحققين إلى أن الإيمان التصديق القلب وإنما الإقرار شرط لا جزؤه لإجراء الأحكام في الدنيا كالصلاة عليه في وقت موته لما أن تصديق القلب أمر باطن لا يطلع عليه أحد لا بد له من علامة فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه فهو مؤمن عند الله لوجود التصديق القلبي وإن لم يكن مؤمناً في أحكام الدنيا لانتفاء شرطه وأما من جعل الإقرار ركناً من الإيمان فعنده لا يكون تارك الإقرار مؤمناً عند الله ولا يستحق النجاة من خلود النار ومن أقر بلسانه ولم يصدق بقلبه كالمنافق هو مؤمن في أحكام الدنيا وإن لم يكن مؤمناً عند الله وهذا المذكور من أن الإيمان هو التصديق القلبي والإقرار باللسان لإجراء الأحكام هو اختيار الشيخ أبي منصور رحمه الله والنصوص معاضدة لذلك قال الله تعالى: [أولئك كتب في قلوبهم الإيمان] وقال الله تعالى [وقلبه مطمئن بالإيمان] وقال الله تعالى [ولما يدخل الإيمان في قلوبكم] وقال عليه السلام: «اللهم ثبت قلبي على دينك أي على تصديقك»[١١٧]

قال ملا علي القاري: وثانيها: أنه عمل القلب واللسان معاً، فقيل: الإقرار شرط لإجراء الأحكام لا لصحة الإيمان فيما بين العبد وربه، قال حافظ الدين

---

١١٧) تفسير روح البيان للبروسوي تفسير سورة الحجرات

النسفي: وهذا هو المروي عن أبي حنيفة، وإليه ذهب أبو منصور الماتريدي والأشعري في أصح الروايتين عنه، وقيل: هو ركن لكنه غير أصلي بل زائد ومن ثم يسقط عند الإكراه والعجز، ولهذا من صدق ومات فجأة على الفور فإنه مؤمن إجماعاً، قال بعضهم: والأوّل مذهب المتكلمين والثاني مذهب الفقهاء. والحق أنه ركن عند المطالبة به وشرط لإجراء الأحكام عند عدم المطالبة[١١٨]

قال الكشميري: قال التفتازاني: إن الإقرار لو كان شرطاً لإجراء الأحكام فلا بد أن يكون على وجه الإعلان والإظهار للإمام وغيره من أهل الإسلام، وإن كان لإتمام الإيمان، فإنه يكفي مجرد التكلم به وإن لم يظهر على غيره. ومن جعل الإقرار ركناً كالتصديق فرّق بينهما بكون التصديق لا يحتملُ السقوطَ في حال، بخلاف الإقرار، فإنه يسقطُ عند الأعذار. وفي «المسايرة» وجَعْلُ الإقرار بالشهادتين ركناً من الإيمان هو الاحتياط بالنسبة إلى جعله شرطاً خارجاً عن حقيقة الإيمان. ثم إنه شرطاً كان أو شطراً، لا بد منه عند المطالبة عند الكل، فإن طُولِبَ به ولم يُقر، فهو كافر كفر عناد، وهو معنى ما

١١٨) مرقاة المفاتيح لملا علي القاري كتاب الإيمان.

قالوا: إنّ تَرْك العناد شرطٌ في الإيمان. كذا صرح به ابن الهمام رحمه اللّه.[119]

وقال النووي الحاوي في سفينة الصلاة: واعلم أن الإيمان مجرد التصديق، وأما الإقرار فهو شرط لإجراء أحكام المؤمنين في الدنيا من التوارث والمناكحة والصلاة عليه، والمطالبة بالزكاة وغير ذلك، وهذا القول لجمهور المحققين، وعند بعضهم أن الإقرار شرط في صحة الإيمان. وقيل: إن الإيمان الإقرار والتصديق معاً وهذا للإمام أبي حنيفة وجماعة من الأشاعرة كالقاضي أبي بكر الباقلاني واختاره السرخسي. وقيل: إن الإيمان الإقرار والتصديق والعمل بأوامر اللّه، وهذا لجمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج، وموضع هذا الخلاف كافر أصلي يريد الدخول في الإسلام قادر على الإقرار، وأما أولاد المسلمين فهم مؤمنون قطعاً، وأما من لم يقدر على النطق، فليس في حقه ذلك[120]

وقال سعد الدين التفتازاني في شرح التلويح على التوضيح: (فَالشَّيْءُ الـمُتَعَلِّقُ إنْ كَانَ دَاخِلا فِي الآخَر، فَهُوَ رُكْنٌ وَإلا فَإنْ كَانَ مُؤَثِّرًا فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي الْقِيَاسِ فَعِلَّةٌ وَإلا فَإنْ كَانَ مُوصِّلا إلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ فَسَبَبٌ وَإلا فَإنْ

---

١١٩) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

١٢٠) سفينة الصلاة للنووي الحاوي كتاب معنى الشهادتين.

تَوَقَّفَ عَلَيْهِ وُجُودُه فَشَرْطٌ وَإلا فَلا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَدُلَّ عَلَى وُجُودِهِ فَعَلامَةٌ. وَأَمَّا الرُّكْنُ فَمَا يَقُومُ بِهِ الشَّيْءُ وَقَدْ شَنَّعَ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى أَصْحَابِنَا فِيمَا قَالُوا: الإِقْرَارُ رُكْنٌ زَائِدٌ وَالتَّصْدِيقُ رُكْنٌ أَصْلِيٌّ فَإِنَّهُ إنْ كَانَ) أَيْ الإِقْرَارُ (رُكْنًا يَلْزَمُ مِنْ انْتِفَائِهِ انْتِفَاءُ الْمُرَكَّبِ كَمَا تَنْتَفِي الْعَشَرَةُ بِانْتِفَاءِ الْوَاحِدِ فَنَقُولُ الرُّكْنُ الزَّائِدُ شَيْءٌ اعْتَبَرَهُ الشَّارِعُ فِي وُجُودِ الْمُرَكَّبِ لَكِنْ إنْ عُدِمَ بِنَاءً عَلَى ضَرُورَةٍ جَعَلَ الشَّارِعُ عَدَمَهُ عَفْوًا وَاعْتَبَرَ الْمُرَكَّبَ مَوْجُودًا حُكْمًا. وَقَوْلُهُمْ: لِلأَكْثَرِ حُكْمُ الْكُلِّ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَهَذَا نَظِيرُ أَعْضَاءِ الإِنْسَانِ فَالرَّأْسُ رُكْنٌ يَنْتَفِي الإِنْسَانُ بِانْتِفَائِهِ وَالْيَدُ رُكْنٌ لا يَنْتَفِي بِانْتِفَائِهِ وَلَكِنْ يَنْقُصُ.)[121]

وقال البزدوي: فَمَنْ أَطْلَقَ اسْمَ الإِيمَانِ عَلَى غَيْرِ التَّصْدِيقِ فَقَدْ صَرَفَهُ عَنْ مَفْهُومِهِ لُغَةً، وَبِأَنَّ الشَّيْءَ لا وُجُودَ لَهُ إلا بِوُجُودِ رُكْنِهِ وَالَّذِي آمَنَ مَوْصُوفٌ بِالإِيمَانِ عَلَى التَّحْقِيقِ مِنْ حِينِ آمَنَ إلَى أَنْ مَاتَ بَلْ إلَى الأَبَدِ فَيَكُونُ مُؤْمِنًا بِوُجُودِ الإِيمَانِ وَقِيَامُهُ بِهِ حَقِيقَةً وَلا وُجُودَ لِلإِقْرَارِ حَقِيقَةً فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، فَدَلَّ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِمَا مَعَهُ مِنْ التَّصْدِيقِ الْقَائِمِ بِقَلْبِهِ الدَّائِمِ بِتَجَدُّدِ أَمْثَالِهِ لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الإِقْرَارَ لِيَكُونَ شَرْطًا لإِجْرَاءِ أَحْكَامِ الدُّنْيَا إذْ لا وُقُوفَ لِلْعِبَادِ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ فَلا بُدَّ لَهُمْ مِنْ دَلِيلٍ ظَاهِرٍ لِتَمَكُّنِهِمْ بِنَاءَ الأَحْكَامِ عَلَيْهِ وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ فَيُجْرِي أَحْكَامَ الآخِرَةِ عَلَى التَّصْدِيقِ

---

١٢١) سعد الدين التفتازاني في شرح التلويح على التوضيح باب في الحكم وهو قسمان:

بِدُونِ الإقْرَار حَتَّى أنَّ مَنْ أقَرَّ وَلَمْ يُصَدِّقْ فَهُوَ مُؤْمِنٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ مِنْ أهْلِ النَّار وَمَنْ صَدَّقَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يُقِرَّ بِلِسَانِهِ فَهُوَ كَافِرٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ. ثُمَّ لَمَّا كَانَ الإقْرَارُ رُكْنًا عِنْدَ الشَّيْخِ وَالشَّيْءُ لا يَبْقَى بِدُونِ رُكْنِهِ لَزِمَ عَلَيْهِ بَقَاءُ الإيمَانِ حَالَةَ الإكْرَاهِ بِدُونِ الإقْرَار فَأدْرَجَ فِي أثْنَاءِ كَلامِهِ الْجَوَابَ عَنْهُ، فَقَالَ: الإقْرَارُ رُكْنٌ مُلْحَقٌ بِهِ أيْ بِالتَّصْدِيقِ فِي كَوْنِهِ رُكْنًا، لَكِنَّهُ اسْتِدْرَاكٌ عَنْ قَوْلِهِ هُوَ رُكْنٌ أيْ الإقْرَارُ مَعَ كَوْنِهِ رُكْنًا مُحْتَمِلٌ لِلسُّقُوطِ عَنْ الْمُكَلَّفِ فِي بَعْضِ الأحْوَالِ وَهُوَ حَالَةُ الإكْرَاهِ؛ لأنَّ اللِّسَانَ لَيْسَ مَعْدِنَ التَّصْدِيقِ الَّذِي هُوَ الأصْلُ فِي الإيمَانِ فَلا يَلْزَمُ مِنْ فَوَاتِ الإقْرَار فَوَاتُ التَّصْدِيقِ[١٢٢]، وَهَذَا يَقْتَضِي أنْ لا يَكُونَ الإقْرَارُ رُكْنًا لَكِنَّ اللِّسَانَ لَمَّا كَانَ مُعَبِّرًا عَمَّا فِي الْقَلْبِ كَانَ الإقْرَارُ دَلِيلا عَلَى التَّصْدِيقِ وُجُودًا وَعَدَمًا فَجُعِلَ رُكْنًا فِيهِ، وَقِيَامُ السَّيْفِ فِي مَسْألَةِ الإكْرَاهِ عَلَى رَأسِهِ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى أنَّ الْحَامِلَ لَهُ عَلَى تَبْدِيلِ الإقْرَار حَاجَتُهُ إلَى دَفْعِ الْهَلاكِ عَنْ نَفْسِهِ لا تَبْدِيلُ التَّصْدِيقِ، فَلَمْ يَصْلُحْ عَدَمُهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ دَلِيلا عَلَى عَدَمِ التَّصْدِيقِ فَلَمْ يَبْقَ رُكْنًا فَأمَّا فِي غَيْر هَذِهِ الْحَالَةِ فَعَدَمُهُ مَعَ التَّمَكُّنِ مِنْهُ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ التَّصْدِيقِ[١٢٣]؛ لأنَّ الامْتِنَاعَ عَنْهُ مَعَ كَوْنِهِ حَسَنًا لِعَيْنِهِ وَوَاجِبًا عَلَيْهِ مِنْ غَيْر عُذْرٍ وَكَلَّفَهُ فِي الإتْيَانِ بِهِ لا يَكُونُ إلا لِتَبَدُّلِ الاعْتِقَادِ فَصَلُحَ أنْ يَكُونَ رُكْنًا وَإنْ كَانَ دُونَ التَّصْدِيقِ،

١٢٢) هذه الجملة من أقوى ما يجعل الإقرار شرطا لا ركنا، ففواته لا يعني فوات التصديق.

١٢٣) فهو شرط صحة إذن.

مُخْتَارًا فِي التَّصْدِيقِ احْتِرَازًا عَنْ التَّصْدِيقِ حَالَةَ الْيَأْسِ فَإِنَّهُ لا يَنْفَعُ أَصْلا، كَانَ مُؤْمِنًا يَعْنِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. وَإِنَّمَا قَالَ إنْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ؛ لأَنَّ التَّصْدِيقَ الاخْتِيَارِيَّ مَعَ عَدَمِ التَّمَكُّنِ مِنْ الإِقْرَارِ أَوْ مَا يَقُومُ مَقَامَهُ فِي غَايَةِ النُّدْرَةِ[١٢٤]

وقال الكشميري أيضا: قال عامة الفقهاء والمتكلمين: إن الإيمان تصديق بأمور مخصوصة عُلِم كونُها من الدين ضرورة. فلنتكلم أولاً على معنى التَّصديق وما يتعلق به، ثم لنبحث عن معنى الضرورة فالتَّصديق هو الإذعان عند الحكماء، وهو إما إدراك أو من لواحق الإدراك، والحق عندي هو الثاني ثم التَّصديق قد يجتمع مع الجُحود أيضاً وهو كفرٌ قطعاً قال تعالى: [وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً] (النمل: ١٤)، وقال تعالى أيضاً: [يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءهُمْ] (البقرة: ١٤٦)، وقال تعالى: [فلما جاءهم ما عَرَفُوا كفروا به] (البقرة: ٨٩) فانظر كيف اجتمع اليقين والإذعان، والمعرفة مع الجحود فيلزمُ على التعريفِ المذكور أن يجتمع الإيمان مع الجحود، واللاّزمُ باطلٌ، ولذا جعل الفقهاء الإقرارَ شرطاً للإيمان، لإخراج تصديق الجاحدين، فإن الجاحد لا يُقر بلسانه البتة، ومن أقر باللسان لا يمكن منه الجحود، فكأنهم فهموا أن الإقرار مقابلٌ للجحودِ فجعلوه شرطاً، أو شطراً، احترازاً عن مثل هذا اليقين والمعرفة. وحينئذٍ فالجواب عندهم: إن هؤلاء وإن كانوا

---

١٢٤) أصول فخر الإسلام للبزدوي باب بيان صفة الحسن للمأمور به وهو نوعان

مستيقنين به، لكنهم لم يكونوا يقرُّون بألسنتهم، بل كانوا يجحدون، فلم يعتبر تصديقهم، ولم يُحكم عليهم بالإيمان، لأن التصديق المعتبر ما كان مع الإقرار باللسان ولم يوجد، وهو الفاصل في الباب...

واختلف فيه صدر الشريعة رحمه الله تعالى، والعلامة التَّفْتَازَاني رحمه الله تعالى، فقال صدر الشريعة رحمه الله تعالى: إن التصديق المنطقي أعم من الاختياري والاضطراري، والمعتبر في الإيمان هو الاختياري فقط؛ لأن الإيمان مُثَاب عليه، والثواب لا يترتب إلا على فِعله الاختياري، فما هو معتبر في باب الإيمان ليس بجامعٍ مع الجحود، وما هو بجامع معه ليس بمعتبر في الإيمان، وكأنه فَهِمَ أن الرجل إذا صدّق أحداً عن اختياره وطوعه، بدون إكراه مُكْره، لا يتمكّن على الجحود. والذي يجحدُ به لا يُمكنه التَّصديق عن اختياره. نحو أن يقعَ بصركُ على الجِدار، ويحصلُ لك الإذعان بوجوده اضطراراً، فهذا النوع من اليقين يمكن أن يجامع الجحود، فإنه ليس من فعله، بخلاف ما صدر عن اختياره، فإنه فعله، والظاهر أنه إذا فعل فعلاً عن اختياره لا يفعل نقيضه إلا أن يكون به جِنَّة، أو يكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

وادعى التفتازاني أن تلك المعرفة الحقة اليقينية المجامعة مع الجحود ليست بتصديق، بل هي من التصورات والتصديق اسمٌ لليقين المجامع مع التسليم، فكأنه أخرجَ تصديقَ الجاحدين عن مُسَمَّى التصديق ومتناولاته رأساً، وحينئذٍ ساغَ له أن يقول: إن المعتبر في الإيمان هو التصديق، وما وُجِد

منهم هو اليقين المجامع مع الجحود، وهو تصورٌ وليس بمعتبر في الإيمان، وكأنه فَهِمَ أن التّصديق إذا قارنه التسليم لا يكون إلا اختياراً.

وحينئذٍ فالتصديق عنده مساوٍ للإيمان، بخلافه على الأول، فإنه كان أعم من الإيمان.

والذي يظهر عندي أن الصواب مع صدر الشريعة، فإن أرباب المعقول لعلهم لا يحكمون على تلك المعرفة اليقينية بكونها تصوراً، والظاهر أنها تصديق.

والحاصل: أن الفقهاء رحمهم اللّه شرطوا الإقرار لإخراج مثل هذا التصديق عن مُسمّى الإيمان. والشيخ الهروي: التسليم. وصدر الشريعة وإن عَمَّم التصديق أولاً، لكنه خصصه آخراً، وأراد منه الاختياري فقط، والتفتازاني خصصه من أول الأمر، وأخرجه عن مُسمّى التصديق ابتداءً، فلم يحتج إلى التخصيص، فالبيت واحدٌ وتلك أبوابه فأته من أيها شئت،.[١٢٥]

قال الكشميري: قال التفتازاني: إن الإقرار لو كان شرطاً لإجراء الأحكام فلا بد أن يكون على وجه الإعلان والإظهار للإمام وغيره من أهل الإسلام، وإن كان لإتمام الإيمان، فإنه يكفي مجرد التكلم به وإن لم يظهر على غيره.

---

١٢٥) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

ومن جعل الإقرار ركناً كالتصديق فرّق بينهما بكون التصديق لا يحتملُ السقوطَ في حال، بخلاف الإقرار، فإنه يسقطُ عند الأعذار. وفي «المسايرة» وجَعْلُ الإقرار بالشهادتين ركناً من الإيمان هو الاحتياط بالنسبة إلى جعله شرطاً خارجاً عن حقيقة الإيمان. ثم إنه شرطاً كان أو شطراً، لا بد منه عند المطالبة عند الكل، فإن طُولِبَ به ولم يُقر، فهو كافر كفر عناد، وهو معنى ما قالوا: إنّ تَرْك العناد شرطٌ في الإيمان. كذا صرح به ابن الهمام رحمه اللّه.[١٢٦]

وقال الجلال السيوطي: الإيمان هو التصديق بكل ما جاء به النبي صلى اللّه عليه وسلّم وعلم مجيئه به من الدين بالضرورة وشرطه التلفظ بكلمتي الشهادتين ـ وقيل هو ركن له ـ وسببه النظر المؤدي إلى ذلك، ومحله القلب وهو يزيد وينقص عندنا وعند أكثر السلف.[١٢٧]

وقال النروزي: قال أبو عبد اللّه: ويقال لهم: قولكم إن القول باللسان إيمان مع المعرفة أيهما أصل للآخر؟ فإن زعموا أن القول باللسان أصل للإيمان، فقد أوجبوا للمنافقين أصل الإيمان إذ يشهدوا للنبي صلى اللّه عليه وسلم أنه رسول اللّه، وقد أكذبهم اللّه عز وجل، وأخبر أنهم كاذبون ثم

---

١٢٦) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

١٢٧) الحاوي للفتاوي للسيوطي كتاب البعث.

أخبر عن الأعراب الذين قالوا: آمنا، فقال: [قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا] فأخبر أن قولهم ذلك ليس بإيمان، ثم أخبر أن الإيمان أوله على القلب فقال: [ولما يدخل الإيمان في قلوبكم] وقال: [ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين] فقد دل القرآن على إكفار من أقر بلسانه وقلبه منكر. وإن قالوا: إن المعرفة أصل الإيمان. قيل لهم: فالإقرار أصل ثان مضاف إليه أو فرع له؟ فإن قالوا: أصل ثان، قيل لهم: فمن جاء بالمعرفة، ولم يأت بالأصل الثاني لطلب دنيا أو استكبار عن اتباع المسلمين لئلا يزول عن رياسة أو غيرها إلا أنه عارف بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم، ما حاله عندكم؟ فإن قالوا: كافر، قيل لهم: كافر ليس فيه من الإيمان شيء أو قد جاء بأحد الأصلين؟ فإن قالوا: ليس فيه من الإيمان شيء فقد زعموا أن معرفة القلب هو قول اللسان إذ كان زوال المعرفة هو ترك القول، وهذا التناقض، ولو كان كذلك كان إذا أقر باللسان كان عارفا من قبل الإقرار باللسان، وإن كان منكرا بقلبه فإن كان قد تجامع الإنكار بالقلب القول باللسان فكذلك تجامع المعرفة ترك القول باللسان، ولو كان في زوال المعرفة زوال القول وكان لا يقر باللسان منكرا كما لم يعرف القلب منكرا باللسان أبدا على قياس ما قلتم. فإن قالوا: الإقرار فرع لأصل الإيمان، وهو المعرفة. قيل لهم: فترك الفرع يذهب بالأصل أو يبقى الأصل على حاله، وأزال الفرع؟ فإن قالوا: يذهب الأصل، قيل لهم: فالأصل أولى أن يكون في

زواله زوال الفرع فقد وجدناه مقرا منكرا فكذلك ثبت أنه عارف منكر. فإن قالوا: هو عارف تارك للإقرار بلسانه. قيل: ولم يسمه اللّه مؤمنا مع ترك الإقرار بلسانه[١٢٨].

قال القاسم بن سلام في كتاب الإيمان: باب من جعل الإيمان المعرفة بالقلب وإن لم يكن عمل: قال أبو عبيد: قد ذكرنا ما كان من مفارقة القوم إيانا في أن العمل من الإيمان، على أنهم وإن كانوا لنا مفارقين فإنهم ذهبوا إلى مذهب قد يقع الغلط في مثله، ثم حدثت فرقة ثالثة شذت عن الطائفتين جميعا، ليست من أهل العلم ولا الدين، فقالوا: الإيمان معرفة بالقلوب باللّه وحده، وإن لم يكن هناك قول ولا عمل وهذا منسلخ عندنا من قول أهل الملل الحنفية، لمعارضته لكلام اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم بالرد والتكذيب، ألا تسمع قوله [قولوا آمنا باللّه وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل]؟ فجعل القول فرضا حتما، كما جعل معرفته فرضا، ولم يرض بأن يقول: اعرفوني بقلوبكم ثم أوجب مع الإقرار الإيمان بالكتب والرسل كإيجاب الإيمان، ولم يجعل لأحد إيمانا إلا بتصديق النبي صلى اللّه عليه وسلم في كل ما جاء به، فقال [يا أيها الذين آمنوا آمنوا باللّه ورسوله]،

---

١٢٨) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر النروزي باب: طرق حديث: الدين النصيحة. وكلامه الأخير هذا متين، فيه إلزامات عظيمة، لكن لي عليها مآخذ قليلة.

وقال [فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم]، وقال [الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم]، يعني النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجعل الله معرفتهم به إذ تركوا الشهادة له بألسنتهم إيمانا ثم سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان؟ فقال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله في أشياء كثيرة من هذا لا تحصى.[١٢٩]

وقال العيني: ومن جعله ركناً فإنما جعله ركناً أيضاً لدلالته على التصديق لا لخصوص كونه إقراراً.[١٣٠]

---

١٢٩) كتاب الإيمان للقاسم بن سلام. باب من جعل الإيمان المعرفة.

١٣٠) عمدة القاري: كتاب الإيمان

ما أراه في موضوع الإقرار:

أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله لم يفرق بين الإسلام والإيمان، فهو إذ يذكر الإيمان فإنه يعني الإسلام والإيمان معا أي دين الإسلام، فلا شك أن الإيمان عندها سيشمل القول والعمل والتصديق، وينبغي أن يُعرف أن المعرفة مع الإتيان بالفعل المكفر، أو المعرفة مع عدم الانقياد للحق بعد إذ تبين الهدى، أو المعرفة مع عدم التصديق بكل ما جاء به الوحي مما دل الدليل القطعي على وجوب اعتقاده، كل هذا لا ينفع مع المعرفة شيئا.

فالمعرفة وحدها لا تنفع، إذ أن "اعتناق العقيدة الإسلامية معناه الإيمان بكافة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم. ويجب أن يعلم أن مجرد المعرفة لا يغني، وأن التمرد على أصغر شيء ثابت يقيناً من الإسلام يخرج الشخص ويفصله من العقيدة. والإسلام كلٌ غير قابل للتجزئة من حيث الإيمان والتقبل فلا يجوز في الإسلام إلا أن يُتقبل كاملاً، والتنازل عن بعضه كفر"...[١٣١]

---

١٣١) الشخصية الاسلامية الجزء الأول لتقي الدين النبهاني فصل الثغرات في السلوك

قال العلامة ابن عاشور: ونفي الإيمان عنهم مع قولهم [في قوله تعالى: [وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الأُخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ] (البقرة: ٨)] [مَن] دليل صريح على أن مسمى الإيمان التصديق وأن النطق بما يدل على الإيمان قد يكون كاذباً فلا يكون ذلك النطق إيماناً.[١٣٢]

قال الكشميري: قال التفتازاني: إن الإقرار لو كان شرطاً لإجراء الأحكام فلا بد أن يكون على وجه الإعلان والإظهار للإمام وغيره من أهل الإسلام، وإن كان لإتمام الإيمان، فإنه يكفي مجرد التكلم به وإن لم يظهر على غيره... ثم إنه شرطاً كان أو شطراً، لا بد منه عند المطالبة عند الكل، فإن طُولِبَ به ولم يُقر، فهو كافر كفر عناد.[١٣٣]

وقال النووي الحاوي: واعلم أن الإيمان مجرد التصديق، وأما الإقرار فهو شرط لإجراء أحكام المؤمنين في الدنيا من التوارث والمناكحة والصلاة عليه... وموضع هذا الخلاف كافر أصلي يريد الدخول في الإسلام قادر على الإقرار، وأما أولاد المسلمين فهم مؤمنون قطعاً، وأما من لم يقدر على النطق، فليس في حقه ذلك[١٣٤]

---

١٣٢) التحرير والتنوير لابن عاشور تفسير سورة البقرة.

١٣٣) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

١٣٤) سفينة الصلاة للنووي الحاوي كتاب معنى الشهادتين.

لنسأل أنفسنا السؤال التالي:

مفهوم كلمة إقرار ما هو؟

إِقْرَارٌ التَّعْرِيفُ ١ - مِنْ مَعَانِي الْإِقْرَار فِي اللُّغَةِ: الِاعْتِرَافُ. يُقَالُ: أَقَرَّ بِالْحَقِّ إِذَا اعْتَرَفَ بِهِ. وَفِي اصْطِلَاحِ الْفُقَهَاءِ، الْإِقْرَارُ: هُوَ الْإِخْبَارُ عَنْ ثُبُوتِ حَقٍّ لِلْغَيْرِ عَلَى الْمُخْبِرِ، وَهَذَا تَعْرِيفُ الْجُمْهُور. وَذَهَبَ بَعْضُ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى أَنَّهُ إِنْشَاءٌ، وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّهُ إِخْبَارٌ مِنْ وَجْهٍ، وَإِنْشَاءٌ مِنْ وَجْهٍ. وَالْإِقْرَارُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْأُصُولِيِّينَ هُوَ: عَدَمُ الْإِنْكَارِ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ صَدَرَ أَمَامَهُ. ب - (الْإِنْكَارُ): ٣ - الْإِنْكَارُ: ضِدُّ الْإِقْرَار. يُقَالُ فِي اللُّغَةِ: أَنْكَرْت حَقَّهُ: إِذَا جَحَدْتَه. وَلَا يَخْرُجُ الْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيُّ عَنْ الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ.

عند الفقهاء للإقرار أركان هي:

جاء في الموسوعة الفقهية: أَرْكَانُ الْإِقْرَار عِنْدَ غَيْرِ الْحَنَفِيَّةِ أَرْبَعَةٌ: مُقِرٌّ، وَمُقَرٌّ لَهُ، وَمُقَرٌّ بِهِ، وَصِيغَةٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرُّكْنَ عِنْدَهُمْ هُوَ مَا لَا يَتِمُّ الشَّيْءُ إلَّا بِهِ، سَوَاءٌ أَكَانَ جُزْءًا مِنْهُ أَمْ لَازِمًا لَهُ. وَزَادَ بَعْضُهُمْ كَمَا يَقُولُ الرَّمْلِيُّ: الْمُقَرُّ عِنْدَهُ مِنْ حَاكِمٍ أَوْ شَاهِدٍ، وَقَالَ: وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ مَحَلُّ نَظَرٍ، إذْ لَوْ تَوَقَّفَ تَحَقُّقُ الْإِقْرَار عَلَى ذَلِكَ لَزِمَ أَنَّهُ لَوْ أَقَرَّ خَالِيًا بِحَيْثُ لَا يَسْمَعُهُ شَاهِدٌ، وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَ قَاضٍ، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ تَبَيَّنَ أَنَّهُ أَقَرَّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ فِي يَوْمِ كَذَا، لَمْ يُعْتَدَّ بِهَذَا

الْإِقْرَار، لِعَدَمِ وُجُودِ هَذَا الرُّكْنِ الزَّائِدِ، وَهُوَ مَمْنُوعٌ، وَلِذَا فَإِنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ. وَأَمَّا رُكْنُ الْإِقْرَار عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ فَهُوَ الصِّيغَةُ فَقَطْ، صَرَاحَةً كَانَتْ أَوْ دَلَالَةً، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرُّكْنَ عِنْدَهُمْ: مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وُجُودُ الشَّيْءِ، وَهُوَ جُزْءٌ مِنْ مَاهِيَّتِهِ[١٣٥]

لدينا إذن: مؤمن آمن ولم يتح له وقت كاف ليقر، فهذا لا خلاف في أنه مؤمن، ولدينا مؤمن أكره على الإقرار بضد الإيمان، لا خلاف في إيمانه مع أنه نطق بلسانه بالكفر، أو أرغم على عدم الإقرار بإيمانه، ولدينا الأخرس، ولدينا من انشغل منلدن إيمانه إلى أن توفاه اللّه بما منعه من الإقرار، ولدينا أبناء المسلمين، الذين ولدوا على هذا الدين، مؤمنون، ولدينا فوق ذلك: من كتم إيمانه وعاش في دار حرب أو كفر، كحال مؤمن آل فرعون، وكحال رجال مؤمنين ونساء مؤمنات في مكة، كل أولئكم أقر لهم الشرع بالإيمان مع سقوط الإقرار.

ولدينا مسألة أن القلب هو محل الإيمان كما ثبت من القرآن والسنة، واللغة، وصرفه عن مفهومه لغة غير مسوغ، خصوصا مع عشرات الآيات التي بينت أن طبيعة الهدى المتعلق بالإيمان طبيعة فكرية، وأن الموقف المطلوب تجاهها هو التفكير، فمحلها القلب / العقل.

---

١٣٥) الصفحة الرئيسة > الفقه > تصنيف الكتب > الموسوعة الفقهية > حرف الألف > إقرار > أركان الإقرار

ولدينا مسألة: دوام استحضار أو وجود التصديق، مع أن الإقرار ليس كذلك، أي أن الإقرار يكون حين المطالبة به، أو حين النطق به، ثم لا يكون دائميا كما التصديق في القلب في كل حين، فالنطق باللسان ليس دائميا، وبالتالي فانفصاله عنه في أغلب الوقت، أي انفصال النطق عن التصديق، مع بقاء الإيمان لوجود التصديق دل على أنه شرط.

قال البزدوي: فَمَنْ أَطْلَقَ اسْمَ الإِيمَانِ عَلَى غَيْرِ التَّصْدِيقِ فَقَدْ صَرَفَهُ عَنْ مَفْهُومِهِ لُغَةً، وَبِأَنَّ الشَّيْءَ لا وُجُودَ لَهُ إلا بِوُجُودِ رُكْنِهِ وَالَّذِي آمَنَ مَوْصُوفٌ بِالإِيمَانِ عَلَى التَّحْقِيقِ مِنْ حِينِ آمَنَ إلَى أَنْ مَاتَ بَلْ إلَى الأَبَدِ فَيَكُونُ مُؤْمِنًا بِوُجُودِ الإِيمَانِ وَقِيَامُهُ بِهِ حَقِيقَةً وَلا وُجُودَ لِلإِقْرَار حَقِيقَةً فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، فَدَلَّ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِمَا مَعَهُ مِنْ التَّصْدِيقِ الْقَائِمِ بِقَلْبِهِ الدَّائِمِ بِتَجَدُّدِ أَمْثَالِهِ... لأَنَّ اللِّسَانَ لَيْسَ مَعْدِنَ التَّصْدِيقِ الَّذِي هُوَ الأَصْلُ فِي الإِيمَانِ فَلا يَلْزَمُ مِنْ فَوَاتِ الإِقْرَار فَوَاتُ التَّصْدِيقِ[١٣٦]

ثم لدينا المنافقين، يقرون بألسنتهم دون مواطأة القلب، ولدينا قيصر، ولدينا [مَن يقول أمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين] ، فهؤلاء وأمثالهم كفار مع نطقهم بالإيمان.

---

١٣٦) أصول فخر الإسلام للبزدوي باب بيان صفة الحسن للمأمور به وهو نوعان

إلا أن أحوالا ملتبسة بالنسبة لموضوع الإقرار يمثل عليها بمسألة قيصر، ومسألة أبي طالب، ومن طُلب منه الإقرار فعاند وأبى أن يقر ومعه التصديق القلبي، ولدينا قوم فرعون لما جاءتهم الآيات واستيقنوها، ولدينا إبليس ولدينا علماء بني إسرائيل، فأمثال هؤلاء لم يعتبر لهم بعض إيمان فهل معهم التصديق القلبي فعلا وكان ما يحوجهم هو الإقرار؟

ثم لدينا محاولة النروزي رحمه الله إلزام من قال الإيمان المعرفة فقط أو الإيمان الإقرار فقط، بأن الشارع لم يعتبر لمن عرف دون أن يقر إيمانا، ولم يعتبر لمن أقر دون أن يعرف إيمانا.

هذه أهم القضايا المتعلقة بالإقرار، ولنبدأ بتفنيدها:

يقول الحق سبحانه وتعالى: [هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا] الفتح ٢٥، نزلت هذه الآية لتنبه إلى وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات من أهل مكة، لم يكن المؤمنون من الفاتحين في جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفونهم، فمنع تعذيب الكافرين عذابا أليما من قبل المؤمنين خشية أن يقع في يد المؤمنين من هؤلاء المؤمنين رجال أو نساء يظنونهم مشركين

فيختلط عليهم الأمر فيؤخذ المؤمن مع الكافر، فالسؤال الذي يطرح نفسه: فهؤلاء المؤمنين بشهادة رب العالمين، يعيشون في مجتمع كافر هو مجتمع مكة، مستضعفين لا يعلنون إسلامهم، ما حالهم من ناحية الإقرار؟

فإذا كان الغرض من الإقرار إعلام المؤمنين بأن المسلم منهم، أي الإقرار على نفسه بالإيمان لتجرى عليه أحكام الدنيا بخصوص الإيمان، فيزوّجَ من نساء المؤمنين، ويورث، وما شابه، فإذ لم يأت به هؤلاء الذين اختلطوا بمجتمع الكفر حتى صعب تمييز هؤلاء عن أولئك، حتى على المؤمنين أنفسهم، فهل يقال عنهم أنهم غير مؤمنين إلا أن يقروا؟

والواضح أن الله تعالى وصفهم بالرجال المؤمنين والنساء المؤمنات!

قال الألوسي في تفسيره: قال ابن عطية: لأنه لا إثم ولا دية في قتل مؤمن مستور الإيمان بين أهل الحرب.[137]

وقال ابن عاشور: والظاهر أن المراد بقوله: [لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ] ما يشمل معنى نفي معرفة أشخاصهم ومعنى نفي العلم بما في قلوبهم، فيفيد الأول أنهم لا يعلمهم كثير منكم ممن كان في الحديبيّة من أهل المدينة ومن معهم من الأعراب فهم لا يعرفون أشخاصهم فلا يعرفون من كان منهم

١٣٧) تفسير الألوسي لسورة الفتح.

مؤمناً إن كان يعرفهم المهاجرون، ويفيد الثاني أنهم لا يعلمون ما في قلوبهم من الإيمان أو ما أحدثوه بعد مفارقتهم من الإيمان، أي لا يعلم ذلك كله الجيش من المهاجرين والأنصار.[١٣٨]

وقال ابن عربي في أحكام القرآن: المسألة الثَّالِثَةُ: قَوْله تَعَالَى [وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ] بِمَكَّةَ، فَخِيفَ وَطْؤُكُمْ لَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ لأَدْخَلْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ عَنْوَةً، وَمَلَكْنَاكُمْ الْبَلَدَ قَسْرًا، وَلَكِنَّا صُنَّا مَنْ كَانَ [فِيهَا] يَكْتُمُ إيمَانَهُ خَوْفًا، وَهَذَا حُكْمُ اللَّهِ وَحِكْمَتُهُ،[١٣٩]

يكتم إيمانه: كم مؤمن شهد الله له بالإيمان وهو يكتم إيمانه:

[وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ] غافر ٢٨،

أقول: الإقرار، أو النطق باللسان كما يعبر عنه في التعريفين للإيمان، إن كان المقصود بالمسألة النطق باللسان، كأن يقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه، فهذا بين المرء ونفسه.

---

١٣٨) التحرير والتنوير لابن عاشور تفسير سورة الفتح.

١٣٩) أحكام القرآن ابن عربي سورة الفتح.

أما الإقرار المقابل للإنكار، فهو أن يعترف ويقر بالإيمان، فالسؤال يقر لمن؟ وفي أي ظرف؟ مثلا يقر لقاض؟ أو لشاهد يشهد عليه بالإيمان؟

فإن كان بين المرء ونفسه، فلا يتصور أن يصدق المرء بقلبه التصديق الجازم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وبكل ما جاء به بأنه الحق، ثم لا يقر بينه وبين نفسه، فإذ لم يفعل فهذا علامة على أن ما في قلبه ليس التصديق، فإن وجد التصديق المعتبر في الإيمان كله بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فلا بد معه من أن يقر في قرارة نفسه ولا يجد غضاضة بينه وبين نفسه أن يقول بلسانه أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لكن هذا ليس هو الإقرار الذي وضعوه شرطا أو ركنا في الإيمان، فقد وضحنا فيما سبق من اقتباسات أن المراد به الكافر إذ يدخل الإسلام، يقر لتجرى عليه أحكام الدنيا، فإذا امتنع عن الإقرار كان كافرا كفر عناد.

فهنا في مكة، المؤمنون يكتمون إسلامهم، لا يعرفون لا في المجتمع (لو تزيلوا) أي لو انفصل المؤمنون عن الكفار، فعرفتم هؤلاء وعرفتم أولئك، فهذا يعني أنهم لم يكونوا معلومين، سواء كلهم، أو بعضهم، ففي روايات أن منهم أناسا معلومين مثل أبي جندل بن سهيل بن عمرو رضي الله عنهما، ومثل أبي بصير، لكن لما فتح المسلمون مكة لا شك أنه كان فيها رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لا تعلمونهم أيها المسلمون، فهم مؤمنون قبل أن يقروا ويعلنوا!

كذلك سبق وقررنا أن أبناء المسلمين الذين يولدون على الإسلام لا يطلب منهم الإقرار، إلا في حالات معينة يرى القاضي أن يقررهم بإيمانهم، كالمتهم بالردة مثلا، لكن في الوضع الطبيعي الأصيل لا يطلب من كل فرد في المجتمع أن يقر بأنه مؤمن، وإلا اتهم بالكفر!

فالإقرار إذن شرط لإجراء أحكام الدنيا على العباد، لأن الإيمان يدخل القلب وهو عمل القلب، فاحتيج لمعرفة علامة ما في القلب، فطولب بالإقرار، فإن لم يفعل كان كافرا كفر عناد. واللّه تعالى أعلم.

وفي صحيح البخاري: ثمَّ كتب هِرَقلُ إلى صاحبٍ له برُومِيَةَ، وكان نَظِيرَهُ في العلم. وسارَ هِرَقلُ إلى حِمْصَ، فلم يَرمْ حِمصَ حتى أتاهُ كتابٌ مِن صاحبهِ يُوافقُ رَأْيَ هِرَقلَ على خُروجِ النبيِّ صلى اللّه عليه وسلّم، وأنه نبيٌّ. فأذِنَ هِرَقلُ لعُظماءِ الرُّوم في دَسْكَرَةٍ له بحِمْصَ، ثم أمرَ بأبوابها فَغُلِّقَتْ، ثم اطَّلَعَ فقال: يا مَعْشَرَ الرُّوم، هلْ لكُمْ في الفَلاحِ والرُّشْدِ، وأنْ يَثْبُتَ مُلكُكمْ، فتُبايعوا هذا النبيَّ؟ فحاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إلى الأبوابِ، فوَجَدُوها قد غُلِّقَتْ، فلمّا رَأى هِرَقلُ نَفْرَتَهُمْ، وأيسَ منَ الإيمانِ قال: رُدُّوهمْ عَلَيَّ. وقال: إنِّي قلتُ مَقالَتي آنِفاً أختَبرُ بها شِدَّتَكمْ على دِينِكمْ، فقد رَأَيتُ. فسجَدوا له

ورَضُوا عنه، فكان ذلكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقلَ. رواه صالحُ بنُ كَيْسانَ ويُونُسُ ومَعْمَرٌ عنِ الزُّهريّ.[١٤٠]

فهذا قيصر، كان كحال علماء بني إسرائيل، يعرف النبي صلى الله عليه وسلم بكل علاماته ولم يؤمن لا لأنه لم يقر، فها هو يصفه بالنبي ويدعو رجالات دولته لاتباعه، فإذ أحس منهم النفور، خشي على ملكه فارتد على أدباره، فلم يدخل في الإيمان مع أن معه المعرفة والإقرار، لأنه أولا: لم يتبع فشاقق الرسول صلى الله عليه وسلم، وثانيا: بقي على دين الكفر، رغبة في الدنيا، أي أنه صرح أنه على النصرانية، بعد أن كان صرح بأنه أسلم، وهكذا.

أما أبو طالب فقد وصف القرآن ما عنده بأنه شرك، [مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِى قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجحيم] فالانقياد إن تعلق بالأعمال، لم يكن من الإيمان ولا يترتب على تركه كفر، وإن تعلق بالإيمان، أي تعلق بأعمال القلب، أي بالتصديق، أي بالانقياد للعقيدة نفسها، فإنه يترتب عليه كفر، فمن علم أنه الحق ولم ينقد، كان كافرا، فموقف أبي طالب تعدى مجرد عدم النطق، إذ قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: قلها يا عم أشفع لك بها عند الله، أي أن الأمر كان كاشفا على أن الموضوع ليس مجرد عدم نطق بالشهادتين،

---

١٤٠) صحيح البخاري: كتاب باب كيف بدء الوحي.

ولكن الإيمان لم يغلب مواريث الجاهلية، أي لم ينف الاعتقاد بالآلهة بالكلية، إذ أنه خشي أن يقال: بدل دين آبائه، فما زال في قلبه لذلك الدين إكبار، منعه من القبول الكامل بالحق. لهذا وصفه الله تعالى بالمشرك.

أما كلام النروزي رحمه الله أعلاه، فالمعرفة إن كانت بمعنى الدليل فهي إن تعلقت بأصل الإيمان كانت ضابطا أو قيدا أو احترازا يمنع اعتبار التقليد محمودا في الإيمان، وقيل أنها شرط صحة، وأما المعرفة التي هي صنو العلم، فهي تشبه ما لدى علماء بني إسرائيل لم تكف المعرفة من دون التصديق بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ومعها كذلك منع المشاققة بعد أن تبين الهدى، فهي تغاير التصديق في كون التصديق له مفهوم هنا وهو أنه التصديق بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم على ما سبق وبينا، وهو ممتنع عندهم، كذلك لديهم الجحود، فالمسألة أكبر من الجمع بين المعرفة والإقرار ليتحقق إيمانهم، والله أعلم.

فالخلاصة أن الإقرار، فرض، فرض أن يقول المرء آمنت بالله، وهي شرط للإيمان، أو ركن زائد عليه، فلا تدخل في تعريفه، وأولاد المسلمين الذين ولدوا على هذا الدين، لا يطلب منهم أن يقروا بالشهادتين لاعتبار إيمانهم، في الحالة الطبيعية الأصلية، فالمقصود بالإقرار أن ينطق المرء لتقرير أنه مؤمن، بالشهادتين، وبما أن هذا غير مطلوب من المسلمين أصلا إذ هم أبناء مسلمين، يقومون بذلك في حياتهم من صلاة وذكر، فهي شرط

للإيمان لا ركن لا يتبعض منه، كذلك فمن دخل الإسلام وصدق جزما بأنه الدين الحق، واقتنع به قناعة قاطعة، ولم يتسن له أن ينطق بالشهادتين لعارض، كأن يأتيه أجله قبل ذلك، فهو مؤمن، بخلاف من لم يصدق بالبعث مثلا، مما يدل على أن الإقرار ركن زائد أو شرط، ولا يدخل في تعريف الإيمان.

كذلك بين الحق سبحانه أن أقواما لم يدخل الإيمان قلوبهم، ونطقوا، فلم يغن عنهم الاعتراف والإقرار شيئا، إذ أن أصل الإيمان غير متحقق، مما يدل على أن الإقرار مرحلة لاحقة لدخول الإيمان القلب، وأنه شرط لإقامة أحكام الدنيا، وأنه استجابة لأمر الله بالقول: آمنا.

سابعا: المعرفة والإنكار والجحود:

قال تعالى [وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ] ١٧٩ الأعراف.

عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ. مسند أحمد باقي مسند المكثرين.

حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ صَالِحٍ أَبُو الصَّلْتِ الْهَرَوِيُّ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرِّضَا، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «الإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ

وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ». قَالَ أَبُو الصَّلْتِ: لَوْ قُرِىءَ هـذَا الأسْنَادُ عَلَى مَجْنُونٍ لَبَرَأَ. ابن ماجة، كتاب المقدمة.[١٤١]

وفي البخاري: أتينا عمر في وفد، فجعل يدعو رجلا رجلا ويسميهم، فقلت: ما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى، أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وعرفت إذ أنكروا. فقال عدي: فلا أبالي إذا.

---

١٤١) جاء في مصباح الزجاجة لشهاب الدين البوصيري: قلت: أبو الصلت هذا متفق على ضعفه، واتهمه بعضهم. تابعه محمد بن سهل بن عامر البجلي، ومحمد بن زياد السلمي عن علي بن موسى الرضا. وفي معجم الطبراني الأوسط: لايروى هذا الحديث عن علي إلا بهذا الإسناد تفرد به عبدالسلام بن صالح الهروي. وقال في المسند الجامع: قلنا: لا ندري لماذا لم يبرأ أبو الصلت، مع أنه مؤلف هذا الإسناد، وذاك المتن؟!. وفي تهذيب سنن أبي داود قال: فهذا حديث موضوع ليس من كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وقال علي بن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة: وفيه أبو الصلت عبد السلام بن صالح الهروى وتابعه عبد اللّه بن أحمد بن عامر وعلى بن غراب وتابعه محمد بن سهل البجلى وداود بن سليمان بن وهب الغازى وهما مجهولان وقال الدارقطنى لم يحدث به إلا من سرقه من أبى الصلت (تعقب) بأن أبا الصلت وثقه ابن معين وقال ليس ممن يكذب وقال غيره معدود فى الزهاد وقال فى الميزان صالح إلا أنه شيعى ولم يكن غاليا (قلت) وقال الحاكم فى المستدرك أبو الصلت ثقة مأمون لكن اعترضه الحافظ العراقى فقال كيف يلتئم هذا مع قوله يعنى الحاكم فى المدخل إن أبا الصلت هذا روى عن حماد بن زيد وأبى معاوية وعباد بن العوام وغيرهم أحاديث مناكير واللّه أعلم وقد أخرج الحديث من طريقه ابن ماجه فى سننه والبيهقى فى الشعب وعلى بن غراب وثقه ابن معين قال أحمد كان يدلس وما أراه إلا كان صدوقا وروى له النسائى وابن ماجه وقال الخطيب تكلم فيه لأنه كان غاليا فى التشيع وأما رواياته فوصفوه بالصدق (قلت) وقال الحافظ ابن حجر فى التقريب أفرط ابن حبان فى تضعيفه واللّه أعلم

وفي مسلم: إنه يستعمل عليكم أمراء. فتعرفون وتنكرون. فمن كره فقد برئ. ومن أنكر فقد سلم. ولكن من رضى وتابع (قالوا: يا رسول اللّه! ألا نقاتلهم؟ قال (لا. ما صلوا) (أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه). وفي رواية: بنحو ذلك. غير أنه قال (فمن أنكر فقد برئ. ومن كره فقد سلم.).

وفي صحيح مسلم: جاء هذا إلى ابن عباس (يعني بشير بن كعب). فجعل يحدثه. فقال له ابن عباس: عد لحديث كذا وكذا. فعادله. ثم حدثه. فقال له: عد لحديث كذا وكذا. فعادله. فقال له: ما أدري، أعرفت حديثي كله وأنكرت هذا؟ أم أنكرت حديثي كله وعرفت هذا؟ فقال له ابن عباس: إنا كنا نحدث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذ لم يكن يكذب عليه. فلما ركب الناس الصعب والذلول، تركنا الحديث عنه.

وفي صحيح مسلم: كنا عند عمر. فقال: أيكم سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة. ولكن أيكم سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم يذكر الفتن التي تموج موج البحر. قال حذيفة: فأسكت القوم. فقلت: أنا. قال: أنت، للّه أبوك! قال حذيفة: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا. فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء. وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء. حتى تصير على قلبين، على أبيض

مثل الصفا. فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مربادا، كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا. إلا ما أشرب من مراه". قال حذيفة: وحدثته؛ أن بينك وبينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر. قال عمر: أكسرا، لا أبا لك! فلو أنه فتح لعله كان يعاد. قلت: لا. بل يكسر. وحدثته؛ أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت. حديثا ليس بالأغاليط.

وفي صحيح مسلم: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تقطع يدها، فأتى أهلها أسامة بن زيد فكلموه. فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها.

ثامناً: التحقيق في معاني المعرفة في كلام الأصوليين:

لنفهم مسألة المعرفة فإن لها مداخل في كلام الأصوليين والفقهاء حين تعلقها بالعقيدة وهذه المداخل هي:

أولا: المعرفة بأدلة الإيمان، هل يلزم على المؤمن أن يتعلم أدلة المتكلمين وموجبات العقول، وأن يكون لديه معرفة يستطيع بها أن يرد على الشبهات المثارة حول كل قضية من قضايا الإيمان، فهذا النوع من المعرفة هو الذي قال فيه الكشميري أنه لم يشترطه الفقهاء في الإيمان، بمعنى أن على المسلم أن يعرف أدلة جملية، تكفي لنقل إيمانه إلى القطع وأن تنفي عنه الشك وتجعله راسخا.

قال الكشميري: المعرفة أقرب من العلم وليست بإيمان، بل هي من مقدماته. وقال المعتزلة: إن المعرفة الحقة اليقينية شرط للإيمان كما مر، لأنه لا إيمان عندهم إلا بالاستدلال المفيد للقطع. وعندنا يكفي له الجزم وإن حصل بالتقليد، والاستدلال غير ضروري[١٤٢]. ونقل النووي ههنا عن

---

١٤٢) ناقشنا مسائل التقليد والاستدلال في كتاب أدلة الاعتقاد، ومقصودهم هنا تعلم أدلة المتكلمين وموجبات العقول، والنظر على طريق المتكلمين من تحرير الأدلة وتدقيقها ودفع الشكوك والشبه عنها، هل يحتاج للأدلة التفصيلية أم الأدلة الجُملية، وهل يترتب على ذلك

القاضِي عِياض: أن الإيمان يزيد وينقص لزيادة المعرفة ونقصانها، فدل على أنها غير الإيمان، وهذا صحيح جداً. وحينئذٍ تردد النظر في محلها هو القلب، أو الدماغ. نعم، المعرفة المكتسبة التي تحصل بعد الرياضات، وهي الإيمان الكامل، لا شك أن محلها القلب. وعلى هذا لو قال المصنف رحمه اللّه في الترجمة الآتية: وإن الإيمان فعل القلب، لكان أحسن".[١٤٣] فهنا الكلام عن أدلة الاعتقاد.

ثانيا: المعرفة التي تقابل العلم، هذه المعرفة تنقسم إلى نوعين: نوع اضطراري ونوع اختياري، فالنوع الاضطراري كأن تبصر جدارا فتتكون لديك معرفة إضطرارية أي ليست باختيارية بأنه موجود، أو أن يأتي بني إسرائيل آيات ومعجزات تثبت لهم أن محمدا صلى اللّه عليه وسلم هو المذكور في كتبهم، فتقع في قلوبهم معرفة اضطرارية أنه هو، قال عنها الحق سبحانه: [يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءهُمْ] فهي ليست بفعلٍ بالمعنى اللغوي، لأن أهلَ اللغةِ لا يسمون فعلاً إلا الاختياري، كما قال الكشميري رحمه اللّه، فالمعرفة الاختيارية التي هي فعل القلب، تتحصل بالنظر وهي هي الإيمان، قال

إثم؟ أم لا يدخل في مسمى الإيمان؟ وبينا أنه بحاجة لأدلة جملية تدفع الشك عن أصل الإيمان وتتآى به عن التقليد وعن الشكوك.

١٤٣) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

الكشميري في فيض الباري: باب قَوْلُ النبي صلى الله عليه وسلّم «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ»

العلمُ، والمعرفةُ، واليقينُ قد يطلق على الأحوال أيضاً، والعلوم لا تكون أحوالاً إلا بعد استيلائها، وحينئذٍ تكون عينَ الإيمان، وهو المراد في قوله صلى الله عليه وسلّم «من ماتَ وهو يعلمُ أن لا إله إلا اللَّهُ»... إلخ، فالعلم ههنا بمعنى الإيمان، أي يؤمنُ بتلك الكلمة.... (وأن المعرفة فعل القلب)إن كان المرادُ من المعرفة هي الاضطرارية، كما في قوله تعالى: [يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءهُمْ] فهي ليست بفعلٍ بالمعنى اللغوي، لأن أهلَ اللغةِ لا يسمون فعلاً إلا الاختياري، وإن كان المرادُ منها ما تتقررُ بعد التكرر، وتغلبُ على الجوارح، وتكونُ مكسوبة، فهي فعلُ القلب قطعاً، وعينُ الإيمان، إلا أن الأوضحَ حينئذٍ أن يقول: وإن الإيمان فعل القلب، لأنه أدلُ على مراده، ولكنه يتفنَنُ في أداء المقصود، فتارة، وتارة. وهو المراد بما نُقل عن إمامنا رضي اللّه تعالى عنه في «الإحياء»: أن الإيمان معرفة، وهكذا رُوي عن أحمد رضي اللّه تعالى عنه أيضاً، إلا أنه إذا نُقل عن الإمام الهُمام رحمه اللّه تعالى جعلوا يُنكرونَ عليه، وإذا جاء عن أحمد رحمه اللّه تعالى مروا به كِرَاماً.

أصم عن الشيء الذي لا أريده *** وأسمع خلق اللّه حين أريد

وقد مر نُبذة من الكلام عند تحقيقِ محل الإيمان، وإن الأولى أن يقول المصنف رحمه اللّه تعالى: وإن الإيمانَ فعلُ القلب، فراجعه. وقد يتخايل أنه أراد منه الردَ على المعتزلة، فإنهم قائلون: بأن المعرفةَ أولُ الواجبات، ثم الإيمان كما مر، فالمصنفُ يردٌّ عليهم بأن المعرفة هي فعلُ القلب، فتكون عينَ الإيمان، فهي الواجبُ الأول، لا أن المعرفةَ أمرٌ وراءَ الإيمان[١٤٤]، لتكون أولَ الواجبات هي، ثم يكون الإيمانُ بعده واجباً آخر.[١٤٥]

فالمعرفة هنا هي العلم، وهي الإيمان، وهي ما عبرنا عنه في شرح التصور والتصديق بأنها مرحلة انقضاء التصور وحصول التصديق:

قال الأستاذ هشام البدراني: (المعرفة أخص من العلم وهي إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره لأنها تأتي عن طريق الإحساس بالشيء أي الإحساس بذات الشيء والتفكر بالذات المحسوسة أو بأثر الشيء، وتميزه عن غيره من الأشياء، فتكون حكماً بعد تدبر لأثره، فيضاد المعرفة الإنكار، لأن فيها الحكم بالنفي أو الحكم بالإثبات، وسبيل المعرفة إدراك المعقولات بذواتها أو الحكم على وجودها وذلك بما يتوفر للإنسان من علم في موضوع الإدراك،

---

١٤٤) يقصد هنا المعرفة حسب المفهوم الأول أي أدلة الاعتقاد، فهي تسبق الإيمان، فهي أول الواجبات بهذا المعنى وهي الإيمان بالمعنى الثاني.

١٤٥) الكشميري في فيض الباري

وإن لم يكن لديه علم فهو جاهل بموضوع النظر ابتداء فلا تتكون لديه معرفة.

والعلم أعم من المعرفة ويضاده الجهل، والعلم إدراك الشيء بحقيقته؛ أي ما يحصل في الذهن من تمثل الواقع المحسوس أو المحسوس أثره بالحكم عليه، وهو على ضربين:

١. التصديق، وهو أن يأخذ الحكم صفة النفي أو صفة الإثبات،
٢. التصور: وهو إذا لم يأخذ الحكم صفة الإثبات أو النفي أي يتأتى تمثل الواقع في الذهن من غير الحكم عليه بنفي أو إثبات والتصديق هو المعتبر في المعرفة، ويسقط التصور من الإعتبار أي لا يعتد في تكوين المعرفة إلا بالتصديق، والتصور لا يعتد به لأنه لا قيمة فكرية له في الإدراك، فهو لا يصلح للتفكير ولإنتاج الأفكار، والسبب في ذلك أنه لم يثبت في الذهن بحكم ولم ينف ضده بحكم، فهو مهتز غير مستقر في الذهن، في حين يتكون التصديق من فكر في الذهن ومن معنى يعبر عن الواقع. مثال ذلك إذا وقفت فوق جسر ورأيت قطعة سوداء تجري مع الماء فتطلق عليها أنها شجرة أو بقرة، وكلما اقتربت منك أصدرت حكماً عليها ولما تصير في الحواس على الدقة والوضوح يتبين لك أنها شيء آخر، فالمعنى الخارجي لم يتغير مع تغير اللفظ، فدل على أن الذي تغير تصورنا للشيء، وهو ما حصل في الذهن من تمثل الواقع، ولكن بالمطابقة

يتحول التصور إلى إدراك حقيقة الشيء كما هي في الواقع الخارجي، لهذا لم يصلح التصور للتفكير، حتى صار التصديق وهو مطابقة ما في الذهن لواقعه الخارجي.

ويتحول العلم إلى معرفة في الذهن عندما يتحول فكره إلى دلالة تمثلت الواقع بالحكم عليه في ذهن الإنسان وهذه المعرفة تصدر من الإدراك، أي إدراك الإنسان للأشياء حين العلم بها وهو يقصد التعلم والفهم. فالعلم الذي يكون المعرفة التي تفيد إثبات الحكم بوجود الشيء سلفاً نفياً له من العدم: سماع تغريد البلابل وزقزقة العصافير فوق الشجر، فنحكم بوجودها عن طريق نفي العدم، لأن الصوت أثر دال على وجود، والعدم الذي كان بسبب السكون وهدوء الأجواء قبله فكان الأثر دالا على المؤثر ووجوده، ويقابل هذا العلم الجهل بألوانها وأشكالها وأحجامها، لأننا لم نلمس ذاتها مع أننا نحس بأثرها ونتنبه له، وندرك من خلاله وجودها، ومن العلم الذي يكون المعرفة التي تفيد تمييز الأشياء تمييز السكون من وجود الصوت، وتمييز الظلام من وجود الضوء. أما العلم الذي يكون المعرفة التي تفيد الحكم على الواقع بإثبات الحكم عليه باسمه وصفته: فهو من الضرورة

بحيث لا يحتاج إلى عمق تفكر، كمعرفة أن الكل أكبر من الجزء، وأن الأبيض غير الأسود.)[146]

ثالثا: قال الإمام أبو حنيفة: (إن الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله تعالى وبرسله وبما جاء من الله تعالى ورسله في الجملة دون التفصيل وإنه لا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل الناس فيه)[147] هذا الرأي، إن صح عن الإمام أبي حنيفة، فإن لنا معه وقفة مهمة جدا، وهي التساؤل، ما حال الرجل الذي اقتنع بأصل الدين، اقتنع قناعة قاطعة بوجود الله وبأنه أرسل الرسل، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم نبيه ورسوله، يأتيه وحي من السماء، قرآنا فيه عقائد وتشريعات، وأخبار، وأن كل ما يأتي عن طريق هذا النبي الأمي حق، ثم انطلق هذا الرجل، فهل عنده الإيمان؟

سأجيب على هذا السؤال في فصل: مدرستان في النظر إلى طبيعة الإيمان. إن شاء الله وهو غاية في الأهمية.

---

١٤٦) الحكم الشرعي في بحث أسماء الله وصفاته. هشام البدراني ١١١-١١٥

١٤٧) الفرق بين الفرق. ج ١ ص ١٩١

تاسعاً: علاقة التصديق والمعرفة والجحود والإنكار بالإيمان:

الآن لنبسط مسألة أخرى هي التصديق وعلاقته بالانكار والجحود، هل يكون العارف الجاحد مصدقا؟ مثلا إبليس أو حيي بن أخطب وهما يعلمان يقينا صدق الرسول عليه الصلاة والسلام هل ما لديهم هو التصديق؟ أم أنه يوجد فرق بين التصديق والمعرفة؟

حاول بعض أهل العلم الربط بين الحكم الصادر عن مطابقة النسبة الخبرية التامة وبين الإذعان والقبول، فبحصول المجموع يوجد التصديق اللغوي كما أطلقوا عليه وهو عينه التصديق المنطقي، نسبة إلى المنطق.

ثم هناك معرفة ضد الجهل، قالوا أنها لا تستلزم وجود التصديق لأن من يعرف ليس بالضرورة مصدقا لما عرف، لانتفاء الإذعان أحيانا، أو لأن المرء وهو في طور تحصيل العلم يمر بالمراحل الأربع السابق ذكرها للانتقال من التصور إلى التصديق، فالمعرفة قد توجد بالتصور فإن جمعنا لها التصديق انتقلت إلى العلم أو الايمان، هكذا يرون، ويرون أيضا أن وجود التكذيب لدى المعاند يبين أنه غير مصدق، فلا اجتماع بين التصديق والتكذيب في نفس،، وكذلك يرون أنه ثمة فرق بين المعرفة اليقينية وبين التصديق اللغوي، فمطابقة الواقع بالمعلومات السابقة الموجودة في الدماغ عن هذا الواقع لدى الاحساس به لا يوجد تصديقا لديهم بل يوجد معرفة يقينية، فأنت

عندما ترى حصانا وتقارن المعلومات السابقة في الدماغ عن هذا الكائن لتعلم أنه حصان فهذا الذي تكون لديك يسمونه المعرفة اليقينية ولا يدخلونها في التصديق إذ أن التصديق يكون في حقائق تستلزم إذعانا وتسليما، وهذه الأخيرة أي قولي أن التصديق يكون في حقائق تستلزم إذعانا هو من فهمي لما قالوه ولست بجازم فيه، راجع أقوالهم في باب التصديق والتصديق المنطقي:

قال الإمام أبو حنيفة: (إن الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله تعالى وبرسله وبما جاء من الله تعالى ورسله في الجملة دون التفصيل وإنه لا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل الناس فيه)[١٤٨]

(فأبو حنيفة وأصحابه يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله والإقرار بالله والمعرفة بالرسول والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير، وذكر أبو عثمان الآدمي أنه اجتمع أبو حنيفة وعمر بن أبي عثمان الشمزي بمكة، فسأله عمر فقال له أخبرني عمن زعم أن الله سبحانه حرم أكل الخنزير غير أنه لا يدري لعل الخنزير الذي حرمه الله ليس هي هذه العين فقال مؤمن، فقال له عمر: فإنه قد زعم أن الله قد فرض الحج إلى الكعبة غير أنه لا يدري لعلها كعبة غير هذه بمكان كذا، فقال هذا مؤمن؛ قال فإن قال أعلم

١٤٨) الفرق بين الفرق. ج ١ ص ١٩١

أن الله سبحانه بعث محمداً وأنه رسول الله، غير أنه لا يدري لعله هو الزنجي، قال هذا مؤمن ولم يجعل أبو حنيفة شيئاً من الدين مستخرجاً إيماناً وزعم أن الإيمان لا يتبعض ولا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل الناس فيه.)[١٤٩] .

---

١٤٩) مقالات الإسلاميين ج: ١ ص: ١٣٩ وللتحقيق في مفهوم الايمان عند الامام أبي حنيفة نقول: قال ابن عابدين في رد المحتار على الدر المختار: مَطْلَبٌ فِي قَوْلِ الْإِمَامِ إيمَانِي كَإِيمَانِ جِبْرِيلَ (قَوْلُهُ كَإِيمَانِ جِبْرِيل) فَإِنَّ الْحَقِيقَةَ فِي الْفَرْدَيْنِ وَاحِدَةٌ وَهِيَ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ (قَوْلُهُ لَا مِثْلَ إيمَانِ جِبْرِيل) لِزِيَادَتِهِ فِي الصِّفَةِ مِنْ كَوْنِهِ عَنْ مُشَاهَدَةٍ فَيَحْصُلُ بِهِ زِيَادَةُ الِاطْمِئْنَانِ كَمَا أُشِيرَ إلَيْهِ فِي قَوْله تَعَالَى [قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى] الْآيَةَ. وَبِهِ يَحْصُلُ زِيَادَةُ الْقُرْبِ وَرَفْعُ الْمَنْزِلَةِ، لَكِنْ مَا نُقِلَ عَنْ الْإِمَامِ هُنَا يُخَالِفُهُ مَا فِي الْخُلَاصَةِ مِنْ قَوْلِهِ: قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: أَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ إيمَانِي كَإِيمَانِ جِبْرِيلَ، وَلَكِنْ يَقُولُ آمَنْ بِمَا آمَنَ بِهِ جِبْرِيلُ ا هـ وَكَذَا مَا قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ فِي كِتَابِ الْعَالِمِ وَالْمُتَعَلِّمِ إنَّ إيمَانَنَا مِثْلُ إيمَانِ الْمَلَائِكَةِ لِأَنَّا آمَنَّا بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمِثْلِ مَا أَقَرَّتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ وَصَدَّقَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ، فَمِنْ هَاهُنَا إيمَانُنَا مِثْلُ إيمَانِهِمْ لِأَنَّا آمَنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ آمَنَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ مِمَّا عَايَنَتْهُ مِنْ عَجَائِبِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ نُعَايِنْهُ نَحْنُ، وَلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْنَا فَضَائِلُ فِي الثَّوَابِ عَلَى الْإِيمَانِ وَجَمِيعِ الْعِبَادَاتِ إلَخْ. وَلَا يَخْفَى أَنَّ بَيْنَ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ الثَّلَاثِ تَخَالُفًا بِحَسَبِ الظَّاهِرِ. وَيُمْكِنُ التَّوْفِيقُ بِحَمْلِ الْأُولَى عَلَى الْعَالِمِ لِأَنَّهُ قَالَ: أَقُولُ إيمَانِي كَإِيمَانِ جِبْرِيلَ وَلَا أَقُولُ مِثْلَ إيمَانِ جِبْرِيلَ. وَالثَّانِيَةُ عَلَى غَيْرِهِ لِقَوْلِهِ: أَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ. وَالثَّالِثَةُ عَلَى مَا إذَا فَصَّلَ، وَصَرَّحَ بِالْمُؤْمِنِ بِهِ وَإِنْ كَانَ بِلَفْظِ الْمِثْلِيَّةِ لِعَدَمِ الْإِيهَامِ بَعْدَ التَّصْرِيحِ، فَيَجُوزُ لِلْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ" (*) رد المحتار على الدر المختار > كتاب الطلاق > باب صريح الطلاق.

وقد قال الشهرستاني في كتابه الملل والنحل حول رأي الامام ابي حنيفة ما يلي: { كان يقال لابي حنيفة مرجئة السنة، وعده كثير من اصحاب المقالات من جملة المرجئة، ولعل السبب فيه أنه لما كان يقول: الايمان هو التصديق بالقلب وهو لا يزيد ولا ينقص، ظنوا انه

يؤخر العمل عن الايمان. والرجل مع تخريجه في العمل [أي كونه مجتهدا عمله استخراج الاحكام العملية الفروعية من ادلتها التفصيلية] كيف يفتي بترك العمل ! وله سبب آخر، وهو انه كان يخالف القدرية والمعتزلة الذين ظهروا في الصدر الاول. والمعتزلة كانوا يلقبون كل من خالفهم في القدر مرجئا وكذلك الوعيدية من الخوارج. فلا يبعد ان يكون اللقب انما لزمه من فريقي المعتزلة والخوارج والله اعلم.(**) كتاب الملل والنحل لابي الفتح الشهرستاني –دار المعرفة –بيروت لبنان – تحقيق محمد سيد كيلاني. ١٤١ /١

وقال الكشميري في فيض الباري شرح صحيح البخاري باب الإيمان: ونسب ابن عابدين الشامي إلى الإمام الأعظم رحمه الله تعالى عدم جواز الكاف والمثل كليهما في تلك العبارة. وفي «الدر المختار» عن أبي حنيفة ومحمد رحمهما الله تعالى جواز الكاف دون المثل في رواية، وفي رواية أخرى الجواز مطلقاً. وجمعهما ابن عابدين أن جوازَ الكاف دون المثل لمن كان عالم العربية، وعدم جوازهما فيما لم يكن المخاطب صحيح الفهم، وجوازهما باعتبار نفسهما. وليراجع البحث من كتابه من باب الطلاق الصريح.

قلت: وفي «خلاصة الفتاوى» وجدت نقلاً عن محمد فقط، وعلى هذا لم تجيء في هذا الباب رواية عن الإمام رحمه الله تعالى وثبت النفي عن الصاحبين، وظاهره يدل على إثبات التفاوت في درجات المؤمنين بحسب الإيمان انتهى

وفي البحر الرائق شرح كنز الدقائق: فقد فرقوا هنا بين الكاف و «مثل» بناء على أن الكاف للتشبيه في الذات و «مثلاً» للتشبيه في الصفات، ولذا نقل عن الإمام الأعظم رضي الله عنه أنه قال: أيماني كأيمان جبريل عليه السلام ولا أقول أيماني مثل أيمان جبريل صلوات الله عليه وسلامه. انتهى

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: الناس في الاستثناء في الايمان على ثلاثة أقوال: قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه، لا يقول واحد منهم أن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل والبخاري في أول صحيحه بوّب أبواباً في «الإيمان والرد على المرجئة» وقد ذكر بعض من صنف في هذا الباب من أصحاب أبي حنيفة، قال: وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد كرهوا أن يقول الرجل: إيماني كإيمان جبريل وميكائيل -

قال محمد: لأنهم أفضل يقيناً ـ أو إيماني كإيمان جبريل، أو إيماني كإيمان أبي بكر، أو كإيمان هذا، ولكن يقول آمنت بما آمن به جبريل وأبو بكر.

وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الاستثناء في الإيمان بكون الأعمال منه، ويذمون المرجئة، والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض، ولا اجتناب المحارم؛ بل يكتفون بالإيمان، وقد علل تحريم الاستثناء فيه بأنه لا يصح تعليقه على الشرط؛ لأن المعلق على الشرط لا يوجد إلا عند وجوده، كما قالوا في قوله: أنت طالق إن شاء الله، فإذا علق الإيمان بالشرط كسائر المعلقات بالشرط لا يحصل إلا عند حصول الشرط. انتهى.

وروى الألكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة باب قول الطبقة الثالثة من الفقهاء: أنا محمد بن الحسن بن محمد الوراق، قال: نا أحمد بن خلف، قال: أنا أبو إسماعيل يعني الترمذي قال: سمعت إسحاق بن محمد، يقول: كنت عند مالك بن أنس، فسمعت حماد بن أبي حنيفة، يقول لمالك: « يا أبا عبد الله، إن لنا رأيا نعرضه عليك، فإن رأيته حسنا مضينا عليه، وإن رأيته غير ذلك كففنا عنه، قال: وما هو؟ قال: يا أبا عبد الله، لا نكفر أحدا بذنب، الناس كلهم مسلمون عندنا، قال: ما أحسن هذا، ما بهذا بأس، فقام إليه داود بن أبي زنبر، وإبراهيم بن حبيب، وأصحاب له، فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عبد الله، إن هذا يقول بالإرجاء، قال: ديني مثل دين الملائكة المقربين، وديني مثل دين جبريل وميكائيل والملائكة المقربين، قال: لا والله: الإيمان يزيد وينقص {ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم} وقال إبراهيم: {رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي} فطمأنينة قلبه زيادة في إيمانه». ورواه القاضي عياض في ترتيب المدارك وتقريب المسالك: قال الفروي سمعت ابن أبي حنيفة يقول لمالك إن لنا رأياً نعرضه عليك فإن رأيته حسناً مضينا عليه وإن رأيته سيئاً تنكبنا عنه لا نكفر أحداً بذنب... الخ. وقال الكشميري في فيض الباري: وإمامنا وإن لم يجعل الأعمال جزءاً، لكنه اهتم بها وحرَّضَ عليها، وجعلها أسباباً سارية في نماء الإيمان، فلم يهدُرها هَدْرَ المرجئة، إلا أن تعبيرَ المُحدِّثين القائلين بجزئية الأعمال، لما كان أبعد من المرجئة المنكرين جزئية الأعمال، بخلاف تعبير إمامنا الأعظم رحمه الله تعالى، فإنه كان أقرب إليهم من حيث نفي جزئية الأعمال، رُمِي الحنفية بالإرجاء. وهذا كما ترى جور علينا فالله المستعان. ولو كان الاشتراك بوجه من الوجوه التعبيرية كافياً لنسبة الإرجاء إلينا، لزم

قال ابن تيمية: قال الإمام أحمد رضي الله عنه: (وأما من زعم أن الإيمان الإقرار فما يقول في المعرفة[150] هل يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار وهل يحتاج أن يكون مصدقاً بما عرف فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار فقد زعم أنه من شيئين [أي الإيمان؛ في موضوع تبعض الإيمان وانتفائه أو عدم انتفائه بانتفاء بعضه]، وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقراً ومصدقاً بما عرف فهو من ثلاثة أشياء، وإن جحد وقال لا يحتاج إلى المعرفة والتصديق فقد قال قولا عظيماً، ولا أحسب أحداً يدفع المعرفة والتصديق وكذلك العمل مع هذه الأشياء... وأحمد ذكر أنه لابد من المعرفة والتصديق مع الإقرار وقال أن من جحد المعرفة والتصديق فقد قال قولا عظيماً، فإن فساد هذا القول معلوم من دين الإسلام، ...

وأحمد رضي الله عنه فرق بين المعرفة التي في القلب[151] وبين التصديق الذي في القلب فإن تصديق اللسان هو الإقرار وقد ذكر ثلاثة أشياء، وهذا يحتمل شيئين يحتمل أن يفرق بين تصديق القلب ومعرفته،

نسبة الاعتزال إليهم، فإنهم قائلون: بجزئية الأعمال أيضاً كالمحدثين، ولكن حاشاهم والاعتزال، وعفا الله عمن تعصب ونسب إلينا الإرجاء، فإن الدين نُصْحٌ كله، لا مُرَامَاة ومُنابذة بالألقاب. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

١٥٠) المعرفة هنا بمعنى الاستدلال على الحقائق المطلوب الإيمان بها.

١٥١) الاستدلال مرحلة سابقة للعلم أو الإيمان، فالمعرفة هنا بمعنى الاستدلال بينها وبين التصديق فرق من حيث أنها تسبقه ولا يتحقق إلا بها.

وهذا قول ابن كلاب والقلانسى والأشعري، وأصحابه يفرقون بين معرفة القلب وبين تصديق القلب فإن تصديق القلب قوله وقول القلب عندهم ليس هو العلم بل نوعاً آخر.

...والذين قالوا الإيمان هو الإقرار فالإقرار باللسان يتضمن التصديق باللسان والمرجئة لم تختلف أن الإقرار باللسان فيه التصديق فعلم أنه أراد تصديق القلب ومعرفته مع الإقرار باللسان إلا أن يقال أراد تصديق القلب واللسان جميعاً مع المعرفة والإقرار ومراده بالإقرار الالتزام لا التصديق [ابن تيمية يناقش المتكلمين هنا] كما قال تعالى [وَإِذْ أَخَذَ اللّه مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ] ٨١ آل عمران فالميثاق المأخوذ على أنهم يؤمنون به وينصرونه وقد أمروا بهذا وليس هذا الإقرار تصديقاً فإن اللّه تعالى يخبرهم بخبر بل أوجب عليهم إذا جاءهم ذلك الرسول أن يؤمنوا به وينصروه فصدقوا بهذا الإقرار والتزموه فهذا هو إقرارهم والإنسان قد يقر للرسول بمعنى أنه يلتزم ما يأمر به مع غير معرفة ومن غير تصديق له بأنه رسول اللّه، ...ولفظ الإقرار يتناول الالتزام والتصديق ولابد منهما وقد يراد بالإقرار مجرد التصديق بدون التزام الطاعة، والمرجئة تارة يجعلون هذا هو الإيمان وتارة يجعلون الإيمان التصديق والالتزام معاً، هذا هو الإقرار الذي

يقوله فقهاء المرجئة إنه إيمان وإلا لو قال أنا أطيعه ولا أصدق أنه رسول الله أو أصدقه ولا التزم طاعته لم يكن مسلماً ولا مؤمناً عندهم، وأحمد قال: [وهذا ما يراه ابن تيمية] لابد مع هذا الإقرار أن يكون مصدقاً وأن يكون عارفاً وأن يكون مصدقاً بما عرف وفى رواية أخرى مصدقاً بما أقر وهذا يقتضي أنه لابد من تصديق باطن ويحتمل أن يكون لفظ التصديق عنده[١٥٢] يتضمن القول والعمل جميعاً كما قد ذكرنا شواهده أنه يقال صدق بالقول والعمل، فيكون تصديق القلب عنده يتضمن أنه مع معرفة قلبه أنه رسول الله قد خضع له وانقاد، فصدقه بقول قلبه وعمل قلبه محبة وتعظيماً، وإلا فمجرد معرفة قلبه أنه رسول الله مع الإعراض عن الانقياد له ولما جاء به إما حسداً وإما كبراً وإما لمحبة دينه الذي يخالفه وإما لغير ذلك فلا يكون إيماناً، ولابد في الإيمان من علم القلب وعمله، فأراد احمد بالتصديق أنه مع المعرفة به صار القلب مصدقاً له تابعاً له محباً له معظماً له، فإن هذا لابد منه ومن دفع هذا عن أن يكون من الإيمان فهو من جنس من دفع المعرفة من أن تكون من الإيمان، وهذا أشبه بأن يحمل عليه كلام أحمد لأن وجوب انقياد القلب مع معرفته ظاهر ثابت بدلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة بل ذلك معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، ...وأيضا فإن الفرق بين معرفة

---

١٥٢) أي عند الإمام أحمد، فقد نقل عنه أنه تصديق ومعرفة وإقرار.

القلب وبين مجرد تصديق القلب الخالي عن الانقياد الذي يجعل قول القلب أمر دقيق واكثر العقلاء ينكرونه وبتقدير صحته لا يجب على كل أحد أن يوجب شيئين لا يتصور الفرق بينهما واكثر الناس لا يتصورون الفرق بين معرفة القلب وتصديقه، ويقولون إن ما قاله ابن كلاب والأشعري من الفرق كلام باطل لا حقيقة له، وكثير من أصحابه اعترف بعدم الفرق وعمدتهم من الحجة إنما هو خبر الكاذب، قالوا ففي قلبه خبر بخلاف علمه فدل على الفرق، فقال لهم الناس ذاك بتقدير خبر وعلم ليس هو علماً حقيقياً ولا خبراً حقيقياً، ولما أثبتوه من قول القلب المخالف للعلم والإرادة إنما يعود إلى تقدير علوم وإرادات لا إلى جنس آخر يخالفها، ولهذا قالوا إن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بقلبه خبر بخلاف علمه، وإنما يمكنه أن يقول ذلك بلسانه وأما أنه يقوم بقلبه خبر بخلاف ما يعلمه فهذا غير ممكن. ...والمقصود هنا أن الإنسان إذا رجع إلى نفسه عسر عليه التفريق بين علمه بأن الرسول صادق وبين تصديق قلبه تصديقاً مجرداً عن انقياد وغيره من أعمال القلب بأنه صادق)[١٥٣]

قال الكشميري في فيض الباري شرح صحيح البخاري: " ونُقِل عن إمام الحرمين رحمه الله تعالى وعن الأشعري رحمه الله تعالى أيضاً كما في

---

١٥٣) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٩٤-٤٠٠

«المسايرة»: أنّ الإيمانَ كلامٌ نفسيٌ، وكأنهم أرادوا به: أن القلب إذا تكلَّمَ بكلمة الشهادةِ وأذعن بها فقد تم الإيمان، لأنه لا يمكن منه الجحود بعده، بخلاف الإقرار باللسان، فإنه يمكن الجحود بعده أيضاً. فالإيمان على هذا التقدير ليس عِلماً من العلوم، بل قول من أقوال القلب. فقول القلب تصديقٌ وإيمان عندهم، وقول اللسان إقرار. ويمكن أن يُحْمَل عليه قول مَنْ قال: إن الإيمانَ قولٌ وعملٌ. ولست أريدُ أنّه مراد البخاري رحمه اللّه تعالى أو المحدثين، بل أريدُ أن له وجهاً أيضاً. وأما ما نُقل عن إمامنا رحمه اللّه تعالى: أن الإيمان معرفة.

فالمراد منه المعرفةُ المصطلحةُ عند الصوفية رحمهم اللّه تعالى، وهي التي تحدثُ بعد الرياضات، وهي الإيمان الكامل. وتلك لا تجامِعُ الجحود أصلاً، بل قلما توجد في قلوب عامة المسلمين، وليس المرادُ منها المعرفة اللغوية ونحوه."

وقال في موضع آخر: "وأما محل المعرفة فذهب المصنف رحمه اللّه تعالى: إلى أنها في القلب.

أقول (الكشميري): المعرفة أقرب من العلم وليست بإيمان، بل هي من مقدماته[154]. وقال المعتزلة: إن المعرفة الحقة اليقينية شرط للإيمان كما مر، لأنه لا إيمان عندهم إلا بالاستدلال المفيد للقطع. وعندنا يكفي له الجزم وإن حصل بالتقليد، والاستدلال غير ضروري[155]. ونقل النووي ههنا عن القاضِي عِيَاض: أن الإيمان يزيد وينقص لزيادة المعرفة ونقصانها، فدل على أنها غير الإيمان، وهذا صحيح جداً. وحينئذٍ تردد النظر في محلها هو القلب، أو الدماغ. نعم، المعرفة المكتسبة التي تحصل بعد الرياضات، وهي الإيمان الكامل، لا شك أن محلها القلب. وعلى هذا لو قال المصنف رحمه اللّه في الترجمة الآتية: وإن الإيمان فعل القلب، لكان أحسن".[156]

---

١٥٤) المعرفة هنا بمعنى الاستدلال.

١٥٥) ناقشنا مسائل التقليد والاستدلال في كتاب أدلة الاعتقاد، ومقصودهم هنا تعلم أدلة المتكلمين وموجبات العقول، والنظر على طريق المتكلمين من تحرير الأدلة وتدقيقها ودفع الشكوك والشبه عنها، هل يحتاج للأدلة التفصيلية أم الأدلة الجُملية، وهل يترتب على ذلك إثم؟ أم لا يدخل في مسمى الإيمان؟ وبينا أنه بحاجة لأدلة جملية تدفع الشك عن أصل الإيمان وتنآى به عن التقليد وعن الشكوك.

١٥٦) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

وقال: المَعْرِفَةُ[157] شرطٌ في الإيمان أم لا؟ فالمشهور عن الأئمة الأربعة رحمهم اللّه: أنها ليست بشرط، بخلاف المعتزلة فإنها شرط عندهم، ومعناه عندهم: أن يكون عنده من الدلائل على التوحيد والرسالة ما يوجب اليقين، بحيث لا يزولُ بتشكيكِ المشكِّك، ويجبُ عند أئمتنا اليقين، ولا يجب سُنُوحُ الدلائل معه، وهو الحق، فإنه يُعلم من الصحيحين العبرةُ بإسلام رجالٍ أسلموا في الحروب والسيوف تلمع عليهم. وكذلك أمرنا أنْ نَكُفَّ سيوفنا عمن قال: لا إله إلا اللّه، لأنه دليل صادق على رضائه بالإسلام، والترك لدينه، وحسابُهُم على اللّه، وأين تحضرهم الدلائل في هذا الحين. وهذا معنى ما يقال: إن إيمانَ المقلدُ معتبرٌ عندنا، فمن آمن تقليداً وأذعن به قلبه، فإنه مؤمنٌ وإن لم يكن عنده دليل على ذلك، بخلاف المعتزلةِ.[158]

وقال محمد بن نصر النروزي[159]: فكذلك التصديق يضاف إليه ما هو موجبه لا محالة وأنتم تقولون ذلك في غير موضع اضطرارا لأنكم نوعان نوع منكم وهم جمهوركم وعامتكم يقولون إن المعرفة لا يكون في عينها إيمانا

---

١٥٧) المعرفة هنا بمعنى الاستدلال التفصيلي وتعلم أدلة المتكلمين وموجبات العقول ودفع الشبهات إلخ.

١٥٨) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

١٥٩) هنالك شيء من عدم الدقة في فهمه لمصطلح المعرفة وما عناه بها من قال بها ممن رد عليهم، ففرق بين من يعني بها الاستدلال ومن عنى بها العلم... الخ مما مر

يمنعكم من ذلك شهادة الله تبارك وتعالى على قلوب من سمي بالكفر أنها عالمة موقنة فزعمتم أن المعرفة ليست في عينها إيمانا حتى يكون معه الإقرار. وقالت فرقة: لا تكون المعرفة إيمانا حتى يكون معه الخضوع. وقالت فرقة: لا تكون المعرفة إيمانا حتى يكون معها الخضوع والإقرار. ثم زعم من قال منكم بهذه المقالة على تعرفكم أن الخضوع إيمان مع المعرفة، والإقرار كذلك، والتصديق كذلك، وليست المعرفة هي الخضوع ولا الإقرار ولا التصديق ولكن معرفة أوجبت ذلك كله. فهل تجدون بين ما قلتم وبين ما قال مخالفوكم فرقانا إذ سموا إيمانا ما أوجبه التصديق وسميتم إيمانا ما أوجبته المعرفة بل هم قد ادعوا الصدق وذلك أنهم إنما جعلوا الأعمال إيمانا من المعرفة القوية، والتصديق القوي يوجبه العمل لا محالة لأن المعرفة عندهم التصديق يتفاوت، وما ادعيتم من المعرفة لا يوجب التصديق والخضوع لا محالة لأنكم تزعمون أن المعرفة لا يتفاوت وقد شهد الله وأقررتم بذلك أن المعرفة في قلوب الكفار فلو كانت توجب الخضوع والتصديق والإقرار ما جامعت الكفر أبدا، لأن الخضوع والإقرار والتصديق في قولنا وقولكم إيمان وهو ضد الكفر فلو كانت توجب ذلك ما قارنها الكفر أبدا فلما وجدنا عارفا كافرا، وعارفا مؤمنا عندنا وعندكم استحال أن توجب المعرفة الإيمان إذا كانت لا تتفاوت، ولا جائز أن توجب خضوعا، ولا إقرارا أبدا إن كانت لا تتفاوت فقد زعمتم أن أصل الإيمان المعرفة فإذا كان معها

الخشوع والتصديق والإقرار كان جميع ذلك إيمانا فقد ضممتم إلى المعرفة ما ليس جزءا منها ولا هي موجبة له فدعوى مخالفيكم في إضافتهم أصدق وأبين لأن المعرفة عندهم يتفاوت لها أول وأعلى، وكذلك التصديق له أول وأعلى فإذا عظمت المعرفة أوجبت العمل لا محالة فجعلوا من الإيمان وأضافوا إليه ما أوجبه عظيم المعرفة والتصديق فقد وافقتموهم على مثل ما خالفتموهم، ويصدق دعواكم ولم تقودوا قولكم. وأعجب من ذلك أن المعرفة عندكم إذا انفردت ليست بإيمان فإذا جامعها الخضوع والإقرار والتصديق صارت المعرفة إيمانا فكانت في عينها وحدها لا إيمان فلما ضم إليها غيرها انقلبت فصارت إيمانا؟ وقال مخالفوكم: الإيمان أصل إذا ضم إليه ازداد به ولا يتقلب. وأعجب من ذلك إضافتكم إلى التصديق بالقلب القول الذي ليس من المعرفة في شيء لأن القول أجزاء مؤلفة في صوت عن حركة لسان، والمعرفة عقد بضمير القلب ليست بصوت ولا حروف ولا حركة فأضفتم إلى المعرفة ما ليس فيها ولا يشبهها ولا هي موجبة له إلا أن بعضهم يزعم أن التصديق يوجب القول وهو وإن أوجبه فليس القول من تصديق القلب في شيء إذ القول حروف مؤلفة في صوت عن حركة وليس التصديق بالقلب كذلك فأضفتم إليه ما ليس منه ولا يشبهه ثم زعمتم أنه لا يكون مؤمنا إلا به فهذا أعجب من قول مخالفيكم فقد قايسناكم على

اللغة والمعقول فتبين دحض حجتكم وبطلان دعواكم وأولى بالحق اتباعه من أراد اللّه وخافه.[١٦٠]

١٦٠) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر النروزي باب: طرق حديث: الدين النصيحة.

عاشراً: ما أراه في المسألة:

يهمني أن أبين النقاط الهامة التالية التي تدخل في صلب الموضوع:

أولا: وجود التصديق لدى كل من يوقن، بما فيهم الكفار الذين يوقنون ويعلمون حقائق الاسلام.

ثانياً: ملاحظة إمكان وصف الكافر بالعلم واليقين، وهو عين العلم واليقين الذي عند المؤمنين.

ثالثاً: الفرق بين الجحود والإنكار كمفتاح لفهم الفرق بين العلم والمعرفة.

نضع الملاحظات التالية عن الأفكار السابقة لنناقشها: الإيمان: معرفة مع تصديق مع إقرار، الإقرار شرط أو ركن زائد كما وضحنا، معرفة القلب التي من غير انقياد موجودة عند الكفار وهي أي معرفة القلب؛ بحسب ابن تيمية متضمنة تصديق القلب وينقصها انقياده لتشكل الإيمان، ينقصها التصديق بكل ما جاء به الوحي كما بينا، والانقياد هو الاقرار والخضوع والذي يفضي إلى الاتباع، لأننا نقول أن الايمان أفكار قابلة للاعتقاد لا العمل ولأن ترك الخضوع يدخل في نقيض الايمان، أي المشاققة، بينما ترك العمل (لا أعني جنس العمل الآن ولكن أعمالا بعينها) لا يفضي إلى ذلك.

بسّطنا هذه المسألة وهي التصديق وعلاقته بالانكار والجحود، هل يكون العارف الجاحد مصدقا؟ مثلا إبليس أو حيي بن أخطب وهما يعلمان يقينا صدق الرسول عليه الصلاة والسلام هل ما لديهم هو التصديق؟ أم أنه يوجد فرق بين التصديق والمعرفة؟

النقطة الأولى: حاول بعض أهل العلم الربط بين الحكم الصادر عن مطابقة النسبة الخبرية التامة وبين الإذعان والقبول، فبحصول المجموع يوجد التصديق اللغوي كما أطلقوا عليه وهو عينه التصديق المنطقي، قال الألوسي رحمه الله: التصديق اللغوي يخالف التكذيب والانكار... فإن الصورة الحاصلة من النسبة التامة الخبرية تصديق قطعاً فإن كان حاصلا بالقصد والاختيار بحيث يستلزم الإذعان والقبول فهو تصديق لغوي. إ.هـ.

وهم يرمون بذلك إلى نفي وجود التصديق عند من لم يذعن ويسلم وهو خطأ، فهو مصدق بتلك الحقيقة مكذب إجمالا بالرسالة.

النقطة الثانية: ثم هناك معرفة ضد الجهل، قالوا أنها لا تستلزم وجود التصديق لأن من يعرف ليس بالضرورة مصدقا لما عرف، لانتفاء الإذعان أحيانا، أو لأن المرء وهو في طور تحصيل العلم يمر بالمراحل الأربعة السابق ذكرها للانتقال من التصور إلى التصديق، فالمعرفة قد توجد بالتصور فإن جمعنا لها التصديق انتقلت إلى العلم أو الايمان، هكذا يرون،

وهذا واضح في قول الألوسي رحمه الله: وحاصل ذلك منع حصول التصديق للمعاند فإنه ضد الإنكار، وإنما الحاصل له المعرفة التي هي ضد النكارة والجهالة، وقد اتفقوا على أن تلك المعرفة خارجة عن التصديق اللغوي وهو المعتبر في الإيمان، نعم اختلفوا في أنها هل هي داخلة في التصور أم في التصديق المنطقي، فالعلامة الثاني على الأول، وأنه يجوز أن تكون الصورة الحاصلة من النسبة التامة الخبرية تصوراً، وأن التصديق المنطقي بعينه التصديق اللغوي (وهو ما يخالف التكذيب والإنكار وهذا بعينه المعنى اللغوي) إ.هـ.

فإن اعتبرنا أن الألوسي رحمه الله بقوله: وأنه يجوز أن تكون الصورة الحاصلة من النسبة التامة الخبرية تصوراً، ما سبق وبيناه من تفصيل الامام الأسنوي رحمه الله في المراحل الثلاث وأن التصور لا ينتقل إلى العلم إلا بالحكم بالنفي أو الاثبات على تحقق النسبة التامة الخبرية، فكان ما يقصده الألوسي هو أحد المراحل الثلاث فخطأ ما ذهب إليه.

وأن في كلام الأستاذ البدراني رد جيد عليهم إذ قال: والتصديق هو المعتبر في المعرفة، ويسقط التصور من الإعتبار أي لا يعتد في تكوين المعرفة إلا بالتصديق، والتصور لا يعتد به لأنه لا قيمة فكرية له في الإدراك، فهو لا يصلح للتفكير ولإنتاج الأفكار، والسبب في ذلك أنه لم يثبت

في الذهن بحكم ولم ينف ضده بحكم، فهو مهتز غير مستقر في الذهن، في حين يتكون التصديق من فكر في الذهن ومن معنى يعبر عن الواقع.

... فدل على أن الذي تغير تصورنا للشيء، وهو ما حصل في الذهن من تمثل الواقع، ولكن بالمطابقة يتحول التصور إلى إدراك حقيقة الشيء كما هي في الواقع الخارجي، لهذا لم يصلح التصور للتفكير، حتى صار التصديق وهو مطابقة ما في الذهن لواقعه الخارجي. إ.هـ.

نقول: وأما إن كان الامام الألوسي في قوله السابق لا يعني بالتصور إحدى المراحل الثلاث السابق ذكرها في بحث الأسنوي رحمه الله، بل ما انتقل من التصور إلى التصديق، أي الحكم على النسبة التامة الخبرية بالاثبات أو النفي، وهو الذي يدخل لديه في التصديق اللغوي، فعندها يختلف القول، وتصبح المعرفة والتصديق على ما ذهب إليه العلامة ابن تيمية رحمه الله في قوله: وأيضا فإن الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد تصديق القلب الخالي عن الانقياد الذي يجعل قول القلب أمر دقيق واكثر العقلاء ينكرونه وبتقدير صحته لا يجب على كل أحد أن يوجب شيئين لا يتصور الفرق بينهما واكثر الناس لا يتصورون الفرق بين معرفة القلب وتصديقه إ.هـ. لكن قول الألوسي رحمه الله في أول شرحه ما يلي: وحاصل ذلك منع حصول التصديق للمعاند فإنه ضد الإنكار، وإنما الحاصل له المعرفة التي

هي ضد النكارة والجهالة، وقد اتفقوا على أن تلك المعرفة خارجة عن التصديق اللغوي وهو المعتبر في الإيمان إ.هـ.

يمنعنا من أن نفهم قول الألوسي على أنه يعني ما سقناه هنا، ويجعلنا نؤكد أنه يعني ما جاء في الخيار الأول من النقطة الثانية في التفصيل الآنف.

قال الكشميري في فيض الباري شرح صحيح البخاري: " ونُقِل عن إمام الحرمين رحمه اللّه تعالى وعن الأشعري رحمه اللّه تعالى أيضاً كما في «المسايرة»: أنّ الإيمانَ كلامٌ نفسيٌ، وكأنهم أرادوا به: أن القلب إذا تكلَّمَ بكلمة الشهادةِ وأذعن بها فقد تم الإيمان، لأنه لا يمكن منه الجحود بعده، بخلاف الإقرار باللسان، فإنه يمكن الجحود بعده أيضاً. فالإيمان على هذا التقدير ليس عِلماً من العلوم، بل قول من أقوال القلب. فقول القلب تصديقٌ وإيمان عندهم، وقول اللسان إقرار. ويمكن أن يُحْمَل عليه قول مَنْ قال: إن الإيمانَ قولٌ وعملٌ. ولست أريدُ أنّه مراد البخاري رحمه اللّه تعالى أو المحدثين، بل أريدُ أن له وجهاً أيضاً. وأما ما نُقل عن إمامنا رحمه اللّه تعالى: أن الإيمان معرفة.

فالمراد منه المعرفةُ المصطلحةُ عند الصوفية رحمهم اللّه تعالى، وهي التي تحدثُ بعد الرياضات، وهي الإيمان الكامل. وتلك لا تجامِعُ الجحود

أصلاً، بل قلما توجد في قلوب عامة المسلمين، وليس المرادُ منها المعرفة اللغوية ونحوه."[161]

والنقطة الثالثة: وكذلك يرون أنه ثمة فرق بين المعرفة اليقينية وبين التصديق اللغوي، فمطابقة الواقع بالمعلومات السابقة الموجودة في الدماغ عن هذا الواقع لدى الاحساس به لا يوجد تصديقا لديهم بل يوجد معرفة يقينية، فأنت عندما ترى حصانا وتقارن المعلومات السابقة في الدماغ عن هذا الكائن لتعلم أنه حصان فهذا الذي تكون لديك يسمونه المعرفة اليقينية ولا يدخلونها في التصديق إذ أن التصديق يكون في حقائق تستلزم إذعانا وتسليما، وهذه الأخيرة أي قولي أن التصديق يكون في حقائق تستلزم إذعانا هو من فهمي لما قالوه ولست بجازم فيه.

والنقطة الرابعة: يرون أيضا أن وجود التكذيب لدى المعاند يبين أنه غير مصدق، فلا اجتماع بين التصديق والتكذيب في نفس،،

قال الألوسي: وأن التصديق المنطقي بعينه التصديق اللغوي (وهو ما يخالف التكذيب والإنكار وهذا بعينه المعنى اللغوي) إ.هـ.

١٦١) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

وقد فصلنا سابقا في شرحه، من أن التكذيب هو المحصلة، لتعلق التكذيب بالرسالة إجمالا، وأنه مصدق بما وصف أنه موقن به، فوجود التكذيب بالدين كله لا ينفي تصديقه بالحقائق المعينة منه، خذ مثلا في سورة المدثر، عندما تأتي الآيات لأهل الكتاب قال: [ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون.] الآية، فيأتيهم خبر في القرآن دليل على صدق الرسول عليه السلام، فيصلوا إلى الاستيقان، ولا يرتابون، فهذا حال المصدق قطعا، بذلك الخبر، لكنه حتى يدخل في التصديق المعتبر في الإيمان لا بد له من أن يضم إليه بقية ما يلزم ليصير في عداد المؤمنين.

النقطة الخامسة: بقي أن نحصي بعض ما نظنه خطأ من مقارنة مفهوم الانكار لدى الألوسي رحمه الله وبين ما جاء في اللسان مما نقلنا إذن:

التصديق ضد الإنكار، لدى المعاند لا يوجد تصديق، وإنما لديه معرفة لأنها ضد النكارة والجهل. وقال أيضا: التصديق اللغوي (وهو ما يخالف التكذيب والإنكار)

في لسان العرب: النُّكْرُ والنَّكْراءُ الدَّهاءُ والفِطنة، ويقال فلان ذو نَكْراءَ إذا كان داهِياً عاقلاً، والإنْكارُ الجُحُودُ. والـمُناكَرَةُ المُحارَبَةُ، وناكَرَهُ أي قاتَلَهُ لأَن كل واحد من المتحاربين يُناكِرُ الآخر أي يُداهِيه ويُخادِعُه؛ و النَّكِرَةُ إنكارك

الشيء، وهو نقيض المعرفة. و نَكِرَ الأمرَ نَكِيراً وأنْكَرَه إنْكاراً و نُكْراً جهله. قال ابن سيده: والصحيح أن الإنكار المصدر والنُّكْر الاسم.

و النُّكْرُ نعت للأَمر الشديد والرجل الداهي، تقول: فَعَلَه من نُكْره ونَكارَتِه وفي حديث معاوية، إني لأكْرَهُ النَّكارَةَ في الرجل، يعني الدَّهاءَ. والنَّكارَةُ الدَّهاء، وكذلك النُّكْرُ، بالضم. يقال للرجل إذا كان فَطِناً مُنْكَراً: ما أشدّ نُكْره ونَكْرَه أيضاً.

الجَحْدُ والجُحُود نقيض الإقرار كالإنكار والمعرفة، جَحَدَهُ يَجْحَدُه جَحْداً وجُحوداً الجوهري: الجُحودُ الإنكار مع العلم. جَحَدَه حقَّه وبحقه.

و الإقرارُ الإذعانُ للحق والاعترافُ به. أقَرَّ بالحق أي اعترف به.

وقد قَرَّرَه عليه و قَرَّره بالحق غيرُه حتى أقَرَّ. إ.هـ.

الجحود أمارة (دليل) على الكفر وليس العكس. قال تعالى: [... وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ] لقمان٣٢ [.... وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ] العنكبوت٤٧ فإن الجحود يأتي من الكفر وليس العكس.

بناء عليه: فأصل الانكار الدهاء والفطنة وأن تكون عالما بخصمك تناكره وتكيد له، ولأن المرء يخالف فيها ما يعلم يسمى جاحدا، على اختلاف طفيف لكنه ضروري بين الجحود والانكار.

الألوسي منع حصول التصديق للمعاند فإنه ضد الإنكار، والحاصل لديه هو المعرفة التي هي ضد النكارة والجهالة، وللهرب من التسليم للكافر بالتصديق قالوا بأن تلك المعرفة التي لديه خارجة عن التصديق اللغوي وهو المعتبر في الإيمان، واختلفوا في كون المعرفة التي عند الكفار داخلة في التصور أم في التصديق المنطقي، وقالوا بأن التصديق اللغوي يكافئ المنطقي وهو ما يخالف التكذيب والإنكار.

أقول لا أقر على ذلك، فاللّه تعالى يصفهم بأنهم [قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّه يَجْحَدُونَ] ٣٣ الأنعام.

المعرفة: تمييز الشيء عن غيره عن طريق حكم يأتي بعد تدبر، ويضادها الإنكار لأن فيها الحكم بالنفي والإثبات، ولا تحصل المعرفة إلا بمطابقة الواقع المحسوس للفكرة المتمثلة في الدماغ أو لنقل للمعلومات السابقة الموجودة في الدماغ حول هذا الواقع.

التصديق هو المعتبر في المعرفة، أي انها لا تحصل إلا بعد انقضاء مرحلة التصور التي من الممكن أن لا تؤدي إلى الوصول إلى المعرفة وبالتالي هناك ترابط عضوي بين المعرفة والتصديق، فالذي يعرف يكون قد وصل إلى مرحلة نفي الضد والإنكار القلبي، فالكفار الذين وصفهم الحق

سبحانه بأنهم يعلمون أو يوقنون أو يعرفون تخطوا التصديق ليصلوا بعد ذلك إلى الجحود.

أقول وبالله التوفيق: قال تعالى: [قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ] ٣٣ الأنعام [فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٣ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ] ١٤ النمل. [فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ٨٢ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ] ٨٣ النحل.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْنَا عُمَرَ فِي وَفْدٍ فَجَعَلَ يَدْعُو رَجُلًا رَجُلًا وَيُسَمِّيهِمْ فَقُلْتُ أَمَا تَعْرِفُنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ بَلَى أَسْلَمْتَ إِذْ كَفَرُوا وَأَقْبَلْتَ إِذْ أَدْبَرُوا وَوَفَيْتَ إِذْ غَدَرُوا وَعَرَفْتَ إِذْ أَنْكَرُوا فَقَالَ عَدِيٌّ فَلَا أُبَالِي إِذًا. البخاري كتاب المغازي.

قد نستدل من قوله تعالى: [يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون] على فرق ما بين المعرفة والتصديق، لكن نحتاج إلى التمهل قبل إصدار هذا الحكم، فالمعرفة شرط أساسي لليقين وهي شرط للعلم، لا يكونان إلا بها.

نتذكر قول الألوسي: (وحاصل ذلك منع حصول التصديق للمعاند فإنه ضد الإنكار، وإنما الحاصل له المعرفة التي هي ضد النكارة والجهالة). وأرى أن ذلك غير دقيق، بل عندهم التصديق واليقين والعلم، وليس لديهم شيء من الإيمان، وإليك الدليل:

الحق سبحانه وصف طائفتين من الكفار بوصفين: أحدهما اليقين، والثاني: العلم (والمعرفة): قال تعالى: [وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم] ١٤ النمل، وقال تعالى: [يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ] ٧١ آل عمران؛ [وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ] ١٠١ البقرة، كما أنه تعالى وصف علمهم نفسه بالمعرفة: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] ١٤٦ البقرة [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ] ٢٠ الأنعام.

وللتوضيح: أقول: الحقائق المادية الملموسة لا تدخل في الإيمان، فوجود مكة مثلاً ليس بأمر يحتاج فيه إلى الإيمان، بل إن حصلت المعرفة، بالمشاهدة أو بغيرها، تورث المعرفة اليقينية، عين اليقين وعلمه، وهنا في مثل هذه الحقائق لا تجد فرقاً بين عين اليقين وعلمه (سيأتي لاحقاً الفرق

بين التصديق والإيمان، أعني في مجال اختصاص الإيمان بما فيه غيب، وبما يمكن أن يداخله الريب).

لنا أن نتساءل: هل المعرفة مستوجبة للتصديق؟ هل القلب العارف الخالي من الانقياد لا يوصف بالتصديق؟ هل يستوجب التصديق ميل القلب؟ هل يكون المرء مصدقاً بقلبه لما يعرف أنه الحق بَلْهَ يستيقنه، ويكون جاحداً؟ هل ثمة فرق بين العلم والمعرفة؟

لقد انطلق العلماء السابقون والمتكلمون غالباً من منطلقات فلسفية منطقية، وبالتالي ولأن طبيعة بحثي تستوجب مني أن أرد كل فكر إلى الكتاب والسنة، فأقول وبالله التوفيق:

إذا كان آل فرعون يستيقنون أن ما جاءهم به موسى من البينات يثبت صدقه، ونص القرآن على أنهم يستيقنون ويجحدون، ومعنى أنهم يستيقنون: أي أنهم يصدقون تصديقاً جازماً مبنياً على الأدلة القطعية التي جاء بها موسى عليه السلام بأن الآيات التي جاء بها من عند الله هي آيات معجزة.

وقد وصف موسى عليه سلام الله ما عند فرعون بالعلم [قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا] ١٠٢ الإسراء.

فلا مجال للقول بأنهم يعرفون لكنهم لا يصدقون، ولا يمكن تصور مثل هذه الحالة، فلا بد أنهم يصدقون بقلوبهم أنه الحق، لكنهم يجحدون بكيانهم أنه الحق.

من هنا قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فإن الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد تصديق القلب الخالي عن الانقياد الذي يجعل قول القلب أمر دقيق واكثر العقلاء ينكرونه)، وهو دقيق، وتصوُّر الإعراض عن هذا الذي صدقه القلب إذ عرفه ممكنٌ، وصُوَرُه مذكورة في القرآن: [فإنهم لا يكذبونك] ! وهنا لا يُقال أن عدم التكذيب لا يعني أنهم يصدقون، فالله تعالى يبين لنبيه أن ما معه من الآيات أوجد عندهم التصديق لكنهم يجحدون، تكبراً أو لمصالحهم أو لغير ذلك، فلا معنى لعزائه أن يقول له لا يصدقون ولا يكذبون!

وبالتالي فإن اليقين الذي عندهم هو نفس اليقين: أي التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل (أرجو أن تتمهل حتى تقرأ فصل الفرق بين الإيمان واليقين).

ولنا هنا أن نمثل بمثل حي لما قد نتصوه من وجود مثل هذه الحالة، فقد يعرف الكافر أن الاسلام ينص على وحدانية الله ويتعلم أدلتها ولكنه بعد المعرفة لا يصدق، أو مثلا قد يعلم المسلم كل ما يتعلق بالديمقراطية

الغربية، معناها ومفهومها وما تنص عليه، ولكنه مع المعرفة يكفر بها أي أنه لا يصدق بها كعقيدة، وذلك لأن الأحكام التي تصدر عنها لا تطابق الواقع من نظره، فحكمها مثلا بأن الشعب هو الذي يسن قوانينه بنفسه لا ينطبق على الواقع فعلا لأن من يسن القوانين هم مجموعة من القانونيين والمشرعين والقضاة، فلم يطابق الحكم الواقع، فلم يحصل التصديق الجازم أو الاعتقاد بها رغم أن الأفكار نفسها قد وعاها هذا المسلم، أو مثلا نستذكر ثانية ما قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى الجزء السابع:... [ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا] النساء:٥١، [فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ] البقرة:١٥٦، فتبين أن الطاغوت يؤمن به ويكفر به. ومعلوم أن مجرد التصديق بوجوده وما هو عليه من الصفات يشترك فيه المؤمن والكافر؛ فإن الأصنام والشيطان والسحر يشترك في العلم بحاله المؤمن والكافر، وقد قال الله تعالى في السحر: [حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه] إلى قوله: [ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق] البقرة:١٠٢ فهؤلاء الذين اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، يعلمون أنه لا خلاق لهم في الآخرة، ومع هذا فيكفرون. إ.هـ.

أقول: هذه الحالات هل نتبين منها أن المعرفة مستوجبة للتصديق؟ أم أن المرء قد يعرف ولا يصدق؟

والجواب على ذلك: يلاحظ فيه ثلاثة أمور: أولها وجود الشيء، والثاني اعتقاده.

فأما اعتقاده: فالمسلم إذ يعلم كل ما يتعلق بالطاغوت، مثلا الديمقراطية الغربية، يعلم عقيدتها ومفهومها ووجهة نظرها في الحياة والأساس الذي قامت عليه، إلا أنه يعلم مع ذلك أن هذه الأمور كلها خطأ، أي يعلم أنها مناقضة للحق، أي أنها لا تطابق الواقع، وبالتالي فهو لا يصدق بها أي لا يؤمن بها، والفرق بينه وبين الكافر الذي يتخذ الديمقراطية عقيدة ونظام حياة هو أن الأخير يعرف هذه العقيدة ويصدق بها، ويظنها مطابقة للواقع، وبالتالي فيطلق على من يظنها مطابقة تجوزا أنه مؤمن بها (حسب ما بينا من أنه إطلاق اصطلاحي لغوي لا شرعي) وأما من يراها غير مطابقة للواقع فإنه لا يؤمن بها، والمعرفة هنا تضمنت العلم بها وبأنها لا تطابق الواقع، وأصلا مرحلة التصديق تتم عندما تطابق بين التصور وبين الواقع وتصدر الحكم عليه بالنفي أو الاثبات، وعندها تحصل المعرفة، وفرق بين المعرفة بوجود الشيء والمعرفة بمطابقته للواقع أو عدمها، وما إلى ذلك،، فأرى إذن أنه لا انفصام بين التصديق والمعرفة أبدا، فمن عرف صدق.

لاحظ أن المعرفة تعني انقضاء مرحلة التصور والوصول إلى التصديق أي إلى مطابقة الواقع وهذا لا يتم بدون هذا أي المعرفة والتصديق، ولا بأس أن نكرر القول هنا أن الحق واحد وهو عقيدة الاسلام، وحدها التي تطابق الواقع ووحدها التي تصدق الأدلة، ووحدها ما يطلق عليها اسم الايمان شرعا ووحدها التي تحقق المعنى الصحيح للايمان العرفي، لكننا نقول أنهم يؤمنون بالطاغوت تجوزا أو من باب الاطلاق اللغوي.

وأما التصديق بوجود العقيدة، فهو ما يفهم من كلام ابن تيمية السابق، فأنت تدرس العقائد كلها وتعرضها على العقل والنقل والفطرة لترى أيها يطابق الواقع فتصدقه والباقي تعلم وجوده.

والأمر الثاني هو مفهوم الاتباع السابق ذكره في باب سابق، فانتفاء الاتباع يضع المرء في دائرة المشاققه للعقيدة وبالتالي لا يدخل في سبيل متبعيها.

والأمر الثالث المهم هو أن المولى عز وجل في كتابه العزيز قد بين حد العلم والشروط التي بها تصبح المعرفة علماً وقد بينتها في فصل لاحق من كتابي هذا في فصل الدليل وهنا أذكر ما فيه بيان ذلك الحد:

قال تعالى: [قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ] ١٤٨ الأنعام [وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا

يَظُنُّونَ] ٢٤ الجاثية [وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ] ٣٢ الجاثية، من هذه الآيات نتبين أن العلم لا يكون إلا ما تجاوز الظن ووصل اليقين، وبالتالي لا يمكن أن نتصور علماً ولا يقيناً إلا إذا كان مبنياً على التصديق، وإلا لكان للكفار حجة في وجود نوع من العلم لا يبنى على التصديق فيتخذوه مبدأ لهم في الرد على الآية: [قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا] فيخرجون العلم المبني على عدم التصديق، ولعمري لهو أشد ضعفاً من العلم المبني على الظن! إن وجد أحدهما في عالم الواقع!

(صحيح أنه بين أن عند بعضهم العلم واليقين ولكنهم بصدهم لم يدخلوا في الإيمان فخسروا، وهو هنا يقيم عليهم الحجة في ادعائهم العلم بعدم وجود البعث أو في أمور تناقض الإيمان، فليس لديهم في هذه القضية/ القضايا العلم فانتبه)

من هنا نقول أن وجود العلم واليقين لدى بعض الكفار وأهل الكتاب يبين أن المعرفة مستوجبة للتصديق قطعاً. (لاحظ أنني أتحدث عن حالة معينة لدى بعض الكفار لأصل إلى إمكانية وجود المعرفة والتصديق مع الكفر، ولا يعني ذلك أن كل من كفر يعرف ويصدق فافهم). وبالتالي يمكن أن يوجد التصديق مع عدم ميل القلب، بل يصرف عن هذا الميل الجحود

وغيره، كالقيام بالفعل المكفر أو الشك أو تبعيض الايمان أو الكفر بالقول كما مر.

قال تعالى [وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ٤٣ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ] ٤٤ الحج، وهنا أجمع بين آية النمل التي بين الحق سبحانه فيها أنهم يستيقنون الآيات، وبين هذه الآية ليكون تكذيبهم لموسى عليه السلام (أو تكذيب بعضهم) ليس تكذيب قلوبهم لما استيقنوه بل صورا منها: تصديقهم بالآيات لكنهم قد لا يوقنون بكل ما يترتب عليها من قضايا عقدية كإنكارهم مثلا للبعث وبذا يكفرون وبذا يكون تكذيبهم لأن الايمان لا يتبعض، هذه واحدة، والثانية أن أفعال القلوب من التقلب بما لا مكان لإنكاره، وذلك بعد قسوتها وانشغالها بالحياة بما يجمع عليها طبقات من "الرين" [كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ] ١٤ المطففين فينقلب التصديق واليقين تكذيباً ولا داعي للإفاضة.

ويدل كذلك على ذلك قول الحق سبحانه عن فرعون [فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَى] ٢١ النازعات، وسبق بيان وصف فرعون بأنه يعلم أن الآيات من الله.

ولتكن هذه اللبنة الأولى في صرح التفريق بين الإيمان واليقين، فهم يوقنون لكنهم يكذبون، وتكذيبهم كفر كما لا يخفى، ولا يخفى أنهم كفار، فوجد لدينا كفار، (يعني ضرورة أنهم غير مؤمنين) وهم يوقنون.

والثالثة: الاتباع فانعدامه يفضي إلى المشاققة والجحود، ومخالفة القناعات العقلية واتباع الهوى المفضي إلى الضلال كما بينا في مفهوم الاتباع السابق بيانه.

لكن ثمة نقطة هامة هنا، وهي قول الحق سبحانه وتعالى [إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ] ٢٢ النحل. وحيث أن المعرفة ضد الإنكار فكيف نصف قلوبهم بالإنكار مع كونهم يعرفون ويعلمون ويوقنون؟

القلوب تنكر أموراً من العقيدة الإسلامية ولا تسلم بكل ما جاء به الرسول، فهم يصدقون بقلوبهم ولا يكذبون أن الرسول رسول الله ولكنهم ينكرون بعض أمور الاعتقاد كالبعث، كما أنهم إذ يصدقون بأن الرسول حق، إلا أن قلوبهم تتردد ريبة واستكباراً، فلا تستقر على حال واحد، فاحفظ هذا كدليل على عدم تبعض الإيمان.

كذلك مما لمسناه من معنى الانكار لغة كما في اللسان أنه يكون المداهاة والمخادعة والمحاربة أي أنهم يوقنون أي أن المعرفة لديهم

راسخة، لكنهم يستكبرون، أرمي بهذا إلى أن الانكار قد لا يتضمن دوما نقيض المعرفة، هذا إن سلمنا للقوم أن الإنكار نقيض المعرفة، فهم انطلقوا من أن الكفار لا يصدقون فجعلوا الإنكار نقيض المعرفة، وهو ما لا أسلم لهم به، وهذه الآيات تبين ذلك وتوضحه والعلم عند الله.

نتساءل بعد ذلك: هل ثمة فرق بين قول القلب وفعل القلب، وهذا على حد وصف ابن تيمية له، فقول القلب هو التصديق الخالي عن الانقياد، وفعله ما ينتج عن ذلك التصديق أو لا ينتج، من حب وجحود وإنكار وما شابه؟ وقول القلب هو ما وصفه في فصل سابق بأنه التصديق الجازم!

أجل يصعب على المرء إذ يرجع إلى قلبه أن يميز بين هذه الحالات، وأرى ثانية أن من خلق القلوب وصرفها هو القادر على بيان ذلك، ولنا أن نعمل عقولنا فيما جاء من ذكر حكيم لنستنبط من مفهومه ما يشفي الصدور بحول الله:

وهنا سأذكر الآيات التي تدخل في صلب هذا الموضوع: [ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ١٥٤ وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٥٥ أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ١٥٦ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ

فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ١٥٧ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨] الأنعام، وتهمني جداً الآية الأخيرة فبنو إسرائيل عندهم من الآيات ما يبين صفة هذا النبي وصدقه، ومنهم مؤمنون بما لديهم من العلم، لكن إن صدفوا عما عندهم من العلم، وما قد صدّقوه أي كذّبوا بعد تصديق، لأنهم لا يريدون الإذعان لا لأنهم لا يصدقون، فإنهم لا يعودوا مؤمنين، فعدم الاذعان يعني أنهم لم يكسبوا في إيمانهم خيراً، فليس بإيمان بعد هذه اللحظة لانعدام الاذعان، أي أنهم شاقوا الرسول، وبيان ذلك أن لديهم أخبارا عن الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، تبين صفته فإن لم يذعنوا لهذه الأخبار فإنهم لا يكسبون في إيمانهم خيرا، وهو ما سماه الحق سبحانه: [سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ].

مما يعني أن التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل إن لم يصاحبه الاذعان، فليس بإيمان، فلا بد من اشتراط الاذعان في تعريف ما به ينتقل الإيمان لتمييزه عن اليقين الذي لم يغن عن أصحابه شيئاً، فاحفظ ذلك

وتدبره بعد قراءة فصل التفريق بين الإيمان واليقين، لتتبين ما يبين ضبط مفهوم تعريف الإيمان الذي هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، ليبين ما يجعل المصدق جازما عن دليل مؤمنا، قلنا نشترط الاذعان وهو جزء من التصديق كما بينا بكل ما جاء به الرسول، فقولنا في التعريف: التصديق الجازم، يتضمن الاذعان، بكل ما جاء به الرسول على النحو الذي قررناه في غير موضع!!

كذلك قول الحق سبحانه: [وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا] ١١٥ النساء والتي أفردت لها فصلا خاصاً لمناقشتها، نتبين أن المرء بعد أن يتبين الهدى، عليه اتباع سبيل المؤمنين بالإذعان لما به تبينوا صدق رسالة المصطفى عليه السلام، وإلا فهو مشاقق له، وفرق بين المشاقة وبين المعصية، أي بين أن لا يتبع المرء الأمر والنهي فيعصي وهو مذعن وبين أن لا يذعن !! وهذه الآية ونظيراتها في مسألة المشاققة تتحدث أساسا عن أهل الكتاب الذين عرفوا وتبين لهم الحق والهدى ولكنهم لم يسلموا، وشاقوا فكفروا.

أنا هنا أثبت أن اليقين هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، وأن له ما يكمله ليصبح إيماناً، إما وجود شروط معينة أو انتفاء أمور معينة، وهو ما سننتهي إليه إن شاء الله في هذا البحث، وأركز على أنه لا بد فيه من

التصديق حتى نفهم بدقة الآية التي بين الله فيها أنهم يستيقنون ولكنهم يجحدون.

كذلك ألفت النظر إلى أن اليقين هنا يتناول قضايا معينة محددة، كاليقين بالمعجزة، أو اليقين بأن هذا هو رسول الله الذي عندهم صفته، فالتصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل هنا تناول فقط هذه الحقيقة، وأما الإيمان فهو تصديق جازم مطابق للواقع عن دليل بكل ما جاء به الرسول: قال الإمام النبهاني: ومما يجب أن يُلفت النظر إليه أن اعتناق العقيدة الإسلامية معناه الإيمان بكافة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم. ويجب أن يعلم أن مجرد المعرفة لا يغني، وأن التمرد على أصغر شيء ثابت يقيناً من الإسلام يخرج الشخص ويفصله من العقيدة. والإسلام كلٌ غير قابل للتجزئة من حيث الإيمان والتقبل فلا يجوز في الإسلام إلا أن يُتقبل كاملاً، والتنازل عن بعضه كفر،...[١٦٢]

فالدقيقة هنا أن اليقين تناول قضية قضية، بينما الإيمان يتناول العقيدة كاملة، بتفاصيلها، والتمرد على حقيقة واحدة قطعية منه مهما دقت يخرج المرء منه، فالتصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل في تعريف الإيمان

---

١٦٢) الشخصية الاسلامية الجزء الأول لتقي الدين النبهاني فصل الثغرات في السلوك

يتناول كل هذا، هذا إن قصدنا بالإيمان أصل الإيمان، أي ما بـه يخـرج المـرء من الكفر ويدخل الإسلام، بينما فـي اليقيـن، والعلـم: يتنـاول فقـط القضـية الواحدة، أو مجموعة القضايا المذكورة، مصحوبة بـالجحود أو التبعـيض مما ينفي عنها صفة الإيمان، لكن قد يطلق الإيمان على القضايا الواحدة كـذلك، كأن تؤمن مثلا بمعجزة من معجزات النبي، أو أن تؤمن بالكتاب أو الملائكـة أو الجن، أو بفرضية صلاة الظهـر، فهـذا اعتبـر إيمانـا ويقينـا وعلمـا، مـع أنـه متعلق بقضية قضية، لأن معه أصل الإيمان، أمـا إن لـم يكـن معـه، فيسـمى يقينا فقط أو علما فقـط ولا يسـمى إيمانـا، ولا يحكـم عليـه بالإيمـان. فتنبـه لهذا يرحمك اللّه حتـى لا تقـول بـأن تعريـف الإيمـان غيـر جـامع مـانع راجـع: فصل: مدرستان في النظر إلى طبيعة الإيمان.

قال الكشـميري: وههنـا إشـكالٌ يـردُ علـى الفقهـاءِ والمتكلمـين وهـو أن بعضَ أفعال الكفر قـد توجـد مـن المُصـدِّق، كالسـجود للصـنم والاسـتخفاف بالمصـحف، فـإن قلنـا: إنـه كـافر، نـاقض قولنـا: إن الإيمـان هـو التصـديق. ومعلومٌ أنه بهذه الأفعال لم ينسلخ عن التصديق، فكيف يُحْكم عليه بـالكفر؟ وإن قلنـا: إنـه مسـلم، فـذلك خـلافُ الإجمـاع. وأجـاب عنـه الكَسْـتلِّي تبعـاً للجُرْجَاني: أنه كافر قضاءً، ومسلم دِيَانَة. وهذا الجـواب باطـلٌ ممـا لا يُصْـغى إليه، فإنه كافر دِيَانة وقضاءً قطعاً، فالحق في الجـواب مـا ذكـره ابـن الهمـام رحمه اللّه تعالى، وحاصله: أن بعض الأفعال تقوم مَقَام الجحود، نحو العلائـم

المختصة بالكفر، وإنما يجب في الإيمان التبرؤ عن مثلها أيضاً، كما يجب التبرؤ عن نفس الكفر

... فدل على أنّ مثلَ تلك الأفعال إذا وجدت في رجل يُحكم عليه بالكفر، ولا يُنظر إلى تصديقه في قلبه، ولا يلتفت إلى أنها كانت منه خوضاً وهزأً فقط، أو كانت عقيدة. ومن ههنا تسمعهم يقولون: إن التأويل في ضروريات الدين غيرَ مقبول، وذلك لأن التأويلَ فيها يُساوق الجحود وبالجملة: إن التصديق المجامعُ مع أخصِّ أفعال الكفر، لم يعتبره الشرع تصديقاً، فمن أتى بالأفعال المذكورة فكأنه فاقدٌ للتصديق عنده وأوضحه الجصَّاص، فراجعه.[١٦٣]

أما الإنكار، فقد قال تعالى [وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ] ٥٨ يوسف، وهنا جعل الإنكار ضد المعرفة، وللدقة نبين أنهم عرفوه ولكنهم أنكروا أن يكون هو، وذلك لأنه أوتي شطر الجمال ويسهل أن يتعرفوا عليه به، ولكنهم إذ يراجعون أنفسهم ينكرون أن يكون هو، ربما لعدم تصورهم لإمكانية أن يكون هو أو لحسدهم فيقنعون أنفسهم أنه ليس هو، المهم أن الإنكار يأتي بعد المعرفة، ويحصل لاعتبارات خارجية عنها منها التفكر بعد التصديق المبدئي، أو الحسد والكبر وما إلى ذلك.

---

١٦٣) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

[وَهَـذَا ذِكْـرٌ مُّبَـارَكٌ أَنزَلْنَـاهُ أَفَـأَنتُمْ لَـهُ مُنْكِـرون] ٥٠ الأنبيـاء، يعنـي لـو تفكـرتم لوجـدتم البركـة والخيـر فيـه، فـلا يتصـور إنكـاركم لـه بعـد التفكـر والتدبر.

[أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ] ٦٩ المؤمنون وقد عاش بينهم وعلموا منه ومن أخلاقه ما يجعله أهلا للرسالة ولاستحالة أن يكذب، فالإنكـار بعد التفكر، وعرض الأمر على العقل.

أما الجحود فكـل الآيـات كانـت علـى أنـه جحـود للآيـات بعـد أن تـأتيهم، ومثالها [وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم]، وسيأتي تحليلها إن شاء الله فـي فصل التفريق بين الإيمان واليقين، وخلاصته أن الجحود لا بد أن يكون بعـد يقين وتصديق بالآيات، لكن تعارض الآيات مع المصـالح الشخصـية والتكبـر وغيره يفضي إلى الجحود، ولعله مرحلة متقدمة على الإنكار إذ الإنكـار يكـون بعد تفكر ويوجد لدى المنكر بعض المبـررات التـي تجعلـه ينكـر، مثـال ذلـك إخوة يوسف، فأنا لهم أن يتصوروا أن أخاهم الذي تركـوه فـي غيابـات الجـب يصبح عزيز مصر؟ بينما الجحود لا مجال لوجود ما يدفع اليقـين مـن مبـررات منطقية. (وهنا نتلمس بعض الفروق بين العلم والمعرفة).

[وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُـهُمْ ظُلْمـاً وَعُلُـوّاً فَـانظُرْ كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الـمُفْسِدِينَ].

بقي بعد أن أثبتنا أنه لا يقين بلا تصديق، وبالتالي لا إيمان بلا تصديق، أن نبين موقع المعرفة منه، هل يمكن أن يوجد الإيمان بدون معرفة؟

عندما بحث أهل العلم في المعرفة، وعلاقتها بالإيمان، انطلقوا من زوايا متعددة، فمنهم من انطلق من زاوية: هل يحتاج المؤمن تعلم أدلة المتكلمين، وموجبات العقول، حتى يعرف، ويدخل في حياض المؤمنين، أم يكتفي بالأدلة الجملية؟ تلك التي تقضي على الشك لديه، وتكفيه ليجعل إيمانه راسخا؟ فالمعرفة إذن: هل هي متعلقة بكل فيه موجبات عقول، وأدلة وشبهات، ورد عليها، أم هي متعلقة بمعرفة عامة، تتعلق بأصل الإيمان، وبقضاياه الرئيسة وخطوطه العريضة، توصل المرء إلى الجزم، وتكفيه؟ فعلى هذا، تكون المعرفة: علما مجملا يثبت صحة هذا الدين، لا معرفة تفصيلية.

والزاوية الثانية هي هل المعرفة هي العلم؟ فقد أطلقها تعالى وصفا لما عند علماء بني إسرائيل في حق الرسول صلى الله عليه وسلم: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ] ٢٠ الأنعام فهذه المعرفة علم عن دليل خبري أو سمعي حيث كانت كتبهم تحوي بشائر عن نبوة محمد عليه السلام، [وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ] ١١٤ الأنعام فعبر عن نفس الشيء مرة بالعلم ومرة بالمعرفة، فما لدى العالم

معرفة، فهي التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، فكل قضية عرفتها فقد علمتها، على تفاوت في الاستعمال اللغوي كما سيأتي إن شاء اللّه.

أقول: نلاحظ أنه رب مصدق لا يعرف، كالعوام في اعتقادهم، يقلدون رغم عدم تفكرهم فيما يؤمنون به، وللدقة أقول هو اعتقاد إجمالي، قد يُبنى على ادلة عامة توصلهم اليقين، كلمسهم لنظام الإسلام، وبداهة الإيمان باللّه تعالى، خاصة وأن عقيدتنا الإسلامية عقيدة عقلية توافق العقل، بمعنى أنها لا تتعارض مع الحقائق البديهية المعلومة عند كل الناس بالضرورة، ولا بد من أنهم لمسوا بعض الشواهد التي تثبت صدق النبي الكريم، وثقتهم بآبائهم وعلماء يبينون لهم بعض مظاهر العظمة في هذا الدين، فالإيمان بالإسلام إجمالا لديهم مبني على أدلة أوصلتهم للإعتقاد، وحيث أن العلم يتفاوت بين الناس قوة وضعفاً، كماً وكيفاً، فإننا نستطيع إطلاق اسم العلم على الذي عندهم، فليس شرطاً لتحقق اسم العلم والمعرفة أن يكون واحدهم موسوعي المعرفة بحقائق الإيمان، هذه الجزئية أحببت إبداءها هنا رداً على بعض آراء أهل العلم التي سترد في الباب التالي وهو هامش من أحب أن يقرأه فله ذلك ولا يدخل في متن الكتاب، وذلك ليدق فهمنا، المهم أن بعض العوام لا يعرفون بعض ما يلزمهم ليكونوا مؤمنين، فتراهم يعتقدون بعض ما يناقض دينهم عن جهل مثلا، ولو فعلوا لما تخلف المصدق على أن يكون عارفاً.

يقول د. الكردي: (وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الإيمان من الناس دون أن يدخلهم أبواب الأدلة ودون أن يعلمهم طرق الاستدلال بل كان يؤمن في غزواته الآلاف ولم يكن يكلف أياً منهم تعلم النظر فعلم بناء على ذلك علماً ضرورياً أن الله تعالى (يقول الغزالي: لم يكلف الخلق إلا الإيمان والتصديق الجازم بما قاله كيفما حصل التصديق)[١٦٤] وقال الكردي: وهذا التقليد ليس تقليداً أعمى وإنما تقليد عن وعي ذلك أن من يثق في شخص لا بد أن تكون هذه الثقة قائمة على أهلية هذا الشخص ... وحديث النبي صلى الله عليه وسلم القائل: ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه ويمجسانه (متفق عليه واللفظ لمسلم) بين أثر تقليد الآباء والمربين كطريق للإيمان ونلاحظ أن الحديث لم يجعل الإيمان بالإسلام قائماً على مجرد التلقين بغير وعي، إذ لم يذكر ويجعلانه مسلماً، ذلك أن الإسلام هو دين الفطرة)[١٦٥]

ولي بعض التحفظات على نقطتين هنا: أولا لم يكن العرب زمن الرسول في فهمهم العربية شأننا الآن، فالدليل لديهم أوضح وأجلى من كل نظريات

---

١٦٤) (الغزالي: إلجام العوام ج٢ ط٢ ص١٢٢)

١٦٥) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة. راجح الكردي ص٤٦٨-٤٦٩

الفلسفة والعلم التي نعلمها، فيكفي أحدهم قراءة بعض القرآن ليستدل على صدق المصطفى عليه السلام.

والثانية: التقليد مذموم في الاعتقاد للمسلمين ولغيرهم وتفصيله لاحق بحول الله.

المهم من هذا الكلام هنا أن الفطرة الموجودة لدى العامة توصل ما عندهم إلى العلم، إذا ما أضيف إليها النظرة العقلية البسيطة في الكون والانسان والحياة لتوجد الاعتقاد، فالمعرفة لا بد منها ولكننا لا نستطيع إضافتها إلى مبنى تعريف الإيمان لأن التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل يتضمنها، فهي ما قيل عنها في التعريف: عن دليل، أي عن معرفة إجمالية، فبها توصل المرء إلى مطابقة الواقع بالمطلوب الخبري، ولا يكون التصديق جازما إلا بها، فهي موجودة ضمناً في مبنى التعريف، هذه المعرفة هي المعرفة الجملية التي قال عنها الكشميري أنها تسبق الايمان، فلا نحتاج إذن إلى إدخالها في مبنى تعريف الايمان، أي لا نقول: التصديق الجازم المطابق للواقع عن معرفة ودليل، حذرا من التكرار لأن مقصود الدليل هنا هو هو المعرفة.

كذلك فقد ذكرنا مرارا أن التصديق يعني انقضاء مرحلة التصور ومطابقة الواقع المحسوس للنسبة الخبرية بوجود الدليل وهو ما لا يتم أبدا

دون وجود المعرفة، وهذه المعرفة التي هي صنو العلم، هـي الإيمـان نفسـه أو العلم نفسه.

هامش: باب: سابعاً: العلم والمعرفة والتصور والتصديق

في بحثه نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، يتتبع د. راجح الكردي تعريف العلم والمعرفة: (القاضي عبد الجبار يعرف العلم بأنه: (المعنى الذي يقتضي سكون نفس العالم إلى ما تناوله، فليس من العلم في شيء ما لم يطمئن إليه المرء ويعتقده، ولذلك فإن ذلك المعنى لا يختص بهذا الحكم إلا إذا كان اعتقاداً يعتقده على ما هو به واقعاً على وجه مخصوص)[١٦٦] وعرف الشيخان الجبائيان علي وأبو هاشم العلم بأنه (اعتقاد الشيء على ما هو به) وقد اعترض القاضي عبد الجبار على تعريفهما (بأنه بعيد لأن المقلد قد يعتقد الشيء على ما هو به ولا يكون عالماً ولذلك يجد حاله كحال الظان والشاك، وقد ثبت عن أهل اللغة أنهم وصفوا العالم بذلك إن كان قاطعاً على علمه لا يعتريه الشك والتجويز)[١٦٧] وقال القاضي في موضع آخر (والعلم لا يتبين عما ليس بعلم بكونه اعتقاداً فإن غير العلم يشارك فيه، وهو اعتقاد التقليد والتبخيت، وفي العلوم ما لا معتقد له كالعلم بأن لا ثاني مع الله تعالى وأن لا بقاء وأن العلم بالحد ينبغي أن يكون علماً بالمحدود لأنهما عبارتان تقعان على معنى واحد، ومعلوم أن في الناس من علم علماً وإن لم

---

١٦٦) (القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل ١٢/ ١٣)

١٦٧) (القاضي عبد الجبار- المغني –النظر والمعارف ١٢/ ١٧-١٨)

يعلمه اعتقاداً)[١٦٨] كما اعترض أهل السنة على هذين التعريفين للمعتزلة من سكون النفس إليه ومن اعتقاد الشيء على ما هو به بما يلي:

١) قالوا هذه الحدود منتقضة بالعلم باستحالة المحالات فإن العلم بها ليس علماً بشيء، لأن المحال ليس بشيء، ومع ذلك يتعلق العلم بكون المحال محالاً وإن كان ليس بشيء بالاتفاق.

٢) لو كان العلم اعتقاداً على وجه مخصوص لوجب أن يكون كل عالم معتقداً والله سبحانه عالم وليس بمعتقد، فبطل تحديد العلم بالاعتقاد، فالتعريف غير جامع. [وفساد هذا القول يأتي ليس من كون العلم والاعتقاد شيئاً واحداً، ولكن من قياسهم العلم الإلهي على العلم البشري، مع التسليم بأن أحداً لا يعلم شيئاً عن ماهية علم الله تعالى، الذي ليس كمثله شيء، فلا مجال لصوغ تعريف يعم علم الله تعالى، من هنا أخطأ العلماء في هذا الموضوع خطأً فاحشاً، فكان عليهم أن يعرفوا العلم بما يخص البشر دون التطرق إلى الحالات التي تختص بعلم الله تعالى]

٣) واعترض أيضاً بأن الاعتقاد جنس مخالف فلا يجوز جعل العلم منه فالتعريف غير مانع لجواز دخول التقليد فيه، إذا طابق الواقع[١٦٩]

---

١٦٨) (شرح الأصول الخمسة. القاضي عبد الجبار ط١ ص٤٦)

أما فلاسفة المسلمين: فالعلم والمعرفة والإدراك عندهم معناها واحد، (صورة الشيء في العقل)[١٧٠] يقول ابن سينا (إدراك الشيء هو أن تكون حقيقة متمثلة عند المدرك يشاهدها ما به يدرك، فإما أن تكون الحقيقة نفس حقيقة الشيء الخارج عن المدرك، إذا أدرك فتكون حقيقة ما لا وجود له بالفعل في الأعيان الخارجية، مثل كثير من الأشكال الهندسية، بل كثير من المفروضات التي لا تمكن إذا فرضت في الهندسة لا تتحقق أصلا، أو يكون مثال حقيقته مرتسماً من ذات المدرك غير مباين له وهو الباقي)[١٧١]، ويعرف إخوان الصفا العلم بأنه (صورة المعلوم في نفس العالم أو ضرب من الوجود أسمى وألطف وأدنى إلى الوجود المعقول من الأشياء المادية المتحققة في الخارج)[١٧٢] ويقول ابن سينا في حديثه عن حصوله المعرفة لدى العارفين بأنها (انتقاش النفس الإنسانية بنقش العالم العقلي بحسب الاستعداد وزوال الحائل)[١٧٣] وحصول صورة الشيء في العقل إذا كان مع الحكم عليه بالنفي أو الإثبات يسمى تصديقاً ومن غير هذا الحكم يسمى

---

١٦٩) (البغدادي. كتاب أصول الدين ط١ ص٥، والرازي مفاتيح الغيب ج١ ص٢٨١)
١٧٠) (الجرجاني: التعريفات ص١٣٥)
١٧١) (ابن سينا: الإشارات والتنبيهات ج٢ ط٢ ص٣٥٩)
١٧٢) (دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام. ص١٠٢)
١٧٣) (الإشارات والتنبيهات. ابن سينا ج ٤ ص١٢٤)

تصوراً، وقد اعترض الرازي على تعريف العلم والمعرفة بأنها حصول صورة في النفس مطابقة للمعلوم بما يلي:

١) إن إطلاق لفظ الصورة على العلم لا شك من المجازات وإلا كان المعلوم هو الصورة، ووجب ألا يصير الشيء معلوماً إذا كان صورة، وإذا كان الصورة ومحلها، يتعذر حصول الشيء في ذاته في الذهن

٢) إن القول بأن العلم حصول صورة مطابقة للمعلوم فيه دور

٣) لا تتحقق هذه المطابقة في الأمور التي ليست متحققة في الخارج والأمور الذهنية أو الاعتبارية

٤) العدم متعقل فأين هي المطابقة؟[١٧٤]،

أما عند أهل السنة، فالأشعري يعرف العلم (بأنه ما يعلم به، وربما قال: ما تصير به الذات عالمة)[١٧٥] وعرفه إمام الحرمين الجويني: (الطريق إلى تصور ماهية العلم وتميزها عن غيرها أن نقول: أنا نجد من أنفسنا بالضرورة كوننا معتقدين في بعض الأشياء، فنقول: اعتقادنا في الشيء إما أن يكون جازماً أو لا فإن كان جازماً فإما أن يكون مطابقاً أو غير مطابق، فإن كان مطابقاً فإما

---

١٧٤) (الرازي مفاتيح الغيب ج١ ص٢٨١)

١٧٥) (الرازي مفاتيح الغيب ج١ ص٢٨٠)

أن يكون لموجب هو نفس طرفي الموضوع والمحمول وهو العلم، أو يكون لموجب وهو اعتقاد المقلد، وأما إذا كان الجزم الذي لا يكون مطابقاً فهو الجهل، والذي لا يكون جازماً: فإما أن يكون الطرفان متساويين وهو الشك، أو يكون أحدهما أرجح من الآخر، فالراجح هو ظن والمرجوح هو الوهم)[١٧٦] وقد انتقد الرازي هذا التعريف ووصفه بأنه مختل لوجوه:

١) لأن هذا التعريف لا يتم إلا إذا ادعينا بأن علمنا بماهية الاعتقاد علم بديهي، وإذا جاز فلم ندعي أن العلم بماهية العلم بديهي؟ ٢) إن هذا التعريف للعلم بانتفاء أضداده وليست معرفة الأضداد بأقوى من معرفة العلم حتى يجعل عدم النقيض معرفاً للنقيض، فيرجع حاصل الأمر إلى تعريف الشيء بمثله أو بالأخص منه، ٣) إن العلم قد يكون تصوراً وقد يكون تصديقاً والتصور لا يتطرق إليه الجزم ولا التردد، ولا القوة ولا الضعف، فإذا كان ذلك كانت العلوم التصورية خارجة عن التعريف فالتعريف غير جامع)[١٧٧]،

وعرفه القاضي الباقلاني: بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه أو على ما هو به، وربما قال هو المعرفة)[١٧٨] واعترض على هذا التعريف من وجوه

---

١٧٦) (الرازي مفاتيح الغيب ج١ ص٢٨٠)
١٧٧) (الرازي مفاتيح الغيب ج١ ص٢٨١)
١٧٨) (الرازي مفاتيح الغيب ج١ ص٢٨٠ والقاضي عبد الجبار: المغني ج٢ ص١٨)

فقيل: ١) هذا التعريف فيه دور، لأنه تعريف العلم بالمعلوم، فالمعرفة لا تكون إلا وفق المعلوم أو المعلوم مشتق من العلم، فلا يعرف إلا بعد معرفته، ٢) إن هذا التعريف تعريف للشيء بنفسه، وهو محال، وذلك لأنه يقول إن العلم هو نفس المعرفة ٣) إن المعرفة من وجهة نظر أهل السنة هي حصول العلم بعد الالتباس ولهذا يقال: ما كنت أعرف فلاناً والآن عرفته، فهذا التعريف يخرج عنه علم اللّه تعالى، ولا يسمى علمه معرفة[179] [لاحظ مرة أخرى القياس الخطأ لعلم البشر على علم اللّه]، وعرفه الإسفرائيني: بأنه (تبيين المعلوم، وربما قال: إنه استبانة الحقائق وربما اقتصر على التبيين فقال العلم هو التبيين) واعترض الرازي على هذا التعريف بأنه ضعيف، لأن التبيين ليس إلا تبديل اللفظ بلفظ آخر أخفى منه ولأن التبيين والاستبانة يشعران بظهور الشيء بعد الخفاء وذلك لا يطرد في علم اللّه تعالى[180] وعرف الغزالي العلم بإرجاعه إلى البصيرة الباطنة، وإلى حقائق الأشياء وإلى حصول صورة نفس الحقائق في القلب، فالعلم عنده (حصول المثال في القلب)[181] أي حصول مثال حقائق الأشياء في القلب، إذ لكل معلوم حقيقة معلومة، ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب، وتتضح فيها، وقال في

---

١٧٩) (الرازي مفاتيح الغيب ج١ ص٢٨٠)
١٨٠) (الرازي مفاتيح الغيب ج١ ص٢٨١)
١٨١) (الإحياء ج٣ ص١٢)

موضع آخر (العلم: تصور النفس الناطقة المطمئنة حقائق الأشياء وصورها المجردة عن المواد، بأعيانها وكيفياتها وكمياتها وجواهرها وذواتها إن كانت مفردة)[١٨٢] وعرف المعرفة بأنها (العلم الذي لا يقبل الشك –إذا كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته)[١٨٣] وأنها كذلك (انتقاش النفس بصورة العالم حتى تصير عالماً مثله)[١٨٤] واعترض الرازي على تعريف العلم والمعرفة بأنها انتقاش النفس بصور الأشياء بأنه (لو كان الإبصار عبارة عن نفس الانطباع لما أبصرنا إلا بمقدار نقطة النظر لاستحالة انطباع العظيم في الصغير، وإنا نرى المرئي حيث هو ولو كان المرئي هو صورة المنطبعة لما رأيناه في حيزه ومكانه، وكذا قوله فكذا العقل تنطبع فيه المعقولات ضعيف لأن الصورة المرتسمة من الحرارة في العقل عند تصورها يلزم منها أن يصير العقل حاراً، إن كانت الصورة مساوية للماهية في الحرارة، وإن لم تكن مساوية لها في الحرارة لم يكن تعقل الماهية إلا عبارة عن حصول شيء في الذهن مخالف للحرارة في الماهية، وهذا يبطل قول الغزالي من أن العلم انطباع)[١٨٥] ويدل تعريف الغزالي للمعرفة على أن المعرفة عنده أخص من

---

١٨٢) (الرسالة اللدنية. الغزالي ص٩٨)

١٨٣) (ميزان العمل. الغزالي ص١٧٥)

١٨٤) (تهافت الفلاسفة. الغزالي ص٧)

١٨٥) (الرازي. مفاتيح الغيب ج١ ص٢٨١)

العلم، لأنه جعلها العلم اليقيني، والمعرفة الحقيقية أو العلم اليقيني الذي يريده الغزالي هي تلك المعرفة التي تمر في المراحل التالية الشك، فالظن، من غير جزم بانتفاء النقيض، فالاعتقاد: بأن يصل الظن إلى حد الجزم والقطع والإثبات ولكن المعرفة فيه غير تامة، فتميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة، فهو الاعتقاد المقارب لليقين، والمرحلة الرابعة: مرحلة اليقين أو المعرفة الحقيقية، الحاصلة بالبرهان الذي لا شك فيه ولا يتصور الشك فيه، وإلى هذه الدرجة أو المرحلة يمكن أن يسمى هذا يقيناً عند المتكلمين ولكن الغزالي يتجاوز فلا يقبل اليقين عند هذه الدرجة، وجود درجة امتناع الشك وإمكانه فحسب، وإنما يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك بل استيلائه وغلبته على العقل. وينتهي الغزالي إلى أن مصدر اليقين ينتهي إلى الشك –ليس الشك المطلق- ويقول (الشك هو أصل العلم اليقيني، فالعلم الحقيقي يبتدي بالشك ليصل إلى اليقين نفسه، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق) ويضع قاعدته الشهيرة (من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال)[١٨٦]

---

١٨٦) (ميزان العمل الغزالي ص ١٧٥)

أما الإمام الرازي فبعد أن يستعرض مجموعة من تعريفات العلم رأى أن اللجاجة فيها قائمة، فالعلم ليس اعتقاداً وإنما هو اعتقاد جازم، وهو ليس وضعاً ذهنياً وإنما هو مطابقة للواقع، وهو كما يمكن أن يكون بديهياً لا يحتاج إلى دليل فهو أيضاً نظري، وأنه تصور وتصديق، ويقول: (ولما ثبت أن التعريفات التي ذكرها الناس باطلة فاعلم أن العجز عن التعريف قد يكون لخفاء المطلوب جداً، وقد يكون لبلوغه في الجلاء إلى حيث لا يوجد شيء أعرف منه ليجعل معرفاً، والعجز عن تعريف العلم من هذا الباب، والحق أن كل واحد منا يعلم بالضرورة أنه يعلم وجود نفسه وأنه يعلم أنه ليس على السماء ولا في لجة البحر، والعلم الضروري بكونه عالماً بهذه الأشياء علم باتصاف ذاته بهذه العلوم، والعالم بانتساب شيء إلى شيء عالم لا محالة بكلا الطرفين فلما كان العلم الضروري بهذه المنسوبية حاصلاً، كان العلم الضروري بهذه المنسوبية حاصلا، وإذا كان كذلك كان تعريفه ممتنعاً)[١٨٧] والمعرفة كذلك عرفت بأنها (الاعتقاد الجازم سواء أكان اعتقاداً تقليدياً أو كان علماً صادراً عن دليل، ومنهم من فسرها بالعلم الصادر عن الدليل)[١٨٨].

---

١٨٧) (مفاتيح الغيب ج١ ص٢٨٢-٢٨٣)
١٨٨) (المرجع الأخير ص١٦٧)

يقول د. الكردي: يرى أهل السنة أنه وإن كان ثمة ترادف بين معنيي: العلم والمعرفة، من حيث أن كلا منهما يعني إدراك الشيء على ما هو عليه، إلا أنه ثمة تبايناً بينهما من الوجوه التالية:

١) المعرفة مسبوقة بجهل، أو إدراك مسبوق بجهل، ٢) كما أن المعرفة قد يراد بها العلم الذي تسبقه غفلة، وليس العلم كذلك ومن ثم يسمى الله تعالى العليم ولا يسمى عارفاً ٣) تطلق المعرفة على إدراك البسيط ويطلق العلم على إدراك المركب، فتقول عرفت الله ولا تقول علمته ٤) تطلق المعرفة على ما يدرك بآثاره ولا تدرك ذاته، فيقال عرفت الله ولا يقال علمته ٥) خلاف المعرفة الإنكار وخلاف العلم الجهل، وذلك لأن في معنى المعرفة الاعتراف والإقرار، ٦) قال أبو حيان التوحيدي: (إن المعرفة أخص بالمحسوسات والمعاني الجزئية في حين أن العلم أخص بالمعقولات والمعاني الكلية)[١٨٩] ٧) وقيل إن المعرفة تستعمل في التصورات والعلم يستعمل في التصديقات، ولذلك تقول: عرفت الله ولا تقول علمته، لأن من شرط العلم أن يكون محيطاً بأحوال المعلوم إحاطة تامة، ومن أجل ذلك وصف الله تعالى نفسه بالعلم لا بالمعرفة)[١٩٠].

---

١٨٩) (التوحيدي، المقابسات المقابسة رقم ٧ ص٢٧٢)

١٩٠) (الرازي مفاتيح الغيب ٢٨٣/١)

أما التصور: فالرازي يقول (إذا حصل وقوف القوة العاقلة على المعنى وإدراكه بتمامه فذلك هو التصور)[191] وهو لفظ مشتق من الصورة، ولفظ الصورة حيث وضع فإنما وضع للهيئة الجسمانية الحاصلة في الجسم المتشكل، إلا أن الناس لما تخيلوا أن الحقائق المعلومات تصير حالَّة في القوة العاقلة، كما أن الشكل والهيئة يحلان في المادة الجسمانية، وأطلقوا لفظ التصور عليه بهذا التأويل)[192] وأطلق لفظ التصور قسماً من أقسام العلم وقسيماً للتصديق، إذا كان حصولا لصورة الشيء في الذهن قبل الحكم عليه بنفي أو إثبات، وهو ما سماه صاحب الشمسية بالتصور فقط، قال (العلم إما تصور فقط، وهو حصول صورة الشيء في العقل وإما تصور معه حكم، وهو إسناد أمر إلى آخر إيجاباً أو سلباً ويقال للمجموع تصديق)[193].

وقال الدكتور الكردي في مفهوم المعرفة، واستعمال القرآن لهذا المصطلح: (تفترق المعرفة عن العلم الإنساني [تمييزاً له عن العلم الإلهي] في أن العلم الإنساني قد يكون ضرورياً كما قد يكون نظرياً، بينما كل ما ورد من المعرفة في القرآن إنما هو علم مكتسب بدليل أو بعلامات عليه،

---

١٩١) (المرجع السابق ٢٨٢/١)
١٩٢) (المرجع الأخير)
١٩٣) (القزويني الكاتبي: الرسالة الشمسية ص٧).

[يُعْـرَفُ الْـمُجْرِمُونَ بِسِـيمَاهُمْ فَيُؤْخَـذُ بِالنَّوَاصِـي وَالْأَقْـدَامِ] ٤١ الـرحمن والسمة العلامة، [وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَـرَفْتَهُم بِسِـيمَاهُمْ وَلَتَعْـرِفَنَّهُمْ فِـي لَحْـنِ الْقَـوْلِ وَاللَّه يَعْلَـمُ أَعْمَـالَكُمْ] ٣٠ محمـد [تَعْـرِفُ فِـي وُجُـوهِهِمْ نَضْـرَةَ النَّعِيمِ] ٢٤ المطففين وقد تكون الأدلة ظـاهرة علـى المعرفـة سـواء أكانـت أدلة عقلية أم نقلية [وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَـا بَيِّنَـاتٍ تَعْـرِفُ فِـي وُجُـوهِ الَّـذِينَ كَفَرُوا الْـمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَـرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّـارُ وَعَـدَهَا اللّه الَّـذِينَ كَفَـرُوا وَبِـئْسَ الْـمَصِيرُ] ٧٢ الحـج [وَلَمَّـا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّه مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْـتَفْتِحُونَ عَلَـى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَـرُواْ بِـهِ فَلَعْنَـةُ اللّه عَلَـى الْكَـافِرِينَ] ٨٩ البقرة [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُـونَ أَبْنَـاءهُمُ الَّـذِينَ خَسِـرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ] ٢٠ الأنعام فهذه المعرفة علم عـن دليـل خبـري أو سـمعي حيـث كانـت كتـبهم تحـوي بشـائر عـن نبـوة محمـد عليـه السـلام، [وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّـكَ بِـالْحَقِّ فَـلاَ تَكُـونَنَّ مِـنَ الْـمُمْتَرِينَ] ١١٤ الأنعام فعبر عن نفس الشيء مرة بـالعلم ومـرة بالمعرفـة، وأمـا المعرفـة عـن أدلـة عقليـة ففـي قـول الحـق سـبحانه [وَقُلِ الْحَمْـدُ لِلَّـهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّـا تَعْمَلُـونَ] ٩٣ النمـل [يَعْرِفُـونَ نِعْمَتَ اللّه ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ] ٨٣ النحـل وقـد تكـون بـالإدراك الحسي كما في قوله تعالى في الحكمـة مـن فـرض الحجـاب [ذَلِـكَ أَدْنَـى أَن

يُعْـرَفْنَ فَلَـا يُـؤْذَيْنَ وَكَـانَ اللّه غفـوراً رَّحِيمًـا] ٥٩ الأحـزاب [الَّـذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَه كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُـونَ الْحَـقَّ وَهُـمْ يَعْلَمُونَ] ١٤٦ البقرة ومعنى هذه الآيات أن معرفة أهل الكتاب للنبـي صـلى اللّه عليه وسلم بأنه نبي وأن هذا الكتاب منزل إليه مـن اللّه سـبحانه معرفـة أكيدة قائمة على دليـل نقلـي مـن كتـبهم، والمفـروض أن يكـون جـزءاً مـن اعتقادهم إذا كانوا صادقين في يقينهم. والمعرفة فضلا عن أنها علم يقيني اعتراف وإقرار.[194])

---

١٩٤) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة. د. راجح الكردي. بتصرف

ثامناً: الفرق بين الإيمان والتصديق:

أربعة فروق رئيسة بين الإيمان والتصديق استنبطها العلامة ابـن تيميـة رحمـه الله، إلا أن ذلـك لا يعنـي أن الإيمـان لـيس التصـديق، بـل يعنـي أن التصديق الداخل في تعريـف الإيمـان يتعلـق بقضـايا معينـة مـن التصـديق، ويشمل التصديق ما فوق ذلك قضايا أخـرى، قـال رحمـه الله فـي كـلام أنقلـه بتصرف:

١- وليس لفظ الإيمان مرادفاً للفظ التصديق كما يظنه طائفـة مـن النـاس فإن التصديق يستعمل في كل خبر فيقال لمـن أخبـر بـالأمور المشـهورة؛ مثل الواحد نصف الاثنـين والسـماء فـوق الأرض مجيبـاً صـدقت، وصـدقنا بذلك، ولا يقال آمنا لك ولا آمنا بهـذا حتـى يكـون المخبـر بـه مـن الأمـور الغائبة، فيقال للمخبر آمنا له وللمخبر به آمنـا بـه كمـا قـال اخـوة يوسـف: [وما أنت بمؤمن لنا] أي بمقر لنا ومصدق لنا لأنهم أخبروه عن غائب.

٢- والفرق الثاني ما تقدم من أن الإيمان لا يسـتعمل فـي جميـع الأخبـار بـل في الأخبار عن الأمـور الغائبـة ونحوهـا مما يـدخلها الريـب فـإذا أقـر بهـا المستمع قيل آمن بخلاف لفظ التصديق فإنه عام متنـاول لجميـع الأخبـار، وأما المعنى فإن الإيمان مـأخوذ مـن الأمـن الـذي هـو الطمأنينـة كمـا أن لفظ الإقرار مأخوذ من قرّ يقرّ وهو قريـب مـن أمـن يـأمن، لكـن الصـادق

يطمئن إلى خبره والكاذب بخلاف ذلك كما يقال الصدق طمأنينة والكذب ريبة فالمؤمن دخل في الأمن كما أن المقر دخل في الإقرار. [قال الصنعاني في إجابة السائل: فكأنه قيل الاعتقاد هو الجزم الذي يقبل التشكيك في الجملة أشار إليه السعد في حواشي شرح العضد]

٣- وكذلك لفظ الإيمان فيه إخبار وإنشاء[١٩٥] والتزام بخلاف لفظ التصديق المجرد فمن أخبر الرجل بخبر لا يتضمن طمأنينة إلى المخبر لا يقال فيه آمن له بخلاف الخبر الذي يتضمن طمأنينة إلى المخبر، والمخبر قد يتضمن خبره طاعة المستمع له وقد لا يتضمن إلا مجرد الطمأنينة إلى صدقه فإذا تضمن طاعة المستمع لم يكن مؤمناً للمخبر إلا بالالتزام طاعته مع تصديقه[١٩٦]، (وهو الإقرار) بل قد استعمل لفظ الكفر المقابل للإيمان في نفس الامتناع عن الطاعة والانقياد[١٩٧]، فقياس ذلك أن يستعمل لفظ الإيمان كما استعمل لفظ الإقرار في نفس التزام الطاعة

---

١٩٥) الإنشاء ما ليس له نسبة في الخارج تطابقه بخلاف الخبر. الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة لزكريا الأنصاري.

١٩٦) هذا خطأ محض، فعندما يأمرك الله بالصيام، فإن لم تلتزم طاعته مع تصديقه، من باب الجحود كان كفرا، أما التكاسل فهو فسق لا يخرج الإيمان إلى نقيضه.

١٩٧) أي عند المشاققة وهذا صحيح، فالمشاقق كافر، لكن من لا يلتزم عمل الجوارح فليس كذلك إلا أن يتعلق بنفي تصديق الفعل أو بالتكبر على الله أو ما شابه.

والانقياد. [وأرجو التنبه أيضا إلى مفهوم الانقياد ومفهوم الاتباع كما مر تفصيله]

فإن الله أمر إبليس بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين و أيضاً فلفظ التصديق إنما يستعمل في جنس الإخبار فإن التصديق إخبار بصدق المخبر والتكذيب إخبار بكذب المخبر، فقد يصدق الرجل الكاذب تارة، وقد يكذب الرجل الصادق أخرى، فالتصديق والتكذيب نوعان من الخبر وهما خبر عن الخبر فالحقائق الثابتة في نفسها التي قد تعلم بدون خبر لا يكاد يستعمل فيها لفظ التصديق والتكذيب إن لم يقدر مخبر عنها، بخلاف الإيمان والإقرار والإنكار والجحود ونحو ذلك فإنه يتناول الحقائق والإخبار عن الحقائق أيضاً.

٤- وأيضا فالذوات التي تحب تارة وتبغض أخرى وتوالى تارة وتعادى أخرى وتطاوع تارة وتعصى أخرى ويذل لها تارة ويستكبر عنها أخرى تختص هذه المعاني فيها بلفظ الإيمان والكفر ونحو ذلك، وأما لفظ التصديق والصدق ونحو ذلك فيتعلق بمتعلقها كالحب والبغض، فيقال حب صادق وبغض صادق، فكما أن الصدق والكذب في إثبات الحقائق ونفيها متعلق بالخبر النافي، والمثبت دون الحقيقة ابتداء، فكذلك في الحب والبغض ونحو ذلك يتعلق بالحب والبغض دون الحقيقة ابتداء بخلاف لفظ الإيمان والكفر فإنه يتناول الذوات بلا واسطة إقرار أو إنكار أو حب أو بغض أو

طمأنينة أو نفور، ويشهد لهذا الدعاء المأثور المشهور عند استلام الحجر اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك وإتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فقال إيماناً بك ولم يقل تصديقاً بك كما قال تصديقاً بكتابك، وقال تعالى عن مريم وصدقت بكلمات ربها وكتبه، فجعل التصديق بالكلمات والكتب... ولفظ الإيمان يستعمل في الخبر أيضاً كما يقال [كل آمن بالله] أي أقر له، والرسول يؤمن له من جهة أنه مخبر ويؤمن به من جهة أن رسالته مما أخبر بها كما يؤمن بالله وملائكته وكتبه فالإيمان متضمن للإقرار بما أخبر به، والكفر تارة يكون بالنظر إلى عدم تصديق الرسول والإيمان به وهو من هذا الباب يشترك فيه كل ما أخبر به، و تارة بالنظر إلى عدم الإقرار بما أخبر به.[١٩٨]

وقال ابن القيم: وزعم أنه لو كان على عرشه لم يكن معنا، وعارضه بقوله [الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ] ٧ غافر؛ وهذه معارضة الزمخشري في كشافه قال: وفيها التنبيه على أن الأمر لو كان كما يقوله المجسمة كان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معاينين ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما

١٩٨ مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٣٠-٥٣٦

يوصف بالإيمان الغائب ولما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من في الأرض ...الخ[199] ووجه الشاهد هنا من كلام الزمخشري لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب. لا غير.

ونص ما جاء في الكشاف الجزء الرابع: [الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا] فان قلت: ما فائدة قوله: [ويؤمنون به] لا يخفى على احد ان حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون قلت: فائدته اظهار شرف الايمان وفضله والترغيب فيه ما وصف الانبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك وكما عقب اعمال الخير بقوله تعالى: [ثم كان من الذين امنوا] البلد: ١٧ فأبان بذلك فضل الايمان.

وفائدة اخرى: وهي التنبيه على أن الامر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش من حوله مشاهدين معاينين ولما وصفوا بالايمان لانه انما يوصف بالايمان الغائب فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم ان ايمانهم وايمان من في الارض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء: في أن ايمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير وانه لا طريق الى معرفته الا هذا وأنه منزه عن صفات الاجرام. وقد روعي التناسب في قوله: [ويؤمنون

---

١٩٩) الصواعق المرسلة ٤/١٥٣١

به] [ويستغفرون للذين ءامنوا] كانه قيل: ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم. وفيه تنبيه على أن الاشتراك في الايمان يجب ان يكون ادعى شيء الى النصيحة وابعثه على امحاض الشفقة وان تفاوتت الاجناس وتباعدت الاماكن.

فانه لا تجانس بين ملك وانسان ولا بين سماوي وارضي قط ثم لما جاء جامع الايمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الارض. إ.هـ.[٢٠٠]

وهنا دقيقة: هي أننا إذ نؤمن مثلا بالقران ونحن نعاينه ونشاهده فإن في إيماننا جانب غيبي وهو أن هذا الذي بين أيدينا من عند الله تعالى، وتعليقنا السريع على كلام الزمخشري أننا لا يجب أن نقيس عالم الملائكة، وما يختص بصفات الله تعالى على عالمنا، فالملائكة تؤمن بالله ولا ندري كيفية ولا صفة هذه الأفعال منهم، ونحن إذ نقول بأن المؤمن لا بد من أن يكون في إيمانه ناحية متعلقة بالغيب وأمر يقطع فيه مرحلة الريب، ليصل اليقين فالإيمان، فإن ذلك خاص بالبشر وعقولهم وليس لنا أن نقيس الملائكة وأفعالهم على أفعالنا، وإن كان الموضوع إطلاق معنى لغوي على واقع، ولكن جهلنا بواقع أفعال الملائكة لا ينفي هذا الوصف لفعل الإيمان

---

٢٠٠) الكشاف الجزء الرابع

ومتعلقه، ولا يثبت للملائكة رؤية أو عدم رؤية، والقول أن إيمان الملائكة بالنظر والاستدلال يحتاج إلى دليل، كما ويجب ملاحظة أن الايمان بالله تعالى يتضمن الايمان بوجوده وبصفاته ومن هذه أمور لا يبلغ العلم بها مخلوق فهذا يفضي إلى ناحية غيبية على الملائكة أنفسهم تبين معنى استعمال لفظ الايمان هنا، ونفي الجسمية عن الله تعالى، وأن يكون محدودا في حيز أو مكان، صواب صواب. والله أعلم.

لكن أتعجب هنا من قول ابن تيمية رحمه الله: بخلاف لفظ الإيمان والكفر فإنه يتناول الذوات بلا واسطة إقرار أو إنكار أو حب أو بغض أو طمأنينة أو نفور، ولعلي لم أفهمه، أو فهمته خطأ، وأرجو الرجوع قبل الحكم إلى مصدره من كلامه رحمه الله، لكن ما ينتج عن فهمي هذا هو أن الحب والبغض والإنكار ليست من الإيمان، وبالتالي لا ندري كيف نوفق بين هذا وبين ما أشبعه رحمه الله من بحث في أن الحب وهذه القضايا من الإيمان، إلا أن يكون مقصده أنها شروط كمال لا صحة وهذا ما لا نختلف معه فيه.

ما أراه هنا هو التالي:

لنأخذ أمثلة حية: مثلا: البحث موضوعه الكون هل هو أزلي أم مخلوق لخالق، يقع الحس على موضوع البحث وهو الأجرام السماوية والانسان... أي المادة. نتيجة البحث إما أن المادة أزلية أو غير أزلية وبالتالي مخلوقة لخالق.

لو وصلت إلى أن المادة أزلية من خلال خصائص المادة فلا يفضي بحثك إلى ايمان بشكل عام.

ولو وصلت إلى أنها غير أزلية وبالتالي لا بد من خالق وراء المادة خلقها فالنتيجة أوصلت لإيمان لأنها تعلقت فيما وراء المادة أي بأمر غيبي.

مثلا أن المادة يوجد فيها إلكترونات وبروتونات رغم أن العين المجردة لا تقع عليها، إلا أن العلم يتوصل إليها وربما بمجهر دقيق للغاية يمكن رصدها، البحث في وجود الالكترونات لا يفضي إلى ايمان وكفر لأنه بحث في واقع وفي خصائص هذا الواقع والتي يمكن التدليل عليها، والحس لا بد أن يقع عليها نفسها.

المغناطيسية مثلا شيء غير ملموس وهي أثر لواقع محسوس وهو وجود الحديد بهيئة معينة في ظروف معينة تجعل له خصائص معينة، كخاصية الاحتراق في الخشب والاحراق في النار؛ وبالتالي المغناطيسية خصائص للمادة أي خاصية للواقع وليست المادة نفسها. الواقع هو الحديد في خصائص معينة جعلت له أثرا معينا:

هذه القضايا الحسية لا ينتج عنها ايمان وكفر، فهي ليست عرضة للريب بمعنى قد توجد وقد لا توجد صحيحة أو خطأ تصدق أو تكذب... الخ، لكن من الإيمان القول بأن هذه الخواص من الله تعالى وهو معنى القدر.

مثال ثاني: القرآن من اللّه؛ يقع الحس مباشرة على القرآن ونقرأه وندرك بالحس أن القرآن معجز، كما كان الأولون يسمعون القرآن من الرسول عليه السلام فيشعرون بالعجز عن الاتيان بمثله فيدركون أنه من خالق أي من خالق المادة، الجزء المحسوس في المسألة القرآن يقع عليه الحس، الجانب الغيبي هو اللّه؛ توصلنا إلى أنه من اللّه من خلال الموضوع الذي وقع عليه الحس مباشرة.

خلاصة:

١- الواقع موجود أم غير موجود يكفي الحس أن يقع على الواقع فهو ليس عرضة للتكذيب والتصديق.

إذا رأيت في البيت كتابا فهو موجود فهو واقع لا يطلب الايمان به وهو ليس عرضة للريب.

٢- ماهية الواقع وخصائصه بحث آخر، وهو بحث متعلق بالواقع وليس عرضة للتكذيب والتصديق، مثلا الماء هيدروجين واكسجين أو أن السكر حلو.

٣- ماهية الواقع وخصائصه لتصل إلى ما وراء الواقع هنا تدخل في مسألة الايمان وعدمه، لأنه متعلق فيما وراء الواقع ومن خلاله يصل الانسان إلى نتائج متفاوتة.

باب: الحب والبغض وانفعالات القلب

أما في مجال الحب والبغض والخشية وما شابه من الانفعالات القلبية المتعلقة بالإيمان فقد قال تعالى [وَلَكِنَّ اللَّه حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ] ٧ الحجرات؛ [قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّه فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّه وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ٣١ آل عمران؛ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] ٢٣ التوبة؛ [وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ] ١٦٥ البقرة؛ [وَإِذَا ذُكِرَ اللَّه وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ]٤٥ الزمر؛ وقوله [وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّه بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] ١٠٩ البقرة؛ وقوله [ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّه فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ] ٩ محمد؛ [وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ] ١٢٤ التوبة.

أما الحبيب المصطفى صلى اللّه عليه وسلم فقد قال في هذا الباب:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللّه عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللّه وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ. البخاري / الإيمان.

قال ابن حجر: قوله: (باب حلاوة الإيمان) مقصود المصنف أن الحلاوة من ثمرات الإيمان. ولما قدم أن محبة الرسول من الإيمان أردفه بما يوجد حلاوة ذلك.... من حديث أبي أمامة ولفظه «الحب في اللّه والبغض في اللّه من الإيمان» وأن له طرقاً أخرى. وقوله: «أن يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما» معناه أن من استكمل الإيمان علم أن حق اللّه ورسوله آكد عليه من حق أبيه وأمه وولده وزوجه وجميع الناس، [٢٠١]

عن عَبْدُ اللّه بْنُ عَبْدِ اللّه بْنِ جَبْرٍ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسًا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ. البخاري كتاب الإيمان.

---

٢٠١) فتح الباري لابن حجر كتاب الإيمان.

عَنْ عَدِيٍّ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ سَمِعْتُ الْبَرَاءَ يُحَدِّثُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْأَنْصَارِ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّه وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّه. مسلم كتاب الإيمان.

روى البخاري وأحمد: عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم قال: «واللّه لا يؤمن، واللّه لا يؤمن، واللّه لا يؤمن، قالوا: وما ذاك يا رسول اللّه؟ قال: الجار لا يأمن جاره بوائقه، قالوا: يا رسول اللّه وما بوائقه؟ قال: شره».

قال السندي: قوله: (باب إثم من لا يأمن جاره بوايقه) وفيه: «واللّه لا يؤمن»، وقد حمل هذا على كمال الإيمان، وهو في موقعه؛ لأنه خبر عنه بعد الإيمان، فلا يصح على إطلاقه، وكذا حمل قوله من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، وأمثاله على كمال الإيمان، وهذا فيما يظهر تأويل في غير موضعه لأن المطلوب الأمر، أو النهي وكل منهما متوجه إلى المؤمنين كلهم، ولا يختص بهما كامل الإيمان بل ناقص الإيمان أولى بالأمر والنهي من الكامل، فافهم، اهـ.[٢٠٢]

---

٢٠٢) حاشية السندي على البخاري كتاب الأدب.

وفي تخريج أحاديث الإحياء: حديث "لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام" أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمار بن ياسر ووقفه البخاري عليه.[٢٠٣]

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَابْنُ بَشَّارٍ قَالَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ سَمِعْتُ قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ. مسلم كتاب الإيمان.

وفي جامع المسانيد والمراسيل: قَالَ النَّبِيُّ صلى اللّه عليه وسلم: «لاَ يَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ الإيمَانَ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَحَتَّى يَخَافَ اللَّهَ فِي مِزَاحِهِ وَجِدِهِ» أبو نعيم في المعرفةِ عن أبي مليكةَ الذّماري رضيَ اللّهُ عنهُ.[٢٠٤]

---

٢٠٣) العراقي في تخريج أحاديث الإحياء الأخبار الواردة في حقوق المسلم.

٢٠٤) ذكر الحافظ زين الدين العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: حديث "لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه" ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة الذماري وقال فيه نظر وللشيخين من حديث أنس"لا يؤمن أحد منكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" وللدارقطني في المؤتلف والمختلف من

وعند المنذري في الترغيب والترهيب: وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». رواه البخاري، ومسلم وغيرهما، ورواه ابن حبان في صحيحه، ولفظه: «لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ الإيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

وروى البيهقي في شعب الإيمان: نا أبو مصعب المدني الذي يلقب بمطرف حدثني أبو مودود عن أبي حازم عن أنس بن مالك قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول لا يستكمل العبد الإيمان حتى يحسن خلقه ولا يشفي غيظه وأن يود للناس ما يود لنفسه لقد دخل الجنة رجال بغير أعمال قيل بم دخلوها يا رسول اللّه قال بالنصيحة لأهل الإسلام وسماحة الصدر[٢٠٥]

وقال النروزي في تعظيم قدر الصلاة: حدثنا إسحاق، أنا روح بن عبادة، ثنا حسين المعلم، عن قتادة، عن أنس، عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: والذي نفسي بيده « لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه قال أبو عبد اللّه: يريد لا يؤمن الإيمان كله، وكذلك قوله: لا إيمان

حديث أبي هريرة"لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه" قال أحمد بن حنبل منكر.

٢٠٥) البيهقي: شعب الإيمان فصل في التجاوز والعفو.

لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، وقوله: ليس بمؤمن من لا يأمن جاره بوائقه يقول: ليس بمؤمن كامل الإيمان، وقوله: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، يقول: المسلم المكمل لإسلامه المحسن فيه من كان كذلك ألا تراه قال في حديث آخر: أفضل المسلمين إسلاما من سلم المسلمون من لسانه ويده، وقوله: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين يريد المؤمن الكيس المتيقظ المتعاهد لإيمانه. وسنذكر الأخبار المروية على هذا المثال في كتاب الإيمان خاصة من ذلك ما».[٢٠٦]

وفي سبل السلام للصنعاني: قال ابن الصلاح: وهذا قد يعد من الصعب الممتنع، وليس كذلك إذ معناه لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه في الإسلام ما يحب لنفسه من الخير. والقيام بذلك يحصل بأن يحب له مثل حصوله ذلك من جهة لا يزاحمه فيها بحيث لا تنقص النعمة على أخيه شيئاً من النعمة عليه، وذلك سهل على القلب السليم وإنما يعسر على القلب الدغل. عافانا الله وإخواننا أجمعين ا هـ.

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: قوله: (لا يؤمن) أي من يدعي الإيمان، وللمستملي: «أحدكم» وللأصيلي: «أحد» ولابن عساكر «عبد» وكذا لمسلم

٢٠٦) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر النروزي

عن أبي خيثمة، والمراد بالنفي كمال الإيمان، ونفي اسم الشيء ـ على معنى نفي الكمال عنه ـ مستفيض في كلامهم كقولهم: فلان ليس بإنسان. فإن قيل: فيلزم أن يكون من حصلت له هذه الخصلة مؤمناً كاملاً كقولهم: فلان ليس بإنسان. فإن قيل: فيلزم أن يكون من حصلت له هذه الخصلة مؤمناً كاملاً وإن لم يأت ببقية الأركان، أجيب بأن هذا ورد مورد المبالغة، أو يستفاد من قوله: «لأخيه المسلم» ملاحظة بقية صفات المسلم. وقد صرح ابن حبان من رواية ابن أبي عدي عن حسين المعلم بالمراد ولفظه «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان» ومعنى الحقيقة هنا الكمال، ضرورة أن من لم يتصف بهذه الصفة لا يكون كافراً، وبهذا يتم استدلال المصنف على أنه يتفاوت، وأن هذه الخصلة من شعب الإيمان، وهي داخلة في التواضع على ما سنقرره.[٢٠٧]

وقال النووي رحمه الله: قال العلماء رحمهم الله: معناه لا يؤمن الإيمان التام، وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة، والمراد يحب لأخيه من الطاعات والأشياء المباحات، ويدل عليه ما جاء في رواية النسائي في هذا الحديث: «حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه» قال الشيخ أبو

٢٠٧) فتح الباري لابن حجر العسقلاني رضي الله عنه كتاب الإيمان.

عمرو بن الصلاح: وهذا قد يعد من الصعب الممتنع وليس كذلك، إذ معناه لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه في الإسلام مثل ما يحب لنفسه،[٢٠٨]

وقال المباركفوري أبو العلا في تحفة الأحوذي: قوله: (لا يؤمن أحدكم) أي إيماناً كاملاً (حتى يحب لأخيه) أي المسلم (ما يحب لنفسه)[٢٠٩]

جاء في كتاب السنة لعبد اللّه بن أحمد بن حنبل: قال وجدت في كتاب أبي رحمه اللّه، قال: أخبرت أن فضيل بن عياض: قرأ أول الأنفال حتى بلغ {أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم} ثم قال حين فرغ: إن هذه الآية تخبرك أن « الإيمان قول وعمل، وأن المؤمن إذا كان مؤمنا حقا فهو من أهل الجنة، فمن لم يشهد أن المؤمن حقا من أهل الجنة فهو شاك في كتاب اللّه عز وجل مكذب به أو جاهل لا يعلم، فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمن حقا مستكمل الإيمان ولا يستكمل الإيمان إلا بالعمل ولن يستكمل عبد الإيمان ولا يكون مؤمنا حقا حتى يؤثر دينه على شهوته،[٢١٠]

---

٢٠٨) شرح النووي على صحيح مسلم كتاب الإيمان.

٢٠٩) تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي للمباركفوري كتاب صفة القيامة.

٢١٠) السنة لعبد اللّه بن أحمد بن حنبل سئل عن الإيمان والرد على...

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ. قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. الترمذي كتاب الاستئذان والآداب عن رسول اللّه.

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللّه إِنَّ قُرَيْشًا إِذَا لَقِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَقُوهُمْ بِبِشْرٍ حَسَنٍ وَإِذَا لَقُونَا، لَقُونَا بِوُجُوهٍ لَا نَعْرِفُهَا قَالَ فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَضَبًا شَدِيدًا وَقَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الْإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّكُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ. أحمد مسند بني هاشم.

وروى البخاري: عن قَتادةَ عنْ أنَسٍ قال: قال النبيُّ صلى اللّه عليه وسلّم: «لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حتى أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ والِدِهِ وَوَلَدهِ والنَّاس أجْمَعين».

قال ابن حجر في الفتح: قوله: (لا يؤمن) أي إيماناً كاملاً. انتهى

وقال العيني في عمدة القاري: يريد: لا يبلغ حقيقة الإيمان وأعلى درجاته حتى أكون أحب إليه... إلى آخره. انتهى.

وقال النووي: قال ابن بطال والقاضي عياض وغيرهما رحمة اللّه عليهم: المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس، فجمع صلى اللّه عليه وسلّم أصناف المحبة في محبته. قال ابن بطال رحمه اللّه: ومعنى

الحديث أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي صلى اللّه عليه وسلّم آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين، لأن به صلى اللّه عليه وسلّم استنقذنا من النار وهدينا من الضلال.[٢١١]

وفي تخريج أحاديث الإحياء للعراقي: حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما متفق عليه من حديث أنس بلفظ، لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله" وذكره بزيادة.

وفي مسند أحمد: عن زهرة بن معبد عن جده قال: «كنا مع النبيّ صلى اللّه عليه وسلّم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه فقال: واللّه يا رسول اللّه لأنت أحب إليّ من كل شيء إلاّ نفسي، فقال النبيّ صلى اللّه عليه وسلّم: والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، قال: فأنت الآن واللّه أحب إليَّ من نفسي، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم: الآن يا عمر».

والحديث في هذا الموضوع يطول ولكن لا بد من بيان الأوجه المتعلقة مباشرة بالانفعالات القلبية المتعلقة بالإيمان على أساس بيان افتراقها عنه

---

٢١١) شرح النووي على صحيح مسلم. كتاب الإيمان.

وعلاقتها به؛ وهنا نلخص ما بينه بإسهاب ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج ٧ /٥٣٨ وج١٤ / ٢٧٨ وما حولهما:

(١- مجرد التصديق مع البغض لله ولرسوله ومعاداة الله ورسوله ليس إيماناً باتفاق المسلمين وليس مجرد التصديق والعلم يستلزم الحب، من هنا كانت الأحاديث تنص على أنه لا يؤمن أحدكم حتى كذا؛ وقد ثبت أنه لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإنما المؤمن من لم يَرْتَب، وجاهد بماله ونفسه في سبيل الله، فمن لم تقم بقلبه الأحوال الواجبة في الإيمان، فهو الذي نفى عنه الرسول الإيمان وإن كان معه التصديق[٢١٢].

٢- ثمة أصلان: التصديق بالحق والمحبة له فهذا أصل القول وهذا أصل العمل، والحب التام مع القدرة يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر والعمل الظاهر ضرورة كما تقدم، فمن جعل مجرد العلم والتصديق موجباً لجميع ما يدخل في مسمى الإيمان وكل ما سمي إيماناً فقد غلط، بل لابد من العلم والحب، والعلم شرط في محبة المحبوب، لكن لا يلزم من العلم بالشيء

---

٢١٢) نفي كمال الإيمان لا نفي الإيمان نفسه يرحمك الله يابن تيمية! فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بالذي نفسه بيده أنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فلو كان نفي الإيمان لا نفي كماله، لما بقي على الأرض إلا قلة قليلة تسمى بالمؤمنين!

والتصديق بثبوته محبته، إن لم يكن بين العالم والمعلوم معنى في المُحَب أحب لأجله، ولهذا كان الإنسان يصدق بثبوت أشياء كثيرة ويعلمها وهو يبغضها، كما يصدق بوجود الشياطين والكفار ويبغضهم، ونفس التصديق بوجود الشيء لا يقتضي محبته، لكن الله سبحانه يستحق لذاته أن يحب ويعبد، وأن يحب لأجله رسوله، فمن صدق به وبرسوله ولم يكن محباً له ولرسوله لم يكن مؤمناً.

٣- ويترتب على ذلك أن الإيمان ليس مجرد التصديق بل لابد من أعمال قلبية تستلزم أعمالا ظاهرة كما تقدم فحب الله ورسوله من الإيمان وحب ما أمر الله به وبغض ما نهى عنه؛ هذا من أخص الأمور بالإيمان، ولهذا ذكر النبي في عدة أحاديث أن من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن. وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمان، ومعلوم أن الزاني حين يزني إنما يزني لحب نفسه لذلك الفعل، فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة، أو حب الله الذي يغلبها لم يزن، وإنما يزني لخلوه عن ذلك وهذا هو الإيمان الذي ينزع منه ولم ينزع منه نفس التصديق.

٤- ولما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة كان يستدل بها عليها، كما في الآية [لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّه وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ]

٢٢ المجادلة، فأخبر أن من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر لا يوجدون موادّين لأعداء الله ورسوله، بل نفس الإيمان ينافى مودتهم فإذا حصلت الموادة؛ دل ذلك على خلل الإيمان، وكذلك قوله [تَـرى كَثِيـرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّـوْنَ الَّـذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّه عَلَـيْهِمْ وَفِـي الْعَـذَابِ هُـمْ خَالِدُونَ ٨٠ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللّه والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَـاءَ] المائدة وكـذلك قولـه [إِنَّمَا الـمُؤْمِنُونَ الَّـذِينَ آمَنُـوا بِـاللّه وَرَسُـولِهِ ثُـمَّ لَـمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِـي سَـبِيلِ اللّه أُوْلَئِـكَ هُـمُ الصَّـادِقُونَ] ١٥الحجرات فأخبر تعالى أن هؤلاء هم الصادقون في قولهم آمنا ودل ذلك على أن الناس في قولهم آمنا صادق وكاذب)[٢١٣]

٢١٣) مجموع الفتاوى ج ٧ /٥٣٨ وج١٤ / ٢٧٨

فصل: مدرستان في النظر إلى طبيعة الإيمان

هذا ملخص ما يراه ابن تيمية رحمه الله، وجل ما فيه حق، إلا أننا نسجل هنا أنه انطلق في ذلك كله من منطلقين قد نختلف فيهما معه جزئياً؛ ويترتب عليهما بعض الاختلاف في الحكم على مكانة الحب من الإيمان: أولهما من هو المؤمن ومتى تتحقق فيه هذه الصفة؟ والثاني ما الفرق بين المؤمن والمسلم؟

يرى المتتبع لبعض العلماء القائلين بأن الحب والعمل من الإيمان، والقائلين من العلماء والحذاق وبعض المتكلمين بأن الحب والعمل ليسا من الإيمان، بل من مستلزماته وثماره، يرى أن ذلك يعود لاختلافهم في تحديد الموضوع الذي يدرسونه.

فالفريق الأول: نظروا إلى المؤمن مباشرة، من هو وما هي الشروط التي تتوفر فيه للحصول على هذا اللقب، فالحق سبحانه إذ يقول مثلا [يا أيها الذين ءامنوا] يدخل هذا المؤمن في هذا الوصف، والمؤمن هنا هو صاحب الشخصية الإسلامية، أي الذي تَبنَّى العقيدة الإسلامية أساساً لتفكيره، والأحكام الشرعية مقياساً لأفعاله، ولا يُنظر إلى كيفية إيمانه بجزئيات العقيدة، أي لا ينظر إلى الإيمان من زاوية أنه ما نفى الشك وتجاوز الظن ليصل إلى الجزم في الاعتقاد، فالمؤمن عندهم مؤمن بالله وملائكته وكتبه

...الخ ويحب الله ورسوله أكثر مما وممن سواهما، ويعمل الصالحات، بذلك استحق لقب المؤمن في الكتاب والسنة، فلا يركزون النظر على آحاد الأركان منفصلة للتحقيق في كيفية حصول الإيمان بها؛ بل ينظرون إلى أن هذا الشخص شخصية إسلامية ينطلق من العقيدة التي آمن بها في حياته، وصفه القرآن بأنه مؤمن.

فمثلا ذكر النبي في عدة أحاديث أن من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن، أي أن له سجايا معينة ملازمة لشخصيته كمؤمن، يقوّم أفعاله من خلال عرضها على إيمانه!!

وقال علي رضي الله عنه في الأمر الذي بعث فيه يوم الحج الأكبر: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، فالمؤمن إذن عندهم هو الذي تجب له الجنة بصفه أنه مؤمن دون الحاجة لبيان أن الإيمان هو ما تجاوز الظن في كل ركن من أركانه ليصل اليقين.

أو مثلاً روى الإمام البخاري في كتاب الصلاة: حدثنا قتادة قال سمعت أنس بن مالك قال قال النبي صلى الله عليه وسلم إن المؤمن إذا كان في الصلاة فإنما يناجي ربه فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه ولكن عن يساره أو تحت قدمه. فالرسول عليه السلام هنا يتحدث عن صاحب شخصية إسلامية اسمه المؤمن لاحظ أن هذا الفعل المطلوب منه أي أن لا يبزق بين

يديه في الصلاة لا علاقة له بالتصديق مباشرة ولا علاقة له بالشك واليقين والبحث المتعلق بهما، لا علاقة له بالايمان كأفكار قابلة للاعقاد، بل علاقته المباشرة بأنه مؤمن ينهاه عليه السلام أن يفعل مثل هذه الأفعال التي لا تليق بمؤمن.

وفي البخاري كتاب الصلاة: عن أبي موسى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك أصابعه.

فهو يتحدث عن شخصيات إسلامية لها صفات معينة متى ما كان المرء مؤمناً عليه أن يتصف بما يميزها عن غيرها!!

روى البخاري في كتاب المظالم والغصب: عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال النبي صلى اللّه عليه وسلم "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن" فلا بد من ارتباط المفاهيم العقدية بالحلال والحرام، لا بد أن يُسيِّرَ الإيمانُ السُّلوكَ، أي أن يكون الإيمان قيادة فكرية للمرء في الحياة.

تأمل كيف يدق هذا الفهم في الحديث التالي الذي رواه البخاري في كتاب الصلاة وكيف شرحه ابن حجر رحمه اللّه: أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته قالت: كن نساء المؤمنات يشهدن مع رسول اللّه صلى اللّه عليه

وسلم صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس.

قوله في حديث عائشة (كن) قال الكرماني: هو مثل أكلوني البراغيث لأن قياسه الإفراد وقد جمع. قوله: (نساء المؤمنات) تقديره نساء الأنفس المؤمنات أو نحوها ذلك حتى لا يكون من إضافة الشيء إلى نفسه، وقيل إن "نساء" هنا بمعنى الفاضلات أي فاضلات المؤمنات كما يقال رجال القوم أي فضلاؤهم. إ.هـ. فصفة المؤمنات تتعلق بتلك النساء اللواتي دفعهن إيمانهن وشدة حرصهن على أن يقمن بفعل هذا وصفه.

وكمثال آخر يتضح فيه الفهم: [وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ] ٩٣ البقرة

فالإيمان يأمر المؤمن بأعمال وينهاه عن أعمال، أي يخلقه بأخلاق معينة ويضبط سلوكه في الحياة، فيصبح المرء مؤمنًا أي له لقب ووصف المؤمن.

من هنا قالوا بأن العمل من الإيمان إذ لا يتصور أن لا يعمل المؤمن بما علم؛ وهذا حق أيضاً؛ فمن هذا المنطلق يكون الحب جزءاً من الإيمان (شرطا كمال لا شرطا صحة).

[وَالّـذِينَ آمَنُـواْ وَهَـاجَرُواْ وَجَاهَـدُواْ فِـي سَـبِيلِ اللّه وَالَّـذِينَ آوَواْ وَّنَصَـرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الـمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَـرِيمٌ] ٧٤ الأنفال. (لاحظ هنا أن الإيمان زائد الأعمال يساوي الإيمان الحق).

إلا أن بعض أصحاب هذه المدرسة، يتدرجون في المراتب، ليكون المرء مسلما، ثم يترقى في درجات الصدق مع اللّه ليكون مؤمنا، ومن ثم محسنا، فقد يكون المرء عندهم مسلماً، لكنه ليس بمؤمن، أي لم يصل لمرتبة المؤمن، وقد يفعل الزنا مثلا، فيخرج من الإيمان إلى الإسلام، أي من درجة المؤمن إلى درجة المسلم، وقال بهذا الرأي كثيرون.

وأهل الرأي الثاني انطلقوا من نظرتهم إلى آحاد أركان الإيمان؛ وإلى طبيعة العملية التي تفرز الإيمان، فرأوا أن المرء إما أن يؤمن بوجود اللّه أو لا يؤمن؛ فإن صدق تصديقاً جازماً بوجوده أصبح مؤمناً؛ وهنا إما أن يكون مؤمناً بهذه القضية أو كافراً؛ كذلك الإيمان بنبوة النبي المصطفى صلى اللّه عليه وسلم؛ فإما أن تؤمن بذلك أو تكفر ولا مجال للكلام عن العمل أهو من الإيمان أم لا هنا؛ فأنت أمام قضية فكرية لها أدلتها تعمل فيها فكرك للوصول إلى التصديق الجازم المبني على الأدلة وبالتالي تصدق فتصبح مؤمناً أو لا تقتنع فتكون كافراً؛ كما لا مجال أيضاً للحديث عن تفاضل في قلب المؤمن ولا عن تفاوت في هذا الإيمان بين المؤمنين، لأنه لا يحتمل إلا الوجود والعدم، فمجرد الشك في أية قضية يترتب عليه الكفر.

فإذا ما تحقق الإيمان بالأركان جميعها بهذه الطريقة انطبق عليك لقب مؤمن؛ وإذا لم تؤمن بقضية واحدة قطعية كنت كافراً؛ فلو آمنت بالله وملائكته ولم تؤمن مثلا بالقرآن لا يمكن أن تكون مؤمناً بل يدخل المرء مباشرة في الكفر بإنكاره أو إذا لم يصدق جازماً بما هو معلوم من الدين بالضرورة.

روى الإمام البخاري في كتاب الأذان: عن زيد بن خالد الجهني أنه قال صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب وأما من قال بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب.

فالتركيز هنا على كيفية دخول الإيمان في القلب وانطباق شروطه من تصديق جازم مطابق للواقع عن دليل، ليُحكم عليه بأنه إيمان خال من الشك، لا تقليد ولا ظن ولا ما إلى ذلك؛ ولنلاحظ أن الحق سبحانه في الكتاب العزيز قد قرن بين وجود الظن وبين العلم واليقين والإيمان.

قال تعالى: [وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ] ٢١ سبأ، [مَا لَهُم بِهِ مِنْ

عِلْمٍ إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا] ١٥٧ النساء، [وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ] ٢٤ الجاثية، [إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ] ٣٢ الجاثية، [وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا] ٢٨ النجم، والآيات التي دللت على حقائق الإيمان أكثر من أن تحصر، [أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ٢٠] الغاشية، [قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٦٤] النمل.

فوجود الإيمان كمفهوم عقدي مقروناً بانتفاء الشك والظن لعدم إمكانية اجتماعهما مفهوم قرآني لا بد منه لاستنباط تعريف دقيق للإيمان،

ولمعرفة واقع من هو المؤمن، أي أن القرآن الكريم خاطب المؤمنين بوصفهم مؤمنين أي ذوي شخصية إسلامية، كما خاطبهم بوصفهم يؤمنون عن طريق كيفية معينة، أي حسب المدرستين.

ثم بعد ذلك أي بعد أن يصدق المرء جازما بكل قضية من قضايا الاعتقاد على حدة لا بد له من شروط ليوصف بأنه مؤمن مر ذكرها، ونذكّر بقول الامام النبهاني رحمه الله: ومما يجب أن يُلفت النظر إليه أن اعتناق العقيدة الإسلامية معناه الإيمان بكافة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم. ويجب أن يعلم أن مجرد المعرفة لا يغني، وأن التمرد على أصغر شيء ثابت يقيناً من الإسلام يخرج الشخص ويفصله من العقيدة. والإسلام كلٌ غير قابل للتجزئة من حيث الإيمان والتقبل فلا يجوز في الإسلام إلا أن يُتقبل كاملاً، والتنازل عن بعضه كفر،...[٢١٤]

٢١٤) الشخصية الاسلامية الجزء الأول لتقي الدين النبهاني فصل الثغرات في السلوك

فصل: الإيمان نوعان، أصل، لا يتفاضل، ونوع آخر: يتفاضل

سأوضح ما أريد الوصول إليه في النقاط التالية:

أولا: بعض العلماء في محاولتهم تأويل مسألة تفاضل الإيمان، انطلقوا من مسألة أن الفرائض كانت تنزل، فكلما نزلت آية ازداد المؤمنون بها إيمانا، وازداد الكافرون بها رجسا إلى رجسهم، فالإيمان ازداد بزيادة هذه الآيات أو بزيادة الأحكام، فمن مات قبل تشريع الصلاة مات مؤمنا إيمانا كاملا بما كان من عقائد وتشريعات قبل الصلاة، ومن أدرك تشريع الصلاة، زاد إيمانه بها، وهنا نقول أن بعض العلماء عنى بذلك أن العمل نفسه من الإيمان، فقالوا أن الإيمان يزيد بالطاعات، لأن أصله لا يزيد، أي التصديق، وبالتالي فالطاعات هي التي تزيده، فإن كان مقصودهم عمل الجوارح، فلا نسلم لهم بذلك، لأن عمل الجوارح ليس من الإيمان، وإنما هو من شروط كماله، وأما إن كان مقصودهم التصديق بهذه الأوامر التي نزلت وأمر الشارع اعتقادها، فذلك صحيح، كأن ينزل أمر بتفريع الصلاة عن اعتقاد أن لا معبود بحق إلا الله، فإن صلى الرجل لغير الله، أو صلى في كنيسة صلاة النصارى، انتقض إيمانه، وقد فصلنا في ذلك سابقا، فالشاهد هنا أنه ازداد بهذا الأمر إيمانا.

ثم إن الإيمان اكتمل والإسلام اكتمل من حيث ما أُمر المؤمنون اعتقاده، وما أمروا العمل به، لا من حيث هم أنفسهم، فإن الرجل يتعلم بعد جهله، وإن الرجل يتفكر في آيات جديدة لم يكن تفكر بها، فيسوغ القول أنه يزيد بها إيمانه، لكن من حيث الدين نفسه، أي من حيث اكتمال ما أمرنا اعتقاده أقول: فباكتماله، لم يعد يُقال أن نزول الآية زادت المؤمن إيمانا، لأنه وجب عليه في المستأنف الإيمان بكل ما ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ووجب عليه اعتقاد كل ما نزل فعلا، فحاله يختلف عن حال من عاصر هذا النزول للأحكام، فذاك قبل نزولها لم يكن له اعتقادها، ولم يكن له أن يقول عن شيء أنه حرام أو فرض إلا أن ينزل به حكم، فإذا ما نزل، وجب التزامه ووجب اعتقاد ما أمر باعتقاده، من هنا، فقد نفهم مسألة تفاضل الإيمان على أنها متعلقة بالمؤمنين إبان نزول هذه الأوامر عليهم، أما من ولد بعد اكتمال الدين، فبلغه الإسلام والإيمان كاملين، وعليه اعتقاد كل ما فيهما جملة وتفصيلا.

ثانيا: ينتقل المرء من الكفر إلى الإيمان بالتفكير في قضايا معينة، بتحصيل معارف معينة حول الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم، باعتقاد وجود ووحدانية الله، وأنه الخالق الرازق... الخ، واعتقاد أن القرآن كلام الله وفيه الهداية التي أراد الله من البشر الاهتداء بها، واعتقاد أن محمدا رسوله يبلغ رسالاته، وأنه يصدقه في كل ما يثبت عنه أنه من الدين،

ولا يشاقق، فيدخل في حياض المؤمنين، ويبدأ بتعلم الإسلام وأحكامه من الكتاب والسنة.

هذه المعرفة بأصل الإيمان، التي نقلته من الكفر إلى الإيمان، والتي نقلت تصديقه إلى الجزم بصدق الإسلام، هي أصل الإسلام الذي لا يتفاضل والذي عبر عنه الإمام الطحاوي بجملة مهمة قال فيها: الإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، وقال فيها الكشميري رحمه اللّه كلمة مهمة إذ قال في تعريفه للإيمان بأنه: تصديق بأمور مخصوصة عُلِم كونُها من الدين ضرورة، أقول: هذا نوع من الإيمان، ولدينا إيمان تفصيلي، بكل ما ثبت عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم مما جاء به من وحي، وأمر باعتقاده، وعلى كل قضية من قضاياه أدلة جازمة، كالإيمان مثلا بالجنة ونعيمها، وتفاصيل الحشر والحساب، وما شابه، فهذه الأمور التفصيلية يتفاوت الناس في إدراك تفاصيلها، والإلمام بأدلتها.

نلاحظ أن الفقهاء لما بحثوا مسألة الاستدلال على العقائد، خالفوا المتكلمين في هل يطلب من المؤمن العلم بموجبات العقول، وبالنظر على طريقة المتكلمين، وبنفي الشبهات، وما شابه، فقالوا أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم لم يطلب من أحد أن يدلل على اعتقاده، وأن المطلوب هو فقط الأدلة الجملية، التي تنفي الشك، وتوصل إلى الإيمان بأن الإسلام حق.

وهنا مربط فرس، بأن الإيمان الذي قام على هذه الأدلة الجملية العامة، التي تثبت أصل الإيمان، وتوصل إلى الطمأنينة أن كل ما فيه حق، تتعلق بالقضايا المجملة من الإيمان دون التفصيلية، إذ لا يشترط معرفة أدلة تفاصيل الحساب والحشر مثلا، على العوام، وبجهلهم لهذه الأدلة، لا يقال أن إيمانهم ناقص، أو أنهم غير مؤمنين، إذ أن لديهم أدلة جملية أوصلتهم إلى أن أصل الدين حق، وأنه لو ثبت شيء عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فإنهم يعتقدونه، فثبت بذلك أن أصل الإيمان شيء، وتفاصيل القضايا التي طلب منا الإيمان بها، متعلق آخر، يحتمل التفاضل بين الناس.

[هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللّه عَلِيمًا حَكِيمًا] ٤ الفتح. فهم معهم الإيمان، والآيات المعينة تزيدهم مع إيمانهم إيماناً، فأصل الايمان موجود.

ثالثا: يقول الكشميري ناقلا رأي الإمام أبي حنيفة: أن الإيمان عند الإمام رحمه اللّه تعالى إرادةٌ على إطاعة النبي صلى اللّه عليه وسلّم بجميع ما جاء به. إ.هـ.، وقال ابن حزم: لأنه قد اعتقد المسلمون في أول إسلامهم أنهم مصدقون بكل ما يأتيهم به نبيهم –عليه الصلاة والسلام- في المستأنف فلم يزدهم نزول الآية تصديقاً لم يكونوا اعتقدوه، إ.هـ. وما شابهها من أقوال سترد إن شاء اللّه، هذا يعني أن أصل الإيمان إرادة على طاعة النبي، أو كما وصفها الإمام أحمد: معاقدة قال الكشميري: وإليه يشير ما نُقل عنه، [أي

الإمام أحمد] أن الإيمان معاقدةٌ على الأعمال، أي أنه عقدٌ على التزام الطاعات على نفسه، والعقد يكون وسيلةً للمعقودِ عليه. إ.هـ. فبهذا الإيمان لا تحصل المشاققة بعد أن تبين الهدى.

قال تعالى: [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ] ٢محمد. فخص هذا الإيمان بالتشريف والتعريف به لأهميته.

إذا تبين لك مرادي هذا فلننقل بعض أقوال أهل العلم لنحرر موضع الخلاف أو لنأصل لهذا الفهم بإذن الله:

قال الكشميري رحمه الله: قال الغزالي رحمه الله: إن الإيمان قد يطلق على اليقين، بمعنى انتفاء النقيض، ولا تفاوت فيه، فإن الانتفاء رأساً لا تقام فيه المراتب، وقد يُطلق على استيلاء اليقين على القلب وجعلِهِ الجوارحَ تابعاً له وهو الأكثر، وهذا هو الذي فيه التفاوت، فوقع الالتباس بين المعنيين، فقيل ما قيل، فإما أن نقول: كما قال الغزالي، أي بتعدد الإطلاق في الإيمان. أو نقول: إن الإمام بحث في جُزء من الإيمان، لأن نَظَرَ الفقهاء يتعلق بالخلود والنجاة، أولياً، كان أو مآلياً، بخلاف أنظار المحدثين، فإنها تقتصرُ على النجاة الكاملة الأولية، ولا يمكن إلا بالأعمال الصالحة. فالفقيه يبحثُ عن مراتبِ التصديق عما هو مدارٌ للنجاة، ولو مآلاً، ومن الكفر عما يوجب الخلود. وهذا

كالشهادة، فإن الفقهاء إنما يبحثون عنها باعتبار أحكامهم في الدنيا، والذين تجرى عليهم تلك الأحكام قليلون، بخلاف ما في الحديث، فإن إطلاقَ الشهادة فيه أعمُ وأعم.

ومثله وقع في كثير من المواضع، فالقرآن والحديث إنما تعرَّض إلى انفساحِ التصديق. والانفساحُ أيضاً تصديق في نظر، لأنه تابعٌ له ناشيء عنه، ولذا أطلقَ عليه البخاريُّ الإيمانَ، والإمام الهُمَام لم يتعرض إليه، بل تعرض إلى مرتبة مخصوصة، كما يدل عليه عبارة الطحاوي في «عقيدته»، وهي أثبتُ شيءٍ في هذا الباب. قال: الإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل في الخشية، والتُّقى ومخالفة الهوى، وملازمة التقوى... إلخ فجعل للإيمان أصلاً، وجعل الناسَ كلهم فيه سواء، وهو الذي لو انحط عنه الإيمان لجاء الكفرُ مكانَهُ، وأبقى[٢١٥]

سأتناول الحديث في هذا الموضوع على صعيدين: صعيد من يتفكر في هذا الدين ليدخل فيه، ينتقل من الكفر إلى الإيمان بإيمانه بالله وبأن محمدا رسول الله، وبأن القرآن الكريم كتاب الله، وأنه يصدق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يثبت عنه أنه يبلغه عن الله تعالى، فبهذا الإيمان المجمل، ينتقل إلى الإيمان، ما لم يأت بناقض له، كما روى البخاري رحمه

---

٢١٥) فيض الباري للكشميري كتاب الإيمان.

الله، عن الرسول عليه سلام الله: فقال: ألا تأمَنوني وأنا أمينُ من في السماء، يأتيني خبرُ السماء صباحاً ومَساءً؟

نتحدث في موضوع أساس الايمان مسألة الوجود، وجود الله ومسألة إثبات صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وإثبات وجود الاعجاز في القرآن الكريم، وهي ما تكفينا في مسألة طريق الايمان لنبني أساسا راسخا للايمان، أي أصل الاعتقاد.

أما العقل فبالنسبة للاعتقاد فدوره أن يتوصل إلى أصل الاعتقاد أي إلى أساس الاسلام، وأساس الايمان هو اليقين القطعي بوجود الإله، واليقين القطعي بأن القران كلام الله، واليقين القطعي بأن محمدا رسول الله. هذا اليقين القطعي بهذه الثلاث معا هو أساس الاسلام وعنها تتفرع جميع عقائد الاسلام وأحكامه.

يتوصل المرء إلى هذه الحقائق بالنظر والتفكر، وعند حصوله على اليقين بها، بمطابقة الواقع لحكم عقله عنها، يحصل لديه التصديق بالإسلام، أي بدين الإسلام، فينتقل من الكفر إلى الإيمان، فيصدق جازما بما جاءه من خبر في القرآن على لسان سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم عن قضايا الإيمان الأساسية، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيرهما وشرهما من الله تعالى، كما ويصدق جزما بكل ما ثبت

بطريق القطع، كل هذا يجعل القرآن لا العقل أساس الاعتقاد به، إذ أنه استعمل العقل للوصول إلى أصل الإسلام، ومن ثم يجعل القرآن هو الأساس في مطالبه الخبرية التي يطلب منه الإيمان بها.

والصعيد الثاني: هو صعيد المؤمنين إبان نزول التشريعات، أو خلال مواكبتهم للدعوة من مراحلها الأولى، فهم صدقوا بوحدانية اللّه تعالى، وبأن محمدا رسوله، يأتيه خبر السماء، كما قال سيدي أبو بكر رضي اللّه عنه: عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: لما أسري بالنبي إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رضي اللّه عنه فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس قال: أو قال ذلك قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق قالوا أو تصدقه إنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح فقال: نعم إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي أبا بكر الصدّيق رضي اللّه عنه. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه،[٢١٦]

فالمؤمنون تنزل عليهم أحكام هذا الدين وعقائده، فيزيد ذلك على ما كانوا صدقوه في المستأنف، تفاصيل فيها مطالب خبرية، عليهم أن يتخذوا

٢١٦) أخرجه الحاكم في مستدركه.

حيالها موقف التصديق، فهم معهم أصل الإيمان، وفي هذه القضايا مطالب يؤمنون بها، فتزيد إيمانهم، أو تضاف إلى أصل إيمانهم، فمن مات منهم قبل أن يشرع من الدين ما شرع بعد وفاته، كان معه أصل الإيمان، وبه ينجو، ومن ذلك مثلا لما أتى وفد بني عبد القيس، لم يكن الحج قد فرض، فلم يذكره لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في بيانه لهم، فمتى ما فرض الحج ووصل خبره الناس، عليهم الإيمان بفرضيته، لأنه ثبت بالقطع، وهكذا، ومن ذلك ما روى البخاري: «جاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلّم مِنْ أهلِ نَجْدٍ ثائرَ الرأسِ يُسمعُ دَويُّ صَوتِه ولا يُفْقَهُ ما يقولُ، حتى دَنا، فإذا هُوَ يَسْألُ عنِ الإسلام، فقال رسولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلّم: خَمسُ صَلَواتٍ في الْيَوْمِ والليلةِ. فقال: هَل عَلَيَّ غَيْرُها؟ قال: لا، إلاّ أنْ تَطَوَّعَ. قال رسولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلّم: وَصِيامُ رَمَضانَ. قالَ: هلْ عَلَيَّ غيرُهُ؟ قال: لا، إلاّ أن تَطَوَّعَ. قال وَذَكرَ له رسولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلّم الزَّكاةَ، قال هلْ عَلَيَّ غَيرُها؟ قال: لا، إلاّ أن تَطَوَّعَ. قال فأدبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يقولُ: وَاللّهِ لا أزيدُ عَلَى هذا ولا أنقُصُ. قال رسولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلّم: أفْلَحَ إنْ صَدَقَ».

فإذا فهمنا هذا فلنبين ما نريد من هذا الفصل فنقول وباللّه التوفيق:

جاء وفد بني عبد القيس الرسولَ صلى اللّه عليه وسلم فيما روى ابن عباس في البخاري: إنَّ وفدَ عبدِ القَيْسِ لما أتَوُا النبيَّ صلى اللّه عليه وسلّم قال: «مَنِ القَوْمُ ـ أوْ مَنِ الْوَفْدُ؟ ـ قالوا: رَبيعةُ. قال: مَرْحَباً بالقَوْمِ ـ أو بالوفدِ ـ

غيْرَ خَزايا ولانَدامَى فقالوا: يا رسولَ اللّهِ إنَّا لانَسْتَطيعُ أنْ نأتِيكَ إلاّ في شهر الحَرام، وبَيْنَنا وبَيْنَكَ هذا الحَيُّ من كُفار مُضَرَ، فمُرْنا بأمْرٍ فَصْلٍ، نخْبرُ به مَنْ وَراءَنا، وَنَدخُلُ به الجنَّة. وسألوهُ عن الأشْربةِ، فأمَرَهم بأرْبَعٍ وَنهاهُم عن أربعٍ: أمَرَهم بالإيمانِ باللّهِ وحدَه، قال: أتَدْرونَ ما الإيمانُ باللّهِ وحدَه؟ قالوا: اللّهُ ورسولهُ أعلمُ، قال: شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وصيامُ رَمَضانَ، وأنْ تُعطوا مِنَ المَغْنم الخُمُسَ. ونَهاهُمْ عن أربَعٍ: عنِ الْحَنْتَمِ، والدُّبّاءِ، والنَّقِير، والمُزفَّت. ورُبَّما قال: الْمقَيَّر وقال: احفظوهنَّ، وأخبروا بهنَّ مَنْ وَراءَكم».

فمن أخذ منهم بهذا ومات عليه قبل أن يبلغه غيره، كان من أهل الإيمان، ومن بلغه شيء بعده، كان مصدقا في المستأنف أن كل ما يأتيه من الوحي حق، فعنده أصل الإيمان إذن، وهو التصديق في الجملة دون التفصيل بكل ما يأتيه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه حق.

فهذه المعرفة بهذا الأصل هي المعرفة بأصل الإيمان، وحين أعذر بعض العلماء مانعي الزكاة زمن الخليفة بأنهم ليسوا من المرتدين، راجع باب: قتال مانعي الزكاة من هذا الكتاب، من باب أن الأمر لهم لم يكن معلوما من الدين بالضرورة، أصبح الآن من المعلوم بالضرورة فلا يعذر على إنكار مثله، ويحكم عليه بالردة، فهذا يعني أن للدين أصول لا ينبغي جهلها، مع

التصديق بأصل الإيمان، وهنالك أقوال للعلماء وردت نوردها هنا تكرارا لصلتها بالمسألة:

قال ابن حزم: فإن قال قائل: معنى زيادة الإيمان ها هنا إنما هو لما نزلت تلك الآية صدقوا بها فزادهم بنزولها إيماناً وتصديقاً بشيء وارد لم يكن عندهم.

قيل لهم وبالله تعالى التوفيق: هذا محال، لأنه قد اعتقد المسلمون في أول إسلامهم أنهم مصدقون بكل ما يأتيهم به نبيهم –عليه الصلاة والسلام- في المستأنف فلم يزدهم نزول الآية تصديقاً لم يكونوا اعتقدوه. فصح أن الإيمان الذي زادتهم الآيات إنما هو العمل بها[٢١٧] الذي لم يكونوا عملوه ولا عرفوه ولا صدقوا به قط، ولا كان جائزاً لهم أن يعتقدوه ويعملوا به، بل كان فرضاً عليهم تركه والتكذيب بوجوبه، والزيادة لا تكون إلا في كمية عدد لا فيما سواه[٢١٨]، ولا عدد للاعتقاد ولا كمية، وإنما الكمية والعدد في الأعمال والأقوال فقط.)[٢١٩]

---

٢١٧) وهذا الفهم لا نوافقه عليه، أي أن الزيادة العمل بها، وسيأتي تفصيله إن شاء الله.
٢١٨) أثبتنا من قول العلامة عطاء بن خليل أبو الرشتة أن الزيادة في اللغة تعني أيضا أن يقوى ويشتد فراجعه في موضوع زيادة الإيمان.
٢١٩) الفصل في الملل والأهواء والنحل. ابن حزم. ٣/ ٢٣٢-٢٣٣

قال الامام أبو عبيد القاسم بن سلام: وأما الذين رأوا الإيمان قولا ولا عمل فانهم ذهبوا في هذه الآيات إلى أربعة أوجه: أحدها أن قالوا، أصل الإيمان الإقرار بجمل الفرائض مثل الصلاة والزكاة وغيرها والزيادة بعد هذه الجمل، وهو أن تؤمنوا بأن هذه الصلاة المفروضة هي خمس، وأن الظهر أربع ركعات، والمغرب ثلاثة، وعلى هذا رأوا سائر الفرائض.

والوجه الثاني: أن قالوا: أصل الإيمان الإقرار بما جاء من عند الله، والزيادة تمكن من ذلك الإقرار. انتهى[٢٢٠]

ويرى ابن تيمية أن وجوه زيادة الإيمان تكون في الوجوه الآتية:

(أحدها: الإجمال والتفصيل فيما أمروا به ...ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه غيره فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطناً وظاهراً ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمناً بما وجب عليه من الإيمان وليس ما وجب عليه ولا ما وقع عنه مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها بل إيمان هذا أكمل.)[٢٢١]

---

٢٢٠) الامام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الايمان ص ١٤

٢٢١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٣٢-٢٣٧

وقال محمد بن نصر النروزي: وكذلك من آمن بالنبي صلى اللّه عليه وسلم وبالفرائض التي أنزلها اللّه تبارك وتعالى أو ينزلها جملة في أول ما بعث النبي صلى اللّه عليه وسلم كان مؤمنا، ثم أنزل اللّه الفرائض، وفسرها النبي صلى اللّه عليه وسلم فعرفها وعرف تفسيرها فمن آمن بها زاد إيمانا إلى إيمانه الأول، وكذلك قال اللّه تبارك وتعالى: {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون} وذلك أن الإيمان الأول يحمل الفرائض التي نزلت وينزل كان هو الإيمان ما لم يكلفوا الإيمان بتفسير الفرائض التي نزلت والتي تنزل فإذا نزلت الفرائض وفسرت لهم وجب عليهم الإيمان بتفسيرها كما وجب عليهم الإيمان بجملتها وصار الإيمان بتفسيرها مضموما إلى الإيمان الأول فصار إيمانهم أكمل.[٢٢٢]

وتؤيده آية في كتاب الله فسرناها على هذا النحو في فصل إيمان أهل الكتاب [لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّه يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] ٩٣ المائدة، فارجع إليها.

٢٢٢) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر النروزي باب طرق حديث الدين النصيحة.

وقال بدر الدين العيني في عمدة القاري: النوع الثالث: في أن الإيمان هل يزيد وينقص، وهو أيضاً من فروع اختلافهم في حقيقة الإيمان، فقال بعض من ذهب إلى أن الإيمان هو التصديق: إن حقيقة التصديق شيء واحد لا يقبل الزيادة والنقصان، وقال آخرون: إنه لا يقبل النقصان. لأنه لو نقص لا يبقى إيماناً، ولكن يقبل الزيادة، لقوله تعالى: {وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً} (الأنفال: ٢) ونحوها من الآيات. وقال الداودي: سئل مالك عن نقص الإيمان، وقال: قد ذكر اللّه تعالى زيادته في القرآن، وتوقف عن نقصه، وقال: لو نقص لذهب كله. وقال ابن بطال: مذهب جماعة من أهل السنة، من سلف الأمة وخلفها، أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص،... وأما توقفُ مالك عن القول بنقصان الإيمان، فخشية أن يتناول عليه موافقة الخوارج،... وقال الإمام: هذا البحث لفظي، لأن المراد بالإيمان إن كان هو التصديق فلا يقبلهما، وإن كان الطاعات فيقبلهما، ثم قال: الطاعات مكملة للتصديق، فكل ما قام من الدليل على أن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان كان مصروفاً إلى أصل الإيمان الذي هو التصديق، وكل ما دل على كون الإيمان يقبل الزيادة والنقصان فهو مصروف إلى الكامل، وهو مقرون بالعمل. وقال بعض المتأخرين: الحق أن الإيمان يقبلهما، سواء كان عبارة عن التصديق مع الأعمال وهو ظاهر، أو بمعنى التصديق وحده، لأن التصديق بالقلب هو الاعتقاد الجازم، وهو قابل للقوة والضعف، فإن التصديق بجسمية الشيخ

الذي بين أيدينا أقوى من التصديق بجمسيته إذا كان بعيداً عنا، ولأنه يبتدىء في التنزل من أجلى البديهيات كقولنا: النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، ثم ينزل إلى ما دونه كقولنا: الأشياء المتساوية بشيء واحد متساوية، ثم إلى أجلى النظريات: كوجود الصانع، ثم إلى ما دونه: ككونه مرئياً، ثم إلى أخفاها: كاعتقاد أن العرض لا يبقى زمانين. وقال بعض المحققين: الحق أن التصديق يقبل الزيادة والنقصان بوجهين. الأول: القوة والضعف، لأنه من الكيفيات النفسانية، وهي تقبل الزيادة والنقصان: كالفرح والحزن والغضب، ولو لم يكن كذلك يقتضي أن يكون إيمان النبي صلى اللّه عليه وسلّم، وأفراد الأمة سواء، وأنه باطل، إجماعاً، ولقول إبراهيم، عليه السلام: [ولكن ليطمئن قلبي] (البقرة: ٢٦٠). الثاني: التصديق التفصيلي في أفراد ما علم مجيئه به جزء من الإيمان يثاب عليه ثوابه على تصديقه بالآخر. وقال بعضهم: في هذا المقام الذي يؤدى إليه نظري، أنه ينبغي أن يكون الحق الحقيق بالقبول أن الإيمان بحسب التصديق يزيد بزيادة الكمية المعظمة، وهي العدد قبل تقرر الشرائع، بأن يؤمن الإنسان بجملة ما ثبت من الفرائض، ثم يثبت فرض آخر فيؤمن به أيضاً ثم وثم فيزداد إيمانه، أو يؤمن بحقية كل ما جاء به النبي صلى اللّه عليه وسلّم إجمالاً قبل أن تبلغ إليه الشرائع تفصيلاً، ثم تبلغه فيؤمن بها تفصيلاً بعدما آمن بها إجمالاً، فيزداد إيمانه. فإن قلت: يلزم من هذا تفضيل من آمن بعد تقرير الشرائع

على من مات في زمن الرسول، عليه السلام، من المهاجرين والأنصار، لأن إيمان أولئك أزيد من إيمان هؤلاء؟ قلت: لا نسلم أن هذه الزيادة سبب التفضيل في الآخرة، وسند المنع أن كل واحد من هذين الفريقين مؤمن بجميع ما يجب الإيمان به، بحسب زمانه وهما متساويان في ذلك،[٢٢٣]

وقال أبو العلا المباركفوري: الثاني: التصديق التفصيلي في أفراد ما علم مجيئه به جزء من الإيمان يثاب عليه ثوابه على تصديقه بالآخر. وقال بعضهم في هذا المقام الذي يؤدي إليه نظري أنه ينبغي أن يكون الحق الحقيق بالقبول أن الإيمان بحسب التصديق يزيد بحسب الكمية المعظمة وهي العدد قبل تقرر الشرائع بأن يؤمن الإنسان بجملة ما ثبت من الفرائض ثم يثبت فرض آخر فيؤمن به أيضاً، ثم وثم فيزداد إيمانه، أو يؤمن بحقيقة كل ما جاء به النبي صلى اللّه عليه وسلّم إجمالاً قبل أن تبلغ إليه الشرائع تفصيلا، ثم تبلغه فيؤمن بها تفصيلا بعدما آمن به إجمالاً فيزداد إيمانه.[٢٢٤]

وقال الكشميري: والإمام لما لم يقل: إن الإيمانَ لا يزيد بالطاعة، ولا ينقص بالمعصية، عُلم أنه لم يَرد بنفي الزيادة إلا الزيادة في مرتبة محفوظة، ولذا لم ينف الزيادة في الانبساط بالطاعات، وإنما نفاها عن أصل

---

٢٢٣) عمدة القاري لبدر الدين العيني كتاب الإيمان.

٢٢٤) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي للمباركفوري كتاب الإيمان.

الإيمان الذي يحصل قبل الأعمال، وأبقى الزيادةَ والنقصانَ في الخشية والتقوى، كما مر عن الطحاوي رحمه اللّه تعالى، فلم يكن مورد النفي عين مورد الإيجاب، فمعنى قوله: لا يزيد ولا ينقص: أي أصله، ومعنى قولهم: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، أي بهائه ونمائه، فأين الخلاف؟ نعم أدى كلٌّ حِصة صحيحة. ولذا صرح الحافظ ابن تيمية رحمه اللّه تعالى بكون مقولتِهِ من بدعة الألفاظ، فكأنه لم يجد بُداً من تسليم صحة مقولة الإمام رحمه اللّه تعالى.

ثم رأيت في «الكشاف» من الإمام الهمام رحمه اللّه تعالى نفسَه في الجواب عن الآيات التي تدل على الزيادة والنقصان، أن الإيمان كان يزيد في زمن النبي صلى اللّه عليه وسلّم باعتبار المؤمن به، لأن الشريعة كانت تنزلُ وتزيدُ يوماً فيوماً. أما إذا كملت الشريعة وتمّ الدين ولم يبق احتمالٌ للنسخ والتبديل، استحالت الزيادة فيها، فلا زيادة ولا نقصان في الإيمان بعد زمنه صلى اللّه عليه وسلّم واستفدت منه أن الإيمان عند الإمام رحمه اللّه تعالى إرادةٌ على إطاعة النبي صلى اللّه عليه وسلّم بجميع ما جاء به. وتلك الإرادة تنسحِبُ على جميع الشريعة، بحيث لا يشذُ عنها شاذ. فمعنى قوله: لا يزيد ولا ينقص أن يدخل جميعُ المؤمن به تحتَ الالتزام، لا أنه يلتزم بعضاً دون بعض آخر.

فإذا كان الإيمان إسماً لالتزام الجميع بحيث لا يزاد عليه شيء ولا يـنقص منه شيء فكيف يزيد الإيمان وينقص بهذا المعنـى؟ فـالنفي بالحقيقـة راجـعٌ إلى المؤمن به دون الإيمان. وإذن معنى قـولهم: يزيـد ويـنقص أي الإيمـان بنفسه. ومعنى قوله: لا يزيد ولا ينقص أي باعتبار المؤمن به. وظـاهر أنـه لا تفاوت فيه بين إيمان أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه وبين إيمان أدنـى مـؤمن من أمته صلى اللّه عليه وسلّم لأن إيمـان أدنـى مـؤمن يشـتملُ علـى جميـع الأشياء التي يشتملُ عليها إيمان أبي بكر رضي اللّه تعـالى عنـه، فكمـا أن أبـا بكر رضي اللّه تعالى عنه التزم الإتيان بجميـع الشـريعة، كـذلك أدنـى مـؤمنٌ من الأمة أيضاً التزم بجميعهـا، فـلا فـرق فـي هـذا المعنـى. إنمـا الفـرق فـي الخشية والتُّقى ومخالفة الهوى. فلو وزنـت إيمانَه بهذا المعنى لترجح إيمانـه، على جميع أمته[٢٢٥].

والتحقيق في هذه المسألة يكون بأن التصـديق الجـازم المطـابق للواقـع عـن دليـل يكـون بالرضـا والتسـليم بكـل مـا يجـيء بـه الـوحي مـن عقائـد وتشـريعات، أن يـؤمن أن هـذه العقائـد والتشـريعات مـن اللّه، فالتصـديق بفرض الصلاة، والتصديق بأن قطع يـد السـارق هـو العقوبـة الأمثـل لهـذه الجريمـة، وأن للّه فـي كـل نازلـة حكـم يجـب اتباعـه، هـذه كلهـا تـدخل فـي

---

٢٢٥) فيض الباري للكشميري كتاب الإيمان.

التصديق وهي غير القيام بالعمل نفسه، ذلك القيام لا يدخل في الإيمان بل هو من الإسلام، فالمسلِّم بهذا كله أصلا، عند اعتناقه الدين، يدخل في الإيمان سواء عرف أن من ضمن ما عليه اعتقاده أن المؤمنون يردون على الرسول صلى اللّه عليه وسلم الحوض يوم القيامة، أم مات وهو لا يعرف ذلك، فمن عرفه من أدلة قطعية وجب عليه اعتقاده، لكن الأول الذي مات ولم يعرفه، لا يضر ذلك في إيمانه لأنه في المستأنف سلم لرسول اللّه بالصدق في كل ما يخبر عن رب العزة سبحانه، لذا فأصل الإيمان التسليم في المستأنف للرسول صلى اللّه عليه وسلم بالصدق، وأنه لا يجحد أو يعاند في أي أمر يثبت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

لكن السؤال، هل إن جاءه أمر جديد، كأن عرف بعد أن كان يجهل أن الأخبار تواترت معنويا في مسألة الحوض مثلا، فهل هذه المعرفة الجديدة التي ترتب عليها أن أصبح يعتقد بالحوض بعد أن لم يكن يعرف عنه، هل هذه المعرفة هي تصديق جديد؟ وهل هي إيمان جديد؟

ابن حزم أنكر أن تكون تصديقا جديدا، لأن المؤمن في المستأنف صدق بها، من خلال تصديقه بكل ما يأتيه عن طريق هذا الوحي، فهي عدد جديد، يعني كان يصدق بكل ما يأتيه، فهذه من ضمن ما كان مسلما بأنه سيصدق به إن جاءه خبره، مثال ذلك أن تصدق بأن في الجنة مثلا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فإن دخلتها ووجدت فيها مثلا

ألف شيء لم تسمع به أذنك ولا رأته عينك ولا خطر على قلبك، فأنت في المستأنف مصدق بهذه الأمور، لا يكون لديك تصديق جديد بآحادها بأنها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهذا يقع أصلا في ضمن ذلك التصديق الإجمالي المستأنف.

النقطة الحاسمة هنا هي ما يلي: هناك تصديق إجمالي بأن محمدا بن عبد اللّه صلى اللّه عليه وسلم رسول يبلغ عن ربه، وأننا مسلمون لما يأتي به، لا نعاند ولا نجحد، فهذا التصديق بهذا الأمر الإجمالي الذي هو أساس الدين، هو الإيمان الذي ينقل صاحبه من الكفر إلى الإيمان، يتضمن هذا التصديق الإيمان باللّه ورسله وكتبه واليوم الآخر وكل القضايا القطعية المعلومة من الدين بالضرورة، فالكافر الذي يتفكر في الإسلام ليدخله، يتفكر في وجود اللّه فإن صدق به، وصدق برسوله وكتابه لا شك أنه كذلك سيتفكر في الآخرة، وخطوط الإسلام العريضة، فعليه اعتقادها، ليدخل الإيمان قلبه، ثم كل قضية يعرفها أو يعلمها من قطعيات هذا الدين مما يجب اعتقاده، يؤمن بهذه القضية، فهي تضاف إلى إيمانه إضافة تختلف عن أساس الإيمان، لذلك نجد الحق سبحانه يخاطب المؤمنين بأن يؤمنوا، ويقول زادتهم إيمانا مع إيمانهم، فتحمل قضايا زيادة الإيمان على هذا الفهم،

[إنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٦٢ البقرة، [إنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٦٩ المائدة، وقوله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّه وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّه وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ١٣٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّه لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً] ١٣٧ النساء، [لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا] ١٦٢ النساء، [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ] ٢محمد، [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّه وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ٢٨ الحديد، [لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّه يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] ٩٣ المائدة، وقال تعالى: [وَإِذْ أَخَذَ اللّه مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ] ٨١ آل عمران

ففي كل هذه الآيات يخاطب المؤمنين ليقول لهم آمنوا، فمن آمن في المستأنف ثم جاءه خبر قطعي آمن به، فهذا الإيمان يختلف عن ذلك الإيمان من حيث أن متعلق كل واحد منهما قضية غير المتعلق بالأخرى، فالإيمان الذي يخاطَب فيه المؤمنون بقوله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا]، هو الإيمان الناقل عن الكفر، والإيمان الثاني متعلق بقضايا تفصيلية، طلب منهم الإيمان بها،

ورب قائل يقول: فكيف يطلب منهم الإيمان بالله ورسوله؟ فما هو هذا الإيمان الناقل عن الكفر إن لم يكن بهذا؟

أقول: يراعى في ذلك الخطاب موجه لمن؟ ففي آيات خوطب أهل الكتاب: آمنوا يا أهل الكتاب الذين آمنتم بالله ورسله بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي عندكم خبره، لتكونوا في عداد المؤمنين ولا تفرقوا بين الله ورسله لكيلا تكفروا، لذا قال لهم: ومن يكفر بالله وملائكته بعدها وقال لهم إن الذين آمنوا ثم كفروا كل ذلك في آيات النساء أعلاه، فهم كانوا مؤمنين حتى لحظة إرسال الرسول، فإن ضموا إلى إيمانهم الإيمان بهذه الحقيقة دخلوا في الإسلام وإن لم يفعلوا كفروا.

هذا كله مفيد لفهم زيادة الإيمان:

[هُوَ الَّذِي أنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّه عَلِيمًا حَكِيمًا] ٤ الفتح. فهم معهم الإيمان، والآيات المعينة تزيدهم مع إيمانهم إيماناً، فأصل الايمان موجود.

من هنا: فالذين قالوا: الإيمان لا يزيد، مصيبون فهم يتحدثون عن الإيمان الناقل من الكفر، الإيمان بأن كل ما أنزل على محمد هو الحق من ربهم، فلا يزداد إذا ما عرفوا أمرا جديدا، لأنهم في المستأنف مصدقون به، كمثل صاحب الجنة أعلاه، مصدق بأن ما فيها لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر.

ثم زيادة الإيمان تأتي بأن يؤمنوا بالتفاصيل التي خوطبوا بها، فهي تتعلق بتفصيليات، فيكون الإيمان المنسوب فيها إيمانا بالتفصيليات، ومثال ذلك: أن اللّه تعالى يعذب في النار أقواما أخذتهم العزة بالإثم، عذابا يناسب أنفتهم في الدنيا وغرورهم بأنفسهم: [ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ الْكَرِيمُ]، الدخان ٤٩، ويعذب أقواما عذابا أليما، وغيرهم عذابا شديدا وآخرين عذابا نكرا: [ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا] الكهف ٨٧، [وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا] الفتح ١٧، [فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ] الغاشية ٢٤، وهكذا، فأنهم سيعذبون بالنار هذا نمثل به

على التصديق الإجمالي، نصدق جزما أنه تعالى سيعذب بالنار، ثم هذا الذي يعايش – عافانا اللّه- العذاب الأكبر نصدق بهذا النوع من العذاب تصديقا خاصا به، لا يزيد من تصديقنا بأن اللّه سيعذب أقواما بالنار، وهكذا تجاه كل نوع من أنواع العذاب، الإيمان الخاص به لا يزيد من مبنى الإيمان الكلي، وهو نوع من الإيمان أضيف إلى إيمانهم كنوع خاص، لأن التصديق لا يزيد حدا، لا يتكون من مجموعة أمور يضاف إليها وينقص منها، فهو ليس كمثل وزن معين من الفاكهة، تزيد في عدد حباته لتحصل عليه، بل هو تصديق جازم بأن كل ما سيأتي عن الرسول عليه السلام حق، ثم هو تصديق تفصيلي يقال في قضاياه التفصيلية إيمان بها، فمن صدق بأن اللّه يعذب بالنار عذابا أليما كان هذا إيمانا تفصيليا لا يزيد من الإيمان الأصلي لأن متعلقهما غير.

وفي الواقع نرى أن الحق سبحانه خاطب المؤمنين بوصفهم مؤمنين بناء على المذهب الأول –أي بكلية الإيمان- في قوله [ياأيها الذين ءامنوا] وخاطبهم كذلك بوصفهم مؤمنين بآحاد الأركان؛ كقوله [كل ءامن باللّه وملائكته وكتبه ورسله]؛ أي آمن باللّه وآمن بملائكته بالطريقة الثانية، متفكراً، متتبعاً الأدلة، وهي طريقة قرآنية واجبة، ساق الحق للكفار عشرات الأدلة ليتفكروا بها ليثبت صدق نبيه مثلا أو وجود البعث، فلا بد من أخذ هذه الطريقة بالاعتبار عند دراسة الإيمان، فلا ننظر إليه من جانب واحد، بل

الحق أن المرء أولا يؤمن بناء على مفهوم الايمان المبني على التصديق الجازم بالنظر في الأدلة والتفكر فيها قضية قضية، حتى يتم له الايمان بكل ما أمر قطعا بالايمان به، ثم تتكون لديه الشخصية الاسلامية التي نسمي حاملها مؤمنا فتضبط هذه الشخصية سلوكه أي أعماله في الحياة الدنيا بناء على عقيدته أي نصل إلى المؤمن الذي تحدثت عنه المدرسة الأولى.

قال تعالى [أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] ٦١ النمل.

هذه الآيات وأمثالها يسوقها الحق سبحانه أدلة على حقائق العقيدة ليؤمن بها من لم يؤمن ويزداد المؤمن بها إيماناً، ويحصل الإيمان بها بالتفكر ومحاكمة هذه الأفكار ليتبين صدقها، فتحصل القناعة العقلية لديه، من هنا كثيراً ما تجد في القرآن بعد آيات الله في الكون ذكر أنها لقوم يعقلون أو يعلمون أو ما شابه.

فمن هذه الزاوية إذا حصل التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، حصل اليقين، وهو لا يتفاضل في قلب المؤمن ولا يتفاوت الناس فيه، وإذا ما خلا من الجحود وصاحبه الاستسلام والاتباع، حصل الإيمان، فتتراكم

حقائق الإيمان تباعاً لتكتمل أركانه فيصبح المرء مؤمناً، هذا هو الإيمان حسب المدرسة الثانية.

ولكن حين تتم لدى المؤمن أركانه بإيمانه بجميع ما طلب منه الإيمان به، وينطبق عليه وصف المؤمن فإنه لا يبقى بهذه الشاكلة بل يدخل في مسار جديد، قال تعالى [الم ١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّه الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ٣] العنكبوت؛ يصبح له علامات وأدلة إثبات، ومستلزمات وتظهر عليه منه ثمار أهمها العمل والحب في اللّه والبغض في اللّه، يصبح عندها المؤمن شخصية إسلامية ينطلق من هذه العقيدة في الحياة مسيراً حياته بناء عليها، ومغيراً في الكون بما يتفق وإيمانه؛ فليس الإيمان ترفاً فكرياً، وإنما هو كائن حي يموت ويحيا ويزيد وينقص، وقد يعيش معه في القلب نفاق وكفر في طور بداية تكونه، فيتصارع معها ليطغى أحدها على بعض فلا يبقى القلب إلا أحد قلبين: مؤمن أبيض القلب، وكافر مسود القلب، لذا كان كلا الفريقين محقاً، وينطبق فهمه على الإيمان من الزاوية التي نظر منها. إلا أننا هنا نهتم بالحب والبغض؛ فإذا نظرنا إلى الإيمان كآحاد يتألف منها فلا مكان للحديث عن دخول الحب والبغض في تعريف الإيمان لأن الإيمان لا ينتقض بعدم وجود الحب؛ ألا ترى مثلا أنني أؤمن بوجود الجن من غير أن أحمل لهذه القضية أي انفعال وهذا لا يقدح في إيماني

بوجودهم؛ لكن بالنظر إلى الإيمان ككل فإن حب اللّه تعالى ورسوله من مكملاته التي لا يتم إلا بتحققها. (وسيأتي التفصيل لاحقاً إن شاء اللّه).

وهذه القضية بالذات تثبت صحة هذا التقسيم في النظر إلى الإيمان، وتثبت أن الحب والبغض ليسا شرط صحة في تعريف الإيمان، فالمطلوب هو حب اللّه ورسوله، ليكون المرء مؤمناً حقاً، ولكن ماذا يفعل في الحب والبغض تجاه قضايا الإيمان الأخرى؟

ألا يكون مؤمناً بالجن دون أن يحبهم أو يبغضهم؟ أولا ترى أن الحب والبغض تركزا في حب اللّه ورسوله، دون غيرها من قضايا وأركان الإيمان، ثم أن يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، فمن لم يبلغ هذه المرتبة لا يخرج من الإيمان إلى الكفر، لكنه ينزل عن مرتبة كمال الإيمان، فهذا يعني أنها ليست من أجزاء الإيمان التي يوجد بوجودها والتي لا بد منها في تعريفه الجامع المانع، وبالتالي تبين أن الحديث في قولهم أن الحب من الإيمان يتناول المؤمن كشخصية إسلامية لا كمؤمن يتناول قضايا الإيمان بالبحث والتفكر ليصل إلى التصديق الجازم، وقس على ذلك العمل!

فهم يسلمون أن آحاد الأعمال ليست ما يعنون بقولهم الايمان قول وعمل ولكن جنس الأعمال، وهو عين ما نراه هنا: الحب للّه ولرسوله صلى

الله عليه وسلم من قبل المؤمن، وليس الحب كعنصر يدخل في طريقة المرء في التفكير المفضي إلى الايمان بحقائق الايمان كالبعث والنار وغيرها.

أجل إن المرء حين يؤمن بالنار يخافها فينعكس ذلك على سلوكه، ولكن هل يمكن مثلا لشخص يريد أن يبحث في البعث والنشور ليؤمن به أن يدخل الوضوء (كعمل) –مثلا- في بحثه أم أنه بالتفكر بالأدلة يصل إلى التصديق الجازم؟ من هنا نعرف ما يدخل في التعريف وما لا يدخل، فإذا ما اكتملت لديه شخصيته الإسلامية أصبحت النظرة إليه من زاوية أخرى فلا يمكن أن نقول إلا بأن الوضوء سلاح المؤمن!.

تذكر قول ابن تيمية السابق: والعلم شرط في محبة المحبوب، لكن لا يلزم من العلم بالشيء والتصديق بثبوته محبته.

باب: المؤمن والمؤمن حقاً:

قال تعالى: [الم ١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ] ٣ العنكبوت، [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ٢٨ الحديد.

وما يهمني هنا إبرازه هو أن المرء من مجرد التصديق الجازم الخالي من الجحود المصاحب بالاقرار المستكمل لشرائط معينة، فإنه يحصل على لقب المؤمن، ولا يضير انتفاء بعض الأعمال المشروطة لحصول لقب المؤمن حقاً، قال تعالى:

[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢] الأنفال فهم مؤمنون رغم أنهم لم يهاجروا ولم يجاهدوا ولم يخضعوا لسلطان الدولة الاسلامية، وبقوا في دار الكفر ولم ينتقلوا منها إلى دار الإسلام.

بدليل قوله تعالى بعدها: [وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٧٤ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)] الأنفال.

وقال تعالى: [وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ] الآية ٩ الحجرات، فهم مؤمنون رغم أنهم يفعلون بعض ما نهوا عنه.

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ] ٣ الصف؛ فهم مؤمنون لكنهم يقولون ما لا يفعلون على عظم ذلك عند اللّه تعالى، وما إلى ذلك من الآيات.

فحسب المدرسة الأولى المؤمن هو المؤمن حقاً، ولم ينظروا إلى المؤمن الذي حصل بالتصديق الجازم على لقب المؤمن، وأتوا بالأدلة على أن الإيمان إنما هو نتاج أفعال معينة، دونما تدقيق في الفرق بين مفهوم المؤمن والمؤمن حقاً، قال ابن تيمية رحمه اللّه: (أي الإيمان المطلق الذي

أهله هم المؤمنون حقاً فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب اللّه تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة).[226]

قال تعالى: [هُوَ الَّذِي أنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللّه عَلِيمًا حَكِيمًا] ٤ الفتح. فهم معهم الإيمان، والآيات المعينة تزيدهم مع إيمانهم إيماناً، فأصل الايمان موجود.

والأمر الثاني هو: التفريق بين المؤمن والمسلم، والواقع أنني ناقشت هذا التقسيم في فصل المؤمن والمسلم، وبينت أن المرء لا يكون مسلماً حتى يكون مؤمناً فارجع إليه.

من هنا نقول بأن الأعمال القلبية السابقة ليست من التي يوجد الإيمان بوجودها وينتفي بانتفائها، بل هي من مكملات الإيمان ومستلزماته؛ فالمرء إن لم يكن اللّه ورسوله أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين لا يستكمل الإيمان، ولكنه لا يكفر وإلا –والعياذ باللّه- حكمنا على كثير من المسلمين بالكفر؛ ولا يكون مجرد مسلم كذلك.

---

٢٢٦) (مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٨٢)

نلاحظ أن بعض صيغ الأحاديث: آية الإيمان؛ وجد حلاوة الإيمان، وما شابه، وأما قوله عليه السلام في الصيغ الأخرى: والله لا يؤمن: فتلك قرينة على أن العمل المطلوب شديد الأهمية لا يُتصور أن يفعله مؤمن؛ وإلا فلا يكفر من لم يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه.

والمهم كذلك أن العرب تقول: لا مال إلا الإبل، وذلك لا يعني أن الذهب مثلا ليس بمال، وإنما لا كمال للمال إلا إذا كان إبلا، وكذا لو قلت لا مهنة إلا التجارة، فذلك للكمال وهكذا فمعنى لا يؤمن أن إيمانه لا يكون كاملا.

فصل: تعريف اليقين ومفهومه

واليقين: (في اللغة العلم الذي لا شك معه، وفي الاصطلاح اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد بأنه لا يمكن إلا كذا مطابقًا للواقع غير ممكن الزوال، والقيد الأول جنس يشتمل على الظن أيضاً، والثاني يخرج الظن، والثالث يخرج الجهل والرابع يخرج المقلد المصيب)[227] (وعرف الرازي اليقين بأنه (العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكاً فيه، سواء كان ذلك العلم ضرورياً أو استدلالياً)[228]، وعرف الزمخشري الإيقان بأنه (إيقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه)[229] وعرف الجرجاني الإيقان بأنه (العلم بحقيقة الشيء بعد النظر والاستدلال)[230]) (واليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها يقال علم يقين ولا يقال معرفة يقين وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وقال [عِلْمَ الْيَقِينِ] ٥ التكاثر و[عَيْنَ الْيَقِينِ] ٧ التكاثر، و[حَقُّ الْيَقِينِ] ٩٥ الواقعة ...

---

٢٢٧) الاستدلال بالظني في العقيدة. فتحي سليم ٢١ التعريفات للجرجاني١١٣

٢٢٨) (الرازي مفاتيح الغيب ١/١٧٣)

٢٢٩) (الكشاف ١٧/١٣٧)

٢٣٠) (التعريفات. الجرجاني ٣٤) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة د. راجح الكردي ١٩٦

يقال استيقن وأيقن قال تعالى [إن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ] ٣٢الجاثية [وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ] ٢٠ الذاريات، [لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ] ١١٨ البقرة، وقوله عز وجل [وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا] ١٥٧ النساء أي ما قتلوه قتلا تيقنوه بل إنما حكموا تخمينًا ووهمًا)[٢٣١].

وقال ابن رجب في كتاب الايمان من فتح الباري: واليقين: هو العلم الحاصل للقلب بعد النظر والاستدلال، فيوجب قوة التصديق حتى ينفي الريب ويوجب طمأنينة القلب بالإيمان وسكونه وارتياحه به، وقد جعله ابن مسعود الإيمان كله. وكذا قال الشعبي – أيضا.[٢٣٢]

قال في اللسان: اليَقِينُ: العِلْم وإزاحة الشك وتحقيقُ الأمر، وقد أَيْقَنَ يُوقِنُ إيقاناً، فهو مُوقِنٌ، و يَقِنَ يَيْقَنُ يَقَناً، فهو يَقِنٌ. و اليَقِين: نَقيض الشك، والعلم نقيضُ الجهل، تقول عَلِمْتُه يَقِيناً.

---

٢٣١) مفردات ألفاظ القران. الراغب الأصفهاني ص ٨٩٣

٢٣٢) كتاب الايمان من فتح الباري ص ٧

فصل: اليقين لا يتفاضل؛ والإيمان يزيد وينقص

قال تعالى: [الذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ] ١٧٣ آل عمران؛ [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ] ٤ الأنفال؛ [وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ] ١٢٥ التوبة؛ [وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا] ٢٢ الأحزاب

[وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ] ٣١ المدثر، [هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ

الـمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّـهِ جُنُـودُ السَّـمَاوَاتِ وَالْـأَرْضِ وَكَـانَ اللّه عَلِيمًا حَكِيمًا] ٤ الفتح.

قال ابن حجر في كتاب الايمان من فتح الباري: وأثبتت المعتزلة الواسطة فقالوا: الفاسق لا مؤمن ولا كافر، وأما المقام الثاني فذهب السلف إلى أن الإيمان يزيد وينقص. وأنكر ذلك أكثر المتكلمين وقالوا متى قبل ذلك كان شكا.

قال الشيخ محيي الدين: والأظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة، ولهذا كان إيمان الصديق أقوى من إيمان غيره بحيث لا يعتريه الشبهة.

ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل، حتى إنه يكون في بعض الأحيان الإيمان أعظم يقينا وإخلاصا وتوكلا منه في بعضها، وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها.[٢٣٣]

وقد نقل محمد بن نصر المروزي في كتابه " تعظيم قدر الصلاة " عن جماعة من الأئمة نحو ذلك، وما نقل عن السلف صرح به عبد الرزاق في

---

٢٣٣) ابن حجر في كتاب الايمان من فتح الباري (٤٧/١)

مصنفه عن سفيان الثوري ومالك بن أنس والأوزاعي وابن جريج ومعمر وغيرهم، وهؤلاء فقهاء الأمصار في عصرهم.

وكذا نقله أبو القاسم اللالكائي في " كتاب السنة " عن الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد وغيرهم من الأئمة، وروى بسنده الصحيح عن البخاري قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص.

وأطنب ابن أبي حاتم واللالكائي في نقل ذلك، بالأسانيد عن جمع كثير من الصحابة والتابعين، وكل من يدور عليه الإجماع من الصحابة والتابعين، وحكاه فضيل بن عياض ووكيع عن أهل السنة والجماعة.

وقال الحاكم في مناقب الشافعي: حدثنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع قال: سمعت الشافعي يقول: الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص.

وأخرجه أبو نعيم في ترجمة الشافعي من الحلية من وجه آخر عن الربيع وزاد: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ثم تلا: [ويزداد الذين آمنوا إيمانا] الآية؛ ثم شرع المصنف يستدل لذلك بآيات من القرآن مصرحة بالزيادة،

وبثبوتها يثبت المقابل، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة. انتهى كلام ابن حجر.[٢٣٤]

قال الامام أبو عبيد القاسم بن سلام: وأما الذين رأوا الإيمان قولا ولا عمل فانهم ذهبوا في هذه الآيات إلى أربعة أوجه: أحدها أن قالوا، أصل الإيمان الإقرار بجمل الفرائض مثل الصلاة والزكاة وغيرها والزيادة بعد هذه الجمل، وهو أن تؤمنوا بأن هذه الصلاة المفروضة هي خمس، وأن الظهر أربع ركعات، والمغرب ثلاثة، وعلى هذا رأوا سائر الفرائض؛ والوجه الثاني: أن قالوا: أصل الإيمان الإقرار بما جاء من عند الله، والزيادة تمكن من ذلك الإقرار.

والوجه الثالث أن قالوا: الزيادة في الإيمان الازدياد من اليقين؛ والوجه الرابع أن قالوا: إن الإيمان لا يزداد أبدا، ولكن الناس يزدادون منه. انتهى[٢٣٥]

قال ابن حزم: (واليقين لا يتفاضل ولكن إن دخل فيه شيء من شك أو جحد بطل كله برهان ذلك أن اليقين هو إثبات الشيء ولا يمكن أن يكون

---

٢٣٤) ابن حجر في كتاب الايمان من فتح الباري (٤٧/١)

٢٣٥) الامام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الايمان ص ١٤

إثبات أكثر من إثبات فإن لم يحقق الإثبات صار شكًا)[٢٣٦]، وقال: (قوله عز وجل: [هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ] ٤ الفتح؛ قال أبو محمد [ابن حزم]: (والتصديق بالشيء أي شيء كان لا يمكن أن يقع فيه زيادة ولا نقص، وكذلك التصديق بالتوحيد والنبوة لا يمكن البتة أن يكون فيه زيادة ولا نقص، لأنه لا يخلو كل معتقد بقلب أو مقر بلسانه بأي شيء أقر أو أي شيء اعتقد من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها: إما أن يصدق بما اعتقد وأقر؛ وإما أن يكذّب بما اعتقد؛ وإما منزلة ما بينهما: وهي الشك؛ فمن المحال أن يكون الإنسان مكذّباً بما يصدق به؛ ومن المحال أن يشك أحد فيما يصدق به؛ فلم يبق إلا أنه مصدق بما اعتقد بلا شك، ولا يجوز أن يكون تصديق واحد أكثر من تصديق آخر لأن أحد التصديق إذا دخلت داخله فبالضرورة يدري كل ذي حس سليم أنه خرج عن التصديق ولا بد؛ وحصل في الشك، لأن معنى التصديق إنما هو أن يقطع ويوقن وجود ما صدق به ولا سبيل إلى التفاضل في هذه الصفة، فإن لم يقطع ولا أيقن بصحته فقد شك فيه فليس مصدقاً به فليس مؤمناً به؛ فصح أن الزيادة التي ذكر الله عز وجل في الإيمان ليست في التصديق أصلاً ولا

---

٢٣٦) المحلى. ابن حزم الأندلسي. ١/ ٤١

في الاعتقاد البتة فهي ضرورة في غير التصديق وليس هاهنا إلا الأعمال فقط.

وقال ابن حزم أيضاً من دقيق الكلام: فإن قال قائل: معنى زيادة الإيمان ها هنا إنما هو لما نزلت تلك الآية صدقوا بها فزادهم بنزولها إيماناً وتصديقاً بشيء وارد لم يكن عندهم.

قيل لهم وبالله تعالى التوفيق: هذا محال، لأنه قد اعتقد المسلمون في أول إسلامهم أنهم مصدقون بكل ما يأتيهم به نبيهم -عليه الصلاة والسلام- في المستأنف فلم يزدهم نزول الآية تصديقاً لم يكونوا اعتقدوه. [إلى هنا نتفق معه تماماً] وقال متابعاً: فصح أن الإيمان الذي زادتهم الآيات إنما هو العمل بها الذي لم يكونوا عملوه ولا عرفوه ولا صدقوا به قط، ولا كان جائزاً لهم أن يعتقدوه ويعملوا به، بل كان فرضاً عليهم تركه والتكذيب بوجوبه، والزيادة لا تكون إلا في كمية عدد لا فيما سواه، ولا عدد للاعتقاد ولا كمية، وإنما الكمية والعدد في الأعمال والأقوال فقط.)[٢٣٧]

وقال العالم عطاء بن خليل أبو الرشتة: (إن الإيمان بالمعنى الذي ذكرناه (التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل) لا يزيد ولا ينقص لأنه

٢٣٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل. ابن حزم. ٣/ ٢٣٢-٢٣٣

تصديق جازم، والجزم لا يكون إلا كاملاً فلا إيمان بنسبة ٩٠ ٪ ثم يزيد إلى ٩٥٪ أو ١٠٠٪؛ ولا يكون هناك إيمان ١٠٠٪ ثم ينقص إلى ٩٠٪ لأن هذا النقصان يعني عدم جزم أي شك وريب وعندها لا يكون إيماناً بل كفراً.

وحتى تتضح الصورة نقول: إن الزيادة والنقصان من الألفاظ المشتركة في اللغة تأتي بمعنى الزيادة الحدية والنقص الحدي، أي في الاتساع والحجم، وتأتي بمعنى القوة والضعف؛ والقرينة هي التي تحدد أي معانيها المقصود، فإذا اقترنت الزيادة والنقص بالإيمان فإن الدلالة تكون من حيث القوة والضعف لأن التصديق الجازم لا يصح معه الزيادة الحدية أو النقص الحدي، وعلى هذا الوجه تفهم الآيات [التي ذكرت الزيادة في الإيمان]. أي أن المؤمنين قوي إيمانهم واشتد بسبب هذه الأمور التي بينها الله سبحانه في الآيات السابقة. كل ذلك لأن الإيمان بالمعنى الذي بيناه (التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل) لا تصح معه زيادة ولا نقصان وإلا كان غير جازم وانقلب إلى شك وريب وأصبح كفراً.)[238]

٢٣٨) التيسير في أصول التفسير. المهندس عطا أبو الرشتة ٥٠-٥١

وقال الفخر الرازي في تفسير آية المدثر: (حقيقة الإيمان عندكم لا تقبل الزيادة والنقصان فما قولكم في هذه الآية؟ الجواب: نحمله على ثمرات الإيمان وعلى آثاره ولوازمه.)[٢٣٩]

وقال العلامة ابن القيم: (وقال أبو بكر الوراق اليقين على ثلاثة أوجه يقين خبر ويقين دلالة ويقين مشاهدة يريد بيقين الخبر سكون القلب إلى خبر المخبر وتوثقه به وبيقين الدلالة ما هو فوقه وهو أن يقيم له مع وثوقه بصدقه الأدلة الدالة على ما أخبر به، وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن، فإنه سبحانه مع كونه أصدق الصادقين يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين على صدق أخباره، فيحصل لهم اليقين من الوجهين: من جهة الخبر ومن جهة الدليل فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة وهي يقين المكاشفة بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئي لعيونهم، فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلى القلب كنسبة المرئي إلى العين، وهذا أعلى أنواع المكاشفة، وهي التي أشار إليها عامر بن عبد قيس في قوله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، وليس هذا من كلام رسول الله ولا من قول علي كما يظنه من لا علم له بالمنقولات.)[٢٤٠] وقال الشيخ رشيد رضا: (هذا وإن لليقين

---

٢٣٩) التفسير الكبير.الرازي ٣٠/١١٧

٢٤٠) مدارج السالكين ج: ٢ ص: ٤٠٠.ابن قيم الجوزية

مراتب ودرجات وحصرها بعضهم في ثلاث: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين... ثم إن فائدة الإيمان إنما تكون بإذعان النفس الذي يحرك فيها الخوف والرجاء وغيرهما من وجدانات الدين التي يترتب عليها ترك المنكر المنهي عنه وفعل المعروف المأمور به؛ وهل يقول عاقل أن الإذعان والخوف والرجاء من الأمور التي لا تقبل الزيادة والنقصان؟ أما أنه لو كان إذعان جميع المؤمنين في درجة واحدة لتساووا في الأعمال ولكنهم متفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً فثبت أنهم متفاوتون في منشئها من النفس وهو الإذعان الذي يقوى ويضعف بالتبع للإيمان وهذا عين الزيادة والنقص... فإن كل اعتقاد له أثر في النفس يتبعه عمل من الأعمال فهي سلسلة مؤلفة من ثلاث حلقات يحرك بعضها بعضاً والإمام الغزالي يعبر عنها بالعلم والحال والعمل؛ فيقول: إن العلم بأن كذا يرضي الله تعالى أو كذا يسخطه مثلا يحدث في النفس حالا يترتب عليها فعل ما يرضيه ويقتضي مثوبته، وترك ما يسخطه ويقتضي عقوبته، ويقول إن ترتب بعضها على بعض واجب. وعبارته: إن العلم يوجب الحال؛ والحال يوجب العمل. (الإحياء. المجلد الرابع. كتاب التوبة).

وأما زيادة الإيمان بزيادة متعلقاته وهي المسائل التي يؤمن بها المؤمن التي عبر عنها بشعب الإيمان فهي ظاهرة فكلما تلقى المؤمن مسألة منها ازداد إيماناً؛ وكذلك آيات القران تزيد من يتلقاها إيماناً كلما

تلقى شيئاً منها؛ وقد يتدبرها المؤمن بعد العلم بها بأيام وسنين فيفهم منها ما لم يكن يفهم فيزداد إيماناً)[٢٤١]

وقال الغزالي: (اصطلاح الفقهاء وأكثر أهل العلم [في اليقين] وهو أنه لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك؛ بل إلى استيلائه وغلبته على العقل حتى يقال: فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لا شك فيه ويقال: فلان قوي اليقين في إتيان الرزق مع انه قد يجوز أنه لا يأتيه فمهما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجويز والمنع سمي ذلك يقيناً، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متسعاً لغيره فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين؛ ولذلك قال بعضهم [ولعله الحسن البصري]: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت! وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة؛ ونحن إنما أردنا بقولنا: إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين؛ بالمعنيين جميعاً وهو نفي الشك [بمعنى التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل] ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها

---

٢٤١) تفسير المنار. محمد رشيد رضا ٤/٢٤١-٢٤٢

المتصرف فيها؛ فإذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا: إن اليقين ينقسم في الغلبة والاستعلاء على القلب ثلاثة أقسام: القوة والضعف؛ والكثرة والقلة؛ والخفاء والجلاء؛ فأما بالقوة والضعف فعلى الاصطلاح الثاني [أي عند الفقهاء والعلماء لا المتكلمين] وذلك في الغلبة والاستيلاء على القلب، ودرجات معاني اليقين في القوة والضعف لا تتناهى، وتفاوت الخلق في الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني.

وأما التفاوت بالجلاء والخفاء في الاصطلاح الأول [عند المتكلمين] فلا ينكر أيضاً، أما فيما يتطرق إليه التجويز فلا ينكر – أعني الاصطلاح الثاني [عند العلماء والفقهاء]- وفيما انتفى الشك عنه لا سبيل إلى إنكاره فإنك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فدك مثلا وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام مع أنك لا تشك في الأمرين جميعاً فمستندهما جميعاً التواتر ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح في قلبك من الثاني، لأن السبب في أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين؛ وكذلك يدرك الناظر هذا في النظريات المعروفة بالأدلة فإنه ليس وضوح ما لاح له بدليل واحد كوضوح ما لاح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما في نفي الشك، [وفي الأرض آيات للموقنين؛ مع أن اليقين يأتي بآية واحدة إلا أن الآيات تزيده] وهذا قد ينكره المتكلم الذي يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال.

وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين كما يقال: فلان أكثر علماً من فلان؛ أي معلوماته أكثر ولذلك قد يكون العالم قوي اليقين في جميع ما ورد الشرع به وقد يكون قوي اليقين في بعضه.)[٢٤٢]

قال الإمام الطحاوي (والإيمان واحد وأهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخافة الهوى وملازمة الأولى).[٢٤٣]

وقال الألوسي في تفسيره: واعترض على هذا بأن عدم قبول الايمان الزيادة والنقص على تقدير كون الطاعات داخلة في مسماه أولى وأحق من عدم قبوله ذلك إذا كان مسماه التصديق وحده/ أما أولاً: فلأنه لا مرتبة فوق كل الأعمال لتكون زيادة ولا إيمان دونه ليكون نقصاً، وأما ثانياً: فلأن أحداً لا يستكمل الايمان حينئذ والزيادة على ما لم يكمل بعد محال. وأجيب بأن هذا إنما يتوجه على المعتزلة والخوارج القائلين بانتفاء الايمان بانتفاء شيء من الأعمال ونحن إنما نقول: إنها شرط كمال فيه واللازم عند الانتفاء انتفاء الكمال وهو غير قادح في أصل الايمان والحق أن الخلاف حقيقي وأن التصديق يقبل التفاوت بحسب مراتب فما المانع من تفاوته قوة وضعفاً كما في التصديق بطلوع الشمس والصديق بحدوث العالم وقلة وكثرة كما في

---

٢٤٢) إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي. المجلد الأول. ص٨٨-٨٩

٢٤٣) الإيمان. محمد ياسين١٥٢ عن شرح الطحاوية٣٧٥-٣٨٦

التصديق الإجمالي والتصديق التفصيلي المتعلق بالكثير وما على إذا خالفت في بعض المسائل مذهب الإمام الأعظم أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه للأدلة التي لا تكاد تحصى فالحق أحق بالاتباع والتقليد في مثل هذه المسائل من سنن العوام.[٢٤٤]

وقال الزركشي في البحر المحيط: هَلْ تَتَفَاوَتُ الْعُلُومُ؟ فِيهِ قَوْلَانِ: قَالَ فِي الْبُرْهَانِ ": وَأَئِمَّتُنَا عَلَى التَّفَاوُتِ، وَقَرَّرَهُ الْمَازِرِيُّ. وَقَالَ الْأُرْمَوِيُّ فِي التَّحْصِيلِ ": إنَّهُ الْحَقُّ، وَقَالَ ابْنُ التِّلِمْسَانِيِّ، الْمُحَقِّقُونَ عَلَى عَدَمِ تَفَاوُتِهَا، وَإِنَّمَا التَّفَاوُتُ بِحَسَبِ الْمُتَعَلِّقَاتِ، وَاخْتَارَهُ إلْكِيَا الطَّبَرِيِّ فِي كِتَابِ التَّرْجِيحِ "، وَالْإِمَامُ فِي الْبُرْهَانِ "، وَالْأَنْبَارِيُّ فِي شَرْحِهِ، وَنَقَلَ فِي الْبُرْهَانِ " فِي التَّرْجِيحِ عَنْ الْأَئِمَّةِ أَنَّ الْمَعْقُولَاتِ لَا تَرْجِيحَ فِيهَا. قُلْتُ: بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَعَارُضُهَا بِخِلَافِ تَفَاوُتِهَا فِي رُتْبَتِهَا فَإِنَّهُ مُمْكِنٌ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ. وَاخْتَارَ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِهِ عَدَمَ التَّفَاوُتِ فِي نَفْسِ الْعِلْمِ، بَلْ فِي طَرِيقِهِ بِالنِّسْبَةِ إلَى كَثْرَةِ الْمُقَدِّمَاتِ وَقِلَّتِهَا وَوُضُوحِهَا وَخَفَائِهَا وَقَالَ الْقَرَافِيُّ: وَقَعَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ بَيْنَ الشَّيْخِ عِزِّ الدِّينِ وَالْأَفْضَلِ الْخُونَجِيِّ. وَاخْتَارَ الشَّيْخُ عَدَمَ التَّفَاوُتِ، وَعَكَسَ الْخُونَجِيُّ. قَالَ الْقَرَافِيُّ: وَلِأَجْلِ التَّفَاوُتِ قَالَ أَهْلُ الْحَقِّ: رُؤْيَةُ اللَّهِ يَعْنِي فِي الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ عِبَارَةٌ عَنْ خَلْقِ عِلْمٍ بِهِ هُوَ أَجْلَى مِنْ مُطْلَقِ الْعِلْمِ نِسْبَتُهُ إلَيْهِ كَنِسْبَةِ إدْرَاكِ

---

٢٤٤) تفسير الألوسي لسورة الأنفال.

الْحِسِّ إِلَى الْمُحَسِّ بِهِ. قَالَ: وَكَذَلِكَ سَمَاعُ الْكَلَامِ النَّفْسَانِيِّ. قَالَ: وَهَذِهِ عَقَائِدُ لَا تَتَأَتَّى إِلَّا عَلَى الْقَوْلِ بِعَدَمِ التَّفَاوُتِ. ا هـ. وَظَاهِرُ كَلَامِ الصَّيْرَفِيِّ أَنَّهُ لَا تَتَفَاوَتُ. قَالَ: وَإِنَّمَا جَاءَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ أَنَّ بَعْضَ الدَّلَائِلِ أَوْضَحُ مِنْ بَعْضٍ كَالْبَصَرِ الْمُدْرِكِ لِمَا قَرُبَ إِلَيْهِ إِدْرَاكًا بِخِلَافِ مَا بَعُدَ مِنْهُ عَنْ الْمَسَافَةِ، وَإِنْ كَانَ الْإِدْرَاكُ مِنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ، فَمِنْهُ مَا يَقَعُ جَلِيًّا، وَمِنْهُ مَا يَقَعُ مَعَ التَّحْدِيقِ وَالتَّأَمُّلِ، وَكَذَلِكَ مَنْزِلَةُ الْفِكْرِ وَالتَّدَبُّرِ، وَظَاهِرُ كَلَامِ الْقَفَّالِ الشَّاشِيِّ تَفَاوُتُهَا، فَإِنَّهُ قَالَ: امْتَحَنَ اللَّهُ عِبَادَهُ، وَفَرَّقَ بَيْنَ وُجُوهِ الْعِلْمِ، فَجَعَلَ مِنْهُ الْخَفِيَّ وَمِنْهُ الْجَلِيَّ؛ لِأَنَّ الدَّلَائِلَ لَوْ كَانَتْ كُلُّهَا جَلِيَّةً لَارْتَفَعَ التَّنَازُعُ وَزَالَ الِاخْتِلَافُ، وَمَا احْتِيجَ إِلَى تَدَبُّرٍ وَفِكْرٍ، وَلَبَطَلَ الِابْتِلَاءُ، وَلَمْ يَقَعْ الِامْتِحَانُ، وَلَا وُجِدَ شَكٌّ وَلَا ظَنٌّ وَلَا جَهْلٌ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ حِينَئِذٍ يَكُونُ طَبْعًا. وَلَوْ كَانَتْ كُلُّهَا خَفِيَّةً لَمْ يُتَوَصَّلْ إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِنْهَا، إِذْ الْخَفِيُّ لَا يُعْلَمُ بِنَفْسِهِ، وَإِلَّا لَكَانَ جَلِيًّا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ] قَالَ: وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ لَيْسَ بِخَفِيٍّ وَلَا جَلِيٍّ ثَبَتَ أَنَّ مِنْهُ مَا هُوَ جَلِيٌّ، وَمِنْهُ مَا هُوَ خَفِيٌّ. ا هـ فَحَصَلَ وَجْهَانِ لِأَصْحَابِنَا أَصَحُّهُمَا: التَّفَاوُتُ، وَعَلَى هَذَا وَقَعَ الْفَرْقُ بَيْنَ عِلْمِ الْيَقِينِ وَعَيْنِ الْيَقِينِ وَحَقِّ الْيَقِينِ، وَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: {لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ إِنَّ مُوسَى لَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ لَمَّا سَمِعَ عَنْ قَوْمِهِ وَأَلْقَاهَا حِينَ رَآهُمْ}. وَقَالَ أَئِمَّةُ الْحَقِيقَةِ: الْعِلْمُ بِاللَّهِ إِنْ كَانَ بِالْأَدِلَّةِ فَهُوَ عِلْمُ الْيَقِينِ، فَإِذَا

قَوِيَ فَهُوَ عَيْنُ الْيَقِينِ، فَإِذَا فَنِيَ فِيهِ فَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ. وَيُقَالُ: عِلْمُ الْيَقِينِ كَالنَّاظِرِ إِلَى الْبَحْرِ، وَعَيْنُ الْيَقِينِ كَرَاكِبِ الْبَحْرِ، وَحَقُّ الْيَقِينِ كَمَنْ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ. ا هـ. وَقَدْ أُورِدَ عَلَى الْقَائِلِينَ بِعَدَمِ التَّفَاوُتِ أَنَّهُ يَكُونُ عِلْمُ الْأُمَمِ مُمَاثِلًا لِعُلُومِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ عِلْمَهُمْ مُفَاوِتٌ لِعِلْمِنَا وَكَذَلِكَ رُجْحَانُ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَعْضِهِمْ فِي الْمَعَارِفِ. وَأُجِيبَ بِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اطَّلَعَ عَلَى صِفَةٍ لِلْبَارِي تَعَالَى لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا غَيْرُهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ رَاجِعًا إِلَى زِيَادَةِ عِلْمٍ بِمَعْلُومٍ آخَرَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ تَفَاوُتًا فِي الْعِلْمِ. الثَّانِي: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمَ رَبَّهُ بِوُجُوهِ أَدِلَّةٍ لَمْ نَطَّلِعْ نَحْنُ عَلَى جَمِيعِهَا، فَيَرْجِعُ التَّفَاوُتُ إِلَى أَعْدَادِ الْمَعْلُومِ، لَا إِلَى نَفْسِ الْعِلْمِ. وَأَمَّا رُجْحَانُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فَمَحْمُولٌ عَلَى زِيَادَةِ الْمَعَارِفِ وَتَوَالِيهَا إِذَا حَصَلَتْ بِلَا فَتْرَةٍ، وَلَا غَفْلَةٍ ثُمَّ إِذَا ظَهَرَ التَّفَاوُتُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ تَفَاوَتَ الْعَارِفُونَ بِاعْتِبَارِ قِلَّةِ الْغَفْلَةِ وَكَثْرَتِهَا، وَقِلَّةِ الْمَعَارِفِ وَكَثْرَتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: {لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا} فَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى كَثْرَةِ الْمَعْلُومَاتِ لَا إِلَى التَّفَاوُتِ فِي الْعِلْمِ الْوَاحِدِ بِالْمَعْلُومِ الْوَاحِدِ. وَلَوْ كَانَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا لَقَالَ: لَوْ تَعْلَمُونَ كَمَا أَعْلَمُ فَهَذِهِ عِبَارَةُ التَّفَاوُتِ فِي نَفْسِ الْعِلْمِ، وَقَالَ أَيْضًا فِي التَّفَاوُتِ بِاعْتِبَارِ اعْتِرَاضِ الْغَفَلَاتِ قِلَّةً وَكَثْرَةً: {لَوْ تَكُونُونَ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ} مُشِيرًا إِلَى أَنَّ الْغَفْلَةَ تَخْتَلِسُهُمْ فِي غَيْبَتِهِمْ عَنْهُ وَتَتَحَامَاهُمْ بِحَضْرَتِهِ تِلْكَ الْحَضْرَةُ الْمُقَدَّسَةُ

صَلَوَاتُ اللَّه عَلَى صَاحِبِهَا وَسَلَامُهُ. فَإِنْ قِيلَ: إذَا تَعَذَّرَ التَّفَاوُتُ فِي ذَوَاتِ الْعُلُومِ، فَلِمَ لَا أُضِيفَ التَّفَاوُتُ إلَى طُرُقِهَا؟ فَمِنْهَا الْبَدِيهِيُّ، وَمِنْهَا النَّظَرِيُّ. قُلْنَا: إذَا حُقِّقَتْ الْحَقَائِقُ فَكُلُّ عِلْمٍ نَظَرِيٍّ يَتَوَقَّفُ عَلَى عِلْمٍ بِمُقَدِّمَتَيْنِ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ. فَإِنْ قُلْت: فَنَرَى بَعْضَ الْمَعَارِفِ يَصْعُبُ وَبَعْضُهَا يَسْهُلُ. قُلْت: ذَلِكَ التَّفَاوُتُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ نَشَأَ عَنْ كَثْرَةِ الْمُقَدِّمَاتِ لِلْعِلْمِ الْوَاحِدِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا هِيَ مَعْلُومَاتٌ تَرَتَّبَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلِكُلِّ مَعْلُومٍ مُقَدِّمَتَانِ، فَمَا جَاءَ التَّفَاوُتُ إلَّا مِنْ جِهَةِ كَثْرَةِ الْمُحَصَّلِ مِنْ الْمَعَارِفِ، وَقِلَّتِهِ لَا مِنْ بُعْدِ الطَّرِيقِ وَقُرْبِهَا، وَالْمَعْلُومُ وَاحِدٌ.[٢٤٥]

يعني باختصار: إثبات وجود الله عليه أدلة يكفي منها دليل لتصل إلى ذلك العلم، فإن وصلت بالدليل فلا تفاوت، وبما أن المعلوم واحد أي القضية واحدة، فسواء وصلت بدليل أم بألف فالعلم هو هو!

ويرى ابن تيمية أن وجوه زيادة الإيمان تكون في الوجوه الآتية:

(أحدها: الإجمال والتفصيل فيما أمروا به ...ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه غيره فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره ولو

---

٢٤٥) البحر المحيط > المقدمات > مسألة في العلم > مسألة تفاوت العلوم

آمن الرجل بالله وبالرسول باطناً وظاهراً ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمناً بما وجب عليه من الإيمان وليس ما وجب عليه ولا ما وقع عنه مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها بل إيمان هذا أكمل.

الوجه الثاني: الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقاً فلم يكذبه قط لكن أعرض عن معرفة أمره ونهيه وخبره وطلب العلم الواجب عليه فلم يعلم الواجب عليه ولم يعمله بل اتبع هواه وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به وآخر طلب علمه فعلمه وآمن به ولم يعمل به وان اشتركوا في الوجوب لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكمل به.

الثالث: أن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت وأبعد عن الشك والريب وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد مثل سماع الصوت الواحد وشم الرائحة الواحدة وذوق النوع الواحد من الطعام فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة.

الرابع: أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق ورسوله حق والجنة حق والنار حق

وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة والهرب من النار والآخر علمه لم يوجب ذلك فعلم الأول أكمل فإن قوة المسبب دل على قوة السبب وهذه الأمور نشأت عن العلم فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم.

الخامس: أن أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله وخشية الله تعالى ورجائه هي كلها من الإيمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلا عظيماً.

السادس: أن الأعمال الظاهرة مع الباطنة هي أيضا من الإيمان والناس يتفاضلون فيها. السابع: ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به واستحضاره لذلك بحيث لا يكون غافلا عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه فإن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين، وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم قال تعالى [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] ٥٣ فصلت أي أن القرآن حق ... ثم أراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدل على مثل ما أخبر به في القرآن، فبينت لهم هذه الآيات أن القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة نزلت فيؤمن

بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه.)[٢٤٦]

(وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن عمير بن حبيب الخطمى وهو من أصحاب رسول الله قال الإيمان يزيد وينقص قيل له وما زيادته وما نقصانه قال إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه، وقال أحمد بن حنبل قال أبو الدرداء إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد الإيمان أم ينقص وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه وقال أحمد بن حنبل: كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه هلموا نزدد إيماناً فيذكرون الله عز وجل وقال أبو عبيد في الغريب في حديث علي أن الإيمان يبدو لمظة في القلب كما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة يروى ذلك عن عثمان بن عبد الله عن عمرو بن هند الجملي عن علي قال الأصمعي اللمظة مثل النكتة أو نحوها، وقال أحمد بن حنبل عن عبد الله بن عكيم قال سمعت ابن مسعود يقول في دعائه: اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً، وروى سفيان الثوري عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال: كان معاذ بن جبل يقول لرجل

---

٢٤٦) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٣٢-٢٣٧

اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى، كان عبد الله بن رواحة يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول: قم بنا نؤمن ساعة، فنحن في مجلس ذكر.

وصح عن عمار بن ياسر أنه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: الإنصاف من نفسه، والإنفاق من الإقتار، وبذل السلام للعالم، ذكره البخاري في صحيحه، وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً، والآثار في هذا كثيرة رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين في كتب كثيرة معروفة قال مالك بن دينار الإيمان يبدو في القلب ضعيفاً ضئيلا كالبقلة فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وأماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه، أوشك أن ينمو أو يزداد ويصير له أصل وفروع وثمرة، وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال، وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها أو صبي فذهب بها وأكثر عليها الدغل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها كذلك الإيمان، وقال خيثمة بن عبد الرحمن الإيمان يسمن في الخصب ويهزل في الجدب فخصبه العمل الصالح وجدبه الذنوب والمعاصي وقيل لبعض السلف يزداد الإيمان وينقص قال نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال وينقص حتى يصير أمثال الهباء)[٢٤٧]

---

٢٤٧) مجموع الفتاوى ابن تيمية ج: ٧ ص: ٢٢٥-٢٢٦

قال ابن رجب في كتاب الايمان من فتح الباري: فزيادة الإيمان بالذكر من وجهين:

أحدهما: أنه يجدد من الإيمان والتصديق في القلب ما درس منه بالغفلة كما قال بن مسعود: الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء الزرع. و في " المسند " عن أبي هريرة أن النبي صلي الله عليه وسلم قال: " جددوا إيمانكم " قالوا: كيف نجدد إيماننا؟ قال: " قولوا: لا إله إلا الله ". والثاني: أن الذكر نفسه من خصال الإيمان، فيزداد الإيمان بكثرة الذكر، فإن جمهور أهل السنة على أن الطاعات كلها من الإيمان فرضها ونفلها، وإنما أخرج النوافل من الإيمان قليل منهم.[٢٤٨]

وروى ابن القاسم عن مالك أن الإيمان يزيد وتوقف في نقصانه.[٢٤٩]

يقول د. الكردي: (قال الرازي: زيادة الإيمان الذي هو التصديق على وجهين: الأول وهو الذي عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدي: أن كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان أزيد إيماناً لأن عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين وإليه الإشارة بقوله عليه السلام:

---

٢٤٨) كتاب الايمان من فتح الباري ص ٧

٢٤٩) شرح قصيدة ابن القيم ١٤٥/٢

لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح (خرج هذا الحديث الحافظ العراقي في كتاب المغني عن حمل الأسفار وضعف إسناده)

وقد اعترض على هذا الرأي إذ لقائل أن يقول المراد من هذه الزيادة إما قوة الدليل أو كثرة الدليل، أما قوة الدليل فباطل وذلك لأن كل دليل فهو مركب لا محالة من مقدمات وتلك المقدمات إما أن يكون مجزوماً بها جزماً مانعاً من النقيض أو لا يكون، فإذا كان الجزم المانع من النقيض حاصلا في كل المقدمات امتنع كون بعض الدلائل أقوى من بعض على هذا التفسير لأن الجزم المانع من النقيض لا يقبل التفاوت، وإن كان الجزم المانع من النقيض غير حاصل إما في الكل أو في البعض فذلك لا يكون دليلا بل أمارة والنتيجة الحاصلة منها لا تكون علماً بل ظناً، فثبت بما ذكرنا أن حصول التفاوت في الدلائل بسبب القوة محال.

وأما حصول التفاوت بسبب كثرة الدلائل، فالأمر كذلك محال لأن الجزم الحاصل بسبب الدليل الواحد: إن كان مانعاً من النقيض فيمنع أن يصير أقوى عند اجتماع الدلائل الكثيرة، وإن كان غير مانع من النقيض لم يكن دليلا بل كان أمارة، ولم تكن النتيجة معلومة بل مظنونة وثبت أن هذا التأويل ضعيف.

ومن ثم عدل الرازي إلى القول بزيادة الإيمان على أنه التصديق إلى معنى آخر من الزيادة وهي: (الدوام وعدم الدوام وذلك لأن بعض المستدلين لا يكون مستحضراً للدليل والمدلول إلا لحظة واحدة –لحظة الإستدلال- ومنهم من يكون مداوماً لتلك الحالة وبين هذين الطرفين أوساط مختلفة ومراتب متفاوتة وهو المراد من الزيادة) والوجه الثاني: في فهم زيادة الإيمان ونقصه (أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله تعالى، ولما كانت التكاليف متوالية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم متعاقبة فعند حدوث كل تكليف كانوا يزيدون تصديقاً وإقراراً، ومن المعلوم أن من صدق إنساناً في شيئين كان تصديقه له أكثر من تصديق من صدق في شيء واحد)[٢٥٠]

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتاب الايمان من فتح الباري: ولما كان الإيمان يدخل فيه المعرفة بالقلب والقول والعمل كله كانت زيادته بزيادة الأعمال ونقصانه بنقصانها.

وأما المعرفة بالقلب: فهل تزيد وتنقص؟ على قولين: أحدهما: أنها لا تزيد ولا تنقص. قال يعقوب بن بختان: سألت أبا عبد الله – يعني أحمد بن حنبل – عن المعرفة والقول: يزيد وينقص؟ قال: لا، قد جئنا بالقول والمعرفة

---

٢٥٠) شرح قصيدة ابن القيم ١٤٥/٢ (مفاتيح الغيب ٣٤٣/٤-٣٤٤)

وبقي العمل. ذكره أبو الخلال في كتاب " السنة " ومراده بالقول: التلفظ بالشهادتين خاصة. وهذا قول طوائف من الفقهاء والمتكلمين. والقول الثاني: أن المعرفة تزيد وتنقص.

قال المروذي: قلت لأحمد في معرفة اللّه بالقلب تتفاضل فيه؟ قال: نعم، قلت: ويزيد؟ قال: نعم. ذكره الخلال عنه، وأبو بكر عبد العزيز في كتاب "السنة " - أيضا -، عنه وهو الذي ذكره القاضي أبو يعلي من أصحابنا في كتاب "الإيمان"، وكذلك ذكره أبو عبد اللّه بن حامد. وحكى القاضي – في " المعتمد " – وابن عقيل في المسألة روايتان عن أحمد، وتأولا رواية أنه لا يزيد ولا ينقص. وتفسر زيادة المعرفة بمعنيين:

أحدهما: زيادة المعرفة بتفاصيل أسماء اللّه وصفاته وأفعاله وأسماء الملائكة والنبيين والكتب المنزلة عليهم وتفاصيل اليوم الآخر. وهذا ظاهر لا يقبل نزاعا. والثاني: زيادة المعرفة بالوحدانية بزيادة معرفة أدلتها.[٢٥١]

---

٢٥١) كتاب الايمان من فتح الباري ابن رجب الحنبلي ص٤

باب: رأي الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في تفاضل الإيمان

(وهم لما توهموا أن الإيمان الواجب على جميع الناس نوع واحد صار بعضهم يظن أن ذلك النوع من حيث هو لا يقبل التفاضل، فقال لي مرة بعضهم الإيمان من حيث هو إيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، فقلت له قولك من حيث هو كما تقول الإنسان من حيث هو إنسان، والحيوان من حيث هو حيوان، والوجود من حيث هو وجود، والسواد من حيث هو سواد، وأمثال ذلك لا يقبل الزيادة والنقصان، والصفات فتُثبت لهذه المسميات وجوداً مطلقاً مجرداً من جميع القيود والصفات، وهذا لا حقيقة له في الخارج وإنما هو شيء يقدره الإنسان في ذهنه كما يقدر موجوداً لا قديماً ولا حادثاً ولا قائماً بنفسه ولا بغيره ويقدر إنساناً لا موجوداً ولا معدوماً، ويقول الماهية من حيث هي هي لا توصف بوجود ولا عدم، والماهية من حيث هي هي شيء يقدره الذهن وذلك موجود في الذهن لا في الخارج، وأما تقدير شيء لا يكون في الذهن ولا في الخارج فممتنع وهذا التقدير لا يكون إلا في الذهن كسائر تقدير الأمور الممتنعة، مثل تقدير صدور العالم عن صانع ونحو ذلك فإن هذه المقدرات في الذهن، فهكذا تقدير إيمان لا يتصف به مؤمن بل هو مجرد عن كل قيد، وتقدير إنسان لا يكون موجوداً ولا معدوماً، بل ما ثم إيمان إلا مع المؤمنين ولا ثم إنسانية إلا ما اتصف بها الإنسان، فكل إنسان له إنسانية تخصه وكل مؤمن له إيمان يخصه فإنسانية زيد

تشبه إنسانية عمرو، ليست هي هي وإذا اشتركوا في نوع الإنسانية فمعنى ذلك أنهما يشتبهان فيما يوجد في الخارج ويشتركان في أمر كلي مطلق يكون في الذهن، وكذلك إذا قيل إيمان زيد مثل إيمان عمرو، فإيمان كل واحد يخصه، فلو قدر أن الإيمان يتماثل لكان لكل مؤمن إيمان يخصه، وذلك الإيمان مختص معين ليس هو الإيمان من حيث هو هو، بل هو إيمان معين، وذلك الإيمان يقبل الزيادة، والذين ينفون التفاضل في هذه الأمور يتصورون في أنفسهم إيماناً مطلقاً، أو إنساناً مطلقاً أو وجوداً مطلقاً مجرداً عن جميع الصفات المعينة له، ثم يظنون أن هذا هو الإيمان الموجود في الناس وذلك لا يقبل التفاضل ولا يقبل في نفسه التعدد، إذ هو تصور معين قائم في نفس متصوره، وهكذا كثير من الفلاسفة تصوروا أعداداً مجردة وحقائق مجردة ويسمونها المثل الأفلاطونية وزماناً مجرداً عن الحركة والمتحرك وبعداً مجرداً عن الأجسام وصفاتها، ثم ظنوا وجود ذلك في الخارج؛ وهؤلاء كلهم اشتبه عليهم ما في الأذهان بما في الأعيان.

وهكذا القائلون بأن الإيمان شيء واحد وأنه متماثل في بني آدم غلطوا في كونه واحداً وفى كونه متماثلا ... وكذلك السواد والبياض يقبل الاشتداد والضعف بل عامة الصفات التي يتصف بها الموصوفون تقبل التفاضل، ولهذا كان العقل يقبل التفاضل والإيجاب والتحريم يقبل التفاضل فيكون إيجاب أقوى من إيجاب وتحريم أقوى من تحريم وكذلك المعرفة التي

في القلوب تقبل التفاضل على الصحيح عند أهل السنة وفى هذا كله نزاع فطائفة من المنتسبين إلى السنة تنكر التفاضل في هذا كله كما يختار ذلك القاضي أبو بكر وابن عقيل وغيرهما وقد حكي عن أحمد في التفاضل في المعرفة روايتان وإنكار التفاضل في هذه الصفات هو من جنس أصل قول المرجئة ولكن يقوله من يخالف المرجئة، وهؤلاء يقولون التفاضل إنما هو في الأعمال وأما الإيمان الذي في القلوب فلا يتفاضل، وليس الأمر كما قالوه، بل جميع ذلك يتفاضل وقد يقولون إن أعمال القلب تتفاضل بخلاف معارف القلب وليس الأمر كذلك بل إيمان القلوب يتفاضل من جهة ما وجب على هذا، ومن وجهة ما وجب على هذا فلا يستوون في الوجوب وأمة محمد وإن وجب عليهم جميعهم الإيمان بعد استقرار الشرع فوجوب الإيمان بالشيء المعين موقوف على أن يبلغ العبد إن كان خبراً، وعلى أن يحتاج إلى العمل به إن كان أمرًا، وعلى العلم به إن كان علماً، وإلا فلا يجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل أمر في الكتاب والسنة ويعرف معناه ويعلمه فإن هذا لا يقدر عليه أحد، فالوجوب يتنوع بتنوع الناس فيه ثم قدرهم في أداء الواجب متفاوتة ثم نفس المعرفة تختلف بالإجمال والتفصيل والقوة والضعف ودوام الحضور ومع الغفلة فليست المفصلة المستحضرة الثابتة التي يثبت الله صاحبها بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة كالمجملة التي غفل عنها وإذا حصل له ما يريبه فيها وذكرها في قلبه ثم رغب إلى الله

في كشف الريب، ثم أحوال القلوب وأعمالها مثل محبة الله ورسوله وخشية الله والتوكل عليه والصبر على حكمه والشكر له والإنابة إليه وإخلاص العمل له مما يتفاضل الناس فيها تفاضلا لا يعرف قدره إلا الله عز وجل، ومن أنكر تفاضلهم في هذا فهو إما جاهل لم يتصوره، وإما معاند، قال الإمام أحمد فإن زعموا أنهم لا يقبلون زيادة الإيمان من أجل إنهم لا يدرون ما زيادته وأنها غير محدودة فما يقولون في أنبياء الله وكتبه ورسله هل يقرون بهم في الجملة ويزعمون أنه من الإيمان فإذا قالوا نعم قيل لهم هل تحدونهم وتعرفون عددهم أليس إنما يصيرون في ذلك إلى الإقرار بهم في الجملة ثم يكفون عن عددهم فكذلك زيادة الإيمان وبين أحمد أن كونهم لم يعرفوا منتهى زيادته لا يمنعهم من الإقرار بها في الجملة كما أنهم يؤمنون بالأنبياء والكتب وهم لا يعرفون عدد الكتب والرسل وهذا الذي ذكره احمد ومحمد بن نصر وغيرهما يبين انهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم).[٢٥٢]

---

٢٥٢) مجموع الفتاوى.ابن تيمية ج: ٧ ص: ٤٠٦-٤٠٩

باب: مقدمة لما أراه في المسألة

باستقراء الآيات أجد أنها تثبت الحقائق التالية: آل عمران ١٧٣ تثبت أن الزيادة في الإيمان هي في أن الإيمان يعني أن تتحول الأفكار إلى واقع يسير الحياة؛ فالمؤمنون عندما خوّفهم الناس بالناس ازدادوا إيماناً: أي قرباً من اللّه وتوكلا عليه أي انعكس الإيمان على واقع حياتهم فزاد بأنه أصبح واقعاً عملياً لا ترفاً فكرياً؛ إذن فالزيادة في الإيمان تتمثل هنا في تأثيره على المؤمن لينتقل من مجرد أفكار إلى منهج حياة؛ وبمقدار ما يرقى إيمانه بسلوكه؛ أي بمعنى أدق بمقدار ما يحول شخصيته إلى شخصية إسلامية أرقى تكون الزيادة، وآية الأنفال ٣ يزداد المؤمن إيماناً بسماع آيات اللّه التي هي معجزة الرسول المصطفى صلى اللّه عليه وسلم لأنه إذ يتفكر فيها يزداد إيماناً بأن هذا الكلام معجز لا يمكن أن يكون إلا من لدن حكيم خبير، فيتجدد إيمانه ويقوى؛ إذ الزيادة من المشترك فلا تكون بالحد وإنما بالقوة، ومعلوم أن من لا يتعهد إيمانه بالرعاية فإنه يفقد إحساسه به مما يعرضه إلى خطر فقدانه والعياذ باللّه.

أما آية التوبة ١٢٥ فإننا نستنبط منها المقابلة بين الإيمان والكفر؛ وأن الإيمان يحصل بالتصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل؛ وأن الكفر يقابل الإيمان وأن محلهما القلب: فالمؤمن يستبشر قلبه بالإيمان ويزداد قلب

الكافر رجساً إلى رجسه؛ ومن ذلك أنه يزداد بعداً عن اللّه والمؤمن قرباً بزيادة إيمانه وزيادة في الايمان بقربه.

ولا بد هنا من درس الارتباط الوثيق بين ذكر اللّه والاطمئنان الذي يحصل وبين زيادة الإيمان؛ وبالمقابل حال الجفاء الذي يبعد المرء عن الحقائق التي يؤمن بها فيقسو قلبه [كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ] ١٤ المطففين والرين يجعل القلب قاسياً وهو محل الإيمان، فبالتذكر يرجع القلب نحو الطمأنينة؛ فالارتباط وثيق بين الإيمان والحياة.

أما آية الفتح فواضح أن الإيمان يزداد بزوال ما يكدر صفو القلب من وساوس وما شابه فيصل المؤمن إلى اطمئنان القلب بالسكينة التي ينزلها اللّه تعالى عليه. وهي تشبه آية الأحزاب، واللّه تعالى أعلم.

وبحصول الآيات كذلك قد تحصل الزيادة في الإيمان، كما في الأحزاب إذ تحقق للصحابة رضوان اللّه عليهم صدق اللّه وصدق رسول اللّه عليه سلام اللّه؛ فحصل لهم يقين المكاشفة فارتقى إيمانهم إلى درجة الاطمئنان فزاد عما كان عليه؛ كل هذا مع ملاحظة أن الإيمان بمعنى التصديق الجازم موجود أصلا ولو اقتصروا عليه لكان كافياً لكن اللّه تعالى يريد بهم خيراً فيزيدهم من فضله. وهذا النوع كذلك إذا لم يتعهد المرء إيمانه دائما فإنه

سيكون عرضة للوصول إلى قسوة القلب وبالتالي فقدان الإيمان والعياذ بالله تعالى.

من هنا وباستقراء الآيات نجد أن لنا تحفظاً على استنباط الإمام ابن حزم لمعنى الزيادة في الإيمان على أنها العمل؛ فما العمل بالمقصود من الزيادة، وإنما أحياناً أن يؤدي الإيمان إلى العمل، وفرق بينهما، فقد استنبط –رحمه الله- أن العمل جزء من الإيمان من هذه الآيات؛ وليس اعتراضنا على أن العمل من الإيمان هنا بل على أن الزيادة هي العمل؛ فما معنى قول الحق [وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً] حيث أنه ينكر أن تزيدهم تصديقاً فهل زادتهم عملاً؟

أو [وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا] ٢٢ الأحزاب معناها أنهم تحققوا من وعد الله ورسوله فكانت آية زادتهم إيماناً؛ أي نقلت إيمانهم من علم اليقين إلى عين اليقين بل إلى حق اليقين؛ نقلت علمهم من تصديق بخبر إلى مشاهدة حية لا نرى أي مكان للعمل في مفهومها؛ وما يثبت ذلك الآية الكريمة [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ...] الأنفال فجعل الزيادة

شيئاً وقيامهم بالأعمال أمراً آخر من مستلزمات الإيمان؛ به يصبح المؤمن مؤمناً حقاً، لكن لم يجعل العمل هو الزيادة في الإيمان. والله أعلم.

بقي أن نبين أن لنا تحفظاً على رأي العلامة ابن تيمية في أن الزيادة تكون بنزول أحكام وقضايا جديدة يزيد الإيمان بالعلم بها أو العمل بها، وذلك –كما بينا من رأي ابن حزم- فإن قال قائل: معنى زيادة الإيمان ها هنا إنما هو لما نزلت تلك الآية صدقوا بها فزادهم بنزولها إيماناً وتصديقاً بشيء وارد لم يكن عندهم. قيل لهم: هذا محال، لأنه قد اعتقد المسلمون في أول إسلامهم أنهم مصدقون بكل ما يأتيهم به نبيهم –عليه الصلاة والسلام- في المستأنف فلم يزدهم نزول الآية تصديقاً لم يكونوا اعتقدوه، مع القول بأن هذا الرأي الذي يراه العلامة يحتمل الصواب جداً وتؤيده آية في كتاب الله فسرناها على هذا النحو في فصل إيمان أهل الكتاب [لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] ٩٣ المائدة، فارجع إليها، كما ومر سابقا أن هذا ما يراه الامام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله.

تذكر قول الرازي رحمه الله: (أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله تعالى، ولما كانت التكاليف متوالية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم متعاقبة فعند حدوث كل تكليف كانوا يزيدون تصديقاً وإقراراً، ومن

المعلوم أن من صدق إنساناً في شيئين كان تصديقه لـه أكثـر مـن تصـديق من صدق في شيء واحد)[٢٥٣]

وهذا يتناسب مع ما ذهبنا إليه، من أن الإيمان التصديق الجازم بكافة ما جـاء بـه الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم إجمـالاً ومـا ثبـت بالـدليل القطعـي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم. فالمسلم الذي يعلم حقائق أكثر أمره الشارع الجزم بها، زاد إيمانه عما كان عليه قبل العلم بها، وتفـاوت مع من لم يعلمهـا، صـحيح أن المـؤمن فـي المسـتأنف صـدق الرسـول عليـه السلام في كل ما يأتيه به، لكن لاحـظ أن الصـلاة مـثلا عمـل، واعتقـاد أنهـا فرض من العقيدة، واعتقاد أنها ثابتة بالقطع من العقيـدة، وإنكـار فرضـيتها كفر، فالمؤمن الذي علم تكاليف أكثر زاد بذلك إيمانه، فمثلا العلم بأن الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال حزب سياسي هـو فـرض، أمـر يجهلـه الكثيرون، هذا العلم ثابت من قوله تعـالى: [ولـتكن مـنكم أمـة]، الآيـة فـي سورة آل عمران، حيث أن من للتبعيض، وهذا الفرض الذي حددته الآية مـن الكفايات، فيقوم به الحزب السياسي، فمن علـم ذلـك زاد تصـديقه عمـن لـم يعلمه، وهذا كله فرق بينه وبين من يقوم بأداء هذا الفـرض أي التزامـه لأن

---

٢٥٣ شرح قصيدة ابن القيم ١٤٥/٢ (مفاتيح الغيب ٣٤٣/٤-٣٤٤)

الالتزام من الأعمال أي من الأحكام الشرعية لا من الاعتقاد، لذا قال الرازي: فعند حدوث كل تكليف كانوا يزيدون تصديقاً وإقراراً.

فصل: هل يتفاضل الإيمان؟ تحرير موضع النزاع

بالنظر الممعن في المسألة أرى أن القائلين بأن الإيمان لا يتفاضل على حق وأن القائلين بأن الإيمان يتفاضل على حق أيضاً؛ وتنقصهما الدقة، وذلك أن النزاع بينهما ما هو إلا لسببين: أولهما عدم التفريق بين الإيمان واليقين، والثاني لأن نظرتهما إلى من هو المؤمن، منطلقة من أساسين مختلفين كما سبق وبينا في فصل سابق. أما بالنسبة لعدم التفريق بين اليقين والإيمان –والذي سيرد بيانه لاحقاً إن شاء الله- فما قالوه عن الإيمان من أنه لا يزيد وأنه التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل وأنه إذا داخله شك أو نقصان بأي شكل من الأشكال انتفى ودخل في الكفر وما إلى ذلك، فكل ذلك ينطبق على اليقين فإن تعلق بالإيمان نظرنا له من زاوية ثانية.

والأمر الآخر فالقائلون بأن الإيمان لا يتفاضل انطلقوا من نظرتهم إلى كيفية حصول الإيمان عند المرء؛ فرأوا أن المرء إما أن يؤمن بوجود الله أو لا يؤمن؛ فإن صدق تصديقاً جازماً بوجوده أصبح مؤمناً؛ ولا مكان هنا للتفاضل فإما أن تكون مؤمناً أو كافراً؛ ولا يتأتى التفاضل بين الناس في ذلك أيضاً؛ فهم إما مؤمنون أو كفار، من هنا قال ابن حزم: إن التصديق لا يتفاضل، وكذلك الرازي بين أن الدليل لا يمكن أن يكون مدخلا للتفاضل ولا يمكن

أن يـأتي التفاضـل مـن مطابقـة الواقـع لأن العلـم لا يتـأتى إلا بوجودهـا، فالمجموع الذي يكون تعريف الإيمان لا مجال للتفاضـل فيـه، كـذلك الإيمـان بنبوة النبي المصطفى عليه السلام؛ فإما أن تؤمن بذلك أو تكفر وهو كـذلك لا مجال للتفاضل ولا مجال أيضاً للكلام عن العمل أهو من الإيمان أم لا هنـا؛ فأنت أمام قضية فكرية لها أدلتها تعمل فيها فكرك للوصول إلـى التصـديق الجازم المبني على الأدلة وبالتالي تصدق فتصـبح مؤمنـاً أو لا تقتنع فتكـون كافراً؛ والدخول في الكفر يكون لدى أول بادرة شـك فالمجـال لا يحتمـل، فـلا يمكـن أن يكـون الإيمـان إلا خاليـاً مـن أي شـك لـذا لا تفاضـل فيـه بـين المؤمنين.

وأما الفريق الآخر فقد نظـروا إلـى مـن هـو المـؤمن؛ أي الشـخص الـذي سماه القران مؤمناً في خطابه العام الموجه للمؤمنين، كمـن سـرته حسـنته وساءته سيئته، مثلاً، فحين يقول: [ياأيها الذين ءامنوا]؛ لا بد من أن يتمـايز المؤمنون في كثير من الأمور التي تجعـل إيمـان أحـدهم يسـمو علـى إيمـان الآخر، فالإيمان لا بد إذن من أن يتفاضل بين عالم وأعلم؛ وبـين مـن يدفعـه إيمانه للعمل ومن لا أثر له على سلوكه، وما شابه؛ من هنا قالوا بـأن العمـل من الإيمان إذ لا يتصور أن لا يعمل المؤمن بما علم؛ وهذا حق أيضاً؛ لا مـن باب جزئية الأعمال في الإيمان لكن من بـاب إدراك الصـلة بـالله حـال القيـام

بالعمل والقيام به على أنه أوامر اللّه ونواهيه، وما إلى ذلك مما فصلنا فيه في موضعه فارجع إليه.

لكن بالتمعن في مفهوم الإيمان واليقين في القران والسنة خلصت إلى فهم جديد:

فصل: في التفريق بين الإيمان واليقين:

الباب الأول: نواقض تحول بين المصدق جزما عن دليل وبين الدخول في الايمان

هل تعريف الايمان على أنه التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل جامع مانع؟

كمقدمة لا بد منها لا بد من بيان أمر مهم: وهو صحيح أننا نقول أن الايمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، وهو عين تعريف اليقين، وصحيح أننا نقول أن هناك من لديه هذا التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل ولكنه مع ذلك ليس بمؤمن، ومثلنا على ذلك بإبليس وببعض علماء أهل الكتاب، إلا أن ذلك يعود لوجود أحد الأمور التالية:

أولا: الشك ولو بقضية واحدة مما طلب منه الايمان به جزما أو بدليل قطعي، فلا يفيده معها أن يوجد لديه التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل بسائر ما في العقيدة من قضايا ويكفر فورا، كمن يشك في حرف واحد من القرآن.

ثانيا: اعتقاد ما جاء الدليل القطعي على عدم مطابقته للواقع أو ما طلب منه بشكل جازم أن يكفر به (كمن يعتقد بالنجوم مثلا) أو عدم اعتقاد ما أمر بشكل جازم أن يعتقده أو عدم اعتقاد ما دل الدليل القاطع عليه، فيكفر مباشرة وسيأتي تفصيل ذلك والتدليل عليه بحول الله في فصل الكفر وضوابطه، فالايمان بمثل هذه القضايا لا يتبعض.

ويدخل هنا أيضا عدم الاقرار بما هو قطعي الثبوت أو الدلالة، ويدخل الجحود إذ أنه يحول بين المصدق جزما وبين الايمان ولا يمنع أن يبقى لديه اليقين.

ثالثا: القيام بفعل مكفر لا يحتمل التأويل كالسجود لصنم أو بناء كنيسة أو الصلاة في كنيسة.

رابعا: قول ما يخرج من الايمان بحيث لا يحتمل قوله التأويل، فيكفر به ولا بد من ملاحظة مهمة هنا هي أننا نضبط أحكام الكفر والايمان بالنسبة للناس في الحياة الدنيا وما يترتب عليها من أحكام شرعية عملية كأحكام المرتد والزواج والطلاق والخلافة والعزل وما شابه، ولا نبحث في هل هو مؤمن عند الله أو هل هو كافر عند الله.

ولرب سائل يسأل: ألا يدل ذلك على أن تعريف الايمان بأنه التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل غير جامع مانع؟ لأنه لم يمنع من اتصف

بهذا أن يبقى في حياض الكفر، كمن مثلنا بهم سابقا ومن سيأتي تفصيله لاحقا بحول اللّه تعالى؟ والجواب أن لا، فهو تعريف جامع مانع، ولا بد من ملاحظة الأمور التالية:

أولا: الايمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل بكافة ما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم.

وليس التصديق الجازم المطابق للواقع بآحاد قضايا الاعتقاد منفصلة بعضها عن بعض، وبالتالي فمن صدق جزما بكل ما في الاسلام إلا بقضية واحدة قطعية منه لا ينطبق عليه مفهوم الايمان أي أنه لا يكون قد صدق جازما تصديقا مطابقا للواقع عن دليل.

ونذكّر بقول الامام النبهاني رحمه اللّه: ومما يجب أن يُلفت النظر إليه أن اعتناق العقيدة الإسلامية معناه الإيمان بكافة ما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم. ويجب أن يعلم أن مجرد المعرفة لا يغني، وأن التمرد على أصغر شيء ثابت يقيناً من الإسلام يخرج الشخص ويفصله من العقيدة.

والإسلام كلٌ غير قابل للتجزئة من حيث الإيمان والتقبل فلا يجوز في الإسلام إلا أن يُتقبل كاملاً، والتنازل عن بعضه كفر،...[٢٥٤]

ثانيا: الله سبحانه وتعالى وصف من لديهم هذا التصديق بأنهم مؤمنون وطلب منهم استكمال قضايا معينة ليسميهم مؤمنين شرعا وإلا، إن لم يفعلوا انقلب إيمانهم كفرا:

روى الامام البخاري رحمه الله في كتاب الجهاد والسير: باب فضل من أسلم من أهل الكتابين: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا صالح بن حي أبو حسن قال سمعت الشعبي يقول حدثني أبو بردة أنه سمع أباه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين الرجل تكون له الأمة فيعلمها فيحسن تعليمها ويؤدبها فيحسن أدبها ثم يعتقها فيتزوجها فله أجران (((ومؤمن))) أهل الكتاب الذي كان (((مؤمنا))) ثم آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فله أجران والعبد الذي يؤدي حق الله وينصح لسيده.

قال تعالى [لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

---

٢٥٤) الشخصية الاسلامية الجزء الأول لتقي الدين النبهاني فصل الثغرات في السلوك

وَالـمُؤْمِنُونَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَـنُؤْتِيهِمْ أَجْـرًا عَظِيمًـا] ١٦٢ النسـاء، [يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـواْ آمِنُـواْ بِـاللّه وَرَسُـولِهِ وَالْكِتَـابِ الَّـذِي نَـزَّلَ عَلَـى رَسُـولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّه وَمَلاَئِكَتِـهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَـوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّه لِيَغْفِـرَ لَهُـمْ وَلاَ لِيَهْـدِيَهُمْ سَـبِيلاً] ١٣٧ النسـاء. هذه الآيات وغيرها مما سنفصل فيه ان شاء اللّه في فصل إيمان أهل الكتـاب تبين أنهم كانوا مؤمنين حتى لحظـة بعثـة الرسـول الخـاتم صـلى اللّه عليـه وسلم، فإن بعّضـوا إيمـانهم ولـم يضـموا إلـى مـا لـديهم التصـديق الجـازم بمحمد عليه الصلاة والسلام كفروا، لكن الواضح أنهم وصفوا بالايمـان قبـل ذلك، أي حتى لحظة وضع الايمان على محك التصديق بمحمد صلى اللّه عليه وسلم.

قال ابن حجر في فتح الباري: قال ابن المنير: مؤمن أهل الكتـاب لا بـد أن يكون مؤمنـاً بنبينـا صـلى اللّه عليـه وسـلّم لمـا أخـذ اللّه علـيهم مـن العهـد والميثاق، فإذا بعث فإيمانه مستمر فكيف يتعدد إيمانه حتى يتعدد أجره. ثـم أجاب بأن إيمانه الأول بأن الموصوف بكـذا رسـول، والثـاني بـأن محمـداً هـو الموصوف فظهر التغاير فثبت التعدد انتهى. ويحتمـل أن يكـون تعـدد أجـره

لكونه لم يعاند كما عاند غيره ممن أضله اللّه على علم، فحصل له الأجر الثاني بمجاهدته نفسه على مخالفة أنظاره.[٢٥٥]

من هنا نقول أن التعريف جامع مانع ولكنني فصلت هذه الضوابط في تعريف المؤمن رغم أننا لو قلنا أن المؤمن هو المصدق جزما مطابقا للواقع عن دليل لكفى ولكن الضبط أفضل.

ثالثا: من وصف هنا بالايمان قبل وضعه على المحك إن لم يقر نزع منه هذا الوصف لكننا رأينا الحق سبحانه لم ينزع وصف اليقين أو العلم حتى بعد وجود الجحود من أهل الكتاب، وهذا يهمنا في مبحث التفريق بين اليقين والايمان.

---

٢٥٥) كتاب الجهاد والسير من فتح الباري

الباب الثاني: في التفريق بين الايمان واليقين:

وأما آية المدثر فلا بد من التفكر فيها ملياً لأن الحق تعالى قال فيها: [لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ] فاليقين هو أول درجات الإيمان ويحصل بالتصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل؛ أي لا بد للمرء أولا من الوصول إلى اليقين بحقائق الإيمان، أي أن يصدق بها تصديقاً جازماً مطابقاً للواقع عن دليل، ثم بعد ذلك لا بد له من أمور ليدخل في الإيمان، فاليقين مرحلة ضرورية لازمة للدخول في الإيمان وقد تتخلف، بمعنى أنه قد يوجد لدى المرء اليقين ولكنه لا يدخل في الإيمان كما سنرى في آل فرعون وفي علماء أهل الكتاب، وكما نعلم من حال إبليس.

فهذه آية من الآيات التي لو تفكر بها أهل الكتاب لوصلوا إلى اليقين؛ وأما المؤمنون فستزيدهم إيماناً؛ بعد أن وصلوا اليقين: والزيادة هنا هي اطمئنان القلب؛ من المقابلة مع الذين في قلوبهم مرض والكافرين؛ وكلا الفئتين إذ لم تصل بقلوبها إلى التصديق الجازم أي إلى اليقين فإنها مصابة بمرض في القلب وأساسه الريبة وهي الشك مع تهمة وقلق واضطراب كما سيأتي إن شاء الله.

أو أن اليقين هو النوع من التصديق الذي لا يحصل فيه زيادة ولا نقص، ولا تفاوت فيه بين الموقنين: أي أن اليقين هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، فهذا التعريف منطبق تماماً على اليقين بلا إضافات ولا شروط وليس كذلك على الإيمان، إذ تصديق اليقين يتحقق ولو في قضية واحدة بينما في الإيمان لا بد من الكل.

فاليقين يبدأ بحصول الآيات ثم قد يتحول إلى إيمان، فإذا ما انتفت الأسباب التي تحول دون اليقين ليدخل في الإيمان كالجحود مثلا فإن المرء حال يقينه يكون مؤمناً، تأمل لطيفة هنا وهي أن الحق سبحانه وتعالى قرر أن هذه الآيات ستوصل أهل الكتاب إلى اليقين مع أنه وصفهم بأنهم أهل الكتاب، وبالتالي فسيحصل الاستيقان لديهم وقد يبقوا على ما هم عليه أي على وصف أنهم الذين أوتوا الكتاب، أي لم يجعل بلوغ اليقين لديهم أمرا مدخلا في الايمان، فلم يقل ليستيقن الذين أوتوا الكتاب فيؤمنوا بذلك، ولا أدل على ذلك من ذكرهم مرة أخرى في الآية نفسها بعد أن بلغوا الاستيقان بهذه الآيات فقال: [ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون]، فلم يشملهم في ضمن المؤمنين رغم أنهم بلغوا اليقين بصدق الرسول بهذه الآية التي أوصلتهم اليقين؛ فقد فرق بينهم وبين المؤمنين الذين قد وصلوا لهذه المرحلة من قبل وستقوم هذه الآيات بزيادة الايمان لديهم.

كذلك جعل الحق سبحانه الآيات سبيلا لبلوغ اليقين وكذلك الإيمان [وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ] ٨٢ النمل، وقال تعالى: [أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] ٨٦ النمل فاليقين مرحلة ضرورية سابقة للإيمان وقد تتخلف.

كذلك فإننا لم نجد الحق سبحانه يتكلم عن الزيادة في اليقين وأضاف الزيادة دائماً إلى الإيمان.

كذلك من نسبته للكفار بأنهم يستيقنون الآيات ولكنهم يجحدونها كما في آية النمل التي هي محور الكلام هنا [فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٣ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ] ١٤ النمل استنبطنا أن اليقين حالة من التصديق لا تتفاضل، وهي أول درجات الإيمان والله أعلم.

لنثبت الأمور التالية من خلال الكتاب والسنة:

أولاً: لقد أثبتنا إمكانية وجود اليقين لدى أناس كفار، كما أنهم وصفوا بالعلم.

ثانياً: لا يكون كل موقن مؤمناً، ولكن لا بد لكل مؤمن من أن يكون موقناً.

ثالثاً: اليقين مع الإيمان يسمو به لأرفع درجاته المقاربة من طمأنينة القلب، ولكن اليقين مع الجحود لا يغني من صاحبه شيئاً.

رابعا: انقسم أهل الكتاب العلماء بصدق النبي محمد عليه سلام الله إلى فريقين: مؤمن باتباعه، وكافر بجحوده وتكبره، ولم يزل اليقين من قلب الفريقين، بينما من لم يقر ويسلم زال عنه وصف الايمان إن كان متصفا به أصلا وهذه نقطة جوهرية، فمثلا حيي ابن أخطب أعلن (كما تروي ابنته صفية زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنها) أنه عرفه بكل علاماته ولكنه أزمع معاداته الدهر كله، فاليقين لم يزل من صدره بأن الرسول حق، ولكنه كفر.

لنرجع إلى الآية الكريمة؛ آية النمل: ولا بد لنا من وقفات تأمل لهذه الآية: أول ما تثبته الآية هو تعريف اليقين، فقد وجدت الآيات المبصرات التي تدل على صدق موسى عليه السلام، فصدقوا جازمين بصدقه عن دليل، وصف الحق سبحانه هذا التصديق على أنه اليقين.

إذن فهي تصف تصديقهم -وهم الكفار- الناتج عن هذه الآيات على أنه اليقين، بل إن الآية تجاوزت القلب في نسبة اليقين لتنسبه إلى الأنفس، أي تجاوز القلوب من شدة تأثير الآيات عليهم ليستولي اليقين على أنفسهم، فقال تعالى: [وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ].

ووجود الجحود مع اليقين يقوي معناه: فمضمون الجحود أصلا تصديق ويقين ثم إنكار وصد [يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّه ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ] ٨٣ النحل؛ ولا يوصف المكذب بلا يقين بأنه جاحد، بل منكر، كذلك فأنت لا تصف المؤمن بالله بأنه جاحد بالطاغوت، لأنه كافر بها لا جاحد، والفرق واضح بين الوصفين، فوجود الجحود مع اليقين بين مدى قوة هذا اليقين!.

بل دعني أذهب لأبعد من هذا متأملا الآية، فالفاعل في الاستيقان هو هذه النفوس الجاحدة المستكبرة، فتخيل كيف ومتى تستيقن نفس الحاقد الجاحد، لا شك أن نفوسهم ما استيقنت (وهي الفاعل) رغم أنفهم وهم الكارهون، إلا لأن الأدلة كانت في غاية القوة! وفعل استيقن إذ زاد في مبناه على فعل أيقن فلعل الزيادة توحي بطلب اليقين كالاستفهام الذي معناه طلب الفهم، وإن قالوا: استيقن وأيقن بمعنى.

ووجود الجحود مع اليقين هو الذي أفسده، وقَلَبَه إلى الكفر، فالكافر قد يكون مستيقناً، لكنه لا يمكن أن يكون مؤمناً.

ولنلاحظ كيف قدم الجحود على اليقين، فلو قدم اليقين عليه لتوهمنا أنهم بعد يقينهم تبين لهم شيء ما صرف يقينهم إلى نقيضه وصاحب حالهم تلك جحود، لكنه تعالى قدم الجحود على اليقين لنتبين أن اليقين

راسخ لديهم بقي في أنفسهم لشدة قوته، وأن الجحود كان لسبب خارج عن اليقين وأركانه.

ولا أدل على ذلك من القصة المعروفة لأبي جهل وغيره من تسمعهم للقرآن خفية قرب بيت الرسول الكريم في مكة!

تأمل وصف الله سبحانه وتعالى لهم: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ] (٣٢) محمد،

[وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (١٠٩) البقرة، [قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] (٥٣) فصلت، [إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥)] محمد.

فلا شك أنه قد تبين لهم الحق والهدى ولكنهم تولوا على أدبارهم واتبعوا أهواءهم.

لاحظ أننا نتحدث عن عين الهدى الذي عند المؤمنين وعين الحق الذي نزلت الآيات لتدلل عليه والذي من صدق به جازما دخل في المؤمنين إن خلا من النواقض لإيمانه، فنحن لا نتحدث إذن عن تصديقهم جزما بعقائدهم، ولكن بعقيدتنا نحن، وبآيات هي التي نتوصل من خلالها نحن أيضا إلى عين هذا الحق وعين هذا الهدى، ففي آية النمل قال تعالى: [فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً... وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ]. آياتنا نحن.

إذن فلا شك أن بعض الكفار من آل فرعون ومثلهم إبليس كان لديهم التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، ولا شك أنهم كفار خالدون في النار، أفلا يدل ذلك على فرق بين اليقين والإيمان؟ وعلى أن التعريف السابق للإيمان ينطبق على اليقين تماما وعلى العلم ولا بد له من ضوابط تبين من الذي يمتلكه ويدخل في حياض المؤمنين ومن يبقى على كفره وهو معه؟

تأمل معي الآيات التالية: [وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٤٦ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ] ٤٧ العنكبوت وسيأتي إن شاء الله تفصيل هذه الآية لنعلم من وصف الله فيها بالمؤمنين، فقد بين أن من هؤلاء من يؤمن به وهم الذين اتبعوا

وسلموا كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، فـ"مِن" هنا للتبعيض، وأما من عرف وأنكر أو جحد فقد وصفهم بالكافرين، لاحظ مرة أخرى أنهم علموا فكفروا فجحدوا بذلك! سبق أن قررنا أن الجحود نتاج الكفر، وهو يثبت ما ذهبت إليه حيث أن العلم له شروط اليقين تماماً.

[وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ] ٤٢ البقرة؛ [يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ] ٧١ آل عمران؛ [وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ] ١٠١ البقرة؛ وهذه الأخيرة فيها استنكار يبين أنهم يعلمون قطعاً، ولاحظ معي كيف اقترن قول الحق [الذين ءاتيناهم الكتاب] بالعلم، وكيف ميز بين من نبذه وراء ظهره، وهم فريق، لتفسِّر الآية أعلاه (العنكبوت ٤٧) بهذه الآية، فالذين نبذوه وراء ظهورهم هم الكافرون، والذين أوتوا الكتاب ولم ينبذوه هم المؤمنون.

لاحظ أن العلم (اليقين) موجود مع كليهما، لكن الذي لم يجحد واتبع هو المؤمن، والجاحد المعرض هو الكافر.

[وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ] ١٤٤ البقرة [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ

وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] ١٤٦ البقرة؛ فقد علموا ولم يتبعوا فلا يُسمى من هذا حاله بالمؤمن؛ لذا كان الاقرار والإذعان والتسليم شرطاً لتحقق الإيمان، وهي ليست جزءا منه، تذكر ما سبق بيانه في الآية الكريمة: [فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ١٥٧ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ] ١٥٨ الأنعام، وتهمني جداً الآية الأخيرة فبنو إسرائيل عندهم من الآيات ما يبين صفة هذا النبي وصدقه، ومنهم مؤمنون بما لديهم من العلم، لكن إن صدفوا عما عندهم من العلم، وعما قد صدّقوه أي كذّبوا بعد تصديق، لأنهم لا يريدون الاتباع لا لأنهم لا يصدقون، فإنهم لا يعودون مؤمنين، فعدم الاتباع يعني أنهم لم يكسبوا في إيمانهم خيراً، فليس بإيمان بعد هذه اللحظة لانعدام الاتباع، أو لتبعيض الايمان فهم لم يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام، أو لفعلهم فعل كفر، مما يعني أن التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل إن لم يصاحبه الاتباع، أي الإقرار والإذعان والتسليم، [وهي من مستلزمات كلمة التصديق الواردة في تعريف الإيمان كما مر] أو لم يجمع له الايمان بكل ما جاء به الدليل القطعي، أو ما طلب منه جزما الايمان به، أو أن يقوم بفعل

مكفر أو أن يشك؛ فليس بإيمان، وتذكر أيضاً هنا آية [وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ] كما أسلفنا، وهذا كله يثبت تميز اليقين والعلم عن الإيمان، فها هو يبين أن لدى أقوام اليقين والعلم بعين الحقائق التي يعلمها ويستيقنها المؤمنون، ولكنهم خسروا إذ لم يدخلوا في الإيمان، ولم يفدهم علمهم ولا يقينهم شيئاً.

وثانياً: لم يزل اليقين من أنفسهم حتى بعد مبعث الرسول الكريم، ولكنه لم يتحول إلى الإيمان بالاقرار والتسليم، لم يتحول إليه لأنهم لم يصدقوا جزما بكل ما أمروا به، فاليقين غير الإيمان.

وثالثاً: وصف الحق سبحانه فرعون بأنه: [فَكَذَّبَ وَعَصَى] ٢١ النازعات، وسبق بيان وصف فرعون بأنه يعلم أن الآيات من الله، فلا بد من التفريق بين الإيمان واليقين، فهم يوقنون لكنهم يكذبون، وتكذيبهم كفر كما لا يخفى، ولا يخفى أنهم كفار، فوجد لدينا كفار، (يعني ضرورة أنهم غير مؤمنين) وهم يوقنون.

كذلك فإن الأمر بأي فعل والنهي عن أي أمر لا بد من أن يستقبله المؤمن بالاعتراف بأنه من الله تعالى، فإن أنكر ذلك كان كافراً، كمن ينكر الصلاة أو الزكاة وهما فعلان، فهذا الجانب الخاص من الفعل لا بد من تحقق المعرفة فيه، بمعنى المعرفة التي تفضي إلى التصديق بما ثبت أنه

من الشارع، وعدم إنكاره، وهذا كله من الإيمان لأن الذي يفعل خلافه كافر، وقتال مانعي الزكاة على أساس أنهم مرتدون يثبت ذلك.

لاحظ هنا أن المعرفة -وقد أثبتنا أنها لا بد مصحوبة بالتصديق الجازم- لا يدخل العارف المصدق في الإيمان، إلا بالتسليم أي ليست المعرفة وحدها بكافية لحصول التصديق المفضي إلى الإيمان، لذا كان التسليم الذي هو نقيض الجحود شرطاً آخر ليدخل اليقين في دائرة الإيمان.

(كما اتفقوا [أهل السنة][٢٥٦] على أن المعرفة بالقلب لا تكفي في تحقيق اسم الإيمان فلا بد مع المعرفة والتصديق من الإقرار باللسان [ولا يُتصور أن لا ينطق المؤمن بالشهادتين وهو على غير حال المكره العاجز].[تأمل الآية ١٤٦ البقرة] فإن فرعون وقومه كانوا يعرفون صدق موسى وهارون عليهما السلام وكانوا كافرين، قال تعالى: [قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ] ١٠٢ الإسراء؛ [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ

---

٢٥٦) مصطلح أهل السنة، الأصل فيه أنهم السادة الأشاعرة، وينسب أهل الحديث أحيانا لأنفسهم هذا المصطلح، ويتسمى به أيضا أتباع ابن تيمية، المسمون بالسلفية، والصحيح أن جمهور المسلمين هم أهل السنة، لا تمييزا لهم عن الشيعة والزيدية وغيرهم، بل بأن الله سماهم المسلمين، والمسلم مأمور بالتأسي بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، والخطورة في سوء استعمال هذا المصطلح تنتج باعتبار طائفة من المسلمين أنفسهم الفرقة الناجية، وما سواهم: أهل قبلة! والأخطر من ذلك الادعاء بأن عقيدة أهل السنة غير عقيدة غيرهم، مع أن العقيدة الإسلامية واحدة من لم يعتقدها بكل قطعياتها خرج منها.

كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ] ٢٠ الأنعام؛ بل إن إبليس كان عارفاً بربه ولكنه إمام الكافرين)[٢٥٧]

قال ابن حزم: (وقد نص الله –عز وجل- على أن اليهود يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم وأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل وقال تعالى [فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ] ٣٣ الأنعام؛ وأخبر تعالى عن الكفار فقال [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ] ٨٧ الزخرف؛ فأخبر تعالى أنهم يعرفون صدقه ولا يكذبونه وهم اليهود والنصارى وهم كفار بلا خلاف من أحد من الأمة ومن أنكر كفرهم فلا خلاف من أحد من الأمة في كفره وخروجه عن الإسلام. ونص تعالى عن إبليس أنه عارف بالله تعالى وبملائكته وبرسله وبالبعث وأنه قال: [قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ] ٣٦ الحجر؛ وقال [خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ] ١٢ الأعراف؛ وكيف لا يكون مصدقاً بكل ذلك وهو قد شاهد ابتداء خلق الله تعالى لآدم وخاطبه تعالى خطاباً كثيراً وسأله [مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ] ٧٥ ص؛ وهو كافر بلا خلاف) وقال يرحمه الله: ([فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٣

---

٢٥٧) الإيمان حقيقته ١٤٨ عن كتاب الإيمان للقاسم بن سلام ١٠٢؛ وشرح العقيدة الطحاوية ٣٧٣-٣٧٤

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ] ١٤ النمل؛ قال أبو محمد: وهذا أيضاً نص جلي لا يحتمل تأويلا على أن الكفار جحدوا بألسنتهم الآيات التي أتى بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واستيقنوا بقلوبهم أنها حق ولم يجحدوا قط أنها كانت وإنما جحدوا أنها من عند اللّه؛ وقال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام أنه قال لفرعون [قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ] ١٠٢ الإسراء؛ فمن قال أن فرعون لم يعلم أن اللّه تعالى حق ولا علم أن معجزات موسى حق من عند اللّه تعالى فقد كذّب ربه تعالى وهذا كفر مجرد.)[٢٥٨]

إذن لا شك أنه ثمة فرق بين الإيمان من جهة والعلم واليقين من أخرى.

علماً بأنني أحب أن يدق فهمنا لعبارة ابن حزم رحمه اللّه، بأن الجحود كان في أن هذه الآيات من عند اللّه وذلك يعني أنهم استيقنوا أنها آيات من عند اللّه وأنكروا ذلك جحوداً، أي أنهم علموا بواسطة هذه الآيات صدق موسى عليه السلام بأنفسهم ولكنهم جحدوا، فنص الآية يقول [فلما جاءتهم ءاياتنا مبصرة] ونسب الحق سبحانه الآيات لنفسه دلالة على أنهم

---

٢٥٨) الفصل في الملل والأهواء والنحل. ابن حزم. ٣/ ٢٤٠-٢٤٣

صدقوا وأيقنوا بأن موسى عليه السلام رسوله، لكنهم جحدوا تكبراً، وليس الأمر مجرد عدم نطق، وإنما عدم اتباع. والله أعلم.

لذلك أقول –والله تعالى أعلم- فإن كان حقاً فمن الله أحمده عليه وإلا فمن نفسي الأمارة بالسوء، رُبَّ قادم على الله ملء نفسه اليقين لا يخرج من النار، ورب قادم عليه ليس في قلبه إلا مثقال ذرة من الإيمان يخرجه الله تعالى منها!!

بل للدقة أقول: كل من وجد الله في قلبه مثقال ذرة من الإيمان أخرجه من النار، بينما لن يخرج آل فرعون من النار مع أن أنفسهم قد امتلأت يقيناً! فتأمل!

أجل لا بد من التفريق بين الإيمان واليقين، فهذا الوصف الذي وصفه الله تعالى لآل فرعون [فلما جاءتهم ءاياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين] في تسع ءايات قدم عليهم موسى عليه السلام؛ من شدة وضوحها وصفها الله تعالى بأنها مبصرة، أدت عملها بأن ملأت أنفس آل فرعون يقيناً، بل إن موسى عليه السلام قد وصف ما في نفس فرعون: [قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ] ١٠٢ الإسراء

فاليقين الذي ندعي بأنه غاية الإيمان وأعلى درجاته هو اليقين المصحوب بالاستسلام لله والخضوع لعظمته، والانقياد لأمره والانتهاء

بنهيه، والحب له، وإلا فإن هذا اليقين لا يشترك مع الإيمان بقاسم مشترك، أي أن اليقين لا يصبح إيماناً إلا إذا توفرت فيه هذه الشروط، عندها من ملأ الله تعالى نفسه يقيناً كان مكتمل الإيمان، مطمئن القلب.

وهنا تثور ثلاث شبه أولها لا وزن لها وثانيها خطيرة: أما الأولى: فلم لا نقول أن وصف اليقين هنا من باب وصف الحق لإيمان الكفار بالباطل على أنه إيمان، والجواب بسيط وهو أنهم هناك آمنوا بالباطل، لكن الموضوع الذي نتحدث عنه هنا هو: أنهم استيقنوا الآيات التي جاءهم بها رسول الله وكليمه، فاشتركوا في الموضوع الذي خوطب به المؤمنون على أن عليهم أن يستيقنوه، فهم والمؤمنون يستيقنون ذات الشيء وهو أن موسى رسول الله.

أما الثانية: فكأني بسؤال خطير هو: فماذا أبقيت من الدين؟ إذا كان من بقلبه مثقال ذرة من الإيمان يخرج من النار ومن كان ممتلئ النفس يقيناً بلا إيمان يخلد في النار، فما هو الحد الفاصل بين المؤمنين والكفار؟ وماذا أبقيت من الدين، حيث أن غاية ما كنا نصبوا إليه هو اليقين بالله، فجعلتنا والكفار المستيقنين في خندق واحد وما هو الحد الفاصل، ولرب كافر في قلبه مثقال ذرة من إيمان، يخرج من النار، بل لربما وجدنا هذا المثقال في أغلب القلوب، فماذا بقي من الدين؟

أقول وباللّه تعالى التوفيق: إن حديثنا هنا إنما هو عن القلوب، وهي سر مستودع لا يعلم ما فيها إلا اللّه تعالى، وليس لنا أن نحاكم الناس على ما فيها، ولا يمكن أن نأخذ في حياتنا الدنيا إلا بالظاهر، فمن قال أنه مسلم، والتزم شروطاً معينة ظاهراً لا نملك إلا أن نصفه بهذا الوصف، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي فِرَاسٍ قَالَ خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللّه عَنْهُ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ بَيْنَ ظَهْرَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ وَإِذْ يُنْبِئُنَا اللّه مِنْ أَخْبَارِكُمْ أَلَا وَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ انْطَلَقَ وَقَدْ انْقَطَعَ الْوَحْيُ وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا نَقُولُ لَكُمْ مَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ لَنَا شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ سَرَائِرُكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ ... رواه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

وهذه الأحكام التي بينتها هي من شؤون الآخرة، يعلم اللّه ويفصل سبحانه بين القلب المستيقن المؤمن، وبين المشرك، والمنافق، وما إلى ذلك، وليس لنا في هذا المقام إلا أن نبين ونفرق حسب نصوص الكتاب والسنة بين الإيمان الذي ينجو صاحبه، وبين ما لا يغني عنه من اللّه شيئاً، أي أننا هنا نقعّد القواعد ليتبين كل امرئ طريقه على بصيرة.

ومرة أخرى أجد أن التفريق بين الإيمان واليقين ضرورة لنفس هذا السبب الذي أناقشه الآن، ولنطرح جواباً على تلك الشبهة السؤال التالي: إذا

كان الإيمان واليقين هما شيء واحد، فلا بد أن المستيقن مؤمن، فلماذا نؤمن أن قوم فرعون من أهل الخلود في النار؟ ولماذا نؤمن بأن إبليس هو رأس الكفر رغم أن عنده التصديق الجازم المطابق للواقع؟

ولنناقش الموضوع من منطلقين: أولهما: لو قلنا الإيمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل فقط، دون التفريق بينه وبين اليقين، فلا بد أن عندهم هذا الإيمان، ولا يمكن أن نتخيل قلوب آل فرعون خالية حتى من مثقال ذرة منه، وبالتالي فلا بد أن يخرجوا من النار، أما وإنهم ليسوا بالمؤمنين ومعهم التصديق الجازم هذا فإن الإيمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل الخالي من النواقض المستكمل للشرائط.

كذلك فإن القائلين بهذا القول يقولون بأن الإيمان لا يتفاوت بين الخلق وبالتالي فما عند آل فرعون من اليقين لوحده كاف شاف، لا يحتاج إلى عمل!!

ولرب قائل هنا: ألا يدل ذلك على أن تعريف الايمان على أنه التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل ليس بجامع مانع؟ لأنه لم يمنع هؤلاء من الدخول فيه؟ قلنا بل على العكس هذا يدل على أنه جامع مانع، فنحن نتحدث عن التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل بكافة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم، وبالتالي فهؤلاء أو أولئك لا بد أن لديهم ما لا يجعل

هذا التصديق مستوفيا شروطه كالقيام بعمل مكفر أو التبعيض فيه أو أن يؤمنوا مثلا بصدق الآيات هذه ولكن لا يصدقوا مثلا بالبعث والنشور، ألم تر أن بعض علماء يهود مثلا لا يؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام؟ قال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً] ١٥٠ النساء، راجع الباب الأول في هذا الفصل ص ٩٥

والمنطلق الثاني: لو قلنا أن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، فهم يشترطون وجود العمل إلى جانب الإيمان، فإذا كان أصل الايمان وهو التصديق الجازم موجودا ولكنهم لم يدخلوا في الايمان ونحن جميعا نقر أنهم كفار، ونعلم أن الله لا يقبل من الكفار أي عمل، وقد بين سبحانه أنهم خالدون في النار، فوجود العمل في التعريف لم يقدم شيئا ولم يؤخر شيئا لحل الاشكال، وبالتالي فالناجي هو من آمن: أي من صدق تصديقاً جازماً بالله وبرسوله وباليوم الآخر ...الخ، وفقاً للضابط المميز للتصديق الجازم الذي يمكن أن يكون إيماناً وهو التسليم والإقرار والخلو من النواقض، ولا يمكن الإقرار بوجود الإيمان مع الكفر في القلب على أساس أن مثقال الذرة من الإيمان هو ما تبقى في القلب بعد أن ملأه الكفر، فنحن نقول بأنه لوجود هذا المثقال من الذرة لا بد من أن يخلو قلب صاحبه من الشرك ومن النفاق ومن الكفر.

اللهم إلا إذا قبل الله تعالى من بعض المقلدين الذين يُسمون مسلمين دونما أدنى علاقة بهذا الدين، وهذا أمر يرجع إليه سبحانه، أو أن تنطبق الأحاديث على ما لا علم لنا به من أحوال من يقدمون عليه سبحانه يوم القيامة.

والأمر الثالث: هو أننا نقرر أن الايمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل ونفرق بينه وبين اليقين ولكننا نقول أن اليقين هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل أيضا ونفرق بينهما بشروط يجب توفرها في الايمان لم يشترط توفرها في اليقين، ولا في العلم ولم يمنع عدم وجودها من إطلاق اصطلاح اليقين والعلم على من يحملهما مع كفره ولكن امتنع إطلاق لفظ الايمان عليه،

والسؤال ألا يعني كون اليقين هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل أنه لا يحصل إلا إذا وافق الايمان بنفس المنهجية السابقة في التحليل والتدليل؟

فكما قلنا أن معنى التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل لا بد أن يتضمن التصديق بكل ما جاء به الوحي والخضوع والاستسلام وانعدام الموانع فكيف لا نشترط ذلك مع اليقين ولا نرضى أن يكون الإيمان إلا

مقرونا بها؟ وقلنا أن معنى التصديق الجازم عندما قررنا أن تعريف الايمان جامع مانع متضمن لها؟.

ظاهر الأمر تناقض ولكن باطنه ليس كذلك، فمن البداية قلنا ما قاله ابن حزم رحمه الله أن هذه المعاني شرعية يطلقها الشارع سبحانه ونحن لا نسمي بهذه الأسماء إلا من أرشدنا الشارع أنه ينطبق عليه هذا الاسم.

ورأينا أن الشارع لم يمنع إطلاق اسم اليقين والعلم على أهل الكتاب وهم على دينهم وعلى فرعون وقومه وهم على كفرهم وبين أن ما لديهم هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل وأطلق بناء عليه عليهم لفظ اليقين والعلم والمعرفة، ولكنه منع عنهم إطلاق اسم الايمان وبين أنهم إن لم يضموا له الضوابط السابق ذكرها فينقلب كفرا، من هنا قلنا أن التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل إن قرن بالايمان فلا بد من ضم الموانع السابقة والشروط السابقة إليه ليتحقق معنى ومفهوم الايمان، وأما بالنسبة لليقين فلم توجد هذه الضوابط فبقي على إطلاقه الأصلي.

فصل: اليقين درجة واحدة لا يتفاوت بين الناس

ومن هنا أيضاً أقول وبالله تعالى التوفيق: إن اليقين درجة واحدة، إذا ما وُجد التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل وُجد اليقين، لا يتفاضل في نفس المستيقن، وهو درجة واحدة عند أصحاب رسول الله رضوان ربي عليهم وعند فرعون، مع أن بينهم يوم القيامة ما بين السماوات العُلى وأسفل السافلين من الفرق!

قال ابن حزم: (واليقين لا يتفاضل ولكن إن دخل فيه شيء من شك أو جحد بطل كله، وقال: ولا يجوز أن يكون تصديق واحد أكثر من تصديق آخر لأن أحد التصديق إذا دخلت داخله فبالضرورة يدري كل ذي حس سليم أنه خرج عن التصديق ولا بد؛ وحصل في الشك، لأن معنى التصديق إنما هو أن يقطع ويوقن وجود ما صدق به ولا سبيل إلى التفاضل في هذه الصفة.)

وقال الإمام الطحاوي (والإيمان واحد وأهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخافة الهوى وملازمة الأولى).

وقال الفخر الرازي في تفسير آية المدثر: (حقيقة الإيمان عندكم لا تقبل الزيادة والنقصان فما قولكم في هذه الآية؟ الجواب: نحمله على ثمرات الإيمان وعلى آثاره ولوازمه.)

وقال الغزالي: (المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً، وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً؛ فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك ... وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في نفي الشك.)

صحيح أن الحق سبحانه قد بين أن لليقين أنواعاً -كما سيأتي- بحسب نوع الدليل؛ فالدليل المادي يؤدي إلى هذا النوع والسماعي إلى نوع آخر وهكذا؛ لكن لا يحصل التفاضل في ضمن النوع المعين؛ بل إذا تغير الدليل انتقل إلى النوع الآخر.

أنا هنا أدافع عن فهمين: أولهما أن اليقين هو الدرجة اللازمة (المرحلة لكي ينتقل حامله إلى الإيمان، إن توفرت في نفس المستيقن شروط معينة أخذ صفة الإيمان، وثانيهما هو أن اليقين نوع خاص من التصديق لا يتفاضل ولا يتفاوت وعلى كل منهما أدلة، ولعل مجموعهما هو الحق، ولإثبات ذلك نقول وبالله تعالى التوفيق:

نعلم من التفصيل لمراحل اليقين على أنها ثلاث بحسب نوع الدليل: علم اليقين؛ وعين اليقين؛ وحق اليقين؛ قال ابن تيمية رحمه الله: (للناس في هذه الأسماء مقالات معروفة، منها أن يقال: علم اليقين ما علمه

بالسماع والخبر والقياس والنظر؛ وعين اليقين ما شاهده وعاينه بالبصر وحق اليقين ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ليس المخبر كالمعاين؛ مسند أحمد مرفوعاً)[٢٥٩]

ومثال ذلك ما جاء في التكاثر٧ [كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ] وفي الواقعة [إِنَّ هَـذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ] ٩٥ ففي الدنيا يكون اليقين بالجحيم علماً أسماه الحق سبحانه [علم اليقين] وفي الآخرة لما يراها الناس ينتقل إيمانهم بها إلى مرحلة [عين اليقين] لأنهم يشاهدونها عياناً؛ وهو أقوى؛ ومن يدخلها -أعاذنا الله منها- يستيقن بها [حق اليقين] وهو أقوى مراحل اليقين.

إن درجة اليقين تختلف تبعًا لنوع الدليل وقوته فما يشاهد عيانًا أقوى مما نُقل تواترًا ([إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ] ١١٣ المائدة؛ فأرادوا البرهان المادي والدليل الحسي [نريد أن نأكل منها] وهو ما يوصل إلى قناعة العقل بالتصديق وهو ما يؤدي إلى

---

٢٥٩) مجموع الفتاوى. العلامة ابن تيمية ١٠/ ٦٤٥

اطمئنان القلب [وتطمئن قلوبنا] فإذا تم لهم ذلك صار لديهم علم [ونعلم أن قد صدقتنا]).[260]

وقد أنبأ الله كليمه موسى عليه السلام: [قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ] ٨٥ طه [وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ]... الآية ١٥٠ الأعراف، فما يشاهد عياناً ليس كالمتيقَّن بالإنباء فقد علم من ربه بضلال قومه وعبادة العجل، وذهب غضبان أسفًا لكنه عندما شاهدهم بعينه لم يتمالك نفسه فألقى الألواح التي كان ذهب من أجلها والتي هي كلام ربه وهديه، وأخذ برأس أخيه يجره!!

الأمر الآخر ويتعلق أيضاً بمفهوم الزيادة في الإيمان أفرق فيه ما بين الزيادة في الإيمان وبين اختلاف درجة اليقين بناء على نوع دليله وذلك يقوم على أننا لا بد أن نفرق بين ما كان دليله المعاينة وبالتحديد القضايا المادية المحسوسة؛ كوجود مكة مثلا: لا بد أننا نلاحظ أن يقيننا بهذه القضية راسخ لا يعتريه زيادة ولا نقص؛ (وقد سبق أن قلت أنه في مثل هذه القضايا لا فرق بين علم اليقين وعين اليقين وحقه، ولنتذكر خلال حديثنا عن الفرق بين التصديق والايمان واختصاص الأخير بالقضايا الغيبية، وبما

---

٢٦٠) الحكم الشرعي في بحث أسماء الله وصفاته. هشام البدراني ١٤١

يمكن أن يداخله الريبة والشك، كيف أننا هنا لا نفرق بين علم اليقين وحقه في قضية مادية محسوسة بينما يتحقق الفرق في القضايا الغيبية الإيمانية) وبين القضايا الغيبية التي تثبت بالأدلة كالعذاب مثلا أو المرتبطة بالغيب كالموت؛ فهذه القضايا مع أن يقيننا بها لا يمكن أن يتسرب إليه شك لأنها ثابتة قطعاً بأدلة لا تحتمل النقاش؛ ويطمئن القلب إليها وتوافق العقول؛ إلا أن التصديق بها ليس كالتصديق بالأمور المادية بسبب نوع دليلها؛ فلو انتقل الدليل من السماع إلى المعاينة لاختلفت درجة التصديق؛ لكن طالما أن دليلها سمعي فإن اليقين بها هو من نوع علم اليقين؛ ولا يتفاوت يقين هذه درجته بين اثنين؛ فإن تغير نوع دليله انتقل برمّته إلى مرتبة أخرى هي عين اليقين؛ فاليقين تابع للدليل ولا يتفاضل بل ينتقل برمته من مرتبة إلى أخرى بينما الإيمان تابع لحال القلب فيزيد وينقص.

(قال أبو بكر بن طاهر: العلم تعارضه الشكوك واليقين لا شك فيه، وعند القوم اليقين لا يساكن قلباً فيه سكون إلى غير الله، وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب، وقال أبو بكر الوراق: اليقين ملاك القلب وبه كمال الإيمان وباليقين عرف الله؛ وبعضهم رجح اليقين وقال هو غاية الإيمان)[٢٦١]

---

٢٦١) مدارج السالكين ج: ٢ ص: ٣٩٩

ومثلا بسبب قضية المطابقة للواقع؛ تبقى درجة اليقين من نوع علم اليقين ولا تتغير درجة اليقين إلى درجة عين اليقين إلا بالمشاهدة: فالإنسان إذ يؤمن بشيء ما لا بد أن يكون لديه تصور ما عن حقيقته أو عن أمور تتعلق به؛ [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي] ٢٦٠ البقرة؛ هو –عليه السلام- يبحث عن كيفية معينة يحاول تصورها فيدخل إلى قلبه ما يدخل، يرى عليه السلام أنه بالمشاهدة العينية سيقطع دابر الأفكار التي تنتابه عن هذه الكيفية؛ فيحصل له الطمأنينة بأن يتحول دليل يقينه من دليل على أمر غيبي إلى دليل مادي مشاهد، وهو أليق به وبعلمه كنبي (أن يرتقي بإيمانه وعلمه لأرفع درجة، حتى في القضايا التي لم يخاطب بالإيمان بها.)

قال الألوسي: (وإنما سأله عليه السلام لينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين، وفي الخبر: ليس الخبر كالمعاينة)[٢٦٢]

وهذا واضح لأن عقل الإنسان محدود عن تصور ما وراء الكون المرئي؛ وكثير من الأمور الغيبية مما لا يتسنى للعقل إدراك كنهها على النحو الذي يقربها من الصورة المتخيلة لها عند محاولة مطابقتها بالواقع؛ من هنا

---

٢٦٢) تفسير روح المعاني. الألوسي ١/ ٢٧

تهبط درجة اليقين بالأمور الغيبية قليلا عن درجة اليقين بالأمور المادية؛ فبحصول المشاهدة تحصل الزيادة لاستدراك هذا الفارق.

وقد سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الفارق بالشك: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ [رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي]. مسلم الإيمان.

قال ابن عطية: (وأما قول النبي عليه السلام: نحن أحق بالشك من إبراهيم؛ فمعناه أنه لو كان شكٌّ لكنا نحن أحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أحرى بأن لا يشك فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم.)[٢٦٣]

وعن هذا قال الألوسي: (أي ونحن لا نشك فلأن لا يشك إبراهيم أحرى، وقيل: إن الكلام مع أفعل جاء هنا لنفي المعنى عن الحبيب والخليل عليهما الصلاة والسلام أي لا شك عندنا جميعاً ومن هذا الباب [أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ] ٣٧ الدخان)[٢٦٤]

---

٢٦٣) تفسير ابن عطية ٢/٤١٨

٢٦٤) تفسير روح المعاني. الألوسي ١/٢٧

وبذلك فاليقين لا يتفاضل في دائرة النوع المعين من الأدلة بل ينتقل برمته إلى النوع الأعلى باختلاف الدليل، يثبت ذلك طلب سيدنا إبراهيم من ربه بأن يريه لينتقل إلى درجة أعلى لا يمكن أن يصل إليها وهو لم ير بعينه وهو النبي الخليل المقرب الذي نعلم درجة يقينه. وإلا لكان أول من يرقى من درجة لأخرى هو خليل الرحمن عليه السلام.

صحيح أن الله تعالى قد سأله أولم تؤمن؛ ولم يسأله أولم توقن؛ وذكر الإيمان هنا دليل على أن موضوع الآية اليقين لا الإيمان، وذلك لأنه أجاب على سؤال: أولم تؤمن، بقوله بلى، أي ليس هذا ما قصدت (والله به أعلم) ولكن الارتقاء باليقين من درجة لأخرى، فكان طلبه المشاهدة للاطمئنان ولا أقول هنا لزيادة الإيمان لأن إيمان النبي لا يزيد ولا ينقص فقد بلغ غاية الإيمان (فلا مجال للحديث عن زيادة إيمان عنده وهو نبي الله؛ وسيأتي إن شاء الله بحث استكمال الإيمان، فإذا كان بالإمكان أن يستكمل المؤمنون الإيمان فمن باب أولى أن الأنبياء قد كمل إيمانهم) وهذا دليل آخر على أن موضوع الآية اليقين لا الإيمان، فالآية تتحدث هنا عن نوع الدليل الذي يملكه في هذه المسألة والذي أوصله إلى نوع معين من اليقين لا يستطيع الانتقال منه إلى نوع آخر إلا بالمعاينة.

كذلك لا بأس هنا من التذكير بأن المؤمن الموقن يتلازم مفهوم اليقين لديه مع مفهوم الإيمان فبارتقاء نوع دليل يقينه من نوع لآخر يرتقي يقينه

وبالتالي يزيد إيمانه، كما بينا سابقاً في قول الحق سبحانه عن الأحزاب [وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا] ٢٢ الأحزاب، فهم شاهدوا عياناً فازداد إيمانهم.

فاليقين إذا ما انتقل إلى مرحلة أرقى فإنه لا بد سيزيد الإيمان والعلاقة بينهما عضوية لا تنفصم؛ إلا أن الإيمان يتفاضل واليقين لا، ولكن مطلبه هو الانتقال من نوع يقين لآخر كما هو واضح. والله أعلم.

وللدقة أقول أن الخليل عليه السلام طلب المشاهدة ليرتقي من يقين التفكر والتصديق إلى يقين المشاهدة، وسأله الله تعالى أولم تؤمن؟ وهو إيمانه كامل لا يزيد ولا ينقص، لكن بسبب الفرق بين اليقينين وبسبب الفجوة بين عالَم الغيب والشهادة ومحدودية العقل البشري، أراد طمأنينة القلب وهي أمر خارج عن الإيمان كتصديق جازم، أعني أنه خوطب بالايمان بأن الله يحيي الموتى وعلى هذا عقد التصديق الجازم قلبُه ولكنه لم يخاطب بالتصديق الجازم بكيفية هذا الاحياء فانتبه، فكان جوابه أولم تؤمن قال بلى! ولكن: لأتجاوز عالَم الشهادة فأرى بعيني الكيفية فأنتقل من يقين إلى أعلى فيطمئن قلبي، لكن الإيمان لا كلام عليه، ويدل على ذلك هذا الجواب السريع: بلى! أولم تؤمن؟ قال بلى! يعني ليس هذا ما أردت (والله به

أعلم فهو سؤال تقريري لا استنكاري ولا استفهامي) وهو يثبت أن الموضوع درجات يقين لا زيادة إيمان.

قال الفخر الرازي: (أما قوله تعالى [أولم تؤمن] ففيه وجهان: أحدهما أنه استفهام بمعنى التقرير، قال الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

والثاني: المقصود من هذا السؤال أن يجيب بما أجاب به ليعلم السامعون أنه عليه السلام كان مؤمناً بذلك عارفاً به وأن المقصود من هذا السؤال شيء آخر)[٢٦٥] وهو ما نقصد، ولاحظ أن المقصود من السؤال شيء آخر!.

كذلك الموضوع الذي سأله الله عنه أولم تؤمن، هل هو كيفية إحياء الموتى؟ أم هل هو أن الله يحيي الموتى؟

فإن كان الثانية فقد أجاب بلى أؤمن ولكني أسأل عن الكيفية، فلا إشكال للإيمان هنا، وأما إن كانت الأولى فهل نحن مخاطبون بالإيمان بالكيفية؟ ولا أجزم بذلك في حق النبي الذي أراه الله ملكوت السماوات والأرض، ولكن ما أطمئن إليه هو أن الآية لا تريد لمن يُشكك أن يتخذها مدخلا للطعن فبينت

---

٢٦٥) التفسير الكبير. الفخر الرازي ٧/ ٣٦

أنه يؤمن بإحياء الله للموتى وأنه يريد الاطمئنان واليقين العيني بالكيفية. والله أعلم.

قال الألوسي: (لم يكن السؤال عن شك والعياذ بالله ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ليحيط علماً بها، وكيفية الإحياء لا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها، فالخليل عليه السلام طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف، وموضوعها السؤال عن الحال)[٢٦٦]

إذن الخلاصة من المعنى في هذه الآية الكريمة هو أن النبي المقرب خليل الرحمن عليه السلام لم يستطع الإرتقاء من علم اليقين إلى عين اليقين إلا بالمعاينة، فيثبت لدينا أن اليقين لا يتفاضل في دائرة النوع المعين منه، وأنه ينتقل بكليته إلى النوع الأعلى تبعاً للدليل.

والأمر الآخر المهم هو في آية التكاثر التي قال تعالى فيها [ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ] ٧ التكاثر فقد ميز بين العلم الناشئ عن الدليل السمعي وبيّن أنه في أقوى الحالات التي قد يصل فيها اليقين إلى ما يماثل الرؤية؛ -وهو ما أسميناه سابقاً بيقين المكاشفة- فإن هذا اليقين لا يمكن أن يصل إلى

---

٢٦٦) تفسير روح المعاني. الألوسي ١/ ٢٦

درجة عين اليقين؛ فقد أسماه بعلم اليقين، ولو كان ثمة من لديه في الدنيا علم يقين يوازي عين اليقين (وهي المرحلة الأعلى) لكان ذكره بهذه الصفة أولى، وهو يثبت أيضاً أن اليقين لا يتفاضل في الدرجة الواحدة.

الأمر الآخر المهم هو أننا نستطيع القول بأن تعريف اليقين هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، وستلمس بحول الله في هذا البحث أن هذا التعريف دقيق وشرعي مستنبط من القرآن والسنة، وقد أثبتنا أن التفاضل لا يمكن أن يتطرق لأي ركن من أركان هذا التعريف، فيثبت أن اليقين لا يتفاضل، كذلك إذا داخل اليقين شك انتقل إلى الظن أو الشك وهو بالتأكيد: الكفر.

ومن هنا أرى الفرق الدقيق بين الإيمان واليقين؛ فالإيمان يتفاضل بين قلب وآخر وفي نفس القلب بين لحظة وأخرى؛ مقبلا تارة ومدبراً أخرى؛ بينما اليقين راسخ لا يتأثر بمعطيات الحياة اليومية؛ فإن داخله شيء انقلب شكاً وبالتالي كفراً؛ ولذلك كان من الطبيعي أن نرى في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وجود إيمان ونفاق في قلب واحد بينما لا يمكن أن تجد يقيناً وشكاً مجتمعين؛ ومن هنا كان فهم الآية الكريمة [هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ] ١٦٧ آل عمران. والله أعلم.

فإذا تقرر لديك هذا فإليك المزيد:

فصل: فهم آخر لزيادة الإيمان، وهو ضروري لفهم ماهية الإيمان:

من هنا أنطلق لتحديد مفهوم آخر للزيادة في الإيمان وبالله المستعان: بتتبع الآيات أرى أن غاية الإيمان التي يسعى المؤمن للوصول إليها هي اطمئنان القلب:

[وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ٢٧ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ] ٢٨الرعد؛ [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ] ١٦ الحديد؛ [هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ ٧ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ] ٨ آل عمران؛ [وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي ...] الآية ١٢ [فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا

قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ] ...الآية ١٣ المائدة [وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللّه مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّه آيَاتِهِ وَاللّه عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللّه لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ] ٥٤ الحج [لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللّه بِهَذَا مَثَلًا] ٣١ المدثر.

نلاحظ من الآيات السابقة أن الحق سبحانه قد ميز بين حال من يطمئن قلبه بالإيمان ومن قسى قلبه بطول الأمد؛ بين القلب المطمئن بذكر اللّه المخبت له سبحانه وبين القلب المريض؛ بين القلب الزائغ عن الحق والذي هداه اللّه إلى الإيمان؛ بين القلب المنيب والقلب الضال؛ بين القلب الذي شرحه اللّه للإيمان والقلب الذي طبع عليه بالكفر بكفره.

من هنا فإن العبد إذا وصل إلى الإيمان – أي إلى التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل مسلماً للّه – وانطلق في غمار الحياة؛ فإنه إذا طال عليه الأمد وجفا ما اطمأن إليه عند إيمانه يقسو قلبه ويبتعد عن الطمأنينة التي هي غاية الإيمان. فنقول بأن إيمانه نقص؛ بل قد يقسو ليصل إلى شفا

حفرة من الكفر كما في الآية التي سيأتي نقاشها إن شاء الله [هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ] ١٦٧ آل عمران وكما في الحديث الذي بين أنواع القلوب.

ولذلك كان ذكر الله وتلاوة آياته تعيد هذا القلب إلى الطمأنينة فيقترب من غاية الإيمان ويبتعد عما يناقض الطمأنينة؛ مع أن تصديقه لم يتأثر؛ وأقرب مثال على ذلك الموت: فإن حال العبد إذا تذكره وتصوره وجعله نصب عينيه ليس كحال من يتصور نفسه خالداً لا يذكر الموت؛ مع أن كليهما لا يشك لحظة في أن الموت لا بد قادم.

والقلب إنما سمي بذلك لكثرة تقلبه؛ وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء؛ كان عَبْدَ اللَّه بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللهمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ. مسلم كتاب القدر؛ ولذلك كان لا بد للإيمان الذي يسكن القلب أن يتبع أحواله مداً وجزراً.

[الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّه أَلاَ بِذِكْرِ اللَّه تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ] ٢٨ الرعد [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّه وَمَا نَزَلَ مِنَ

الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ] ١٦ الحديد وألفت النظر هنا إلى قوله تعالى [ألم يأن للذين ءامنوا] فالإيمان موجود أي التصديق الجازم لكن الدنيا تبعد به عن الخشوع والطمأنينة؛ عن عَوْنِ بْنِ عَبْدِ الله عَنْ أَبِيهِ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللّه بِهَذِهِ الْآيَةِ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّه إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ. صحيح مسلم.

[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّه وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] ٢ الأنفال [وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ] ١٢٥التوبة.

ولا أدل على ذلك من قول الحق سبحانه [هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ] ٤ الفتح.

فالسكينة كانت سبباً لزيادة الإيمان مع وجود الإيمان الذي هو التصديق الجازم.

وأما حال النقص والذي قد يفضي إلى الكفر: [فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ...] الآية ١٣ المائدة [لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي

الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الله لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ] ٥٤ الحج.

من هنا أستطيع القول بأن اليقين (وهو التصديق الجازم عن دليل إذا ما وافق شروط الإيمان) هو المرحلة التي لا بد منها للإيمان أعني أصله وأن اطمئنان القلب هو أعلى درجات الإيمان.

أو يمكن أن نفهم فهماً آخر وهو أن الإيمان يتراوح ما بين أدنى درجاته من غفلة وقسوة قلب، قد تهبط به كمّاً ليعادل مثقال ذرة، وأعلى درجاته المتمثلة بالاطمئنان، واليقين ثابت في كلتا الحالتين إذا لم يداخله شك.

من هنا فلا بد من اعتبار صفة من هذه الصفات كالسكون أو الطمأنينة أو الإخبات من ضمن ضوابط تعريف المؤمن، ونختار صفة المخبت لترقى صعوداً لتصل الطمأنينة وتهبط لتصل النسيان، فكون السكينة تزيد الإيمان والقسوة تنقصه فلا بد من أن هذه الصفة القلبية داخلة في فهم حقيقة زيادة الايمان.

كذلك من قوله تعالى: [فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا] ٦٥ النساء. رأينا شروطاً معينة لا بد منها لتلقينا أوامر الله ولتصديقنا بها اقترن

وجود الإيمان وعدمه بتحققها، فلا بد من أن لا يوجد لـدى المـؤمن أي حـرج من هذا الذي يتلقاه مـن رب العـزة سـبحانه بـل كـذلك وأن يسـلم تسـليماً، وهذه الصفات متضمنة في صفة الإخبات للّه تعالى، ولعلها مـن أهـم صـفات الإيمان لشدة ارتباطها بإقبال القلب وإدباره، أي بالارتقاء بـه نحـو الطمأنينـة أو الهبوط به نحو القسوة، مما يترتب عليه ما نراه في أنفسنا من الإحسـاس بالإيمان أو الإحساس بانقباض الصدر، وهنـا أسـتدرك أن نـزول السـكينة زاد الإيمان مـع كونـه موجـوداً أصـلا، فهـل هـذا يعنـي أنهـا خارجـة عـن مبنـاه؟ والصـحيح أن لا بـدليل أنـه لا بـد للمـؤمن مـن أن يطمـئن ويسـلم ويرضـى حقائق هذا الإيمان أي لا بد من وجود الإخبات أصلا لأمور معينة ثم ينزل اللّه عليه سكينته ليزيد طمأنينة، فالسكينة لا تنزل على قلب خال من أي نوع من الإخبات فافهم يرحمك اللّه.

فصل: محاولة تلمس الفرق بين اليقين والإيمان لغة

(جاء في اللسان: أمن: الأمان والأمانة بمعنى. وقد أمِنت فأنا آمن، وآمنت غيري من الأمن والأمان. والأمن ضد الخوف والأمانة ضد الخيانة. والإيمان ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق ضده التكذيب. يقال آمن به قوم وكذب به قوم. فأما آمنته المتعدي فهو ضد أخفته وفي التنزيل العزيز: [وءامنهم من خوف]؛ ابن سيده: الأمن نقيض الخوف. ...الخ. يقن: اليقين: العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر، وقد أيقن يوقن إيقاناً فهو موقن؛ ويقِن ييقن يَقنا فهو يقن. واليقين: نقيض الشك؛ والعلم نقيض الجهل: تقول: علمته يقيناً. وفي التنزيل العزيز: [وإنه لحق اليقين]: أضاف الحق إلى اليقين وليس هو من إضافة الشيء إلى نفسه لأن الحق هو غير اليقين إنما هو خالصه وأصحه فجرى مجرى إضافة البعض إلى الكل.) وقال الأصفهاني: (أمن: أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأمن والأمان في الأصل مصادر، ويُجعل الأمان تارة اسماً للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسماً لما يؤمن عليه الإنسان، نحو قوله تعالى [وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ] ٢٧ الأنفال،... وآمن إنما يقال على وجهين: أحدهما متعدياً بنفسه، يقال: آمنته:

أي جعلت له الأمن، ومنه قيل لله: مؤمن؛ والثاني: غير متعد: ومعناه صار ذا أمن.

والإيمان يستعمل تارة اسماً للشريعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى ذلك [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى] ٦٩ المائدة، ويوصف به كل من دخل في شريعته مقراً بنبوته، قيل: وعلى هذا قال تعالى [وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ] ١٠٦ يوسف؛ [وطبعا لا نوافق على ذلك وقد مر نقاشه، صحيح أن اليهودي المؤمن زمن موسى كان مؤمنا ولكن سحب الفهم هذا على آية سورة يوسف خطأ والله أعلم] وتارة على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بحسب ذلك بالجوارح، وعلى هذا قوله تعالى: [وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ] ١٩ الحديد؛ قال تعالى [وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ] ١٧ يوسف؛ قيل معناه: بمصدق لنا، إلا أن الإيمان هو التصديق الذي معه أمن.)[٢٦٧] وقال الفيروزابادي: (والإيمان: الثقة وإظهار الخضوع

٢٦٧) مفردات ألفاظ القران. الأصفهاني ٩٠ – ٩١.

وقبول الشريعة. يَقِنَ الأمر: يقناً وأيقنه وتيقنه واستيقنه: علمه، وتحققه، واليقين إزاحة الشك.)[٢٦٨].

قال ابن فارس: (أمن: الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان، أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر: التصديق، والمعنيان كما قلنا متدانيان. قال الخليل: الأمَنَة، من الأمْن، والأمان: إعطاء الأمَنَة، والأمانة ضد الخيانة، يقال:

أمنت الرجل أمْناً وأمَنَة وأماناً، وآمنني يؤمنني إيماناً، والعرب تقول: رجل أمّانٌ: إذا كان أميناً؛ قال الأعشى:

ولقد شهدت التاجر الـ   أُمّان مورودا شرابه

وما كان أميناً ولقد أمُنَ، قال أبو حاتم: الأمين المؤتمن ... وقال اللحياني وغيره: رجل أُمَنَة إذا كان يأمنه الناس ولا يخافون غائلته وأمَنَة بالفتح يصدق ما سمع ولا يكذب بشيء، يثق بالناس.

وأما التصديق: فقول الله تعالى [وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا] ١٧ أي مصدق لنا، وقال بعض أهل العلم إن المؤمن في صفات الله تعالى هو أن يَصْدُقَ ما وعد

---

٢٦٨) القاموس المحيط. الفيروز ابادي ص ١٥١٨ و ١٦٠١.

عبده من الثواب، وقال آخرون هو مؤمن لأوليائه يؤمنهم عذابه ولا يظلمهم فهذا قد عاد إلى المعنى الأول ومنه قول النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسعد.

الياء والقاف والنون: اليَقَن واليقين: زوال الشك يقال: يقنت واستيقنت وأيقنت.)[٢٦٩].

قال الألوسي: (والإيمان في اللغة التصديق أي إذعان حكم المخبر وقبوله وجعله صادقاً، وهو إفعال من الأمن كأنّ حقيقة آمن به آمَنَهُ التكذيب والمخالفة، ويتعدى باللام كما في قوله تعالى [قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ] ١١١ الشعراء وبالباء كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان أن تؤمن بالله" الحديث، قالوا: والأول باعتبار تضمينه معنى الإذعان والثاني باعتبار تضمينه معنى الاعتراف إشارة إلى أن التصديق لا يعتبر ما لم يقترن به الاعتراف، وقد يُطلق بمعنى الوثوق من حيث أن الواثق صار ذا أمن، وهو [الإيمان] فيه حقيقة عرفية أيضاً كما في الأساس، وأما في الشرع فهو

---

٢٦٩) معجم مقاييس اللغة. ابن فارس ١ /١٣٣-١٣٥؛ ٦ /١٥٧.

التصديق بما علم مجيء النبي صلى الله عليه وسلم به ضرورة وتفصيلا فيما علم تفصيلا، وإجمالا فيما علم إجمالا.)[٢٧٠]

نرى أن مادة "أمن" المكونة من الألف والميم والنون أصلها عمل قلبي يناسبه الاطمئنان والقلق والرقة والقسوة وما إلى ذلك فهو عرضة للتقلب والزيادة والنقص. بينما مادة "يقن" الياء والقاف والنون أساسها إزاحة الشك والتحقق والعلم فهي بذلك عرضة للوجود أو العدم؛ لا تحتمل زيادة ولا نقصاً؛ لذلك كانت نوعاً خاصاً من الإيمان.

قال العلامة ابن تيمية: (وقال تعالى [هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ] ٤ الفتح، وهذه نزلت لما رجع النبي وأصحابه من الحديبية فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه ولهذا قال يوم حنين [ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها] وقال تعالى [ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها] ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم دل على أن

---

٢٧٠) تفسير روح المعاني. الألوسي ١/ ١١٠

الإيمان المزيد حال للقلب وصفة له وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم والريب المنافي لليقين يكون ريباً في العلم وريباً في طمأنينة القلب.

وفي حديث الصديق الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن النبي أنه قال: سلوا الله العافية واليقين فما أعطى أحد بعد اليقين شيئاً خيراً من العافية فسلوهما الله تعالى فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره كما قال تعالى ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه قال علقمة ويروى عن ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وقوله تعالى يهد قلبه هداه لقلبه هو زيادة في إيمانه.)[٢٧١]

عَنْ أَوْسَطَ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَنَةٍ فَأَلْفَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يَخْطُبُ النَّاسَ فَقَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْأَوَّلِ فَخَنَقَتْهُ الْعَبْرَةُ ثَلَاثَ مِرَارٍ ثُمَّ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ سَلُوا اللَّهَ الْمُعَافَاةَ فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ مِثْلَ يَقِينٍ بَعْدَ مُعَافَاةٍ وَلَا أَشَدَّ مِنْ رِيبَةٍ بَعْدَ كُفْرٍ.الحديث. أحمد مسند العشرة المبشرين بالجنة.

---

٢٧١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٢٩

أما وقد تبين لنا الفرق بين الإيمان واليقين والعلم، فلا بأس من محاولة إبداء الرأي فيما سبق نقله عن العلامة ابن تيمية في فصل سابق الذي كان تحت عنوان: فصل: رأي الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في تفاضل الإيمان:

وقد رأينا فيه رأياً بالغ القوة له يثبت التفاضل في الإيمان على أساس أن ما ثم إيمان إلا مع المؤمنين ولا ثم إنسانية إلا ما اتصف بها الإنسان، فكل إنسان له إنسانية تخصه وكل مؤمن له إيمان يخصه، وبالتالي فيتفاضل العلم في نفوس العلماء واليقين في نفوس الموقنين، وقد بينت أن اليقين لا يتفاضل بين الموقنين، ولا في نفس الموقن، وبيان ذلك أن اليقين كما بينا لا يتأتى إلا لدى نفي الشك والارتقاء بالظن ليصل إلى مرحلة الجزم، فإن وجد الشك أو الظن نزل اليقين إلى هذه المرتبة فانتفى، لذا فهو عرضة للوجود أو العدم فقط، من هنا فهو إن وجد لا يتفاضل، ولا يتفاوت بين الموقنين، وفيما سبق ما يكفي لبيان هذا الرأي والله أعلم.

فالتصديق لا يتفاوت، قال ابن حزم: (واليقين لا يتفاضل ولكن إن دخل فيه شيء من شك أو جحد بطل كله، وقال: ولا يجوز أن يكون تصديق واحد أكثر من تصديق آخر لأن أحد التصديق إذا دخلت داخله فبالضرورة يدري كل ذي حس سليم أنه خرج عن التصديق ولا بد؛ وحصل في الشك، لأن معنى

التصديق إنما هو أن يقطع ويوقن وجود ما صدق به ولا سبيل إلى التفاضل في هذه الصفة.)

وقال الإمام الطحاوي (والإيمان واحد وأهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخافة الهوى وملازمة الأولى).

وقال الفخر الرازي في تفسير آية المدثر: (حقيقة الإيمان عندكم لا تقبل الزيادة والنقصان فما قولكم في هذه الآية؟ الجواب: نحمله على ثمرات الإيمان وعلى آثاره ولوازمه.)

وقال الغزالي: (المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً، وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً؛ فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك ... وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في نفي الشك.)

فالقضية إذن: إن دخلت التصديق داخلة دخل في الشك، فهو وجود مقابل للعدم، ونفي الشك لا تفاوت فيه، والجزم لا تفاوت فيه، ومطابقة الواقع كذلك والدليل.

وأما الاحتجاج بدرجات السواد والبياض، في قوله: "وكذلك السواد والبياض يقبل الاشتداد والضعف بل عامة الصفات التي يتصف بها

الموصوفون تقبل التفاضل، ولهذا كان العقل يقبل التفاضل والإيجاب والتحريم يقبل التفاضل فيكون إيجاب أقوى من إيجاب وتحريم أقوى من تحريم وكذلك المعرفة التي في القلوب تقبل التفاضل على الصحيح عند أهل السنة" فقياس مع الفارق، إذ أن الرمادي بين الأبيض والأسود، وبين الرمادي والأبيض درجات يتدرجها اللون، حتى ينتقل من البياض الناصع إلى الرمادي، وكل مرحلة من هذه المراحل هي لون خاص، ثم يستمر الانتقال ليصل من الرمادي إلى السواد القاتم، فلو اعتبرنا التدرجات هذه عين اللون لما حصل التفريق بين الألوان، ولاعتبرنا الرمادي نوعا من البياض، وهو باطل، وبالمثل فلو اعتبرنا الإيمان يتدرج قوة ليصل إلى مرحلة بين بين، لأبطلناه لدخول الشك فيه في مرحلة بين بين.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ الْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ. ولا بد هنا من وضع كلام سيدي ابن مسعود في سياقه الذي أجهله لنفهم ما قصده، وإن كان ظاهر كلامه المروي في البخاري يدل على أن اليقين هو النوع من الإيمان الذي لا يزيد ولا ينقص، إذ به يبلغ الإيمان غايته.

روى ابن ماجه عن جابر أن رجلا قال يا رسول الله إن لي مالا وولداً، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي، ورواه عنه الطبراني في الأوسط<صفحة ٢٣٩> والطحاوي، ورواه البزار عن هشام بن عروة مرسلا وصححه ابن القطان من هذا الوجه، وله طرق أخرى عند البيهقي في الدلائل، والطبراني في الأوسط

والصغير بسند فيه المكندر ضعفوه عن جابر، قال جاء رجل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللّه إن أبي أخذ مالي، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم اذهب فأتني بأبيك: فنزل جبريل على النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال إن اللّه عز وجل يقرئك السلام، ويقول لك إذا جاءك الشيخ فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه، فلما جاء الشيخ قال له النبي صلى اللّه عليه وسلم ما بال ابنك يشكوك تريد أن تأخذ ماله، قال سله يا رسول اللّه هل أنفقته إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: إيه، دعنا من هذا، أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك، فقال الشيخ واللّه يا رسول اللّه ما يزال اللّه يزيدنا بك يقيناً، [يقين خبر ينتقل إلى يقين عيان] لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي، فقال قل وأنا أسمع، فقال قلت:

غذوتك مولوداً، ومنتك يافعاً ... تُعل بما أجني عليك وتنهل

إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبِتْ ... لسقمك إلا ساهراً أتململ

كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني، فعينيَ تهمل

تخاف الردى نفسي عليك، وإنها ... لتعلم أنَّ الموت وقت مؤجل

فلما بلغْتَ السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل

جعلت جزائي غِلظةً وفظاظة ... كأنّك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لم ترعَ حق أُبوّتي ... فعلتَ كما الجار المجاور يفعل

فأوليتنى حق الجوار، فلم تكن علـيّ بمال دون مالك تبخل

قال فحينئذ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه، وقال أنت ومالك لأبيك، وذكر في الكشاف في تفسير سورة الإسراء، فبكى عليه الصلاة والسلام وقال: ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى، ثم قال للولد أنت ومالك لأبيك.

فصل: استكمال الإيمان

كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلْ الْإِيمَانَ فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا وَإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ. البخاري.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا. الترمذي كتاب الرضاع.

عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ أَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ وَأَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَنْكَحَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ. الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول اللّه،

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سُئِلَ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْمَلُ إِيمَانًا قَالَ رَجُلٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللّه بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَرَجُلٌ يَعْبُدُ اللّه فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ قَدْ كُفِيَ النَّاسُ شَرَّهُ. أبو داود كتاب الجهاد،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللّه نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا الشَّيْءَ نُعْظِمُ أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهِ أَوْ الْكَلَامَ بِهِ مَا نُحِبُّ أَنَّ لَنَا وَأَنَّا تَكَلَّمْنَا بِهِ قَالَ أَوَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ قَالُوا نَعَمْ قَالَ ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ. أبو داود كتاب الأدب.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه إِنِّي أُحَدِّثُ نَفْسِي بِالْحَدِيثِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنْ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ قَالَ ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ. احمد باقي مسند المكثرين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّ أَحَدَنَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالشَّيْءِ مَا يُحِبُّ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَإِنَّ لَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ قَالَ ذَاكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ. احمد باقي مسند المكثرين.

عَنْ أَبِي مَنْصُورٍ مَوْلَى الْأَنْصَارِ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا يَحِقُّ الْعَبْدُ حَقَّ صَرِيحِ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلَّهِ تَعَالَى وَيُبْغِضَ لِلَّهِ فَإِذَا أَحَبَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَبْغَضَ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْوَلَاءَ مِنْ اللَّه وَإِنَّ أَوْلِيَائِي مِنْ عِبَادِي وَأَحِبَّائِي مِنْ خَلْقِي الَّذِينَ يُذْكَرُونَ بِذِكْرِي وَأُذْكَرُ بِذِكْرِهِمْ. أحمد مسند المكيين. عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَفْضَلِ الْإِيمَانِ قَالَ أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ لِلَّهِ وَتُبْغِضَ فِي اللَّه وَتُعْمِلَ لِسَانَكَ فِي ذِكْرِ اللَّه قَالَ وَمَاذَا يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ وَأَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ وَأَنْ تَقُولَ خَيْرًا أَوْ تَصْمُتَ. أحمد مسند الأنصار.

عن عمرو بن شرحبيل قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: (إن عمارا مُلئ إيمانا إلى مشاشه). (الايمان لابن أبي شيبة) (وقال أبو داود عن

أبي البختري عن حذيفة قال القلوب أربعة: قلب أغلف فذلك قلب الكافر وقلب مصفح وذلك قلب المنافق وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل شجرة يمدها ماء طيب ومثل النفاق مثل قرحة يمدها قيح ودم فأيهما غلب عليه غلب وقد روي مرفوعاً وهو في المسند مرفوعاً، وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى [هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان] فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب، وروى عبد الله بن المبارك عن عوف بن أبى جميلة عن عبد الله بن عمرو بن هند عن علي بن أبي طالب قال إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب فكلما ازداد العبد إيمانا ازداد القلب بياضاً حتى إذا استكمل الإيمان ابيض القلب كله وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب فكلما ازداد العبد نفاقاً ازداد القلب سواداً حتى إذا استكمل العبد النفاق اسود القلب وأيم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه أسود).[272]

...قَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ

---

٢٧٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٤ –٣٠٦

سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ. الحديث مسلم كتاب الإيمان، وأحمد باقي مسند الأنصار. [الكوز المجخى: المنكوس على فمه فلا يثبت فيه شيء من الماء]

(وصح عن عمار بن ياسر أنه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان الإنصاف من نفسه والإنفاق من الإقتار وبذل السلام للعالم ذكره البخاري عنه في صحيحه)[٢٧٣]

نتذكر ثالثة ما قاله مالك بن دينار: الإيمان يبدو في القلب ضعيفاً ضئيلا كالبقلة فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وأماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه، أوشك أن ينمو أو يزداد ويصير له أصل وفروع وثمرة، وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال، وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها أو صبي فذهب بها وأكثر عليها الدغل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها كذلك الإيمان.

---

٢٧٣) شرح قصيدة ابن القيم ج: ٢ ص: ١٤٢- ١٤٤

(وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر منهم مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثوري والاوزاعي والشافعي واحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ...فقالوا: الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي وأهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملي الإيمان من أجل ذنوبهم وإنما صاروا ناقصي الإيمان بارتكابهم الكبائر ألا ترى قوله صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن الحديث يريد مستكمل الإيمان ولم يرد به نفي جميع الإيمان عن فاعل ذلك بدليل الإجماع على توريث الزاني والسارق والشارب للخمر إذا صلوا إلى القبلة وانتحلوا دعوة الإسلام من قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا بتلك الأحوال واحتجوا على ذلك ثم قال وأكثر أصحاب مالك قالوا إن الإيمان والإسلام شيء واحد قال ...وروى ابن القاسم عن مالك أن الإيمان يزيد وتوقف في نقصانه ... وقال الإيمان مراتب بعضها فوق بعض فليس ناقص الإيمان ككامل الإيمان قال الله تعالى [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّه وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَاتُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] ٢ الأنفال وكذلك قوله عليه السلام المؤمن من أمنه الناس والمسلم سلم الناس من

لسانه ويده أي حقاً ومن هذا قوله أكمل المؤمنين إيماناً ومعلوم أن هذا لا يكون أكمل حتى يكون غيره أنقص)[٢٧٤]

من هذه الأحاديث وهذا الفهم من الصحابة رضي الله عنهم وسلفنا الصالح نتبين أن الإيمان يزداد حتى يكتمل، ولا يبقى في القلب غيره، ومن هنا قلنا أن إيمان الأنبياء عليهم سلام الله كامل، وهذا كله لا يمنع أن يكتمل إيمان مؤمن ثم ينقص ثم يعاود الزيادة لأنه يتفاعل مع واقع الحياة والله تعالى أعلم.

(ولهذا جاء في الحديث الذي في الترمذي من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان فانه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله ودل ذلك على كمال الإيمان وذلك أن كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له).[٢٧٥]

فكمال الإيمان يعني الوصول إلى حقيقته (...كما يروون في الحديث الذي رواه ابن عساكر مرسلا وروي مسنداً من وجه ضعيف لا يثبت [أي أنه مرسل لم يثبت إسناده]: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحارثة ابن

---

٢٧٤) شرح قصيدة ابن القيم ج: ٢ ص: ١٤٢- ١٤٤

٢٧٥) الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٨٢

سراقة: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً!؛ قال: فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها؛ وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتمتعون فيها، وإلى أهل النار يعذبون فيها فقال: عرفت فالزم؛ فقولهم في هذا الحديث: ما حقيقة إيمانك؟ أي ما يحققه ويصدقه فذكر ما يحققه من اليقين والزهد.[٢٧٦]

ورواه ابن أبي شيبة في الايمان: حدثنا يزيد بن هارون أنا أبو معشر عن محمد صالح الأنصاري أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لقي عوف بن مالك (وفي رواية أخرى حارث بن مالك) فقال: (كيف أصبحت يا عوف بن مالك؟) قال: أصبحت مؤمنا حقا، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: (إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة ذلك؟) قال: يارسول اللّه أطلقت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت هواجري، وكأني أنظر إلى عرش ربي، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني إلى أهل النار يتضاغون فيها، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: (عرفت أو لقّنت، فالزم).

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ. أحمد مسند القبائل. وقال تعالى [وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن

---

٢٧٦) الاستقامة. ابن تيمية. ١/١٩٥ الطبعة الأولى.

دُونِ اللّه أندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّه وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ] ١٦٥البقرة وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللّه عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللّه وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ. البخاري كتاب الإيمان[٢٧٧] (وروى أبو نعيم من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن عبد اللّه اليزني عن أبى رافع أنه سمع رجلا حدثه أنه سأل رسول اللّه عن الإيمان فقال أتحب أن أخبرك بصريح الإيمان قال نعم قال إذا أسأت أو ظلمت أحداً عبْدَكَ أو أمتك أو أحداً من الناس حزنت وساءك ذلك وإذا تصدقت أو أحسنت استبشرت وسرك ذلك ورواه بعضهم عن يزيد عمن سمع النبي أنه سأله عن زيادة الإيمان في القلب ونقصانه فذكر نحوه وقال البزار عن أنس مرفوعاً: ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان: خلق يعيش به في الناس وورع يحجزه عن معصية اللّه وحلم يرد به جهل الجاهل وأربع من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا)[٢٧٨]

---

٢٧٧) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥٠ ابن تيمية

٢٧٨) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٢٧

(قال الإمام أحمد كان بدء الإيمان ناقصاً فجعل يزيد حتى كمل ولهذا قال تعالى عام حجة الوداع [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي])[٢٧٩] . وأعيد ذكر قول ابن حزم دافعاً مثل هذا القول إن قصد به مجرد الإيمان الذي هو التصديق دون العمل: هذا محال، لأنه قد اعتقد المسلمون في أول إسلامهم أنهم مصدقون بكل ما يأتيهم به نبيهم – عليه الصلاة والسلام- في المستأنف فلم يزدهم نزول الآية تصديقاً لم يكونوا اعتقدوه.

الخلاصة في استكمال الإيمان:

يتضح أن الإيمان يكتمل، والناظر في الصفات التي يتحلى بها المؤمن حتى يكتمل إيمانه يراها من علامات الكمال، كالحب في الله والبغض في الله، وإحسان الخلق، وأن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، أي أن يكون حسن التوكل على الله، حسن الظن بالله، وما شابه، وهذا كله علامات كمال، لا شروط صحة، هذا يعني أننا نتحدث عن المدرسة التي تتعامل مع المؤمن كشخصية إسلامية، لا المدرسة التي تتعامل مع الإيمان كتصديق ونفي شك واستدلال ومطابقة للواقع، هذا من جهة.

---

٢٧٩) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥١٩

ومن جهة ثانية، فإن إدراك الصلة بالله تعالى حين القيام بالعمل، كأن يحب في الله، وأن يحسن التوكل عليه في كل شأن، هذه كلها علامات إدراك الصلة بالله في كل حين، وهو ما اصطلح عليه بالروحانية، ولا نقصد أن الإنسان مكون من مادة وروح يتغلب هذا على ذاك كما في الفلسفات الهندية السقيمة، بل نعني أن الروحانية هي إدراك الصلة بالله حين القيام بالعمل، أي الشعور بمراقبة الله، والقيام بالعمل على أنه تقرب إلى الله، أو امتثال لأمر الله، أو انتهاء عن نواهيه، هذا كله هو إدراك الصلة بالله تعالى، وهذا يجعل الإيمان قائدا للإنسان في الحياة أي مسيرا لأعماله، أي أن العقيدة الإسلامية هي القيادة الفكرية للإنسان في معترك الحياة، فهذا يجعل الإيمان مكتملا بأن يكون قد قاد الإنسان في الحياة وجعله شخصية إسلامية مكتملة، فهذا كله إذن من متعلقات المؤمن، أي صاحب الشخصية الإسلامية، ذاك الذي تفكر وتفكر حتى وصل إلى أن العقيدة الإسلامية حق، ومن ثم انقاد لها في الحياة.

إذن فالإيمان بمعنى إزاحة الشك والاستيقان والتدليل مكتمل أصلا، إذ أنه عرضة للوجود أو العدم، وذاك لا يجوز فيه الزيادة والنقص، والإيمان إذ يتفاعل مع الحياة ويقود الإنسان فيها، عرضة للزيادة والنقص.

أمر آخر مهم وهو أن الحق سبحانه يقول: الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ

صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ. العنكبوت، فمن ادعى أنه مؤمن، فلا بد من تمحيص واختبار يثبت صحة ذلك الإيمان، فمن ابتلاءات إلى أعمال تتصادم مع الأهواء والمصالح إلى غير ذلك، فإما يثبت المرء أنه مؤمن، فيصدق العمل الإيمان أو لا، يصدق في ادعائه أنه يحب اللّه ورسوله أكثر مما سواهما، فإن وقع له أمر ولم يقدم أوامر اللّه ونواهيه على هوى النفس، كان ادعاؤه مخالفا للحقيقة، فالإيمان إذن ليس فلسفة، ليس نظريات بعيدة عن الواقع، بل إنما جاء ليضبط الحياة البشرية وفق منهج اللّه تعالى، لذا كان الارتباط الوثيق بين الإيمان والعمل، بين الإيمان والحياة، فهو يحيا ويموت، وعلى المرء أن يتعهده بالرعاية دوما.

واللّه تعالى أعلى وأعلم.

فصل: المؤمن والمسلم:

ليكن واضحاً أن الهدف من هذا الفصل بيان أن الخروج من الإيمان لا يكون إلا إلى الكفر، فليس ثمة إلا إيمان وكفر، فلا يخرج المرء من الإيمان إلى الإسلام، وبالتالي نختلف مع من قسم الناس في دين الله إلى مسلم فمؤمن فمحسن. والله أعلم.

قال تعالى [قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّه وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّه وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّه أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ١٥ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّه بِدِينِكُمْ وَاللَّه يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّه يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ١٧ إِنَّ اللَّه يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّه بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] ١٨ الحجرات.

[وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ] ١١١ المائدة [وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ] ٨١ النمل، [وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ] ٥٣ الروم، [وَقَال

مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّه فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ] ٨٤ يونس [حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ] ٩٠ يونس [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ] ٥٣ القصص، [إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ] ... الآية حتى قوله تعالى [أَعَدَّ اللّه لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا] ٣٥ الأحزاب، [الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ] ٦٩ الزخرف، [فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ] ٣٦ الذاريات [لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّه يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] ٩٣ المائدة.

عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عَامِرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللّه عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ فَتَرَكَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللّه مَالَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَاللّه إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا فَقَالَ أَوْ مُسْلِمًا فَسَكَتُّ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي فَقُلْتُ مَالَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَاللّه إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا فَقَالَ أَوْ مُسْلِمًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي وَعَادَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ يَا سَعْدُ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ. البخاري كتاب الإيمان.

عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ حَدَّثَهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي مَجْلِسٍ فَسَارَّهُ يَسْتَأْذِنُهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ مِنْ الْمُنَافِقِينَ فَجَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ الْأَنْصَارِيُّ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا شَهَادَةَ لَهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا شَهَادَةَ لَهُ أَلَيْسَ يُصَلِّي قَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا صَلَاةَ لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَهَانِي اللَّهُ عَنْهُمْ. أحمد. باقي مسند الأنصار.

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَهَذَا حَدِيثُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلَاحِ قَالَ أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ. مسلم. الإيمان.

عَنْ عَامِرٍ أَوْ أَبِي عَامِرٍ أَوْ أَبِي مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَصْحَابُهُ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فِي غَيْرِ صُورَتِهِ يَحْسِبُهُ رَجُلًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ثُمَّ وَضَعَ جِبْرِيلُ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّه مَا الْإِسْلَامُ فَقَالَ أَنْ تُسْلِمَ وَجْهَكَ لِلَّهِ وَأَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ قَالَ فَإِذَا فَعَلتُ ذَلِكَ فَقَدْ أَسْلَمْتُ قَالَ نَعَمْ ثُمَّ قَالَ مَا الْإِيمَانُ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَقَدْ آمَنْتُ قَالَ نَعَمْ ثُمَّ قَالَ مَا الْإِحْسَانُ يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَهُوَ يَرَاكَ قَالَ فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَقَدْ أَحْسَنْتُ قَالَ نَعَمْ، الحديث. أحمد.مسند الشاميين.

وفي أحمد مسند بني هاشم "قَالَ يَا رَسُولَ اللَّه فَحَدِّثْنِي مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَتُؤْمِنَ بِالْمَوْتِ وَبِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَتُؤْمِنَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَقَدْ آمَنْتُ قَالَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ آمَنْتَ.

عَنْ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مِمَّنْ الْوَفْدُ أَوْ قَالَ الْقَوْمُ

قَالُوا رَبِيعَةُ قَالَ مَرْحَبًا بِالْوَفْدِ أَوْ قَالَ الْقَوْمِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى قَالُوا يَا رَسُولَ اللّه أَتَيْنَاكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ وَلَسْنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرِ حَرَامٍ فَأَخْبِرْنَا بِأَمْرٍ نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ وَنُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَسَأَلُوهُ عَنْ أَشْرِبَةٍ فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللّه قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللّه قَالُوا اللّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّه وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا الْخُمُسَ مِنْ الْمَغْنَمِ وَنَهَاهُمْ عَنْ الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ قَالَ وَرُبَّمَا قَالَ وَالْمُقَيَّرِ قَالَ احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ. مسند أحمد من مسند بني هاشم.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ: مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيتِهِنَّ وَصَامَ رَمَضَانَ وَحَجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَأَعْطَى الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، الحديث. أبو داود. كتاب الصلاة.

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللّه مَا الْإِسْلَامُ قَالَ أَنْ يُسْلِمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْ يَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ قَالَ فَأَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ قَالَ الْإِيمَانُ قَالَ وَمَا الْإِيمَانُ قَالَ تُؤْمِنُ بِاللّه وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ قَالَ فَأَيُّ الْإِيمَانِ أَفْضَلُ قَالَ الْهِجْرَةُ قَالَ فَمَا الْهِجْرَةُ قَالَ

تَهْجُرُ السُّوءَ قَالَ فَأَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ قَالَ الْجِهَادُ قَالَ وَمَا الْجِهَادُ قَالَ أَنْ تُقَاتِلَ الْكُفَّارَ إِذَا لَقِيتَهُمْ قَالَ فَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ قَالَ مَنْ عُقِرَ جَوَادُهُ وَأُهْرِيقَ دَمُهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ عَمَلَانِ هُمَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ بِمِثْلِهِمَا حَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ أَوْ عُمْرَةٌ. مسند أحمد مسند الشاميين

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَنْ الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. أحمد. باقي مسند الأنصار

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يَأْخُذُ مِنْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُهُنَّ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ قَالَ قُلْتُ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّهُنَّ فِيهَا ثُمَّ قَالَ اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا تُكْثِرْ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ. احمد باقي مسند المكثرين. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ. مسلم. كتاب الإيمان

المطلب الأول: اكثر اختلاف العلماء في تعريف الايمان وفهمه يعود إلى تفريقهم أو عدم تفريقهم بين الاسلام والايمان

اعلم يرحمك الله أننا هنا يجب أن نقرر حقيقة مهمة في البحث نبه إليها أخونا الباحث خالد صدقي في بحث قيم له يرد فيه على من رمى من قال أن الايمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل بالإرجاء، وهي أن العلماء انطلقوا في بحث مسألة الايمان من منطلقات مختلفة، وعلى أساسها اختلفوا، فمنهم من كان يتحدث عن الاسلام والايمان على أنهما ذات الشيء، فلم يفرق بين الاسلام والايمان بل كان حديثه عن الايمان حديثه عن الاسلام، وهنا لا بد أن يدخل العمل في صلب تعريف الإيمان / الإسلام، ومثال عليهم الإمام ابو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله، ودلل على ذلك بجمل من كتابه الإيمان منها قوله رحمه الله: وبهذا القول كان يأخذ سفيان والأوزاعي ومالك بن أنس، يرون أعمال البر جميعا من الازدياد في الإسلام، لأنها كلها عندهم منه. وحجتهم في ذلك ما وصف الله به المؤمنين في خمس مواضع من كتابه منه قوله [الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ] (آل عمران/ ١٧٣) وقوله [لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا] (المدثر / ٣١) وقوله: [لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ] (الفتح / ٤). وموضعان آخران قد ذكرناهما في الباب الأول، فاتبع أهل السنة هذه الآيات

وتأولوها أن الزيادات هي الأعمال الزاكية، وأما الذين رأوا الإيمان قولا ولا عمل.....انتهى[٢٨٠] لاحظ قوله في البداية: {... يرون اعمال البر جميعا من الازدياد في الاسلام لانها كلها عندهم منه.....} ثمّ قوله بعدها عن المخالفين: {وأما الذين رأوا الإيمان قولا ولا عمل فهو لم يفرق في حديثه عن الاسلام او الايمان. وتقرير ابي عبيد ان الايمان بمعنى العقيدة هو عمل القلب يبين بوضوح ان معنى الايمان هنا هو الاسلام فكأنه قال منكرا: {وأما الذين رأوا الإيمان (الاسلام) قولا ولا عمل}.

ونحن لا نقول ان الاسلام لا عمل فيه وندرك نحن بدورنا ان الذي تحدثوا عن الايمان هنا ممن انكر عليهم تحدثوا عنه بمعنى الاعتقاد والتصديق الذي محله القلب مع عدم انكارهم اهمية الاقرار باللسان واهمية القيام بالاعمال لان كلّ ذلك هو الاسلام وهو الدين، اللهم إلا فرقا من المتكلمين كابن كرام والجهم مثلا ممن قصروا الايمان على القول باللسان أو الاعتراف أو ما سبق بيانه فهؤلاء لا يفقهون المفهوم الشرعي للإيمان.

وكذلك ممن لم يفرقوا بين الاسلام والايمان ابن حزم رحمه اللّه تعالى، فهو إذ يتحدث عنهما يتحدث عن مسمى واحد قال رحمه اللّه في كتابه الفصل بين الملل والنحل: فهذا نص جلي على ان الاسلام هو الايمان، وقد

---

٢٨٠) كتاب الايمان لأبي عبيد ص ٧٢

وجب قبل بما ذكرنا ان اعمال البر كلها هي الاسلام، والاسلام هو الايمان، فاعمال البر كلها ايمان [281] ويؤكد ذلك قوله عند تعليقه على حديث الرسول صلى اللّه عليه وسلم: " لا يدخل الجنّة الا نفس مسلمة ": {فهذا هو الاسلام الذي هو الايمان فصح ان الاسلام لفظة مشتركة كما ذكرنا} [282] وعلى كل فقد ناقشت وفصلت في ذلك في فصل الاسلام والايمان وما أحببت لفت النظر إليه هو أن على الباحث أن يدرس ابتداء المنطلق الذي اتخذه العالم في بحث الايمان أهو بالنسبة لأحكام الدنيا؟ أم ما اعتبر عند اللّه إيمانا، وما تعلق بأحكام الآخرة؟ أم هل فرق بين الاسلام والايمان؟ فهو إذ يتحدث عنهما يتحدث عن شيء واحد ونحن نقرر ونقول أن الاسلام مختص بأعمال الجوارح والإخلاص وما شابه وأن العقائد افكار وهي من عمل القلوب، كذلك بحثوا هل يخرج المرء من الإيمان إلى الإسلام، أي هل يكون المسلم غير مؤمن؟ فعندها ترى بعض من لم يفرق بين الإسلام والإيمان حين تناوله موضوع الزيادة في الإيمان مثلا، تراه فرق بينهما، أو العكس، لذا ينبغي دراسة الموضوع في سياقه، ومثال ذلك ما سقناه من كلام ابن حزم رضي اللّه عنه السابق في عدم التفريق بينهما، بينما تراه حين تناول المؤمن والمسلم فرق أيما تفريق.

---

٢٨١) الفصل بين الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٣/ ٢٤٣

٢٨٢) الفصل بين الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٣/ ٢٧٠

المطلب الثاني: لنستعرض بعض أقوال أهل العلم في هذا الموضوع:

قال ابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج في شرح المنهاج: وَالإِسْلامُ وَالإِيمَانُ طَالَ فِيمَا بَيْنَهُمَا مِنْ النَّسَبِ الْكَلام وَالْحَقُّ أَنَّهُمَا مُتَّحِدَانِ مَاصَدَقًا إذْ لا يُوجَدُ شَرْعًا مُؤْمِنٌ غَيْرُ مُسْلِمٍ وَلا عَكْسُهُ وَمَنْ آمَنَ بِقَلْبِهِ وَتَرَكَ التَّلَفُّظَ بِلِسَانِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ نَقَلَ الْمُصَنِّفُ الإِجْمَاعَ عَلَى تَخْلِيدِهِ فِي النَّارِ لَكِنْ اُعْتُرِضَ بِأَنَّ كَثِيرِينَ بَلْ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى خِلافِهِ مُخْتَلِفَانِ مَفْهُومًا إذْ مَفْهُومُ الإِسْلامِ الاسْتِسْلامُ وَالانْقِيَادُ وَمَفْهُومُ الإِيمَانِ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ بِكُلِّ مَا عُلِمَ مَجِيئُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ بِالضَّرُورَةِ إجْمَالا فِي الإِجْمَالِيِّ وَتَفْصِيلا فِي التَّفْصِيلِيِّ هَذَا.[٢٨٣] انتهى

(قال أبو القاسم الراغب الأصفهاني: الإيمان يستعمل تارة اسماً للشريعة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: [إن الذين ءامنوا والذين هادوا] ويوصف به كل من دخل في شريعته، مقراً بالله ونبوته، والإسلام في الشرع على ضربين: أحدهما دون الإيمان وهو الاعتراف باللسان وبه يحقن الدم وهذا المعنى هو المقصود بقوله تعالى [قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا] والثاني: فوق الإيمان وهو أن يكون مع الاعتراف

---

٢٨٣) ابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج في شرح المنهاج خطبة الكتاب.

اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل.)[٢٨٤] [وما أجمل قوله وما أدقه، فالإسلام الذي فوق الإيمان هو عَلَمٌ على هذا الدين]

قال ابن حزم في كلام بالغ الدقة: (ذهب قوم إلى أن الإسلام والإيمان اسمان واقعان على معنيين وأنه قد يكون مسلم غير مؤمن واحتجوا بقول الله عز وجل [قالت الأعراب ءامنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم] وبالحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال له سعد هل لك يا رسول الله في فلان فإنه مؤمن؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مسلم؟، وبالحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه جبريل صلى الله عليه وسلم في صورة فتى غير معروف العين فسأله عن الإسلام فأجابه بأشياء من جملتها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأعمال أخرى مذكورة في ذلك الحديث وسأله عن الإيمان فأجابه بأشياء من جملتها أن تؤمن بالله وملائكته وبحديث لا يصح من أن المرء يخرج عن الإيمان إلى الإسلام، وذهب آخرون إلى أن الإيمان والإسلام لفظان مترادفان على معنى واحد واحتجوا بقول الله عز وجل [يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللّه يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ

---

٢٨٤) عقيدة المسلم وما يتصل بها.عبد الحميد السائح. عن البصائر ٢/١٥٠-١٥١، ٢/١٨٤، والشرح الجديد ص ٢٦- ٢٧.

إن كُنتُمْ صَادِقِينَ] ١٧ الحجرات قال أبو محمد: والذي نقول به وبالله تعالى التوفيق: أن الإيمان أصله في اللغة التصديق على الصفة التي ذكرنا قبل ثم أوقعه الله عز وجل في الشريعة على جميع الطاعات، واجتناب المعاصي، إذا قصد بكل ذلك من عمل أو ترك وجه الله عز وجل وأن الإسلام أصله في اللغة: التبرؤ، تقول أسلمت أمر كذا إلى فلان إذا تبرأت منه إليه، فسمي المسلم مسلماً لأنه تبرأ من كل شيء إلى الله عز وجل ثم نقل الله تعالى اسم الإسلام أيضاً إلى جميع الطاعات وأيضاً فإن التبرؤ إلى الله من كل شيء هو معنى التصديق، لأنه لا يبرأ إلى الله تعالى من كل شيء حتى يصدق به، فإذا أريد بالإسلام المعنى الذي هو خلاف الكفر وخلاف الفسق، فهو والإيمان شيء واحد، كما قال تعالى [لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللّه يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ] ١٧ الحجرات، وقد يكون الإسلام أيضاً بمعنى الاستسلام أي أنه استسلم للملة خوف القتل، وهو غير معتقد لها، فإذا أريد بالإسلام هذا المعنى فهو غير الإيمان، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله [لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] ١٤ الحجرات وبهذا تتألف النصوص المذكورة من القرآن والسنن، وقد قال تعالى [وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] ٨٥ آل عمران وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة" رواه مسلم في الإيمان، وأحمد، فهذا هو الإسلام الذي هو الإيمان فصح أن

الإسلام لفظة مشتركة كما ذكرنا، ومن البرهان على أنها لفظة منقولة عن موضعها في اللغة أن الإسلام في اللغة هو التبرؤ فأي شيء تبرأ منه المرء فقد أسلم من ذلك الشيء وهو مسلم له كما أن من صدق بشيء فقد آمن به وهو مؤمن به وبيقين لا شك فيه يدري كل أحد أن كل كافر على وجه الأرض فإنه مصدق بأشياء كثيرة من أمور دنياه ومتبرئ من أشياء كثيرة، ولا يختلف اثنان من أهل الإسلام في أنه لا يحل لأحد أن يطلق على الكافر من أجل ذلك أنه مؤمن ولا أنه مسلم، فصح يقيناً أن لفظة الإسلام والإيمان منقولة عن موضعها في اللغة إلى معان محدودة معروفة، لم تعرفها العرب قط، حتى أنزل الله عز وجل بها الوحي على رسوله صلى الله عليه وسلم أنه من أتى بها استحق اسم الإيمان والإسلام وسمي مؤمناً مسلماً، ومن لم يأت بها لم يسم مؤمناً ولا مسلماً... وصح يقيناً أن الله تعالى نقل اسم الكفر والشرك إلى إنكار أشياء لم تعرفها العرب وإلى أعمال لم تعرفها العرب قط، كمن جحد الصلاة ...)[285]

قال الأمام الغزالي: (اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلازمه؟ فنقول في هذا ثلاثة مباحث: بحث عن موجب اللفظين في اللغة وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع

---

٢٨٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل. ابن حزم ٣/٢٦٩ –٢٧٢

وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة، والبحث الأول لغوي والثاني تفسيري والثالث فقهي شرعي.

في موجب اللغة: والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق قال الله تعالى [وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا] ١٧ يوسف أي بمصدق، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعناد، وللتصديق محل خاص وهو القلب واللسان ترجمان. وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح، فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود فموجب اللغة أن الإسلام أعم والإسلام أخص فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام فإذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقاً.

الثاني: والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالها عل سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل، أما الترادف ففي قوله تعالى [فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين]... الآية ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد،[ورأي ابن تيمية في هذه الآية أدق، وسيأتي بحول الله] وقال تعالى [وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّه فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ] ٨٤ يونس، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس [أنظر الأحاديث أعلاه] وأما الاختلاف فقوله تعالى [قالت الأعراب ءامنا].. الآية ومعناه استسلمنا في الظاهر فأراد بالإيمان ههنا

التصديق بالقلب فقط وبالإسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح، وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال: أن تؤمن بالله وملائكته... فما الإسلام: فأجاب بذكر الخصال الخمس.

فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل، وحديث سعد رضي الله عنه، وأما التداخل فما روي أيضاً أنه سئل "فقيل أي الأعمال أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: الإسلام، فقال أي الإسلام أفضل؟ فقال: الإيمان.

وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات في اللغة، لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها، والإسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، وأفضلها الذي بالقلب وهو التصديق الذي يسمى إيماناً والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز في اللغة ...

فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه، فإن من لمس غيره ببعض بدنه يسمى لامساً وإن لم يستغرق جميع بدنه، فإطلاق اسم الإسلام على التسليم الظاهر عند عدم التسليم الباطن مطابق للّسان، وعلى هذا جرى قوله تعالى [قُل لَّمْ تُؤْمِنوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا]، وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث سعد: أو مسلم، لأنه فضل أحدهما على الآخر، ويريد بالاختلاف تفاضل المسميين...الخ.

والثالث: عن الحكم الشرعي: يرجع فيه إلى الإحياء.)[٢٨٦]

قال الكشميري في فيض الباري: باب مَنْ قَالَ: إنَّ الإيمَانَ هُوَ العَمَل: وبعدُ الشيخ قطب الدين في بيان الغرض حيث قال: إن المصنف رحمه الله تعالى انتقل إلى الرد على المرجئة القائلين بأنه القول بلا إله إلا الله فقط، فقال رداً عليهم: إنه عملٌ وليس بقول فقط. وعندي قد فرغ عنه المصنف رحمه الله تعالى من قبل، وإنما يريد الآن النصَّ على أن الإيمانَ عملُ القلب كما كان نصَّ أولاً على أن المعرفة فعل القلب والعملُ لا يكون إلا اختيارياً، فالإيمان أيضاً فعلٌ اختياري، ووجه الإشارة أنه قصرَ الإيمانَ على العمل، أي أن الإيمان مقصورٌ على كونه عملاً لا يتجاوزَ إلى صفة أخرى، من كونه علماً أو غيره، ولا شك في أنه عملُ القلب، وأما من فسره بالمعرفة، فأراد بها ما تستوجبُ العمل، ولا ما تجامعُ الجحود، كما مرّ ولو كان غرضُ المصنف رحمه الله تعالى ما فَهِمُوه لقال: إن الإيمانَ عملٌ بدون القصر، لأن القصرَ إما قصر قلب أو إفراد ولا يصح واحدٌ منهما؛ لأن المعنى على الأول: أن الإيمانَ عملٌ ليس بقول، وعلى الثاني: أنه عملٌ وليس بمجموع القول والعمل، وكلاهما خلافُ المراد. وأما قصر التعيين فلا يحتملُه المقام. ومنه ظهرت المناسبة بين الآيات، والحديث، والترجمة، فإنها أطلقت العمل على الإيمان، بمعنى أن

---

٢٨٦) إحياء علوم الدين. الغزالي. ١/١٤٥-١٤٧.

الإيمانَ من أكبر الأعمال، لا أن قوله تعالى: {بِمَا تَعْمَلُونَ} منحصرٌ في الإيمان، وكذا سُئل النبي صلى اللّه عليه وسلّم عن الأعمال، وأجاب بالإيمان، فاتَّضحَ أن الإيمانَ عملٌ.[287]

جاء في تحفة المحتاج في شرح المنهاج: وَالْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ طَالَ فِيمَا بَيْنَهُمَا مِنْ النِّسَبِ الْكَلَامِ وَالْحَقُّ أَنهُمَا مُتَّحِدَانِ مَاصَدَقًا إذْ لَا يُوجَدُ شَرْعًا مُؤْمِنٌ غَيْرُ مُسْلِمٍ وَلَا عَكْسُهُ وَمَنْ آمَنَ بِقَلْبِهِ وَتَرَكَ التَّلَفُّظَ بِلِسَانِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ نَقَلَ الْمُصَنِّفُ الْإِجْمَاعَ عَلَى تَخْلِيدِهِ فِي النَّارِ لَكِنْ اُعْتُرِضَ بِأَنَّ كَثِيرِينَ بَلْ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى خِلَافِهِ مُخْتَلِفَانِ مَفْهُومًا إذْ مَفْهُومُ الْإِسْلَامِ الِاسْتِسْلَامُ وَالِانْقِيَادُ وَمَفْهُومُ الْإِيمَانِ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ بِكُلِّ مَا عُلِمَ مَجِيئُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ بِالضَّرُورَةِ إجْمَالًا فِي الْإِجْمَالِيِّ وَتَفْصِيلًا فِي التَّفْصِيلِيِّ هَذَا.[288]

قال الإمام الطحاوي: (فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر، فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية، فهما شيئان في الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى في الحكم والمعنى، كشيء واحد.

---

٢٨٧) فيض الباري للكشميري كتاب الإيمان.

٢٨٨) تحفة المحتاج في شرح المنهاج > خطبة الكتاب

كـذلك الإسـلام والإيمـان لا إيمـان لمـن لا إسـلام لـه ولا إسـلام لمـن لا إيمان له، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانـه، ولا يخلـو المسـلم من إيمان به يصح إسلامه... [قالت الأعراب ءامنا] ...الآية انقدنا بظواهرنـا فهم منافقون في الحقيقة.

وهذا أحد قولي المفسرين في هذه الآية الكريمـة، وأجيـب بـالقول الآخـر ورجح: وهو أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان، لا أنهم منافقون، كما نفـى الإيمان عن القاتل، والزاني والسارق ومن لا أمانة له، ويؤيد هذا سياق الآيـة، فإن السورة من أولها إلى هنا في النهي عن المعاصي، وأحكام بعض العصاة ونحو ذلك، وليس فيها ذكر المنافقين، ثم قـال بعـد ذلـك: [وَإِن تُطِيعُـوا اللّه وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا] ولو كانوا منافقين مـا نفعـتهم الطاعـة، ثم قال: [إِنَّمَا الـمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُـوا بِـاللّه وَرَسُـولِهِ ثُـمَّ لَـمْ يَرْتَـابُوا] الآيـة، يعني –واللّه أعلم- أن المؤمنين الكاملي الإيمان، هم هؤلاء لا أنتم، بل أنـتم منتـف عـنكم الإيمـان الكامـل يؤيـد هـذا أنـه أمـرهم أو أذن لهـم أن يقولـوا أسلمنا والمنافق لا يقال له ذلك، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام، كما نفى عنهم الإيمان، ونهاهم أن يمنوا بإسلامهم فأثبت لهم إسـلاماً ولـو لـم يكن إسلامهم صحيحاً لقال: لم تسلموا بل أنـتم كـاذبون، كمـا كـذبهم فـي قولهم [قَـالُوا نَشْـهَدُ إِنَّـكَ لَرَسُـولُ اللّه] ١ المنـافقون واللّه أعلـم بالصـواب. كذلك الإسلام والإيمـان إذا قـرن أحـدهما بـالآخر كمـا فـي قولـه تعـالى [إِنَّ

الـمُسْلِمِينَ وَالـمُسْلِمَاتِ وَالـمُؤْمِنِينَ وَالـمُؤْمِنَاتِ] ٣٥ الأحـزاب وقولـه صـلى اللّه عليه وسلم: اللهـم لـك أسـلمت وبـك آمنـت" كـان المـراد بأحـدهما غيـر المراد بالآخر... ويندفع أيضاً تشنيع من قال: ما حكم من أسلم ولـم يـؤمن؟ فمن أثبت لأحدهما حكماً ليس بثابت للآخر ظهر بطلان قوله!

ويقال له في مقابل تشنيعه أنت تقول المسـلم هـو المـؤمن واللّه تعـالى يقول [إنَّ الـمُسْلِمِينَ وَالـمُسْلِمَاتِ وَالـمُؤْمِنِينَ وَالـمُؤْمِنَاتِ] فجعلهما غيرين، وقد قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليـه وسـلم: مالـك عـن فـلان واللّه إنـي لأراه مؤمناً؟ قال: أو مسلماً! قالها ثلاثاً فأثبت له الإسلام وتوقف في اسم الإيمـان، فمن قال هما سواء- كان مخالفاً... وأما الاحتجاج بقوله تعالى [فأخرجنا مـن كان فيها من المـؤمنين] علـى تـرادف الإسـلام والإيمـان فـلا حجـة فيـه لأن البيت المُخرَج كانوا متصفين بالإسلام والإيمان، ولا يلزم من الاتصاف بهمـا ترادفهما.)[٢٨٩] (وأكثر أصحاب مالك قالوا إن الإيمان والإسلام شيء واحد)[٢٩٠]

قال ابن الخطيب: (المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة فيكـون الفـرق بين العـام والخـاص أن الإيمـان لا يحصـل إلا بالقلـب، والانقيـاد قـد يحصـل بالقلب وقد يحصل باللسـان، والإسـلام أعـم لكـن العـام فـي صـورة الخـاص

---

٢٨٩) شرح العقيدة الطحاوية. ٣٩٣-٣٩٥

٢٩٠) شرح قصيدة ابن القيم ج: ٢ ص: ١٤٣

متحد مع الخاص ولا يكون أمراً آخر غيره، مثاله: الحيوان أعم من الإنسان لكن الحيوان في صورة الإنسان ليس أمراً ينفك عن الإنسان، ويجوز أن يكون ذلك الحيوان حيواناً ولا يكون إنساناً، فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود، وكذلك المؤمن والمسلم)[٢٩١]

وقال الزمخشري في الكشاف: (الإيمان هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس، والإسلام: الدخول في السلم والخروج من أن يكون حرباً للمؤمنين بإظهار الشهادتين ألا ترى إلى قوله تعالى [وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] فاعلم أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام، وما واطأ القلب فهو إيمان، فإن قلت: ما وجه قوله تعالى [قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا] والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا، أو قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم؟ قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولا، ودفع ما انتحلوه، فقيل [قل لم تؤمنوا]؛ وروعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرّح بلفظه، فلا يقل: كذبتم، ووضع [لَّمْ تُؤْمِنُوا] الذي هو نفي ما ادّعوا إثباته موضعه، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في قوله في صفة المخلصين [أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] ١٥ الحجرات تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون، ورب تعريض لا يقاومه التصريح،

---

٢٩١) اللباب في علوم الكتاب. الدمشقي الحنبلي. ٧/١١٤-١١٥.

واستغنى بالجملة التي هي [لَّمْ تُؤْمِنوا] عن أن يقال: لا تقولوا آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصدرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل: ولكن أسلمتم، لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به)[292]

قال ابن منظور في اللسان مادة أمن: التهذيب: وأما الإيمانُ فهو مصدر آمَنَ يُؤْمِنُ إيمانًا فهو مُؤْمِنٌ واتَّفق أهلُ العلم من اللُّغَويّين وغيرهم أن الإيمانَ معناه التصديق. قال اللّه تعالى: [قَالَتِ الْـأعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أسْلَمْنَا] (الآية) قال: وهذا موضع يحتاج الناس إلى تَفْهيمه وأين يَنْفَصِل المؤمِنُ من المُسْلِم وأيْنَ يَسْتَويان، والإسْلامُ إظهارُ الخضوع والقبول لما أتى به النبي صلى اللّه عليه وسلم وبه يُحْقَنُ الدَّمُ، فإن كان مع ذلك الإظْهار اعتِقادٌ وتصديق بالقلب، فذلك الإيمانُ الذي يقال للموصوف به هو مؤمنٌ مسلمٌ، وهو المؤمنُ باللّه ورسوله غير مُرْتابٍ ولا شاكٍّ، وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجبٌ عليه، وأن الجِهادَ بنفسِه وماله واجبٌ عليه لا يدخله في ذلك رَيْبٌ فهو المؤمنُ وهو المسلمُ حقًّا، كما قال اللّه عز وجل[إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا

---

٢٩٢) الكشاف. الزمخشري ٤/ ٣٧٩

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] أي أُولئك الذين قالوا إنّا مؤمنون فهم الصادقون، فأما من أظهرَ قَبولَ الشريعة واسْتَسْلَم لدفع المكروه فهو في الظاهر مُسْلمٌ وباطِنُه غيرُ مصدِّقٍ، فذلك الذي يقول أَسْلَمْتُ لأَن الإيمان لا بدّ من أن يكون صاحبُه صِدِّيقًا، لأَن قولَكَ آمَنْتُ باللّه، أَو قال قائل آمَنْتُ بكذا وكذا فمعناه صَدَّقْت، فأَخْرج اللّه هؤلاء من الإيمان فقال: ولَمّا يدْخل الإيمانُ في قُلوبكم؛ أي لم تُصدِّقوا إنما أَسْلَمْتُمْ تَعَوُّذًا من القتل، فالمؤمنُ مُبْطِنٌ من التصديق مثلَ ما يُظْهِرُ، والمسلمُ التامُّ الإسلامِ مُظْهرٌ للطاعة مؤمنٌ بها، والمسلمُ الذي أَظهر الإسلامَ تعوُّذًا غيرُ مؤمنٍ في الحقيقة، إلاّ أَن حُكْمَه في الظاهر حكمُ المسلمين.[٢٩٣]

قال ابن قيم الجوزية في كتاب الفوائد: وهذا وصف الذين قيل فيهم [وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ](٦) سبأ.... قال ابن القيم: فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القران فيجدها كانها قد كتبت فيه، فهو يقراها عن ظَهْر قَلْب. ومن الناس من لا يكون تامَّ الاستعداد، واعي القلب، كامل الحياة، فيحتاج الى شاهد يميز له بين الحق والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي، فطريق حصول هدايته ان

---

٢٩٣) لسان العرب لابن منظور مادة أمن

يفرغ سمعه للكلام وقلبه لتامله والتفكر فيه وتعقل معانيه، فيعلم حينئذ انه الحق. فالاول حال من راى بعينه ما دعي عليه واخبر به. والثاني حال من علم صدق المخبر وتيقنه وقال: " يكفيني خبره" فهو في مقام الايمان، والاول في مقام الاحسان. هذا وقد وصل الى علم اليقين، وترقى قلبه منه الى منزلة عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الاسلام. إ.هـ.٢٩٤

---

٢٩٤) ابن قيم الجوزية في كتاب الفوائد: قاعدة جليلة: الانتفاع بالقران وشروطه

المطلب الثالث: رأي العلامة ابن تيمية رحمه اللّه في هذه المسألة:

وسنستعرض هنا بعض أقوال الإمام ابن تيمية رحمه اللّه تعالى ما يستقصي رأيه بمعظم جوانبه في هذه القضية، في كتابه عظيم القيمة الإيمان، ليتسنى مناقشته على بصيرة:

("اعلم أن الإيمان والإسلام يجتمع فيهما الدين كله وقد كثر كلام الناس في حقيقة الإيمان والإسلام ونزاعهم واضطرابهم، فنقول قد فرق النبي في حديث جبريل عليه السلام بين مسمى الإسلام ومسمى الإيمان ومسمى الإحسان فقال الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا وقال الإيمان أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، وكذلك فسر الإسلام في حديث ابن عمر المشهور قال بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان وحديث جبرائيل يبين أن الإسلام المبني على خمس هو الإسلام نفسه، ليس المبني غير المبني عليه، بل جعل النبي الدين ثلاث درجات أعلاها الإحسان وأوسطها الإيمان ويليه الإسلام، فكل محسن مؤمن وكل مؤمن مسلم وليس كل مؤمن محسناً ولا كل مسلم مؤمناً، كما في الحديث عن أبي قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه عن النبي قال له: أسلم تسلم، قال وما

الإسلام قال أن تسلم قلبك لله وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك، قال فأي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان، قال وما الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت، قال فأي الإيمان أفضل؟ قال: الهجرة، قال وما الهجرة؟ قال أن تهجر السوء قال فأي الهجرة أفضل؟ قال الجهاد، قال وما الجهاد؟ قال: أن تجاهد أو تقاتل الكفار إذا لقيتهم ولا تغلل ولا تجبن، ثم قال رسول الله: عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما قالها ثلاثا حجة مبرورة أو عمرة رواه أحمد ومحمد بن نصر المروزي؛ ولهذا يذكر هذه المراتب الأربعة فيقول المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم والمهاجر من هجر السيئات والمجاهد من جاهد نفسه لله، وقد ثبت عنه من غير وجه أنه قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم" ومعلوم أن من كان مأموناً على الدماء والأموال كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده ولولا سلامتهم منه لما ائتمنوه، وفي حديث عبد الله بن عبيد بن عمر أيضا عن أبيه عن جده أنه قيل لرسول الله ما الإسلام؟ قال: إطعام الطعام وطيب الكلام، قيل فما الإيمان؟ قال: السماحة والصبر، قيل فمن أفضل المسلمين إسلاماً؟ قال من سلم المسلمون من لسانه ويده قيل فمن أفضل المؤمنين إيماناً؟ قال أحسنهم خلقاً، قيل فما أفضل الهجرة؟ قال من هجر ما حرم الله عليه قال أي الصلاة

أفضل؟ قال طول القنوت، قال أي الصدقة أفضل؟ قال جهد مقل قال أي الجهاد أفضل قال أن تجاهد بمالك ونفسك فيعقر جوادك ويراق دمك قال أي الساعات أفضل؟ قال جوف الليل الغابر" ومعلوم أن هذا كله مراتب بعضها فوق بعض وإلا فالمهاجر لا بد أن يكون مؤمناً وكذلك المجاهد ولهذا قال الإيمان السماحة والصبر وقال في الإسلام إطعام الطعام وطيب الكلام والأول مستلزم للثاني فإن من كان خلقه السماحة فعل هذا بخلاف الأول فإن الإنسان قد يفعل ذلك تخلقاً ولا يكون خلقه سماحة وصبر وكذلك قال أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده وقال أفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ومعلوم أن هذا يتضمن الأول فمن كان حسن الخلق فعل ذلك، وستأتي الأحاديث الصحيحة بأنه جعل الأعمال الظاهرة من الإيمان كقوله الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق وقوله لوفد عبد القيس آمركم بالإيمان بالله وحده أتدرون ما الإيمان بالله وحده شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ما غنمتم، ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب لما قد أخبر في غير موضع أنه لا بد من إيمان القلب فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان وفي

المسند عن أنس عن النبي أنه قال الإسلام علانية والإيمان في القلب [295] ...

فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة لكن هو درجات ثلاث مسلم ثم مؤمن ثم محسن كما قال تعالى [ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّه] الآية ٣٢ فاطر والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة بخلاف الظالم لنفسه وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع تصديق القلب لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن فإنه معرض للوعيد".... "والنبي فسر الإسلام والإيمان بما أجاب به كما يجاب عن المحدود بالحد إذا قيل ما كذا قيل كذا وكذا كما في الحديث الصحيح لما قيل ما الغيبة قال ذكرك أخاك بما يكره وفى الحديث الآخر الكبر بطر الحق وغمط الناس وبطر الحق جحده ودفعه وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم" ... "وقد فسر الإيمان في حديث وفد عبد القيس بما فسر به الإسلام هنا لكنه لم يذكر فيه الحج وهو متفق عليه فقال آمركم بالإيمان بالله وحده هل تدرون ما الإيمان بالله وحده قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة أن لا اله إلا

---

٢٩٥) الحديث أخرجه أحمد في المسند، والنسائي، وضعّفه الألباني، وغيره، أنظر الإيمان/ السبابطي. ص١٠

الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وان تؤدوا خمس ما غنمتم أو خمساً من المغنم وقد روي في بعض طرقه الإيمان بالله وشهادة أن لا اله إلا الله لكن الأول أشهر ... وقال أيضاً لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين، وقال والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل من يا رسول الله قال الذي لا يأمن جاره بوائقه وقال من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان وقال ما بعث الله من نبي إلا كان في أمته قوم يهتدون بهديه ويستنون بسنته ثم أنه يخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل وهذا من إفراد مسلم ... وقال في الحديث المتفق عليه من رواية أبى هريرة ورواه البخاري من حديث ابن عباس قال النبي لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينتهب النهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن ... ثم أن نفي الإيمان عند عدمها دل على أنها واجبة وإن ذكرَ فضل إيمان صاحبها ولم ينف إيمانه دل على أنها مستحبة ...وكذلك قوله تعالى [وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ

٤٧ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٥٠ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] ٥١النور، فان قيل إذا كان المؤمن حقاً هو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات فقد قال أولئك هم المؤمنون حقاً ولم يذكر إلا خمسة أشياء وكذلك قال في الآية الأخرى [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] ١٥الحجرات وكذلك قوله [إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ] الآية ٦٢ النور قيل عن هذا جوابان أحدهما أن يكون ما ذكر مستلزماً لما ترك فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذكر الله وزيادة إيمانهم إذا تليت عليهم آياته مع التوكل عليه وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطناً وظاهراً وكذلك الإنفاق من المال والمنافع فكان هذا مستلزماً للباقي فان وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه")[٢٩٦]

---

٢٩٦) مجموع الفتاوى. ابن تيمية. (٧/٦-٢٠)

قال ابن تيمية (فيقتضي وجوب دين الإسلام وبطلان ما سواه لا يقتضي أن مسمى الدين هو مسمى الإيمان بل أمرنا أن نقول آمنا بالله وأمرنا أن نقول ونحن له مسلمون فأمرنا باثنين فكيف نجعلهما واحداً وإذا جعلوا الإسلام والإيمان شيئاً واحداً فإما أن يقولوا اللفظ مترادف فيكون هذا تكريراً محضاً ثم مدلول هذا اللفظ عين مدلول هذا اللفظ وإما أن يقولوا بل أحد اللفظين يدل على صفة غير الصفة الأخرى كما في أسماء الله وأسماء كتابه لكن هذا لا يقتضي الأمر بهما جميعا ولكن يقتضي أن يذكر تارة بهذا الوصف وتارة بهذا الوصف، وقال محمد بن نصر المروزي رحمه الله فقد بين الله في كتابة وسنة رسوله أن الإسلام والإيمان لا يفترقان فمن صدق بالله فقد آمن به ومن آمن بالله فقد خضع له وقد أسلم له ومن صام وصلى وقام بفرائض الله وانتهى عما نهى الله عنه فقد استكمل الإيمان والإسلام المفترض عليه ومن ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الإيمان ولا الإسلام إلا أنه انقص من غيره في الإسلام والإيمان من غير نقصان من الإقرار بأن الله حق؛ وما قال حق لا باطل وصدق لا كذب ولكن ينقص من الإيمان الذي هو تعظيم لله وخضوع للهيبة والجلال والطاعة للمصدق به وهو الله فمن ذلك يكون النقصان لا من إقرارهم بأن الله حق وما قال صدق؛ فيقال ما ذكره يدل على أن من أتى بالإيمان الواجب فقد أتى بالإسلام وهذا حق ولكن ليس فيه ما يدل عن أن من أتى بالإسلام الواجب

فقد أتى بالإيمان فقوله من آمن بالله فقد خضع له وقد استسلم له حق لكن أي شيء في هذا يدل على أن من أسلم لله وخضع له فقد آمن به وبملائكته وكتبه والبعث بعد الموت [؟] وقوله إن الله ورسوله قد بين أن الإسلام والإيمان لا يفترقان إن أراد أن الله أوجبهما جميعاً ونهى عن التفريق بينهما فهذا حق وإن أراد أن الله جعل مسمى هذا مسمى هذا فنصوص الكتاب والسنة تخالف ذلك وما ذكر قط نصاً واحداً يدل على اتفاق المسلمين وكذلك قوله من فعل ما أمر به وانتهى عما نهي عنه فقد استكمل الإيمان والإسلام فهذا صحيح إذا فعل ما أمر به باطناً وظاهراً ويكون قد استكمل الإيمان والإسلام الواجب عليه ولا يلزم أن يكون إيمانه وإسلامه مساوياً للإيمان والإسلام الذي فعله أولوا العزم من الرسل كالخليل إبراهيم ومحمد خاتم النبيين عليهما الصلاة والسلام بل كان معه من الإيمان والإسلام ما لا يقدر عليه غيره ممن ليس كذلك ولم يؤمر به وقوله من ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الإسلام والإيمان إلا أنه أنقص من غيره في ذلك فيقال إن أريد بذلك أنه بقى معه شيء من الإسلام والإيمان فهذا حق كما دلت عليه النصوص خلافاً للخوارج والمعتزلة وإن أراد أنه يطلق عليه بلا تقييد مؤمن ومسلم في سياق الثناء والوعد بالجنة فهذا خلاف الكتاب والسنة ولو كان كذلك لدخلوا في قوله وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار وأمثال ذلك مما وعدو فيه بالجنة بلا عذاب وأيضا فصاحب

الشرع قد نفى عنهم الاسم في غير موضع بل قال قتال المؤمن كفر وقال لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض وإذا احتج بقوله [وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا] ٩ الحجرات ونحو ذلك قيل كل هؤلاء إنما سموا به مع التقييد بأنهم فعلوا هذه الأمور ليذكر ما يؤمرون به هم وما يؤمر به غيرهم).[297]

وقد قال ابن تيمية رحمه الله (وأما قول من سوى بين الإسلام والإيمان وقال أن الله سمى الإيمان بما سمى به الإسلام وسمى الإسلام بما سمى به الإيمان فليس كذلك فإن الله ورسوله قد فسر الإيمان بأنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم يسم الله الإيمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت إسلاما بل إنما سمى الإسلام الاستسلام له بقلبه وقصده وإخلاص الدين والعمل بما أمر به كالصلاة والزكاة خالصا لوجهه، ولم يدخل فيما خص به الإيمان وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله بل ولا أعمال القلوب مثل حب الله ورسوله، فإن هذه جعلها من الإيمان والمسلم المؤمن يتصف بها وليس إذا اتصف بها المسلم المؤمن يلزم أن تكون من الإسلام بل هي من الإيمان والإسلام فرض والإيمان فرض والإسلام داخل فيه فمن أتى بالإيمان الذي أمر به فلابد أن يكون قد أتى

---

٢٩٧) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤١٤-٤٢٠

بالإسلام المتناول لجميع الأعمال الواجبة ومن أتى بما يسمي إسلاماً لم يلزم أن يكون قد أتى بالإيمان إلا بدليل منفصل).[298]

وقال: (والمقصود أن الناس ينقسمون في الحقيقة إلى مؤمن ومنافق كافر في الباطن مع كونه مسلماً في الظاهر وإلى كافر باطناً وظاهراً)[299] [وهذا ما أراه فقط، أي أن رأيه هذا هو الدقيق، وما سواه يناقش فيه]

وقال في موضع آخر: (وهنا أصل آخر وهو أنه قد جاء في الكتاب والسنة وصف أقوام بالإسلام دون الإيمان فقال تعالى [قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] ١٤ الحجرات وقال تعالى في قصة قوم لوط [فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ] ٣٦الذاريات وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الآية تقتضي أن مسمى الإيمان والإسلام واحد وعارضوا بين الآيتين وليس كذلك بل هذه الآية توافق الآية الأولى لأن الله أخبر أنه أخرج من كان فيها مؤمناً وأنه لم يجد إلا أهل بيت من المسلمين وذلك لأن امرأة لوط كانت في أهل البيت الموجودين ولم تكن من المخرجين الذين نجوا بل كانت من الغابرين الباقين في العذاب وكانت في الظاهر مع زوجها على

---

٢٩٨) مجموع الفتاوى ج: ٧ (الإيمان) ص: ٤١١-٤١٣

٢٩٩) المرجع السابق ٧/ ٤٧١

دينه وفى الباطن مع قومها على دينهم خائنة لزوجها تدل قومها على أضيافه كما قال الله تعالى فيها [ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ] ١٠ التحريم وكانت خيانتهما لهما في الدين لا في الفراش فإنه ما بغت امرأة نبي قط إذ نكاح الكافرة قد يجوز في بعض الشرائع ويجوز في شريعتنا نكاح بعض الأنواع وهن الكتابيات وأما نكاح البغي فهو دياثة وقد صان الله نبيه عنها.

والمقصود أن امرأة لوط لم تكن مؤمنة ولم تكن من الناجين المخرجين فلم تدخل في قوله فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين وكانت

من أهل البيت المسلمين وممن وجد فيه ولهذا قال تعالى فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وبهذا تظهر حكمة القرآن حيث ذكر الإيمان لما اخبر بالإخراج وذكر الإسلام لما اخبر بالوجود... [أنظر وتأمل مقدار الدقة التي يضبط بها القرآن مصطلحاته ومفاهيمه، ومقدار الدقة في فهم العلامة ابن تيمية رضي الله تعالى عنه لهذه الآية]

..فأجاب سعد بجوابين أحدهما أن هذا الذي شهدت له بالإيمان قد يكون مسلماً لا مؤمناً الثاني إن كان مؤمناً وهو أفضل من أولئك فأنا قد

أعطي من هو أضعف إيماناً لئلا يحمله الحرمان على الردة فيكبه الله في النار على وجهه وهذا من إعطاء المؤلفة قلوبهم.

...قال الجمهور من السلف والخلف بل هؤلاء الذين وصفوا بالإسلام دون الإيمان قد لا يكونون كفاراً في الباطن بل معهم بعض الإسلام المقبول وهؤلاء يقولون الإسلام أوسع من الإيمان فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ويقولون في قول النبي لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن الحديث، أنه يخرج من الإيمان إلى الإسلام ودوروا للإسلام دارة ودوروا للإيمان دارة أصغر منها في جوفها وقالوا إذا زنى خرج من الإيمان إلى الإسلام ولا يخرجه من الإسلام إلى الكفر ودليل ذلك أن الله تبارك وتعالى قال [قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] ١٤ الحجرات وهذا الحرف أي [لمـّا] نفى به ما قرب وجوده وانتظر وجوده ولم يوجد بعد فيقول لمن ينتظر غائباً أي لما ويقول قد جاء لما يجيء بعد فلما قالوا آمنا قيل لم تؤمنوا بعد بل الإيمان مرجو منتظر منهم ثم قال وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم أي لا ينقصكم من أعمالكم المثبتة شيئاً أي في هذه الحال فإنه لو أرادوا طاعة الله ورسوله بعد دخول الإيمان في قلوبهم لم يكن في ذلك فائدة لهم ولا لغيرهم إذ كان من المعلوم أن المؤمنين يثابون على طاعة الله ورسوله وهم كانوا مقرين به، فإذا قيل لهم المطاع يثاب والمراد به المؤمن الذي يعرف أنه مؤمن لم

يكن فيه فائدة جديدة)[300] (وأيضا فالخطاب لهؤلاء المخاطبين قد أخبر عنهم لما يدخل في قلوبهم وقيل لهم [إن تطيعوا اللّه ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا] فلو لم يكونوا في هذه الحال مثابين على طاعة اللّه ورسوله لكان خلاف مدلول الخطاب فبين ذلك أنه وصف المؤمنين الذين أخرج هؤلاء منهم فقال تعالى [إنما المؤمنون الذين آمنوا باللّه ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه أولئك هم الصادقون] وهذا نعت محقق الإيمان لا نعت من معه مثقال ذرة من إيمان كما في قوله تعالى إنما المؤمنون الذين إذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا؛ ومنه قوله لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وأمثال ذلك فدل البيان على أن الإيمان المنفي عن هؤلاء الأعراب هو هذا الإيمان الذي نفي عن فساق أهل القبلة الذين لا يخلدون في النار بل قد يكون مع أحدهم مثقال ذرة من إيمان ونفي هذا الإيمان لا يقتضي ثبوت الكفر الذي يخلد صاحبه في النار[301] وبتحقق هذا المقام يزول الاشتباه في هذا الموضع ويعلم أن في المسلمين قسماً ليس هو منافقاً محضاً في الدرك الأسفل من النار وليس هو من المؤمنين الذين قيل فيهم [إِنَّمَا الـمُؤْمِنُونَ

---

٣٠٠) وفي هذا رد دقيق على كلام الإمام الطحاوي رضي اللّه عنه أعلاه

٣٠١) هذا القول فيه نظر سيأتي بحول اللّه لاحقا.

الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّه وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا] ...إلى [أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] ولا من الذين قيل فيهم أولئك هم المؤمنون حقا فلا هم منافقون ولا هم من هؤلاء الصادقين المؤمنين حقاً ولا من الذين يدخلون الجنة بلا عقاب بل له طاعات ومعاص وحسنات وسيئات ومعه من الإيمان ما لا يخلد معه في النار وله من الكبائر ما يستوجب دخول النار وهذا القسم يسميه بعض الناس الفاسق الملة وهذا مما تنازع الناس في اسمه وحكمه والخلاف فيه أول خلاف ظهر في الإسلام في مسائل أصول الدين)[٣٠٢]

وقال رحمه الله في أدق ما فسرت به آيات الحجرات: (ونفي الإيمان المطلق لا يستلزم أن يكونوا منافقين كما في قوله [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّه وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا] الأنفال ٢-٤، ومعلوم أنه ليس من لم يكن كذلك يكون منافقاً من أهل الدرك الأسفل من النار بل لا يكون قد أتى بالإيمان الواجب، فنفى عنه كما ينفي سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب فيها، وكذلك الأعراب لم يأتوا بالإيمان الواجب، فنفى عنهم لذلك وإن كانوا مسلمين، معهم من الإيمان ما يثابون عليه. [أقول هنا أنظر التفريق بين المؤمن والمؤمن حقاً في هذا الكتاب] وهذا حال أكثر الداخلين في الإسلام ابتداء، بل حال أكثر من لم يعرف حقائق

---

٣٠٢) مجموع الفتاوى ٧- ٤٧٣-٤٧٩

الإيمان... ولم تدخل إلى قلبه المعرفة بحقائق الإيمان... وكثير من هؤلاء قد يرتاب إذا سمع الشبه القادحة فيه، ولا يجاهد في سبيل الله فليس هو داخلا في قوله [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّه وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا] ...الآية وليس هو منافقاً في الباطن مضمراً للكفر، فلا هو من المؤمنين حقاً، ولا هو من المنافقين، ولا هو أيضاً من أصحاب الكبائر، بل يأتي بالطاعات الظاهرة، ولا يأتي بحقائق الإيمان التي يكون بها من المؤمنين حقاً، فهذا معه إيمان وليس هو من المؤمنين حقاً، ويثاب على ما فعل من الطاعات، ولهذا قال تعالى [وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا] ولهذا قال [يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللّه يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ] ١٧الحجرات، يعني في قولكم [ءامنا] يقول إن كنتم صادقين فاللّه يمن عليكم أن هداكم للإيمان، وهذا يقتضي أنهم قد يكونوا صادقين في قولهم "ءامنا" ثم صدقهم إما أن يراد به اتصافهم بأنهم ءامنوا باللّه ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه أولئك هم الصادقون، وإما أن يراد به أنهم لم يكونوا كالمنافقين بل معهم إيمان وإن لم يكن لهم أن يدعوا مطلق الإيمان... ولأن اللّه إنما كذّب المنافقين لم يُكذّب غيرهم، وهؤلاء لم يكذّبهم ولكن قال [لم تؤمنوا] كما قال: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ وهو ليس بالمنافق.

وسياق الآية يدل على أن اللّه ذمهم لكونهم منوا بإسلامهم لجهلهم وجفائهم، وأظهروا ما في أنفسهم مع علم اللّه به، فإن اللّه تعالى قال: [قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللّه بِدِينِكُمْ وَاللّه يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] ١٦ الحجرات، فلو لم يكن في قلوبهم شيء من الدين لم يكونوا يعلمون اللّه بدينهم فإن الإسلام يعرفه كل أحد، ودخلت الباء في قوله [بدينكم] لأنه ضمن معنى يخبرون ويحدثون، وسياق الآية يدل على أن الذي أخبروا به اللّه هو ما ذكره اللّه عنهم من قولهم [ءامنا] فإنهم أخبروا عما في قلوبهم).[٣٠٣] [وهنا أرى في هذه النقطة أن رأي الزمخشري أدق]

---

٣٠٣) الإيمان. ابن تيمية. تحقيق السبابطي. ص ٢٣٨-٢٤٠

المطلب الرابع: ما أراه في المسألة، تفسير آية: قالت الأعراب:

نتذكر قول الطحاوي: (كذلك الإسلام والإيمان لا إيمان لمن لا إسلام له ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه...) لا بد من أن نتفكر في المسلم من هو وكيف يدخل في الدين وكيف يخرج منه، أوليس المرء يدخل دين الله تعالى بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما بقي من أركان الإيمان، فإذا ما أخل بركن منها خرج منه ودخل في الكفر، وبذلك لا يمكن أن يكون المرء مسلماً حتى يكون مؤمناً.

فإذا ما رسخ ذلك في أذهاننا تساءلنا ما معنى هذه التفرقة، وكيف نقول ليس كل مسلم مؤمناً؟ ونتساءل هنا هل تنتفي عنهم صفة الإيمان إذا لم يكن لديهم كاملاً؟ فإذا علمنا أنه لا ينفيها تساءلنا فلماذا لا تصفهم بالمؤمنين؟

أربعة محاور رئيسة لفهم ابن تيمية للحالة التي يكون فيها المسلم غير مؤمن: أولها آية الحجرات ونظيراتها التي ميزت بين اللقبين، والثاني: هل يجب للحصول على لقب المؤمن أن يصاحب الإيمان العمل والحب ومستلزمات أخرى، وحيث أن المسلمين يتفاضلون في الدرجات والأعمال

والإيمان وهذا هو مدار الإسلام كدين وبالتـالي التفاضـل يقسـم المسـلمين إلى الدرجات الثلاث، فهل هذا شكل محتمل لوجود مسلم غير مؤمن.

والثالث قوله: من أتى بالإسلام الظاهر مع تصديق القلب، ولكن لم يقـم بما يجب عليه من الإيمان الباطن[٣٠٤] والرابع: أن من أتى الكبائر كان مسـلماً حتى يدعها، فيرجع مؤمناً.

بادئ ذي بدء، سأناقش آيات الحجرات متغاضياً عن النقاط الأخرى، لأنـني أحاول البحث في صوابها أو خطئها، ثم أبني الفهم الدقيق بناء على النتيجة. والله الموفق؛

ولا بد أولاً من إثبات الحقائق التالية:

١- ستعرف بعـد قليـل بـإذن الله السـبب فـي تمـايز صـفة المسـلم عـن المؤمن وتداخلهما في مواضع أخرى من القرآن والسنة، فعندما يطلب الحـق أن نقول بأننا مسلمون وبأننا مؤمنون في نفس الآية مـثلا فاللفظـان يـدلان على صفتين متميزتين إحـداهما تخـتص بالأفعـال والأخـرى بأعمـال القلـوب، لكـن المـؤمن إذ يصـبح شخصـية إسـلامية لا بـد لـه مـن أن يقـوم بـبعض الأعمـال التـي هـي مـن الإسـلام، أي أعمـال الجـوارح، فالإسـلام والإيمـان إذ

٣٠٤) (الإيمان. ص١١).

يتمايزان باختصاص كل منهما بأمور، يحصل المرء هنا على لقب المؤمن بالإيمان بأركان الإيمان، وعلى لقب المسلم بالقيام بالأفعال كالصلاة وغيرها، فإنهما أيضاً يتداخلان لدى المرء بعد أن يصبح شخصية إسلامية، أي بعد أن يتخذ المرء العقيدة الإسلامية مصدراً لتفكيره والأحكام الشرعية مقياساً لأفعاله، فنصفه بالمؤمن الحق، لذا كان وصف المؤمنين بأنهم الذين يقومون بهذه الأفعال، مع أنهم وصفوا بالمؤمنين في آيات أخرى وطلب منهم القيام بهذه الأفعال نفسها ليصبحوا مؤمنين حقاً.

٢- المعلوم أن الإيمان حسب تعريف رسول الله عليه صلوات ربي وسلامه هو أن تؤمن بأركان الإيمان وفي حديث جبريل قال له بعد بيان ذلك "فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ فقال: نعم" وكل من استشهدت برأيهم من العلماء مجمعون على أن الإيمان هو المختص بأعمال القلب من التصديق على النحو الذي يعد المرء به مؤمناً، وأن الإسلام مختص بالأعمال الظاهرة، (حسب تعريف رسول الله عليه السلام لهما في الأحاديث).

٣- وإذا فُهم أن المسلم غير المؤمن هو الذي في قلبه إيمان وكفر، فقد بينت في فصل لاحق أنه لا يجتمع في القلب إيمان وكفر، اللهم إلا في مثل هذه الحالة التي يُظن وجودها ممن كان في بداية دخوله في دين الله، يتصارع الكفر مع الإيمان حتى لا يبقى في قلبه إلا أحدهما، فإذا ما نفى الإيمانُ الكفرَ أصبح مؤمناً ولا يمكن تصور أن يعود الكفر إلى قلبه إلى جوار

الإيمان، من هنا لا نحب أن يُفهم أن المسلم هو من كان في قلبه إيمان وكفر إلا في هذه المرحلة التي يدرس بها الدين ليدخل فيه، كذلك لا يُفهم أن من في قلبه مثقال ذرة من إيمان هو الذي عنده إلى جانبه كفر، على أنه لا يعد مؤمنا إلا بعد القناعة الكاملة بكل ما في الدين، فتحقيق لا إله إلا الله يتوجب فيه أولا التخلية من كل أفكار الكفر ومعتقداته، ومن ثم التحلية بالعقيدة الإسلامية والانقياد للشرع. والله أعلم.

٤- ما أريد إثباته هنا هو أن من أظهر الإسلام وقام بأعماله الظاهرة، فنحكم عليه به وأمره إلى الله، وحيث أن الوحي انقطع فالله تعالى يحذرنا في مثل هذه الحالات من أن نرمي من يقوم بأعمال الإسلام الظاهرة بالكفر، فقد كان الوحي يفضحهم قبل أن ينقطع أما وقد انقطع فالإيمان وهو عمل القلوب يبقى حكمه إلى عالم الغيب والشهادة سبحانه، إلا إن أتى بعمل أو قول مكفر لا مخرج له، أو قام بناقض للإيمان قطعي... الخ.

٥- وأحب أن ألفت الانتباه إلى أن ابن تيمية رحمه الله تعالى يصر على أن الاسلام مختص بالأعمال والايمان بالتصديق في هذا الموضوع تأمل مثلا لا حصرا قوله السابق: بل إنما سمى الإسلام الاستسلام له بقلبه وقصده وإخلاص الدين والعمل بما أمر به كالصلاة والزكاة خالصا لوجهه، ولم يدخل فيما خص به الإيمان وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله بل ولا أعمال القلوب مثل حب الله ورسوله، فإن هذه جعلها من الإيمان

والمسلم المؤمن يتصف بها وليس إذا اتصف بها المسلم المؤمن يلزم أن تكون من الإسلام بل هي من الإيمان...الخ كذا وفي استشهاده بحديث جبريل عليه السلام، بينما عند الحديث عن علاقة الايمان بالعمل ترى غير ذلك مما سننبه عليه في موضعه ان شاء اللّه.[٣٠٥]

٦- يبقى أن نؤكد على دقة الرأي الذي رآه الأصفهاني إذ قال: (والإسلام في الشرع على ضربين: أحدهما دون الإيمان وهو الاعتراف باللسان وبه يحقن الدم وهذا المعنى هو المقصود بقوله تعالى [قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا] والثاني: فوق الإيمان وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل) وذلك لأن المؤمن مع الفعل يصبح مؤمناً حقاً، وهو أعلى درجة من المؤمن.

---

٣٠٥) لقد لاحظت من قراءاتي في كتب الإمام ابن تيمية رحمه اللّه أن كثيرا من القضايا له فيها أكثر من رأي، في مواضع مختلفة من كتبه، فلعل فيها المتقدم والمتأخر، لعل فيها ما يناسب المقام، فأن تستخرج منها رأيا قطعيا تنسبه إليه، أمر بحاجة إلى تحقيق، ودوما كنت أرى أن من جمع تراث ابن تيمية، لم يوله العناية الكافية، وأن على تلامذته وأنصاره اليوم التحقيق في كتبه، لإزالة الغث منها، وما أكثره، فعالم كبير ذكي مثله، حقيق بأن يتفرغ بعض أتباعه للتحقيق في آرائه في القضايا الكبرى، فها أنت ترى أننا في موضوع الإيمان ننقل له آراء ونواقضها، وما يثبتها، وما يثبت عكسها، وكلها من كتبه، فكأن من جمع كتبه كان أشبه بحاطب الليل، لا يدري أهذا قول ابن تيمية نفسه أم قول مدسوس عليه، أم قول تراجع عنه، فاتقوا اللّه يا أتباع الإمام ابن تيمية في شيخكم.

ما أراه في تفسير الآية إجمالا: أن هؤلاء الأعراب كانوا منافقين لم يدخل الإيمان قلوبهم، والسبب هو وجود الريبة لديهم، فمن وجدت لديه الريبة انتفى التصديق الجازم من قلبه، وبالتالي ينتفي أصل الإيمان، لا ما به يكون مؤمناً حقا من عمل مثلا، بل أصل الإيمان منتف لديه، فهم منافقون قطعاً، ولكن الحق سبحانه وهو علام الغيوب يكشف لنا من خلال هذه الآيات عن وجود هذا النوع من مدعي الإيمان في المجتمع، وقد كان الوحي يفضح أمثالهم، ولكن ماذا يفعل المسلمون بعد انقطاع الوحي؟

يعلمهم الحق سبحانه أن أعمال القلوب وأهمها الإيمان لا يمكن لأحد غير علام الغيوب أن يحكم بها، فيشرع للمسلمين حكماً عاماً بأن من ادعى الإسلام بنطق الشهادتين، وأتى بالأعمال الواجبة على المسلم، ولم يفعل أفعالا تخرجه من الملة، ولم يقل أقوالا تخرجه من الملة، فمثل هذا نحكم له بالإسلام، وأمره إلى الله.

وهؤلاء الأعراب يُتأمل منهم الإيمان، وذلك واضح من استعمال "ولما" في الآية، فلا يقطع الله تعالى الطريق عليهم بقوله لا تقولوا آمنا، وذلك كما بين الزمخشري، وبين الله تعالى كذب دعواهم بقولهم آمنا ببيان من هو الصادق في دعواه أنه مؤمن، وهذا يؤكد كذبهم في ادعاء الإيمان، ويبين لهم أن من يؤمن أولا صدقاً، فإنه إذا عمل يتقبل الله منه، وهذا الغمز

بقناتهم ثانية يؤكد أنهم وحالهم على ما وصف لا يتقبل منهم، لأن الله تعالى لا يتقبل من كافر عملا، فلا بد أولا من أن يؤمنوا.

فاستعمال الإسلام وصفاً لهم، بل للدقة طلب منهم أن يقولوا أسلمنا ولم يحكم لهم بالإسلام، فبينهم وبين هذا الشرف مسافة لا بد من قطعها، أقول استعمال الإسلام إنما لبيان حكم عام ضروري لسلامة المجتمع لقطع الطريق على من يكفرون الناس حاكمين على باطنهم دون الظاهر، وعلم الباطن والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

[قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا]، لنناقش أولا بعض الآراء السابقة ثم نبين ما نراه في الآيات، تذكر قول ابن تيمية في هذه الآية من الحجرات:

قول ابن تيمية: (فليس هو داخلا في قوله [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا] ... الآية، وليس هو منافقاً في الباطن مضمراً للكفر، فلا هو من المؤمنين حقاً، ولا هو من المنافقين، ولا هو أيضاً من أصحاب الكبائر، بل يأتي بالطاعات الظاهرة، ولا يأتي بحقائق الإيمان التي يكون بها من المؤمنين حقاً، فهذا معه إيمان وليس هو من المؤمنين حقاً، ويثاب على ما فعل من الطاعات، ولهذا قال تعالى [وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا])

أقول ليس بدقيق، أولا ليس لنا أن ننفي الإيمان عمـن لا يقـوم بالأعمـال التي وصف الله سبحانه من يقوم بها على أنه من المؤمنين حقاً، فهو ناقص الإيمان وحسب، وكل مؤمن لا بد من أن يقصر في ناحية ما قد تكون الجهاد مثلاً، فهل ننفي الإيمان عنه لذلك؟

تذكر قول ابن حزم: (فنحن لا نسمي مؤمناً إلا من سماه الله عز وجل عنه مؤمناً ولا نسقط الإيمان بعد وجوبه إلا عمـن أسـقطه الله عـز وجـل ووجـدنا بعض الأعمال التي سماها الله عز وجل إيماناً لـم يسـقط الله عـز وجـل اسـم الإيمان عن تاركها فلم يجز لنا أن نسقط عنـه لـذلك، لكـن نقـول: إنـه ضـيّع بعض الإيمان ولم يضيّعه كله. إ. هـ.)

ثم هنا لو لقوا الله تعالى بهـذا الإسـلام الخـالي مـن الإيمـان هـل يقبـل منهم الله تعالى مع الريب الذي يسكن قلوبهم؟ والريـب يعنـي انتفـاء مجـرد التصديق فكيف بالإيمان!

وثانياً: الحق سبحانه لم ينف عنهم الإيمان الحق في صدر الآيـة، بـل قـال لهم [لم تؤمنوا] فأصل الإيمان منتف عندهم لوجود الريب، لا مـا بـه يكـون واحدهم مؤمناً حقاً.

وثالثاً: وقد بين الله تعالى فـي آيـات أخـرى أن أقوامـاً لا يقومـون بأفعـال معينة تلزمهم ليدخلوا في الإيمان الحق، ومـع ذلـك فقـد وصـفهم بالإيمـان

[وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ]... الآيات [وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ] ٧٢-٧٤ الأنفال

ثم إن ابن تيمية رحمه اللّه تعالى رحمة واسعة يقول بأنهم يثابون على ما يأتون به من الطاعات الظاهرة رغم أن اللّه سبحانه قد اشترط عليهم انتفاء الريبة من قلوبهم وإطاعة اللّه ورسوله ليثيبهم على أعمالهم.

فإذا قلت لم ننف الإيمان بل منعنا أن نصفهم به؟ قلت بل قول ابن تيمية: (فنفى عنه كما ينفي سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب فيها، وكذلك الأعراب لم يأتوا بالإيمان الواجب، فنفى عنهم لذلك وإن كانوا مسلمين، معهم من الإيمان ما يثابون عليه).

وهو غير دقيق أيضاً، فمن لم يوجد معه أصل الإيمان وما يستوجب أن يكون به مؤمناً من أركان الإيمان وانتفاء الريبة من قلبه، فليس بمؤمن ولا أجد مسوغاً لعدم وصف حقيقة ما هو عليه بالنفاق، أما وصفه بالإسلام في الآية فلِنتحرزَ بعد رسول اللّه عليه السلام من وصف أشباهه بالكفر كما سيأتي.

كذلك الآيات وحديث سعد (على أحد وجهي فهمه) يمنع من هم على هذه الشاكلة من أن يتصفوا بالإيمان أبداً إلا أن يأتوا بالإيمان الذي لا ريب فيه ويقوموا بأعمال معينة.

إذن هل يمكن أن نستخلص هنا أن السبب في قوله لهم لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، أن عندهم الأعمال الظاهرة التي يقومون بها فعندهم الإسلام وليس عندهم الإيمان؟

فقد بينت الآية السبب في نهيهم عن قول ءامنا [وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] فليست العلة في وجود أعمال وعدم وجود إيمان، بل المسألة أن الإيمان لما يدخل في قلوبهم، وبدليل الآية اللاحقة في بيان من هم المؤمنون:

[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] ١٥ إذن فهم كاذبون في دعواهم أنهم مؤمنون، والذي يخبرنا بذلك هو رب العزة سبحانه علام الغيوب، (لاحظ كيف ختم الله الآيات بوصف نفسه بعلم الغيب) فهو ينبئنا بما علم منهم من أنهم مرتابون، ولا يمكن للمؤمن أن يكون مرتاباً، ولكن يحذرنا من أننا بعد رسوله صلى الله عليه وسلم لا نستطيع الحكم على أحد بما في قلبه، فيحذرنا من رمي أحد بالنفاق أو الكفر بعد إظهاره

الإسلام، وهو الأعمال الظاهرة وشهادة أن لا إله إلا اللّه، فيعلمنا أن نصف من كان حاله هكذا بأنه مسلم.

كذلك من دقيق فهم العلامة ابن تيمية الذي بين سابقاً قوله في آيات الذاريات:

[فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ] ٣٦ الذاريات فوجود امرأة لوط في البيت وهي تدّعي الإسلام كان الباعث على وجود هذا الوصف، أي الإسلام، واللّه أعلم.

نتابع الآية في الحجرات لنتبين الموضوع بشكل أدق فقد سبق أن ناقشها الإمام الطحاوي أعلاه وخلص إلى أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان لا أنهم منافقون بدليل أنه قال: [وَإِن تُطِيعُوا اللّه وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ١٤ الحجرات والواقع أن هذا محتمل لا أنكر؛ لكنه ضعيف، وقد أثبتُّ ما هو أدق منه في كلام العلامة ابن تيمية رضي اللّه عنه، لذا أذهب إلى غيره، ولعله أدق وأنسب، فاللّه سبحانه يشترط على قبوله الأعمال منهم أن تكون نتاج طاعة، وأي طاعة أعظم من الإيمان، يطيعون اللّه ورسوله إذ يدعوهم إلى الإيمان، قال ابن عطية: (وطاعة اللّه

ورسوله صلى الله عليه وسلم في ضمنها الإيمان والأعمال)[٣٠٦] والسياق يثبت ذلك فهو يعلمهم كيف يكون المؤمن مؤمناً صادقاً بقوله تعالى [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] ١٥ فهم لا شك عندهم ريبة في قلوبهم، وإلا فما الداعي إلى ذكرها هنا، فيثبت لهم صفة النفاق، ولاحظ معي أنهم من الأعراب، ولاحظ وجود ثم في الآية، فهم أقبلوا على الإيمان (ربما خشية السيف) ثم ارتابوا، فلئن دخل الإيمان فإن أفكار الكفر السابقة لم تخرج، فوُجدت الريبة.

لذا قال: [وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] لأنه لا يدخل إلا إلى قلوب مهيّأة له خالية من غيره، فيعلمهم كيف يكون الإيمان صادقاً لا يكفي فيه الادعاء بالإيمان مع الريبة.

ووجود [لمّا] لا يقطع الطريق عليهم بل يبين أنهم قريبون منه إن التزموا ما أمرهم به.

قال ابن تيمية: (وهذا الحرف أي "لمّا" ينفى به ما قرب وجوده وانتظر وجوده ولم يوجد بعد فيقول لمن ينتظر غائباً أي لما ويقول قد جاء لما يجيء

---

٣٠٦) تفسير ابن عطية ١٣ /٥١٩

بعد فلما قالوا آمنا قيل لم تؤمنوا بعد بل الإيمان مرجو منتظر منهم ثم قال وان تطيعوا اللّه ورسوله لا يلتكم أي لا ينقصكم من أعمالكم المثبتة شيئاً أي في هذه الحال فإنه لو أرادوا طاعة اللّه ورسوله بعد دخول الإيمان في قلوبهم لم يكن في ذلك فائدة لهم ولا لغيرهم إذ كان من المعلوم أن المؤمنين يثابون على طاعة اللّه ورسوله وهم كانوا مقرين به إ.هـ.) أي لولا أنهم في حالهم تلك لا ثواب لهم لما أخبرهم بأمر معلوم بالضرورة أنه من عمل مؤمناً سيُثاب.

[قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللّه بِدِينِكُمْ وَاللّه يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللّه يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ] ١٧الحجرات يمن عليكم أن هداكم للإيمان، فهو علمكم كيف يكون الإيمان حقيقة كذلك، لا كما تدّعون وتريدون أن تعلموا اللّه بدينكم!

هذه هي الهداية، إذا أطعتم اللّه ورسوله وانتفت الريبة من قلوبكم، وجاهدتم فهذا هو الصدق في الإيمان.

إذن هل ما رآه ابن تيمية بقوله أن عندهم الإسلام الظاهر مع تصديق القلب ولكن لم يقوموا بما يجب عليهم من الإيمان الباطن، هل هو حق؟

أرى أنه غير دقيق البتة، فهل من كان في قلبه ريبة نقول أن عنده تصديق القلب، فالتصديق (أصل التصديق) إذا ما داخله شك انتفى فهو لا يتبعض فلا يتصور وجود مصدق يرتاب فيما يصدق به، وبالتالي إذا لم يكن مصدقاً فليس عنده أصل الإيمان، وأما الإيمان الباطن المذكور فكيف يقوم إذا كان أصله وهو التصديق غير موجود؟

إذن فالتفريق هنا بين المؤمن والمسلم إنما هو بالنسبة لأحكام الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يعامل كل من شهد لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة بلسانه وعمل من ظاهر الأعمال أعمال المسلمين ولم يعمل ما عليه نص بأنه كفر فنأخذ بالظاهر. والله أعلم.

وتظهر الحكمة من هذا الحكم في حديث عُبَيْدِ اللَّه بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْخِيَارِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ حَدَّثَهُ أَتَى رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي مَجْلِسٍ فَسَارَّهُ يَسْتَأْذِنُهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ مِنْ الْمُنَافِقِينَ فَجَهَرَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه قَالَ الْأَنْصَارِيُّ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه وَلَا شَهَادَةَ لَهُ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه قَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه وَلَا شَهَادَةَ لَهُ أَلَيْسَ يُصَلِّي قَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه وَلَا صَلَاةَ لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَهَانِي اللَّه عَنْهُمْ. أحمد باقي مسند الأنصار، (ولم ينكر الرسول عليه السلام ما وصفه من صفات أنه لا شهادة له...الخ)

وحادثة أسامة ين زيد رضي اللّه عنه مثال ذلك، فبعد أن قتل الرجل قَالَ له رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّه وَقَتَلْتَهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللّه إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلَاحِ قَالَ أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا، مسلم كتاب الإيمان وأحمد مسند الأنصار أي أقال قلبه لا إله إلا اللّه، أي أكان صادقاً في ادعائه أم لا، وهو محور الحديث هنا، نحن لا نعلم ما في القلوب.

وهذا هو فهم الصحابة عليهم رضوان اللّه تعالى:

عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ عَبْدَ اللّه بْنَ عُتْبَةَ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللّه عَنْهُ يَقُولُ إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ اللّه يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ. البخاري كتاب الشهادات

عَنْ أَبِي فِرَاسٍ قَالَ خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللّه عَنْهُ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ بَيْنَ ظَهْرَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ وَإِذْ يُنْبِئُنَا اللّه مِنْ أَخْبَارِكُمْ أَلَا وَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ

انْطَلَقَ وَقَدْ انْقَطَعَ الْوَحْيُ وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا نَقُولُ لَكُمْ مَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ لَنَا شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ سَرَائِرُكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَتَى عَلَيَّ حِينٌ وَأَنَا أَحْسِبُ أَنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ اللَّهَ وَمَا عِنْدَهُ فَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ بِآخِرَةٍ أَلَا إِنَّ رِجَالًا قَدْ قَرَءُوهُ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ فَأَرِيدُوا اللَّهَ بِقِرَاءَتِكُمْ وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ. احمد مسند العشرة المبشرين بالجنة.

وما أدق الرأي الذي روي عَنْ حُذَيْفَةَ أنه قَالَ إِنَّمَا كَانَ النِّفَاقُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَّا الْيَوْمَ فَإِنَّمَا هُوَ الْكُفْرُ بَعْدَ الْإِيمَانِ. البخاري كتاب الفتن.

فالمنافق لا يُظهر إلا الإسلام ونحن لا نستطيع الحكم عليه بالنفاق إلا بعلامات ظاهرة في سلوكه، وقد انقطع الوحي الذي يُعلمنا بما في القلوب.

نفهم هذا من قول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ.

وما أدق استعمال مسلم هنا لأن الحكم بالإيمان ليست من اختصاص الغير كما أن الرسالة هنا لكل مسلم أن يعلم من سريرة نفسه ليحكم على

نفسه ويحكم عليه من يعلم فيه ذلك فهذه أمارات ظاهرة تفضح كذب الباطن، ولعله هنا النفاق الأصغر.

عَنْ شَقِيقٍ قَالَ دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَقَالَ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَخْشَى أَنْ أَكُونَ قَدْ هَلَكْتُ إِنِّي مِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا بِعْتُ أَرْضًا لِي بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَالَتْ أَنْفِقْ يَا بُنَيَّ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ مِنْ أَصْحَابِي مَنْ لَا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ أُفَارِقَهُ فَأَتَيْتُ عُمَرَ فَأَخْبَرْتُهُ فَأَتَاهَا فَقَالَ بِاللَّهِ أَنَا مِنْهُمْ قَالَتْ اللَّهُمَّ لَا وَلَنْ أُبَرِّئَ أَحَدًا بَعْدَكَ. أحمد. باقي مسند الأنصار.

قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَيُذْكَرُ عَنْ الْحَسَنِ مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ. البخاري. كتاب الإيمان.

فالله هو الذي يُعْلِم المسلمين بأن هذا الشخص منافق أما نحن فلا نستطيع حتى أن نحكم على أنفسنا، نسأل الله العافية.

من هنا كان موضوع التفريق بين المؤمن والمسلم الوارد في الكتاب والسنة إنما كان بياناً للمسلمين بعد انقطاع الوحي بأن لا يتهم بعضهم بعضاً فيقع القتل والتكفير والفتن، وأن عليهم الأخذ بالظاهر، اللهم إلا أن

يكون المرء قد أتى بقول أو بفعل يخرجه من الدين مما في كفره به نص، كالجحود أو الحكم بغير ما أنزل الله معتقداً مصرّحاً بأن حكمه أفضل وما إلى ذلك مما يخرج من الملة أو يدخل في الكفر أو النفاق بأنواعهما وقد أفاض العلماء في هذا.

على أن العلامة ابن تيمية ذهب إلى هذا في مقام آخر فقال: (وجماع الأمر أن الاسم الواحد ينفى ويثبت بحسب الأحكام المتعلقة به فلا يجب إذا أثبت أو نفي في حكم أن كذلك في سائر الأحكام وهذا في كلام العرب وسائر الأمم لأن المعنى مفهوم مثال ذلك المنافقون قد يجعلون من المؤمنين في موضع وفى موضع آخر يقال ما هم منهم قال الله تعالى [قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا] ١٩ الأحزاب فهنالك جعل هؤلاء المنافقين الخائفين من العدو الناكلين عن الجهاد الناهين لغيرهم الذامين للمؤمنين منهم، وقال في آية أخرى [وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ] ٥٧ التوبة وهؤلاء ذنبهم أخف فإنهم لم يؤذوا المؤمنين لا بنهي ولا سلق بألسنة حداد ولكن

حلفوا بالله أنهم من المؤمنين في الباطن بقلوبهم وإلا فقد علم المؤمنون انهم منهم في الظاهر فكذبهم الله وقال وما هم منكم وهناك قال قد يعلم الله المعوقين منكم فالخطاب لمن كان في الظاهر مسلماً مؤمناً وليس مؤمناً بأن منكم من هو بهذه الصفة وليس مؤمناً بل أحبط الله عمله فهو منكم في الظاهر لا الباطن ولهذا لما استؤذن النبي في قتل بعض المنافقين قال لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه فانهم من أصحابه في الظاهر عند من لا يعرف حقائق الأمور وأصحابه الذين هم أصحابه ليس فيهم نفاق.)[٣٠٧]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه قَالَ كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْجِعْرَانَةِ وَهُوَ يَقْسِمُ فِضَّةً فِي ثَوْبِ بِلَالٍ لِلنَّاسِ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّه اعْدِلْ فَقَالَ وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ لَقَدْ خِبْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّه دَعْنِي أَقْتُلْ هَذَا الْمُنَافِقَ فَقَالَ مَعَاذَ اللَّه أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ أَوْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ. أحمد باقي مسند المكثرين.

بقيت مسألة تخص الآيات من الحجرات: تذكر قول الزمخشري: (واستغنى بالجملة التي هي [لم تؤمنوا] عن أن يقال: لا تقولوا آمنا، لاستهجان أن

---

٣٠٧) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٢٠

يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصدرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل: ولكن أسلمتم، لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به.)

فلم يسلم لهم بأنهم مسلمين، بل قال لهم قولوا أسلمنا، فهو حتى ضن عليهم ومنع من أن يوصفوا بالمسلمين، ولو قال لهم ولكن أسلمتم لثبت أنهم مسلمين، وهذا المعنى الدقيق يضاف دليلا آخر على أن المسلم حقاً لا بد من أن يكون مؤمناً. والله أعلم.

ونحتاج هنا إلى النظر إلى آية أخرى مشابهة [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٧٣ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ] ٧٤ التوبة، هذه الآية أيضاً وصفتهم بأنهم كفروا بعد إسلامهم، وفي استعمال الإسلام وصفاً لحالهم دون الإيمان دقة، فما هم بالمؤمنين، ولكن هل وصف إسلامهم يفضي إلى إثبات أنهم مسلمون؟ بالطبع لا فصدر الآية بين أنهم كفار ومنافقون، فصفة إسلامهم كصفتها عند الأعراب، بدليل قوله تعالى: [فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ] الآية ٢٠ آل عمران، فما عندهم من الإسلام ليس ذلك الذي فيه الهداية التي بها

يستحق لقب المسلم، قال تعالى [وَلاَ يَأْمُرَكُم أن تَتَّخِذُواْ الْـمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ] ٨٠ آل عمران.

ولعل وصف كفرهم بعد إسلامهم يعني أن فيهم من يُرجى إسلامه، قال تعالى في آل عمران [وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ]...[هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ] الآية ١٦٧ آل عمران، فقوله نافقوا يدل على أن النفاق في بعضهم ليس صفة راسخة كما وصف في الآية السابقة المؤمنين بقوله [وَلِيَعْلَمَ الْـمُؤْمِنِينَ] ١٦٦آل عمران.

لكن الأدق القول أن وصف إسلامكم يفضي إلى التعريض بأن هذا الإسلام يخصهم وليس بالضرورة أن يكون عَلَماً على الإسلام الذي هو هداية اللّه، فهو إسلامهم هم يفهمونه كما يشاءون يشبه ذلك قول الحق سبحانه [قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ] ٩٣ البقرة.

المطلب الخامس: حديث سعد رضي الله عنه:

ويؤكد هذا الأحاديث الواردة أعلاه حديث سعد مثلا: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللّه مَالَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَاللّه إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا فَقَالَ أَوْ مُسْلِمًا؛ فهذا رسول اللّه عليه السلام يعلم بما علمه اللّه، لاحظ تعليل رسول اللّه عليه السلام لسعد: إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللّه فِي النَّارِ، فقد نفى عن الرجل صفة المؤمن وبيَّن أنه يعطي غيره ليتألف قلبه (أي قلب الغير لا قلبه هو) خشية أن يكبه (والهاء عائدة على الغير لا عليه) اللّه في النار، أما هو فلا يعطيه ليتألفه كأني به لا يرجو فيه خيراً، لكنه يُعلِّم سعداً أن يصفه بأنه مسلم، لاحظ أنه ثلاث مرات عدّل في حكم سعد فيه، أصر عليه ألا يصفه بالمؤمن ثلاثاً وأعطى المؤلفة قلوبهم ومنعه، فلا مجال للقول بأنه مؤمن.

هذا فهم لحديث سعد، وهو محتمل، ولكن الفهم الأدق هو أنه -أي الرجل- كان مؤمناً، وكل ما في الأمر أن الرسول عليه السلام أراد أن يعلم سعداً أن لا يزكي على اللّه أحداً، خاصة بهذه الصيغة المحتوية على الجزم والتوكيد والقسم.

أنظر إلى قول سعد رضي اللّه عنه: فَوَاللّه إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فاء الاستئناف للدلالة على أهمية ما يتبعها، ثم واو القسم والقسم باللّه تعالى، ثم أسلوب التوكيد إني لأراه، ولم يقل إني أراه، مؤمناً، هذه الصيغة العجيبة من سعد

رضي الله عنه، دفعت الرسول عليه السلام إلى أن يعلمه أنه لا يعلم الباطن، فلا يحكمن على أحد بما في قلبه (والإيمان عمل قلبي) وبالتالي قال له أو مسلماً.

لاحظ ما يلي لإثبات أن الرجل كان –ولا نزكي على الله أحداً- مؤمناً:

أولا: هذه الصيغة التي حكم بها عليه سعد ما جاءت من فراغ، بل لمس منه ما لمس، ما دفعه إلى أن يغار عليه، ويتمنى له الخير، لا بل ويصر ثلاثاً على رسول الله عليه السلام أن يعطيه ليتألف قلبه.

ثانياً: لم يعطه الرسول عليه السلام عطاء المؤلفة قلوبهم، وذلك يعني إما أنه لا يتأمل فيه الخير، وإما أنه أعلى درجة منهم، أما وقد علل بقوله: يَا سَعْدُ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، بين أن هذا الغير أحب إليه من المؤلف قلبه، فهذا يثبت أنه أعلى منه منزلة، أقرب إلى قلب المصطفى عليه السلام، فلم يعطه لأنه وكله إلى إيمانه، ولأنه رأى أنه تجاوز مرحلة المؤلفة قلوبهم.

ثالثاً: أنظر إلى التعليل الآخر من قوله عليه سلام الله: خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللّه فِي النَّار، أي خشية أن يكب الله تعالى هذا المؤلف قلبه في النار، أما هذا الذي هو أحب إلي منه فإني لا أخشى أن يكبه الله في النار، ومن كانت هذه صفته فلا شك أنه مؤمن.

رابعاً: نفهم ضمناً أن الرسول الكريم لا يخشى على هذا الرجل من النار، وبالجمع مع الأحاديث التي تبين أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، نتبين أن الرجل مؤمن.

خامساً: لم ينف الرسول عليه السلام عنه الإيمان بقوله لا تقل مؤمناً مثلا، نظير قول الله تعالى للأعراب: [لم تؤمنوا]، بل كل ما قاله عنه: أو مسلم، مما يؤكد أن الحكمة من ذلك هي فقط قضية التزكية على الله.

سادساً: ويثبت ذلك أنه خشي على هذا الذي أعطاه أن يكبه الله في النار ولم يخش على هذا الذي هو أحب إليه منه، أفيعقل أن يخشى على من هو أقل منزلة ولا يخاف على من هو أعلى منزلة؟ لا بد إذن من أن ما لدى هذا الرجل من الإيمان دفع الرسول عليه السلام إلى أن يكله إليه.

سابعاً: نتذكر أن الأنصار في حنين لما وزع الرسول عليه السلام الغنائم ولم يعطهم، وجدوا في أنفسهم وصارحوا الرسول عليه السلام فبين لهم أنه وكلهم لإيمانهم، وقياساً على ذلك فهذا الرجل وكله إلى إيمانه.

تأمل الحديث مرة أخرى:

عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللّه عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ فَتَرَكَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللّه مَالَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَاللّه إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا فَقَالَ أَوْ مُسْلِمًا

فَسَكَتُّ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي فَقُلْتُ مَالَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا فَقَالَ أَوْ مُسْلِمًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ يَا سَعْدُ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ. البخاري كتاب الإيمان.

نتذكر قول ابن تيمية رحمه الله هنا: (فأجاب سعد بجوابين أحدهما أن هذا الذي شهدت له بالإيمان قد يكون مسلماً لا مؤمناً الثاني إن كان مؤمناً وهو أفضل من أولئك فأنا قد أعطي من هو أضعف إيماناً لئلا يحمله الحرمان على الردة فيكبه الله في النار على وجهه وهذا من إعطاء المؤلفة قلوبهم. إ.هـ) بل الدقيق أن وصفه بالإسلام ليس لأنه ليس مؤمناً، بل فقط موضوع التزكية، وقد ثبت أنه لا يخاف عليه من النار، وبالتالي لا بد أن يكون مؤمناً.

المطلب السادس: البحث في أحاديث المصطفى عليه السلام في هذه المسألة:

فإذا ثبت ذلك بالنسبة لآيات الحجرات، فليكن مدار الحديث الآن أحاديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، التي على أساسها ذهبوا إلى أن الإسلام ثلاث درجات: مسلم فمؤمن فمحسن، وأهم ما أركز عليه هو: هل يكون المرء مسلماً ولا يكون مؤمناً؟

أولا نحن نثبت التفاضل بين المسلمين في إسلامهم وإيمانهم وإحسانهم، ولكن هل هذا التفاضل يثبت وجود هذه المراحل؟

لعلنا لا نختلف بالنسبة للإحسان، فليس كل مسلم ولا كل مؤمن محسناً، فهي منزلة يصلها المرء ببلوغه أن يعبد اللّه كأنه يراه.

لكن ما لا يمكن تصوره هو وجود مسلم حقاً أي غير منافق ولا كاذب في دعواه، لا يكون مؤمناً. وهو مدار الحديث في هذا الفصل.

الأئمة الأعلام بينوا أن جواب رسول اللّه عليه سلام اللّه بأن الإيمان كذا وأن الإسلام كذا يعني أن من فعل ذلك كان مؤمناً ومن فعل ذلك كان مسلماً، ولا خلاف، وبالتالي لا يمكن أن نتصور مسلماً ليس بمؤمن لأنه لا يكون مؤمناً إلا بالإيمان بأركان الإيمان فإن انتفى ركن منها لم ينزل إلى مرتبة الإسلام بل يدخل مباشرة في الكفر!

تأمل حديث رسول الله عليه السلام مع وفد عبد القيس: أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا الْخُمُسَ مِنْ الْمَغْنَمِ ... قَالَ احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ. مسند أحمد من مسند بني هاشم.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيتِهِنَّ وَصَامَ رَمَضَانَ وَحَجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَأَعْطَى الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ. أبو داود وفي صحيح الترغيب.

وهذا يثبت تداخل الأمرين فالإسلام هو الإيمان، كما أنه عرف الإيمان بأنه أركانه المعروفة فقد عرف الإيمان هنا بما عرف به الإسلام، (ارجع إلى الملاحظات الواردة في بداية فصل: ما أراه في هذه المسألة أعلاه).

والحديث الثاني يبين أن الأساس هو الإيمان فإن الأعمال الظاهرة بلا إيمان لا تدخل الجنة.

إذن فالمسلمون يتفاضلون في دينهم بين تقي وأتقى ولكن لا على أساس أنهم مسلم فمؤمن فمحسن، بحيث يكون المسلم غير مؤمن، واللّه أعلم.

وقال عليه السلام قال: وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا. أحمد باقي مسند المكثرين.

وقَالَ عليه السلام: لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ. مسلم كتاب الإيمان، فتداخل اللفظان مرة أخرى في فضائل الأعمال.

المدار السابع للنقاش، حديث الرسول الأكرم عليه السلام:

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللّه مَا الْإِسْلَامُ قَالَ أَنْ يُسْلِمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ عزَّ وجَلَّ وَأَنْ يَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ قَالَ فَأَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ قَالَ الْإِيمَانُ قَالَ وَمَا الْإِيمَانُ قَالَ تُؤْمِنُ بِاللّه وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ قَالَ فَأَيُّ الْإِيمَانِ أَفْضَلُ قَالَ الْهِجْرَةُ قَالَ فَمَا الْهِجْرَةُ قَالَ تَهْجُرُ السُّوءَ قَالَ فَأَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ قَالَ الْجِهَادُ قَالَ وَمَا الْجِهَادُ قَالَ أَنْ تُقَاتِلَ الْكُفَّارَ إِذَا لَقِيتَهُمْ قَالَ فَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ قَالَ مَنْ عُقِرَ جَوَادُهُ وَأُهْرِيقَ دَمُهُ قَالَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ عَمَلَانِ هُمَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ بِمِثْلِهِمَا حَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ أَوْ عُمْرَةٌ. مسند أحمد مسند الشاميين

فهل يثبت هذا الحديث مراتب مسلم فمؤمن فمهاجر فمجاهد فشهيد وحاج معتمر مبرور الحج قام بالمراتب السابقة وزاد عليها الحج والعمرة.

إذا ما أثبت ذلك فهل يثبت أن المرء قد يكون مسلماً وليس بمؤمن؟

لنتذكر قول الحق سبحانه وتعالى [إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللّه كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللّه لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا] ٣٥ الأحزاب.

قد يكون الجامع المشترك بين الآية والحديث هو أن هذا هو سلم الرقي الذي على المسلم أن يسلكه، والسؤال هنا هل يمكن لمن كان بمرحلة لاحقة أن يتخلف عن السابقة كأن لا يكون الخاشع صابراً مثلا في الآية، وحيث أنه يمكن مثلا للشهيد في الحديث أن لا يكون مهاجراً (هجر السوء، وهو أمر فضفاض لا أعلم كيف أضبطه وصفاً على المؤمنين، أو درجة لاحقة للإيمان فالكل خطّاء، ولعل المقصود منه والله أعلم: من جعل ديدنه هجر السوء فإن وقع فيه تاب، وواضح أنه يعني أن ينعكس الإيمان في واقع الحياة)، وحيث لا يمكن أن نتصور مسلماً لا يؤمن بالله وباليوم الآخر فهذا يدل على أن المقصود ليس إنشاء سلم بل بيان فضائل أعمال والله أعلم.

كما أننا بتتبع أحاديث المصطفى عليه السلام نستطيع إنشاء سلالم أخرى، ونستنبط منها ألقاباً أخرى والدليل أنه من حديث جبريل استنبط الدرجات الثلاث، وهنا استنبطنا هذه الأربع، واختفت هنا درجة الإحسان، وقد فسر رحمه الله الآية التالية على أنها تتناول الدرجات الثلاث: [ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ] ٣٢ فاطر، فالظالم

لنفسه من أتى بالإسلام الظاهر مع تصديق القلب، لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن[٣٠٨].

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ فَقَالَ إِيمَانٌ بِاللَّه وَرَسُولِهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ حَجٌّ مَبْرُورٌ. البخاري كتاب الإيمان، ففي هذا الحديث فضل الإيمان على الجهاد والحج.

عَنِ الشِّفَاءِ بِنْتِ عَبْدِ اللَّه وَكَانَتْ امْرَأَةً مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ قَالَتْ إِنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ فَقَالَ إِيمَانٌ بِاللَّه وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَحَجٌّ مَبْرُورٌ. أحمد. باقي مسند الأنصار. وهنا عطف الأعمال السابقة على بعضها.

عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ قَالَ تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرِفْ. البخاري كتاب الاستئذان. عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا قَالَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ بِرُّ

---

٣٠٨) الإيمان. ابن تيمية. تحقيق السبابطي. ص ١١. دار الحديث.

الْوَالِدَيْنِ قَالَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه فَمَا تَرَكْتُ أَسْتَزِيدُهُ إِلَّا إِرْعَاءً عَلَيْهِ. مسلم. كتاب الإيمان.

وواضح أن هذا مما يناسب حال السائلين فالسائل الذي يستثقل الجهاد يخبره أن الجهاد أفضل الأعمال، له ولمن هو على شاكلته، ويرشد ضعيف الإيمان إلى هذا الأمر المهم، وهكذا، فالإسلام كلٌ متكامل، مع التسليم بتفاضل الأعمال، والله أعلم.

قال الكشميري في فيض الباري: باب مَنْ قَالَ: إنَّ الإيمَانَ هُوَ العَمَل: وبعدُ الشيخ قطب الدين في بيان الغرض حيث قال: إن المصنف رحمه الله تعالى انتقل إلى الرد على المرجئة القائلين بأنه القول بلا إله إلا الله فقط، فقال رداً عليهم: إنه عملٌ وليس بقول فقط. وعندي قد فرغ عنه المصنف رحمه الله تعالى من قبل، وإنما يريد الآن النصَّ على أن الإيمانَ عملُ القلب كما كان نصَّ أولاً على أن المعرفة فعل القلب والعملُ لا يكون إلا اختيارياً، فالإيمان أيضاً فعلٌ اختياري، ووجه الإشارة أنه قصرَ الإيمانَ على العمل، أي أن الإيمان مقصورٌ على كونه عملاً لا يتجاوزَ إلى صفة أخرى، من كونه علماً أو غيره، ولا شك في أنه عملُ القلب، وأما من فسره بالمعرفة، فأراد بها ما تستوجبُ العمل، ولا ما تجامعُ الجحود، كما مرّ ولو كان غرضُ المصنف رحمه الله تعالى ما فَهِمُوه لقال: إن الإيمانَ عملٌ بدون القصر، لأن القصرَ إما قصر قلب أو إفراد ولا يصح واحدٌ منهما؛ لأن المعنى على الأول: أن الإيمانَ عملٌ

ليس بقول، وعلى الثاني: أنه عملٌ وليس بمجموع القول والعمل، وكلاهما خلافُ المراد. وأما قصر التعيين فلا يحتملُه المقام. ومنه ظهرت المناسبة بين الآيات، والحديث، والترجمة، فإنها أطلقت العمل على الإيمان، بمعنى أن الإيمانَ من أكبر الأعمال، لا أن قوله تعالى: {بِمَا تَعْمَلُونَ} منحصرٌ في الإيمان، وكذا سُئل النبي صلى اللّه عليه وسلّم عن الأعمال، وأجاب بالإيمان، فاتَّضَحَ أن الإيمانَ عملٌ.[٣٠٩]

المحور التالي للنقاش هو

ورود الإسلام والإيمان في آية واحدة هل هو دليل على أنهما مختلفان أو متفاوتان

-وإلا فما الداعي إلى التكرار- على الشكل الذي بينوه؟.

ولا شك أنهما متمايزان لا على إطلاق هذا القول، ولكن لا بد من فهم ذلك كله على أساس من الانسجام، والتدبر، والدقة.

ولا يهمني في هذا المقام إلا إثبات أن المسلم الذي ليس بالمنافق لا بد من أن يكون مؤمناً.

---

٣٠٩) فيض الباري للكشميري كتاب الإيمان.

فقول الله تعالى [آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ] ٢٨٥ البقرة يدفعنا إلى فهم أن الإيمان المقبول هو ذلك التام المستغرق لأركان الإيمان جميعها ليحصل به لقب المؤمن، (وسنناقش إن شاء الله هل يجب للحصول على لقب المؤمن أن يصاحب الإيمان العمل والحب ومستلزمات أخرى بصفة معينة، لأن هذا هو الشكل الوحيد المحتمل لوجود مسلم غير مؤمن لاحقاً).

فإذا علمنا ذلك، تساءلنا ما معنى قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ١٣٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً] ١٣٧ النساء.

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ] فكيف يصفهم بالإيمان ويطلب منهم الإيمان بالله ورسوله وأركان الإيمان؟ ألم يحصلوا على لقب المؤمنين، فكيف بلغوه وهو يطلب منهم بعد ذلك أن يؤمنوا بالله ورسوله؟ وستكون هذه الآيات محور فصل خاص بإيمان أهل الكتاب، لكن لو افترضنا أن الخطاب هنا يخص طائفة من أهل الكتاب كانوا على الدين الحق الذي أنزل على موسى عليه السلام مثلا وعيسى عليه السلام من بعده ثم جاءهم النبي

الأكرم عليه السلام فعليهم أن يؤمنوا به، ولكن الإشكال هنا كيف يقول لهم ءامِنوا بالله؟

فإذا كان عندهم أي تصور مغلوط عن الله لا يمكن أن يصفهم بأنهم مؤمنون بالله، وإذا كان تصورهم صحيحاً وقع التكرار الذي نَفِرّ منه، فالإشكال قائم سواء أكان المقصود نحن المسلمين أو أهل الكتاب.

صحيح أنه قبلها بآيات قال تعالى [وَلِلّهِ مَا فِي السمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا] ١٣١، وبعدها قال تعالى [إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا] ١٣٣، لكنه بعد ذلك خص المؤمنين بالخطاب، فالتهديد بأن من يكفر شامل الناس كافة، لكن الخطاب بعده خاص بالمؤمنين، ومنه خطابهم بأن يؤمنوا، فالسياق يتحدث عن الإيمان والكفر، فهل نقول أن تكرار ذكر الإيمان في أمر تحقق فيه الإيمان نظير ذكر الإسلام والإيمان في آية واحدة؟

لعل أحد الأسرار في هذا البيان القرآني المعجز أن محور الحديث هو الإيمان والكفر، فقد ذكر في الآية اللاحقة مباشرة: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ

سَبِيلاً] ١٣٧ النساء فلعل الخطاب يا أيها الذين ءامنوا اثبتوا على إيمانكم بالله ورسوله ولا ترتدوا على أعقابكم كافرين، وبيان ذلك هو أن الخطاب بأن يا أيها الذين ءامَنوا إجمالاً ءامِنوا تفصيلاً، وتفكروا في الآيات التي توصلكم إلى أعلى درجات الإيمان بالله وبرسوله وبالقرآن، أي بعد أن ثبت لكم أن الرسول صادق في دعواه وجاءكم بأدلة ومعجزات تثبت صدقه فحصل لكم الإيمان، تفكروا في المزيد من الأدلة والآيات التي تزيدكم طمأنينة إلى هذا الإيمان، فيحصل لكم الإيمان الراسخ، ولا تكتفوا بالإيمان إذا لم يكن راسخاً فيكون صاحبه عرضة للتقلبات وبالتالي الدخول في الكفر وهذا ما يناسب السياق.

ولعل المقصود منها أيضاً من آمن بما جاءه من الإيمان عليه أن يؤمن بما تلا ذلك من أحكام وأفكار الدين التي نزلت بعد ذلك ليكمل إيمانه، تذكر قول الإمام أحمد (كان بدء الإيمان ناقصاً فجعل يزيد حتى كمل ولهذا قال تعالى عام حجة الوداع [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي]).

ولعل المقصود منها: يا أيها الذين آمنوا لا تبعضوا إيمانكم فتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، بل آمنوا بكل ما طلب منكم الايمان به، ألا ترى أنه فصل ما عليهم أن يؤمنوا به بعد ذلك؟ وإلا فمن بعض الإيمان كفر.

ولعل المقصود منها على من آمن من أهل الكتاب حتى لحظة نزول الوحي أن يؤمن بما استجد من الدين ببعث الرسول عليه السلام، وهذا سيتبين بحول الله في شرح هذه الآية في فصل إيمان أهل الكتاب.

خلاصة الكلام فيما يخص موضوع الحديث أن التكرار يمكن أن يفهم دون أن يدل على التمايز، فليس لازماً أن وجود مسلم ومؤمن في آية واحدة أنها تتحدث عن شيئين مختلفين بل يمكن فهمها بشكل يناسب الآيات، إذن فلا يمكن أن لا يكون المسلم مؤمناً، على الصورة التي ذكروها، والله أعلم.

علماً بأننا نقول هنا ما يقول به علماؤنا الأفاضل (أعني ابن تيمية والغزالي وغيرهما ممن سبق النقل عنهم) من أن وجود اللفظين يدلان على التمايز في الاختصاص كما سيأتي بحول الله تعالى.

ويبقى أن نتساءل هل نقص كمال الإيمان يعني أن يكون المرء مسلماً غير مؤمن، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان ذلك بعد ذكر حجة ابن تيمية رحمه الله في الفصل الخاص بتبعض الإيمان، فارجع إليه. مع ملاحظة أن العلامة أورد العبارة التالية في كتابه القيِّم: الإيمان قال (فإذا كان كل مؤمن مسلماً وليس كل مسلم مؤمناً الإيمان الكامل كما دل عليه حديث جبريل،

وغيره من الأحاديث مع القرآن) ...الخ.[٣١٠] وهذا ما نريد أن نحصر فيه فهم المسلم غير المؤمن (إيماناً كاملا). وقال رحمه الله ما نسعى إلى إثباته: (وليس في الكتاب والسنة المظهرون للإسلام إلا قسمان: مؤمن أو منافق، فالمنافق في الدرك الأسفل من النار، والآخر مؤمن، ثم قد يكون ناقص الإيمان فلا يتناوله الاسم المطلق، وقد يكون تام الإيمان، لكن المقصود هنا أنه لا يجعل أحد بمجرد ذنب يذنبه ولا ببدعة ابتدعها ولو دعا الناس إليها –كافراً في الباطن، إلا إذا كان منافقاً).[٣١١]

---

٣١٠) الإيمان. ابن تيمية. ص ٤٠٧ طبعة دار الحديث تحقيق السبابطي

٣١١) الإيمان. ابن تيمية. ص ٢١٦ طبعة دار الحديث تحقيق السبابطي

المطلب الثامن: لا يزني الزاني وهو مؤمن:

وقال ابن تيمية رحمه الله: وقال محمد بن نصر المروزي: وحكى غير هؤلاء أنه سأل أحمد بن حنبل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن" فقال: من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن فهو مسلم ولا أسميه مؤمناً، ومن أتى دون ذلك [يقصد دون الكبائر] أسميه مؤمناً ناقص الإيمان.[٣١٢]

عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَكِنَّ التَّوْبَةَ مَعْرُوضَةٌ وَفِي الْبَاب عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ أَبُو عِيسَى حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا زَنَى الْعَبْدُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ فَوْقَ رَأْسِهِ كَالظُّلَّةِ فَإِذَا خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ عَادَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذَا خَرَجَ مِنْ الْإِيمَانِ إِلَى الْإِسْلَامِ. الترمذي كتاب الإيمان عن رسول الله. أَنَّ سَعِيدَ بْنَ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

---

٣١٢) الإيمان. ابن تيمية. تحقيق السبابطي. ص ٢٤٨

وَسَلَّمَ إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ كَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ فَإِذَا انْقَطَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ. أبو داود كتاب السنة.

وهذا يثبت أن الإيمان يعود إليه حين ينتهي من فعلته، فكيف نسلبه إياه مطلقاً؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ كُلَّهُ حَتَّى يَتْرُكَ الْكَذِبَ فِي الْمُزَاحَةِ وَيَتْرُكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا. أحمد. باقي مسند المكثرين.

وحَدَّثَنِي مَالِك عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ أَنَّهُ قَالَ قِيلَ لِرَسُولِ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا فَقَالَ نَعَمْ فَقِيلَ لَهُ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا فَقَالَ نَعَمْ فَقِيلَ لَهُ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا فَقَالَ لَا. موطأ مالك. كتاب الجامع. عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ. مسند أحمد. باقي مسند الأنصار. فهذه كلها من صفات المؤمن بعد أن يصبح شخصية إسلامية، لا يتصور منه الزنى ولا شرب الخمر إذ نهاه اللّه عنها، فإذا ما أخطأ وارتكب شيئاً منها خرج من كونه شخصية إسلامية لتعود إليه عند التوبة أو الانقطاع عنها ما لم يتخذها ديدناً.

عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ. البخاري. / المظالم والغصب.

ومهم هنا أن نبين أن المسلم لا بد أن يجعل من عقيدته محركا له في الحياة وأن يربط مفاهيمه بسلوكه ارتباطا حتميا وأن يجعل العقيدة الاسلامية قيادته الفكرية في الحياة.

باب: أيقول المؤمن أنا مؤمن:

قال أبو محمد: واختلف الناس في قول المسلم: أنا مؤمن فروينا عن ابن مسعود وجماعة من أصحابه الأفاضل ومن بعده من الفقهاء أنه كره ذلك وكان يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، وقال بعضهم آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكانوا يقولون: من قال أنا مؤمن فليقل أنه من أهل الجنة. قال أبو محمد: فهذا ابن مسعود وأصحابه حجج في اللغة فأين جهال المرجئة المموهون اللغة في نصر بدعتهم، قال أبو محمد والقول عندنا في هذه المسألة أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه، فإنه كان يدري أنه مصدق بالله عز وجل وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبكل ما أتى به عليه السلام وأنه يقر بلسانه بكل ذلك فواجب عليه أن يعترف بذلك كما أمر تعالى إذ قال تعالى [وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ] ١١ الضحى قال تعالى [قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] ١٣٦ البقرة وقول ابن مسعود عندنا صحيح لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما في اللغة إلى جميع البر والطاعات فإنما منع ابن مسعود من القول بأنه مسلم مؤمن على أنه مستوف لجميع الطاعات وهذا صحيح، ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك وما منع رضي الله عنه من أن يقول المرء: إني مؤمن بمعنى مصدق، كيف وهو

يقول: قل ءامنت بالله ورسله: أي صدقت. وأما من قال فقل إنك في الجنة فالجواب أننا نقول: إن متنا على ما نحن عليه الآن فلا بد لنا من الجنة بلا شك، وبرهان ذلك أنه صح من نصوص القرآن والسنن والإجماع أن من آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبكل ما جاء به ولم يأت بما هو كفر فإنه في الجنة إلا أننا لا ندري ما يفعل بنا في الدنيا، ولا نأمن مكر الله تعالى ولا إضلاله ولا كيد الشيطان ولا ندري ماذا نكسب غداً ونعوذ بالله من الخذلان[٣١٣]

وقال الغزالي رحمه الله: فإن قلت: ما وجه قول السلف: أنا مؤمن إن شاء الله، والاستثناء شك والشك في الإيمان كفر، وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه. فقال سفيان الثوري رحمه الله: من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين، ومن قال أنا مؤمن حقاً فهو بدعة. فكيف يكون كاذباً وهو يعلم أنه مؤمن من نفسه، ومن كان مؤمناً في نفسه كان مؤمناً عند الله؟ ولو قيل للإنسان هل أنت حيوان لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله! ولما قال سفيان ذلك قيل له فماذا نقول؟ قال: قولوا ءامنا بالله وما أنزل إلينا، وأي فرق بين أن يقول آمنا بالله وأن يقول أنا مؤمن؟

---

٣١٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل. ابن حزم ٣/٢٦٩ -٢٧٢

وقيل للحسن: أمؤمن أنت؟ فقال: إن شاء اللّه، فقيل له: لم تستثني يا أبا سعيد في الإيمان؟ فقال: أخاف أن أقول نعم فيقول اللّه سبحانه كذبت يا حسن، فتحق علي الكلمة. وكان يقول: ما يؤمنني أن يكون اللّه سبحانه قد اطلع علي في بعض ما يكره فمقتني وقال اذهب لا قبلت لك عملاً، فأنا أعمل في غير معمل. وقال إبراهيم بن أدهم: إذا قيل لك أمؤمن أنت؟ فقل: لا إله إلا اللّه، وقال مرة: قل أنا لا أشك في الإيمان وسؤالك إياي بدعة، وقال الثوري: نحن مؤمنون باللّه وملائكته وكتبه ورسله وما ندري ما نحن عند اللّه تعالى! فما معنى هذه الاستثناءات؟ والجواب أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه: أولها: الاحتراز من الجزم خيفة ما فيه من تزكية النفس [فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى] ٣٢ النجم.

الثاني: التأدب بذكر اللّه تعالى في كل حال والأمور كلها إلى مشيئة اللّه [لَقَدْ صَدَقَ اللّه رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللّه آمِنِينَ] ٢٧ الفتح وكان اللّه سبحانه عالماً بأنهم يدخلون لا محالة وأنه شاء، ولكن المقصود تعليمه ذلك.

الثالث: مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقاً إن شاء اللّه إذ قال تعالى لقوم مخصوصين بأعيانهم [أولئك هم المؤمنون حقاً] فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان لا في أصله، وكل إنسان شاك في كمال إيمانه، وذلك ليس بكفر...الخ.

الرابع: وهو أيضاً مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتمة.[٣١٤]

حدثنا أبو معاوية عن داود بن أبي هند عن شهر بن حوشب عن الحارث بن عميرة الزبيري قال: وقع الطاعون بالشام فقام معاذ بحمص فخطبهم، فقال: إن هذا الطاعون رحمة ربكم، ودعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم، وموت الصالحين قبلكم، اللهم إقسم لآل معاذ نصيبهم الأوفى منه، فلما نزل عن المنبر أتاه آت فقال: إن عبد الرحمن بن معاذ قد أصيب فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم انطلق نحوه فلما رآه عبد الرحمن مقبلا قال: يا أبة [الحق من ربك فلا تكونن من الممترين] البقرة (١٤٧) قال: يا بني [ستجدني إن شاء الله من الصابرين] الصافات ١٠٢، قال: فمات آل معاذ إنسان إنسان، حتى كان معاذ آخرهم، فأصيب، فأتاه الحارث بن عميرة الزبيدي يعوده، قال: وغشي على معاذ غشية، فأفاق معاذ والحارث يبكي، فقال معاذ: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على العلم الذي يدفن معك، فقال: إن كنت طالب علم لا محالة فاطلبه من عبد الله بن مسعود، ومن عويمر أبي الدرداء، ومن سلمان الفارسي وإياك وزلة العالم، فقلت: وكيف لي أصلحك الله أن أعرفها؟ قال: للحق نور يعرف به، قال: فمات معاذ رحمة الله عليه، وخرج الحارث يريد عبد الله بن مسعود بالكوفة، فانتهى إلى بابه، فإذا على

---

٣١٤) إحياء علوم الدين.الإمام الغزالي ١/١٤٥-١٤٧

الباب نفر من أصحاب عبد الله بن مسعود يتحدثون، فجرى بينهم الحديث، حتى قالوا: يا شامي أمؤمن أنت؟ فقال: نعم، فقالوا من أهل الجنة؟ قال: إن لي ذنوبا وما أدري ما يصنع الله فيها، ولو أعلم أنها غفرت لي لأنبأتكم أني من أهل الجنة، قال: فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم عبد الله، فقالوا ألا تعجب من أخينا هذا الشامي، يزعم أنه مؤمن، ولا يزعم أنه من أهل الجنة ! فقال عبد الله: لو قلت إحداهما لأتبعتها الأخرى، فقال الحارث إنا لله وإنا إليه راجعون، صلى الله على معاذ، قال: ويحك ومن معاذ؟ قال: معاذ بن جبل، قال: وما ذاك؟ قال: قال: إياك وزلة العالم، فأحلف بالله أنها منك لزلة يا ابن مسعود ! وما الإيمان إلا أنا نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والميزان، ولنا ذنوب ما ندري ما يصنع الله فيها، فلو أنا نعلم أنها غفرت لقلنا: إنا من أهل الجنة، قال: فقال عبد الله: صدقت والله، إن كانت مني لزلة، صدقت والله، إن كانت مني لزلة.٣١٥

---

٣١٥) الايمان لابن أبي شيبة ص ٢٤

فصل: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾

وهنا لا بد من التعرض لآية في سورة آل عمران [وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ١٦٦ وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ] ١٦٧. فهل هنالك مرحلة ما بين الكفر والإيمان؟

جاء في تفسير القرطبي: (أي بينوا حالهم وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون، فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال وإن كانوا كافرين على التحقيق)[٣١٦] وجاء في تفسير ابن كثير: (استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر وفي حال أقرب إلى الإيمان)[٣١٧]

قال النسفي: (يعني أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم؛ فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين: تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر؛ أو هم لأهل الكفر أقرب نصرة

---

٣١٦) الجامع لأحكام القران.القرطبي.٤/ ٢٦٧

٣١٧) تفسير القران العظيم. ابن كثير ١/ ٤٢٥

منهم لأهل الإيمان لأن تقليلهم سواد المؤمنين بالانخذال تقوية للمشركين)[318] ونص الآية: [وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ] قال الحسن البصري: (أو ادفعوا المراد بالدفع التكثير بالعدد.)[319]

قال العلامة: (ولم يكن ابن أبي أظهر مخالفة توجب الامتياز فلما انخذل يوم أحد وقال يدع رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان انخذل معه خلق كثير منهم من لم ينافق قبل ذلك، وفي الجملة ففي الأخبار عمن نافق بعد إيمانه ما يطول ذكره هنا فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان هو الضوء الذي ضرب الله به المثل، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على هذا الإسلام الذي يثابون عليه ولم يكونوا من المؤمنين حقاً، الذين امتحنوا فثبتوا على الإيمان ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم إذا ابتلوا بالمحن التي يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيراً وينافق أكثرهم أو كثير منهم ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة وإذا كانت العافية أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهراً لكن إيماناً لا يثبت على

٣١٨) الأساس في التفسير. سعيد حوى ٩٢٦/٢ عن النسفي

٣١٩) تفسير الحسن البصري. جمع وتوثيق د. محمد عبد الرحيم ٢٤٨/١

المحنة ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم وهؤلاء من الذين قالوا [آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] أي الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقاً فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة ولهذا قال تعالى [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] ١٥ الحجرات فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب والريب يكون في علم القلب وفى عمل القلب بخلاف الشك فانه لا يكون إلا في العلم ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علماً وعملا)[٣٢٠] وقال بعد ذكر حديث القلوب الأربعة الوارد أعلاه: (وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى [هم للكفر يومئذ اقرب منهم للإيمان] فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب وروى عن على بن أبى طالب قال إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب فكلما ازداد العبد إيمانا ازداد القلب بياضا حتى إذا استكمل الإيمان أبيض القلب كله وان النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب فكلما ازداد العبد نفاقا ازداد القلب سوادا حتى إذا استكمل العبد النفاق اسود القلب ... وهذا كثير في كلام

---

٣٢٠) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٨٢

السلف يبينون أن القلب قد يكون فيه إيمان ونفاق والكتاب والسنة يدلان على ذلك فان النبي ذكر شعب الإيمان وذكر شعب النفاق وقال من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الإيمان ولهذا قال ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار وان من كان معه كثير من النفاق فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك ثم يخرج من النار)[٣٢١] (وعلى هذا فقوله للأعراب لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم نفى حقيقة دخول الإيمان في قلوبهم وذلك لا يمنع أن يكون معهم شعبة منه كما نفاه عن الزاني والسارق ومن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ومن لا يأمن جاره بوائقه وغير ذلك كما تقدم ذكره فان في القرآن والحديث ممن نفى عنه الإيمان لترك بعض الواجبات شيء كثير وحينئذ فنقول من قال من السلف أسلمنا أي استسلمنا خوف السيف وقول من قال هو الإسلام الجميع صحيح فان هذا إنما أراد الدخول في الإسلام والإسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون)[٣٢٢] (فيدخل فيه من كان في قلبه إيمان ونفاق وقد علم أنه يخرج من النار من

---

٣٢١) وهذا بإذن الله سيكون مدار نقاش لاحقاً في موضوع تبعض الإيمان.

٣٢٢) لاحظ كم يبنى من أحكام على هذا التفريق بين المؤمن والمسلم، ولاحظ أن الكلام هنا ليس على إطلاقه بالنسبة للكفر، ولاحظ أن مفهوم المؤمن عنده هو: المؤمن حقاً

في قلبه مثقال ذرة من إيمان بخلاف المنافق المحض الذي قلبه كله أسود فهذا هو الذي يكون في الدرك الأسفل من النار)[٣٢٣]

---

٣٢٣) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٦

ما أراه في هذه الآية:

والجواب والله أعلم أن الله تعالى في هذه الآية فضحهم في صدرها على أنهم منافقون كشف ما أصابهم يوم التقى الجمعان ما في صدورهم مما كانوا يخفونه؛ ونتذكر هنا أن الابتلاءات هي محك صدق الإيمان؛ وهي محور هام من محاور قصة أحد في آل عمران كثر الإشارة إليها في الآيات السابقة واللاحقة؛ فتبين الصادق في إيمانه من الكافر الذي يخفي الكفر في صدره؛ فلما علم الله تعالى منهم ذلك فضحهم؛ ولكن الحكم الشرعي الذي سيتعامل على أساسه الناس إلى يوم القيامة إذا ما وقعت حادثة مشابهة فرفض البعض الخروج للجهاد متعذرين فلا نحكم عليهم بالكفر لأننا لا نعلم الباطن ولا نعاقبهم عقوبة المرتدين؛ أما هؤلاء فقد علم الله وأنزل فيهم قراناً على نبيه عليه سلام الله؛ تماماً كما حكم على الأعراب في آيات الحجرات؛ لذا علَّمنا أن نحكم على من يفعل فعلهم بأنه يكون على شفى حفرة من الكفر لا يؤمن أن يقع فيها. والله أعلم.

قال الشيخ رشيد رضا (أي أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان يوم قالوا ذلك القول لظهور صفته فيهم وانطباق آيته عليهم فإن القعود عن الجهاد في سبيل الله عند هجوم الأعداء من الفرائض التي لا يتعمد المؤمن تركها [من كانت له شخصية إسلامية] كما يعلم من الآيات الكثيرة في هذا السياق وغيره ومنها ما هو صريح في جعله من الصفات التي حصر الإيمان في

المتصفين بها كقوله عز وجل: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] ١٥ الحجرات

قال الأستاذ الإمام: ليس قوله [يومئذ] للاحتراس بل لرفع شأن هذا اليوم الذي حصل فيه التمييز بين الفريقين وقال إنهم أقرب إلى الكفر ولم يقل عنهم كفار مع علمه بحالهم تأديباً لهم ومنعاً للتهجم على التكفير بالعلامات والقرائن. أقول [الشيخ رضا] يعني أن هذا صدر منهم وإن كان من شأنه ألا يصدر إلا من الكافرين لا يعد بحد ذاته كفراً صريحاً في حكم الظاهر لاحتمال العذر والتأويل ولو سجل عليهم به ظاهراً لوجب أن يعاملوا معاملة الكفار مع أنه صلى الله عليه وسلم كان يعاملهم بعد ذلك معاملة المؤمنين حتى أنه صلى على جنازة رئيسهم عبد الله بن أبي بعد بضع سنين من واقعة أحد...وحاصل معنى عبارة الأستاذ الإمام [محمد عبده] أنه تعالى كان يعلم أنهم يبطنون الكفر وأن امتناعهم عن الجهاد عمل من أعمال الكفر ولكنه لم يصرح به في الآية بل صرح بما يومئ إليه تأديباً لهم عسى أن يتوب منهم من لم يتمكن الكفر في قلبه ومنعا للناس من الهجوم على التكفير.[٣٢٤]

---

٣٢٤) تفسير المنار. محمد رشيد رضا. ٢٢٨/٤-٢٢٩

وتعقيبنا على ما سبق أولا لم تكن صلاة النبي عليه السلام على ابن أبي معاملة له كمؤمن وإنما لم يكن الحكم في منع الصلاة على المنافقين قد نزل (وهو ما أشار إليه الشيخ رضا لاحقاً دون أن يقصد هذا المعنى بهذه الدقة).

وثانياً: إن الآية الكريمة قد فصلت في أنهم ليسوا مؤمنين فقد نصت الآية السابقة على أنه ما كان هذا الاختبار إلا ليعلم المؤمنين [وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّه وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ] ١٦٦ وهنا صفة المؤمنين تستشعر فيها الرسوخ والثبات فلم يقل الذين آمنوا؛ فكأنه يقول أن بعض الذين نافقوا في هذا الموقف قد يتوبوا لأن النفاق ليس صفة متأصلة فيهم؛ [وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ] مع أن بعضهم كابن أبي راسخ في النفاق.

ثالثاً: إن الناظر في أحوال المسلمين يرى أن أكثرهم يؤمن وراثة ولا يعمل عقله في الاستدلال ليرسخ في الإيمان والعلم، ومثل هؤلاء يُظَنّ أنهم قد لا يثبتوا عند البلاء العظيم؛ ففي هذه الآية تحذير من الاقتصار على التقليد في الإيمان خشية التحول عنه إلى الكفر عند أول طارق مما يعني خسارة الدنيا والآخرة والعياذ بالله تعالى.

وأخيراً أذكر بما سبق في الفصل السابق عن معنى الزيادة في الإيمان والوصول بقسوة القلب إلى مرحلة القرب من الكفر والبعد عن الإيمان، وهو

الرأي الذي أختاره، فعمل كهذا والمسلمون في أشد حالات الكرب لا يفعله إلا غليظ القلب الذي لم يؤثر فيه ما صدقه، بل غلبت عليه الدنيا، فابتعد عن الإيمان ليقترب من الكفر.

فصل: هل يتبعض الإيمان؟

قال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً] ١٥٠ النساء. [ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥ أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ] ٨٦ البقرة. [وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ] ٤٩ المائدة.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ وَمَثَلُ

النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ مسند أحمد باقي مسند المكثرين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا. مسلم. كتاب الإيمان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَالْكُفْرُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ وَلَا يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا تَجْتَمِعُ الْخِيَانَةُ وَالْأَمَانَةُ جَمِيعًا. أحمد باقي مسند المكثرين.

أصل هذه المسألة نزاع بين الجهمية والمرجئة ومن شاكلهم وبين علماء السنة في مكونات الإيمان من معرفة وتصديق وانقياد وحب وعمل وما شابه، فإذا كان مكوناً من هذه الأجزاء فهل يمكن أن ينتفي بعضها ولا يزول بانتفائه الإيمان؟ وراحوا يستثنون أكثر ما يدخل في تعريف الإيمان من أركان رأوا إمكان زوالها مع بقاء الإيمان ليدّعوا أنها ليست من الإيمان فادعوا مثلا أن ما سوى المعرفة من الإقرار باللسان والخضوع بالقلب والمحبة لله ولرسوله والتعظيم لهما والخوف والعمل بالجوارح ليس بإيمان

وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به، وغيره بل إن بعض فرقهم قصرت الإيمان على مجرد التصديق أو المعرفة أو القول باللسان [٣٢٥]

إلا أنني هنا لا أريد ما ذهبوا إليه ولا ما اختلفوا فيه بل أريد طرح السؤال الذي يهمني في بحثي هذا وهو: هل يمكن أن يوجد في القلب إيمان ونفاق أو إيمان وكفر؟

ما معنى قول المصطفى صلى الله عليه وسلم عن ربه "أَخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ"؟ ماذا في قلبه غير الإيمان هل هو الكفر؟ هذا الذي أريد طرحه في هذا الفصل وإن كان لا بد من الدخول في الذي دار بين السابقين من متاهات.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُولُ اللَّه تَعَالَى أَخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ. البخاري كتاب الإيمان.

---

٣٢٥) (ارجع مثلا إلى كتاب مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٤٤ وما حولها) لترى العجب العجاب في تنظير الفرق المختلفة للإيمان وهو أساس الدين ! مما أحصاه ابن تيمية رحمه الله. وهو أيضا وقع في آراء متفاوتة في هذه القضايا في مواطن مختلفة من كتبه، وارجع إلى تفصيل أكبر ذكره الإمام بدر الدين العيني في كتابه عمدة القاري، وقد ذكرت ملخصه في الفصل الأول من هذا الكتاب.

حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُعاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ قَالَ يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ قَالَ يَا مُعَاذُ قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ ثَلَاثًا قَالَ مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّه عَلَى النَّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّه أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا قَالَ إِذًا يَتَّكِلُوا وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا البخاري / العلم.

عَنْ قَتَادَةَ حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً مسلم كتاب الإيمان

قال ابن تيمية: (قال أحمد وأما من زعم أن الإيمان الإقرار فما يقول في المعرفة هل يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار وهل يحتاج أن يكون مصدقاً بما عرف فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار فقد زعم أنه من شيئين، وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقراً ومصدقاً بما عرف فهو من ثلاثة أشياء، وإن جحد وقال لا يحتاج إلى المعرفة والتصديق فقد قال قولا عظيماً، ولا أحسب أحداً يدفع المعرفة والتصديق وكذلك العمل مع هذه الأشياء، قلت: [ابن تيمية] أحمد وأبو ثور وغيرهما من من الأئمة كانوا قد عرفوا أصل قول

المرجئة وهو أن الإيمان لا يذهب بعضه ويبقى بعضه فلا يكون إلا شيئاً واحداً فلا يكون ذا عدد اثنين أو ثلاثة، فإنه إذا كان له عدد أمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضه، بل لا يكون إلا شيئاً واحداً؛ ولهذا قالت الجهمية أنه شيء واحد في القلب، وقالت الكرامية أنه شيء واحد على اللسان، كل ذلك فراراً من تبعض الإيمان وتعدده، مع أن الكرامية لا تنكر وجوب المعرفة والتصديق، ولكن تقول لا يدخل في اسم الإيمان حذراً من تبعضه وتعدده، لأنهم رأوا أنه لا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه بل ذلك يقتضي أن يجتمع في القلب إيمان وكبر واعتقدوا الإجماع على نفي ذلك كما ذكر هذا الإجماع الأشعري وغيره ... ومن حججهم العقلية أيضاً أن الشيء المركب إذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله.

قال ابن تيمية رحمه الله: والجواب عما ذكره هو سهل، فإنه يسلم له أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء، والشافعي مع الصحابة والتابعين وسائر السلف يقولون إن الذنب يقدح في كمال الإيمان، ولهذا نفى الشارع الإيمان عن هؤلاء فلذلك المجموع الذي هو الإيمان لم يبق مجموعاً مع الذنوب لكن يقولون بقي بعضه إما أصله وأكثره وأما غير ذلك فيعود الكلام إلى أنه يذهب بعضه ويبقى بعضه ... ومن العجب أن الأصل الذي أوقعهم في هذا الاعتقاد

اعتقادهم أنه لا يجتمع في الإنسان بعض الإيمان وبعض الكفر أو ما هو إيمان وما هو كفر.)[٣٢٦]

وقال في موضع آخر: (وقد ذهب طائفة من متأخري أصحاب أبي حنيفة كأبي منصور الماتريدي وأمثاله إلى نظير هذا القول في الأصل وقالوا إن الإيمان هو ما في القلب وأن القول الظاهر شرط لثبوت أحكام الدنيا لكن هؤلاء يقولون بالاستثناء[٣٢٧] ونحو ذلك كما عرف من أصلهم وأصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم أنهم جعلوا الإيمان شيئاً واحداً إذا زال بعضه زال جميعه وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه، كما قال النبي يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من الإيمان، ثم قالت الخوارج والمعتزلة الطاعات كلها من الإيمان فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان فذهب سائره، فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان، وقالت

---

٣٢٦) شرح قصيدة ابن القيم ٢/ ١٤٢- ١٤٦، مجموع الفتاوى ٧/ ٤٠٤، ولا يفهم هنا إطلاق الكفر ليشمل الأكبر، والبيان سيأتي بحول اللّه.

٣٢٧) راجع تحقيق رأي أبي حنيفة رضي اللّه عنه في الإيمان في هذا الكتاب حيث لا يثبت له كل ما ادعاه عليه خصومه في مسائل الإيمان سواء في اتهامه بالإرجاء وهو الذي كان شغله الفقه أي الأعمال! أو في الاستثناء أو في تفاضل الإيمان إذ ينفي أن يقول أحدهم أن إيمانه كإيمان جبريل عليه السلام، ودققنا في معنى المشابهة فراجعها في ص ٥٥ حاشية المرجع رقم ٧٢.

المرجئة والجهمية ليس الإيمان إلا شيئاً واحداً لا يتبعض إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة قالوا لأنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءاً منه فإذا ذهبت ذهب بعضه فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان وهو قول المعتزلة والخوارج لكن قد يكون له لوازم ودلائل فيستدل بعدمه على عدمه وكان كل من الطائفتين بعد السلف والجماعة وأهل الحديث متناقضين حيث قالوا الإيمان قول وعمل وقالوا مع ذلك لا يزول بزوال بعض الأعمال، حتى أن ابن الخطيب وأمثاله جعلوا الشافعي متناقضاً في ذلك فإن الشافعي كان من أئمة السنة وله في الرد على المرجئة كلام مشهور وقد ذكر في كتاب الطهارة من الأم إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم على قول أهل السنة فلما صنف ابن الخطيب تصنيفاً فيه وهو يقول في الإيمان بقول جهم والصالحي استشكل قول الشافعي ورآه متناقضا وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة وكذلك الأجسام المركبة كالسكنجبين إذا زال أحد جزئيه خرج عن كونه سكنجبيناً قالوا فإذا كان الإيمان مركباً من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها وهذا قول الخوارج والمعتزلة قالوا ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمناً بما فيه من الإيمان كافراً بما فيه من الكفر فيقوم به كفر وإيمان.

ونحن [ابن تيمية، وكلامه جيد عموما لكنه غير دقيق] نذكر ما يتعلق بهذا الموضع فنقول ولا حول ولا قوة إلا بالله الكلام في طرفين أحدهما أن شعب الإيمان هل هي متلازمة في الانتفاء والثاني هل هي متلازمة في الثبوت أما الأول فإن الحقيقة الجامعة لأمور سواء كانت في الأعيان أو الأعراض إذا زال بعض تلك الأمور، فقد يزول سائرها وقد لا يزول، ولا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها؛ وسواء سميت مركبة أو مؤلفة أو غير ذلك لا يلزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها وما مثلوا به من العشرة والسكنجبين مطابق لذلك فإن الواحد من العشرة إذا زال لم يلزم زوال التسعة بل قد تبقي التسعة، فإذا زال أحد جزئي المركب لا يلزم زوال الجزء الآخر، لكن أكثر ما يقولون زالت الصورة المجتمعة وزالت الهيئة الاجتماعية وزال ذلك الاسم الذي استحقته الهيئة بذلك الاجتماع والتركيب كما يزول اسم العشرة والسكنجبين.

فيقال أما كون ذلك المجتمع المركب ما بقي على تركيبه فهذا لا ينازع فيه عاقل ولا يدعى عاقل أن الإيمان أو الصلاة أو الحج أو غير ذلك من العبادات المتناولة لأمور إذا زال بعضها بقي ذلك المجتمع المركب كما كان قبل زوال بعضه، ولا يقول أحد أن الشجرة أو الدار إذا زال بعضها بقيت مجتمعة كما كانت ولا أن الإنسان أو غيره من الحيوان إذا زال بعض أعضائه بقي مجموعاً، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء،

فالمجتمعة الخلق بعد الجدع لا تبقي مجتمعة، ولكن لا يلزم زوال بقية الأجزاء.

وأما زوال الاسم فيقال لهم هذا أولا بحث لفظي إذا قدر أن الإيمان له أبعاض، وشعب كما قال رسول اللّه في الحديث المتفق عليه: الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا اللّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان.

كما أن الصلاة والحج له أجزاء وشعب ولا يلزم من زوال شعبة من شعبه زوال سائر الأجزاء والشعب كما لا يلزم من زوال بعض أجزاء الحج والصلاة زوال سائر الأجزاء، فدعواهم أنه إذا زال بعض المركب زال البعض الآخر ليس بصواب ونحن نسلم لهم أنه ما بقي إلا بعضه لا كله وأن الهيئة الاجتماعية ما بقيت كما كانت.

يبقي النزاع هل يلزم زوال الاسم بزوال بعض الأجزاء؟

فيقال لهم المركبات في ذلك على وجهين منها ما يكون التركيب شرطاً في إطلاق الاسم ومنها ما لا يكون كذلك، فالأول كاسم العشرة وكذلك السكنجبين ومنها ما يبقي الاسم بعد زوال بعض الأجزاء وجميع المركبات المتشابهة الأجزاء من هذا الباب وكذلك كثير من المختلفة الأجزاء فإن المكيلات والموزونات تسمى حنطة وهي بعد النقص حنطة وكذلك التراب

والماء ونحو ذلك، وكذلك لفظ العبادة والطاعة والخير والحسنة والإحسان والصدقة والعلم ونحو ذلك مما يدخل فيه أمور كثيرة يطلق الاسم عليها قليلها وكثيرها، وعند زوال بعض الأجزاء وبقاء بعض وكذلك لفظ القرآن فيقال على جميعه وعلى بعضه ولو نزل قرآن أكثر من هذا لسمي قرآناً وقد تسمى الكتب القديمة قرآناً كما في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّه عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام الْقُرْآنُ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ. البخاري. أحاديث الأنبياء. وكذلك لفظ القول والكلام والمنطق ونحو ذلك يقع على القليل من ذلك وعلى الكثير وكذلك لفظ الذكر والدعاء يقال للقليل والكثير.

وإذا كانت المركبات على نوعين بل غالبها من هذا النوع لم يصح قولهم إنه إذا زال جزؤه لزم أن يزول الاسم إذا أمكن أن يبقى الاسم مع بقاء الجزء الباقي ومعلوم أن اسم الإيمان من هذا الباب فإن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا اللّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان ثم من المعلوم أنه إذا زالت الإماطة ونحوها لم يزل اسم الإيمان وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان فأخبر أنه يتبعض ويبقى بعضه وان ذاك من الإيمان فعلم أن بعض الإيمان يزول ويبقي

بعضه وهذا ينقض مآخذهم الفاسدة[٣٢٨] ويبين أن اسم الإيمان مثل اسم القرآن والصلاة والحج ونحو ذلك أما الحج ونحوه ففيه أجزاء ينقص الحج بزوالها عن كماله الواجب ولا يبطل كرمي الجمار والمبيت بمنى ونحو ذلك وفيه أجزاء ينقص بزوالها من كماله المستحب رفع الصوت بالإهلال والرمل والإضطباع في الطواف الأول، وكذلك الصلاة فيها أجزاء تنقص بزوالها عن كمال الاستحباب وفيها أجزاء واجبة تنقص بزوالها عن الكمال الواجب مع الصحة في مذهب أبى حنيفة وأحمد ومالك وفيها ما له أجزاء إذا زالت جبر نقصها بسجود السهو وأمور ليست كذلك.

فقد رأيت أجزاء الشيء تختلف أحكامها شرعاً وطبعاً فإذا قال المعترض هذا الجزء داخل في الحقيقة وهذا خارج من الحقيقة قيل له ماذا تريد بالحقيقة فإن قال أريد بذلك ما إذا زال صار صاحبه كافراً قيل له ليس للإيمان حقيقة واحدة مثل حقيقة مسمى مسلم في حق جميع المكلفين في جميع الأزمان بهذا الاعتبار مثل حقيقة السواد والبياض بل الإيمان والكفر يختلف باختلاف المكلف وبلوغ التكليف له وبزوال الخطاب الذي به التكليف

---

٣٢٨) منطلق ابن تيمية رحمه الله هو أن الإيمان يشمل الأعمال (جنس العمل) وبالتالي فهو ينطلق في نقضه وفي فهمه من هذه الحقيقة، لذا فنحن لا نوافقه على كل ما يقول، راجع ما نراه في المسألة بعد قليل إن شاء الله تعالى، وقد يرد عليه راد بأن زوال بعض مكملات الإيمان لا علاقة له بزوال الإيمان أصلا.

ونحو ذلك وكذلك الإيمان والواجب على غيره مطلق لا مثل الإيمان الواجب عليه في كل وقت فإن الله لما بعث محمداً رسولا إلى الخلق كان الواجب على الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر ولم يأمرهم حينئذ بالصلوات الخمس ولا صيام شهر رمضان ولا حج البيت ولا حرم عليهم الخمر والربا ونحو ذلك ولا كان أكثر القرآن قد نزل فمن صدقه حينئذ فيما نزل من القرآن وأقر بما أمر به من الشهادتين وتوابع ذلك كان ذلك الشخص حينئذ مؤمناً تام الإيمان الذي وجب عليه وإن كان مثل ذلك الإيمان لو أتى به بعد الهجرة لم يقبل منه ولو اقتصر عليه كان كافراً قال الإمام أحمد كان بدء الإيمان ناقصاً فجعل يزيد حتى كمل ولهذا قال تعالى عام حجة الوداع اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ...فإذا كان نفس ما وجب من الإيمان في الشريعة الواحدة يختلف ويتفاضل وإن كان بين جميع هذه الأنواع قدر مشترك موجود في الجميع كالإقرار بالخالق وإخلاص الدين له والإقرار برسله واليوم الآخر على وجه الإجمال فمن المعلوم أن بعض الناس إذا أتى ببعض ما يجب عليه دون بعض كان قد تبعض ما أتى فيه من الإيمان كتبعض سائر الواجبات يبقى أن يقال فالبعض الآخر قد يكون شرطاً في ذلك البعض وقد لا يكون شرطاً فيه فالشرط كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه أو آمن ببعض الرسل وكفر ببعضهم كما قال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ

بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ١٥٠ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا] الآيات، النساء وقد يكون البعض المتروك ليس شرطاً في وجود الآخر ولا قبوله وحينئذ فقد يجتمع في الإنسان إيمان ونفاق وبعض شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر،[٣٢٩] كما في الصحيحين عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا ائتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة نفاق وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال لأبي ذر إنك امرؤ فيك جاهلية. عن أَبَي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ. مسلم كتاب الجنائز.

---

٣٢٩) هذا الفهم بالذات هو ما نختلف معه فيه، فترك شعبة من الإيمان لا ينتفي الإيمان بانتفائها كإماطة الأذى لا يعني أن الإيمان خالطه كفر وهذا ما أحب الانتباه له، وأحياناً رأيناه يقول به وسيترتب عليه أمور كثيرة مهمة.

وهذا من القرآن الذي نسخت تلاوته[٣٣٠]: لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم، الأصل الثاني: أن شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة ولا تتلازم عند الضعف فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله كما قال تعالى [ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء] وقال [لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] ٢٢ المجادلة

وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنباً ينقص به إيمانه ولا يكون به كافراً كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي وأنزل الله فيه [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ] ١ الممتحنة، وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك فقال لسعد بن معاذ كذبت والله لا

٣٣٠) راجع كتابنا أدلة الاعتقاد فصل نسخ التلاوة لتقف على حقيقة ادعاء وجود نسخ تلاوة في القرآن.

تقتله ولا تقدر على قتله، قالت عائشة وكان قبل ذلك رجلا صالحاً ولكن احتملته الحمية ولهذه الشبهة سمى عمر حاطباً منافقاً فقال دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال إنه شهد بدراً فكان عمر متأولا في تسميته منافقاً للشبهة التي فعلها وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين هو من هذا الباب وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم منافق وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعاً واحداً بل فيهم المنافق المحض وفيهم من فيه إيمان ونفاق وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان ولما قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك ومن هذا الباب ما يروى عن الحسن البصري ونحوه من السلف أنهم سموا الفساق منافقين فجعل أهل المقالات هذا قولا مخالفاً للجمهور إذا حكوا تنازع الناس في الفاسق الملة هل هو كافر أو فاسق ليس معه إيمان أو مؤمن كامل الإيمان أو مؤمن بما معه من الإيمان فاسق بما معه من الفسق أو منافق والحسن رحمه الله تعالى لم يقل ما خرج به عن الجماعة لكن سماه منافقاً على الوجه الذي ذكرناه والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق ولهذا كثيراً ما يقال كفر ينقل عن الملة وكفر لا ينقل ونفاق أكبر ونفاق

أصغر كما يقال الشرك شركان أصغر وأكبر وفى صحيح أبى حاتم وغيره عن النبي أنه قال الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل فقال أبو بكر يا رسول الله كيف ننجوا منه وهو أخفى من دبيب النمل فقال ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم وفى الترمذي عن النبي أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك قال الترمذي حديث حسن وبهذا تبين أن الشارع ينفي اسم الإيمان عن الشخص لانتفاء كماله الواجب وإن كان معه بعض أجزائه كما قال لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ومنه قوله من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا فإن صيغة أنا ونحن ونحو ذلك من ضمير المتكلم في مثل ذلك يتناول النبي والمؤمنين معه الإيمان المطلق الذي يستحقون به الثواب بلا عقاب ومن هنا قيل أن الفاسق الملة يجوز أن يقال هو مؤمن باعتبار ويجوز أن يقال ليس مؤمناً باعتبار وبهذا تبين أن الرجل قد يكون مسلماً لا مؤمناً ولا منافقاً مطلقاً بل يكون معه أصل الإيمان دون حقيقته الواجبة ولهذا أنكر أحمد وغيره من الأئمة على من فسر قوله ليس منا ليس مثلنا أو ليس من خيارنا وقال هذا تفسير المرجئة وقالوا لو لم يفعل هذه الكبيرة كان يكون مثل النبي وكذلك تفسير الخوارج والمعتزلة

بأنه يخرج من الإيمان بالكلية ويستحق الخلود في النار تأويل منكر.)[٣٣١] وبهذا يثبت ما قلناه في بيان أن الايمان أفكار قابلة للاعتقاد فارجع إليه.

قال الكشميري في فيض الباري: شَرْحُ قَولِهِم: قَولٌ وَعَمَلٌ: فلنشرح أولاً مراد السلف، والكشف الغِطاء عن قولهم: الإيمان: قول وعمل، ثم لنبحث أن الأعمال هل تصلح لجزئية الإيمان أم لا؟ فاعلم أن قولهم هذا ليس نصاً في الجزئية كما فهموا، لأنه ليس من لفظ السلف أن الأعمالَ أجزاءٌ للإيمان، بل لفظهم: «قول وعمل» وهو يحتملُ شروحاً يصدقُ بعضها على مذهبنا أيضاً، بل هو أولى الشروح كما ستعرف.

الأول: ما فهمه عامةُ الناقلين وأرباب التصانيف، وهو أن الإيمانَ مركبٌ من القول أي الشهادتين والعمل، وهذا الشرحُ دائرٌ فيما بينهم. والإيمان على هذا الشرح ذا أجزاء كالجدار واللَّبِنات. ثم إنهم قالوا: إن المُخلَ بالتصديق فقط مع القول الظاهر، منافقٌ، والمخلُ بالتصديق والقول كافرٌ مجاهِرٌ، والمخلُ بالعمل فقط فاسقٌ. وحكمه: أنه لا يخلدُ في النار، ففرقوا بين جزءٍ وجزء فبانتفاء البعض حكموا بانتفاء الكل، كالتصديق، وبانتفاء بعض آخر لم يحكموا بانتفاء الكل، كالعمل. واستشكله الرَّازي وقال: إن الأجزاء كلها متساوية الأقدام في أن انتفاءَ بعضها أي بعض كان - يستلزمُ

---

٣٣١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٠٥- ٥٣٠

انتفاءَ الكل قطعاً، ولا نتعقَّلُ فرقاً بين جُزء وجـزء. وأجـابوا عنـه بأجوبـةٍ كلهـا مشى على القواعدِ وغَفْلةٍ عن الحقائق.

فقال قائل: إن الأجزاءَ على قسمين: حقيقةٌ، وعُرفيةٌ. وبانتفاء الأول ينتفـي الكل، بخلافِ الثاني. والعمل من الثاني دون الأول، وحولَهُ تَحُومُ أجوبة أخرى. والحق في الجواب: أن المجموعَ المركبَ من الأجزاء لا يلـزمُ مـن زوالِ بعـض أجزائه انعدامُ هذا المركب أيضاً. نعـم، تـزول تلـك الهيئـة السـابقة، لكـن لا يقتضي التباينُ بينها وبين اللاحقة، وذلك كالإنسان مثلاً، فإذا أصابت بعض أعضائه عاهة، لم يخرج عن كونه إنساناً، نعـم يقـال مـن حيـث الصـورة: إنـه إنسان ناقص، فإذا زاد النقصُ ربما خرجَ عن تسميته ظاهراً، بـل لا أجـد أحـداً من الأشياء يزولُ اسمه بزوال جُزء منه. نعم، ههنا مجـال للنظـر، فمـن أهلـكَ الحرثَ والنَّسل وفعـلَ كـلَّ مُنكَـر، ولـم يـأت بخيـر مـا، فـلا علينـا أن لا يُسـمّى بأشرف أسماءِ الأمة.

فإن قيل: فما مِقْدَارُ الطاعات التي يَخْرُجُ بتركها من الإيمان؟ قلنـا: عِلمُهـا عند الله، وعدم علمنا بمقدارها، لا يقتضي أن لا يكون لها مقـدار فـي الواقـع. وهذا كالسـواد والبيـاض، إذا انتقصْـتَ مـن السـواد درجـة، لا يأخـذُ البيـاضُ مكانها. نعم، لا تزال تنحطّ منه درجة بعد درجة، حتى إذا انتفت جميع مراتب السواد، يجيء البياضُ بدله. فهكذا الإيمان والكفـر، لا يـزال الإيمـانُ يـنقصُ

بالمعاصي، حتى إذا انتفت المرتبة التي هي مَدَار النَّجاة، استخلَفه الكفر، فيصبح من الكافرين.

والشرح الثاني: أن الإيمان تصديقٌ يظهرُه اللسان والجوارح. وحاصله: أنه التصديقُ المساعدُ بالقول والعمل، وحينئذٍ لا يكون الإيمانُ إلا التصديق فقط، ويبقى القول والعمل ساعداً ومُساعداً للإيمان لا أجزاء له. فالتصديقُ الذي يخلو عن الإقرار والأعمال، كأنه ليس بتصديق. وهذا أيضاً نظرٌ على حد قوله: «المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويده»، «والمؤمنُ من أمِنَه الناسُ على دمائهم وأموالِهم». رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه، [٣٣٢]

قال ابن حزم: (قول اللّه عز وجل [وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ٣٦ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا] ٣٧ الكهف: فأثبت اللّه الشرك والكفر مع إقراره بربه تعالى إذ شك في البعث، وقال- تعالى [أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ] فصح أن من آمن ببعض الدين وكفر بشيء منه فهو كافر مع صحة تصديقه لما صدق من ذلك. ...وقد نص اللّه عز وجل

---

٣٣٢) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان

على أن اليهود يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم وأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل وقال تعالى [قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ] ٣٣ الأنعام وأخبر تعالى عن الكفار فقال [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّه فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ] ٨٧ الزخرف فأخبر تعالى أنهم يعرفون صدقه ولا يكذبونه وهم اليهود والنصارى وهم كفار بلا خلاف من أحد من الأمة ومن أنكر كفرهم فلا خلاف من أحد من الأمة في كفره وخروجه عن الإسلام.)[٣٣٣]

قال ابن حزم: (قالوا: والإيمان هو التوحيد، والأعمال لا تسمى توحيداً فليست إيماناً، قالوا ولو كانت الأعمال توحيداً وإيماناً لكان من ضيع شيئاً منها قد ضيع الإيمان وفارق الإيمان فوجب أن لا يكون مؤمناً... وقال ابن حزم: فنحن لا نسمي مؤمناً إلا من سماه اللّه عز وجل مؤمناً، ولا نسقط الإيمان بعد وجوبه إلا عمن أسقطه اللّه عز وجل، ووجدنا بعض الأعمال التي سماها اللّه عز وجل إيماناً لم يسقط اللّه عز وجل اسم الإيمان عن تاركها

٣٣٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل. ابن حزم ٣/ ٢٣٤-٢٣٦

فلم يجز لنا أن نسقط عنه لذلك، لكن نقول: إنه ضيع بعض الإيمان ولم يضيع كله كما جاء النص على ما نبين.)[٣٣٤]

---

٣٣٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل.ابن حزم ٣/٢٢٩-٢٣٠

باب: ما أراه في المسألة:

ولا بد من ربط المفاهيم ببعض، لنخرج بالرأي الدقيق في هذه المسألة، فإذا علمنا أن نقص الإيمان ناتج عن المعاصي وما تحدثه في القلب من غلظة وقسوة، مصداق ذلك في الآية [كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ] ١٤ المطففين، والبعد عن الذكر الذي تبين لنا أنه يعيد القلب إلى الطريق القويم، لا من باب أن الأعمال من الإيمان ينقص بنقصها ويزيد بزيادتها، بل من باب أن المعاصي تحصل إذ لا يدرك المرء صلته بالله تعالى، والمحسن دائم التذكر لصلته بالله تعالى، يضعه نصب عينيه، فإيمانه حاضر أبدا، نقول: لهذه العوامل وما شابهها من عوامل تجعل الإيمان يذوي ويتناقص حتى يكاد لا تجد له أي أثر في القلب مع أنه في الأصل كان ناتجاً عن إيمان وتصديق لا شك فيه، فلا يبقى منه إلا مثقال ذرة أو أقل، كانت أصلا إيماناً صحيحاً، لم يصاحبه كفر، عندها يستحق هذا الذي حاله هكذا أن يخرج من النار برحمة الله، فلا يخلد فيها.

إذن فهذا القدر القليل جداً من الإيمان موجود في قلبٍ منشغل بالدنيا لا يذكر الإيمان ولا ما يتعلق به أبداً لشدة جفوته، كان أصلا مؤمناً بمعنى أنه لا شك أصلا لديه، ولم يتبدل الكفر بالإيمان، بل نسي وقسا قلبه، مع طول الأمد.

لا اعتراض على ما رآه ابن تيمية أبداً، لكن لا بـد مـن وضـع النقـاط علـى الحروف لكيلا يتوهم أحد أن صورة الذي يخرج من النار وما معه مـن الإيمـان إلا مثقال ذرة هو من كان معه هذه الذرة إلى جانبها أرطال من الكفر.

لم يقل بذلك ابن تيمية، ولا نحب لأحد أن يتوهمه. بل مفهوم قوله أنـه الكفر دون الكفر، مع أنني أتحفـظ علـى مفهـوم الكفـر دون الكفـر[٣٣٥]، أجـل

---

٣٣٥) ما قيل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال ((كفـر دون كفـر ((لا يثبـت عنـه فقـد رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢ / ٥٢١) والحاكم فـي مسـتدركه (٢ / ٣١٣) مـن طريـق هشام بن حُجَير عن طاووس عن ابن عباس به.وهشام ضعفه الإمام أحمد ويحـي بـن معـين والعقيلي وجماعة انظر الضـعفاء للعقيلـي [٤ / ٣٣٧ – ٣٣٨] والكامـل [٧ / ٢٥٦٩] لابـن عدي وتهذيب الكمال [٣٠ / ١٧٩ – ١٨٠] وهدي الساري [٤٤٧ – ٤٤٨].

وقال علي بن المديني قرأت على يحي بن سعيد حدثنا ابن جـريج عـن هشـام ابـن حجير فقال يحي بن سعيد خليق أن أدعه قلت أضربُ على حديثه؟ قال نعم.

وقال ابن عيينة لم نكن نأخذ عن هشام بن حجير ما لا نجده عند غيره.

وهذا تفرد به هشام وزيادة على ذلك فقـد خـالف غيـره مـن الثقـات فـذكره عبـد الله بـن طاووس عن أبيه قال سئل ابن عباس عن قوله تعالى { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ فَأُوْلَئِـكَ هُمْ الْكَافِرُونَ (٤٤ {(قال هي كفر وفي لفظ ((هي بـه كفـر)) وآخـر ((كفـى بـه كُفْره)) رواه عبد الرزاق في تفسيره (١ / ١٩١) وابن جرير (٦ / ٢٥٦) ووكيع في أخبـار القضـاة (١/ ٤١) وغيـرهم بسند صحيح وهذا هو الثابت عن ابن عباس رضي الله عنه، فقد أطلـق اللفظ ولـم يقيّد .

وطريق هشام بن حجير منكر من وجهين -: الوجه الأول: تفرد هشام بـه. الوجـه الثـاني: مخالفتـه مـن هـو أوثـق منـه. انظـر: كتـاب الا ان نصـر الله قريـب للشـيخ سـليمان العلـوان صفحة(٧)

هناك نفاق أصغر ونفاق أكبر، لكن الكفر واحد، اللهم إلا إن عننينا به إطلاق المعنى اللغوي كما أطلق الحق اسم الايمان على من آمن بالطاغوت، أما الكفر فهو كفر وسيأتي بيانه في موضعه ان شاء اللّه.

فمن الإيمان ما إن تركه أو ترك بعضه أو تسرب إليه الشك فيه، يكفر ولن ينفعه حتى لو كان كامل الإيمان فيما سواه، كأركان الإيمان وما شابه، من هنا قال تعالى [أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ] ومن ذلك ما طلب الايمان به تفصيلا أو إجمالا لكن بالدليل القطعي، فهذا كله من كفر به أو شك أو لم يعتقده فالايمان هنا لا يتبعض.

ومن شعب الإيمان المذكورة في الحديث الشريف ما هي من مكملات الإيمان لا من أركانه، بل إنها من الأعمال التي على المؤمن إذ يصبح شخصية إسلامية أن يفعلها، لا يتأثر إيمانه وجوداً وعدماً بوجودها وعدمها، كإماطة الأذى عن الطريق.

والدقيق هنا أن نقول أن انتفاءها أو فقدانها لا يسمى كفراً لا أصغر ولا أكبر، وهذه النقطة بالذات أحب أن نضبط بها المفهوم الوارد أعلاه.

وذلك أنه قد يُفهم من قول العلامة ابن تيمية الوارد أعلاه أن بعض الإيمان مصحوباً ببعض الكفر يمكن تمثيله على هذه الشاكلة.

وقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَالْكُفْرُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ وَلَا يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا تَجْتَمِعُ الْخِيَانَةُ وَالْأَمَانَةُ جَمِيعًا. أحمد باقي مسند المكثرين.

ووصف الإيمان لأعمال معينة وذكر نفيه عند عملها كقول الحبيب المصطفى عليه سلام الله لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فهو نفي كمال لا نفي وجود، أو قوله أعلاه: لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ، كل هذه الصيغ وأمثالها ما هي إلا قرائن على أهمية الموضوع، وقد تكون كفراً دون كفر، من باب الاطلاق اللغوي، أو كفر نعمة، وما إلى ذلك مما أفاض فيه العلماء. والله أعلم. ومنها ما هو كفر كمن يعتقد أنه أمطر بنوء كذا.

جاء في كشاف القناع عن متن الاقناع باب حكم المرتد: (وَمِنْ إطْلَاقِ الشَّارِعِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُفْرٌ) دُونَ كُفْرٍ لَا يَخْرُجُ بِهِ عَنْ الْإِسْلَامِ (كَدَعْوَاهُمْ لِغَيْرِ أَبِيهِمْ، وَكَمَنْ أَتَى عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَهُوَ تَشْدِيدٌ) وَتَأْكِيدٌ. (وَ) نَقَلَ حَرْبٌ (كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ لَا يَخْرُجُ بِهِ عَنْ الْإِسْلَامِ) وَقِيلَ كُفْرُ نِعْمَةٍ، وَقِيلَ قَارَبَ الْكُفْرَ وَعَنْهُ يَجِبُ الْوَقْفُ، وَلَا نَقْطَعُ بِأَنَّهُ لَا يَنْقُلُ عَنْ الْمِلَّةِ وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ وَجَمَاعَةُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ: {مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ} أَيْ جَحَدَ تَصْدِيقَهُ بِكَذِبِهِمْ، وَقَدْ يَكُونُ عَلَى هَذَا إذَا اعْتَقَدَ تَصْدِيقَهُمْ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِتَكْذِيبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ كُفْرًا

حَقِيقَةً انْتَهَى. وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ فَعَلَهُ مُسْتَحِلًّا وَأَنْكَرَ الْقَاضِي جَوَازَ إطْلَاقِ اسْمِ كُفْرِ النِّعْمَةِ عَلَى أَهْلِ الْكَبَائِرِ إ.هـ.[٣٣٦]

أمر آخر:

ما نلاحظه هو أنه عندما أخضع بعض المتكلمين القران والسنة لآرائهم بدأوا يخرجون أركاناً هامة من أركان الإيمان التي يقوم عليها، حتى أن البعض قصره على القول باللسان، كل ذلك حذر القول بتبعضه، وبالتالي انتفائه بانتفاء أجزائه، وبالمقابل انساق آخرون في هذا الأمر ليخرجوا برأي يحتاج إلى أن يُفهم بدقة، وهو أنهم إذ رأوا إمكانية تبعضه، فقد يُفهم من رأيهم إمكانية وجود الكفر معه في القلب، من هنا نرى كم كان هذا الموضوع خطيراً في الفكر الإسلامي، وكم هو ضروري أن نرجع الأحكام إلى الكتاب والسنة لنستنبط بعيداً عن أحكام نظرية عقلية في أمور ليس للعقل فيها القول الفصل خاصة مع وجود النصوص، وأهمية بناء نظرية جديدة للإيمان واليقين والإسلام والإيمان.

---

٣٣٦) كشاف القناع عن متن الاقناع باب حكم المرتد

وبالتالي فإذا كان ما يدخل في مسمى الإيمان هو الذي يدخل في تعريفه كركن فيه يزول كلية بزواله، فإن هذا الإيمان لا يتبعض، وأما إذا أردنا اعتبار ما هو من مكملات الإيمان أنها أبعاض فيه فمتبعض.

كذلك ثمة نقطة هامة هنا، تذكر في فصل العلم والمعرفة والتصديق باب: ما أراه في المسألة: وهي قول الحق سبحانه وتعالى [إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ] ٢٢النحل. وحيث أن المعرفة ضد الإنكار فكيف نصف قلوبهم بالإنكار مع كونهم يعرفون ويعلمون ويوقنون؟

القلوب تنكر أموراً من العقيدة الإسلامية ولا تسلم بكل ما جاء به الرسول، فهم يصدقون بقلوبهم ولا يكذبون أن الرسول رسول الله ولكنهم ينكرون بعض أمور الاعتقاد كالبعث، كما أنهم إذ يصدقون بأن الرسول حق، إلا أن قلوبهم تتردد ريبة واستكباراً، فلا تستقر على حال واحد، فاحفظ هذا كدليل على عدم تبعض الإيمان.

الدليل الثالث المهم: هو أن صحابة رسول الله عليه السلام قتلوا المرتدين المنكرين لأمر واحد مما هو معلوم بالضرورة، فلا تبعض، إذ أن مسمى الإيمان زال كلية عنهم، مع وجود (إيمانهم) بالله مثلا والآخرة، راجع فصل: نواقض الايمان: الايمان والكفر، ونضم إلى هذا الدليل أن الفهم

المغلوط لدى الكفار عن الإيمان بالله، فهم لا ينكرون أنه الخالق الرازق...، ولكنهم لا بعض إيمان لديهم.

الأمر المهم هو لو أن من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلى جانبه كفر، يجعل صاحبه بمنجاة من الخلود في النار،

لنا أن نطرح السؤال التالي: فهل نطلق عليه لقب مؤمن؟

وقد فصّل العلامة في ذلك أعلاه، ولكن هنا أطرح ذلك لمسألة أحب بيانها.

فإن أطلقناه عليه لقب مؤمن فكيف قضى الله بكفر من بعّض الإيمان، فآمن ببعض الرسل وكفر ببعض، أو من نطق بكلمة الكفر مع أنه لا شك كان قبلها مؤمناً [يَحْلِفُونَ بِاللّه مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ] ... ٧٤ التوبة وقال [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّه لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً] ١٣٧ النساء. فكل هؤلاء (معهم) مثقال ذرة من إيمان، وأكثر، فعلى فهم من يقول بوجود الإيمان مع الكفر فلا بد من أن يخرجوا من النار، وأن يكون إيمانهم معتبراً، والواقع أن النصوص تبين أنهم كفار خرجوا من الإيمان ودخلوا في الكفر، فليسوا بخارجين من النار إلا أن يشاء الله، وذلك لأن أصل الإيمان لا يتبعض، أي أركانه وما لا يكون المرء مؤمناً إلا به، فهم ليس معهم مثقال الذرة من

الإيمان بنفيهم أو إنكارهم ركناً واحداً منه، وهذا الأمر غاية في الأهمية، واللّه أعلم.

كذلك الصحابة رضوان اللّه عليهم حكموا بكفر من فرّق بين الصلاة والزكاة، رادّاً حكمها على اللّه ولولا أنهم يعلمون أنه ليس بمؤمن قطعاً ما استباحوا دمه، فهذا معه أغلب الإيمان (والصحيح أنه ليس معه منه شيء، فهو ينتفي البتة بإنكار ركن من أركان الإيمان أو برد حكم قطعي على اللّه ورسوله) ولكنه رد حكماً على اللّه فهو كافر مرتد، حسب نصوص الكتاب والسنة له نار جهنم.

باب: لفظ الكفر حقيقة واستعمال لفظه قرينة:

عن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ. مسلم كتاب الجنائز، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ. البخاري كتاب الإيمان، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ. كتاب الإيمان. وفي مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ عَدُوَّ اللَّه وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ.كتاب الإيمان؛ عَنْ جَرِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ اسْتَنْصِتْ النَّاسَ فَقَالَ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ. البخاري كتاب العلم، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلَةِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا اللَّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّه وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ

بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ. البخاري كتاب الأذان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِدَالٌ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ. وفي رواية عنه: مِرَاءٌ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ. أحمد باقي مسند المكثرين.

قال الإمام ابن حجر في فتح الباري: وإن ثبت ذاك فالمراد من استحل ذلك مع علمه بالتحريم، وعلى الرواية المشهورة فالمراد كفر النعمة، وظاهر اللفظ غير مراد وإنما ورد على سبيل التغليظ والزجر لفاعل ذلك، أو المراد بإطلاق الكفر أن فاعله فعل فعلاً شبيهاً بفعل أهل الكفر، وقد تقدم تقرير هذه المسألة في كتاب الإيمان،[٣٣٧]

وقال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: هذا الحديث مما عده بعض العلماء من المشكلات من حيث أن ظاهره غير مراد، وذلك أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر المسلم بالمعاصي كالقتل والزنا، وكذا قوله لأخيه كافر من غير اعتقاد بطلان دين الإسلام، وإذا عرف ما ذكرناه فقيل في تأويل الحديث أوجه، أحدهما: أنه محمول على المستحل لذلك وهذا يكفر، فعلى هذا معنى باء بها أي بكلمة الكفر، وكذا حار عليه وهو معنى رجعت عليه أي رجع عليه

٣٣٧) فتح الباري لابن حجر كتاب المناقب.

الكفر، فباء وحار ورجع بمعنى واحد. والوجه الثاني: معناه رجعت عليه نقيصته لأخيه ومعصية تكفيره.[٣٣٨]

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف في قوله تعالى [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون] فأولئك هم الفاسقون و الظالمون كفر دون كفر وفسق دون فسق وظلم دون ظلم وقد ذكر ذلك أحمد والبخاري وغيرهما.

قال الشيخ حمود الشعيبي رحمه الله: وقالوا أيضا (أي المرجئة) قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن تفسير هذه الآية [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون] فقال ابن عباس: كفر دون كفر، وفي رواية: ليس الكفر الذي يذهبون إليه.

والجواب عن هذا أن نقول: هشام بن حجير راوي هذا الأثر عن طاووس عن ابن عباس متكلم فيه من قبل أئمة الحديث كالإمام أحمد و يحي بن معين وغيرهما، وقد خالفه في هذه الرواية عن طاووس من هو أوثق منه وهو عبدالله بن طاووس، وقد روى عن أبيه أن ابن عباس لما سئل عن

---

٣٣٨) شرح النووي على صحيح مسلم كتاب الإيمان

تفسير هذه الآية قال: هي به كفر. (من فتوى الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي في تكفير الحكّام والمشرعين للقوانين الوضعية).

ورد في أحكام القرآن لابن عربي وللجصاص وفي كتب التفسير المختلفة: قَوْله تَعَالَى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ} اخْتَلَفَ فِيهِ الْمُفَسِّرُونَ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الْكَافِرُونَ وَالظَّالِمُونَ وَالْفَاسِقُونَ كُلُّهُ لِلْيَهُودِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الْكَافِرُونَ لِلْمُشْرِكِينَ، وَالظَّالِمُونَ لِلْيَهُودِ، وَالْفَاسِقُونَ لِلنَّصَارَى، وَبِهِ أَقُولُ؛ لأَنَّهُ ظَاهِرُ الآيَاتِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَجَابِر بْنِ زَيْدٍ، وَابْنِ أَبِي زَائِدَةَ، وَابْنِ شُبْرُمَةَ. قَالَ طَاوُسٌ وَغَيْرُهُ: لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنْ الْمِلَّةِ، وَلَكِنَّهُ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ. وَهَذَا يَخْتَلِفُ إنْ حَكَمَ بِمَا عِنْدَهُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ فَهُوَ تَبْدِيلٌ لَهُ يُوجِبُ الْكُفْرَ، وَإِنْ حَكَمَ بِهِ هَوًى وَمَعْصِيَةً فَهُوَ ذَنْبٌ تُدْرِكُهُ الْمَغْفِرَةُ عَلَى أَصْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْغُفْرَانِ لِلْمُذْنِبِين.[٣٣٩]

من حكم بغير ما أنزل الله، أي أنه رعى رعيته بغير ما حكم الله في أحكام رعايتهم، فانتهب من مال المسلمين مثلا، أو قضى بين اثنين وهو يعلم أن الحق لأحدهما فقضى للآخر، أو اتبع هواه في حكمه، غير مستحل لهذه الأحكام فإنه يعصي ولا يكفر، قد ينطبق عليه أنه فاسق في قوله تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون، أو أنه يطلق عليه الكفر

٣٣٩) ورد في أحكام القرآن لابن عربي وأحكام القرآن للجصاص وفي كتب التفسير المختلفة

من باب القرينة على عظيم فعله لا من باب خروجه من الإسلام إلى الكفر، فالفيصل هو ارتباط أو عدم ارتباط الفعل بالاستحلال، أو بمبارزة اللّه الحاكمية، شأن أي عاص استحل فعل الحرام ورد على اللّه أحكامه.

كما ترى فقد بينت الأحاديث أنه ثمة أفعال تعتبر من الكفر، ونص على كفر فاعلها، فهل هذا على أن المقصود هو الكفر حقيقة أم أن المقصود هو لفظ الكفر قرينة على عظم الفعل؟ والجواب أن من الأفعال ما كان فعله كفراً حقيقة لارتباطه بالاعتقاد، كمن يؤمن بالكوكب، ومنها ما هو قرينة على عظم الفعل، ولا بد من بيان ضوابط معينة تفصل هذا عن ذاك.

أما ما يشبه هذه القرائن ففي الحديث: كان أَبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ أَعُوذُ بِاللّه مِنْ الْكُفْرِ وَالدَّيْنِ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللّه أَيُعْدَلُ الدَّيْنُ بِالْكُفْرِ فَقَالَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَمْ. أحمد باقي مسند المكثرين.

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللّه أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ قَالَ الْحَمْوُ الْمَوْتُ. البخاري كتاب النكاح. وأمثال ذلك كثير والأمر واضح، فالكفر إذن يستعمل قرينة على عظم الفعل ولا يقصد لذاته، وإلا لكان فاعل ذلك الفعل يعاقب عقوبة المرتد، وقد جاء في الحديث:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ كُنَّا مَعَ عُثْمَانَ وَهُوَ مَحْصُورٌ فِي الدَّارِ قَالَ وَلِمَ تَقْتُلُونَنِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ رَجُلٌ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ أَوْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ أَوْ قَتَلَ نَفْسًا فَيُقْتَلُ بِهَا. أحمد مسند العشرة المبشرين بالجنة.

ولا يظنن أحد أن الكفر بعد الإسلام أمر فضفاض يدخل فيه ما شاء من الأفعال، بل هو منضبط بقواعد ليس هنا مكانها، وأقول أن الأمر لا بد من أن يتعلق بالاعتقاد، أو الأفعال التي لا تقبل التأويل والتي ترتبط مباشرة بالاعتقاد، وسيأتي بيان ذلك كله ان شاء اللّه في فصل مستقل، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ الْعُقَيْلِيِّ قَالَ كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنْ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ. الترمذي. كتاب الإيمان عن رسول اللّه.

وقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَالْكُفْرُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ وَلَا يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا تَجْتَمِعُ الْخِيَانَةُ وَالْأَمَانَةُ جَمِيعًا. أحمد باقي مسند المكثرين.

فصل: إيمان ونفاق في القلب

وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ مسند أحمد باقي مسند المكثرين.

وأما النفاق المذكور هنا فليس من النفاق الأكبر المخرج من الملة، بل هو خصلة من النفاق الأصغر، أو أكثر توجد في قلب المؤمن، يضعف معها الإيمان، والمؤمن لا يرضى عنها، مصداق ذلك مثلا ما جاء في الحديث "عَنْ زَيْدِ بْنِ سَلَّامٍ عَنْ جَدِّهِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ يَقُولُ سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا الْإِثْمُ فَقَالَ إِذَا حَكَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ فَدَعْهُ قَالَ فَمَا الْإِيمَانُ قَالَ إِذَا سَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ وَسَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ" أحمد، باقي مسند الأنصار. ولا مجال لتفصيلٍ أكبر هنا فالأمر واضح.

أو أنه نفاق بل كفر في مرحلة التفكر في أمر العقيدة الإسلامية لتبنيها إبان الدخول في الدين، فلا نتصور ممن يدخل الدين أن يكون كالصحابة رضوان اللّه عليهم يترك أحدهم أفكار الكفر بباب المسجد إلى غير رجعة حين يدخله مؤمناً، فمن الممكن إذن وجود مثل هذه الحالة، لذلك نص الحديث على أن: مَثَل الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ وَمَثَل

النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ، أي أنه لا يبقى كذلك بل يغلب الإيمان النفاق أو يغلبه في هذا القلب.

أما اليقين فإنه لا يتزحزح ولا يتفاضل، فإن حاك في الصدر شيء أوشَكَ أن يقع في الشك فيكفر فلا مجال للحديث عن زيادته ونقصه وكماله، وهو غير مرتبط بما في الصدر من تقلبات وإقبال وإدبار. والله أعلم.

قال ابن مفلح: وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مَنْ كَانَ مُصَدِّقًا بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَفَعَلَ هَذِهِ الْخِصَالَ يَعْنِي الْأَرْبَعَ الَّتِي مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا لَا يُكَفَّرُ، وَلَا هُوَ مُنَافِقٌ يَخْلُدُ فِي النَّارِ، فَإِنَّ إخْوَةَ يُوسُفَ وَغَيْرَهُمْ جَمَعُوا هَذِهِ الْخِصَالَ. قَالَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ: وَمَعْنَى الْخَبَرِ أَنَّهُ يُشْبِهُ الْمُنَافِقَ، فَإِنَّهُ أَظْهَرَ خِلَافَ مَا أَبْطَنَ.[٣٤٠]

قال ابن تيمية (وقال ابن مسعود الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل رواه أحمد وغيره وهذا كثير في كلام السلف يبينون أن القلب قد يكون فيه إيمان ونفاق والكتاب والسنة يدلان على ذلك فان النبي ذكر شعب الإيمان وذكر شعب النفاق وقال من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه

---

٣٤٠) الفروع لابن مفلح > كتاب الحدود > باب حكم المرتد > مسألة حد المنافق

شعبة من النفاق حتى يدعها وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الإيمان ولهذا قال ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار وأن من كان معه كثير من النفاق فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك ثم يخرج من النار وعلى هذا فقوله للأعراب لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم نفى حقيقة دخول الإيمان في قلوبهم وذلك لا يمنع أن يكون معهم شعبة منه كما نفاه عن الزاني والسارق ومن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ومن لا يأمن جاره بوائقه وغير ذلك كما تقدم ذكره فإن في القرآن والحديث ممن نفى عنه الإيمان لترك بعض الواجبات شيء كثير وحينئذ فنقول من قال من السلف أسلمنا أي استسلمنا خوف السيف وقول من قال هو الإسلام الجميع صحيح فان هذا إنما أراد الدخول في الإسلام والإسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون فيدخل فيه من كان في قلبه إيمان ونفاق وقد علم أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان بخلاف المنافق المحض الذي قلبه كله أسود فهذا هو الذي يكون في الدرك الأسفل من النار ولهذا كان الصحابة يخشون النفاق على أنفسهم ولم يخافوا التكذيب لله ورسوله فان المؤمن يعلم من نفسه أنه لا يكذب الله

ورسوله يقيناً وهذا مستند من قال أنا مؤمن حقاً فإنه أراد بذلك ما يعلمه من نفسه من التصديق الجازم)[341]

قوله رحمه الله: والحديث ممن نفى عنه الإيمان لترك بعض الواجبات شيء كثير، ينبغي أن يحمل على أنه نفي الكمال، لا نفي الصحة، فإن من لا يستحل الذنوب لا يكفر على فعلها، فالزاني قد ورث، والذي يخلف الوعد، وإن كانت فيه خصلة من نفاق، إلا أنه لا يخرجه من الإسلام إلى الكفر، لذا لا يصح الاحتجاج بهذا للقول بأن في القلب مع الإيمان شيء من الكفر!

كما أن من دخل الإسلام مخافة السيف وأبطن الكفر لا يقال أن معه في قلبه إيمان وكفر، بل هو كافر وما مَثَلُ عبد الله بن أبي بن أبي سلول منا ببعيد.

---

٣٤١) الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٨١

فصل: غير المؤمن كافر؛ وغير الإيمان كفر:

يقول الحق سبحانه في مقابلة الإيمان بالكفر: [إِنَّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ] ٢٦ البقرة؛ [إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئًا وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] ١٧٧ آل عمران؛ [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ] ١٢٦البقرة؛ [اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] ٢٥٧ البقرة؛ [وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ] ٢٥٣ البقرة؛ [يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ] ١٠٦ آل عمران؛ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ] ١٥ الأنفال؛ [أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ] ١٠٨ البقرة؛

بعد أن تبين لنا أن المسلم حقاً لا بد أن يكون مؤمناً، وأن غاية ما فرق القرآن فيه بينهما هو لوصف المنافق المدعي الإسلام على أنه مسلم في أحكام الدنيا ومرده إلى الله يوم القيامة، وتبين أن المؤمن لا يكون كذلك بإخلاله بركن واحد من أركان الإيمان، أو بما يتعلق بالاعتقاد من الأحكام الشرعية، بل يصبح كافراً، وبالتالي فإن غير المؤمن كافر قطعاً، وسيأتي إن شاء الله الفرق بين المؤمن والمؤمن حقاً فإذا ما تبين لك ذلك فلا شك أن غير المؤمن كافر قطعاً، وليس ثمة نصف مؤمن ونصف كافر، والمرء إذ يخرج من الإيمان فإنما يدخل في الكفر، ولا نقول بأنه يدخل في الإسلام، وكذلك فإن الأفكار في الدنيا إما أن تكون أفكار إسلام أو كفر، والدار إما دار إسلام أو كفر، والمجتمعات إما إسلامية أو كافرة، وهذا المفهوم غاية في الأهمية في واقع المسلمين إبان نهضتهم، ولا يجوز لنا أن نبقى هكذا بين بين في أفكارنا وأحكامنا على الأمور، والله أعلم.

فيجب التدقيق في أن من ترك ما يسمى الإيمان به إيماناً أو أخل به بما يخرجه منه، فإنه يدخل في الكفر، وأما من يخل بشيء لا يدخل في مسمى الإيمان بل من مكملاته، فلا يدخل في الكفر، وعدم دخوله في الكفر يعني أن الأمر الذي أخل به ليس من مسمى الإيمان، من هنا كان ما يسمى الإيمان به إيماناً لا ينفك عن أن يتلازم مع المؤمن وجوداً وعدماً بينما ما هو من مكملاته فليس كذلك فهذا هو الضابط.

فصل: ﴿فإن علمتموهن مؤمنات﴾:

قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ] ... الآية ١٠ الممتحنة، ثار حول هذه الآية نقاش أساسه العلاقة بين العلم والظن، وذلك بناء على أن إحداهن إذا سُئلت عن إيمانها، فأخبرت بعلامات معينة يثبت بها إيمانها، فينشأ عن خبرها لدى السامع علماً، وخبر الواحد لا يفيد العلم، وبالتالي كيف بين الحق سبحانه أن الذي تكوّن لدى السامع منها علم؟

قال الإمام الخطيب البغدادي في كتابه الكفاية في علم الرواية، تحت عنوان: ذكر شبهة من زعم أن خبر الواحد يوجب العلم وإبطالها: (فأما من قال من الفقهاء أن خبر الواحد يوجب العلم الظاهر دون الباطن فإنه قول من لا يحصل علم هذا الباب، لأن العلم من حقه أن لا يكون علماً على الحقيقة بظاهر أو باطن إلا بأن يكون معلومه على ما هو به ظاهراً أو باطناً [لعله يقصد مطابقة الواقع للمعلوم] فسقط هذا القول.

وقال: وتعلقهم في ذلك بقول الله عز وجل: [فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ] بعيد لأنه أراد تعالى وهو أعلم: فإن علمتموهن في إظهارهن لشهادتهن ونطقهن بها وظهور ذلك منهن معلوم يدرك إذا وقع. وإنما سمي النطق

إيماناً على معنى أنه دال عليه وعلم في اللسان على إخلاص الاعتقاد ومعرفة القلب مجازاً واتساعاً ولذلك نفى تعالى الإيمان عمن علم أنه غير معتقد له في قول [قالت الأعراب ءامنا] أي قولوا استسلمنا فزعاً من أسيافهم.)[٣٤٢]

أقول وبالله التوفيق: ليس بدقيق ما قاله البغدادي رحمه الله، ودائماً أحب التمعن في كل كلمة في الآية لأصل إلى الرأي الأدق: أنظر إلى قوله تعالى: [فإن علمتموهن] فالعلم يعود عليكم، يخصكم، وهنا نتساءل، كيف يحصل لنا العلم بخبر من الأخبار أو بحقيقة ما؟ إما بخبر التواتر، وهو هنا غير متوفر لدى امتحانهن، وإما بالدليل العقلي، وهو معنى امتحنوهن، فإذا أجابت الواحدة عن دليل إيمانها بما يبعث الطمأنينة في نفس السائل إلى أنها اعتنقت العقيدة عن اقتناع، أفاد ذلك لديه علماً بأنها مؤمنة، وللدقة ذكرت الآية قبل ذلك جملة مهمة جداً: [اللّه أعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ] وذلك لأن لنا الظاهر منها ولا نستطيع بأي امتحان أن نعلم علم ما في القلب، [والله أعلم بإيمانكم] وهذه الدقة مهمة جداً لما سيترتب عليها من أحكام، منها النكاح مثلا.

ولكن يهمني أيضاً أن الأساس الأول لاعتبارها مسلمة هو العلم منها بالإيمان، ليتفرع من ذلك انطباق الأحكام الخاصة بالمسلمين عليها، وفي

---

٣٤٢) الإستدلال بالظني في العقيدة. فتحي سليم. ص ١٢٦

نسبة العلم إلى المؤمنين عنهن بقوله [علمتموهن] حكمة عظيمة فلو كان الأساس الذي نوقشت على أساسه الآية صحيحاً وهو العلم المبني على الظن لأدى إلى نتائج خطيرة من إمكانية بناء العلم على الظن، وهو ما نفته الآيات في غير موضع من القرآن، لأن العلم الناشئ هنا ليس هو العلم بحقيقة الإيمان أهي مؤمنة عند الله أم لا، فهذا علمه عند الله، لكن العلم المطلوب هنا هو ما يخص المؤمنين هم، ليبنوا عليه أحكاماً تتعلق بهذا الفرد القادم إلى المجتمع الإسلامي، فالعلم المقصود هنا علمهم لا علم الله سبحانه، لذا قال تعالى [الله أعلم بإيمانهن]، [فإن علمتموهن مؤمنات]، قال تعالى في آية مشابهة: [وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّه أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ٢٥ النساء، لاحظ أن الموضوع متطابق، نحن نعلم إيمان بعضنا البعض ظاهراً ولا نعلم هل نحن مؤمنون عند الله.

فبحث الآية على أساس أن العلم ينشأ عن ظن ليس مدخلا صحيحاً لنقاش الآية، فنحن لا نبحث عن علم ما في قلوبهن، بل نبحث عن ظاهرهن لينشأ عن ذلك أحكام تخصهن لذلك لاحظت كيف تخبط البغدادي رحمه الله

في وصف الإيمان هنا بقوله: وإنما سمي النطق إيماناً على معنى أنه دال عليه وعلم في اللسان على إخلاص الاعتقاد ومعرفة القلب مجازاً واتساعاً، وهو خطأ كبير، فليس ما نبحث عنه مجرد النطق، فليس هذا بالامتحان، ولا يوصف الإيمان بأنه مجرد النطق باللسان كما لا يخفى.

ولئن كان الامتحان مجرد السؤال عن الشهادتين مثلا، ونتج عن ذلك العلم، فأقول: لسنا هنا نبحث عن الإيمان الباطني، أي عما في القلب، بل نصدق المؤمنة القادمة بقولها أنا مؤمنة، ونتذكر هنا أن الوحي كان ما يزال ينزل، ولو كذبت إحداهن لنزل الذكر بتكذيبها، فكان عدم تكذيب إحداهن بالوحي دليلا على صدقهن يوصل إلى العلم، كذلك ما هو العلم الناشئ هنا؟

إنه العلم بأنهن مؤمنات، ظاهراً، فالله هو العليم بالباطن، فأنت تسألها أتشهدين لله بالوحدانية، ولمحمد بالرسالة وبالبعث؟ فتجيب أشهد، فينشأ عن ذلك علم بأنها تشهد ذلك، لا بأنها مؤمنة باطناً، فأنت تشهد أنها ظاهراً فعلت ما على من يؤمن أن يفعله، فكانت مؤمنة في نظرك وعلم باطنها عند الله تعالى، والمهم جداً هنا أنه لولا ذلك لما استطعنا الحكم على أي امرئ بالإيمان وبالتالي تطبيق أحكام الإسلام الخاصة بالإيمان كالنكاح مثلا عليه، فلو جاءك رجل يخطب فكيف لك أن تعلم إن كان مؤمناً أم كافراً، وعلم الباطن عند الله، ولو جاء بمن في الأرض شهوداً فلن يوصلك

ذلك إلى العلم بحقيقة إيمانه عند اللّه تعالى، ففي هذه الآيات تأصيل لهذا المبدأ الهام، واللّه أعلم. لكن لا ينبغي القول بأن الإيمان هو مجرد القول.

أما قوله بأن علم الظاهر لا بد من أن يكون مطابقاً لعلم الباطن فصحيح عموماً، لكننا هنا لا نبحث عن علم ما في قلوبهن كما أسلفت لأن اللّه أعلم به، ووجود الاستدراك هذا سابقاً لعلمنا الناشئ عن الامتحان يبين أن المطلوب ليس علم ما في القلوب وإنما ظاهرها أنها مؤمنة، لأنه لا يكون المرء مسلماً حتى يكون مؤمناً.

وينشأ عن هذه الآية نتيجة خطيرة أخرى: وهي إثبات أن الإيمان هو العلم الناشئ عن التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل مستوفياً للاتباع والاستسلام، فليس ما نسأل عنه هو العمل هنا بل الاعتقاد، فبعد العلم بإيمانهن، نأخذ منهن البيعة على الأعمال.

كذلك يثبت أن من ينجح في هذا الامتحان الظاهري يحكم عليه بالإيمان، بينما في آية الحجرات ادّعى الأعراب الإسلام فحكم لهم بالإسلام، وأعلمنا هو سبحانه بأنهم غير مؤمني الباطن، لبيان إمكانية وجود هذا النوع من الناس في المجتمع، لكن الطبيعي أن المسلم لا بد من أن يكون مؤمناً، وعلامة ذلك امتحانه في عقيدته وأدلتها وعلمه بما يعتقد، فلا بد من المعرفة لتثبت للمرء صفة الإيمان.

من هنا قسمنا الدين إلى دائرتين كما سيأتي إن شاء اللّه تفصيله: دائرة الإسلام تختص بالأعمال والإخلاص وغيره، ودائرة الإيمان وتختص بأعمال القلوب واللّه أعلم.

وأستدرك هنا أن الدائرتين متداخلتان، فيطلق أحياناً على الإيمان ما هو من الإسلام كإطلاق الرسول الأكرم عليه السلام على الإيمان أنه الصلاة وغيرها، وعلى الإيمان أفعالا كالجهاد والسجود لدى سماع الذكر وما إلى ذلك واللّه أعلم.

جاء في اللباب: (فامتحنوهن: قيل: أنه كان من أرادت منهن إضرار زوجها، قالت: سأهاجر إلى محمد صلى اللّه عليه وسلم، فلذلك أمر النبي صلى اللّه عليه وسلم بامتحانهن، واختلفوا فيما كان يمتحنهن به. فقال ابن عباس: كان يمتحنهن بأن يستحلفن باللّه أنها ما خرجت من بغض زوجها ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقاً برجل من المسلمين، ولا لحدث أحدثته، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام، وحب اللّه ورسوله، فإذا حلفت باللّه الذي لا إله إلا هو على ذلك أعطى النبي صلى اللّه عليه وسلم زوجها مهرها ولم يردها، (أخرجه الطبري في تفسيره ٦٤/١٢) وروي عن ابن عباس أيضاً أن المحنة كانت أن تشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه (أخرجه الطبري في تفسيره ٦٤/١٢، والسيوطي في الدر المنثور ٣٠٨/٦) وروى معمر عن الزهري عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: ما

كان رسول الله عليه السلام يمتحنهن إلا بالآية [إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً] (الطبري ١٢/٦٤)[٣٤٣]

٣٤٣) اللباب في علوم الكتاب.لأبي حفص الدمشقي الحنبلي ١٩/٢٥

فصل: ترك الصلاة:

عَنْ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ سَمِعْتُ جَابِرًا يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ. مسلم. كتاب الإيمان. عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ. النسائي كتاب الصلاة. ابن ماجه، عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ شَقِيقٍ الْعُقَيْلِيِّ قَالَ كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنْ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ. الترمذي. كتاب الإيمان عن رسول اللَّه. عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ. النسائي كتاب الصلاة. ابن ماجه. قال الإمام أبو الوليد بن رشد القرطبي: (وأما ما الواجب على من تركها عمداً وأُمر بها فأبى أن يصليها لا جحوداً لفرضها، فإن قوماً قالوا: يقتل، وقوماً قالوا: يعزر ويحبس، والذين قالوا يقتل منهم من أوجب قتله كفراً، وهو مذهب أحمد وإسحاق وابن المبارك، ومنهم من أوجبه حداً وهو مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابه وأهل الظاهر ممن رأى حبسه وتعزيره حتى يصلي.

والسبب في هذا الاختلاف اختلاف الآثار، وذلك أنه ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان أو

زنا بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس" وروي عنه صلى الله عليه وسلم من حديث بريدة أنه قال "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر" وحديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ليس بين العبد وبين الكفر –أو قال الشرك- إلا ترك الصلاة"، فمن فهم من الكفر ههنا الكفر الحقيقي جعل هذا الحديث كأنه تفسير لقوله عليه السلام "كفر بعد إيمان" ومن فهم ههنا التغليظ والتوبيخ أي أن أفعاله أفعال كافر وأنه في صورة كافر كما قال "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن" لم ير قتله كفراً.

وأما من قال يقتل حداً فضعيف ولا مستند له إلا قياس شبه ضعيف إن أمكن.

وعلى الجملة فاسم الكفر إنما ينطلق بالحقيقة على التكذيب، وتارك الصلاة معلوم أنه ليس بمكذب إلا أن يتركها معتقداً لتركها هكذا، فنحن إذن بين أحد أمرين: إما إن أردنا أن نفهم من الحديث الكفر الحقيقي يجب علينا أن نتناول أنه أراد عليه السلام من ترك الصلاة معتقداً لتركها فقد كفر، وإما أن يحمل على اسم الكفر على غير موضوعه الأول وذلك على أحد معنيين، إما على أن حكمه حكم الكافر: اعني في القتل وسائر أحكام الكفار، وإن لم يكن مكذباً، وإما على أن أفعاله أفعال كافر على جهة التغليظ والردع له: أي أن فاعل هذا يشبه الكافر في الأفعال، إذ كان الكافر لا يصلي، كما قال عليه الصلاة والسلام "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن".

وحمله على أن حكمه حكم الكافر في أحكامه لا يجب المصير إليه إلا بدليل لأنه حكم لم يثبت بعد في الشرع من طريق يجب المصير إليه، فقد يجب إذا لم يدل عندنا على الكفر الحقيقي الذي هو التكذيب، أن يدل على المعنى المجازي لا على معنى يوجب حكماً لم يثبت بعد في الشرع بل يثبت ضده، وهو أنه لا يحل دمه إذ هو خارج عن الثلاث الذين نص عليهم الشرع فتأمل هذا، لأنه بين. والله أعلم.

أعني أنه يجب علينا أحد أمرين: إما أن نقدر في الكلام محذوفاً إن أردنا حمله على المعنى الشرعي المفهوم من اسم الكفر، وإما أن نحمله على المعنى المستعار، وأما حمله على أن حكمه حكم الكافر في جميع أحكامه، مع أنه مؤمن فشيء مخالف للأصول، مع أن الحديث نص في حق من يجب قتله كفرا أو حداً، ولذلك صار هذا القول مضاهياً لقول من يكفر بالذنوب.)[٣٤٤]

---

٣٤٤) بداية المجتهد ونهاية المقتصد. ابن رشد القرطبي. ٩١/١

فصل: علاقة الإيمان بالعمل:

باب: الفرق بين العقيدة والحكم الشرعي

قال الإمام العلامة تقي الدين النبهاني رحمه الله (العقيدة في اللغة ما عقد عليه القلب. ومعنى عقد عليه أي جزم به؛ أي صدقه يقيناً وهذا عام يشمل التصديق بكل شيء.

غير أن التصديق بالشيء ينظر فيه إلى الشيء الذي يصدق به فإن كان أمراً أساسياً أو متفرعاً عن أمر أساسي فإنه يصح أن يسمى عقيدة لأنه يصح أن يتخذ مقياساً أساسياً لغيره، فيكون لانعقاد القلب عليه أثر ظاهر.

وإن كان الشيء الذي يصدق به ليس أمراً أساسياً ولا متفرعاً عن أمر أساسي فإنه لا يكون من العقائد لأن انعقاد القلب عليه لا يكون له أي أثر، فلا يوجد في الاعتقاد به أي واقع أو أي فائدة.

أما إن كان لانعقاد القلب عليه أثر يدفع لتعيين موقف تجاهه من التصديق والتكذيب فيكون من العقيدة.

والعقيدة: هي الفكرة الكلية عن الكون والإنسان والحياة وما قبل الحياة الدنيا وما بعدها، وعلاقتها بما قبلها وما بعدها.

وهذا تعريف لكل عقيدة وينطبق على العقيدة الإسلامية، وتدخل فيه المغيبات. فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيرهما وشرهما من الله تعالى هو العقيدة الإسلامية والإيمان بالجنة والنار والملائكة والشياطين وما شاكل ذلك هو من العقيدة الإسلامية والأفكار وما يتعلق بها، والأخبار وما يتعلق بها من المغيبات التي لا يقع عليها الحس يعتبر من العقيدة.

أما الأحكام الشرعية فهي خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد. وبعبارة أخرى هي الأفكار المتعلقة بفعل الإنسان أو بصفة من صفاته باعتبارها من أفعاله [كالصدق] فالإجازة والبيع والربا والكفالة والوكالة والصلاة وإقامة خليفة وإقامة حدود الله وكون الخليفة مسلماً وكون الشاهد عدلا وكون الحاكم رجلا وما شاكل ذلك تعتبر كلها من الأحكام الشرعية؛ والتوحيد والرسالة والبعث وصدق الرسول وعصمة الأنبياء وكون القران كلام الله والحساب والعذاب وما شاكل ذلك من العقيدة.

فالعقائد أفكار تُصدّق والأحكام الشرعية خطاب يتعلق بفعل الإنسان.

فركعتا الفجر حكم شرعي من حيث صلاتهما؛ والتصديق بكونهما من الله عقيدة؛ فصلاة ركعتي سنة الفجر سنة لو لم يصلها لا شيء عليه ولو صلاها له ثواب مثل ركعتي المغرب سواء بسواء من حيث الحكم الشرعي، أما

من حيث العقيدة فالتصديق بركعتي الفجر أمر حتمي وإنكارهما كفر لأنهما ثبتتا بطريق التواتر.

أما التصديق بركعتي المغرب فمطلوب، ولكن إنكارهما لا يعتبر كفراً لأنهما ثبتتا بدليل ظني وهو خبر آحاد [وسيأتي لاحقاً مناقشة موضوع خبر الآحاد إن شاء الله] وخبر الآحاد ليس بحجة في العقائد. وقطع يد السارق حكم شرعي، وكون ذلك من الله والتصديق به عقيدة وتحريم الربا حكم شرعي والتصديق بكونه من الله تعالى عقيدة... وهكذا. وعليه فهنالك فرق بين العقيدة والحكم الشرعي.

فالعقيدة هي الإيمان وهو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل؛ والمطلوب فيه هو القطع واليقين والحكم الشرعي هو خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد ويكفي فيه الظن. فإدراك الفكر والتصديق بوجود واقعه أو عدم وجوده هو عقيدة. وإدراك الفكر واعتباره معالجة لفعل من أفعال الإنسان أو عدم اعتباره معالجة هو حكم شرعي.

فلأجل اعتبار الفكر معالجة يكفي الدليل الظني أما لأجل التصديق بوجود واقع الفكر فلا بد من الدليل القطعي.)[٣٤٥]

---

٣٤٥ الشخصية الإسلامية. الإمام تقي الدين النبهاني. ١/ ١٦٦-١٦٨

فإذا ثبت الحكم الشرعي بالدليل فإن الإيمان بأنه المعالجة الصحيحة للمشكلة: من العقيدة؛ والكفر بأنه المعالجة الصحيحة كفر.

وقال الإمام النبهاني (واللّه تعالى طلب الإيمان بأشياء والتصديق بها، وطلب العمل بأشياء والقيام بها؛ فقال: [ءامنوا باللّه ورسوله] وقال: [وأقيموا الصلاة] فما طلب الإيمان به لا محل للقول بهل يجب العمل به أم لا يجب، لأن المطلوب هو الإيمان وليس العمل؛ ولأن العمل غير مُتَأت إذ الموضوع تصديق وغير تصديق وليس عملا وغير عمل؛ فالإيمان بيوم القيامة وبوجود الشياطين وبالجن...الخ لا يتأتى القول بهل يعمل بها أم لا يعمل؛ وهو غير مطلوب وإذا كان هناك عمل فهو ليس عملا بها وإنما هو عمل بما يترتب عليها كالإيمان بيوم القيامة والحساب يترتب عليه الخوف من عذاب اللّه فيترك المعاصي أما نفس ما طلب الإيمان به فقضية العمل به غير واردة وهي ليست ذات موضوع.

ويقابله ما طلب العمل به فإنه لا محل للقول بهل يجب الإيمان به أم لا يجب؟

لأن المطلوب هو العمل بالشيء والقيام به وليس التصديق والإيمان؛ فالموضوع عمل وعدم عمل وليس تصديقاً وعدم تصديق؛ فالقيام بالصلاة وترك لحم الميتة والقيام بالبيع وترك الربا والقيام بالإنفاق على الأولاد

وترك عقوق الوالدين...الخ كل ذلك لا يتأتى القول بهل يؤمن بهذه الأحكام أم لا يؤمن بهذه الأحكام فإنه غير مطلوب؛ وعليه فإن قضية الإيمان بنفس الحكم الشرعي غير واردة؛ وهي ليست ذات موضوع أصلا، على أنه يجب أن يلاحظ هنا أن الإيمان بالحكم يعني الاعتقاد بصحته وصدقه في معالجة المشكلة وعدم الإيمان به هو الاعتقاد بعدم صحته وعدم صدقه؛ هذا هو الإيمان بنفس الحكم؛ فمن يرى أن قطع يد السارق حكم غير صحيح لمعالجة السرقة وأن حبسه هو الحكم الصحيح فإن هذا لا يؤمن بهذا الحكم؛ فهو لا ينكر أن قطع يد السارق حكم شرعي ولكنه لا يعتقد بصحته في معالجة المشكلة فهو إذن غير مؤمن بهذا الحكم، بل هو كافر به ولذلك يكفر ويكون مرتداً عن الإسلام.

أما مسألة الاعتقاد بأن الحكم هذا حكم شرعي فإن هذا لا يتعلق بالإيمان وإنما يتعلق بأنه هل جاء به الشرع أم لا.

وإثباته أن يؤتى بنص شرعي يحوي هذا الحكم فيثبت بذلك أنه حكم شرعي وهذا يكفي فيه غلبة الظن وهو غير متعلق بالإيمان بالأحكام وإنما يتعلق بأخذ الأحكام باعتبار الشرع والعمل بها؛ فالقول بأن هذا حكم شرعي أو ليس حكماً شرعياً لا علاقة له بالإيمان على الإطلاق بل علاقته بالعمل ليس غير.

وأما مسألة الاعتقاد بأن هذا حكم الله وغيره ليس حكم الله فإن ذلك متعلق بالله وكونه متعلقاً بالله صار متعلقاً بالإيمان؛ ولذلك يحرم أن يقال عن حكم أن هذا حكم الله وغيره ليس حكم الله إذا كان دليله ظنياً؛ لأنه نسب إلى الله حكماً فصار من العقيدة، ولذلك لا يجوز أن يقال أن هذا الحكم هو حكم الله إلا إذا كان دليله قطعياً.

فكل ما كان متعلقاً بما طلب الإيمان به يكون من العقائد وكل ما لم يطلب الإيمان به بأن طلب العمل به فإنه ليس من العقائد.) إ. هـ.

باب: هل فرض اللّه الفرائض ولم يرد منا عملها؟

قال الآجري في كتاب الشريعة: أخبرنا خلف بن عمرو العكبري قال: حدثنا الحميدي قال: سمعت وكيعا يقول: أهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل، والمرجئة يقولون: الإيمان قول، والجهمية يقولون: الإيمان المعرفة قال محمد بن الحسين: من قال: الإيمان قول دون العمل، يقال له: رددت القرآن والسنة، وما عليه جميع العلماء، وخرجت من قول المسلمين، وكفرت باللّه العظيم فإن قال: بم ذا؟ قيل له: إن اللّه عز وجل، أمر المؤمنين بعد أن صدقوا في إيمانهم: أمرهم بالصلاة والزكاة، والصيام والحج والجهاد، وفرائض كثيرة، يطول ذكرها، مع شدة خوفهم، على التفريط فيها، النار والعقوبة الشديدة، فمن زعم أن اللّه تعالى فرض على المؤمنين ما ذكرنا، ولم يرد منهم العمل، ورضي منهم بالقول، فقد خالف اللّه عز وجل ورسوله صلى اللّه عليه وسلم، فإن اللّه عز وجل لما تكامل أمر الإسلام بالأعمال قال: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، وقال صلى اللّه عليه وسلم: من ترك الصلاة فقد كفر، [٣٤٦]

---

٣٤٦) الشريعة للآجري باب في المرجئة وسوء مذاهبهم.

وللتدقيق فإن الإيمان بأن الله فرض الصلاة من العقيدة، ورد هذا كفر، على التفصيل الذي ورد في كلام الإمام تقي الدين النبهاني أعلاه، ونجمله في النقاط التالية لأهميتها:

أولا: التصديق الجازم بما ثبت بالدليل القطعي، فقد وردت ركعتا سنة الفجر بالتواتر، فالإيمان بأنها ثابتة قطعا يعني عدم ردها أو إنكار أنها ثابتة، لأن في ردها تكذيب أمر ورد بالتواتر، فهذا من الاعتقاد، وهو غير القيام بها أي غير أدائها.

ثانيا: الإيمان بأنها المعالجة الصحيحة للمشكلة أو الحكم السليم للواقعة، أو العمل الأمثل الذي على الإنسان القيام به تجاه هذا الأمر، فمثلا، حكم الشرع بتحريم الخنزير هو المعالجة الصحيحة والمثلى تجاه لحم الخنزير، وقطع يد السارق هي المعالجة الأفضل لهذه الجريمة، والزاوية التي ننظر منها ليست في تحقيق المصالح الدنيوية أو إدراك العلة التي لأجلها شرع الحكم، بل القاعدة أنه حيثما وجد شرع الله فثم المصلحة، ونظام الإسلام إنما شرع ليصلح الإنسان في كل زمان ومكان بأوامر الله وبانتهائه عن نواهيه، وأنه النظام الأمثل لعمران الكون.

فالإيمان بالحكم يعني الاعتقاد بصحته وصدقه في معالجة المشكلة وعدم الإيمان به هو الاعتقاد بعدم صحته وعدم صدقه؛ فهذه وتلك يترتب عليهما إيمان وكفر.

ثالثا: الإيمان بما ثبت قطعا أنه حكم اللّه بأنه حكم اللّه، كالإيمان بأن حكم اللّه في الربا أنه حرام، فمن رد هذا الحكم على اللّه كفر، وهو أيضا غير حكم من قام بالتعامل بالربا فهو عاص بارز اللّه المعصية وآذن نفسه بحرب من اللّه ورسوله.

رابعا: وقطع يد السارق حكم شرعي، وكون ذلك من اللّه والتصديق به عقيدة وتحريم الربا حكم شرعي والتصديق بكونه من اللّه تعالى عقيدة، فأخذ الأحكام على أنها وحي وشريعة من اللّه أمر لا ينفصل عن الاعتقاد، إذ أن أقواما أخذوا يدخلون على دين اللّه ما ليس منه بحجة عدم مخالفته للإسلام أو بحجة أنه لا يتعارض معه، فهم علاوة على اتهام الشريعة بالنقص والحاجة لغيرها لسد هذه الثغرات، إلا أنهم نسوا أن الإسلام إنما يثبت بطريق الوحي، فمن سن قانونا في دولة بقطع يد السارق على أنه حكم جيد لا على أنه حكم اللّه، فإنه يكون قد طبق حكم كفر، ويكون قد شرع دينا غير الذي أذن به اللّه، لأن قطع يد السارق يجب أن يؤخذ على أنه من الوحي حتى يعتبر إسلاما، وعليه فقس كل التشريعات، فهذا جزء لا يتجزأ من الاعتقاد.

خامسا: أما مسألة الاعتقاد بأن الحكم هذا حكم شرعي فإن هذا لا يتعلق بالإيمان وإنما يتعلق بأنه هل جاء به الشرع أم لا.

وإثباته أن يؤتى بنص شرعي يحوي هذا الحكم فيثبت بذلك أنه حكم شرعي وهذا يكفي فيه غلبة الظن وهو غير متعلق بالإيمان بالأحكام وإنما يتعلق بأخذ الأحكام باعتبار الشرع والعمل بها؛ فالقول بأن هذا حكم شرعي أو ليس حكماً شرعياً لا علاقة له بالإيمان على الإطلاق بل علاقته بالعمل ليس غير.

والفرق بين النقطة الرابعة والخامسة أننا نبحث عن حكم الشرع في أمر ما، كالبحث في لحم الخنزير، أو في نقض الوضوء أو عدم نقضه من لمس الرجل للمرأة، فالحكم بأن لحم الخنزير حرام، والحكم بأن اللمس ينقض أو لا ينقض، حكم شرعي لا علاقة له بالاعتقاد، يثبت بالبحث بالأدلة والأمارات لإثبات أن الحكم الشرعي موجود فيها، ويجتهد المجتهد لتحصيل غلبة الظن بأن حكم الشارع في هذه المسألة هو كذا.

فإن ثبت له هذا الحكم فإن اعتقاد أن الله تعالى أنزل في هذا الأمر أو في هذا الشيء حكما، من الاعتقاد، وأن ما كان دليله قطعيا كحرمة لحم الخنزير يجب اعتقاد أن حكم الله فيه الحرمة لأنه ثبت بالقطع، وأما ما كان دليله ظنيا، كنقض الوضوء أو عدم نقضه من اللمس، فإنه لا يعتقد أن حكم الله

هو أنه ينقض، لمن ترجح لديه أنه ينقض، بل هو حكم شرعي، لكن عليه أن يعتقد أن للّه تعالى في هذه المسألة حكم، وعليه أن يعتقد أن الوحي أنزل ما يدلنا عليه، وعليه أن يعتقد أن الحكم يتوصل إليه مما أنزل الوحي. واللّه أعلم.

قال الغزالي في المستصفى من كلام القاضي ردا على المعتزلة: أن الشارع لو فعل ذلك للزمه تعريف الأمة بالتوقيف نقل تلك الأسامي، فإنه إذا خاطبهم بلغتهم لم يفهموا إلا موضوعها، ولو ورد فيه توقيف لكان متواتراً، فإن الحجة لا تقوم بالآحاد، احتجوا بقوله تعالى: {وما كان اللّه ليضيع إيمانكم} (البقرة: ١٤٣) وأراد به الصلاة نحو بيت المقدس، وقال: «نهيت عن قتل المصلين» وأراد به المؤمنين، وهو خلاف اللغة، قلنا: أراد بالإيمان التصديق بالصلاة والقبلة، وأراد بالمصلين المصدّقين بالصلاة، وسمي التصديق بالصلاة صلاة على سبيل التجوّز، وعادة العرب تسمية الشيء بما يتعلق به نوعاً من التعلق والتجوز من نفس اللغة، احتجوا بقوله: «الإيمان بضع وسبعون باباً، أعلاها شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» وتسمية الإماطة إيماناً خلاف الوضع، قلنا: هذا من أخبار الآحاد، فلا

يثبت به مثل هذه القاعدة، وإن ثبتت فهي دلالـة الإيمـان، فيتجـوز بتسـميته أيـماناً،[٣٤٧]

٣٤٧) المستصفى في أصول الفقه للإمام أبي حامد الغزالـي رحمـه الله بـاب القطـب الثالـث فـي كيفية استثمار الأحكام من مثمرات الأصول.

باب علاقة الإيمان بالعمل: بعض آراء أهل العلم في المسألة:

قال الإمام النووي: وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي رحمه اللّه في حديث سؤال جبريل صلى اللّه عليه وسلّم عن الإيمان والإسلام وجوابه قال: جعل النبي صلى اللّه عليه وسلّم الإسلام اسماً لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان، والتصديق بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدين، ولذلك قال صلى اللّه عليه وسلّم: «ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعاً يدل عليه قوله سبحانه وتعالى: {إن الدين عند اللّه الإسلام} و{رضيت لكم الإسلام ديناً} {ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه} فأخبر سبحانه وتعالى أن الدين الذي رضيه ويقبله من عباده هو الإسلام، ولا يكون الدين في محل القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل، هذا كلام البغوي.[٣٤٨]

---

٣٤٨) شرح النووي على صحيح مسلم باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر اللّه سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه

قال الألوسي رحمه الله: (وأوضح المذاهب أنه التصديق ولذا قال يعسوب المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه: إن الإيمان معرفة والمعرفة تسليم والتسليم تصديق، ويؤيد هذا المذهب قوله تعالى [أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ] ٢٢ المجادلة، وقوله تعالى [وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] وقوله صلى الله عليه وسلم: اللهم ثبت قلبي على دينك، حيث نسب فيها وفي نظائرها الغير المحصورة إلى القلب فدل ذلك على أنه فعل القلب وليس سوى التصديق إذ لم يبين في الشرع بمعنى آخر فلا نقل وإلا لكان الخطاب بالإيمان خطاباً بما لا يُفهم ولأنه خلاف الأصل فلا يُصار إليه بلا دليل واحتمال أن يراد بالنصوص الإيمان اللغوي فهو الذي محله القلب لا الإيمان الشرعي فيجوز أن يكون الإقرار أو غيره جزءاً من معناه يدفعه أن الإيمان من المنقولات الشرعية بحسب خصوص المتعلق ولذا بين صلى الله عليه وسلم متعلقة دون معناه فقال: أن تؤمن بالله وملائكته" الحديث فهو في المعنى اللغوي مجاز في كلام الشارع والأصل في الإطلاق الحقيقة، وأيضاً ورد عطف الأعمال على الإيمان كقوله تعالى [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ] ١٠٧ الكهف والجزء لا يُعطف على كله، وتنزل الملائكة والروح على أحد الوجهين بتأويل الخروج لاعتبار خطابي وتخصيصها بالنوافل بناء على خروجها خلاف الظاهر وكفى بالظاهر حجة، وأيضاً جعل الإيمان شرط صحة الأعمال كقوله تعالى [وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ

يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا] ١٢٤النساء [وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا] ١١٢ طه، مع القطع بأن المشروط لا يدخل في الشرط لامتناع اشتراط الشيء لنفسه إذ جزء الشرط شرط، وأيضاً ورد إثبات الإيمان لمن ترك بعض الأعمال كما في قوله تعالى [وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا] ٩ الحجرات، مع أنه لا يتحقق للشيء بدون ركنه، وأيضاً ما ذكرناه أقرب إلى الأصل إذ لا فرق بينهما إلا باعتبار خصوص المتعلق كما لا يخفى، وقد أورد الخصم وجوهاً في الإلزام الأول: أن الإيمان لو كان عبارة عن التصديق لما اختلف مع أن إيمان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشبهه إيمان العوام بل ولا الخواص، الثاني أن الفسوق يناقض الإيمان ولا يجامعه بنص [وَلَكِنَّ اللَّه حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ] ٧ الحجرات ولو كان بمعنى التصديق لما امتنع مجامعته، الثالث: أن فعل الكبيرة مما ينافيه لقوله تعالى [وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا] ٤٣ الأحزاب مع قوله تعالى في المرتكب [وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ] ٢ النور ولو كان بمعنى التصديق ما نافاه، الرابع: أن المؤمن غير مخزي لقوله تعالى [يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّه النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ] ٨ التحريم وقال سبحانه في قاطع الطريق [ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ] ٣٣ المائدة فهم ليسوا بمؤمنين مع أنهم مصدقون؛ الخامس: مستطيع الحج إذا تركه من غير عذر كافر لقوله

تعالى [وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللّه غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ] ٩٧ آل عمران مع أنه مصدق؛ السادس: من لم يحكم بما أنزل اللّه مصدق مع أنه كافر بنص [وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّه فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ] ٤٤ المائدة؛ السابع: أن الزاني كذلك بنص قوله صلى اللّه عليه وسلم "لا يزني الزاني وهو مؤمن" وكذا تارك الصلاة عمداً من غير عذر، وأمثال ذلك، والثامن: أن المستخف بنبي مثلا مصدق مع أنه كافر بالإجماع، التاسع: أن فعل الواجبات هو الدين لقوله تعالى [وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللّه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ] ٥ البينة والدين هو الإسلام لقوله تعالى [إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّه الإِسْلاَمُ] ١٩ آل عمران، والإسلام هو الإيمان لأنه لو كان غيره لما قبل من مبتغيه لقوله تعالى [وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] ٨٥ آل عمران العاشر: أنه لو كان هو التصديق لما صح وصف المكلف به حقيقة إلا وقت صدوره منه كما في سائر الأفعال مع أن النائم والغافل يوصفان به إجماعاً مع أن التصديق غير باق فيهما، الحادي عشر: أنه يلزم أن يقال لمن صدق بآلهية غير اللّه سبحانه مؤمن وهو خلاف الإجماع، والثاني عشر: أن اللّه تعالى وصف بعض المؤمنين به عز وجل بكونه مشركاً فقال: [وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّه إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ] ١٠٦ يوسف ولو كان هو التصديق –لامتنع مجامعته للشرك- سلمنا أنه هو.

وأجيب عن الأول: بأن التصديق الواحد وإن سلمنا عدم الزيادة والنقصان فيه من النبي والواحد منا إلا أنه لا يمتنع التفاوت بين الإيمانين بسبب تخلل الفعلة والقوة بين أعداد الإيمان المتجددة وقلة تخللها أو بسبب عروض الشبه والتشكيكات وعدم عروضها وللنبي الأكمل صلى الله تعالى عليه وسلم [ولو فرقنا بين اليقين والإيمان لانتفت هذه الشبهة، لأن اللبس يزول بعلمنا أن يقيننا ويقين آل فرعون واحد فلا ضير، وأن الإيمان نفسه وهو التصديق يتفاوت قوة وضعفاً تبعاً لحال القلب مثلا].

وعن الثاني: بأن الآية ليس فبها ما يدل على أن الفسوق لا يجامع الإيمان فإنه لو قيل حبب إليكم العلم وكره إليكم الفسوق لم يدل على المناقضة بين العلم والفسوق، وكون الكفر مقابلا للإيمان لم يستفد من الآية بل من خارج، ولئن سلمنا دلالة الآية على عدمه كقوله تعالى [الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ] ٨٢ الأنعام فإنه يدل على مقارنة الظلم للإيمان في بعض، وعن الثالث بأنا لا نسلّم أن فعل الكبيرة مناف للإيمان [وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّه] ٢ النور على معنى لا تحملنكم الشفقة على إسقاط حدود اللّه تعالى بعد وجوبها، وعن الرابع: بأن ما ذكر من الآيتين ليس فيه دلالة لأن آية نفي الخزي إنما دلت على نفيه في الآخرة عن المؤمنين مطلقاً، أو أصحابه صلى اللّه عليه وسلم وآية القاطع دالة على الخزي في الدنيا ولا يلزم من منافاة الخزي يوم القيامة للإيمان منافاته

للإيمان في الدنيا، وعن الخامس: بأنا لا نسلم كفر من ترك الحج بغير عذر (ومن كفر) ابتداء كلام أو المراد من لم يصدق بمناسك الحج وجحدها ولا يتصور ذلك مع التصديق، وعن السادس: بأن معنى (من لم يحكم) الآية من لم يصدق أو من لم يحكم بشيء مما نزل الله أو المراد بذلك التوراة بقرينة السابق، [وقد بين أنه [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون]، تبعاً لنظرتهم إلى حكم الله فإن رأوا غيره أفضل منه أو لم يقبلوه حلا لمشاكلهم فهو الكفر لأنه دخل الاعتقاد، فنفس الفعل يختلف الحكم المترتب عليه تبعاً لما له علاقة بالاعتقاد لا بالفعل نفسه وكفى بها حجة] وعن السابع: بأنه يمكن أن يقال معنى لا يزني الزاني وهو مؤمن أي آمن من عذاب الله، أي أن زنى –والعياذ بالله- فليخف عذابه سبحانه وتعالى ولا يأمن مكره أو المراد لا يزني مستحلا لزناه وهو مؤمن أو لا يزني وهو على صفات المؤمن من اجتناب المحظورات، وهذا التأويل أولى من مخالفة الأوضاع اللغوية لكثرته دونها وكذا يقال في نظائر هذا، [وقد بينت أن المعنى نفي كمال الإيمان فحسب] وعن الثامن: بأنا لا ننكر مجامعة الكبائر للإيمان عقلا، غير أن الأمة مجمعة على إكفار المستخف فعلمنا انتفاء التصديق عند وجود الاستخفاف مثلا سمعاً والجمع بين العمل بوضع اللغة وإجماع الأمة على الإكفار أولى من إبطال أحدهما، [على أن الآيات المحيطة بهذه الآية تبين أنهم ما عندهم إلى الإسلام الظاهري لا الإيمان فهم

منافقون أصلا كما بينا في فصل سابق] وعن التاسع: بأن الآية قد فرقت بين الدين وفعل الواجبات للعطف وهو ظاهراً دليل المغايرة، سلمنا أن الدين فعل الواجبات وأن الدين هو الإسلام لكن لا نسلم أن الإسلام هو الإيمان وليس المراد بغير الإسلام في الآية ما هو مغاير له بحسب المفهوم وإلا يلزم أن لا تقبل الصلاة والزكاة مثلا بل المغاير له بحسب الصدق فحينئذ يحتمل أن يكون الإسلام أعم وهذا كما إذا قلت من يبتغ غير العلم الشرعي فقد سها فإنك لا تحكم بسهو من ابتغى الكلام، وظاهر أن ذم غير الأعم لا يستلزم ذم الأخص، فإن قولك غير الحيوان مذموم لا يستلزم أن يكون الإنسان مذموماً، [أقول: يطلق الإسلام على هذا الدين ليشمل كل ما جاء به الحبيب المصطفى عليه سلام الله، فهو يشمل الإيمان والشريعة، وهذا الإطلاق لمغايرة الأديان الأخرى، فهو عَلَم على هذا الدين، وفي الآية بعد الأمر بإخلاص الدين أمر بإقامة الصلاة وهي من الدين ولا تقبل إلا بإخلاصها لله وحده، وفي آيات أخرى من كتاب الله أمر بالإيمان وبالتالي لا تصلح هذه الآية دليلا على أن العمل من الإيمان، وإلا لقلنا أن الصلاة ليست من الدين]، وعن العاشر: بأنه مشترك الإلزام فما هو جوابكم فهو جوابنا على أنا نقول التصديق في حالة النوم والغفلة باق في القلب والذهول إنما هو عن حصوله والنوم ضد لإدراك الأشياء ابتداء لا أنه مناف لبقاء الإدراك الحاصل حالة اليقظة سلمنا إلا أن الشارع جعل المحقق الذي لا يطرأ عليه ما

يضاده في حكم الباقي حتى كان المؤمن اسماً لمن آمن في الحال أو في الماضي ولم يطرأ عليه ما هو علامة التكذيب [وقد وصف الحق سبحانه المؤمنين بهذا الوصف بعد بعثهم ولا تكليف عندها! فلا عمل ولا تصديق] وعن الحادي عشر: بأن عدم تسمية من صدق بآلهية غير الله مؤمناً إنما هو لخصوصية متعلق الإيمان شرعاً فتسميته مؤمناً يصح نظراً إلى الوضع اللغوي ولا يصح نظراً إلى الاستعمال الشرعي، [أنظر فصل الإيمان حقيقة شرعية] وعن الثاني عشر: بأن الإيمان ضد الشرك بالإجماع وما ذكروه لازم على كل مذهب ونحن نقول إن الإيمان هناك لغوي إذ في الشرعي يعتبر التصديق بجميع ما علم مجيئه به صلى الله عليه وسلم كما تقدم فالمشرك المصدق ببعض لا يكون مؤمناً إلا بحسب اللغة دون الشرع لإخلاله بالتوحيد والآية إشارة إليه، وقولهم أهل اللغة لا يفهمون الخ مجرد دعوى لا يساعدها البرهان نعم لا شك أن المقر باللسان وحده يسمى مؤمناً لغة لقيام دليل الإيمان الذي هو التصديق القلبي فيه كما يطلق الغضبان والفرحان على سبيل الحقيقة لقيام الدلائل الدالة عليها من الآثار اللازمة للغضب والفرح ويجري عليه أحكام الإيمان ظاهراً ولا نزاع في ذلك وإنما النزاع في كونه مؤمناً عند الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده كما كانوا يحكمون بإيمان من تكلم بالشهادتين كانوا يحكمون بكفر المنافق فدل

على أنه لا يكفي في الإيمان فعل اللسان[349] [وقد سبق وناقشت هذه الآيات سابقاً ودحضت حجتهم]

يقول المهندس عطا أبو الرشتة: ([الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] ٥ البقرة: إن الله سبحانه عندما ذكر الغيب والآخرة والكتب المنزلة نص على الإيمان بها ولكن عندما ذكر الأعمال كالصلاة والإنفاق نص على أدائها أي القيام بها مما يدل على أن الإيمان غير الأحكام الشرعية؛ فالإيمان محصور في التصديق الجازم كالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والقدر خيره وشره؛ والأحكام الشرعية العملية تكون فيما هو مطلوب تنفيذه أي القيام بالعمل.

ومما يؤكد أن الإيمان غير العمل أن الله سبحانه ذكر أموراً متتالية في الآيات السابقة: الغيب، الصلاة، الإنفاق، الكتب المنزلة، الآخرة، وعندما بين الموقف المطلوب تجاهها ذكر الإيمان بالغيب والكتب المنزلة والآخرة، أي بالنسبة لما فيه تصديق جازم ولكنه ذكر الأداء بالنسبة لما هو مطلوب

---

٣٤٩) تفسير روح المعاني. الألوسي ١/ ١١٠-١١٤

عمله كالصلاة والإنفاق على الرغم من وقوع الصلاة والإنفاق بين أنواع الإيمان.

والإيمان هو التصديق الجازم؛ والتصديق الجازم يعني القناعة القاطعة التي لا تحتمل ريباً ولا يتطرق إليها شك؛ والمطابق للواقع يعني أن الوقائع المحسوسة تصدقه ولا تناقضه.

هذا هو الإيمان وهو بهذا المعنى مقابل للكفر فغير المؤمن كافر قطعاً وليس هناك نصف مؤمن ونصف كافر [ويذكر الآيات التي قابل الحق سبحانه فيها بين الإيمان والكفر]

أما بالنسبة للأفعال فإن المتتبع لبيان رسول الله صلى الله عليه وسلم حولها لا يجد عصياناً في عمل يجعل صاحبه كافراً إلا إذا كان في ذلك الفعل إنكار للدين أو لشيء منه. [أي أن يرد على الله حكماً أو أن لا يعتقد صلاحيته أو القيام بفعل من أفعال الكفر المتعلقة بالاعتقاد كأن يلبس الصليب أو أن يسجد لصنم...الخ].

فلقد صح أن بعض الصحابة وهم خير المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخطأوا ولم يكفروا بالمعصية بل استمروا مؤمنين عدولا صادقين كما حدث مع حاطب بن أبي بلتعة عندما أرسل لقريش رسالة يعلمهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيل فتح مكة، وكما حدث

مع أبي لبابة عندما سألوه عن مصيرهم فأشار إليهم بالذبح؛ كل ذلك خلافاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتمان خبر فتح مكة وكتمان مصير يهود بني قريظة.

ومع ذلك لم يكفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المعصية بل رجا الله سبحانه أن يغفر لهم بسبب أعمالهم الطيبة في بدر وغير بدر. ثم إن عدداً من المسلمين ارتكبوا معاصي زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقيمت عليهم الحدود فقطعت يد السارق وجلد ورجم الزاني ولم يعاقبوا عقوبة المرتد بل كان يصلى عليهم عند الموت ويدفنوا في مقابر المسلمين.

وعليه فإن الإيمان يختلف عن الأحكام الشرعية؛ فعدم الإيمان كفر [والشك والظن وعدم استيفاء أركان الإيمان كفر] ولكن عدم القيام بالعمل فسق أو عصيان ما لم يكن هناك إنكار للدين أو لشيء منه. ولذلك كفر مانعوا الزكاة زمن أبي بكر رضي الله عنه لأنهم أنكروها وطلبوا حذفها من التكاليف عليهم؛ فاعتبروا مرتدين وقوتلوا عليها.

وهكذا كفر إبليس –لعنه الله – عندما امتنع عن السجود إنكاراً لصحة أمر الله: [قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ] ١٢ الأعراف وفي الجملة فإن من أنكر العقيدة الإسلامية

يكفر وهي ما بيناه أعلاه وكل ما تفرع منها وبني عليها وانبثق منها ما دام دليله قطعياً لا يحتمل الشك. ويعاقب من ثبت عليه ذلك عقوبة الكفر أو الارتداد.

وأما عدم تنفيذ الأحكام الشرعية فهو معصية يعاقب صاحبها عليها العقوبات المذكورة في الإسلام دون تكفيره إلا إذا أنكر أي حكم شرعي معلوم من الدين بالضرورة كأركان الإسلام وأمثالها.

وليس معنى عدم تكفير صاحب المعصية أن هذا تهاون أو تخفيف من شأن المعصية بل إن المعصية أمر كبير في الإسلام وصاحبها له عقوبة في الدنيا والآخرة ولكن تكفير المسلم بدون دليل قطعي هو كبير عند الله فلا يصح تكفير مسلم بأية معصية من المعاصي ما دام لا ينكر شيئاً من الإسلام. [ولا ينقص من أهمية الأعمال أن نقول أنها ليست من الإيمان، ولا أن يكون المدخل لبيان وجوب القيام بالفرائض والانتهاء عن النواهي هو بيان مثوبة من يقوم بما فرضه الله عليه وبيان عقوبة من لم ينته عن المعاصي؛ فمن أحب أن يقتصر على الإيمان دون العمل أنّى له أن يأمن مكر الله وأن يضمن خاتمته؟ كذلك من أحب أن يعذب في النار آماداً طويلة بتركه الفرائض ومن ظن بالله الظن الحسن دونما استعداد يناسب الخطب الجلل الذي هو مقبل عليه وما إلى ذلك من مداخل تبين أهمية العمل تكفي لردع من تسول له نفسه التهاون في جنب الله، فدونه وما يشاء]... ومثلا

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق" البخاري، ومسلم والنسائي وابن ماجة وأحمد؛ ومعلوم أن عدم إماطة الأذى لا يجعل الإنسان كافراً ولذلك فالإيمان هنا يعني الطاعات لله بشكل عام؛ وكذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..." البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي؛ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يعاقب الزاني عقوبة المرتد بل عقوبة حد الزنا ويعتبره مسلماً ويصلي عليه ويدفن في مقابر المسلمين.

وفعل الرسول صلى الله عليه وسلم قرينة على أن لفظ الإيمان في الحديث ليس بالمعنى العقائدي للإيمان الذي هو مقابل الكفر وإنما للدلالة على عظم جريمة الزنا كما لو أن مقترفها فقد الإيمان حين فعلها من باب التعبير المجازي للدلالة على عظم الجريمة)[٣٥٠]. [أو أنه لنفي كمال الإيمان، أو أن المؤمن كشخصية إسلامية لا يفعلها]

قال الكشميري في فيض الباري: واعلم أن إطلاق الإيمان على الأعمال مما لا يمكن إنكاره، فقد تواتر به الحديث. لكن صنيع القرآن على خلافه. فإنه ينبىءُ أن الإيمان هو التصديق وحده من غير أن يعتبرَ معه العمل، لأنه

---

٣٥٠) التيسير في أصول التفسير. عطا أبو الرشتة. ص ٤٦-٥٠

تعالى كلما ذكر الإيمانَ في القرآن أضافَهُ إلى القلب، وظاهره أن فعل القلب هو التصديق وحده.

والثاني: أنه تعالى عَطَفَ عليه العمل الصالح في مواضع لا تحصى. ولو كان ذلك داخلاً فيه، لكان مجرد ذكره عبثاً، فضلاً عن أن يُذكر بطريق العطف.

والثالث: أنه سبحانه وتعالى ذكر الإيمان في مواضع وصفاً للعُصاة، مقترناً بالمعاصي، فلو كانت الطاعةُ داخلةً في الإيمان، لكانت المعصية منافيةً له ممتنعة الاجتماع معه. قال تعالى: {وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ} (الحجرات: ٩) فوصف المقتتلين بالإيمان، مع أن تقاتل المؤمنين حرام ومعصية. وأجاب الحافظ ابن تيمية رحمه الله تعالى عن عطف القرآن، وقال: إن الأعمالَ وإن كانت داخلة في قوله: آمنوا، إلا أنها عُطفت عليه استقصاءً واستيفاءً للبيان، ولئلا يَذْهَل عنه. وهذه النُّكتةُ غير ما ذكروها من أن العطفَ قد يكون من عطف الخاص على العام، لأنها لا تتمشّى ههنا. فإن الخاصّ في مثله يكون أشرف، وههنا المعطوف هو العمل، وهو أدونُ من الإيمان. فالعطف ههنا لبيان الاهتمام، فعلم منه أن التخصيص بعد التعميم، قد يكون لزيادة اهتمام الأدنى أيضاً، لئلا يَذْهَل عنه ذاهلٌ فيتركه، ويُحرم عما قدِّر له من منازلِ الجنة. وكلامه وإن كان متيناً دالاً على فطانته، لكنّ الأمر هو كما قال الإمام الهُمام، لأن هذا الجواب وإن سلَّمناه في

العطف، لكنه ماذا يقول في آية أخرى؟ قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَلِحاً مّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ}... إلخ (النحل: ٩٧). فجعل الإيمانَ قيداً للأعمال، وليس فيها عطفاً.

بقي الجوابُ عن إطلاق الإيمان على الأعمال في الحديث، فلا نُنكرُ أنه أيضاً إطلاق، لكنه لا ينحصِرُ فيما قالوه، بل يجوز أن يكونَ من إطلاقِ الكل على الجزء، كما فهموه. ويجوز أن يكونَ من باب إطلاق المبدأ على الأثر، كما فهمنا، فالمبدأ هو الإيمان، والعمل أثره. ولو انحصر الأمرُ في أنّ الحديثَ أطلق الإيمان على الأعمال، والقرآن جعلها مغايرةً له، بعطفها عليه، كان اتِّباعُ القرآن، والتأويل في الحديث، هو الأوْلى.[٣٥١]

(قال شارح العقيدة الطحاوية: والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة اختلاف صوري فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزء من الإيمان مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بل هو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه نزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد)[٣٥٢]

---

٣٥١) فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

٣٥٢) الإيمان. د. محمد نعيم ياسين١٤٧ عن شرح العقيدة الطحاوية ٣٧٣؛ الإرشاد للجويني٣٩٩؛ والفقه الأكبر وشرحه لملا علي القاري ٨٨

ونقلا عن الإمام النووي (فأهل السنة متفقون على أن المؤمن الذي يُحكم بأنه من أهل القبلة ولا يخلد في النار لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك ونطق الشهادتين؛ فإن اقتصر على أحد هذين الأمرين لم يكن من أهل القبلة أصلاً اللهم إلا إذا كان تخلفه عن النطق والإقرار باللسان ناشئاً عن سبب قاهر لا قبل له به)[٣٥٣].وينقل عن ابن حجر (ولا خلاف بين أهل السنة أن ما تقدم من تعريف الإيمان بالقول والتصديق والعمل إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى واستحقاق دخول الجنة وعدم الخلود في النار وأما الإيمان بالنظر إلى أحكام الدنيا فهو مجرد الإقرار باللسان والنطق بالشهادتين فمن أقر بهما أجريت عليه الأحكام في الدنيا فطولب بالتزاماتهما وأعطي حقوقهما ولم يحكم عليه بكفر إلا إذا جاء بما يناقضهما من القول والعمل)[٣٥٤]

لكن للتدقيق لا بد من بيان ما هو حق مما جاء أعلاه فنقول وبالله التوفيق:

قال العلامة: (وقد بينا الفرق بين دلالة الاسم مفرداً ودلالته مقروناً بغيره كاسم الفقير والمسكين فإنه إذا أفرد أحدهما يتناول معنى الآخر

---

٣٥٣) الإيمان. د.محمد نعيم ياسين نقلا عن شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ١٤٩

٣٥٤) الإيمان. د.محمد نعيم ياسين نقلا عن فتح الباري ١/ ٣٩-٤٠

كقوله تعالى [للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله] فإنه يدخل فيهم المساكين وقوله تعالى [إطعام عشرة مساكين] فإنه يدخل فيهم الفقراء وأما إذا قرن بينهما كقوله تعالى [إنما الصدقات للفقراء

والمساكين] فهما صنفان وكذلك قوله تعالى [يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر] يدخل في المعروف كل واجب وفي المنكر كل قبيح والقبائح هي السيئات وهي المحظورات كالشرك والكذب والظلم والفواحش فإذا قال [إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر] وقال [وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي] فخص بعض أنواع المنكر بالذكر وعطف أحدهما على الآخر صارت دلالة اللفظ عليه نصاً مقصوداً بطريق المطابقة بعد أن كانت بطريق العموم والتضمن سواء قيل إنه داخل في اللفظ العام أيضاً فيكون مذكوراً مرتين أو قيل إنه باقترانه بالاسم العام تبين أنه لم يدخل في الاسم العام لتغيير الدلالة بالأفراد والتجرد والافتراق والاجتماع كما قدمنا وهكذا اسم الإيمان فإنه تارة يذكر مفرداً مجرداً لا يقرن بالعمل الواجب فيدخل فيه العمل الواجب تضمناً ولزوماً وتارة يقرن بالعمل فيكون العمل حينئذ مذكوراً بالمطابقة والنص، ولفظ الإيمان يكون مسلوب الدلالة عليه حال الاقتران أو دالا عليه كما في قوله تعالى: [وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ] ١٧٠ الأعراف وقوله سبحانه لموسى عليه السلام [إِنَّنِي أَنَا الله لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي] ١٤ طه، وقوله تعالى [اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ

الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ] ٤٥ العنكبوت [قال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٢٧٧ البقرة] ونظائر ذلك كثيرة فالأعمال داخلة في الإيمان تضمناً ولزوماً قال تعالى [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا] الأنفال

ثم احتج الإمام أحمد على أن الأعمال من الإيمان بحجج كثيرة فقال وقد سأل وفد عبد القيس رسول اللّه عن الإيمان فقال شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا خمساً من المغنم فجعل ذلك كله من الإيمان [وقد لاحظنا في فصل المؤمن والمسلم نوعاً من الإصرار لدى العلامة على التفريق بين المؤمن والمسلم على أساس أن الإيمان هو أركانه والإسلام أركانه في حديث جبريل] قال: وقال النبي الحياء شعبة من الإيمان وقال أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وقال إن البذاذة من الإيمان وقال الإيمان بضع وستون شعبة فأدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا اللّه مع أشياء كثيرة منها أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان وما روي عن النبي في صفة المنافق ثلاث من كن فيه فهو منافق مع حجج كثيرة وما روي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم في تارك الصلاة وعن أصحابه من بعده ثم ما

وصف الله تعالى في كتابه من زيادة الإيمان في غير موضع مثل قوله هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم وقال: [لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا] ٣١ المدثر، وقال: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] ١٥ الحجرات.

وقال تعالى [فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ٥ التوبة وقال تعالى: [فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ] ١١ التوبة وقال: [وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ] ٥ البينة.

قال أحمد ويلزمه أن يقول هو مؤمن بإقراره وإن أقر بالزكاة في الجملة ولم يجد في كل مائتي درهم خمسة أنه مؤمن فيلزمه أن يقول إذا أقر ثم شد الزنار في وسطه وصلى للصليب وأتى الكنائس والبيع وعمل الكبائر كلها إلا أنه في ذلك مقر بالله فيلزمه أن يكون عنده مؤمناً وهذه الأشياء من أشنع ما يلزمهم).[٣٥٥]

٣٥٥) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٠٢

قال ابن تيمية رحمه الله: (أعلم يرحمنا الله وإياك أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح وذلك أنه ليس بين أهل العلم خلاف في رجل لو قال أشهد أن الله عز وجل واحد وأن ما جاءت به الرسل حق وأقر بجميع الشرائع ثم قال ما عقد قلبي على شيء من هذا ولا أصدق به أنه ليس بمسلم ولو قال المسيح هو الله وجحد أمر الإسلام ثم قال لم يعقد قلبي على شيء من ذلك أنه كافر بإظهار ذلك وليس بمؤمن فلما لم يكن بالإقرار إذا لم يكن معه التصديق مؤمناً ولا بالتصديق إذا لم يكن معه الإقرار مؤمناً حتى يكون مصدقاً بقلبه مقراً بلسانه فإذا كان تصديقاً بالقلب وإقراراً باللسان كان عندهم مؤمناً وعند بعضهم لا يكون مؤمناً حتى يكون مع التصديق عمل فيكون بهذه الأشياء إذا اجتمعت مؤمناً فلما نفوا أن يكون الإيمان بشيء واحد وقالوا يكون بشيئين في قول بعضهم وثلاثة أشياء في قول غيرهم لم يكن مؤمناً إلا بما أجمعوا عليه من هذه الثلاثة الأشياء وذلك أنه إذا جاء بهذه الثلاثة الأشياء فكلهم يشهد أنه مؤمن فقلنا بما أجمعوا عليه من التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح.

فأما الطائفة التي ذهبت إلى أن العمل ليس من الإيمان فيقال لهم ماذا أراد الله من العباد إذ قال لهم [أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة] الإقرار بذلك أو الإقرار والعمل فإن قالت إن الله أراد الإقرار ولم يرد العمل فقد كفرت عند أهل العلم من قال إن الله لم يرد من العباد أن يصلوا ولا يؤتوا الزكاة وإن

قالت أراد منهم الإقرار قيل فإذا كان أراد منهم الأمرين جمعياً لم زعمتم أنه يكون مؤمناً بأحدهما دون الآخر وقد أرادهما جميعاً أرأيتم لو أن رجلا قال أعمل جميع ما أمر به الله ولا أقر به أيكون مؤمناً فان قالوا لا قيل لهم فإن قال أقر بجميع ما أمر الله به ولا أعمل به أيكون مؤمناً فإن قالوا نعم قيل ما الفرق فقد زعمتم أن الله أراد الأمرين جميعاً فإن جاز أن يكون بأحدهما مؤمناً إذا ترك الآخر جاز أن يكون بالآخر إذا عمل به ولم يقر مؤمناً لا فرق بين ذلك فإن احتج فقال لو أن رجلا أسلم فأقر بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم أيكون مؤمناً بهذا الإقرار قبل أن يجيء وقت عمل قيل له إنما يطلق له الاسم بتصديقه أن العمل عليه بقوله أن يعمله في وقته إذا جاء وليس عليه في هذا الوقت الإقرار بجميع ما يكون به مؤمناً ولو قال أقر ولا اعمل لم يطلق عليه اسم الإيمان.

قلت يعني الإمام أبو ثور رحمه الله أنه لا يكون مؤمناً إلا إذا التزم بالعمل مع الإقرار وإلا فلو أقر ولم يلتزم العمل لم يكن مؤمناً وهذا الاحتجاج الذي ذكره أبو ثور هو دليل على وجوب الأمرين الإقرار والعمل وهو يدل على أن كلا منهما من الدين وأنه لا يكون مطيعاً لله ولا مستحقاً للثواب ولا ممدوحاً عند الله ورسوله إلا بالأمرين جميعاً وهو حجة على من يجعل الأعمال خارجة عن الدين والإيمان جميعاً وأما من يقول أنها من الدين ويقول إن الفاسق

مؤمن حيث أخذ ببعض الدين وهو الإيمان عندهم وترك بعضه فهذا يحتج عليه بشيء آخر)[356]

قال العلامة: (قال تعالى [فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ٣١ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى] ٣٢ القيامة؛ فعُلِم أن التولّي ليس هو التكذيب، بل هو التولّي عن الطاعة، فإن الناس عليهم أن يُصدّقوا الرسول فيما أخبر ويطيعوه فيما أمر؛ وضد التصديق التكذيب، وضد الطاعة التولّي فلهذا قال [فلا صدّق ولا صلى (ولكن كذّب وتولّى)] وقد قال تعالى [وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ] ٤٧ النور فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقول).[357].

[وليس المقصود من العمل هنا آحاد الأعمال كالحج والجهاد ولكن المقصود جنس العمل، لأن أهل السنة لا يكفرون مرتكب الكبيرة] قال ابن تيمية: (وليس المقصود هنا ذكر عمل معين) [٧/ ٣٤٠] (وقد تقدم أن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب)[358] قال العلامة ابن تيمية: ... (كان هذا القول مع هذه الحال كذباً منه كما لو أخذ يلقي المصحف في الحش ويقول

---

٣٥٦) مجموع الفتاوى ٧ /٣٩٢- ٣٩٤، شرح قصيدة ابن القيم ٢ / ١٤٤

٣٥٧) عقيدة أدعياء السلفية.المراكشي ٤٠ عن الإيمان. ابن تيمية ١٤٥-١٤٦

٣٥٨) عقيدة أدعياء السلفية ٣٤ مجموع الفتاوى. ابن تيمية ٧/ ٣٤٠ و٣٧٥

أشهد أن ما فيه كلام الله أو جعل يقتل نبياً من الأنبياء ويقول أشهد أنه رسول الله ونحو ذلك من الأفعال التي تنافي إيمان القلب فإذا قال أنا مؤمن بقلبي مع هذه الحال كان كاذباً فما أظهره من القول فهذا الموضع ينبغي تدبره فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة في هذا الباب وعلم أن من قال من الفقهاء أنه إذا أقر بالوجوب وامتنع عن الفعل لا يقتل أو يقتل مع إسلامه فإنه دخلت عليه الشبهة التي دخلت على المرجئة والجهمية والتي دخلت على من جعل الإرادة الجازمة مع القدرة التامة لا يكون بها شيء من الفعل ولهذا كان الممتنعون من قتل هذا من الفقهاء بنوه على قولهم في مسألة الإيمان وأن الأعمال ليست من الإيمان وقد تقدم أن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب وأن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع سواء جعل الظاهر من لوازم الإيمان أو جزءا من الإيمان كما تقدم بيانه وحينئذ فإذا كان العبد يفعل بعض المأمورات ويترك بعضها كان معه من الإيمان بحسب ما فعله والإيمان يزيد وينقص ويجتمع في العبد إيمان ونفاق كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا ائتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر وبهذا تزول الشبهة في هذا الباب فإن كثيرا من الناس بل أكثرهم في كثير من الأمصار لا يكونون محافظين على الصلوات الخمس ولا

هم تاركيها بالجملة بل يصلون أحياناً ويدعون أحياناً فهؤلاء فيهم إيمان ونفاق وتجري عليهم أحكام الإسلام الظاهرة في المواريث ونحوها من الأحكام فإن هذه الأحكام إذا جرت على المنافق المحض كابن أبي وأمثاله من المنافقين فلأن تجري على هؤلاء أولى وأحرى).[٣٥٩]

قال العلامة ابن تيمية: (والصواب أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضاً وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن فبقي النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان والتحقيق أنه تارة يدخل في الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب إفراد الاسم واقترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الإسلام خارجاً عنه كما في حديث جبريل وان كان لازماً له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما في قوله [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ] فقد يقال اسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازماً له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال

---

٣٥٩) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦١٧-٦١٨

فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما في القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبي العينان تزنيان وزناهما النظر والأذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه والتصديق يستعمل في الخبر وفي الإرادة يقال فلان صادق العزم وصادق المحبة وحملوا حملة صادقة والسلف اشتد نكيرهم على المرجئة لما أخرجوا العمل من الإيمان وقالوا إن الإيمان يتماثل الناس فيه ولا ريب أن قولهم بتساوي إيمان الناس من أفحش الخطأ بل لا يتساوى الناس في التصديق ولا في الحب ولا في الخشية ولا في العلم بل يتفاضلون من وجوه كثيرة وأيضاً فإخراجهم العمل يشعر أنهم أخرجوا أعمال القلوب أيضا وهذا باطل قطعاً فإن من صدق الرسول وأبغضه وعاداه بقلبه وبدنه فهو كافر قطعاً بالضرورة وإن أدخلوا أعمال القلوب في الإيمان أخطأوا أيضاً لامتناع قيام الإيمان بالقلب من غير حركة بدن وليس المقصود هنا ذكر عمل معين بل من كان مؤمناً بالله ورسوله بقلبه هل يتصور إذا رأى الرسول وأعداؤه يقاتلونه وهو قادر على أن ينظر إليهم ويحض على نصر الرسول بما لا يضره هل يمكن مثل هذا في العادة إلا أن يكون منه حركة ما إلى نصر

الرسول فمن المعلوم أن هذا ممتنع فلهذا كان الجهاد المتعين بحسب الإمكان من الإيمان وكان عدمه دليلا على انتفاء حقيقة الإيمان).[٣٦٠]

وقال رحمه الله: (والمقصود هنا أن من قال من السلف الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ومن قال قول وعمل ونية قال القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل إنما أرادوا ما كان مشروعاً من الأقوال ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط فقالوا بل هو قول وعمل والذين جعلوه أربعة أقسام فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الإيمان ما هو فقال قول وعمل ونية وسنة لأن الإيمان إذا كان قولا بلا عمل فهو كفر وإذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق وإذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة).[٣٦١]

---

٣٦٠) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٥٤ –٥٥٧

٣٦١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧١

وقال: (ومما يدل على أن الإيمان مستلزم للأعمال قوله تعالى [إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ] ١٥ السجدة

فنفى الإيمان عن غير هؤلاء، فمن كان إذا ذُكّر بالقران لا يفعل ما فرضه الله عليه من السجود لم يكن من المؤمنين).[٣٦٢]

قال ابن حزم (قالوا: والإيمان هو التوحيد، والأعمال لا تسمى توحيداً فليست إيماناً، قالوا ولو كانت الأعمال توحيداً وإيماناً لكان من ضيع شيئاً منها قد ضيع الإيمان وفارق الإيمان فوجب أن لا يكون مؤمناً... وقال ابن حزم: فنحن لا نسمي مؤمناً إلا من سماه الله عز وجل مؤمناً، ولا نسقط الإيمان بعد وجوبه إلا عمن أسقطه الله عز وجل، ووجدنا بعض الأعمال التي سماها الله عز وجل إيماناً لم يسقط الله عز وجل اسم الإيمان عن تاركها فلم يجز لنا أن نسقط عنه لذلك، لكن نقول: إنه ضيع بعض الإيمان ولم يضيع كله.)[٣٦٣]

قال الجرجاني في التعريفات: الايمان في اللغة التصديق بالقلب وفي الشرع هو الاعتقاد بالقلب والاقرار باللسان، قيل من شهد وعمل ولم يعتقد

---

٣٦٢) عقيدة أدعياء السلفية ٤٥ عن الإيمان ص ١٦١

٣٦٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل. ابن حزم ٣/٢٢٩-٢٣٠

فهو منافق ومن شهد ولم يعمل واعتقد فهو فاسق ومن أخل الشهادة فهـو كافر.[٣٦٤]

---

٣٦٤) التعريفات للجرجاني ص٤١

باب: ما أراه في المسألة:

لا أكاد أجد عملا من الأعمال إلا وخاطب الله المؤمنين بوصف [يا أيها الذين ءامنوا]، طالباً منهم أن يعملوا هذا العمل، فوصف المؤمن قد استحقوه قبل فعلهم هذا العمل.

فهل هذا دليل على أن العمل ليس من الإيمان؟

سأحاول أن أقسم الآيات التي تناولت موضوع المؤمنين إلى الفئات التالية بما يخدم البحث:

الفئة الأولى: الأمر بالإيمان مجرداً عن أي أمر آخر.

الفئة الثانية: الآيات التي قابلت بين الإيمان والكفر.

الفئة الثالثة: اقتران الإيمان بالعمل الصالح.

الفئة الرابعة: أمر المؤمنين بالقيام بالطاعات والأعمال المختلفة ونهيهم عن أفعال أخرى.

الفئة الخامسة: أمر المؤمنين بالإيمان.

الفئة السادسة: بيان أن الإيمان الحق لا بد من أن يكون نتاج أعمال معينة.

الفئة السابعة: آيات تثبت وصف الإيمان لمن لم يقم بأفعال معينة أو إثبات الإيمان لمن لم يقم بما وصفه الإيمان الحق.

الفئة الثامنة: بيان أن من لم يقم بأعمال معينة فإنه لا يمكن أن يكون مؤمناً بله هو منافق، وإن ادعى الإيمان بلسانه.

باب: الفئة الأولى: الأمر بالإيمان مجرداً عن أي أمر آخر

[وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ] ٥٤ الحج، [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] ٥ البقرة [آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ] ٢٨٥ البقرة، [قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] ١٣٦ البقرة، [وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا] ١٣ الجن، [وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ] ١٢٦ الأعراف [وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا ٣٨ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا] ٣٩ النساء، [أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ] ٣٠ الأنبياء، وسائر الآيات التي تتحدث عن أن الإيمان

عمل القلوب، والآيات التي تثبت حقائق الإيمان كالبعث مثلا وتطلب الإيمـان بهذه القضايا.

باب الفئة الثانية: الآيات التي قابلت بين الإيمان والكفر

يقول الحق سبحانه في مقابلة الإيمان بالكفر: [إِنَّ اللّه لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللّه بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ] ٢٦ البقرة؛ [إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّه شَيْئًا وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] ١٧٧ آل عمران؛ [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ] ١٢٦ البقرة؛ [اللّه وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] ٢٥٧ البقرة؛ [وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ] ٢٥٣ البقرة؛ [يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ] ١٠٦ آل عمران؛ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ] ١٥ الأنفال؛ [وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ] ١٠٨ البقرة؛ [وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّه أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ] ٦١ المائدة.

باب: الفئة الثالثة: اقتران الإيمان بالعمل الصالح

قال تعالى: [وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا] ٨٨ الكهف، [فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا] ٦٠ مريم، [وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى] ٨٢ طه، [إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّه سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّه غَفُورًا رَّحِيمًا] ٧٠ الفرقان، [وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ] الآية ٢٥ البقرة. قال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٢٧٧ البقرة.

باب: الفئة الرابعة: أمر المؤمنين بالقيام بالطاعات والأعمال المختلفة ونهيهم عن أفعال أخرى

[قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ] ٣١ إبراهيم؛ [يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ] ٥٦ العنكبوت؛ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّه وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّه وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً] ٥٩ النساء، [كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّه وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ] ١١٠ آل عمران، [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّه مَعَ الصَّابِرِينَ] ١٥٣ البقرة، وما إلى ذلك من الآيات التي تطلب من المؤمنين بوصفهم مؤمنين أن يقوموا بالطاعات والأعمال.

باب: الفئة الخامسة: أمر المؤمنين بالإيمان

ولكن بالمقابل نرى أن الحق سبحانه كذلك أمر المؤمنين أن يؤمنوا بقوله عز من قائل:

[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٦٢ البقرة، [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٦٩ المائدة، وقوله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّه وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّه وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّه لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً] ١٣٧النساء، [لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا] ١٦٢ النساء، [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ] ٢محمد، [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ٢٨ الحديد، [لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ

جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّه يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] ٩٣ المائدة؛ كذلك قال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٢٧٧ البقرة.

باب: الفئة السادسة: بيان أن الإيمان الحق لا بد من أن يكون نتاج أعمال معينة

[إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] ١٥الحجرات، [وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٣ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ] ١٥ السجدة، [وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ٤٧ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] ٥٠ النور، [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٦٢ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] ٦٣ النور، [يَسْأَلُونَكَ عَنِ

الأنفَالِ قُلِ الأنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ] ٤ الأنفال؛ [وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ٦٤ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا] ٦٥ النساء. [وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ] ١١ العنكبوت.

<u>ونرى أن الحق سبحانه أحياناً يصفهم بالإيمان ويعلقه على أعمال معينة</u>

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ] ٥٧ المائدة، [لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ٤٤ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ] ٤٥ التوبة.

باب: الفئة السابعة: آيات تثبت وصف الإيمان لمن لم يقم بأفعال معينة أو إثبات الإيمان لمن لم يقم بما وصفه الإيمان الحق.

يقول الحق سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ] ٣ الصف؛ فهم مؤمنون لكنهم يقولون ما لا يفعلون على عظم ذلك عند الله تعالى، وقال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢ وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ٧٣ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ] ٧٤ الأنفال، لاحظ أن من لم يهاجر بالتأكيد لم يجاهد لأنه لو فعل لهاجر أولا أو لاعتبر التحاقه بجيش المسلمين هجرة، ومع ذلك فهو مؤمن، وأن وصف أولئك هم المؤمنون حقاً لم ينف عنهم وصف الذين ءامنوا، دلالة على أنه كمال الإيمان. [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ٣٨ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا

وَاللّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] ٣٩ التوبة، [وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللّه] الآية ٩ الحجرات، [إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللّه عَظِيمٌ ١٥ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ١٦ يَعِظُكُمُ اللّه أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ] ١٧ النور وكان منهم حسان بن ثابت رضي اللّه عنه.

باب الفئة الثامنة: بيان أن من لم يقم بأعمال معينة فإنه لا يمكن أن يكون مؤمناً بله هو منافق، وإن ادعى الإيمان بلسانه.

[وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ٤٧ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٥٠ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] ٥١ النور.

[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا] ٦١ النساء.

فهم بمجرد أنهم أرادوا الاحتكام إلى غير ما أنزل اللّه، وإن لم يتحقق لهم ذلك، أصبحوا منافقين أقسم اللّه تعالى على أنهم إن لم يحتكموا إلى ما أنزل ويرتضوه ويسلموا به تسليماً فإن لهم أن ينتسبوا إلى النفاق أو الكفر أما الإيمان فلا وربي؛ فكيف بمن احتكم ورضي وتابع واعتقد أن أحكام اللّه غير صالحة كيف لنا أن نصفه بغير الكفر !!!

من هنا نفهم القسم الرهيب الذي أقسمه رب العزة سبحانه وتعالى إذ قال: [فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا] ٦٥ النساء؛ فذلك من مقتضيات الإيمان التي لا يتحقق إلا بها.

فصل: التحقيق في علاقة الإيمان بالعمل

فإذا أدركت الفرق قلت وبالله التوفيق:

سنبين أولا بعض الركائز الأساسية التي لا بد منها لبحث الموضوع:

بينا سابقاً الفرق بين العمل والإيمان: فالإيمان أفكار معينة تقبل التصديق والتكذيب، يفضي التصديق الجازم بها الناتج عن دليل قطعي إلى الاعتقاد، فيترتب على ذلك تكفير منكرها، وتكفير من لا يعتبرها أفكاراً صحيحة ومعالجات صحيحة للكون والإنسان والحياة.

وأما الأعمال: فخطاب الشارع المتضمن أوامر ونواه وتخييرا ومتعلقات ذلك، والموقف من هذا الخطاب يتشعب إلى قسمين أحدهما لا علاقة له بالإيمان وهو القيام بالفعل نفسه، أو الاتصاف بالصفة المطلوبة، وهذه كلها يكفي فيها غلبة الظن، ويكون وجودها علامة على أن الإيمان حق، والقسم الثاني: له علاقة بالتصديق والتكذيب، وهو أن تصدق أنها أوامر الله ونواهيه، فإن كان دليلها قطعياً يدخل التصديق هذا في الإيمان، فيكفر منكر أنها أوامر الله ويكفر من لا يعتقدها معالجات صحيحة يضبط الله بها الخلق، وتستطيع القول جازماً بأنها أحكام الله، من هنا كفر منكرو الزكاة ولم يكفر المتهاونون في أدائها، ومن هنا كفر إبليس لأنه لم يعتقد بصحة أمر الله له بالسجود ورآى غير ذلك أي أنه خير ممن طلب منه السجود له.

وإن كان دليلها ظنياً فلا يترتب عليه أن تصبح من الاعتقاد، لأنه لا بد أن يكون دليل العقيدة قطعياً، فكما لم يقبل من القرآن إلا ما ثبت بالقطع والتواتر أنه منه، كذلك العقيدة لا مكان للظن فيها، وهنا لا يجوز القطع بأن هذا الحكم حكم اللّه تعالى، ولا يكفر منكره، بل قد ينكر الفقهاء بعضهم على بعض كثيراً من الأحكام التي تبنوها.

من هنا إذا كان العمل نفسه أي أداء الفعل من الإيمان فلا بد أن يكفر كل تارك فعل، أي أن نكفر مرتكب الكبيرة، فإذا ثبت أننا لا نكفر مرتكب الكبيرة ثبت أن القيام بالفعل نفسه أو ترك القيام به ليس من الإيمان، ولا أدل على ذلك من أن اللّه تعالى وصف تاركي الفعل المعين نفسه بصفات مختلفة تبعاً لحالهم، فمن لم يحكم بما أنزل اللّه وصفه بالكفر وبالفسق وبالظلم، ولا يكون كافراً إلا إذا صاحب تركه الفعل اعتقاد بأن الفعل لا يصلح معالجة، أو أنه ليس من عند اللّه (ودليله قطعي) أو أن ما عنده خير منه، وهذا كله كما بينا ليس من ناحية أداء الفعل بل ما يتعلق به من ناحية التصديق والتكذيب.

ولرب قائل يقول: فلسنا نعتبر عدم القيام بالفعل كفراً، فالإيمان يتبعض، ومنه ما يكون تاركه غير مؤمن مع أنه ليس بكافر كتارك إماطة الأذى عن الطريق، فهو فعل وصفه رسول اللّه عليه السلام على أنه من الإيمان ولم يرتب الكفر على تاركه! قلت ارجع إلى فصل تبعض الإيمان لترى أننا نقول

أن ما كان من الإيمان ركناً داخلا في تعريفه يوجد بوجوده وينتفي بانتفائه لا يتبعض، أما ما كان من مكملاته ومستلزماته فليس كذلك، فتكون قد وافقت أن العمل من مكملات الإيمان لا من أركانه، ونلزمك الآية الكريمة [أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ] فلا مساواة بين القيام بعمل ما والتصديق مثلا، لأن انتفاء التصديق ينفي الإيمان، بينما ترك العمل لا.

فتقول لي إن الشارع قد بين كفر من لم يقم بأعمال معينة، كترك الصلاة، وبين أن الزاني ليس بمؤمن حال الزنى! قلت: أما الزنى فقد بينت أن نفي الإيمان فيه نفي كمال لا نفي وجود، كما أن مفهوم الحديث أن الربط بين الايمان وبين الواقع انقطع حال القيام بفعل الزنى أي إدراك الصلة بالله حال القيام بالعمل، وسيأتي الدليل القاطع لاحقاً بإذن الله، وأما ترك الصلاة، ففيها خلاف، وقد ناقشتها سابقاً، ولنا أن نذكر حجة الشافعي رحمه الله وملخصها إذا كان تارك الصلاة كافراً فبم يرجع إلى دين الله فإن قيل بالصلاة قلنا الصلاة عمل والله لا يقبل من الكافرين، فإن قلتم بالشهادتين قلنا أنه لما يزل مؤمناً بهما!

وعلى كل عَنْ عَبْدِ اللّه بْنِ شَقِيقٍ الْعُقَيْلِيِّ قَالَ كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنْ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ. الترمذي. كتاب الإيمان عن رسول اللّه.

وكما أسلفنا فاسم الإيمان واسم الكفر حقيقتان شرعيتان يطلقهما الشارع على من يشاء ويسلبهما من يشاء، فالنص على إكفار تارك الصلاة لا يدل على أن الأعمال من الإيمان، فها هو لا يسلب فاعل أي كبيرة مسمى الإيمان، فيكون للصلاة حينها وضعاً خاصاً.

جاء في شرح العقيدة الطحاوية للأستاذ سعيد فودة: وقال شيبان لابن المبارك يا أبا عبد الرحمن ما تقول فيمن يزني ويشرب الخمر ونحو هذا أمؤمن هو قال ابن المبارك لا أخرجه من الإيمان فقال على كبر السن صرت مرجئا فقال له ابن المبارك يا أبا عبد الله إن المرجئة لا تقبلني أنا أقول الإيمان يزيد المرجئة لا تقول ذلك والمرجئة تقول حسناتنا متقبلة وأنا لا أعلم تقبلت مني حسنة.إ.هـ.

كذلك فإن من عمل بعض المعاصي لم يعامله الاسلام معاملة الكافر، فالزاني يصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين وحتى المتخلف عن الجهاد قوطع زمنا وحوصر اجتماعيا من قبل المجتمع المسلم زمن تبوك ولكن أحدا لم يشك في أن الثلاثة من كبار الصحابة.

باب: قتال مانعي الزكاة:

صحيح أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قاتل مانعي الزكاة قتال المرتدين، ولكن هذه المسألة أيضا بحاجة لتدقيق وإنعام نظر:

فلنتأمل توطئة للجواب على هذا السؤال ما جرى بين الصديق وعمر رضي الله عنهما إبان ارتداد العرب عن هذا الدين: روى الامام مسلم في باب الايمان: عن أبي هريرة قال لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه فقال عمر بن الخطاب فوالله ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق !!!

قال الامام النووي في شرحه لصحيح مسلم ما نصه: قوله: (لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضي الله عنه بعده، وكفر من كفر من العرب)

قال الخطابي - رحمه الله - في شرح هذا الكلام كلاما حسنا لا بد من ذكره لما فيه من الفوائد. قال رحمه الله: مما يجب تقديمه في هذا أن يعلم أن أهل الردة كانوا صنفين: صنف ارتدوا عن الدين ونابذوا الملة وعادوا إلى الكفر وهم الذين عناهم أبو هريرة بقوله: وكفر من كفر من العرب.

وهذه الفرقة طائفتان إحداهما أصحاب مسيلمة من بني حنيفة وغيرهم الذين صدقوه على دعواه في النبوة، وأصحاب الأسود العنسي ومن كان من مستجيبيه من أهل اليمن وغيرهم.

وهذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مدعية النبوة لغيره.

فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه حتى قتل الله مسيلمة.....

والطائفة الأخرى ارتدوا عن الدين وأنكروا الشرائع وتركوا الصلاة والزكاة وغيرها من أمور الدين وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية فلم يكن يسجد لله تعالى في بسيط الأرض إلا في ثلاثة مساجد مسجد مكة ومسجد المدينة ومسجد عبد القيس في البحرين في قرية جواثا... والصنف الآخر هم الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة فأقروا بالصلاة، وأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها إلى الإمام.

وهؤلاء على الحقيقة أهل بغي وإنما لم يدعوا بهذا الاسم في ذلك الزمان خصوصا لدخولهم في غمار أهل الردة فأضيف الاسم في الجملة إلى الردة إذ كانت أعظم الأمرين وأهمهما.

وأرخ قتال أهل البغي في زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ كانوا منفردين في زمانه لم يختلطوا بأهل الشرك وقد كان في ضمن هؤلاء المانعين للزكاة من كان يسمح بالزكاة ولا يمنعها إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي وقبضوا على أيديهم في ذلك كبني يربوع،

فإنهم قد جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر رضي الله عنه، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم وفي أمر هؤلاء عرض الخلاف ووقعت الشبهة لعمر رضي الله عنه فراجع أبا بكر رضي الله عنه وناظره واحتج عليه بقول النبي صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم نفسه وماله. وكان هذا من عمر رضي الله عنه تعلقا بظاهر الكلام قبل أن ينظر في آخره ويتأمل شرائطه فقال له أبو بكر رضي الله عنه: إن الزكاة حق المال، يريد أن القضية قد تضمنت عصمة دم ومال معلقة بإيفاء شرائطها والحكم المعلق بشرطين لا يحصل بأحدهما والآخر معدوم.

ثم قايسه بالصلاة ورد الزكاة إليها وكان في ذلك من قوله دليل على أن قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعا من الصحابة وكذلك رد المختلف فيه إلى المتفق عليه فاجتمع في هذه القضية الاحتجاج من عمر رضي الله عنه بالعموم ومن أبي بكر رضي الله عنه بالقياس.

ودل ذلك على أن العموم يخص بالقياس، وأن جميع ما تضمنه الخطاب الوارد في الحكم الواحد من شرط واستثناء مراعى فيه ومعتبر صحته به.

....فإن قيل كيف تأولت أمر الطائفة التي منعت الزكاة على الوجه الذي ذهبت إليه وجعلتهم أهل بغي؟ وهل إذا أنكرت طائفة من المسلمين في زماننا فرض الزكاة وامتنعوا من أدائها يكون حكمهم حكم أهل البغي؟

قلنا: لا فإن من أنكر فرض الزكاة في هذه الأزمان كان كافرا بإجماع المسلمين.

والفرق بين هؤلاء وأولئك أنهم إنما عذروا لأسباب وأمور لا يحدث مثلها في هذا الزمان، منها قرب العهد بزمان الشريعة الذي كان يقع فيه تبديل الأحكام بالنسخ، ومنها أن القوم كانوا جهالا بأمور الدين وكان عهدهم بالإسلام قريبا فدخلتهم الشبهة فعذروا.

فأما اليوم وقد شاع دين الإسلام واستفاض في المسلمين علم وجوب الزكاة حتى عرفها الخاص والعام، واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأويل يتأوله في إنكارها.

وكذلك الأمر في كل من أنكر شيئا مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشرا كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان والاغتسال من الجنابة وتحريم الزنا والخمر ونكاح ذوات المحارم ونحوها من الأحكام إلا أن يكون رجلا حديث عهد بالإسلام ولا يعرف حدوده فإنه إذا أنكر شيئا منها جهلا به لم يكفر، وكان سبيله سبيل أولئك القوم في بقاء اسم الدين عليه. فأما ما كان الإجماع فيه معلوما من طريق علم الخاصة كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وأن القاتل عمدا لا يرث وأن للجدة السدس، وما أشبه ذلك من الأحكام فإن من أنكرها لا يكفر، بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها في العامة.

قال الخطابي رحمه الله: وإنما عرضت الشبهة لمن تأوله على الوجه الذي حكيناه عنه لكثرة ما دخله من الحذف في رواية أبي هريرة وذلك لأن القصد به لم يكن سياق الحديث على وجهه وذكر القصة في كيفية الردة منهم وإنما قصد به حكاية ما جرى بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وما تنازعاه في استباحة قتالهم ويشبه أن يكون أبو هريرة إنما لم يعن بذكر جميع القصة اعتمادا على معرفة المخاطبين بها إذ كانوا قد علموا كيفية

القصة ويبين لك أن حديث أبي هريرة مختصر أن عبد الله بن عمر وأنسا رضي الله عنهم روياه بزيادة لم يذكرها أبو هريرة. ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله وفي رواية أنس رضي الله عنه: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأن يستقبلوا قبلتنا، وأن يأكلوا ذبيحتنا، وأن يصلوا صلاتنا. فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها. لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين والله أعلم. هذا آخر كلام الخطابي رحمه الله.

قلت: وقد ثبت في الطريق الثالث المذكور في الكتاب من رواية أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به. فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها. وفي استدلال أبي بكر واعتراض عمر رضي الله عنهما دليل على أنهما لم يحفظا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رواه ابن عمر وأنس وأبو هريرة وكأن هؤلاء الثلاثة سمعوا هذه الزيادات التي في رواياتهم في مجلس آخر، فإن عمر رضي الله عنه لو سمع ذلك لما خالف، ولما كان احتج بالحديث؛ فإنه بهذه الزيادة حجة عليه، ولو سمع أبو بكر

رضي اللّه عنه هذه الزيادة لاحتج بها، ولما احتج بالقياس والعموم. واللّه أعلم. انتهى كلام الامام النووي رحمه اللّه.

ما نستشفه ونثبته هنا أن القيام بالعمل شيء والتصديق بأن هذا هو حكم اللّه أمر آخر، فمن رد على اللّه حكما أو أنكر ما فرض اللّه من فرائض مع أنها أعمال كمن أنكر فرض الصلاة أو الزكاة كفر وليس كمن لم يفعلها كسلا، واللّه أعلم.

قال الشيخ النبهاني رحمه اللّه: فهذه المخالفة لأوامر اللّه ونواهيه لا تطعن في وجود العقيدة عنده، وإنما تطعن في تقيده بهذا العمل وحده بالعقيدة، ولذلك لا يعتبر العاصي أو الفاسق مرتداً، وإنما يعتبر مسلماً عاصياً في العمل الذي عصى به وحده، ويعاقب عليه وحده، ويبقى مسلماً مادام يعتنق عقيدة الإسلام.[٣٦٥] يراجع هنا فصل هل يتبعض الاعتقاد ففي قول الامام ابن تيمية هناك ما يثبت هذا في ص ١٧٨ ومن ضمن ما قال: وبهذا تبين أن الشارع ينفي اسم الإيمان عن الشخص لانتفاء كماله الواجب وإن كان معه بعض أجزائه كما قال لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ومنه قوله من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا فإن

---

٣٦٥) الشخصية الاسلامية الجزء الأول ص ١٨

صيغة أنا ونحن ونحو ذلك من ضمير المتكلم في مثل ذلك يتناول النبي والمؤمنين معه الإيمان المطلق الذي يستحقون به الثواب بلا عقاب ومن هنا قيل أن الفاسق الملة يجوز أن يقال هو مؤمن باعتبار ويجوز أن يقال ليس مؤمناً باعتبار وبهذا تبين أن الرجل قد يكون مسلماً لا مؤمناً ولا منافقاً مطلقاً بل يكون معه أصل الإيمان دون حقيقته الواجبة ولهذا أنكر أحمد وغيره من الأئمة على من فسر قوله ليس منا ليس مثلنا أو ليس من خيارنا وقال هذا تفسير المرجئة وقالوا لو لم يفعل هذه الكبيرة كان يكون مثل النبي وكذلك تفسير الخوارج والمعتزلة بأنه يخرج من الإيمان بالكلية ويستحق الخلود في النار تأويل منكر.)[٣٦٦]

وبالتالي يثبت أن آحاد الأعمال ليست هي ما عناه القائلون بأن الايمان قول وعمل.

فيبقى أن نقول أن المقصود ليس الفعل بعينه وإنما جنس الأعمال، فهل جنس الأعمال من الإيمان؟.

٣٦٦) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٠٥- ٥٣٠

باب: هل جنس العمل من الايمان؟

أتساءل هنا ما هو الدليل على أن جنس العمل من الإيمان؟

لنا هنا أن نناقش الحجج الرئيسة: أولاها اشتراط الإيمان لقبول الأعمال والثانية عطف الإيمان على الأعمال الصالحة.

قال الألوسي: (وأيضاً جعلُ الإيمان شرط صحة الأعمال كقوله تعالى [ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن] مع القطع بأن المشروط لا يدخل في الشرط لامتناع اشتراط الشيء لنفسه إذ جزء الشرط شرط.)

ولم أعثر في كتب العلامة وتلميذه ابن القيم على بحث يخص هذا الشرط بهذه الصورة، وربما لم يخطر لهما هذا الشرط، وإني لأراه ملزماً والله أعلم.

على أنه استوقفتني آية في كتاب الله ينبغي تأملها:

[مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً (١٩)] فاشترط الايمان ليقبل ممن يسعى للآخرة سعيها، مع أن الايمان من ضمن سعي الآخرة، أي أن سعي الآخره هو الصلاة والصوم والحج والايمان وما شاكل.

فبعض هذا السعي هو الايمان فكيف اشترط البعض على الكل، مع أن جزء الشرط شرط؟

قال الفخر الرازي في تفسيره: وأما القسم الثاني: وهو قوله تعالى: [وَمَنْ أَرَادَ ٱلأَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ] فشرط تعالى فيه شروطاً ثلاثة:

الشرط الأول: أن يريد بعمله الآخرة أي ثواب الآخرة، فإنه إن لم تحصل هذه الإرادة، وهذه النية لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى: [وَأن لَّيْسَ لِلإنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى] [النجم: ٣٩] ولقوله عليه الصلاة والسلام: إنما الأعمال بالنيات ولأن المقصود من الأعمال استنارة القلب بمعرفة الله تعالى ومحبته، وهذا لا يحصل إلا إن نوى بعمله عبودية الله تعالى وطلب طاعته. والشرط الثاني: قوله: [وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا] وذلك هو أن يكون العمل الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة من الأعمال التي بها ينال ثواب الآخرة، ولا يكون كذلك إلا إذا كان من باب القرب والطاعات، وكثير من الناس يتقربون إلى الله تعالى بأعمال باطلة، فإن الكفار يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأوثان، ولهم فيه تأويلان:

التأويل الأول: يقولون: إله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على إظهار عبوديته وخدمته فليس لنا هذا القدر والدرجة ولكن غاية قدرنا أن نشتغل بعبودية بعض المقربين من عباد الله تعالى، مثل أن نشتغل

بعبادة كوكب أو عبادة ملك من الملائكة، ثم إن الملك والكوكب يشتغلون بعبادة اللّه تعالى، فهؤلاء يتقربون إلى اللّه تعالى بهذا الطريق، إلا أنه لما كان فاسداً في نفسه لا جرم لم يحصل الانتفاع به.

والتأويل الثاني لهم: أنهم قالوا: نحن اتخذنا هذه التماثيل على صور الأنبياء والأولياء، ومرادنا من عبادتها أن تصير أولئك الأنبياء والأولياء شفعاء لنا عند اللّه تعالى. وهذا الطريق أيضاً فاسد، وأيضاً نقل عن الهند: أنهم يتقربون إلى اللّه تعالى بقتل أنفسهم تارة وبإحراق أنفسهم أخرى ويبالغون في تعظيم اللّه تعالى، إلا أنه لما كان الطريق فاسداً لا جرم لم ينتفع به، وكذلك القول في جميع فرق المبطلين الذين يتقربون إلى اللّه تعالى بمذاهبهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة وأعمالهم المنحرفة عن قانون الصدق والصواب.

والشرط الثالث: قوله تعالى: [وَهُوَ مُؤْمِنٌ] وهذا الشرط معتبر، لأن الشرط في كون أعمال البر موجبة للثواب تقدم الإيمان، فإذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط، ثم إنه تعالى أخبر أن عند حصول هذه الشرائط يصير السعي مشكوراً والعمل مبروراً. انتهى.

فالجواب إذن أن التصديق بالآخرة لا يقتصر على المسلمين، فالنصارى والفراعنة وكثير من أهل الأديان يصدقون بالآخرة، ويعملون بعض الأعمال

التي يتقربون فيها من آخرتهم هذه، فاشترط الحق سبحانه على من يقبل منه سعيه أن يكون مؤمنا أي مسلما مؤمنا وإلا فعمله كسراب بقيعة.

ومثله قول الحق سبحانه [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)] وهذه الآية فصلت فيها في فصل إيمان أهل الكتاب فارجع إليه لتتبين ما أعني على وجه الدقة.

من هنا فأرى والعلم عند الله أن كلام الألوسي رحمه الله دقيق إذ أن الشرط في الآيات التي ذكر هو لمن يعمل الصالحات، ولا يوصف بالعمل الصالح إلا ما كان من الاسلام، فهو شرط على المسلم أن يعمل وهو مؤمن، كما أنها هنا تتحدث عمن يعمل ينبغي عليه أن يكون مؤمنا ليقبل منه فيظهر والعلم عند الله أن مؤدى الآيتين واحد وأن هذه الآية أيضا تدلل على نفس الأمر ولا تقدح في منع اشتراط الشيء لنفسه وبالتالي فهي حجة على من جعلهما شيئا واحدا.

باب: عطف الأعمال على الايمان:

الحجة الثانية: قال الألوسي: (وأيضاً ورد عطف الأعمال على الإيمان كقوله تعالى [إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات] والجزء لا يُعطف على كله، وتنزل الملائكة والروح على أحد الوجهين بتأويل الخروج لاعتبار خطابي وتخصيصها بالنوافل بناء على خروجها خلاف الظاهر وكفى بالظاهر حجة) وقال أبو الرشتة: (إن الله سبحانه عندما ذكر الغيب والآخرة والكتب المنزلة نص على الإيمان بها ولكن عندما ذكر الأعمال كالصلاة والإنفاق نص على أدائها أي القيام بها مما يدل على أن الإيمان غير الأحكام الشرعية... ومما يؤكد أن الإيمان غير العمل أن الله سبحانه ذكر أموراً متتالية في الآيات السابقة: الغيب، الصلاة، الإنفاق، الكتب المنزلة، الآخرة، وعندما بين الموقف المطلوب تجاهها ذكر الإيمان بالغيب والكتب المنزلة والآخرة، أي بالنسبة لما فيه تصديق جازم ولكنه ذكر الأداء بالنسبة لما هو مطلوب عمله كالصلاة والإنفاق على الرغم من وقوع الصلاة والإنفاق بين أنواع الإيمان.)

ورد العلامة السابق بيانه أراه أدق، خصوصاً إذا علمنا أن الحق سبحانه يقول:

[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ] الآية ٢٧٧ البقرة،

ولنا أن نبين أن ذكر الصلاة مثلا هنا والزكاة إنما لبيان أهميتهما، ولا يدل العطف أيضاً على أن العمل من الإيمان، خاصة وأن الحق سبحانه وتعالى أثبت الإيمان لمن ترك بعض الأعمال كما سبق وسيأتي بحول الله تعالى.

باب: حديث وفد عبد القيس

المحور التالي: احتج الإمام احمد على أن الأعمال من الإيمان بحجج كثيرة فقال (وقد سأل وفد عبد القيس رسول الله عن الإيمان فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا خمساً من المغنم فجعل ذلك كله من الإيمان قال وقال النبي الحياء شعبة من الإيمان وقال أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وقال إن البذاذة من الإيمان وقال الإيمان بضع وستون شعبة فأدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله.)

أقول: وقد لاحظنا في فصل المؤمن والمسلم نوعاً من الإصرار على التفريق بين المؤمن والمسلم على أساس أن الإيمان هو أركانه والإسلام أركانه في حديث جبريل، وهنا أُتي بالإيمان على أنه أركان الإسلام، فيدل على تداخلهما، مما يدفع القول بأن المسلم قد لا يكون مؤمناً.

أما بالنسبة للحياء وشعب الإيمان الأخرى فقد بينا أن منها ما هو لكمال الإيمان ومنها ما هو شرط له ولا داعي للإعادة.

وأما حديث وفد عبد القيس، فأول ما أقول هو أنه لا بد من ملاحظة الفرق بين فعل الفعل والإيمان بأن الأمر به من الله، ففرق بين من لم يؤد

الزكاة، ومن أنكر مشروعيتها، فالأول له أحكام معينة بحسب حالته ونظرته كالجهل والتكاسل والتهاون والاستخفاف، بينما الثاني يكفر قولاً واحداً، وما يجب أن يدخل في أركان الإيمان فلا بد لتاركه من أن يكفر لأن نقيض الإيمان الكفر، فمن هنا كان عدم إكفار تارك الزكاة وصائم رمضان قرينة على أن المقصود من حديث رسول الله صلى الله عيه وسلم هو الإيمان بأن هذه الفرائض من الله تعالى وتؤدوها على هذا الأساس، فيكون ذلك لديهم لبنة أساسية على توحيد مصدر الأخذ، أي مصدر التشريع وهذا من الإيمان.

يؤيد هذا أن رواية الحديث التي في البخاري والتي سيرد تفصيلها بعد قليل بحول الله تنص على أنه أمرهم صلى الله عليه وسلم بالايمان بالله وحده، وقال أتدرون ما الايمان بالله وحده.

فالرسول عليه الصلاة والسلام أضاف بعد كلمة الايمان بالله كلمة مهمة تؤيد ما رأيناه وهي: وحده، أي أن تفردوه بالحاكمية، وإلا فلم لم يقل آمركم بالايمان بالله؟ مع أن رواية المسند التي ذكرناها تنص على أنه أمرهم بالايمان بالله، إلا أن رواية بالله وحده صحيحة أيضا، وبها نحتج.

كذلك في رواية أخرى في صحيح مسلم: (آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، وأعطوا الخمس من الغنائم) فهي تعضد ذلك أيضا.

الأمر الثاني: أن هذا الحديث ذكر أعمالا بعينها وجعل هذه الأعمال التي هي الصلاة واعطاء خمس المغنم وما إلى ذلك من الايمان، مع أن القائلين بأن جنس العمل من الايمان لا يقولون بأن آحاده هي ما عنوه بالقول، وبالتالي فلا يستقيم قولهم مع هذا الحديث ولا ينبغي أن يتخذوه حجة لهم، فلو كانت هذه الأعمال بآحادها هي المقصودة لكفر من لم يقم بأدائها، ولكننا لا نختلف أن من لم يقم بالزكاة أو من لم يؤد خمس المغنم أنه ليس بكافر إلا إذا ترك ذلك جحودا للفرض، وبالتالي فلا يصلح هذا الحديث حجة لهم، ولا يفهم منه جنس العمل بحال، والله أعلم.

الأمر الثالث: هو أن الرسول عليه السلام قد أجاب عدداً من السائلين على نفس السؤال بأجوبة متنوعة، كل جواب يناسب حال من سأل، فرسول الله عليه سلام الله كان مشرعاً وطبيباً وعالماً بما علمه الله من أحوال الناس ما يجعله يصف العلاج قبل وقوع الداء، وقد ثبت في السيرة أن الرسول عليه سلام الله بيّن أحكاماً في أمور عرضت عليه وتبين المقصود من هذه الأحكام بعد زمن طويل، فناسب وصف الإيمان لوفد عبد القيس على هذه الشاكلة أحوالهم. والله أعلم.

الأمر الرابع: في مواضع أخرى نص عليه الصلاة والسلام على أنه مع الايمان لا بد من القيام بهذه الأعمال.

تأمل حديث رسول الله عليه السلام مع وفد عبد القيس: أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ ... قَالَ احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ. مسند أحمد من مسند بني هاشم.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيتِهِنَّ وَصَامَ رَمَضَانَ وَحَجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَأَعْطَى الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ. أبو داود وفي صحيح الترغيب.

الأمر الخامس: روى الامام البخاري رحمه الله: عن أبي جمرة قال كنت أقعد مع ابن عباس يجلسني على سريره فقال أقم عندي حتى أجعل لك سهما من مالي فأقمت معه شهرين ثم قال إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم قال من القوم أو من الوفد قالوا ربيعة قال مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى فقالوا يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة وسألوه عن الأشربة فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع أمرهم بالإيمان بالله وحده قال أتدرون ما

الإيمان بالله وحده قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس ونهاهم عن أربع عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت وربما قال المقير وقال احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

قوله: (فقالوا: يا رسول الله) فيه دليل على أنهم كانوا حين المقابلة مسلمين، وكذا في قولهم " كفار مضر" وفي قولهم " الله ورسوله أعلم.... وفيه دليل على تقدم إسلام عبد القيس على قبائل مضر الذين كانوا بينهم وبين المدينة، وكانت مساكن عبد القيس بالبحرين وما والاها من أطراف العراق، ولهذا قالوا - كما في رواية شعبة عند المؤلف في العلم - وإنا نأتيك من شقة بعيدة. ويدل على سبقهم إلى الإسلام أيضا ما رواه المصنف في الجمعة من طريق أبي جمرة أيضا عن ابن عباس قال: إن أول جمعة جمعت - بعد جمعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم - في مسجد عبد القيس بجواثى من البحرين، وإنما جمعوا بعد رجوع وفدهم إليهم فدل على أنهم سبقوا جميع القرى إلى الإسلام.

قوله: (بأمر فصل) بالتنوين فيهما لا بالإضافة، والأمر، واحد الأوامر، أي: مرنا بعمل بواسطة افعلوا، ولهذا قال الراوي أمرهم، وفي رواية حماد بن زيد

وغيره عند المؤلف قال النبي صلى الله عليه وسلم " آمركم "، وله عن أبي التياح بصيغة افعلوا. و " الفصل " بمعنى الفاصل كالعدل بمعنى العادل، أي: يفصل بين الحق والباطل، أو بمعنى المفصل أي المبين المكشوف حكاه الطيبي، وقال الخطابي: الفصل البين وقيل المحكم.

قوله: (نخبر به) بالرفع على الصفة لأمر، وكذا قوله وندخل، ويروى بالجزم فيهما على أنه جواب الأمر. وسقطت الواو من وندخل في بعض الروايات فيرفع نخبر ويجزم ندخل، قال ابن أبي جمرة: فيه دليل على إبداء العذر عند العجز عن توفية الحق واجبا أو مندوبا، وعلى أنه يبدأ بالسؤال عن الأهم، وعلى أن الأعمال الصالحة تدخل الجنة إذا قبلت، وقبولها يقع برحمة الله كما تقدم.

قوله: (فأمرهم بأربع): أي: خصال أو جمل، لقولهم " حدثنا بجمل من الأمر " وهي رواية قرة عند المؤلف في المغازي، قال القرطبي: قيل إن أول الأربع المأمور بها إقام الصلاة، وإنما ذكر الشهادتين تبركا بهما كما قيل في قوله تعالى [واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه] وإلى هذا نحا الطيبي فقال: عادة البلغاء أن الكلام إذا كان منصوبا لغرض جعلوا سياقه له وطرحوا ما عداه، وهنا لم يكن الغرض في الإيراد ذكر الشهادتين - لأن القوم كانوا مؤمنين مقرين بكلمتي الشهادة - ولكن ربما كانوا يظنون أن الإيمان مقصور عليهما كما كان الأمر في صدر الإسلام، قال: فلهذا لم يعد

الشهادتين في الأوامر. قيل ولا يرد على هذا الإتيان بحرف العطف فيحتاج إلى تقدير. وقال القاضي أبو بكر بن العربي: لولا وجود حرف العطف لقلنا إن ذكر الشهادتين ورد على سبيل التصدير، لكن يمكن أن يقرأ قوله " وإقام الصلاة " بالخفض فيكون عطفا على قوله " أمرهم بالإيمان" التقدير أمرهم بالإيمان مصدرا به وبشرطه من الشهادتين، وأمرهم بإقام الصلاة إلخ، قال: ويؤيد هذا حذفهما في رواية المصنف في الأدب من طريق أبي التياح عن أبي جمرة ولفظه " أربع وأربع، أقيموا الصلاة إلخ ". فإن قيل ظاهر ما ترجم به المصنف من أن أداء الخمس من الإيمان يقتضي إدخاله مع باقي الخصال في تفسير الإيمان والتقدير المذكور يخالفه، أجاب ابن رشيد بأن المطابقة تحصل من جهة أخرى، وهي أنهم سألوا عن الأعمال التي يدخلون بها الجنة وأجيبوا بأشياء منها أداء الخمس، والأعمال التي تدخل الجنة هي أعمال الإيمان فيكون أداء الخمس من الإيمان بهذا التقرير. فإن قيل: فكيف قال في رواية حماد بن زيد عن أبي جمرة " آمركم بأربع: الإيمان بالله: شهادة أن لا إله إلا الله. وعقد واحدة " كذا للمؤلف في المغازي، وله في فرض الخمس "وعقد بيده " فدل على أن الشهادة إحدى الأربع. وأما ما وقع عنده في الزكاة من هذا الوجه من زيادة الواو في قوله " شهادة أن لا إله إلا الله " فهي زيادة شاذة لم يتابع عليها حجاج بن منهال أحد، والمراد بقوله شهادة أن لا إله إلا الله أي: وأن محمدا رسول الله كما صرح به في رواية عباد بن عباد في

أوائل المواقيت ولفظه " آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله " ثم فسرها لهم " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله " الحديث. والاقتصار على شهادة أن لا إله إلا الله على إرادة الشهادتين معا لكونها صارت علما على ذلك كما تقدم تقريره في باب زيادة الإيمان، وهذا أيضا يدل على أنه عد الشهادتين من الأربع لأنه أعاد الضمير في قوله ثم فسرها مؤنثا فيعود على الأربع، ولو أراد تفسير الإيمان لأعاده مذكرا، وعلى هذا فيقال: كيف قال أربع والمذكورات خمس؟ وقد أجاب عنه القاضي عياض - تبعا لابن بطال - بأن الأربع ما عدا أداء الخمس، قال: كأنه أراد إعلامهم بقواعد الإيمان وفروض الأعيان، ثم أعلمهم بما يلزمهم إخراجه إذا وقع لهم جهاد لأنهم كانوا بصدد محاربة كفار مضر، ولم يقصد ذكرها بعينها لأنها مسببة عن الجهاد، ولم يكن الجهاد إذ ذاك فرض عين. قال: وكذلك لم يذكر الحج لأنه لم يكن فرض. وقال غيره: قوله " وأن تعطوا " معطوف على قوله " بأربع " أي: آمركم بأربع وبأن تعطوا، ويدل عليه العدول عن سياق الأربع والإتيان بأن والفعل مع توجه الخطاب إليهم، قال ابن التين: لا يمتنع الزيادة إذا حصل الوفاء بوعد الأربع. قلت: ويدل على ذلك لفظ رواية مسلم من حديث أبي سعيد الخدري في هذه القصة " آمركم بأربع: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، وأعطوا الخمس من الغنائم ". وقال القاضي أبو بكر بن العربي: ويحتمل أن يقال إنه

عد الصلاة والزكاة واحدة لأنها قرينتها في كتاب الله، وتكون الرابعة أداء الخمس، أو أنه لم يعد أداء الخمس لأنه داخل في عموم إيتاء الزكاة، والجامع بينهما أنهما إخراج مال معين في حال دون حال. وقال البيضاوي الظاهر أن الأمور الخمسة المذكورة هنا تفسير للإيمان وهو أحد الأربعة الموعود بذكرها، والثلاثة الأخر حذفها الراوي اختصارا أو نسيانا. كذا قال، وما ذكر أنه الظاهر لعله يحسب ما ظهر له، وإلا فالظاهر من السياق أن الشهادة أحد الأربع لقوله "وعقد واحدة " وكأن القاضي أراد أن يرفع الإشكال من كون الإيمان واحدا والموعود بذكره أربعا، وقد أجيب عن ذلك بأنه باعتبار أجزائه المفصلة أربع، وهو في حد ذاته واحد، والمعنى أنه اسم جامع للخصال الأربع التي ذكر أنه يأمرهم بها، ثم فسرها، فهو واحد بالنوع متعدد بحسب وظائفه، كما أن المنهي عنه - وهو الانتباذ فيما يسرع إليه الإسكار - واحد بالنوع متعدد بحسب أوعيته والحكمة في الإجمال بالعدد قبل التفسير أن تتشوف النفس إلى التفصيل ثم تسكن إليه وأن يحصل حفظها للسامع فإذا نسي شيئا من تفاصيلها طالب نفسه بالعدد، فإذا لم يستوف العدد الذي في حفظه علم أنه قد فاته بعض ما سمع. وما ذكره القاضي عياض من أن السبب في كونه لم يذكر الحج في الحديث لأنه لم يكن فرض هو المعتمد، وقد قدمنا الدليل على قدم إسلامهم، لكن جزم القاضي بأن قدومهم كان في سنة ثمان قبل فتح مكة تبع فيه الواقدي، وليس بجيد؛ لأن فرض الحج

كان سنة ست على الأصح كما سنذكره في موضعه إن شاء الله.. لكن يمكن أن يقال إنه إنما أخبرهم ببعض الأوامر لكونهم سألوه أن يخبرهم بما يدخلون بفعله الجنة، فاقتصر لهم على ما يمكنهم فعله في الحال، ولم يقصد إعلامهم بجميع الأحكام التي تجب عليهم فعلا وتركا. ويدل على ذلك اقتصاره في المناهي على الانتباذ في الأوعية مع أن في المناهي ما هو أشد في التحريم من الانتباذ، لكن اقتصر عليها لكثرة تعاطيهم لها. وأما ما وقع في كتاب الصيام من السنن الكبرى للبيهقي من طريق أبي قلابة الرقاشي عن أبي زيد الهروي عن قرة في هذا الحديث من زيادة ذكر الحج ولفظه " وتحجوا البيت الحرام " ولم يتعرض لعدد فهي رواية شاذة، وقد أخرجه الشيخان ومن استخرج عليهما والنسائي وابن خزيمة وابن حبان من طريق قرة لم يذكر أحد منهم الحج، وأبو قلابة تغير حفظه في آخر أمره فلعل هذا مما حدث به في التغير، وهذا بالنسبة لرواية أبي جمرة. وقد ورد ذكر الحج أيضا في مسند الإمام أحمد من رواية أبان العطار عن قتادة عن سعيد بن المسيب - وعن عكرمة - عن ابن عباس في قصة وفد عبد قيس، وعلى تقدير أن يكون ذكر الحج فيه محفوظا فيجمع في الجواب عنه بين الجوابين المتقدمين فيقال: المراد بالأربع ما عدا الشهادتين وأداء الخمس. والله أعلم انتهى

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم:

قوله: صلى الله عليه وسلم: (آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله، ثم فسرها لهم فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم). وفي رواية: (شهادة أن لا إله إلا الله وعقد واحدة) وفي الطريق الأخرى: (قال: وأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع. قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده. قال: وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمسا من المغنم). وفي الرواية الأخرى قال: (آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، وأعطوا الخمس من الغنائم). هذه ألفاظه هنا وقد ذكر البخاري هذا الحديث في مواضع كثيرة من صحيحه وقال فيه في بعضها " شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وذكره في باب إجازة خبر الواحد، وذكره في باب بعد باب نسبة اليمن إلى إسماعيل صلى الله عليه وسلم في آخر ذكر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقال فيه: " آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان"، بزيادة واو. وكذلك قال فيه في أول كتاب الزكاة: الإيمان بالله، وشهادة أن لا إله إلا الله " بزيادة واو أيضا. ولم يذكر فيها الصيام.

وذكر في باب حديث وفد عبد القيس: الإيمان بالله شهادة أن لا إله إلا الله. فهذه ألفاظ هذه القطعة في الصحيحين، وهذه الألفاظ مما يعد من المشكل وليست مشكلة عند أصحاب التحقيق. والإشكال في كونه صلى الله عليه وسلم قال: "آمركم بأربع". والمذكور في أكثر الروايات خمس. واختلف العلماء في الجواب عن هذا على أقوال أظهرها: ما قاله الإمام ابن بطال رحمه الله تعالى في شرح صحيح البخاري قال: أمرهم بالأربع التي وعدهم بها، ثم زادهم خامسة، يعني أداء الخمس، لأنهم كانوا مجاورين لكفار مضر، فكانوا أهل جهاد وغنائم. وذكر الشيخ أبو عمرو بن الصلاح نحو هذا فقال قوله: أمرهم بالإيمان بالله أعاده لذكر الأربع ووصفه لها بأنها إيمان ثم فسرها بالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم فهذا موافق لحديث بني الإسلام على خمس ولتفسير الإسلام بخمس في حديث جبريل صلى الله عليه وسلم وقد سبق أن ما يسمى إسلاما يسمى إيمانا وأن الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان. وقد قيل إنما لم يذكر الحج في هذا الحديث لكونه لم يكن نزل فرضه.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "وأن تؤدوا خمسا من المغنم" فليس عطفا على قوله " شهادة أن لا إله إلا الله" فإنه يلزم منه أن يكون الأربع خمسا، وإنما هو عطف على قوله "بأربع" فيكون مضافا إلى الأربع لا واحدا منها؛ وإن كان واحدا من مطلق شعب الإيمان. قال: وأما عدم ذكر الصوم

في الرواية الأولى فهو إغفال من الراوي وليس من الاختلاف الصادر من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بل من اختلاف الرواة الصادر من تفاوتهم في الضبط والحفظ على ما تقدم بيانه. فافهم ذلك وتدبره تجده إن شاء اللّه تعالى مما هدانا اللّه سبحانه وتعالى لحله من العقد. هذا آخر كلام الشيخ أبي عمرو. وقيل في معناه غير ما قالاه مما ليس بظاهر فتركناه. واللّه أعلم.

وأما قول الشيخ إن ترك الصوم في بعض الروايات إغفال من الراوي وكذا قاله القاضي عياض وغيره وهو ظاهر لا شك فيه قال القاضي عياض رحمه اللّه: وكانت وفادة عبد القيس عام الفتح قبل خروج النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى مكة ونزلت فريضة الحج سنة تسع بعدها على الأشهر. واللّه أعلم. انتهى كلام النووي رحمه اللّه.

من هنا ونظرا لما رأيناه من تفاوت في الروايات يصعب معه ضبط المسألة أصوليا لذكر حرف العطف مرة وإغفاله مرة ولذكر كلمة وحده مرة وتركها مرة، ولذكر العبادة وعدم الشرك مرة وتركها مرة وما شابه نقول بأن هذه أخبار آحاد نصدق بها ولا نردها – معاذ اللّه أن نردها وهي من الصحيح – ولكن لا نبني عليها اعتقادا، لحاجتنا إلى عين قول الرسول عليه الصلاة والسلام لنرى هل هو عطف للايمان على الأعمال المذكورة كما

يفهم من بعض الروايات أم هو تفسير للإيمان على أنه الأعمال المذكورة كما في روايات أخرى وما شابه.

قال الكشميري: فالوجه عندي: أن الجواب إنما يُلقى على السائل بقدر علمِهِ وفَطَانته، وسؤالُ جبرائيل عليه السلام وكذا حالُهُ لمَّا دلا على كمال فَطَانته، أجابه مفصلاً بذكر حقيقة كلٍ على حدة، بخلاف وفد عبد القيس فإن ضِمَام بن ثعلبة كان حديثَ العهد بالإسلام، فاكتفى في جوابه على الإجمال ولم يلتفت إلى بيان الحقائق.

وحاصله: أنه راعى حال المخاطُب في كلا الحديثين، كما أن الذي يعظُ الناسَ يراعي ما يحرِّضُ على العمل، فربما يذكر الضَّعاف من الأحاديث عند الترغيب والترهيب ولا يفصِّلُ في كلامه، ويقول: تارك الصلاة كافر، ولا يقول: كافر بكفرٍ دون كفر. بخلاف المعلم الذي يتصدى لإظهار الحقائق فيذكر حقيقةَ الأمر ويُنَبِّه على المسامحات، ويفصِّلُ في المتعلَّقات. فحاصل حديث جبرائيل عليه السلام: إعطاء العلم، وبيان الحقيقةِ كما يفعلُ المعلم وهو الأقرب بسياقه، بخلاف حديث وفد عبد القيس فإنَّ حاصِلَه التحريضُ على العمل، وفي مثله يتمشَّى على الإجمال فيُتسامحُ في البيان.[٣٦٧]

---

٣٦٧ فيض الباري شرح صحيح البخاري للكشميري كتاب الإيمان.

قصة إسلام عبد القيس كما ذكرها النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم:

وكان سبب وفودهم أن منقذ بن حيان أحد بني غنم بن وديعة كان متجره إلى يثرب في الجاهلية، فشخص إلى يثرب بملاحف وتمر من هجر بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم. فبينا منقذ بن حيان قاعد إذ مر به النبي صلى الله عليه وسلم فنهض منقذ إليه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أمنقذ بن حيان كيف جميع هيئتك وقومك؟ " ثم سأله عن أشرافهم رجل رجل يسميهم لأسمائهم. فأسلم منقذ وتعلم سورة الفاتحة واقرأ باسم ربك. ثم رحل قبل هجر. فكتب النبي صلى الله عليه وسلم معه إلى جماعة عبد القيس كتابا فذهب به وكتمه أياما، ثم اطلعت عليه امرأته وهي بنت المنذر بن عائذ بالذال المعجمة ابن حارث والمنذر هو الأشج سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم به لأثر كان في وجهه، وكان منقذ رضي الله عنه يصلي ويقرأ، فنكرت امرأته ذلك فذكرته لأبيها المنذر فقالت: أنكرت بعلي منذ قدم من يثرب: إنه يغسل أطرافه، ويستقبل الجهة تعني القبلة، فيحني ظهره مرة ويضع جبينه مرة، ذلك ديدنه منذ قدم، فتلاقيا فتجاريا ذلك فوقع الإسلام في قلبه. ثم ثار الأشج إلى قومه عصر ومحارب بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأه عليهم، فوقع الإسلام في قلوبهم، وأجمعوا على السير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسار الوفد، فلما دنوا من المدينة قال

النبي صلى الله عليه وسلم لجلسائه: " أتاكم وفد عبد القيس خير أهل المشرق وفيهم الأشج العصري غير ناكثين ولا مبدلين ولا مرتابين إذ لم يسلم قوم حتى وتروا ".

باب هل المطلوب هو الإقرار فقط أم العمل بما نقر به؟

المحور التالي: (لا بد أن يعقد قلب المرء على ما آمن به فليس الإيمان مجرد إقرار باللسان، فلما لم يكن بالإقرار إذا لم يكن معه التصديق مؤمناً ولا بالتصديق إذا لم يكن معه الإقرار مؤمناً حتى يكون مصدقاً بقلبه مقراً بلسانه فإذا كان تصديقاً بالقلب وإقراراً باللسان كان عندهم مؤمناً وعند بعضهم لا يكون مؤمناً حتى يكون مع التصديق عمل.

فأما الطائفة التي ذهبت إلى أن العمل ليس من الإيمان فيقال لهم ماذا أراد الله من العباد إذ قال لهم [أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة] الإقرار بذلك أو الإقرار والعمل فإن قالت إن الله أراد الإقرار ولم يرد العمل فقد كفرت عند أهل العلم من قال إن الله لم يرد من العباد أن يصلوا ولا يؤتوا الزكاة وإن قالت أراد منهم الإقرار قيل فإذا كان أراد منهم الأمرين جمعياً لم زعمتم أنه يكون مؤمناً بأحدهما دون الآخر وقد أرادهما جميعاً أرأيتم لو أن رجلا قال أعمل جميع ما أمر به الله ولا أقر به أيكون مؤمناً فان قالوا لا قيل لهم فإن قال أقر بجميع ما أمر الله به ولا أعمل به أيكون مؤمناً فإن قالوا نعم قيل ما الفرق فقد زعمتم أن الله أراد الأمرين جميعاً فإن جاز أن يكون بأحدهما مؤمناً إذا ترك الآخر جاز أن يكون بالآخر إذا عمل به ولم يقر مؤمناً لا فرق بين ذلك.)

هذا ملخص الدليل، وللجواب أقول وبالله تعالى التوفيق:

أولا بـأمره تعـالى العبـاد أن أقيمـوا الصـلاة وءاتـوا الزكـاة، أراد المـولى سبحانه وتعالى منهم الإقرار بأن هذا أمره وشرعه وأن عليهم فعله مـن هـذا المنطلق، وأن لا يتلقوا الأوامـر والنـواهي إلا منـه، كـل هـذا رتـب علـى عـدم القيام به أي علـى عـدم الإقـرار بهـذا الكفـر، وبالتـالي دخـل هـذا الإقـرار فـي الإيمان، وكان جزءاً منه يوجد بوجوده وينتفي بانتفائه، ولا نقـاش، أمـا الأمـر الآخر فقد أراد منهم القيام بالعمل، ولم يرتب على عدم القيام بـه الكفـر بـل رتب عليه العقوبة، فلم ندخله في الإيمان لذلك السـبب، أي أن هـذا الترتيـب قرينة على ما يجب أن نتخذه من إجراء تجاه هذه القضايا. والله الموفق.

باب الإقرار مع أعمال الكفر هل يسمى إيمانا؟

المحور التالي: أما إلزام إمام أهل السنة رضي الله تعالى عنه فنحتاج إلى التدقيق في قوله وهو قول حق: (وقال أحمد: ويلزمه أن يقول هو مؤمن بإقراره وإن أقر بالزكاة في الجملة ولم يجد في كل مائتي درهم خمسة أنه مؤمن فيلزمه أن يقول إذا أقر ثم شد الزنار في وسطه وصلى للصليب وأتى الكنائس والبيع وعمل الكبائر كلها إلا أنه في ذلك مقر بالله فيلزمه أن يكون عنده مؤمناً وهذه الأشياء من أشنع ما يلزمهم).

فإن من لم يجد في كل مائتي درهم خمسة إن أنكر الفرض كفر وإن تهاون في الأداء فأمره إلى الله، لا نكفره بالذنب، فلا تعارض، وأما الأفعال التي يفعلها وفيها الكفر كقتل الأنبياء والسجود لغير الله تعالى كالسجود لصنم وإتيان الكنائس وما إلا ذلك، فلا بد من ملاحظة أن في هذه الأفعال جانب عقدي، وهو أن السجود لغير الله شرك، لأنه لم يوحد الله في العبادة وهذا من الاعتقاد، ولولا أن في قلبه الشرك لما فعل، فالسجود علامة على ما في القلب، اللهم إلا إن كان عن إكراه فلا خلاف في أنه لا كفر ولا شرك، وكذلك لبس الصليب، وإتيان الكنائس على سبيل الخشوع والتبتل فإنه علامة على ما في القلب من ريبة في الدين الحق فإنه ما خشع إلا لشعوره أن من يُعبد في هذه الكنيسة يستحق الخشوع ففعله هذا شرك، فيكفر بذلك

الأمر، ألا ترى أنه لو دخل الكنائس بنية أخرى لا شيء عليه، فارتباط الفعل بما في القلب هو الذي يرتب الحكم عليه، تماماً كمن حكم بغير ما أنزل اللّه وهو غير مكره وقد أقيمت عليه الحجة فإنه يستوي مع إبليس في رفضه حكم اللّه، واعتقاده أن ما عنده من الأحكام أفضل وهذا دخل في موضوع الحاكمية وشارك اللّه تعالى في خاصية ليست لغيره وهي التشريع فأشرك مع اللّه فكفر ...الخ.

فلا نستطيع القول أن من لم يعمل العمل أنه غير مؤمن، وسبق القول أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد عامل من خالف أمراً أو أتى بكبيرة على أنه مؤمن، ناقص الإيمان، ولم يعاقبه عقوبة المرتد، ومن هنا ستجد أهمية تدقيق فهم الفرق بين المسلم والمؤمن على الصورة التي ذكرت لأن القائل بالصورة التي تنفي الإيمان لتنقل المرء منه إلى الإسلام تجعل مقترف الكبيرة مسلماً غير مؤمن، وليس كذلك واللّه أعلم.

كذلك يلاحظ أن هذه الأفعال وأمثالها أفعال مكفرة، وهي لا تحتمل التأويل وقد فصلت في ذلك في فصل نواقض الإيمان فارجع إليه.

كذلك هنا يلاحظ أن هذا هو عين ما أكفر إبليسا، فقد أمره اللّه تعالى بأمر ورآى أن هذا الأمر خطأ وغير صواب ورد حكم اللّه عليه، [قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ]

(١٢)الأعراف، [قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ] (٣٣) الحجر، [وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً] (٦١) الإسراء، [وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ] ٥٠ الكهف، [وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) طه إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ] (٧٦) ص، فمثله في ذلك مثل من لم يحكم بما أنزل الله وهو يرى أن ما لديه خير من حكم الله فهو كفر ناتج عن عمل مكفر له علاقة بالاعتقاد، كما أن فعله يدل على أنه لا يقر لله تعالى بالحاكمية والتشريع، وكفى بها جريمة.

باب: الإيمان والعمل مفاتيح الجنة

المحور التالي: وإليك مجموعة من أحاديث المصطفى عليه السلام التي ترى منها بوضوح أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وحيث أن من يقول بأن الأعمال من الإيمان لا ينكرون أن من كان معه مثقال ذرة من إيمان فإنه سيدخل الجنة، فهو مؤمن قطعاً (تلاحظ أهمية الضابط بأن المؤمن الذي معه مثقال ذرة إيمان لا بد من أن يكون خالياً من كل كفر أو شرك) وبالتالي فهذا الذي فعل الكبائر وقصر ما قصر سيدخل الجنة فهو ولا شك مؤمن. والله أعلم.

وهذه حجة أخرى على من جعل المسلم دون المؤمن، كما أنها حجة على أن الأعمال من ثمار الإيمان لا من أركانه، اللهم إلا إذا كان النظر من زاوية المؤمن كشخصية إسلامية، فلا يمكن أن نتصور المؤمن لا يعمل شيئاً مما أمره الله تعالى به.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ الْكَفُّ عَمَّنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَلَا نُكَفِّرُهُ بِذَنْبٍ وَلَا نُخْرِجُهُ مِنْ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي الله إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ. سنن أبي داود كتاب الجهاد

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَأَخْبَرَنِي أَوْ قَالَ بَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّه شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ البخاري كتاب الجنائز.

عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ قَالَ شَهِدْنَا خَيْبَرَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ مِمَّنْ مَعَهُ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلَمَّا حَضَرَ الْقِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ أَشَدَّ الْقِتَالِ حَتَّى كَثُرَتْ بِهِ الْجِرَاحَةُ فَكَادَ بَعْضُ النَّاسِ يَرْتَابُ فَوَجَدَ الرَّجُلُ أَلَمَ الْجِرَاحَةِ فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى كِنَانَتِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهَا أَسْهُمًا فَنَحَرَ بِهَا نَفْسَهُ فَاشْتَدَّ رِجَالٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه صَدَّقَ اللَّه حَدِيثَكَ انْتَحَرَ فُلَانٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَقَالَ قُمْ يَا فُلَانُ فَأَذِّنْ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ إِنَّ اللَّه يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ. البخاري كتاب المغازي.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ. مسلم كتاب الإيمان. عَنْ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ وَأَوْسَ بْنَ الْحَدَثَانِ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ فَنَادَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَأَيَّامُ مِنًى أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ. مسلم كتاب الصيام.

عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ نَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ وَمَعَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَانَ صَاحِبُ خَيْبَرَ رَجُلًا مَارِدًا مُنْكَرًا فَأَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَلَكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا حُمُرَنَا وَتَأْكُلُوا ثَمَرَنَا وَتَضْرِبُوا نِسَاءَنَا فَغَضِبَ يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ يَا ابْنَ عَوْفٍ ارْكَبْ فَرَسَكَ ثُمَّ نَادِ أَلَا إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِمُؤْمِنٍ وَأَنْ اجْتَمِعُوا لِلصَّلَاةِ قَالَ فَاجْتَمَعُوا ثُمَّ صَلَّى بِهِمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ فَقَالَ أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ قَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّه لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا إِلَّا مَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ أَلَا وَإِنِّي وَاللَّه قَدْ وَعَظْتُ وَأَمَرْتُ وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءَ إِنَّهَا لَمِثْلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ وَإِنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا بِإِذْنٍ وَلَا ضَرْبَ نِسَائِهِمْ وَلَا أَكْلَ ثِمَارِهِمْ إِذَا أَعْطَوْكُمْ الَّذِي عَلَيْهِمْ. أبو داود. كتاب الخراج والإمارة والفيء.

وفي البخاري: أتيت النبي صلى اللّه عليه وسلم وعليه ثوب أبيض، وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: (ما من عبد قال: لا إله إلا اللّه، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة). قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: (وإن زنى وإن سرق). قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: (وإن زنى وإن سرق). قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: (وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر) .وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال: وإن رغم أنف أبي ذر.

ولا يفهم من ذلك أن العمل غير ضروري لدخول الجنة بل المقصود أن الإيمان شرط لذلك الدخول، ولا بد من ملاحظة ارتباط الإيمان بالعمل في معظم المواضع التي طلب الحق سبحانه الإيمان فإنه تعالى قد قرن الإيمان بالعمل [مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ] ٦٢ البقرة [مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ] ٩٧ النحل؛ [وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى] الآية ٨٨ الكهف... ولا تكاد تجد آية تنص على الإيمان إلا قرنته بالعمل؛ لأهميته القصوى وإلا فما الفائدة من أوامر اللّه ونواهيه إن لم تكن للقيام بها:

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ رِفَاعَةَ الْجُهَنِيِّ قَالَ صَدَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ عَبْدٍ يُؤْمِنُ ثُمَّ يُسَدِّدُ إِلَّا سُلِكَ بِهِ فِي الْجَنَّةِ وَأَرْجُو أَلَّا يَدْخُلُوهَا حَتَّى تَبَوَّءُوا أَنْتُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ذَرَارِيِّكُمْ مَسَاكِنَ فِي الْجَنَّةِ وَلَقَدْ وَعَدَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ. ابن ماجه. الزهد.

عَنْ أَبِي سَلَّامٍ عَنْ مَوْلًى لِرَسُولِ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَخٍ بَخٍ لِخَمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّه وَاللّه أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللّه وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدُهُ وَقَالَ بَخٍ بَخٍ لِخَمْسٍ مَنْ لَقِيَ اللّه عَزَّ وَجَلَّ مُسْتَيْقِنًا بِهِنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ يُؤْمِنُ

بِاللّه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْجَنَّةِ وَالنَّار وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْحِسَابِ. أحمد. مسند الشاميين.

وهنا نبين أن قولهم جنس الأعمال داخل في الإيمان حق إذا عنينا به الإيمان الحق وسيأتي بيان ذلك لاحقاً إن شاء اللّه.

نعود إلى الشرط المذكور أعلاه، فنفهم من قوله تعالى [مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ] ٩٧ النحل وقوله تعالى [وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا] ٢ الكهف؛ [إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا] ٦٠ مريم؛ [وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى] ٧٥ طه؛ [مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ] ٤٠ غافر؛ [لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّه يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] ٩٣ المائدة؛ [فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ] ٩٤ الأنبياء؛ كل ذلك نرى فيه التمييز مع الارتباط العضوي بين الإيمان والعمل؛ فقد ميز بين من يعمل صالحا وهو مؤمن وبين من يعمل وهو كافر [وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] ٣٩ النور؛ فالإيمان

سبق العمل وحال المرء أنه يؤمن أولا ثم يعمل؛ من ذلك أن المرء قد يأتي الله مؤمناً بمعنى التصديق الجازم لكنه لم يعمل الصالحات بل عمل صالحاً هكذا على التنكير فيدخله الجنة [مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ] ٤٠ غافر، لكن لا يتصور أن لا يفعل مؤمن صالحاً ما يدخل به الجنة! وهنا أحذر بأن الآية تحتمل لوصف العمل بأنه صالحاً أن يكون مقبولا، فلا يتصور من عملٍ لم يقصد به الله وحده خالصاً من الرياء أن يكون صالحاً، وبالتالي من يضمن أن هذا العمل الصالح الصغير الوحيد هو المنجي مع الإيمان؟ فلا بد من العمل حتى تتفطر قدما العبد عل الله يقبل منه عملا واحداً يعتبره صالحاً، والله أعلم.

[فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ] ٧ الزلزلة؛ لكن بشرط أن يكون مؤمناً وبشرط أن لا يفعل فعلا يكفر به ويخرج به من الملة:

(وأمثلة ذلك كفر العناد كأن يعرف الحق ويقر به بلسانه لكنه لا يقبل به عناداً ككفر أبي طالب؛ [أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ] ٢٤ ق [كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا] ١٦ المدثر؛ ونظيره الكِبر يتكبر صاحبه على الحق الذي يوقن به كالذي كان من إبليس –لعنه الله- [بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ] ٥٩ الزمر؛ ومن ينكر ما ثبت باليقين انه من الدين كإنكار البعث مثلا [يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ

الْكَافِرُونَ] ٨٣ النحل؛ والجحود وهو معرفة الحق في القلب وجحده كالذي كان من يهود وغيرهم [وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ] ١٤ النمل؛ [وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ] ٣٢ لقمان؛ [وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ] ٤٧ العنكبوت؛ وكره الدين أو ما علم منه بالضرورة أو كره شيء من شرائع الإسلام: [وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ٨ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ] ٩محمد؛ [إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ٢٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ] ٢٦محمد، فإذا كان حكم الذين قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر أنهم ارتدوا على أدبارهم كافرين؛ فما يكون القول في الذين كرهوا ما نزل الله؟ والنفاق وهم الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإسلام؛ والاستحلال: وهو الذي يستحل ما حرم الله وهذا لا خلاف في كفره لأنه جعل نفسه نداً لله تعالى في التشريع؛ والاستهزاء بما شرع الله من أحكام أو بالرسول عليه سلام الله [وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ ٦٥ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ] ٦٦ التوبة؛ [وَقَدْ نَزَّلَ

عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا] ١٤٠ النساء؛ والإعراض عن الدين وعن تعلم ما يجب عليه تعلمه منه [وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا] ٥٧ الكهف [كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ٩٩ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ١٠٠ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا] ١٠١ طه والإعراض منه ما يكون كفراً ومنه ما يكون دون ذلك.)[٣٦٨]. والله أعلم.

---

٣٦٨) قواعد في التكفير.عبد المنعم حليمة ١٢-١٤بتصرف

باب: الأعمال شرط كمال لا شرط صحة للإيمان

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: وقال الإمام أبو الحسن علي بن خلف بن بطال المالكي المغربي في شرح صحيح البخاري مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، والحجة على زيادته ونقصانه ما أورده البخاري من الآيات يعني قوله عز وجل: {ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم}. وقوله تعالى: {وزدناهم هدى}. وقوله تعالى: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى}. وقوله تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى}. وقوله تعالى: {ويزداد الذين آمنوا إيماناً}. وقوله تعالى: {أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً} وقوله تعالى: {فاخشوهم فزادهم إيماناً}. وقوله تعالى: {وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً}. قال ابن بطال: فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص، قال: فإن قيل: الإيمان في اللغة التصديق، فالجواب: أن التصديق يكمل بالطاعات كلها، فما ازداد المؤمن من أعمال البر كان إيمانه أكمل، وبهذه الجملة يزيد الإيمان، وبنقصانها ينقص، فمتى نقصت أعمال البر نقص كمال الإيمان، ومتى زادت زاد الإيمان كمالاً، هذا توسط القول في الإيمان. وأما التصديق بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلّم فلا ينقص، ولذلك توقف مالك رحمه الله في بعض الروايات عن القول بالنقصان، إذ لا يجوز نقصان التصديق، لأنه إذا

نقص صار شكاً وخرج عن اسم الإيمان. وقال بعضهم: إنما توقف مالك عن القول بنقصان الإيمان خشية أن يتأول عليه موافقة الخوارج الذين يكفرون أهل المعاصي من المؤمنين بالذنوب، وقد قال مالك بنقصان الإيمان مثل قول جماعة أهل السنة. وقال ابن بطال في باب من قال: الإيمان هو العمل، فإن قيل: قد قدمتم أن الإيمان هو التصديق، قيل: التصديق هو أول منازل الإيمان، ويوجب للمصدق الدخول فيه، ولا يوجب له استكمال منازله، ولا يسمى مؤمناً مطلقاً، هذا مذهب جماعة أهل السنة أن الإيمان قول وعمل. ٣٦٩

٣٦٩) شرح النووي على صحيح مسلم كتاب باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه

باب: الإيمان بضع وسبعون شعبة:

روى الإمام مسلم في كتاب الايمان: عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان.

قال الإمام النووي رحمه اللّه في شرحه: قوله صلى اللّه عليه وسلم: (الإيمان بضع وسبعون شعبة) : هكذا رواه عن أبي عامر العقدي عن سليمان بن بلال عن عبد اللّه بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم. وفي رواية زهير عن جرير عن سهيل عن عبد اللّه بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة بضع وسبعون أو بضع وستون كذا وقع في مسلم من رواية سهيل بضع وسبعون أو بضع وستون على الشك. ورواه البخاري في أول الكتاب من رواية العقدي بضع وستون بلا شك. ورواه أبو داود والترمذي وغيرهما من رواية سهيل بضع وسبعون بلا شك ورواه الترمذي من طريق آخر وقال فيه أربعة وستون بابا. واختلف العلماء في الراجحة من الروايتين فقال القاضي عياض: الصواب ما وقع في سائر الأحاديث ولسائر الرواة بضع وستون وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه اللّه تعالى: هذا الشك الواقع في رواية سهيل هو من سهيل. كذا. قاله الحافظ أبو بكر البيهقي رحمه اللّه. وقد روي عن سهيل بضع وسبعون من

غير شك. وأما سليمان بن بلال فإنه رواه عن عمرو بن دينار على القطع من غير شك وهي الرواية الصحيحة أخرجاها في الصحيحين غير أنها فيما عندنا من كتاب مسلم بضع وسبعون وفيما عندنا من كتاب البخاري بضع وستون.

وأما الشعبة فهي القطعة من الشيء فمعنى الحديث: بضع وسبعون خصلة. قال القاضي عياض رحمه الله: وقد تقدم أن أصل الإيمان في اللغة التصديق، وفي الشرع تصديق القلب واللسان. وظواهر الشرع تطلقه على الأعمال كما وقع هنا (أفضلها لا إله إلا الله)، وآخرها (إماطة الأذى عن الطريق)، وقد قدمنا أن كمال الإيمان بالأعمال، وتمامه بالطاعات، وأن التزام الطاعات وضم هذه الشعب من جملة التصديق، ودلائل عليه، وأنها خلق أهل التصديق فليست خارجة عن اسم الإيمان الشرعي ولا اللغوي. وقد نبه صلى الله عليه وسلم على أن أفضلها التوحيد المتعين على كل أحد، والذي لا يصح شيء من الشعب إلا بعد صحته. وأدناها ما يتوقع ضرره بالمسلمين من إماطة الأذى عن طريقهم. وبقي بين هذين الطرفين أعداد لو تكلف المجتهد تحصيلها بغلبة الظن، وشدة التتبع لأمكنه. وقد فعل ذلك بعض من تقدم.

وفي الحكم بأن ذلك مراد النبي صلى الله عليه وسلم صعوبة، ثم إنه لا يلزم معرفة أعيانها، ولا يقدح جهل ذلك في الإيمان إذ أصول الإيمان

وفروعه معلومة محققة، والإيمان بأنها هذا العدد واجب في الجملة. هذا كلام القاضي رحمه اللّه.

قال ابن علان الصديقي: ثم الإيمان شرعاً هو التصديق القلبي بكل ما علم بالضرورة مجيء الرسول به مع النطق اللساني للقادر عليه وظواهر الشرع كهذا الحديث يطلقه على الأعمال، والمراد أنها من كمال الإيمان وتمامه فإنه بالطاعات يتم ويكمل التصديق فالتزام الطاعات وضم هذه الشعب من جملة التصديق ودلائل عليه وأنها خلق أهل التصديق فلست خارجة عن اسم الإيمان الشرعي ولا اللغوي.[370]

وقال الإمام الحافظ أبو حاتم بن حبان بكسر الحاء: تتبعت معنى هذا الحديث مدة، وعددت الطاعات فإذا هي تزيد على هذا العدد شيئا كثيرا، فرجعت إلى السنن فعددت كل طاعة عدها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الإيمان فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين، فرجعت إلى كتاب اللّه تعالى فقرأته بالتدبر وعددت كل طاعة عدها اللّه تعالى من الإيمان فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين، فضممت الكتاب إلى السنن، وأسقطت المعاد فإذا كل شيء عده اللّه تعالى ونبيه صلى اللّه عليه وسلم من الإيمان تسع وسبعون شعبة لا يزيد عليها ولا تنقص، فعلمت أن مراد النبي صلى اللّه

---

٣٧٠) دليل الفالحين لابن علان الصديقي باب الحياء.

عليه وسلم أن هذا العدد في الكتاب والسنن. وذكر أبو حاتم رحمه الله جميع ذلك في كتاب وصف الإيمان وشعبه وذكر أن رواية من روى بضع وستون شعبة أيضا صحيحة؛ فإن العرب قد تذكر للشيء عددا ولا تريد نفي ما سواه. وله نظائر أوردها في كتابه منها في أحاديث الإيمان والإسلام. والله تعالى أعلم.

قوله: (والحياء شعبة من الإيمان) وفي الرواية الأخرى (الحياء من الإيمان) وفي الأخرى (الحياء لا يأتي إلا بخير) وفي الأخرى (الحياء خير كله أو قال كله خير) الحياء ممدود وهو الاستحياء. قال الإمام الواحدي رحمه الله تعالى: قال أهل اللغة الاستحياء من الحياة، واستحيا الرجل: من قوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع العيب. قال: فالحياء من قوة الحس ولطفه وقوة الحياة. وروينا في رسالة الإمام الأستاذ أبي القاسم القشيري عن السيد الجليل أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه قال: الحياء رؤية الآلاء أي النعم، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء. وقال القاضي عياض وغيره من الشراح: إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة لأنه قد يكون تخلقا واكتسابا كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم فهو من الإيمان بهذا، ولكونه باعثا على أفعال البر، ومانعا من المعاصي. وأما كون الحياء خيرا كله، ولا يأتي إلا بخير فقد يشكل على بعض الناس من حيث إن صاحب الحياء قد

يستحيي أن يواجه بالحق من يجله، فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر. وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق وغير ذلك مما هو معروف في العادة. وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الأئمة منهم الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه اللّه أن هذا المانع الذي ذكرناه ليس بحياء حقيقة بل هو عجز وخور ومهانة وإنما تسميته حياء من إطلاق بعض أهل العرف أطلقوه مجازا لمشابهته الحياء الحقيقي وإنما حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، ونحو هذا، ويدل عليه ما ذكرناه عن الجنيد رضي اللّه عنه، واللّه أعلم.

وفي رواية في مسلم: عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا اللّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان

وفي مسلم: عن سالم عن أبيه سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم رجلا يعظ أخاه في الحياء فقال الحياء من الإيمان. انتهى.

جاء في دليل الفالحين: (أخبرني عن الإسلام) هو والإيمان لاعتبار التلازم بين مفهوميهما شرعاً، فلا يعتبر في الخارج إيمان شرعاً بلا إسلام ولا عكسه، متحدان ما صدقا في الشرع مختلفان مفهوماً، فكل مؤمن شرعاً مسلم كذلك، وكل مسلم مؤمن، فما دلّ عليه حديث جبريل من اختلافهما

هو باعتبار المفهوم، إذ مفهوم الإسلام الشرعي الانقياد بالأفعال الظاهرة الشرعية. والإيمان في الشرع التصديق بالقواعد الشرعية، على أنه قد يتوسع الشرع فيهما فيستعمل كل واحد منهما في مكان الآخر، كإطلاق الإيمان على الأعمال الظاهرة في حديث: «الإيمان بضع وسبعون باباً، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول لا إله إلا اللّه» على أحد الوجوه في ذلك: وسيأتي ما فيه في باب الدلالة على كثرة طرق الخير، وإطلاق الإسلام على التصديق القلبي في قوله تعالى: [إن الدين عند اللّه الإسلام] (آل عمران:١٩). قال القرطبي: وهذا الإطلاق من باب التجوّز والتوسع،[٣٧١]

قال الإمام الغزالي: قالت المعتزلة والخوارج وطائفة من الفقهاء: الأسماء لغوية، ودينية، وشرعية، أما اللغوية فظاهرة، وأما الدينية فما نقلته الشريعة إلى أصل الدين، كلفظ الإيمان والكفر والفسق، وأما الشرعية فكالصلاة والصوم والحج والزكاة، واستدل القاضي على إفساد مذهبهم بمسلكين:

الأول: أن هذه الألفاظ يشتمل عليها القرآن، والقرآن نزل بلغة العرب، قال اللّه تعالى: [إنا أنزلناه قرآنا عربياً] (يوسف: ٢)، [بلسان عربي مبين]، [وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه] (إبراهيم: ٤) ولو قال: أطعموا

٣٧١) دليل الفالحين لابن علان الصديقي باب المراقبة.

العلماء: وأراد الفقراء لم يكن هذا بلسانهم، وإن كان اللفظ المنقول عربياً، فكذلك إذا نقل اللفظ عن موضوعه إلى غير موضوعه، أو جعل عبارة عن بعض موضوعه، أو متناولاً لموضوعه وغير موضوعه، فكل ذلك ليس من لسان العرب.

الثاني: أن الشارع لو فعل ذلك للزمه تعريف الأمة بالتوقيف نقل تلك الأسامي، فإنه إذا خاطبهم بلغتهم لم يفهموا إلا موضوعها، ولو ورد فيه توقيف لكان متواتراً، فإن الحجة لا تقوم بالآحاد، احتجوا بقوله تعالى: [وما كان اللّه ليضيع إيمانكم] (البقرة: ١٤٣) وأراد به الصلاة نحو بيت المقدس، وقال: «نهيت عن قتل المصلين» وأراد به المؤمنين، وهو خلاف اللغة، قلنا: أراد بالإيمان التصديق بالصلاة والقبلة، وأراد بالمصلين المصدّقين بالصلاة، وسمي التصديق بالصلاة صلاة على سبيل التجوّز، وعادة العرب تسمية الشيء بما يتعلق به نوعاً من التعلق والتجوز من نفس اللغة، احتجوا بقوله: «الإيمان بضع وسبعون باباً، أعلاها شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» وتسمية الإماطة إيماناً خلاف الوضع، قلنا: هذا من

أخبار الآحاد، فلا يثبت به مثل هذه القاعدة، وإن ثبتت فهي دلالة الإيمان، فيتجوز بتسميته أيماناً،[٣٧٢]

وقال الغزالي رحمه الله: فنقول: المراد بالآية الكافر، إذ بيَّن لك أن الإيمان بضع وسبعون باباً وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل؛ فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد: وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعي وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع، ووجود الفرع بالأصل.[٣٧٣]

قال الكشميري رضي الله عنه: واعلم أن إطلاق الإيمان على الأعمال مما لا يمكن إنكاره، فقد تواتر به الحديث. لكن صنيع القرآن على خلافه. فإنه ينبىءُ أن الإيمان هو التصديق وحده من غير أن يعتبرَ معه العمل، لأنه

---

٣٧٢) المستصفى في أصول الفقه للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله باب القطب الثالث في كيفية استثمار الأحكام من مثمرات الأصول.
٣٧٣) إحياء علوم الدين للغزالي كتاب التوبة.

تعالى كلما ذكر الإيمانَ في القرآن أضافَهُ إلى القلب، وظاهره أن فعل القلب هو التصديق وحده.

... لأن هذا الجواب وإن سلَّمناه في العطف، لكنه ماذا يقول في آية أخرى؟ قال تعالى: [مَنْ عَمِلَ صَلِحاً مّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ]... إلخ (النحل: ٩٧). فجعل الإيمانَ قيداً للأعمال، وليس فيها عطفاً.

بقي الجوابُ عن إطلاق الإيمان على الأعمال في الحديث، فلا نُنكرُ أنه أيضاً إطلاق، لكنه لا ينحصِرُ فيما قالوه، بل يجوز أن يكونَ من إطلاقِ الكل على الجزء، كما فهموه. ويجوز أن يكونَ من باب إطلاق المبدأ على الأثر، كما فهمنا، فالمبدأ هو الإيمان، والعمل أثره. ولو انحصر الأمرُ في أنّ الحديثَ أطلق الإيمان على الأعمال، والقرآن جعلها مغايرةً له، بعطفها عليه، كان اتِّباعُ القرآن، والتأويل في الحديث، هو الأوْلى.[٣٧٤]

يلاحظ من دقة كلام الرسول الأكرم عليه السلام وصف خصال الايمان بالشعب، والتشعب ما تأسس وقام على أصل معين ومنه تشعب، كالشجرة أغصانها تتشعب من ساقها، قال في اللسان: قال الأَصْمَعِيُّ: شَعَبَ الرَّجُلُ أَمْرَهُ إذا شَتَّتَه وفَرَّقَه.... والشُّعْبَةُ: الفِرْقَة والطائفة من الشيءِ. وفي يده

---

٣٧٤) فيض الباري للكشميري كتاب الإيمان.

شُعْبةُ خيرٍ، مَثَلٌ بذلك. ويقال: اشْعَبْ لي شُعْبةً من المالِ أي أعْطِني قِطعة من مالِكَ. وفي يدي شُعْبةٌ من مالٍ. وفي الحديث: الحياءُ شُعْبةٌ من الإيمانِ أي طائفةٌ منه وقِطعة؛ وإنما جَعَلَه بعضَ الإيمان، لأنَّ المُسْتَحِي يَنْقَطِعُ لِحيائِه عن المعاصي، وإن لم تكن له تَقِيَّةٌ، فصار كالإيمانِ الذي يَقْطَعُ بينَها وبينَه. وفي حديث ابن مسعود: الشَّبابُ شُعْبة من الجُنونِ، إنما جَعَله شُعْبةً منه، لأنَّ الجُنونَ يُزيلُ العَقْلَ، وكذلك الشَّبابُ قد يُسْرِعُ إلى قِلَّةِ العَقْل، لِما فيه من كثرةِ المَيْلِ إلى الشَّهَوات، والإقْدامِ على المَضارّ. وقوله تَعالَى: [إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ]؛ قال ثعلب: يقال إنَّ النارَ يومَ القيامة، تَتَفَرَّقُ إلى ثلاثِ فِرَقٍ، فكُلَّما ذهبُوا أن يخرُجوا إلى موضعٍ، رَدَّتْهُم. ومعنى الظِّلِّ ههنا أن النارَ أظَلَّتْه، لأنَّه ليس هناك ظِلٌّ.... والشَّعْبُ: القَبيلةُ العظيمةُ؛ وقيل: الحَيُّ العظيمُ يتَشَعَّبُ من القبيلةِ؛ وقيل: هو القبيلةُ نفسُها، والجمع شُعوبٌ والشَّعْبُ: أبو القبائِلِ الذي يَنْتَسِبُون إليه أي يَجْمَعُهُم ويَضُمُّهُم. وفي التنزيل: [وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا] قال ابن عباس، في ذلك: الشُّعُوبُ الجُمّاعُ، والقبائلُ البُطُونُ، بُطونُ العرب، والشَّعْبُ ما تَشَعَّبَ من قَبائِلِ العرب والعجم.

لاحظنا أن الروايات هذه تبين أن أفعالا معينة هي من شعب الايمان، كقول لا إله إلا الله والقول كما بينا فعل اللسان، وإماطة الأذى عن الطريق، والحياء، وسبق في غير موضع بيان أن اسم الإيمان لا يزول عمن لم يمط

الأذى عن الطريق مثلا فيتبين أن هذه الأمور من سجايا المـؤمن، أي بعـد أن يصبح المرء شخصية إسلامية يتحلى بالحياء وما شابه.

باب: الفرق بين المؤمنين والمؤمنين حقاً والصادقين في إيمانهم

المحور التالي: يقول الحق سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ] ٣ الصف؛ فهم مؤمنون لكنهم يقولون ما لا يفعلون على عظم ذلك عند الله تعالى، وقال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢ وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ٧٣ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ] ٧٤ الأنفال،

لاحظ أن من لم يهاجر بالتأكيد لم يجاهد لأنه لو فعل لهاجر أولا أو لاعتبر التحاقه بجيش المسلمين هجرة، ومع ذلك فهو مؤمن، وأن وصف أولئك هم المؤمنون حقاً لم ينف عنهم وصف الذين ءامنوا، دلالة على أنه كمال الإيمان.

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ

قَلِيلٌ ٣٨ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] ٣٩ التوبة، [وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ] الآية ٩ الحجرات، [إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ١٦ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ] ١٧ النور.

من هنا فرقنا بين الإيمان الذي ينجو بصاحبه، وهو التصديق بالشروط السابقة، والإيمان الحق أو الصادق، والعمل هو الذي ينقل الإيمان من إيمان مجرد إلى إيمان حق، ولا بد هنا من بيان نوع من الارتباط بين الإيمان إن لم يكن حقاً وإمكانية الارتداد وبين الإيمان الحق كحافظ، قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً] ١٣٧ النساء.

قال تعالى: [هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] ٤ الفتح.
فهم معهم الإيمان، والآيات المعينة تزيدهم مع إيمانهم إيماناً، فيصبح واحدهم مؤمناً حقاً.

ومثل ذلك قوله تعالى: [فَاتَّقُواْ اللّه وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّه وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّه وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ] ٤ الأنفال؛ [وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ] ١٢٤التوبة؛ [لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ] ٣١المدثر.

وبهذا نفهم قوله تعالى [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّه وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّه أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] ١٥ الحجرات وقوله تعالى: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّه وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا] الأنفال. قوله تعالى [إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ] ١٥ السجدة فنفى الإيمان عن غير هؤلاء، فمن كان إذا ذُكّر بالقران لا يفعل ما فرضه اللّه عليه من السجود لم يكن من المؤمنين حقاً لا من المؤمنين إطلاقاً.

لاحظ كذلك الآيات التي افتتحت سورة العنكبوت للدلالة قطعاً على ذلك:

[الم ١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ
فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ٣ أَمْ
حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٤]... [وَمِنَ
النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ
وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ
الْعَالَمِينَ ١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ] ١١ العنكبوت.

فالفتنة هي المحك الذي به يتبين الصادق في إيمانه من المدعي، وبتلاوة هذه الآيات ثم التفكر في الذي قلناه في تفسير [هم للكفر يومئذ أقرب للإيمان] أو بقولنا إن الأعمال هي التي تنقل الإيمان من إيمان مجرد إلى إيمان حق، فتحفظ صاحبها، فتدبر.

على أنه لا بد من الانتباه لدقيقة هنا وهي أن الحق سبحانه ذكر الايمان الحق، وذكر الصدق في الايمان، وذلك في موضع آية الأعراب وفي موضع آية العنكبوت، وفي كلا الموضعين كان مقابل الصدق في الايمان النفاق، وكان المانع لوجود الايمان الصادق ليس العمل بذاته، ولكن تعلق العمل بالايمان، لذا ذكر في الموضعين علمه سبحانه بما في صدور العالمين، وهو الايمان، فكان العمل في آيات العنكبوت أو الامتناع عنه مؤشرا لصدق الايمان خاصة في ظروف قاهرة هي ظروف الفتنة.

كذلك قول الحق في سورة الأحزاب: [وَلَمَّا رَأَى الْـمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً] (٢٢) [لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْـمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ] (٤٥)التوبة

من هنا فالمؤمن حقا أصلا مؤمن، والعمل جعله مؤمنا حقا، والذين لم يصدقوا في إيمانهم كانوا منافقين أصلا أو كفارا، وتبين بالعمل أنهم في قلوبهم مرض. والله أعلم.

ولرب قائل: فما هو العمل فرق بين الايمان والكفر وبعدم القيام به تبين أن المرء كافر أو منافق وإن ادعى الايمان فأية حجة ألزم في أن العمل – جنس العمل – من الايمان؟

أقول وبالمولى التوفيق سبحانه: لقد بينت آيات كثيرة أن القيام بأعمال معينة لا ينفي الايمان، وقد سبق بيانها، وما زال اسم الايمان لازما لمن لم

يقم بأمثال هذه الأعمال، وكذلك في واقعة تبـوك لمـا اسـتأذن مـن اسـتأذن وبـين الله تعـالى أن هـؤلاء الـذين اسـتأذنوا منـافقون لأن المـؤمنين لا يستأذنون في القعود خلاف رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم، تخلـف معهـم ثلاثة من فضلاء الصحابة ومع ذلك لم يقل أحد أنهم دخلوا في ضمنهم فـي دائرة النفاق، معاذ الله، ولنا أن نستذكر أننـا نتنـاول هنا الايمـان مـن زاويـة أحكام الدنيا وبالتالي فكون الحق سبحانه وحده يعلم ما في القلـوب، ونهانـا في آية آل عمران التي قال فيها [هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان]

نهانا عن أن نصف بالكفر من يقوم بمثل هذا الفعل – على عظمه – كما أننا تبينا من أقوال السلف رضي الله عنهم كالقول السابق ذكره لسيدنا عمـر أننا نأخذ بالظاهر بعد انقطاع الوحي، والمروي في البخاري من أن النفاق كان زمان رسول الله وأنه ليس إلا الايمان والكفر بانقطـاع الـوحي، فهـذه الآيـات تبين ما هو عند الله تعالى، وهذا لا يعلمه أحد إلا الله، وبالتالي فالذي كشفت عنه الآيات ليس أن العمل هـو الـذي أدخـل إذ لـم يقـم بـه المـرء فـي الكفـر صاحبه، ولكن الله تعالى كشف عما في قلوب أولئك القوم لذلك اقترن النفاق في الآيات بما في صدور العالمين وهو غير الأعمال قطعا. والله أعلم.

فصل: الخلاصة فيما أراه في وصف المرء بالإسلام والإيمان:

بينت أنه لا بد للمسلم من أن يكون مؤمناً، وبينت معنى المؤمن حقاً والفرق بينه وبين المؤمن، ولم يبق إلا أن أبين ما أراه في وصف المرء بالإسلام والإيمان، ولا أقول إلا أنني هنا أثني على ما قيل من أقوال لا تتناقض مع هذه المفاهيم التي أتبناها، كآراء الإمام الغزالي وابن حزم والطحاوي وأكثر آراء العلامة وأرى أن يختص الإسلام بعمل الجوارح، والإيمان بعمل القلب.

فإن قيل إن رسول الله عليه السلام قد أدخل بعض الأعمال في شعب الإيمان، كإماطة الأذى عن الطريق، وأنه عليه السلام عرف الإيمان أحياناً بما عرف به الإسلام؛ أي بأركانه المعروفة، قلنا: فما هو الحد الفاصل إذن بين الإيمان والإسلام؟

ونحن إذ نقول بأن الإسلام والإيمان دائرتان تختص كل منهما بأشياء محدودة من الإسلام (دين الله)، وكلاهما يكمل بعضهما، وأنه لا بد للمسلم من أن يكون مؤمناً، فنقول بأن أعمال الجوارح هي من الإسلام، وليس في ذلك أي انتقاص من شأنها، فالإسلام مدحة لا تقل عن الإيمان.

قال ابن تيمية: (بل إنما سمى الإسلام الاستسلام له بقلبه وقصده وإخلاص الدين والعمل بما أمر به كالصلاة والزكاة خالصاً لوجهه، ولم يدخل فيما خص به الإيمان وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله بل ولا أعمال القلوب مثل حب الله ورسوله)[375] والسبب في تمايز صفة المسلم عن المؤمن وتداخلهما في مواضع أخرى من القرآن والسنة، واضح، فعندما يطلب الحق أن نقول بأننا مسلمون وبأننا مؤمنون في نفس الآية مثلا فاللفظان يدلان على صفتين متميزتين إحداهما تختص بالأفعال والأخرى بأعمال القلوب، لكن المؤمن إذ يصبح شخصية إسلامية لا بد له من أن يقوم ببعض الأعمال التي هي من الإسلام، أي أعمال الجوارح، ليكون مؤمناً حقاً، فالإسلام والإيمان إذ يتمايزان باختصاص كل منهما بأمور، يحصل المرء هنا على لقب المؤمن بالإيمان بأركان الإيمان، وعلى لقب المسلم بالقيام بالأفعال كالصلاة وغيرها، فإنهما أيضاً يتداخلان لدى المرء بعد أن يصبح شخصية إسلامية، أي بعد أن يتخذ المرء العقيدة الإسلامية مصدراً لتفكيره والأحكام الشرعية مقياساً لأفعاله، فيصبح المؤمن مؤمناً حقاً، لذا كان وصف المؤمنين بأنهم الذين يقومون بهذه الأفعال، مع أنهم وصفوا بالمؤمنين في آيات أخرى وطلب منهم القيام بهذه الأفعال نفسها.

---

٣٧٥) مجموع الفتاوى ٧ / ٤١١- ٤١٣

قال الإمام النبهاني: الحديث الذي يذكر أن جبريل جاء للرسول صلى الله عليه وسلم وسأله عن الإسلام والإيمان يبين معنى الإسلام ومعنى الإيمان ومنه يتبين أن الإيمان هو التصديق الجازم أي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وأن الإسلام هو العمل بأحكام الإسلام فإن الحديث يقول: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر، ويقول: الإسلام أن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة...الخ وعلى ذلك فالإيمان هو التصديق الجازم بالإسلام أي بالعقيدة الإسلامية والإسلام هو العمل بأحكام الإسلام. ٦ ربيع الأول ١٣٩٠ هـ.

جاء في كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي: فان قيل: فقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بين الاسلام والايمان وجعل الاعمال كلها من الاسلام لا من الايمان، والمشهور بين السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ونية، وأن الاعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن ادركهم. وانكر السلف على من أخرج الاعمال عن الايمان انكارا شديدا. إ.هـ.

[يلاحظ ان الاتيان بهذه الاقوال جاء في الكتاب لينقاشها ويبين محلها من الاعتبار وزاوية الرؤية التي جعلت هذه الاحكام تصدر من خلالها، ثمّ مضى في ذكر اقوال السلف حول الموضوع، ليصل الى القول]: "وأما وجه

الجمع بين هذه النصوص وبين حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الاسلام والايمان وتفريق النبي صلى الله عليه وسلم بينهما وادخاله الاعمال في مسمى الاسلام دون الايمان فانه يتضح بتقرير اصل وهو ان الاسماء ما يكون شاملا لمسميات متعددة عند افراده واطلاقه فاذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالا على بعض تلك المسميات والاسم المقرون به دالا على باقيها..... هكذا اسم الاسلام والايمان اذا فرد احدهما دخل في الاخر، ودلّ بانفراده على ما يدّل الاخر بانفراده، فاذا قورن بينهما دلّ احدهما على بعض ما يدلّ عليه بانفراده ودلّ الاخر على الباقي..........وبهذا التفصيل يظهر تحقيق القول في مسألة الايمان والاسلام هل هما واحد او مختلفان، فان اهل السنة والحديث مختلفون في ذلك، وصنفوا في ذلك تصانيف متعددة، فمنهم من يدعي ان جمهور اهل السنة على انهما شيء واحد... ومنهم من يحكي عن اهل السنة التفريق بينهما.......وبهذا التفصيل الذي ذكرناه يزول الاختلاف. فيقال: اذا افرد كل من الاسلام والايمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذ، وان قرن بين الاسمين كان بينهما فرق. والتحقيق في الفرق بينهما ان الايمان هو تصديق القلب واقراره ومعرفته، والاسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده له، وذلك يكون بالعمل.....وانما يفرق بينهما حيث قرن احد الاسمين بالاخر فيكون حينئذ المراد بالايمان جنس تصديق القلب وبالاسلام جنس العمل. انتهى.

قال ابن تيمية رحمه الله: (أي الإيمان المطلق الذي أهلـه هـم المؤمنـون حقاً فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعـالى كمـا دل عليـه الكتـاب والسنة).[٣٧٦]

٣٧٦) (مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٨٢)

فصل: الشهادتان وعلاقتهما بالاعتقاد، ومسألة القول:

قال العراقي في طرح التثريب: قَالَ النَّوَوِيُّ فِي قَوْلِهِ فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ {وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْت بِهِ} فِيهِ دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ لِمَذْهَبِ الْمُحَقِّقِينَ وَالْجَمَاهِيرِ مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إذَا اعْتَقَدَ دِينَ الْإِسْلَامِ اعْتِقَادًا جَازِمًا لَا تَرَدُّدَ فِيهِ كَفَاهُ ذَلِكَ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ مِنْ الْمُوَحِّدِينَ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ تَعَلُّمُ أَدِلَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَمَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا خِلَافًا لِمَنْ أَوْجَبَ ذَلِكَ، وَجَعَلَهُ شَرْطًا فِي كَوْنِهِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُ حُكْمُ الْمُسْلِمِينَ إلَّا بِهِ، وَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَبَعْضِ أَصْحَابِنَا الْمُتَكَلِّمِينَ، وَهُوَ خَطَأٌ ظَاهِرٌ فَإِنَّ الْمُرَادَ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ، وَقَدْ حَصَلَ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اكْتَفَى بِالتَّصْدِيقِ بِمَا جَاءَ بِهِ، وَلَمْ يَشْتَرِطْ الْمَعْرِفَةَ بِالدَّلِيلِ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ بِهَذَا أَحَادِيثُ فِي الصَّحِيحِ يُحَصِّلُ مَجْمُوعُهَا التَّوَاتُرَ بِأَصْلِهَا وَالْعِلْمِ الْقَطْعِيِّ انْتَهَى.

وقال العراقي في طرح التثريب: (الرَّابِعَةُ) اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَمَا كَانَ مِثْلَهُ الْكَرَّامِيَّةُ، وَبَعْضُ الْمُرْجِئَةِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ دُونَ عَقْدِ الْقَلْبِ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُعْتَبَرْ سِوَى ذَلِكَ، وَجَوَابُ الْجَمَاعَةِ عَنْهُ أَنَّهُ إنَّمَا عَلَّقَهُ بِالْقَوْلِ لِأَنَّهُ الَّذِي يَظْهَرُ، وَتُرَتَّبُ عَلَيْهِ الْأَحْكَامُ. وَأَمَّا الِاعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ فَلَا سَبِيلَ لَنَا إلَى مَعْرِفَتِهِ لَكِنَّهُ لَا يَصِيرُ فِي الْبَاطِنِ مُسْلِمًا بِدُونِهِ، وَلَوْ اعْتَرَفَ

لَنَا بِاعْتِقَادِهِ حكَمْنَا بِكُفْرِهِ، وَمِنْ أَقْوَى مَا يُرَدُّ بِهِ عَلَى هَؤُلَاءِ إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى إِكْفَارِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا الشَّهَادَتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى [وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ] إِلَى قَوْلِهِ [وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ]، وَمِمَّا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْت بِهِ، وَأَيْضًا فَلَفْظُ الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى فِي الصَّحِيحِ حَتَّى يَشْهَدُوا، وَالشَّهَادَةُ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ مُوَاطَأَةِ الْقَلْبِ لِلِّسَانِ بِدَلِيلِ تَكْذِيبِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ [نَشْهَدُ إِنَّك لِرَسُولِ اللَّهِ].[377]

وقال ابن أمير الحجاج في التقرير والتحبير: وَقَالَ النَّظَّامُ وَمُوَافِقُوهُ (الصِّدْقُ مُطَابَقَةُ الِاعْتِقَادِ) وَإِنْ كَانَ الِاعْتِقَادُ غَيْرَ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ (وَالْكَذِبُ عَدَمُهَا) أَيْ مُطَابَقَةِ الِاعْتِقَادِ وَإِنْ كَانَ الِاعْتِقَادُ مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ فَهُوَ كَمَا قَالَ (فَالْمُطَابِقُ) لِلْوَاقِعِ (كَذِبٌ إذَا اعْتَقَدَ عَدَمَهَا) أَيْ الْمُطَابَقَةِ لِلْوَاقِعِ وَالْمُخَالِفُ لِلْوَاقِعِ صِدْقٌ إذَا اعْتَقَدَ مُطَابَقَتَهُ لَهُ وَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ عِنْدَهُ أَيْضًا لِأَنَّ مَا لَا يُطَابِقُ الِاعْتِقَادَ كَاذِبٌ كَانَ هُنَاكَ اعْتِقَادٌ أَوْ لَا (لِقَوْلِهِ تَعَالَى [وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ] فِي قَوْلِهِمْ [نَشْهَدُ إِنَّك لَرَسُولُ اللَّهِ])

---

377) طرح التثريب > كتاب الجنايات والقصاص والديات > حديث لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله > فائدة قتل تارك الصلاة ومانع الزكاة

الْمُطَابِقِ لِلْوَاقِعِ دُونَ اعْتِقَادِهِمْ (أُجِيبَ) بِأَنَّ التَّكْذِيبَ إنَّمَا هُوَ (فِي الشَّهَادَةِ لِعَدَمِ الْمُوَاطَأَةِ) أَيْ مُوَافَقَةِ اللِّسَانِ الْقَلْبَ فَهُوَ رَاجِعٌ إلَى خَبَرٍ ضِمْنِيٍّ يُشْعِرُ بِهِ تَأْكِيدُهُمْ كَلَامَهُمْ بِأَنَّ وَاللَّامِ وَكَوْنِ الْجُمْلَةِ اسْمِيَّةً وَهُوَ أَنَّ إخْبَارَنَا هَذَا صَادِرٌ عَنْ صَمِيمِ قُلُوبِنَا وَخُلُوصِ اعْتِقَادِنَا وَوُفُورِ رَغْبَتِنَا وَنَشَاطِنَا لَا إلَى خَبَرِهِمْ الْمَذْكُورِ صَرِيحًا وَمِنْ ثَمَّةَ قَالَ تَعَالَى [وَاَللَّهُ يَعْلَمُ إنَّك لَرَسُولُهُ] (أَوْ فِيمَا تَضَمَّنَتْهُ) الشَّهَادَةُ (مِنْ الْعِلْمِ) لِأَنَّ مَنْ قَالَ أَشْهَدُ بِكَذَا تَضَمَّنَ إنِّي أَقُولُهُ عَنْ عِلْمٍ وَإِنْ كَانَتْ الشَّهَادَةُ بِمُجَرَّدِهَا تَحْتَمِلُ الْعِلْمَ وَالزُّورَ وَتَقَيُّدُهُمَا لُغَةٌ أَوْ فِي دَعْوَاهُمْ الِاسْتِمْرَارَ عَلَى الشَّهَادَةِ فِي الْغَيْبَةِ وَالْحُضُورِ بِشَهَادَةِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ الْمُنْبِئِ عَنْ الِاسْتِمْرَارِ أَوْ فِي الْمَشْهُودِ بِهِ لَكِنْ لَا فِي الْوَاقِعِ بَلْ فِي زَعْمِهِمْ الْفَاسِدِ وَاعْتِقَادِهِمْ الْبَاطِلِ حَيْثُ اعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ شَأْنُهُمْ الْكَذِبُ وَإِنْ صَدَقُوا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ.[٣٧٨]

قال الامام ابن حجر العسقلاني في كتاب الايمان: قوله: (باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم -: بني الإسلام على خمس)،.... ومراد من أدخل ذلك

٣٧٨) التقرير والتحبير المقالة الثانية في أحوال الموضوع > الباب الثالث السنة > فصل في حجية السنة.

في تعريف الإيمان ومن نفاه إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى، فالسلف قالوا: هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان.

وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله. ومن هنا نشأ ثم القول بالزيادة والنقص كما سيأتي.

والمرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط،، والكرامية قالوا: هو نطق فقط،، والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد،، والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطا في صحته.

والسلف جعلوها شرطا في كماله، وهذا كله كما قلنا بالنظر إلى ما عند الله تعالى.

أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقر أجريت عليه الأحكام في الدنيا، ولم يحكم عليه بكفر إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم، فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى إقراره، ومن نفى عنه الإيمان فبالنظر إلى كماله، ومن

أطلق عليه الكفر فبالنظر إلى أنه فعل فعل الكافر، ومن نفاه عنه فبالنظر إلى حقيقته.[379] انتهى كلام ابن حجر رحمه اللّه.

من هنا فبالنظر إلى أحكام الدنيا يكفي المرء أن يشهد ليعامل معاملة المسلمين ما لم يأت بكفر بواح لا يعذر فيه، ولكن الايمان عمل قلبي وبالتالي فالنطق بالشهادتين لا يبين حقيقة ما في القلب، فها هم المنافقون جاءوا يشهدوا وكذّبهم اللّه وفضحهم، والوحي انقطع، فلم نعد نعلم ما في القلوب، وبالتالي فلا يدخل النطق بحال في تعريف الايمان، وإن كان المرء يعامل بناء عليه ابتداء ما لم يبد ناقضا له والعلم عند اللّه.

[سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً](١٣)

---

٣٧٩) كتاب الايمان من فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر باب قول النبي صلى اللّه عليه وسلم بني الإسلام على خمس.

قال ابن عبيد في كتاب الايمان: ثم حدثت فرقة ثالثة شذت عن الطائفتين جميعا ليست من أهل العلم ولا الدين، فقالوا: الإيمان معرفة بالقلوب بالله وحده وإن لم يكن هناك قول ولا عمل ! وهذا منسلخ عندنا من قول أهل الملل الحنفية لمعارضته لكلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالرد والتكذيب، ألا تسمع قوله [قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ] الآية (البقرة /١٣٦)؟ فجعل القول فرضا حتما، كما جعل معرفته فرضا، ولم يرض بأن يقول: اعرفوني بقلوبكم. ثم أوجب مع الإقرار الإيمان بالكتب والرسل كإيجاب الإيمان، ولم يجعل لأحد إيمانا إلا بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به فقال: [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ] (النساء /١٣٦) قال: [فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ] (النساء /٦٥) وقال: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ] (البقرة /١٤٦) يعني النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يجعل الله معرفتهم به إذ تركوا الشهادة له بألسنتهم إيمانا، ثم سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله " في أشياء كثيرة من هذا لا تحصى.

وزعمت هذه الفرقة أن الله رضى عنهم بالمعرفة ! [لاحظ الانكار في حصرهم الامر بالمعرفة فقط كما قال ابن حزم] ولو كان أمر الله ودينه على ما يقول هؤلاء ما عرف الإسلام من الجاهلية، ولا فرقت الملل بعضها من

بعض، إذ كان يرضى منهم بالدعوى على قلوبهم، غير إظهار الإقرار بما جاءت به النبوة، والبراءة مما سواها، وخلع الأنداد والآلهة بالألسنة بعد القلوب، ولو كان هذا يكون مؤمنا ثم شهد رجل بلسانه أن اللّه ثاني اثنين كما يقول المجوس والزنادقة، أو ثالث ثلاثة كقول النصارى، وصلى للصليب، وعبد النيران بعد أن يكون قلبه على المعرفة باللّه لكان يلزم قائل هذه المقالة أن يجعله مؤمنا مستكملا الإيمان كإيمان الملائكة والنبيين ! فهل يلفظ بهذا أحد يعرف اللّه أو مؤمن له بكتاب أو رسول؟ وهذا عندنا كفر لن يبلغه إبليس فمن دونه من الكفار قط[٣٨٠]

يلاحظ أن الامام ابن عبيد رحمه اللّه تعالى إذ يتحدث في كتابه القيم عن الايمان فإنه حقيقة يتحدث عن الاسلام والايمان كمفهوم واحد يلاحظ ذلك من مواضع كثيرة في كتابه، وحيث أن الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث جبريل عن الايمان والاسلام بين أن الشهادتين من الاسلام، وكما بينا الاسلام مختص بالأعمال فإن طلب القيام بالنطق بالشهادتين فرض شأنه شأن الصلاة فرض، وهما من أعمال الجوارح، اللسان والبدن، وهذه غير الاعتقاد الذي هو أفكار يصدقها المرء أي يعقلها ويعتقدها، من هنا فمن الضرورة بمكان أن ندرك مرامي أقوال العلماء في ضوء نظرتهم لمسألة

---

٣٨٠) الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٧٩-٨٠

التفريق بين الاسلام والايمان إن كانوا يفرقون أم لا، ومن زاوية هل يتناولون الايمان من زاوية أحكام الدنيا أم من زاوية ما هو عند اللّه تعالى.

على أننا يجب أن نتنبه أيضا إلى ناحية مهمه وهي مواطأة القول لما في القلب، وبمجموعهما يتشكل مفهوم الشهادتين، وبمجموعهما يدخل المرء في الاسلام، وهنا قد يدخل المرء في الاسلام وهو يبطن غيره ونحن لنا الظاهر بالنسبة لأحكام الدنيا واللّه يتولى السرائر، وأما ما هو معتبر عند اللّه إيمانا فهو ما واطأ فيه تصديق القلب قول اللسان، فالقول مجرد القول هو عمل وليس هو معيار صدق الايمان، إلا أن يوافق ما في القلب من اعتقاد، وقد تبين لك مما سبق كله أن مفهوم الاسلام ومفهوم الايمان يتداخلان كما ويتمايزان، واللّه تعالى أعلى وأعلم.

أما بالنسبة لموقف أبي طالب فهو ولا شك مصدق بقلبه جزما أن محمدا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وأن دينه هو الدين الحق، والرسول عليه السلام أعلم الناس به، عايشه ولازمه ويعلم ما في قلبه بما علمه اللّه، وبعلمه بعمه الذي كان من أقرب الناس إليه، فعندما قال له عليه السلام قلها يا عم أشفع لك بها عند اللّه، كان يعلم إذن وهو الذي [وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى] أن قلب أبي طالب ممتلؤ تصديقا وقناعة وخال من الكفر، لكن ما حال بينه وبين الدخول في الايمان إلا عدم الخضوع للحق.

وسبب هذا هو جاهه بين الناس ومكانته، فقد خشي أن تقول العرب بدل أبو طالب دين آبائه وأجداده، من هنا فكان النطق علامة على الخضوع ودليلا يدل عليه، ففي مثل هذا الموضع عندما يحول عدم الخضوع أو عدم الانقياد بين المرء وبين قول لا إله إلا الله لن يفلح.

فصل: الإيمان والمؤمن:

إذن فلنتناول تعريف الإيمان القائل بأنه هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل لنضع له ضوابط شرعيه تجعل فهمه دقيقا، وتنفي عنه ما قد يراه البعض ناقصاً فيه، ولنطلق على ما نصل إليه: تعريف المؤمن، وبالله التوفيق:

باب: نواقض تحول بين المصدق جزما عن دليل وبين الدخول في الايمان

هل تعريف الايمان على أنه التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل جامع مانع؟

كمقدمة لا بد منها لا بد من بيان أمر مهم: وهو صحيح أننا نقول أن الايمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، وهو عين تعريف اليقين، وصحيح أننا نقول أن هناك من لديه هذا التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل ولكنه مع ذلك ليس بمؤمن، ومثلنا على ذلك بإبليس وببعض علماء أهل الكتاب، إلا أن ذلك يعود لوجود أحد الأمور التالية:

أولا: الشك ولو بقضية واحدة مما طلب منه الايمان به جزما أو بدليل قطعي، فلا يفيده معها أن يوجد لديه التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل بسائر ما في العقيدة من قضايا ويكفر فورا، كمن يشك في حرف واحد من القرآن.

ثانيا: اعتقاد ما جاء الدليل القطعي على عدم مطابقته للواقع أو ما طلب منه بشكل جازم أن يكفر به (كمن يعتقد بالنجوم مثلا) أو عدم اعتقاد ما أمر بشكل جازم أن يعتقده أو عدم اعتقاد ما دل الدليل القاطع عليه، فيكفر

مباشرة وسيأتي تفصيل ذلك والتدليل عليه بحول اللّه في فصل الكفر وضوابطه، فالايمان بمثل هذه القضايا لا يتبعض.

ويدخل هنا أيضا عدم الاقرار بما هو قطعي الثبوت أو الدلالة، ويدخل الجحود إذ أنه يحول بين المصدق جزما وبين الايمان ولا يمنع أن يبقى لديه اليقين.

ثالثا: القيام بفعل مكفر لا يحتمل التأويل كالسجود لصنم أو بناء كنيسة أو الصلاة في كنيسة.

رابعا: قول ما يخرج من الايمان بحيث لا يحتمل قوله التأويل، فيكفر به ولا بد من ملاحظة مهمة هنا هي أننا نضبط أحكام الكفر والايمان بالنسبة للناس في الحياة الدنيا وما يترتب عليها من أحكام شرعية عملية كأحكام المرتد والزواج والطلاق والخلافة والعزل وما شابه، ولا نبحث في هل هو مؤمن عند اللّه أو هل هو كافر عند اللّه.

ولرب سائل يسأل: ألا يدل ذلك على أن تعريف الايمان بأنه التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل غير جامع مانع؟ لأنه لم يمنع من اتصف بهذا أن يبقى في حياض الكفر، كمن مثلنا بهم سابقا ومن سيأتي تفصيله لاحقا بحول اللّه تعالى؟

والجواب أن لا، فهو تعريف جامع مانع، ولا بد من ملاحظة الأمور التالية:

أولا: الايمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل بكافة ما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم.

وليس التصديق الجازم المطابق للواقع بآحاد قضايا الاعتقاد منفصلة بعضها عن بعض، وبالتالي فمن صدق جزما بكل ما في الاسلام إلا بقضية واحدة قطعية منه لا ينطبق عليه مفهوم الايمان أي أنه لا يكون قد صدق جازما تصديقا مطابقا للواقع عن دليل.

ونذكّر بقول الامام النبهاني رحمه اللّه: ومما يجب أن يُلفت النظر إليه أن اعتناق العقيدة الإسلامية معناه الإيمان بكافة ما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم. ويجب أن يعلم أن مجرد المعرفة لا يغني، وأن التمرد على أصغر شيء ثابت يقيناً من الإسلام يخرج الشخص ويفصله من العقيدة. والإسلام كلٌ غير قابل للتجزئة من حيث الإيمان والتقبل فلا يجوز في الإسلام إلا أن يُتقبل كاملاً، والتنازل عن بعضه كفر،[381] ...

381) الشخصية الاسلامية الجزء الأول لتقي الدين النبهاني فصل الثغرات في السلوك

ثانيا: الله سبحانه وتعالى وصف من لديهم هذا التصديق بأنهم مؤمنون وطلب منهم استكمال قضايا معينة ليسميهم مؤمنين شرعا وإلا، إن لم يفعلوا انقلب إيمانهم كفرا:

روى الامام البخاري رحمه الله في كتاب الجهاد والسير: باب فضل من أسلم من أهل الكتابين: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا صالح بن حي أبو حسن قال سمعت الشعبي يقول حدثني أبو بردة أنه سمع أباه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين الرجل تكون له الأمة فيعلمها فيحسن تعليمها ويؤدبها فيحسن أدبها ثم يعتقها فيتزوجها فله أجران ومؤمن أهل الكتاب الذي كان مؤمنا ثم آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فله أجران والعبد الذي يؤدي حق الله وينصح لسيده.

قال تعالى [لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا] ١٦٢ النساء، [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ١٣٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً] ١٣٧ النساء.

هذه الآيات وغيرها مما سنفصل فيه ان شاء اللّه في فصل إيمان أهل الكتاب تبين أنهم كانوا مؤمنين حتى لحظة بعثة الرسول الخاتم صلى اللّه عليه وسلم، فإن بعّضوا إيمانهم ولم يضموا إلى ما لديهم التصديق الجازم بمحمد عليه الصلاة والسلام كفروا، لكن الواضح أنهم وصفوا بالايمان قبل ذلك، أي حتى لحظة وضع الايمان على محك التصديق بمحمد صلى اللّه عليه وسلم.

من هنا نقول أن التعريف جامع مانع ولكنني فصلت هذه الضوابط في تعريف المؤمن رغم أننا لو قلنا أن المؤمن هو المصدق جزما مطابقا للواقع عن دليل لكفى ولكن الضبط أفضل.

ثالثا: من وصف هنا بالايمان قبل وضعه على المحك إن لم يقر نزع منه هذا الوصف لكننا رأينا الحق سبحانه لم ينزع وصف اليقين أو العلم حتى بعد وجود الجحود من أهل الكتاب.

كما ننبه ثانية إلى أن ضابط مطابقة الواقع يضمن عدم دخول الكفار في مسمى الايمان لأن معتقداتهم لا تطابق الواقع، وهذا ما يضمن أن يجعل التعريف جامعا مانعا، كما أن الدليل الصحيح لا بد أن يوصل إلى الاعتقاد الصحيح وإلا فلا يمكن أن يكون دليلا على الحقيقة.

كذلك لا بد من التذكير بأن الحق سبحانه إذ يذكر أن أقواما صدقوا جزما بقضايا معينة أو لم يكذبوا الرسول عليه السلام ففي هذا نقول: صحيح أنه بين أن عند بعضهم العلم واليقين ولكنهم بصدهم لم يدخلوا في الإيمان فخسروا، وهو هنا يقيم عليهم الحجة في ادعائهم العلم بعدم وجود البعث أو في أمور تناقض الإيمان، فليس لديهم في هذه القضية / القضايا العلم.

أما في ما يخص المؤمن:

أولا: بما أن سبب كفر كثير ممن يصدقون جازمين هو الجحود، والاستكبار فلا بد من إدخال مفهوم يكون نقيض الجحود والاستكبار؛ ولعله التسليم والإقرار، وبما أن الأمر بأي فعل والنهي عن أي أمر لا بد من أن يستقبله المؤمن بالاعتراف بأنه من الله تعالى، فإن جحد ذلك كان كافراً، كمن يجحد الصلاة أو الزكاة وهما فعلان، فهذا الجانب الخاص من الفعل لا بد من التزامه، بمعنى الإقرار بما ثبت أنه من الشارع، وعدم إنكاره، وهذا الإنكار يفضي إلى الجحود، إن كان نتاج إنكار بعد معرفة، وهذا الإقرار من الإيمان لأن الذي يفعل خلافه كافر، فهم معهم التصديق الجازم عن دليل والذي أسميناه باليقين، لكن الجحود وعدم الإقرار لم يدخلهم في الإيمان، فيثبت مغايرة الإقرار للتصديق، وقتال مانعي الزكاة على أساس أنهم مرتدون يثبت ذلك. فالجحود إذن نتاج عدم الإقرار بعد اليقين، وسببه الكبر،

وهذا كله منضبط بمفهوم التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل على أساس أنه التصديق الجازم بكل ما جاء به الوحي.

ثانياً: بما أن قسماً من بني إسرائيل وغيرهم عرفوا أنه الحق وعلموا ذلك، لكنهم لم يتبعوا النبي الكريم عليه السلام، ووصف بعضهم بالإيمان حتى تلك اللحظة وطلب منهم الاتباع ليدخلوا في دين اللّه، أي أن الاتباع شرط لتحقق الإيمان. ودليله من القران الكريم [وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ] ٤٢ البقرة؛ [يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ] ٧١ آل عمران؛ [وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّه مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّه وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ] ١٠١البقرة؛ [وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّه بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ] ١٤٤ البقرة [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] ١٤٦ البقرة؛ فقد علموا ولم يتبعوا فلا يُسمى من هذا حاله بالمؤمن؛ لذا كان الاتباع شرطاً لتحقق الإيمان، فهم معهم التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل لكنهم إن لم يتبعوا فليسوا بالمؤمنين.

كذلك قال تعالى [ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ١٥٤ وَهَذَا

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٥٥ أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ١٥٦ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ١٥٧ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ] ١٥٨ الأنعام، فبنو إسرائيل عندهم من الآيات ما يبين صفة هذا النبي وصدقه، ومنهم مؤمنون بما لديهم من العلم، لكن إن صدفوا عما عندهم من العلم، وما قد صدّقوه أي كذّبوا بعد تصديق، لأنهم لا يريدون الاتباع لا لأنهم لا يصدقون، فإنهم لا يعودوا مؤمنين، فعدم الاتباع يعني أنهم لم يكسبوا في إيمانهم خيراً، فليس بإيمان بعد هذه اللحظة لانعدام الاتباع، مما يعني أن التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل إن لم يصاحبه الاتباع، فليس بإيمان، فلا بد من اشتراط الاتباع في تعريف المؤمن لتمييزه عن اليقين الذي لم يغن عن أصحابه شيئاً.

كذلك قول الحق سبحانه: [وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً] ١١٥النساء شديدة الوضوح على اشتراط الاتباع للدخول في حوزة

المؤمنين، وقد أفردت لها فصلا خاصاً. وقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّه وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّه وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّه لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً] ١٣٧ النساء، واضح أن أهل الكتاب إن لم يتبعوا كفروا بعد إيمانهم.

لكن سبق القول أن الاتباع لا يدخل في مبنى تعريف الايمان ولكنه مرحلة لاحقة له تصدق هذا الايمان أو تكذبه وبالتالي تنقضه، كما فعل الكفر مثلا لا يدخل الفعل من حيث هو فعل في مبنى تعريف الايمان ولا حتى عند السلف أي الفعل الواحد بعينه كالسجود لصنم من حيث فعل السجود لأنهم عنوا بالاعمال جنس العمل لا أعمالا بعينها عندما قالوا أن الايمان قول وعمل وبالتالي لم تدخل آحاد الاعمال في مبنى تعريف الايمان لديهم وإلا لقالوا بتكفير مرتكب الكبيرة أو تارك آحاد الأعمال وهو ما لا يكون بحال، وبالتالي فلا يدخل الفعل هذا في مبنى تعريف الايمان مع أنه قد ينقض الايمان رأسا على عقب وبالتالي فمن هذا الباب نفسه كان الاتباع مبينا لصدق وجود الايمان أو عدمه ولكنه مرحلة لاحقة له لا يدخل في مبنى تعريف الايمان والله تعالى أعلى وأعلم.

ثالثاً: العلم: أي المعرفة اليقينية، وقد رأينا أن بعض المصدقين جزماً وإن كان عن دليل قد لا يعلمون، لكن بينا أيضا أن علمهم والعلم بشكل عام درجات فالتصديق قد لا يكون نتاج معرفة، لكن بينا أن المعرفة متضمنة في التصديق الجازم عن دليل.

رابعاً: لا نطلق التعريف عاماً بقولنا الإيمان هو التصديق الجازم دونما ضابط يمنع وصف من صدق جازماً بأي شيء على أنه مؤمن، فلا بد من بيان أن الإيمان حقيقة شرعية لا يطلق لقب المؤمن إلا على من آمن بالله وبرسوله وبدين الحق، ولا بد من منع اعتبار الإيمان كحقيقة عرفية لأن لفظ المؤمن خاص بأتباع الدين الحق، فهو مصطلح نمنعه عن كل من صدق جازماً بأي قضية، ونحصره في حقيقته الشرعية.

خامساً: أن لا يخالط الإيمان شرك أكبر ولا كفر، ولا نفاق أكبر، فلا يوجد في القلب غيره، مما يناقضه، فهو لا يتبعض، فلا بد من أن يكون الإيمان مستغرقاً لكامل أركان الإيمان وبكل ما كان تركه ناقضاً له أو لما هو معلوم من الدين بالضرورة.

سادساً: أن يخلو من الشك، وأن لا يبنى على الظن، وأن يكون دليله قطعياً، وهو ما عبر عنه بالتصديق الجازم عن دليل.

سابعاً: رأينا في فصل فهم آخر لزيادة الإيمان، أن الإيمان يتراوح ما بين أدنى درجاته من غفلة وقسوة قلب، قد تهبط به كيفاً ليعادل مثقال ذرة، وأعلى درجاته المتمثلة بالاطمئنان، واليقين ثابت في كلتا الحالتين إذا لم يداخله شك.

كذلك من قوله تعالى: [فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا] ٦٥ النساء. رأينا شروطاً معينة لا بد منها لتلقينا أوامر الله ولتصديقنا بها فلا بد من أن لا يوجد لدى المؤمن أي حرج من هذا الذي يتلقاه من رب العزة سبحانه بل كذلك وأن يسلم تسليماً، وهذه الصفات متضمنة في صفة الإخبات لله تعالى.

ثامناً: من قصة أبي طالب، ومن آية النمل [وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم]، فإنهم أظهروا الجحود بألسنتهم، وهي العلامة الظاهرة التي فضح الله خلافها مما في قلوبهم، فبين أن هذا الذي يقولونه بألسنتهم ما هو بمرآة لما في القلوب، ومن حادثة عمار بن ياسر حين نطق بالكفر، وهو مكره لا شك بين الله له أنه لا غبار عليه طالما أن قلبه مطمئن بالإيمان، لكن من كان في حال غير الإكراه بين الله أنه يكفر بمجرد كلام استهزاء بالله ورسوله [يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ]، فبكلام معين يدخل في الكفر فلا بد من كلام معين ليدخل في

الإيمان ولا بد من النطق بـه، ولا يتصـور أن لا ينطـق المـؤمن بمـا يعتقـده، كانت الشهادة علامة على الإيمان، فيما يتعلق بأحكام الدنيا، ونتذكر هنـا أن الحق سبحانه فضح المنافقين فـي قـولهم نشـهد إنـك لرسـول الله، فـالقول وحده لا يغني إن لم يواطئه تصديق القلب.

فصل: هل يوصف أهل الكتاب بالمؤمنين؟

لنقسم الآيات إلى الطوائف التالية:

الباب الأول: بيان أن أهل الكتاب كفار

[ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥ أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ] ٨٦ البقرة، [مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ] ١٠٥ البقرة، [يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ٧٠ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ] ٧١ آل عمران، [لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] ١٧ المائدة، [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم

مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٦٨ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى
مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٩
لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ
تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ٧٠ وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ
وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ ٧١ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ
الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ
اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ٧٢ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ
إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ
لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ
وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٧٤ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ
وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى
يُؤْفَكُونَ] ٧٥ المائدة، [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ
الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ٢٠ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ] ٢١ الأنعام، [وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ
عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمْ
يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ٥١ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ]
٥٢العنكبوت [هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ
الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ
اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم
بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ] ٢ الحشر، [أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ] ١١ الحشر، [لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ] ١ [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ] ٦
البينة. [قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ
الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ٢٩ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن
قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ٣٠ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ
اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ
سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣١ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ

إلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٣٢ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ] ٣٣ التوبة. [فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّه وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّه عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ١٥٥ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا] ١٥٦ النساء.

الباب الثاني: إثبات علم بعض أهل الكتاب بصدق الرسول عليه السلام:

لاحظنا سابقاً أن الحق سبحانه قد ميز بين طائفتين من أهل الكتاب يجمع بينهما العلم بأن الرسول صلوات ربي وسلامه عليه حق، [وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ] ٤٢ البقرة؛ [يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ] ٧١ آل عمران؛ [وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ] ١٠١ البقرة؛ [وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ] ١٤٤ البقرة [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] ١٤٦ البقرة. [أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ] ١١٤ الأنعام.

الباب الثالث: انقسام علماء أهل الكتاب إلى مؤمن وكافر رغم وجود العلم لديهم

[أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ١٠٠ وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ] ١٠١ البقرة، [أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً ٥٤ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا] ٥٥ النساء، [وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٤٦ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ] ٤٧ العنكبوت [كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ] ١١٠ آل عمران.

الباب الرابع: الطلب من أهل الكتاب أن يؤمنوا بالرسول وإلا فهم كفار

قال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٦٢ البقرة، [وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّه مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّه وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّه لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ٦٤ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ] ٦٥ المائدة [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٦٨ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٦٩ المائدة، [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّه وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّه وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ

يَكُنِ اللّه لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ١٣٧ النساء، [كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّه وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ] ١١٠ آل عمران، [وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٣٥ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّه وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٦ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّه وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ] ١٣٧ البقرة، [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ ٤٤ وَاللّه أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّه وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّه نَصِيرًا ٤٥ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّه بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ٤٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّه مَفْعُولاً] ٤٧ النساء.

الباب الخامس: بيان أن من أهل الكتاب مؤمنين

[لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْـمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْـمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْـمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْـمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا] ١٦٢ النساء، [فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا] ٥٥ النساء. [وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥١ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ] ٥٣ القصص، [ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْـمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ١١٢ لَيْسُواْ سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ١١٣ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْـمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْـمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْـمُتَّقِينَ] ١١٥ آل عمران، [وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ] ١٩٩ آل عمران.

حدث الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب الجهاد والسير في فضل من أسلم من أهل الكتابين: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا صالح بن حي أبو حسن قال سمعت الشعبي يقول حدثني أبو بردة أنه سمع أباه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين الرجل تكون له الأمة فيعلمها فيحسن تعليمها ويؤدبها فيحسن أدبها ثم يعتقها فيتزوجها فله أجران ومؤمن أهل الكتاب الذي كان مؤمنا ثم آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فله أجران والعبد الذي يؤدي حق الله وينصح لسيده

الباب السادس: هل عندهم "بعض إيمان"؟

[وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ] ٨٨ البقرة، [مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّه بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ٤٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّه مَفْعُولاً] ٤٧ النساء.

باب: تحليل الآيات:

هذه الآيات هي معظم ما جاء في إيمان أهل الكتاب ولا بد من إبراز مدى أهمية الجمع بين الآيات لنخرج بالحكم السليم بدل الاقتصار على آية واحدة دون غيرها، فمثلا نأتي بآية [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٦٢ البقرة فنقول بأن الحق سبحانه قد عطف المؤمنين على أهل الكتاب، فلهم نفس حكمهم وبالتالي فمن بقي منهم على دينه إن آمن بالخطوط العريضة للعقيدة كالايمان بالله واليوم الآخر ينجو، لا لايصح قول ذلك، ومن الضرورة بمكان الإتيان بسائر الآيات للخلوص بالحكم بعد البحث والتقصي.

من المعلوم أن من كان من أهل الكتاب على دينه المحرف فهو كافر قطعاً، كمن يقول بالتثليث، سواء قبل مجيء الرسول الخاتم، أو بعده، من هنا نفهم الآيات التي أكفرتهم.

ومن المعلوم أن منهم علماء يعلمون يقيناً خبر النبي الكريم وصفته، وعرفوه لدى مجيئه، فلا لبس في فهم الآيات التي تقسمهم إلى فريقين، وسبق إثبات أن هذا اليقين والعلم غير كاف للنجاة، ولا يطلق عليهم به لقب المؤمنين، وبالتالي لا يكفي للنجاة من النار.

كذلك واضح معنى الطلب منهم أن يؤمنوا بالنبي الأكرم عليه السلام، لأنه [وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] ٨٥ آل عمران، وما حول هذه الآية يثبت أن الإسلام هنا هو دين كل الأنبياء، وأنهم كلهم وسائر البشر مأمورون باتباع النبي الرحمة عليه سلام اللّه، إن أدركوه، فبوجود دين محمد صلى اللّه عليه وسلم، لا إسلام غيره، لذلك لا ينفعهم البقاء على دينهم، كما أن مسمى الإسلام يزول عن ذلك الدين لحظتها، ويصبح كفراً.

[وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)] آل عمران

ومن المعلوم أن من كان من أهل الكتاب على دينه الحق فهو من المؤمنين، حتى لحظة سماعه بالرسول الخاتم عليه السلام، عندها ينقسم العلماء من أهل الكتاب إلى فريقين: الأول يعلم ويتبع فيكون مؤمناً ثم يؤمن، من هنا نفهم معنى الآية الكريمة: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا] ١٣٦ النساء، فهم حتى هذه اللحظة مؤمنون، ولكن من لم يؤمن بالرسول الكريم، لن يبقى كذلك، فهو إن لم يفعل يكفر بنص الآية.

لا لبس هنا، لكن ثمة إشكالان هنا: الأول بسيط في وصف: [وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً] والثاني في بيان أن منهم مؤمنون [لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ١١٣ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ] ١١٥ آل عمران.

أما بالنسبة لوصف [إلا قليلا] وقد ورد ثلاث مرات في القرآن وصفاً لإيمانهم، قال الزمخشري في الكشاف: (فإيماناً قليلا يؤمنون، وما: مزيدة،

وهو إيمانهم ببعض الكتاب، ويجوز أن تكون القلة من العدم)[٣٨٢] وقال في آية ٤٦ النساء: (إيماناً قليلا: أي ضعيفاً ركيكاً لا يعبأ به وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره، أو أراد بالقلة العدم كقول تأبط شراً:

قليلُ التَّشَكِّي للمُهِمِّ يُصيبُهُ   كثير الهوى شتى النوى والمسالك

أي عديم التشكي، أو إلا قليلا منهم قد آمنوا)[٣٨٣] قال الرازي: ([فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً] وفيه قولان أحدهما: أن القليل صفة للقوم، والمعنى: فلا يؤمن منهم إلا أقوام قليلون، ثم منهم من قال: كان ذلك القليل عبد الله بن سلام وأصحابه، وقيل: هم الذين علم الله منهم أنهم يؤمنون بعد ذلك. والقول الثاني: أن القليل صفة للإيمان، والتقدير: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلا، فإنهم كانوا يؤمنون بالله والتوراة وموسى ولكنهم كانوا يكفرون بسائر الأنبياء، ورجح أبو علي الفاسي هذا القول على الأول، قال: لأن [قليلا] لفظ مفرد، ولو أريد به ناس لجمع نحو قوله [إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ] ٥٤ الشعراء، ويمكن أن يجاب عنه بأنه قد جاء فعيل مفرداً، والمراد به الجمع قال تعالى [وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا] ٦٩ النساء وقال: [وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا] ١٠

٣٨٢) الكشاف ١/ ١٩٠.
٣٨٣) الكشاف ١/ ٥٥٠.

يُبَصِّرُونَهُمْ] المعارج، فدل عود الذكر مجموعاً إلى القبيلين على أنه أريد بهما الكثرة.)[٣٨٤]

ويرى الألوسي في تفسير ([بَل لَّعَنَهُمُ اللّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ] الفاء لسببية اللعن لعدم الإيمان، وقليلا: نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي إيماناً قليلا، وهو إيمانهم ببعض الكتاب، و [ما] مزيدة لتأكيد معنى القلة لا نافية لأن ما في حيزها لا يتقدمها ... أو فيؤمنون حال كونهم جمعاً قليلاً، أي المؤمن منهم قليل، وهو المروي عن ابن عباس ولذا جوز كونه نعتاً للزمان، أي زماناً قليلا، وهو زمان الاستفتاح أو زمان بلوغ الروح التراقي، والظاهر أن المراد بالايمان المعنى اللغوي، والقلة مقابل الكثرة، وقال الزمخشري: يجوز أن تكون بمعنى العدم، واعترضه في البحر بأن القلة بمعنى النفي، وإن صحت لكن في غير هذا التركيب لأن قليلا انتصب بالفعل المثبت فصار نظير قمت قليلا، أي قياماً قليلا، ...)[٣٨٥]

على كل يتشابه الكلام في هذه الآية، لذا أقول القول الفصل إن شاء اللّه، وقد بات واضحاً من هذا البحث أن لا اعتبار لأبعاضٍ في الإيمان ولا وصف لمن كان عنده بعض إيمان وبعض كفر بأنه مؤمن وآية البقرة تثبت ذلك:

---

٣٨٤) التفسير الكبير. الرازي ١٠/ ٩٤ – ٩٥.

٣٨٥) الألوسي تفسير روح المعاني، ١/ ٣١٩

[أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ] ٨٦ فهم كفار لا شك، يستنكر الحق سبحانه عليهم ادعاءهم بأنهم يؤمنون ببعض الكتاب، لأنه لا اعتبار للإيمان المجزوء، فجاءت الصيغة [أفتؤمنون] على سبيل الاستهزاء بهم، لذا كان التفسير محصوراً في أن المقصود فئة منهم تؤمن بالرسول الكريم وتتبعه، وهي نادرة فيهم كما هو واضح لذلك كان الوصف: قليلا، ونلاحظ لإثبات ذلك أن الآية اللاحقة لهذه الآية تأمرهم بالإيمان وتتوعد من لم يؤمن منهم [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً] ٤٧ النساء. [وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ] ٨٨ البقرة.

لاحظ هذه الآية التي أستغرب أن تفسر القلة فيها على أنها صفة للإيمان، فهي تلعنهم بكفرهم أفيعقل أن تصاحب هذه اللعنة والوصف بالكفر بيان أن عندهم القليل من الإيمان؟ أم أن المعقول أن من هو على هذه الشاكلة لا يتصور أن يؤمن إلا نادراً؟

لاحظ معي التالي: يقول الحق سبحانه [إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ] ٤٢ الحاقة، الخطاب لكفار مكة وهم الذين من المفترض أنهم يعلمون الشعر من غيره والكهانة من غيرها، وعلى الرغم من معرفتهم تلك فإنهم لا يتفكرون قليلا ليتبينوا الفرق بين هذا الذي جاء به سيد الخلق وبين ما اتهموه به، فمفهوم الآية لو أنهم تفكروا لتبينوا، لكنْ قليل منهم من يتفكر فيؤمن، وقليل منهم من يتذكر، ولا يفهم منها أنهم يؤمنون قليلا بهذا الدين الجديد، ويكفرون كثيراً، بل قد يفهم منها قليلا ما يرجى ممن هو على هذه الشاكلة أن يتذكر أو يؤمن، فمفهوم قليلا ما تؤمنون في خطاب بني إسرائيل نظير قليلا ما تؤمنون في خطاب كفار مكة، عندهم العلم ولا ينقصهم الدليل على صدق النبي لكن قليلا ما يؤمنون،

أي قليلا ما يتجاوزون جحودهم ويتناسون أحقادهم فيؤمنوا.

[وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ٣٦ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا] ٣٧ الكهف، في هذه الآيات عند هذا الكافر الذي يعترف بوجود الله وأنه ربه بعض الكفر، وبعض (الإيمان) ولكنه كافر لأنه لا يؤمن بالساعة، لا يقال بأنه نصف كافر.

[هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ] ٢ الحشر، هـؤلاء هم أهل الكتاب وهم يهود (ربهم الله) وإن كانت نظرتهم لله جل جلاله تختلف كلية عن عقيدتنا في الله تعالى، ونبيهم موسى عليه السلام، لكنهم كفار ليس معهم شيء من الإيمان. [لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ] ١ [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ] ٦ البينة، فهم لا شك كفار، والإيمان لا شك لا يتبعض كمفهوم يتناول أركان الإيمان وأصول العقيدة، فما كان من الإيمان لا يتبعض وما كان من مكملاته فليس به يوصف المرء على أنه مؤمن.

ويدحض هذا الفهم لديهم أيضاً أن الكفار أنفسهم [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ] ٦١ العنكبوت، فهل نصفهم بأن عندهم بعض إيمان؟ وبعض الإيمان يعني النجاة يوم القيامة، فكيف نوفق بينه وبين الخلد في النار؟ أليس في هذا هدم للدين؟

والدليل الأهم الذي أنصبه هنا لينسف ما خالفه هو أن الإيمان بالله على غير ما أمر به لا يعتبر إيماناً، فكفار مكة يعترفون بالله رباً خالقاً، إلى ما شئت من صفات العظمة، لكنهم "يؤمنون" به من خلال وسائط نسفت هذا

"الإيمان" وأحالته هباء منثوراً لا اعتبار له لا بكله ولا بجزئه، وكذلك أهل الكتاب الذين "يؤمنون" بالله بتصوراتهم المغلوطة لا يقال أن هذا إيمان، وبالتالي ليس ب"قليل" إيمان، ولا ببعض إيمان بل هو كفر صراح، ولو "آمن" مسلم ما بالله بكل ما وصف نفسه وبكل ما جاء به نبيه عليه سلام الله إلا بصفة واحدة أو بمغالطة ما لصفة قطعية يعلمها، فإنه كافر كلية ليس عنده لا قليل ولا كثير من الإيمان، وإلا لما استباح الصحابة مثلا دم المرتدين الذين يتصور لدى بعضهم "بعض إيمان" لاحظ أهمية ضابط عدم تبعض الإيمان لضبط المفاهيم، والله أعلم.

المحور الثاني وهو المهم والدقيق: هل إذا بقي الكتابي على دينه –غير المحرف - دون اتباع النبي الخاتم صلى اللّه عليه وآله وسلم، ويعمل الصالحات ينجو؟

لنبدأ بالآيات الكريمة التالية: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٦٢ البقرة [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٦٨ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٦٩ المائدة، [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللّه يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] ١٧ الحج.

وملخص ما قاله فيها العلامة الشعراوي رحمه اللّه: (أن الذين آمنوا بأي دين نزل من السماء من لدن آدم عليه السلام، أي قبل مجيء الديانات التي طبعت هذا الدين بلون معين كاليهودية، وعطف عليهم أشهر الديانات: اليهودية والنصرانية والصابئة، كلهم، يعمل الحق لعقائدهم "تصفية" لدى مجيء الرسول الخاتم عليه السلام، فعليهم أن يتبعوه فيؤمنوا باللّه واليوم الآخر ويعملوا الصالحات، ومعنى من آمن: أي من اتبع النبي محمد عليه

سلام الله، ومن مفهوم المخالفة، من لم يؤمن فعليه خوف وسيحزن، وبذلك فلا يظنن أحد من أهل العقائد السابقة أن عقيدته كافية لنجاته، فلا بد من اتباع الدين الحق ليتحقق له لقب المؤمن الذي ينجو به.

وآية الحج أضافت للآيتين السابقتين المجوس والذين أشركوا، وهم داخلون ضمناً في آيتي البقرة والمائدة، وذلك لأنه إن كان على من كان على دين سماوي أن يؤمن، فمن باب أولى أن من كان ضالا ليس على أي دين له أصل أن يدخل في التصفية العقائدية هذه. وقد حسمت آية [وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] ٨٥ آل عمران، الأمر فلا قبول لمن لم يتبع الإسلام.

وبذلك فقد دخل المجوس والذين أشركوا في وعيد من لم يؤمن مع اليهود والنصارى والصابئة في آية الحج [إِنَّ اللَّه يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] فمن يؤمن ينجو ولا خوف عليه ولا يحزنون.

بقي موضوع التقديم والتأخير والإعراب، ففي البقرة وقع الذين آمنوا موقع نصب اسم إن، وعطف عليه الذين هادوا والنصارى (وقدمهم على الصابئين لعددهم وتأثيرهم) والصابئين، وجعل خبر إن من آمن بالله واليوم الآخر.

أما في المائدة فقد عطف على اسم إن المنصوب الذين هادوا، وكسر الإعراب كسراً ظاهرياً (أي أن الظاهر لا يقتضي هذا الإعراب، فلا بد من البحث عن المعنى الخفي الذي من أجله وضعت هذه العلامة اللافتة للانتباه في إعراب الصابئين) وجعلها بين الذين هادوا المنصوبة والنصارى المنصوبة، لفتاً لنظر العرب إلى أن هذه التصفية العقدية شاملة حتى هؤلاء الصابئين سواء أكانوا قد صبأوا عن اليهودية أو النصرانية أو دين نوح أو أي دين نزل على نبي أو رسول سابق، فمن هنا يلتفت النظر إلى أن أي أهل دين عليهم اتباع النبي الخاتم للنجاة).[٣٨٦] [ولا أوافق على هذا التبرير النحوي- البلاغي لأن الصابئة المعنيون في هذه الآية ليسوا إلا المؤمنين منهم كما سيثبت، بحول الله]

قال الزمخشري: (إن الذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة القلوب وهم المنافقون، والذين هادوا ... والصابئين: وهو من صبأ إذا خرج من الدين، وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة، [من آمن] من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ودخل في ملة الإسلام دخولا أصيلاً ... الخ،)[٣٨٧]

---

٣٨٦) تفسير الشيخ محمد متولي الشعراوي لآية البقرة٦٢، أقراص مدمجة.
٣٨٧) الكشاف ١/ ١٧٥.

جاء في اللباب: (قال ابن عباس: والمراد ب [الذين آمنوا] هم الذين آمنوا قبل (مبعث) محمد بعيسى عليهما السلام، مع البراءة عن أباطيل اليهود مثل قس بن ساعدة ... فكأنه قال: إن الذين آمنوا قبل مبعث محمد، والذين كانوا على الأديان الباطلة كل من آمن منهم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم بالله واليوم الآخر ومحمد فلهم أجرهم، وقال سفيان الثوري: المراد من قوله [الذين آمنوا] هم المنافقون لأنهم يؤمنون باللسان دون القلب، ثم اليهود والنصارى والصابئون، فكأنه قال: هؤلاء المبطلون كل من آمن منهم بالإيمان الحقيقي، فلهم أجرهم... قوله [من آمن بالله واليوم الآخر] آمن: صدق، ومن في قوله [من آمن] في موضع نصب بدل من الذين آمنوا والفاء في قوله [فلهم] داخلة بسبب الإبهام الذي في [مَن]. وقيل: في موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط، و [آمن] في موضع جزم بالشرط، والفاء جواب، و [لهم أجرهم] خبر [من] والجملة كلها خبر إن والعائد على [الذين] محذوف تقديره: من آمن منهم بالله.

... ومعنى قوله تعالى [إن الذين آمنوا] أي باللسان، وقوله تعالى [من آمن] بالقلب، أي ثبت على الإيمان بالله واليوم الآخر، ولهذا التكرير فائدتان: الأولى: أن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون فأخرجهم بهذا التكرير عن (وعد) عدم الخوف، وعدم الحزن.

والثاني: أنه تعالى ذكر لفظ الإيمان، والإيمان يدخل تحته أقسام: فأشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر، فكرر تنبيهاً على أن هذين القسمين أشرف أقسام الإيمان، [وهو هنا ينقل عن الرازي ٤/ ٤٠٤] واعلم أنه لما بين أن أهل الكتاب ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا بيّن أن هذا الحكم عام في الكل، وأنه لا يحصل لأحد فضيلة إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً)[٣٨٨]

قال الفخر الرازي (واختلف المفسرون في المراد من الإيمان في قوله [إن الذين آمنوا] وسبب الاختلاف قوله تعالى في آخر الآية [من آمن بالله] فإن ذلك يقتضي أن يكون المراد من الإيمان في قوله تعالى [إن الذين آمنوا] غير المراد منه في قوله تعالى [من آمن] ونظيره في الإشكال [يا أيها الذين ءامنوا ءامنوا] النساء ١٣٦،فلأجل ذلك ذكروا وجوهاً [وهي ما ذكرناه سابقاً] ... ثم إنه سبحانه بين في هذه الفرق الأربعة أنهم إذا آمنوا بالله فلهم الثواب في الآخرة ليعرف أن جميع أرباب الضلال إذا رجعوا عن ضلالهم وآمنوا بالدين الحق فإن الله سبحانه وتعالى يقبل إيمانهم وطاعتهم ولا يردهم عن حضرته البتة، واعلم أنه قد دخل في الإيمان بالله الإيمان بما

---

٣٨٨) اللباب في علوم الكتاب.لأبي حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي ٢/ ١٣٣-١٣٧؛ ٧/ ٤٥٠.

أوجبه، أعني الإيمان برسله ودخل في الإيمان باليوم الآخر جميع أحكام الآخرة، فهذان القولان قد جمعا كل ما يتصل بالأديان في حال التكليف وفي حال الآخرة من ثواب وعقاب، ويتوقف الإمام الرازي كما توقف أبو حفص الدمشقي عن بيان التقديم والتأخير في الصابئين والنصارى.)[389]

(ويختار الألوسي رحمه الله قول سفيان الثوري في الذين آمنوا على أنه (أقل الأقوال مؤنة) وفي سياق شرحه أختار من قوله (وفائدة التعميم للمخلصين [أي لو عنينا بالذين آمنوا المخلصين من المؤمنين] مزيد ترغيب الباقين في الإيمان ببيان أن تأخرهم في الاتصاف به غير مخل بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين، ومنهم من فسرها بمن كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فيعم الحكم المخلصين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم والمنافقين الذين تابوا واليهود والنصارى الذين ماتوا قبل التحريف والنسخ والصابئين الذين ماتوا زمن استقامة أمرهم [إن فرضنا أن الحنفاء من أتباع الحنفية كزيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة وغيرهم المعنيون بالصابئين لخروجهم على دين قومهم –الشرك] وكذا يعم اليهود والصابئين الذين آمنوا بعيسى عليه السلام وماتوا في زمنه وكذا من آمن من هذه الفرق بمحمد عليه السلام،

---

٣٨٩) التفسير الكبير. الرازي ١ / ٥٣٥ –٥٣٧

وفائدة ذكر [الذين آمنوا] على هذا مع أن الوعيد السابق كان في اليهود لتسكين حمية اليهود بتسوية المؤمنين بهم في أن كون كل في دينه (قبل النسخ) يوجب الأجر (وبعده) يوجب الحرمان، كما أن ذكر الصابئين للتنبيه على أنهم مع كونهم أبين المذكورين ضلالا يتاب عليهم إذا صح منهم الإيمان والعمل فغيرهم بالطريق الأولى، وانفهام قبل النسخ من [وعمل صالحاً] إذ لا صلاح في العمل بعده، وهذا هو الموافق لسبب النزول لا سيما على رواية أن سلمان رضي الله تعالى عنه ذكر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم حسن حال الرهبان الذين صحبهم فقال:ماتوا وهم في النار فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال عليه الصلاة والسلام "من مات على دين عيسى عليه السلام قبل أن يسمع بي فهو على خير، ومن سمع ولم يؤمن بي فقد هلك")[٣٩٠]

وسألخص ما رآه العلامة وتلميذه ابن القيم في هذه الآيات فهو من أجود ما قيل:

(- والايمان بالرسل يجب أن يكون جامعاً عاماً مؤتلفاً لا تفريق فيه ولا تبعيض ولا اختلاف بأن يؤمن بجميع الرسل وبجميع ما أنزل اليهم فمن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض أو آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعض فهو

---

٣٩٠) تفسير روح المعاني. الألوسي ١/٢٧٧- ٢٧٨

كافر، لذا فمنهم من فرق فآمن ببعض وكفر ببعض كما قال تعالى عن اليهود [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّه قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّه مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ] ٩١ البقرة الآيات وقال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّه وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّه وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ١٥٠ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً] ١٥١ النساء الآية [لذا لا مناص لمن سمع بالنبي الأمي عليه السلام من أن يؤمن به وإلا فإنه لم يؤمن ب[رسله] وفرق بينهم فهو كافر وهذا مهم جداً].

- إن اللّه تعالى أرسل رسله وأنزل عليهم كتبه وأمرهم أن يبلغوا إلى الناس ما أنزل اللّه عليهم من وحيه وكلامه فمن الناس من آمن باللّه ورسله وصدقهم فيما جاءوا به من عند اللّه وأطاعهم فيما أمروا به وهؤلاء هم المؤمنون فى كل وقت وزمان وهم أهل الجنة والسعادة [فالذين هادوا والنصارى مثلا قبل التحريف والنسخ كانوا من الذين آمنوا وبالتالي فإن ذكرهم يناظر ذكر [الذين آمنوا] موضع الإشكال هنا، فتعم الذين آمنوا كل من آمن قبلهم بنبيه، وذكرهم الحق سبحانه لاشتهار أسماء دينهم].

- سبب نزول الآية: وكذلك لما ذكر الملل الاربعة الذين فيهم من هو محمودٌ سعيدٌ قال تعالى [مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٦٢ البقرة وروى الناس كابن أبي حاتم وغيره بالاسانيد الثابتة عن سفيان عن ابن ابي نجيح عن مجاهد ...وكذلك ذكر السدي عن أشياخه في تفسيره المعروف قال نزلت هذه الاية في أصحاب سلمان الفارسي بينا هو يحدث النبي صلى اللّه عليه وسلم إذ ذكر أصحابه فأخبره فقال كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستبعث نبياً فأنزل اللّه هذه الاية، فقال كان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وبسنة موسى حتى جاء عيسى فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكاً وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولا منه حتى جاء محمد صلى اللّه عليه وسلم فمن لم يتبع محمداً صلى اللّه عليه وسلم منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والانجيل كان هالكاً قال ابن ابي حاتم وروي عن سعيد بن جبير نحو هذا.

- والذين آمنوا أولا المراد بهم أمة محمد وأما ما يذكره طائفة من المفسرين في قوله إن الذين آمنوا أن فيهم أقوالا أحدها أنهم هم الذين آمنوا بعيسى قبل ان يبعث محمد قاله ابن عباس والثاني أنهم الذين آمنوا بموسى وعملوا بشريعته الى ان جاء عيسى فآمنوا به وعملوا بشريعته لما أن جاء محمد وقالوا هذا قول السدى عن أشياخه والثالث أنهم طلاب الدين كحبيب النجار وقس بن ساعدة وسلمان الفارسي وأبي ذر وبحيرا الراهب

آمنوا بالنبي قبل مبعثه فمنهم من أدركه وتابعه ومنهم من لم يدركه والخامس أنهم المنافقون والسادس أنهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين والكتب المتقدمة فلا يؤمنوا بك ولا بكتابك فهذه الاقوال ذكرها الثعلبي وأمثاله ولم يسموا قائلها وذكرها ابو الفرج ابن لجوزي الا السادس وسمى قائل الاولين وذكر أنهم المنافقون عن الثورى وهذه الاقوال كلها مبتدعة لم يقل الصحابة والتابعون لهم بإحسان شيئاً منها وما نقل عن السدي غلط عليه وقد ذكرنا لفظه الموجود في تفسيره المنقول بالاسناد الثابت في تفاسير الذين يذكرون الاسانيد كتفسير عبد الرحمن بن أبي حاتم وتفسير أبي بكر بن المنذر وتفسير محمد بن جرير الطبري وأمثال هذه التفاسير وما نقل عن ابن عباس لا يثبت وهي أقوال باطلة فإن من كان متمسكا بشريعة عيسى قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم من غير تبديل فهم النصارى الذين اثنى الله عليهم وكذلك من تمسك بشريعة موسى قبل النسخ و التبديل فهم اليهود الذين أثنى الله عليهم و طلاب الدين كحبيب النجار كان على دين المسيح و كذلك بحيرا الراهب وغيره وكل من تقدم من الانبياء و أمتهم يؤمنون بمحمد فليس هذا من خصائص هذا النفر القليل.

- والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يخبر بما لا علم عنده وقد ثبت أنه أثنى على من مات في الفترة كزيد بن عمرو وغيره [وهذا فيه رد على من يدعي أنه عليه السلام أخبر سلمان أول الأمر أنهم في النار]

- وأما قوله [مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّه آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ١١٣ يُؤْمِنُونَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ] ١١٤ آل عمران فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى ونظيره قوله تعالى [وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ] ١٥٩الأعراف هذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة ليس في ذلك مدح لمن كذب المسيح ولا فيها مدح لمن كذب محمداً صلى اللّه عليه وسلم وهذا الكلام تفسير سياق الكلام فإنه قال تعالى [كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّه] ثم قال تعالى [وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ] ١١٠ آل عمران فقد جعلهم نوعين نوعاً مؤمنين ونوعاً فاسقين وهم أكثرهم لقوله تعالى [مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ] يتناول من كان مؤمناً قبل مبعث محمد صلى اللّه عليه وسلم.

- تناولت هذه الآية من كان من أهل الملل الأربع متمسكاً بها قبل النسخ بغير تبديل كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفاً به أكثرهم قبل محمد صلى اللّه عليه وسلم من الكفر قال [لَيْسُواْ سَوَاء] الآيات ١١٣- ١١٤ آل عمران وهذا يتناول من كان متصفاً منهم بهذا قبل النسخ فإنهم كانوا على الدين الحق الذي لم يبدل ولم ينسخ كما

قال في الأعراف [وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ] ١٥٩ ...[وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ١٦٩ وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ] ١٧٠ الأعراف وقد قال تعالى مطلقاً [وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ] ١٨١ الأعراف، فهذا خبر من الله عمن كان متصفاً بهذا الوصف قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ومن أدرك من هؤلاء محمداً صلى الله عليه وسلم فآمن به كان له أجره مرتين.

- وقال في سورة الحج [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] ١٧ الحج فلم يقل ها هنا من آمن منهم بالله واليوم الآخر لأنه ذكر معهم المجوس والذين أشركوا فذكر ست أمم منهم اثنتان شقيتان وأربع منهم منقسمة إلى شقي وسعيد وحيث وعد أهل الإيمان والعمل الصالح منهم بالأجر ذكرهم أربع أمم ليس إلا، ففي آية الفصل بين الأمم أدخل معهم الأمتين وفي آية الوعد بالجزاء لم يدخلها

معهم فعلم أن الصابئين فيهم المؤمن والكافر والشقي والسعيد وهذه أمة قديمة قبل اليهود والنصارى وهم أنواع صابئة حنفاء وصابئة مشركون.

- وكذلك كل من كان قبلنا من أهل السعادة فهو مؤمن قال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] ٦٢ البقرة وفي الآية الأخرى [والصابئون والنصارى] سورة المائدة ٦٩ فإن النصارى أفضل من الصابئين فلما قدموا عليهم نصب لفظ [الصابئون] ولكن الصابئين أقدم في الزمان فقدموا ها هنا لتقدم زمنهم ورفع اللفظ ليكون ذلك عطفاً على المحل فإن المعطوف على المحل مرتبته التأخير ليشعر أنهم مؤخرون في المرتبة وإن قدموا في الزمن واللفظ[٣٩١].

[وهذا التعليل أجود مما قال به شيخنا الشعراوي يرحمه الله]

نرى ترجيح الشيخ لكون المقصود من [إن الذين آمنوا] من آمن قبل بعث محمد بن عبد الله عليه سلام الله، بدليل أن الحق سبحانه قسمهم إلى سلف: منهم المؤمن والكافر، وخلف: يغلب الكفر عليهم، [وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي

---

٣٩١) الصفدية ٢ / ٣٠٤، دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية ٣ /٧٠-٧١. الجواب الصحيح ٢/ ٢١١- ٢١٣، أحكام أهل الذمة ١/ ٢٣٦، الرد على المنطقيين ١ / ٤٤٨، مجموع الفتاوى ١٢ /٣٣٤، ١٢ /١١-١٣

الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ]. الآية الأعراف وجاء بأدلة تصف بالإيمان من اتبع نبيه من أهل الكتاب قبل النسخ، ليطابق بين وصفهم في تلك الآيات بأنهم مؤمنون، ووصفهم هنا في هذه الآية بهذه الصفات ليكون هذا هو عين ذلك، وبين بوضوح أنه من المستحيل أن تطلق هذه الآيات على من عاصر النبي محمد عليه سلام اللّه منهم ولم يؤمن به، وهذا من مقتضيات عدم تبعض الإيمان بالرسل، هذا ما استنبطته من مجموع آرائه التي وقعت عليها وهكذا فهمتها واللّه أعلم.

باب: ما أراه في الموضوع: [إن الذين ءامنوا والذين هادوا]:

أرجو التنبه إلى الإعجاز الرهيب في صياغة الآية الكريمة، وإلى ذكر [الذين ءامنوا] في طرفها وذكر الصابئين في معرضها لتضبط فهمها بالشكل الذي أرجو أن يوفقنا الله تعالى إليه.

أولاً: لننقض الرأي القائل بأنهم المنافقون: إذ لا يمكن أن يصفهم الله بالإيمان في هذا المعرض، إذ أنه لو قال إن الذين نافقوا من آمن منهم، لأدت الغرض دون أن تلبس عليهم الأمر بأن يكون على شاكلة المديح، فيمدح نفاقهم بأن يصفهم بالمؤمنين، وحسبهم هذا الوصف من الله تعالى ليغرهم، ودون أن تخلط علينا مفاهيم الإيمان.

وقد يجاب عن ذلك بأن عطف الذين آمنوا على اليهود يعطي اللبس نفسه وهو مدحة لهم، ويجاب على هذا أولاً بأنها ما مدحت من الذين هادوا إلا الذين كانوا على دينهم الحق، لا على إطلاق الذين هادوا، وبالتالي هم المؤمنون حتى هذه اللحظة، عليهم أن يؤمنوا بما استجد على الدين الإسلامي من بعث النبي الكريم عليه سلام الله، وبالتالي فليسوا سواء معهم، أي المنافقين مع الذين هادوا والنصارى وكذلك الصابئين كما سيأتي، وثانياً بأن هذا الكتاب ما كان إلا لينقض مثل هذا الرأي – أعني

إطلاق لقب المؤمن على المنافقين أو على أهل الكتاب الذين لا يتبعون النبي الأمي، وبعد بيان رأينا في الآية سيتبين إن شاء الله استحالة ذلك.

أول ما نبرزه النقاط التالية: أولا: ذكر الأصناف الأربعة في آيتي البقرة والمائدة، مع وجود الوعد بالسعادة، بينما عندما ذكر معها المشركون والمجوس في آية الحج تحدثت الآية عن الفصل بينهم يوم القيامة، وذلك لأن في هذه الأقسام الأربعة: المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ناجون وهالكون، وبالتالي تحدد الآيتان من البقرة والمائدة أن المقصود منهم هم الذين يمكن عطفهم على الذين آمنوا، لذلك كان الناجون منهم هم المؤمنين بالله واليوم الآخر، والذين يعملون الصالحات.

ثانياً: وجود الصابئة هنا يعزز ذلك، لأن عطف الصابئة على المؤمنين واليهود والنصارى يضبط أن المقبول من هذه الطوائف الثلاث هم المؤمنون فقط لا على إطلاق المتسمين بهذه الديانات مع الضلال والانحراف، ووجودهم –أي الصابئة- ضروري لمنع فهم أن كل الذين هادوا والنصارى مشمولون بالقسم الأول من الآية المتضمن عطفهم على الذين آمنوا، وبيان ذلك أن الصابئ المعاصر لنزول الآيات إما من عبدة النجوم والكواكب أو من المصدقين بما جاء به الأنبياء من غير اتباع لهم، أو من كان على الحنفية على أقوال كثيرة لا دليل على أن المقصود بها هذا أو ذاك، المهم أن المقبول هنا هو الفهم الذي يندرج تحته من كان من الصابئة على

دين حق، عليه اتباع الرسول الخاتم، وإلا فلماذا يذكر الصابئة في هاتين الآيتين مقرونين ب"من آمن" معطوفين على الذين آمنوا واليهود والنصارى، ولا يدخل المجوس والذين أشركوا؟ هذه واحدة، والثانية: هب الصابئ من عبدة النجوم مثلا أو الملائكة فإننا لا نسميه أبداً مؤمناً بالله، حاله حال المشركين في مكة يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله تعالى زلفى، من هنا فإننا لو أمكن أن نفهم عطفهم على الذين هادوا والنصارى في الآية إن شملت نظراءهم من المشركين من أهل الكتاب، فلا يمكن أن نفهم عطفهم على الذين آمنوا، وبالتالي يثبت أن المعنيّين في هذه الآيات –في قسمها الأول المتضمن العطف على الذين آمنوا- هم فقط الذين على دين حق، قبل النسخ والتحريف لا غير، من هنا فينقسم الصابئة إلى شقي وسعيد وكذلك اليهود والنصارى، بينما المجوس والذين أشركوا كلهم تعساء، لذا ضبطنا الصابئ الداخل في هذه الدعوة الربانية بأنه من كان على دين من عند الله غير محرف، ولعل أقربهم لهذا الوصف هم الأحناف، على أساس أن من صبأ هو من بدل دين قومه، وهم لم يعبدوا الأصنام، وبذلك أيضاً ينضبط وصف الذين هادوا والنصارى الداخلين في هذه الدعوة بالذين كانوا على الدين الحق غير المنسوخ ولا المحرف.

ثالثاً: لو فرضنا أن كل من هادوا وكل النصارى والصابئين داخلون في الآية، فمن قول الحق سبحانه بعد ذلك: من ءامن بالله واليوم الآخر نستنبط

دليلا آخر، وهو أنهم لا يتحقق لهم هذا الشرط إلا بالتصور الصحيح للإيمان الذي به يصبح أحدهم مؤمناً بالله واليوم الآخر، من هنا فإن الذين هادوا والنصارى أيضاً لا ينطبق عليهم لقب [من ءامن] وهم على عقائدهم يتبين ذلك من عطفهم على الصابئين، فلو فرضنا الصابئ من كان من عبدة الملائكة مثلا، فإنه حتى يمكن أن يصبح ممن يؤمن بالله واليوم الآخر، فإنه ولا شك سيترك معتقداته السابقة وإلا فلا يتصور أن يكون مؤمناً بالله ويعبد الملائكة، من هنا فلا يغدو صابئاً حين يؤمن بالله واليوم الآخر، بل مسلماً مؤمناً، وكذلك من كان على دينه من اليهود والنصارى لا بد لهم من ترك تصوراتهم عن الله واليوم الآخر ليستبدلوها بما عند المسلمين، فلا بد لهم إذن من أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر حسب التصور الإسلامي حتى ينجو.

والمنطلق الثاني: بتحديد الداخلين في العطف في الشق الأول من الآية بمن كان منهم على الدين الحق، كذلك من مقتضيات دينهم أن يؤمنوا بالرسل كافة، فلا بد لهم من أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام وإلا كفروا، قال تعالى [وَإِذْ أَخَذَ اللّه مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ٨١ فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٨٢ أَفَغَيْرَ دِينِ اللّه يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ٨٣ قُلْ آمَنَّا بِاللّه وَمَا

أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٨٤ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٨٥ كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٨٦ أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ٨٧ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ٨٨ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٨٩ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ] ٩٠ آل عمران، فإذا كان على أنبيائهم أن يؤمنوا بالنبي الخاتم فكيف بهم، خاصة مع علمنا بعلم الله المسبق بأن أنبياءهم لن يعاصروا النبي الخاتم، فالدعوة إذن لأتباعهم أيضاً فهي جزء من شرائعهم، وهذه الآيات وحدها تهدم أي نظرية تقول بنجاتهم دون اتباع محمد عليه السلام.

الأمر الثاني المهم هنا هو أن على الذين هادوا أن يتبعوا عيسى عليه السلام عند بعثه، فمن سمع منهم بعيسى عليه السلام ولم يتبعه فإنه لا يغدو مؤمناً بعدها، فلا بد من الإيمان بالرسل جميعهم، [إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ١٥٠ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا] ١٥١ النساء من هنا فواضح أن الآيات تتحدث عمن كان موجوداً قبل مبعث الرسول عليه السلام، وقبل مبعث عيسى عليه السلام من اليهود، وعن النصارى حتى مبعث النبي الخاتم عليه سلام الله.

لنربط بالآية السابقة واللاحقة لنثبت ما نراه في المسألة والله الموفق، نستغفره ونتوب إليه.

في آية المائدة بعد أن يتوعد الله من يتخذ اليهود والنصارى أولياء، بأنه منهم، ويحذر لذلك من الارتداد عن الدين، ويبين أن المؤمنين حزب الله، يبين بعض أسباب نقمة أهل الكتاب علينا وجحودهم [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ] ٥٩ المائدة، وقولهم على الله عدواناً لعنهم الله بأن يده مغلولة، في هذه الأجواء يقول الحق سبحانه [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ] ٦٥ المائدة، وطلب منهم أن يقيموا التوراة والإنجيل للمرة الثانية قبل هذه الآية [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ] ٦٨، وبين كيف تكون هذه الإقامة، في الآية اللاحقة مباشرة [لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ

تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ] ٧٠، فمشكلتهم مع الرسل تهمنا هنا جداً، فلا يكون إيمان دون الإيمان بكل الرسل وبالتالي لا بد لهم من الإيمان بالرسول الخاتم وبعيسى قبله عليهما السلام ليقيموا التوراة.

إذن فالصورة واضحة لا يوصف أهل الكتاب بالمؤمنين إن لم يتبعوا محمد بن عبد الله عليه سلام الله، وهذا ينسحب على سائر الآيات ويؤصل أصلا في العقيدة يتماشى مع الآية الكريمة: [وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] ٨٥ آل عمران

بعد أن بينا حال اليهود والنصارى والصابئة بقي الإشكال الأهم في الآية وهو [إن الذين ءامنوا] [من ءامن] نظير قوله تعالى [يأيها الذين ءامَنوا ءامِنوا] والاحتمال الأول هو ما ذكره المفسرون من أنهم المؤمنون بأي نبي قبل موسى وعيسى عليهما السلام، ولكن منطوق الآية يحتمل دخول المؤمنين من أتباع النبي الأمي فيهم، وعلينا أن نحاول فهم كيف يطلب الحق سبحانه من مؤمن أن يؤمن؟

أول ما تحتمله الآية هو أن على من آمن أن يعمل لينجو، وذلك أن الآية حددت سبيل النجاة بالإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات، فكان ذكر من آمن شرطاً ذُكر لوجود الذين هادوا والنصارى والصابئين في الآية، ولكن الذين آمنوا عليهم أن لا يقتصروا على الإيمان وحده بل لا بد من

عمل الصالحات، إذن إن الذين آمنوا إن عملوا الصالحات مع إيمانهم نجوا، واليهود والباقون عليهم أن يؤمنوا أولا ثم يعملوا الصالحات لينجوا، أي أن ذكر الذين ءامنوا أولها لضبط المفاهيم وكذا ذكر الصابئين فيها حتى لا يلتبس الأمر فتؤدي الآية عكس المعنى المطلوب وهو نجاتهم ببقائهم على عقائدهم، كذلك ليدخل فيها كل من آمن على مر الزمان.

لاحظ لإثبات ذلك أن الآية ذكرت [إن الذين ءامنوا والذين هادوا] ...الخ، ثم قال تعالى [من ءامن].. [وعمل صالحاً] أي من آمن بمحمد وبموسى وبعيسى من آمن وعمل صالحا، فيتبين أنه لا يكفي منهم أن يكونوا مؤمنين بأنبيائهم دون العمل الصالح لينجوا ويسعدوا، وتحذر من الاقتصار على الإيمان وحده.

من هنا نقول أن هذه الآيات تبين أن من سنن الله في كل شرائعه وعلى كل من اتبع رسولا من رسله أن الإيمان والعمل توأمان، فمن يؤمن من الخلق دون عمل فعليه خوف وسيحزن والعاملون المؤمنون هم الناجون، وهذه الآية بهذا الفهم تثبت أن العمل ليس ركناً من أركان تعريف الإيمان كما أثبتنا، لكنها تثبت أن النجاة لا تكون إلا بهما معاً فتفكر!!.

ثانياً: من الآيات المشابهة كما سبق في فصل سابق، أمكن استنباط معنى أن من آمن إيماناً مجملا دون التعمق بالأدلة التي ترفعه إلى أعلى

الدرجات لتحول بينه وبين الردة عند التعرض للشبهات، عليه أن يؤمن تفصيلا -كحال أغلب الناس الآن- ودليله سبق بيانه.

باب: [لَيْسواْ سَوَاء]

[لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُون آيَاتِ اللّه آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُون ١١٣ يُؤْمِنُون بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُون بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَر وَيُسَارِعُون فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّه عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ] ١١٥ آل عمران.

تتميز سورة آل عمران بأجواء محاورة أهل الكتاب وكشف حقيقة مواقفهم، [فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّه قَالَ الْحَوَارِيُّون نَحْنُ أَنصَارُ اللّه آمَنَّا بِاللّه وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُون] ٥٢، ثم العرض الذي عرضه اللّه تعالى عليهم بعد المباهلة [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّه وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّه فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُون] ٦٤، ثم بيان علمهم بصدق الرسول محمد عليه السلام [يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُون بِآيَاتِ اللّه وَأَنتُمْ تَشْهَدُون ٧٠ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُون الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُون الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُون] ٧١ ونتيجة لذلك يبين أن منهم [إِنَّ الَّذِين يَشْتَرُون بِعَهْدِ اللّه وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً].. الآية٧٧، بل [وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُون أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُون هُوَ مِنْ عِندِ اللّه وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّه وَيَقُولُون عَلَى اللّه الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُون]

٧٨، ثم الآية الهامة جداً في هذا الصدد [وَإِذْ أَخَذَ اللّه مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ] ... الآية ٨١، وضرورة الإيمان بكل الرسل لتحقق الإيمان، [كَيْفَ يَهْدِي اللّه قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّه لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] ٨٦، وهذا الوصف الدقيق مهم للغاية: [كفروا بعد إيمانهم]، فقد كانوا على استعداد لنصرة النبي والإيمان به لولا أنه عربي، [وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ] ١١٠، يتبين إذن هنا أنه من لم يؤمن منهم بالرسول الخاتم فإنه كافر بعد إيمان، الآية ٨٦، وبالتالي تفهم الآية ١١٠ على هذا الأساس، إذ لا تناقض في كتاب اللّه تعالى، ومثال ذلك عبد اللّه بن سلام رضي اللّه عنه، ثم نأتي لآياتنا موضع البحث، فبعد بيان هذه الصفات التي يغلب الخبث عليها والكذب على اللّه تعالى وقتل الأنبياء والمكر وما إلى ذلك [ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّه وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّه وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّه وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ١١٢ لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ] يتبين أن الحديث عنهم بصفة تاريخية، فليس كلهم قتلة لأنبياء اللّه، وإن كان الغالب عليهم هذا النوع الخبيث، لذلك اقتضى التنويه بالصالحين منهم بعد أن اتضحت الصورة لمن عاصر منهم

الرسول فلم يؤمن به على أنه كفر بعد إيمانه، وبالتالي فلا يمكن وصف أهل الكتاب بالإيمان مع كفرهم بالنبي الخاتم والله تعالى أعلم.

إلا أن علينا أن نتطرق لإشكالية هنا، وهي قول الله تعالى: [وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَالله عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ] ١١٥ ودلالة الفعل المضارع على الاستمرارية مما يوحي بإمكان أن يكون الحديث عن معاصرين منهم، لا بل إلى يوم الدين، والجواب على ذلك هو أن الله تعالى بين كما أثبتنا كفر من لم يؤمن برسوله منهم، وبالتالي فإن الإيمان شرط لقبول الأعمال، فلن يقبل الله منهم وهم الكافرون أي عمل، فتكون دلالة الفعل المضارع على أفعال السابقين ولهذا نظيره في القران: [وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ١٢ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ] الآيات من سبأ. والأمر معلوم من العربية بالضرورة.

باب: [يأيها الذين آمَنوا آمِنوا]

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّه وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّه وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّه لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً] ١٣٧ النساء

يسهل فهم الآيات على أساس ما سبق: فحتى لحظة بعث الرسول الكريم كان أهل الكتاب مؤمنين، فعليهم أن يؤمنوا به ليستمروا مؤمنين، وإلا فمن لحظتها هم كفار.

قال الألوسي: (فمعنى قوله تعالى [ءامنوا بالله ورسوله] اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه، والمراد ازدادوا في الإيمان طمأنينة ويقيناً، أو [آمنوا] بما ذكر مفصلاً بناءاً على أن إيمان بعضهم إجمالي [أقول كحال أكثر المسلمين لا يعلمون من أمر عقيدتهم شيئاً رغم إيمانهم إجمالا بأن كل ما في الدين حق، ففي الآية حض لهم على العلم لترسيخ الإيمان] وقيل الخطاب للمنافقين المؤمنين ظاهراً [وهو ما لا أنفك أنفيه] فمعنى آمنوا: أخلصوا الإيمان، وقيل لمؤمني اليهود خاصة، ويؤيده ما روي عن ابن عباس "أن عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب، وثعلبة بن قيس، وابن أخت عبد الله بن سلام ويامين بن يامين أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقالوا: نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: بل آمنوا باللّه تعالى وبمحمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب من قبله، فقالوا: لا نفعل، فنزلت، فآمنوا كلهم [وأعجب من ذكر المفسرين للرأي القائل بأنها في المشركين "المؤمنين باللات والعزى! ولو قيل بأن اللّه قال عنهم [والذين ءامنوا بالباطل]، قلنا أن هذا يعني أن أي وصف للذين آمنوا لا يمكن ضبطه بمن هم المقصود به، وهذا ما لا يكون، علاوة على أن الموضوع هنا الإيمان الحق] وقيل لجميع الخلق لإيمانهم يوم أخذ الميثاق حين قال لهم سبحانه [ألست بربكم؟ قالوا بلى] ... [إن الذين ءامنوا ثم كفروا ثم ءامنوا ثم كفروا] ... الآية هم قوم تكرر منهم الارتداد وأصروا على الكفر وازدادوا تمادياً في الغي، وعن مجاهد أنهم أناس منافقون أظهروا الإيمان ثم ارتدوا ثم أظهروا... وجعلها ابن عباس رضي اللّه عنهما عامة لكل منافق ... ويتابع الألوسي: والذي يميل القلب إليه أن المراد قوم تكرر منهم الإرتداد أعم من أن يكونوا منافقين أو غيرهم، ويؤيده ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم أنه قال في المرتد إن كنت لمستتيبه ثلاثاً ثم قرأ هذه الآية، وإلى رأي الإمام علي كرم اللّه وجهه ذهب بعض الأئمة فقال يقتل المرتد في الرابعة ولا يستتاب، وكأنه أراد أنه لا فائدة في الاستتابة إذ لا منفعة، وعليه فالمراد من قوله سبحانه [لم يكن اللّه ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً]... ومعنى

نفيه استبعاد وقوعه فإن من تكرر منه الارتداد وازدياد الكفر والإصرار عليه ... الخ)[٣٩٢]

ويرى الفخر الرازي: (أن الإيمان لم يقع من قلوبهم إذ لو وقع في قلوبهم لما تركوه بأدنى سبب.)[٣٩٣] من هنا اختار ابن عطية مثل هذا القول فقال: (وذلك أن الآية إنما هي في طائفة يتصف كل واحد منها بهذه الصفة من التردد بين الكفر والإيمان ثم يزداد كفراً بالموافاة، واليهود والنصارى لم يترتب في واحد منهم إلا إيمان واحد وكفر واحد، ... وإنما توجد هذه الصفة في شخص شخصٍ في المنافقين، لأن الرجل الواحد منهم يؤمن ثم يكفر ثم يوافي على الكفر وتأمل قوله تعالى [لم يكن الله ليغفر لهم] فإنها عبارة تقتضي أن هؤلاء محتوم عليهم من أول أمرهم ولذلك ترددوا.. وهي مشيرة إلى استدراج من هذه حاله.)[٣٩٤]

تأمل قوله تعالى: [كَيْفَ يَهْدِي اللّه قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّه لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] ٨٦ آل عمران واحتمالية أن نفهم هذا الكفر بالشكل التالي: آمنوا بنبيهم موسى وكفروا

---

٣٩٢) تفسير روح المعاني. الألوسي ٢/ ١٧١وانظر الكشاف ١/ ٦١٠
٣٩٣) التفسير الكبير. الرازي ٤/ ٢٤٣.
٣٩٤) تفسير ابن عطية. ٤/ ٢٦١

بعيسى وآمنوا بمحمد حال انتظاره ولما لم يبعث فيهم كفروا وازدادوا كفراً؟؟ رغم أنني لا أقول به.

وحيث أنني آليت أن أدفع دوماً إمكان وصف المنافقين بالمؤمنين، فأقول وبالله التوفيق: إن معنى الذين آمنوا لا يعني بالضرورة أن يكون إيمان من ينضوي تحت هذا الوصف كإيمان أبي بكر مثلاً، فمن الناس من يؤمن إيماناً ضعيفاً ليس بنفاق، لكنه على قدر علمه، وتعرض له الحياة ما يجعله يرتد وتأتيه دلائل تجعله يؤمن ثانية إيماناً ضعيفاً وهكذا دون أن يجعل من قضية الإيمان قضية مركزية في حياته، فمثل هذا الذي يعرض نفسه للهلاك، يعطيه الله تعالى الفرص بوصفه في الثانية بأنه يؤمن، لكنه بعد هذا الإيمان يكفر ثم يزداد كفراً عندها وبعد أن كان باب إكرامه مفتوحاً يعامل بالمثل بأن تحجب عنه المغفرة بعد إمعانه في الكفر وقد شرع أمامه باب الإيمان، وفي الآية حكم الردة والاستتابة، ولا أرى من داع لفهم أن من آمن يعني أن هذا يعني قوة الإيمان، وفي بحثنا هذا تطرقنا للفرق بين الإيمان والإيمان الحق، الذي يشكل الدرع الواقي للمرء من الهلاك، حيث بينا أن من آمن دون عمل فإنه على شفا حفرة من الكفر لا يدري متى يقع فيها، فعليه أن يؤمن ويعمل.

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّه وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ٢٨ الحديد قال

الرازي: (اعلم أنه لما قال في الآية الأولى [فآتينا الذين ءامنوا منهم] أي من قوم عيسى، [أجرهم] قال في هذه الآية [يا أيها الذين ءامنوا] والمراد به أولئك فأمرهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمد عليه السلام ثم قال [يؤتكم كفلين] أي نصيبين من رحمته، لإيمانكم أولا بعيسى وثانياً بمحمد.)[٣٩٥]

٣٩٥ التفسير الكبير. الرازي الجزء ٢٩/ ٤٧٥،

باب: آمَنوا و آمَنوا

قال تعالى: [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ] ٢ محمد.

([والذين ءامنوا]: قيل هو عام، وقوله: [وءامنوا بما نزل على محمد] اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين ما يجب الإيمان به تعظيماً لشأنه وتعليماً لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية [وهو الحق من ربهم][396] وقال الرازي: (قوله [وءامنوا بما نزل على محمد] مع أن قوله [آمنوا وعملوا الصالحات] أفاد هذا المعنى فما الحكمة فيه وكيف وجهه؟ فنقول: أما وجهه فبيانه على وجوه الأول: قوله [والذين ءامنوا] أي بالله ورسوله واليوم الآخر، وقوله [وءامنوا بما نزل على محمد] أي بجميع الأشياء الواردة في كلام الله ورسوله تعميم بعد أمور خاصة وهو حسن، تقول: خلق الله السموات والأرض وكل شيء إما على معنى كل شيء غير ما ذكرنا، وإما على العموم بعد ذكر الخصوص الثاني: أن يكون المعنى آمنوا وآمنوا من قبل بما نزل على محمد وهو الحق... كقول القائل: خرجت وخرجت مصيباً، أي وكان خروجي جيداً حيث

---

٣٩٦) الكشاف ٤/ ٣١٩

نجوت، ... وهذا هو المعنى في قوله [ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم] فإذا آمن المكلف بمحمد عليه سلام الله بالبرهان والمعجزة وعمل صالحاً حمله علمه على أن يؤمن بكل ما قاله محمد عليه السلام ولم يجد في نفسه شكاً وللمؤمن في المرتبة الأولى أحوال وفي المرتبة الأخيرة أحوال، أما في الإيمان بالله ففي الأول يجعل الله معبوداً وقد يقصد غيره في حوائجه فيطلب الرزق من زيد وعمرو، ويجعل أمراً سبباً لأمر، وفي الأخيرة يجعل الله مقصوداً ولا يقصد غيره، ولا يرى إلا منه سره وجهره، فلا يثيب إلى شيء في شيء فهذا هو الإيمان الآخر بالله وذلك الإيمان الأول.

وقوله [وآمنوا بما نزل على محمد] هو في مقابلة قوله في حق الكافر [وصدوا] لأنا بينا في وجه أن المراد بهم صدوا عن اتباع محمد عليه السلام وهذا حث على اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، فهم صدوا أنفسهم عن سبيل الله وهو محمد عليه السلام وما أنزل إليه، وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباع سبيله.)[٣٩٧]

٣٩٧) التفسير الكبير الرازي. الجزء ٢٨ / ٣٥

باب: [إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ]

[لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] ٩٣ المائدة، ([ليس على الذين ءامنوا] ... الآية: وروي أن مناسبتها عندما حرمت الخمر، فتساءل الصحابة عن إخوانهم الذين ماتوا قبل التحريم وقد شربوها، ما يهمني هنا هو تكرار الايمان، ويرى الفخر الرازي أن ذلك لبيان أن أولئك الأقوام (الذين ماتوا وقد شربوا الخمر قبل تحريمها) الذين نزلت فيهم هذه الآية كانوا على هذه الصفة ثناء وحمداً لأحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان.)[٣٩٨]

وما أحب إضافته هنا هو أنهم بتلقي أي أمر من الرب سبحانه يؤمنون به فكأنما يتجدد إيمانهم بذلك، أو هم يجددون عهدهم مع الله تعالى بتصديقهم بكل ما يأتي به النبي الكريم، فبعد أن كانوا يؤمنون بالحكم السابق جاءهم أمر جديد بتحريمها فآمنوا به واتقوا الله فلم يفعلوا ما نهوا عنه، واتقوا وأحسنوا بمراقبة الله تعالى في كل ما أمر، فالله تعالى يطلب منهم الإيمان بأن كل حكم منه، وبالتالي فهم يؤمنون بالحكم المنسوخ

---

٣٩٨) التفسير الكبير. الفخر الرازي ٤/ ٤٢٧

قبل نسخه ثم يؤمنوا بالناسخ ويتقون الله تعالى ويراقبونه، وهنا لا أدري هل ما قاله الإمام أحمد في معنى زيادة الإيمان من تفسيره بالآية [اليوم أكملت لكم دينكم] أدق أم ما قابلته به من قول ابن حزم في موضعه من الكتاب؟ ولعلي أرجع عما قلته هناك بدلالة هذه الآية! وإن كان في رأي ابن حزم ما فيه من الدقة! والله أعلم.

باب: التوبة سبقت الإيمان!

[فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا] ٦٠ مريم، [وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى] ٨٢ طه، [إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا] ٧٠ الفرقان.

في هذه الآيات سبقت التوبة الإيمان، وذلك أن الشرك والكفر ذنب أي ذنب!، فإذا كان الذنب الأقل يتطلب توبة واستغفاراً، فمن باب أولى الذنب الأعظم، فتقدمت التوبة على الإيمان لهذا الغرض، والله أعلم، ولعلنا نقول هنا أن الدخول في الإيمان يتطلب التخلية قبل التحلية، أي التخلي عن كل أفكار الكفر وأحكامه ومقاييسه، وليس التخلي فقط بنبذها بل المطلوب التوبة عنها واعتبارها من الرجس ولا بد من الندم على حملها، من هنا فالتوبة تجلو القلب من كل هذه الشوائب وتمهده للاستسلام الكامل لما جاء به الحبيب المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم.

حدثنا الفضل بن دكين نا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال: لابد لأهل هذا الدين من أربع: دخول في دعوة الإسلام ولابد من الإيمان وتصديق بالله وبالمرسلين أولهم وآخرهم، وبالجنة وبالنار، وبالبعث بعد

الموت، ولابد من أن تعمل عملا تصدّق به إيمانك، ولابد مـن أن تعلـم علمـاً تحسن بـه عملـك، ثـم قـرأ [وإنـي لغفـار لمـن تـاب وآمـن وعمـل صـالحا ثـم اهتدى] [٣٩٩]

---

٣٩٩) الايمان لابن أبي شيبة ص ٤٠

فصل: نواقض الايمان: الايمان والكفر

قال الامام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الايمان ص ٤ وما بعدها:
وقال: [خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا] (التوبة /١٠٣) فلو أنهم ممتنعون من الزكاة عند الإقرار وأعطوه ذلك بالألسنة. وأقاموا الصلاة غير أنهم ممتنعون من الزكاة كان ذلك مزيلا لما قبله، ناقضا للإقرار والصلاة كما كان إيتا الصلاة قبل ذلك ناقضا لما تقدم من الإقرار. والمصدق لهذا جهاد أبي بكر الصديق رحمه الله عليه بالمهاجرين والأنصار على منع العرب الزكاة، كجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الشرك سواء، لا فرق بينها في سفك الدماء وسبي الذرية واغتنام المال، فإنما كانوا ما نعين لها غير جاحدين بها، ثم كذلك كانت شرائع الإسلام كلها، كلما نزلت شريعة صارت مضافة إلى ما قبلها لاحقة به، ويشملها جميعا اسم الإيمان فيقال لأهله مؤمنون.

وهذا هو الموضع الذي غلط فيه من ذهب إلى أن الإيمان بالقول، لما سمعوا تسمية الله إياهم مؤمنين، أوجبوا لهم الإيمان كله بكماله، كما غلطوا في تأويل حديث النبي صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإيمان ما هو؟ فقال: أن تؤمن بالله وكذا وكذا، وحين سأله الذي عليه رقبة مؤمنة عن عتق العجمية فأمر بعتقها وسماها مؤمنة، وإنما هذا على ما أعلمتك من

دخولهم في الإيمان ومن قبولهم وتصديقهم بما نزل منه، وإنما كان ينـزل متفرقا كنزول القرآن.

والشاهد لما نقول والدليل عليه كتـاب اللّه تبـارك وتعـالى، وسـنة رسـول اللّه صلى اللّه عليه، فمن الكتاب قوله: [وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُـمْ يَسْتَبْشِـرُونَ] (التوبة / ١٢٤) وقوله [إِنَّمَا الـمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُـمْ إِيمَانًـا وَعَلَـى رَبِّهِـمْ يَتَوَكَّلُـونَ] (الأنفـال / ٢) فـي مواضع من القرآن مثل هذا.

أفلست ترى أن اللّه تبارك وتعالى لم ينزل عليهم الإيمـان جملـة كمـا لـم ينزل القرآن جملة؟ فهذه الحجة من الكتاب، فلـو كـان الإيمـان مكمـلا بـذلك الإقرار ما كان للزيادة إذا معنى، ولا لذكرها موضع. انتهى.[٤٠٠]

يراجع موضوع قتال مانعي الزكاة في موضعه من الكتاب في فصل علاقة الايمان بالعمل.

ويراعى دوما التفريـق بـين أداء العمـل والإقـرار بأنـه حكـم اللّه أو الحكـم الشرعي في المسألة.

---

٤٠٠) كتاب الايمان لأبي عبيد القاسم ص ٤

جاء في كتاب نظام العقوبات في الاسلام: حد المرتد:

والمرتد هو من كفر بعد إسلامه، ويكفر المسلم بأربع: بالاعتقاد والشك والقول والفعل.

أما الاعتقاد فإن فيه ناحيتين: إحداهما التصديق الجازم بما جاء النهي الجازم عنه أو الأمر الجازم بخلافه، كالاعتقاد بأن لله شريكا أو الاعتقاد بأن القرآن ليس كلام الله.

والناحية الثانية إنكار معلوم من الدين بالضرورة كإنكار الجهاد وإنكار تحريم شرب الخمر وإنكار قطع يد السارق وما شاكل ذلك.

وأما الشك فإنه الشك في الاعتقاد وكل ما كان دليله قطعيا فمن شك أن الله واحد أو شك بأن محمدا رسول أو شك بجلد الزاني أو ما شابه ذلك كفر. وأما القول فإن المراد به القول الذي لا يحتمل التأويل فمن قال إن المسيح ابن الله ومن قال إن الاسلام جاء بهمحمد من عنده أو ما شاكل ذلك فإنه يكفر بكل تأكيد.

وأما القول الذي يحتمل التأويل فلا يكفر قائله ولو كان القول يحتمل تسعة وتسعين في المائة ويحتمل الايمان واحدا في المائة فإنه يرجح جانب الواحد على التسعة والتسعين لأنه جانب الايمان إذ بوجود هذا الواحد وجد احتمال التأويل فلا يكفر إذ لا يعد كافرا إلا إذا كان القول كفرا بشكل جازم.

وأما الفعل فالمراد به الفعل الذي لا يحتمل تأويلا بأنه كفر فمن سجد لصنم وصلى بالكنيسة صلاة النصارى فإنه يكفر ويرتد عن الاسلام لأن صلاة النصارى كفر لا يحتمل التأويل فمن فعلها فقد فعل كفرا لا يحتمل التأويل.

وأما الفعل الذي يحتمل التأويل فإنه لا يكفر فاعله فمن دخل الكنيسة لا يكفر لأنه يحتمل أن يكون دخلها للفرجة ويحتمل أن يكون دخلها للصلاة ومنقرأ الانجيل لا يكفر لانه يحتمل أن يكون قرأه للاطلاع عليه للرد عليه ويحتمل أن يكون قرأه معتقدا به وهكذا.

وكل فعل يحتمل التأويل لا يكفر فاعله ولا يكون مرتدا إذا فعله.. إ.هـ.[٤٠١]

كذا التبرع لكنيسة او دير او بيعها حجارة لبناء كنيسة او اصلاحها او ما شابه ذلك لا يحل لانه عمل من اعمال الكفر.

---

٤٠١) نظام العقوبات في الاسلام لعبد الرحمن المالكي ص ٨٣

[إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا]

[إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)]

الكفر لغةً: السَّتْر والتَّغطية، وجَحْدُ النِّعمة وتناسيها، وحينئذٍ لم يبق التقابل بين الإيمان والكفر لغة إلا باعتبار اللازم، فإنّ جحود النعمةِ والتناسي لا يجتمع مع التَّصديق بأحد، وبمعنى أدق، فإن الجحود يطمس معالم التصديق، أو يحول بينه وبين القلب، ففي الحالة الأولى، اقتنع الكافر بالحق وتبين له الهدى، ولكنه شاقق، وفي الثانية أبى الحق ابتداء، وتصديقه لا يجتمع معه جحود نعمتِهِ، ولولا وجود نقيضٍ سَتَرَهُ نقيضُهُ، أو غطاه وحجبه، ما سُمي كفرا، وقد قلنا: لا يجتمعا، وهذا لا يعني أن المعرفة التي قد ينتج عنها التصديق لم تتواجد قبل أن يسترها ويغطيها ويطمس محاسنها الكفر، فرب كافر عرف وشاقق، وأما ضِدُّ الإيمان الصريح فهو الخيانة، كما أن ضِدّ الكفر هو الشكر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَالْكُفْرُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ وَلَا يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا تَجْتَمِعُ الْخِيَانَةُ وَالْأَمَانَةُ جَمِيعًا مسند أحمد باقي مسند المكثرين.

وعَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ. مسند أحمد باقي مسند المكثرين.

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: الكاف والفاء والراء: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنىً واحد، وهو السَّتْر والتَّغطية. يقال لمن غطّى دِرعَه بثوبٍ: قد كَفَر دِرعَه. والـمُكَفِّر: الرّجل المتغطِّي بسلاحه.

ويقال للزَّارع كافر، لأنَّه يُغطِّي الحبَّ بتُراب الأرض. قال اللّه تعالى: [أعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ] [الحديد ٢٠]. ورَمادٌ مكفور: سَفَت الرِّيحُ الترابَ عليه حتى غطَّتْه. قال: * قد دَرَسَتْ غَيرَ رمادٍ مكفورْ *

والكافر من الأرض: ما بَعُد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمرّ به أحد؛ ومَن حلّ بتلك المواضع فهم أهل الكفور.

والكُفْر: ضِدّ الإيمان، سمِّي لأنَّه تَغْطِيَةُ الحق. وكذلك كُفْران النِّعمة: جُحودها وسَترُها.

جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: الْكُفْرُ فِي اللُّغَةِ: السِّتْرُ، يُقَال: كَفَرَ النِّعْمَةَ، أيْ: غطَّاها، مُسْتَعارٌ مِنْ كفرَ الشَّيْءَ: إذا غطَّاه، وَهُوَ أصل الْبَابِ.

وَالْكُفْرُ نَقِيضُ الإيمَانِ، وَالْكُفْرُ: كُفْرُ النِّعْمَةِ، وَهُوَ نَقِيضُ الشُّكْرِ، وَكَفَرَ النِّعْمَةَ وَبِالنِّعْمَةِ: جَحَدَهَا، وَكَفَرَ بِكَذَا تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَفِي التَّنْزِيل: [إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي]، وَيُقَال: كَفَرَ بِالصَّانِعِ: نَفَاهُ وَعَطَّل، وَهُوَ الدَّهْرِيُّ الْمُلْحِدُ، وَكَفَّرَهُ - بِالتَّشْدِيدِ: نَسَبَهُ إلَى الْكُفْرِ، وَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ: إذَا فَعَل الْكَفَّارَةَ، وَأَكْفَرْتُهُ إكْفَارًا: جَعَلْتُهُ كَافِرًا.

وَالْكُفْرُ شَرْعًا: هُوَ إنْكَارُ مَا عُلِمَ ضَرُورَةً أنَّهُ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَإِنْكَارِ وُجُودِ الصَّانِعِ، وَنُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وَإِنكار حُرْمَةِ الزِّنَا وَنَحْوِ ذَلِكَ[٤٠٢]

---

٤٠٢) المنثور في القواعد ٣ / ٨٤.

الانتقال من الكفر إلى الايمان:

سنبين بعد قليل أن شاء اللّه بم تكون الردة، أي الخروج من الايمان إلى الكفر، ولا بد أن نبين قبلها بم يكون الانتقال من الكفر إلى الإيمان، فنقول وباللّه تعالى التوفيق:

أمر اللّه تعالى العقل بالتفكر ليصل إلى حقائق الإيمان، ووضَعَ الدلائل والعلامات والآيات الموصلة إلى تلك الحقائق، وجعلها واضحة بينة جلية، من تفكر فيها وتدبر علم الحق، قال تعالى: [قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن باللّه] ومن عرف الحق، وتبين الهدى، فهو أمام خيارين: إما أن يتبع، فيقر ويسلم ويذعن ويؤمن، أو يشاقق، فيستمر على الكفر، قال تعالى: [وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا] ١١٥ النساء، [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ] (٣٢) محمد، [وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (١٠٩) البقرة، [إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ

لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥)] محمد. فمن تبين له الهدى ولم يتبع الحق ولم يذعن له، دخل في الشقاق وبالتالي كفر.

مهم أن نفهم ذلك، فالمشاققة، أن يكون المرء في شق غير الشق الذي فيه الرسول صلى اللّه عليه وسلم، فهو تبين له الحق، لكنه أصر على أن يتبع غير دين الحق، أصر على أن يكون في الشق الآخر، فالمؤمنون اتبعوا سبيل الرسول صلى اللّه عليه وسلم: [قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي] (١٠٨)يوسف. فهناك سبيل معينة واضحة من دخل فيها اتبع ودخل في الايمان ومن حاد عنها اتبع هواه وضل وخرج من الايمان، وهذه السبيل هي الصراط المستقيم: [بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا] هذه السبيل قوامها أن من وصل إلى الحق، لزمه أن يتبعه، أي أن ينقاد له، وأن لا يتولى على أعقابه، كي لا يشاقق:

[وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ (١٣٨)] البقرة.

إذن فبعد أن يتبين للمرء الحق، والهدى، وتنجلي معالمه، وتقوم أدلته الدامغة في نفسه، فيستيقن أنه الحق، لا بد له في المرحلة التالية من انشراح الصدر للإسلام، ليدخل في هداية انشراح الصدر للإيمان، [فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)] الأنعام.

فإن أنعم اللّه عليه بهذه الهداية، حين يجد منه سعيا وراء الحق بقلب راغب في الوصول إليه، فإن عليه أن يعاقد على إطاعة النبي صلى اللّه عليه وسلم، ويصدق بأصل الايمان، فلا ينكر معلوما من الدين بالضرورة، ولا يشاقق، أي أنه آمن بما نزل على محمد صلى اللّه عليه وسلم في الجملة، وعاقد على التصديق بأن كل ما جاء به هو الحق، فهذا هو أصل الايمان، ثم إذا بلغه شيء من تفصيلاته زاد إيمانا بالتصديق به وبتجديد المعاقدة على اتباعه فيه.

قال تعالى: [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ] ٢محمد. فخص هذا

الإيمان بالتشريف والتعريف به لأهميته، فالمعاقدة على الايمان بما نزل على محمد بأنه هو الحق تنقل المرء من الكفر إلى الايمان، فينطق حينها الشهادتين ويعلن توبته عن الكفر وندمه عليه.

يقول الكشميري ناقلا رأي الإمام أبي حنيفة: أن الإيمان عند الإمام رحمه الله تعالى إرادةٌ على إطاعة النبي صلى الله عليه وسلّم بجميع ما جاء به. إ.هـ.،

وقال ابن حزم: لأنه قد اعتقد المسلمون في أول إسلامهم أنهم مصدقون بكل ما يأتيهم به نبيهم –عليه الصلاة والسلام- في المستأنف فلم يزدهم نزول الآية تصديقاً لم يكونوا اعتقدوه، إ.هـ.

هذا يعني أن أصل الإيمان إرادة على طاعة النبي، أو كما وصفها الإمام أحمد: معاقدة قال الكشميري: وإليه يشير ما نُقل عنه، [أي الإمام أحمد] أن الإيمان معاقدةٌ على الأعمال، أي أنه عقدٌ على التزام الطاعات على نفسه، والعقد يكون وسيلةً للمعقودِ عليه. إ.هـ.

فبهذا الإيمان لا تحصل المشاققة بعد أن تبين الهدى.

قال الكشميري رحمه الله تعالى: كما يدل عليه عبارة الطحاوي في «عقيدته»، وهي أثبتُ شيءٍ في هذا الباب. قال: الإيمان واحد، وأهله في

أصله سواء، والتفاضل في الخشية، والتُّقى ومخالفة الهوى، وملازمة التقوى... إلخ

فجعل للإيمان أصلاً، وجعل الناسَ كلهم فيه سواء، وهو الذي لو انحط عنه الإيمان لجاء الكفرُ مكانَهُ، وأبقى.

ثم رأيتُ حكايةً في «الفتح» عن أحمد رحمه الله تعالى لا أرى في نقلها بأساً، وأريد أن أنبه على ما استفدت منها. قال أحمد رحمه الله: بلغني أن أبا حنيفة رحمه الله يقول: إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وكيف يكون هذا مع أنه رُوي عن ابن مسعود في الصحيحين، أن المرء إذا أسلم فأحسن في إسلامه، فهو كفارة له، وإلا فيؤخَذُ بالأول والآخر، فإنه يدل على أن الإسلامَ لا يهدم ما كان قبله مطلقاً، بل تبقى عليه المؤاخذة بعده أيضاً. واستفدت منه أن الإيمان عند أحمد رحمه الله كالتوبة الكلية، وهي عزمٌ على الإقلاع عن المعصية فيما يأتي، فمن أحسن بعد إسلامه، فقد صحت توبتُهُ وصار إسلامه كفارةً له، ومن أساء بعده ولم يقلع عن المعصية لم تصح توبته، فيؤخذ بالأول والآخر، وإذا كان الإسلام عنده كالتوبة، يكون وسيلة للأعمال، والأعمال مقصودة، فإنها المقصودة من التوبة، وإليه يشير ما نُقل عنه، أن

الإيمان معاقدةٌ على الأعمال، أي أنه عقدٌ على التزام الطاعات على نفسه، والعقد يكون وسيلةً للمعقودِ عليه[٤٠٣].

قال تعالى [فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ٥ التوبة، وقال تعالى: [فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ] ١١ التوبة، وقال: [فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا] ٦٠ مريم، [وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى] ٨٢ طه، [إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا] ٧٠ الفرقان.

في هذه الآيات سبقت التوبة الإيمان، وذلك أن الشرك والكفر ذنب أي ذنب!، فإذا كان الذنب الأقل يتطلب توبة واستغفاراً، فمن باب أولى الذنب الأعظم، فتقدمت التوبة على الإيمان لهذا الغرض، والله أعلم، ولعلنا نقول هنا أن الدخول في الإيمان يتطلب التخلية قبل التحلية، أي التخلي عن كل أفكار الكفر وأحكامه ومقاييسه، وليس التخلي فقط بنبذها بل المطلوب التوبة عنها واعتبارها من الرجس ولا بد من الندم على حملها، من هنا

---

٤٠٣) فيض الباري للكشميري كتاب الإيمان.

فالتوبة تجلو القلب من كل هذه الشوائب وتمهده للاستسلام الكامل لما جاء به الحبيب المصطفى صلى اللّه تعالى عليه وسلم.

ينتقل المرء من الكفر إلى الإيمان بالتفكير في قضايا معينة، تتعلق بمفاصل ثلاثة رئيسة: البرهان على وجود اللّه والبرهان أن القرآن معجز، مما يثبت صدق الرسول صلى اللّه عليه وسلم في أنه رسول، فهذه الثلاثة تمثل أصل الإيمان، وتتفرع عنها قضايا الايمان كلها، فمن صدق بها وعاقد على إطاعة الرسول صلى اللّه عليه وسلم في كل ما يأتي به انتقل من الكفر إلى الايمان، وتتفرع عنها قضايا الاعتقاد الأخرى من اعتقاد وحدانية اللّه، وأنه الخالق الرازق... الخ، واعتقاد أن القرآن كلام اللّه وفيه الهداية التي أراد اللّه من البشر الاهتداء بها، واعتقاد بالآخرة، واعتقاد أن محمدا رسوله يبلغ رسالاته، وأنه يصدقه في كل ما يثبت عنه أنه من الدين، ولا يشاقق، فيدخل في حياض المؤمنين، ويبدأ بتعلم الإسلام وأحكامه من الكتاب والسنة.

هذه المعرفة بأصل الإيمان، التي نقلته من الكفر إلى الإيمان، والتي نقلت تصديقه إلى الجزم بصدق الإسلام، هي أصل الايمان الذي لا يتفاضل والذي عبر عنه الإمام الطحاوي بجملة مهمة قال فيها: الإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، وقال فيها الكشميري رحمه اللّه كلمة مهمة إذ قال في تعريفه للإيمان بأنه: تصديق بأمور مخصوصة عُلِم كونُها من الدين ضرورة، أقول: هذا نوع من الإيمان، ولدينا إيمان تفصيلي، بكل ما ثبت عن

الرسول صلى اللّه عليه وسلم مما جاء به من وحي، وأمر باعتقاده، وعلى كل قضية من قضاياه أدلة جازمة، كالإيمان مثلا بالجنة ونعيمها، وتفاصيل الحشر والحساب، وما شابه، فهذه الأمور التفصيلية يتفاوت الناس في إدراك تفاصيلها، والإلمام بأدلتها.

يؤمن بحقية كل ما جاء به النبي صلى اللّه عليه وسلّم إجمالاً قبل أن تبلغ إليه الشرائع تفصيلاً، ثم تبلغه فيؤمن بها تفصيلاً بعدما آمن بها إجمالاً، فيزداد إيمانه

وقال الكشميري: والإمام (يعني أبا حنيفة رضي اللّه عنه) لما لم يقل: إن الإيمانَ لا يزيد بالطاعة، ولا ينقص بالمعصية، عُلم أنه لم يَرد بنفي الزيادة إلا الزيادة في مرتبة محفوظة، ولذا لم ينف الزيادة في الانبساط بالطاعات، وإنما نفاها عن أصل الإيمان الذي يحصل قبل الأعمال، وأبقى الزيادةَ والنقصانَ في الخشية والتقوى، كما مر عن الطحاوي رحمه اللّه تعالى، فلم يكن مورد النفي عين مورد الإيجاب، فمعنى قوله: لا يزيد ولا ينقص: أي أصله، ومعنى قولهم: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، أي بهائه ونمائه، فأين الخلاف؟ نعم أدى كلٌّ حِصة صحيحة. ولذا صرح الحافظ ابن تيمية رحمه اللّه تعالى بكون مقولتِهِ من بدعة الألفاظ، فكأنه لم يجد بُداً من تسليم صحة مقولة الإمام رحمه اللّه تعالى.

ونذكّر بقول الامام تقي الدين النبهاني رحمه اللّه: ومما يجب أن يُلفت النظر إليه أن اعتناق العقيدة الإسلامية معناه الإيمان بكافة ما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وأن يكون تقبل ذلك عن رضى وتسليم. ويجب أن يعلم أن مجرد المعرفة لا يغني، وأن التمرد على أصغر شيء ثابت يقيناً من الإسلام يخرج الشخص ويفصله من العقيدة. والإسلام كلٌ غير قابل للتجزئة من حيث الإيمان والتقبل فلا يجوز في الإسلام إلا أن يُتقبل كاملاً، والتنازل عن بعضه كفر،...[٤٠٤]

---

٤٠٤) الشخصية الاسلامية الجزء الأول لتقي الدين النبهاني فصل الثغرات في السلوك

أَقْسَامُ الكُفْر

قد علمتَ أنّ الكفرَ بالمعنى اللغوي، لا يقابل الإيمان. نعم، يقابلُهُ بالمعنى الشرعي. قال الوَاحِدِيّ[٤٠٥]: وهو كفرُ إنكارٍ، وكفر جحودٍ، وكفر معانَدَةٍ، [واستكبار]، وكفر نفاقٍ، فمن لقيه بشيء من ذلك لم يُغفَر له.

أما كفر الإنكار: فهو أن يكفر بقلبه، ولسانه، ولا يعتقد بالحق، ولا يقر به، أي أن لا يقر بالله أصلاً ولا يعترف به، ولا يقر بالنبوة والمعاد، أي أن يخلو قلبه من تصديق الحق والاعتقاد به[٤٠٦]، وسنرى بعد قليل ان شاء الله تعالى أن هذا الإنكار له حالات منها: حالة عرف فيها ولم يقتنع، أو لم يحسن التعامل مع الدليل فأنكر وجه دلالته، وحالة عرف إجمالا أن ثمة دين هنالك، وخالق، ونبي وقيامة، وأنكر ذلك دونما دخول في تفاصيل أدلتها، فالأول أنكر بعد الوقوف على أدلة تفصيلية لقضايا الإيمان، والثاني أنكر بعد الوقوف على أدلة مجملة، ولكن في الحالتين، فإن الإنكار يسبقه معرفة،

---

٤٠٥) بتصرف كبير

٤٠٦) نعني هنا التصديق المعتبر في الإيمان كما سيأتي بعد قليل، وقد يكون في القلب تصديق ببعض قضاياه دون بعض، ففي المحصلة لا يكون لديه التصديق المعتبر في الإيمان، بل مجرد معرفة ويقين ببعض قضايا الحق، كأن يؤمن ببعض الأنبياء ويكفر ببعض، فإنكاره لهذا البعض جعله كافرا، ففي المحصلة هو كافر.

وسنبين ذلك بعد قليل بإذن اللّه، وحالة ثالثة آمن بنقيض الاعتقاد الحق، وناكر الحق وناصبه العداء، بلسان الحال أو بلسان المقال، بعد وجود النذارة. [يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّه ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ] ٨٣ النحل؛ ويتفرع عن الإنكار: الإعراض عن الآيات البينات [وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا] ٥٧ الكهف [كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ٩٩ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ١٠٠ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا] ١٠١ طه والإعراض منه ما يكون كفراً ومنه ما يكون دون ذلك.). واللّه أعلم.

وأما <u>كفر الجحود</u>: فهو أن يعرف الحقَ بقلبه، ولا يُقر بلسانه، ككفر علماء أهل الكتاب، وهو قوله تعالى: [فَلَمَّا جَآءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ] (البقرة: ٨٩)، وكفر قوم فرعون: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: [وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ] ١٤ النمل؛، يعني كفرَ الجحود، وهذا حال علماء بني إسرائيل ممن عرف الحق بقلبه، ولم يقر بلسانه به، وترتب على ذلك أنه لم يتبعه، ولم يخضع له، وشاققه. [وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ] ٣٢ لقمان؛ [وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ

يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ] ٤٧ العنكبوت؛

وأما كفرُ المعاندة، والاستكبار: فهو أن يعرفَ بقلبه، ويقرَّ بلسانِهِ، ولا يقبلُ ولا يتدينُ به، ككفر أبي طالب. وككفر إبليس، فَإِنَّ إِبْلِيسَ لَمْ يُكَذِّبْ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِالسُّجُودِ وَإِنَّمَا أَبَى الِانْقِيَادَ كُفْرًا وَاسْتِكْبَارًا، فهذا النوع من الكفر قد يكون نتاج العناد الخالي من الاستكبار كحال أبي طالب، إذ أن اعتباراته في ذلك الكفر خشية مقالة الناس، وخشية ترك دين الآباء، أو قد يكون نتاج الاستكبار على الحق، كتمرد إبليس على أمر اللّه تعالى، ففي الحالتين كما ترى توجد معرفةُ القلب، ويوجد الإقرار باللسان، ولكن المعاندة حالت بين المرء وبين الانقياد للحق، وبقي في صف المشاققين.

[أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ] ٢٤ ق [كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا] ١٦ المدثر؛ [بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ] ٥٩ الزمر؛

وينضوي أيضا تحت كفر المعاندة: من كره الدين أو ما عُلم منه بالضرورة أو كَره شيئا من شرائع الإسلام: [وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ٨ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللّه فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ] ٩محمد؛ [إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ

وَأَمْلَى لَهُمْ ٢٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّه سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّه يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ] ٢٦محمد، فإذا كان حكم الذين قالوا للذين كرهوا ما نزل اللّه سنطيعكم في بعض الأمر أنهم ارتدوا على أدبارهم كافرين؛ فما يكون القول في الذين كرهوا ما نزل اللّه؟

وأما أنهم يلحقون بكفر المعاندة، فلأنهم ارتدوا على أدبارهم بعد إقرارهم وتصديقهم، أما من كره ما أنزل اللّه ابتداء ممن ذكروا في الآية التاسعة من سورة محمد صلى اللّه عليه وسلم، فكفرهم كفر إنكار.

ويلحق بهم كافر الاستحلال: وهو الذي يستحل ما حرم اللّه وهذا جعل نفسه نداً للّه تعالى في التشريع.

ويتفرع عن كفر الاستكبار أيضا: الاستهزاء بما شرع اللّه من أحكام أو بالرسول عليه سلام اللّه [وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّه وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ ٦٥ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ] ٦٦ التوبة؛ [وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّه يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّه جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا] ١٤٠ النساء؛

وأما كفرُ النِّفاق، فبأن يقرَّ بلسانِهِ، ويكفرَ بقلبه.[٤٠٧]، وصاحبه لا يخلو من أن يكون سبب كفره الأصلي إما الإنكار، أو المعاندة، أو الجحود، ولكنه لم يعلن الكفر الصريح كما فعل المنكرُ والجاحدُ والمعاندُ والمستكبرُ، بل إنه تظاهر بالإيمان، فكفْرُ النفاقِ أن ينتَفِي عَمَلُ الْقَلْبِ مِنَ التصديقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْإِذْعَانِ مَعَ وجود انْقِيَادِ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: [وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ] إِلَى قَوْلِهِ: [وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] [الْبَقَرَةِ: ٨-٢٠].

أما مَنْ أُكْرِهَ عَلَى الْكُفْرِ فَأَتَى بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ فإنه بهذا لا يَصِيرُ كَافِرًا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: [مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] سورة النحل ١٠٦،

على أننا يمكن كذلك أن نقسم الكفر إلى كفر شك، وكفر اعتقاد، وكفر فعل، وكفر قول، وسيأتي تفصيل معنى كل منها في فصل الردة في باب يكفر المسلم بأربع، فينطبق على الكافر معناها أيضا من وجه أنه كافر لأنه يشك بصدق الحق دون أن يعتقده، أو كافر لأنه يعتقد نقيض الحق الذي أمر

---

٤٠٧) كناب الإيمان من فيض الباري بشرح صحيح البخاري للكشميري. بتصرف كبير جدا، من الجامع الأكبر للتراث الإسلامي إصدار شركة العريس، الإصدار الثاني.

اعتقاده، أو كافر لأنه لم يعتقد ما أمر اعتقاده، أو كافر لأنه يقول قولا مكفرا لا يحتمل التأويل، أو كافر لأنه يفعل فعلا مكفرا لا يحتمل التأويل، على التفصيل الوارد في موضعه فراجعه، ولكن الدقيقة هنا هو أنه في هذا كله كفر بعد وجود النذارة، وقيام الحجة عليه.

حقيقة الكفر:

حاول الإمام الرازي في تفسيره أن يضع حدا للكفر، يعرفه به، وبين أن ذلك من الأمور الصعبة التي كثر فيها الخلاف بين المتكلمين، وسأنقل كلامه كما هو ثم أبين قولا فصلا في ذلك ان شاء اللّه تعالى بعده:

قال الرازي رحمه اللّه تعالى: اعلم أنه صعب على المتكلمين ذكر حد الكفر، وتحقيق القول فيه: أن كل ما ينقل عن محمد صلى اللّه عليه وسلم أنه ذهب إليه وقال به فإما أن يعرف صحة ذلك النقل بالضرورة أو بالاستدلال أو بخبر الواحد.

أما القسم الأول: وهو الذي عرف بالضرورة مجيء الرسول عليه السلام به فمن صدقه في كل ذلك فهو مؤمن، ومن لم يصدقه في ذلك، فإما بأن لا يصدقه في جميعها أو بأن لا يصدقه في البعض دون البعض، فذلك هو الكافر، فإذن الكفر عدم تصديق الرسول في شيء مما علم بالضرورة مجيئه به، ومثاله من أنكر وجود الصانع، أو كونه عالماً قادراً مختاراً أو كونه واحداً أو كونه منزهاً عن النقائص والآفات، أو أنكر محمداً صلى اللّه عليه وسلم أو أنكر صحة القرآن الكريم أو أنكر الشرائع التي علمنا بالضرورة كونها من دين محمد صلى اللّه عليه وسلم كوجوب الصلاة والزكاة والصوم والحج

وحرمة الربا والخمر، فذلك يكون كافراً، لأنه ترك تصديق الرسول فيما علم بالضرورة أنه من دينه.

فأما الذي يعرف بالدليل أنه من دينه مثل كونه عالماً بالعلم أو لذاته وأنه مرئي أو غير مرئي، وأنه خالق أعمال العباد أم لا، فلم ينقل بالتواتر القاطع لعذر مجيئه عليه السلام بأحد القولين دون الثاني، بل إنما يعلم صحة أحد القولين وبطلان الثاني بالاستدلال، فلا جرم لم يكن إنكاره، ولا الإقرار به داخلًا في ماهية الإيمان فلا يكون موجباً للكفر، والدليل عليه أنه لو كان ذلك جزء ماهية الإيمان لكان يجب على الرسول صلى اللّه عليه وسلم أن لا يحكم بإيمان أحد إلا بعد أن يعرف أنه هل يعرف الحق في تلك المسألة، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر قوله في تلك المسألة بين جميع الأمة، ولنقل ذلك على سبيل التواتر، فلما لم ينقل ذلك دل على أنه عليه السلام ما وقف الإيمان عليها، وإذا كان كذلك وجب أن لا تكون معرفتها من الإيمان، ولا إنكارها موجباً للكفر، ولأجل هذه القاعدة لا يكفر أحد من هذه الأمة ولا نكفر أرباب التأويل.

وأما الذي لا سبيل إليه إلا برواية الآحاد فظاهر أنه لا يمكن توقف الكفر والإيمان عليه. فهذا قولنا في حقيقة الكفر[٤٠٨].

بالتأمل في قول الرازي رحمه الله، نرى أن حد الكفر لديه عدم التصديق، سواء لم يصدق بالجميع، أو لم يصدق بالبعض، وعدم التصديق هذا مدخل شائك للموضوع، لعلي أحسن وضع مدخل أدق منه عليه فتأمل، يا رعاك الله:

---

٤٠٨) مفاتيح الغيب للرازي

البلاغ المبين، والنذارة تسبق العذاب

لو أردتُ تلخيص ما سأبينه في الأبواب القادمة عن مفهوم حقيقة الكفر، فاعلم أن الكفر تكذيبٌ، [بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ]، [وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)] [وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)]

حقيقة التكذيب:

أما التكذيب: فلو علمنا أن الإيمان لغة بمعنى التصديق، ضدُّه التكذيب. يقال: آمَنَ به قومٌ وكذَّب به قومٌ، وفي التنزيل العزيز: [وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا] أي بمُصدِّقٍ.

فاعلم أن التفكير في المطالب الخبرية، أي التي يُراد التفكير بها بغية اتخاذ موقف إزاءها، هو إصدار حكم على تلك المطالب الخبرية، لإثبات وجودها أو لإدراك ماهيتها.

فمثلا لو جاءنا خبر أن رجلا ركب حصانا، فالواقع الخارجي الذي نريد أن نصدر الحكم عليه يتمثل بالحصان وبالرجل وبالهيئة المتمثلة بفعل ركوب الرجل على الحصان، والمطلوب هو أن نقيم علاقة تتمثل بإصدار حكم ننسب فيه إلى الخبر الصحة وإلى مضمونه بالصدق.

فإن طابق الخبرُ الواقعَ بأن كانت نسبته الذهنية أي المعاني التي تلج الفكر لمفرداته متمثلة بالرجل والحصان وهيئة الركوب، مطابقة للخارج الكائن أي للواقع، في الكيف، حكمنا بصدق الخبر، وصدقنا مضمونه. لأن العلم قد يتعلق بالنسبة الخارجية وقد يتعلق بالخبر عنها فالثاني تصديق للخبر والأول تصديق لمضمونه.

والمعروف أن الحكم إيقاع النسبة، بين الخبر، وبين الواقع الخارجي، وكشف اللبس في ذلك أن الحكم هو نسبة أمر إلى أمر بالإثبات أو النفي.

فهذا الحكم إما أن يوصل المرء إلى الاعتقاد، أي الايمان الجازم،-لأن العلم صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض،- إن طابقت الواقع، وقامت عليها الأدلة القطعية، بإثبات نسبتها الخبرية، ومطابقتها بالواقع.

وأما إن كانت أدلتها غير قطعية، فإما أن ينتج عن التفكير بها الشك أو الظن، فأما الشك، فهُوَ التَّرَدُّدُ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ بِلَا تَرْجِيحٍ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَر عِنْدَ الشَّاكِّ وَقِيلَ: الشَّكُّ مَا اسْتَوَى طَرَفَاهُ، وَهُوَ الْوُقُوفُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ لَا يَمِيلُ الْقَلْبُ إلَى أَحَدِهِمَا.

وأما الظن، فإدْرَاكُ الطَّرَفِ الرَّاجِحِ مَعَ احْتِمَالِ النَّقِيضِ، أي أن لا توصل الأمارات الدالة عليه إلى نفي النقيض نفيًا قاطعا، وَقِيلَ: الظَّنُّ أَحَدُ طَرَفَيْ الشَّكِّ بِصِفَةِ الرُّجْحَانِ.

ويقابله: الْوَهْمُ وهو الطَّرَفُ الْمَرْجُوحُ مُطْلَقًا، أو أن توصل الأمارات إلى ترجيح النقيض، مع عدم نفي الأصل نفيا قاطعا، فيكون الأصل المبحوث بمرتبة الوهم، ومثال ذلك: أنه إذا ترجح لدى مجتهد أن لمس المرأة لا ينقض الوضوء، فإن هذا الحكم في حقه ظني، والحكم النقيض منه، وهو أن لمسها ينقض الوضوء موهوم في حقه هو.

والتكذيب نقيض الاعتقاد أو الإيمان، وهو أن توصل الأدلة القاطعة إلى نفي الأصل، نفيا لا يبقي في النفس منه احتمال، فالمؤمن يُكذِّبُ بالباطل، أو بعد عدم الوقوف على وجه الدلالة في الأدلة القاطعة، كحال الكافر إذ يُكذّبُ بالحق، سواء لعدم وقوفه على وجه الدلالة، كحال الملحد بعد تفكير، أو بعدم وجود أدلة لديه يدرسها ابتداء، كحال من أعرض عن الأدلة، بل بمجرد رد الحق والصد عنه يكون مكذبا به، بعد إنذاره به كما سيأتي ان شاء الله.

ومعلوم أن الدليل لا بد قطعا أن يوصل إلى المدلول، عَلِمَهُ من عَلِمَهُ، وجَهِلَهُ من جَهِلَهُ، فالدليل: " هو ما يلزم من العلم به العلم بأمر آخر" فهو منصوب للدلالة على شيء آخر ويسمى الدال والشيء الآخر هو المدلول.

ومعنى ما يلزم أنه بالضرورة سيكون المدلول محصلا بالدليل وإن لم يتحصل فلن يكون دليلا.

من هنا، فأدلة إثبات وجود الله مثلا، هي أدلة على الحقيقة، توصل قطعا إلى إثبات وجوده، ويلزم بالضرورة الوصول لهذه النتيجة منها حين استعمال العقل الاستعمال الصحيح، فمن جهل مثل هذا الاستعمال، لا يسلب هذه الأدلة صفة أنها أدلة، فمشكلته هو في عقله وفهمه لا في الأدلة.

وهي ليست خاصة بزيد أو عبيد من الناس دون غيرهم، بل أي إنسان إن استعمل عقله الاستعمال الصحيح ودرس هذه الأدلة، فستوصله قطعا إلى مدلولها.

فهذه خمس مراحل واحتمالات للمطالب الخبرية: تكذيب، ووهم، وشك، وظن واعتقاد جازم.

والتكذيب له ثلاث صور: صورة تعرَّضَ صاحبها للحق المبين القطعي، أو تعرَّضَ الحقُّ المبين له، فأنكره كله، أو جحده أو عانده، أو استكبر عليه،، أو اعتقد نقيضه، أو لم يستيقنه، أو شك فيه فهذا كافر،

وصورةٌ تعرض فيها للحق المبين فصدق ببعض وكذب ببعض، وأعني بالبعض هنا القطعيات أو ما علم من الدين بالضرورة، فهذا كافر لتبعيضه الإيمان، لا يُقبل منه البعض ولا الكل،

وصورةٌ اعتقد فيها الحق، وأتى بفعل مكفر أو قول مكفر أو ارتد عن الحق بعد أن عرفه واتبعه، فالصورتان الأوليان تمثلان الكافر ابتداء والثالثة تمثل المرتد.

وفي كل ذلك فإن الكافر هو المكذب، بعد وصول النذارة إليه، ودليل ذلك: [كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى] وهو دليل على أن جميع أفواج أهل النار ما عذبوا في الآخرة إلا بعد إنذار الرسل.

سنستعين بالله تعالى، ثم بالربط بين خمسة مفاهيم لتحقيق معنى الكفر، وهي:

١. مفهوم إقامة الحجة، ووجوب وجود النذير، ويتفرع عنها التحقيق في: هل المطلوب وصول النذارة إليه بشخصه؟ أم يكفي وجود النذير؟ وهل كلف بالبحث عن الحق بنفسه؟ وهل كلف غيره بإيصال الحق له، فيحاسَبَ كُلٌّ على تقصيره؟ ثم إننا نجد الحق سبحانه قد أوضح طريق الوصول إلى الحق، وسد ثغراتها، فلم يترك الحق حبيس الصدور، بل أوجد آلية للوصول إليه، إقامةً للحجة، وتيسيرًا لسبيل وصول الحق للناس، سنحقق في ذلك ان شاء الله.

٢. ومفهوم المعجزة،

٣. والبلاغ المبين،

٤. والتكليف بالنظر، ويتفرع عنه البحث في

أ- هل يعذر بالجهل

ب- وهل يعذر بالغفلة،

ت- والبحث في دور العقل وحده هل يجب عليه وهل يستطيع الوصول لأصل الإيمان كله، فلا يُعذر حينها إن قصر في النظر، أم يجب أن يبلغه شيء من الوحي لتقوم عليه الحجة؟ فهل لو تفكر وعَبَدَ غير الله من دون أن تصله النذارة بالإسلام، هل يعذر أم لا؟

ث- والبحث في توزع المسئوليات عن إيصال الدعوة، وإقامة الحجة، بين المخاطَب بالنظر، وحامل الدعوة، والدولة الاسلامية، وبالتالي توزع إثم التقصير في النظر عليهم كل بقدر قصوره في أداء ما حُمِّلَ من أمانة، وبمقدار إمكانات كل منهم.

٥. وأهل الفترة، وأنه لا عذاب إلا بعد إرسال الرسل.

نستنبطها من الآيات التالية:

أولا: مفهوم إقامة الحجة على الناس بإرسال الرسل لهم.

[وَلَوْ[٤٠٩] أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى] ١٣٤ طه. [وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ

---

٤٠٩) "لما" حرف يدل على وجود شيء عند وجود غيره، و"لو" حرف امتناع لامتناع، و"لولا" حرف امتناع لوجود، فهذه أدوات الشرط، وهذا عملها، وفي هذه الآية استعمل الحق سبحانه: لو،

جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ] غافر ٤٩-٥٠، [وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ] فاطر ٣٦-٣٧

[رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)]

وهذه الحجة تقام على الناس بأمرين: أولهما البلاغ المبين:

[وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)]

[وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)]

فامتنع إذن وجود الإهلاك، عند عدم وجود الرسل، واستعمل في حجتهم: لولا، وهي حرف امتناع لوجود، فافادت امتناع وجود الاتباع لوجود عدم الرسل، أي أنه حين يوجد الرسل تقوم الحجة بوجوب الاتباع، وحين تنعدم الرسل، تنعدم الحجة بوجوب الاتباع.

[فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)]

وثاني الأمرين: الآيات والمعجزات التي تؤيد الرسل لإثبات رسالتهم:

[فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)]

[فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢)]

ورابع المفاهيم التي ستعيننا على تجلية حقيقة الكفر هو مفهوم أهل الفترة، وأن الله لا يعذب حتى يبعث رسولا، ويقيم الحجة على الناس:

[مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)]

لنخرج من هذا كله بأن الكافر هو من بلغته النذارة على وجه مبين، سواء نوقش فيها، أم كانت ميسرة له واطلع عليها، وأقيمت عليه الحجة، ولكنه عاند أو أنكر أو جحد أو استكبر، أو نافق، فاستحق بهذا العذاب،

وهنا ينبغي التحقيق في حالتين: حالة من لم يأته نذير، وهم أهل الفترة،

وحالة من كان بين ظهرانيه نذير، ولكن لم تصله النذارة على نحو مبين،

ويتفرع عن هذا حالين: حال من لم يشغل نفسه بالبحث عن الحق، ولم يعرض الاسلام على ميزان الصواب والخطأ، أي الغافل.

وحال من لم يسمع به، أي الجاهل، وحالت حُجُبُ اللغة وبراثن الواقع بينه وبين إدراك ما الاسلام؟ ونمثل على الأول بنصراني يعيش في أوروبا، وعلى الثاني ببوذي ورث دينه عن أبيه، وعاش في لاوس أو كمبوديا، قبل ثورة الاتصالات، في ظل نظام قهر وتعسف منعه من أن يسمع بالاسلام أو أن يدرسه، كمثال لتقريب الصورة لا لتقرير الواقع والإقرار به.

لنر في أي الحالات يقاس فيها على أهل الفترة، وفي أيها لا يقاس؟ وما هو الحد الأدنى الذي يُقال فيه: أقيمت عليه الحجة؟

ثم علينا أن نبحث في بلوغ النذارة، هل التحقيق فيها أن تُقام الحجة على المرء بصفته الفردية، ببلوغ النذارة إليه هو على نحو مبين، كأغلب أهل الأرض اليوم ممن لم يدرسوا الإسلام حق الدرس، ولم يُقدم إليهم الاسلام بصورته الصحيحة المقنعة التي تقوم بها الحجة، وانشغلوا بحياتهم ومعاشهم ولهوهم، هل نصفهم أم لا نصفهم بالنجاة ولا بالإيمان، فمنهم المشركون، ومنهم الملحدون بالخالق، ومنهم الكافرون، بمعنى أدق هل يُعذرون بالغفلة؟ وهل يختلف حالهم عن حال أهل الفترة لوجود النذير بين ظهرانيهم؟،

أم يكفي وجود النذير؟ ثم ننتقل بعد وجوده إلى البحث في هل كلفوا بالبحث عنه والنظر في أمره، فيكون مجرد وجوده حجة عليهم؟ خصوصا مع وجود آليات الوصول للحق وتكليف المسلمين بحمل الدعوة والقيام مقام النذير.

ويتفرع عن ذلك البحث في واجبنا نحن معاشر المسلمين إذ أننا نتحمل جزءا عظيما من مسئولية حمل الدعوة إليهم، وسيسألنا الله تعالى عنهم يوم القيامة، نسأل الله العافية، فلندقق إذن في مفهوم الكفر ما هو لنجلي حقيقته والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم:

سأسأل السؤال التالي، وهو من المسائل الشائكة، ولكنه يفيدنا لتجلية فهم موضوع حقيقة الكفر ما هي؟ فأقول: الكافر كما بيَّنَّا سابقا، قد يكون كَفَرَ منكرا الحق، أو معاندا، أو جاحدا، أو منافقا، وفي كل الأحوال رأينا أنه تفاعل مع هذا الحق بشكل ما، فإما أنه لم يقتنع به، أو لم يوله عناية كافية من التفكير والاهتمام، فلم يقف على وجه الدلالة في الأدلة، ليتبين دلالتها على الحق، فأنكره، أو أن يكون اقتنع به ولكنه جحد، أو أن يكون استكبر عليه بعد أن عرفه، أو أن يكون عرفه وأصر على الكفر أو نافق، في كل الأحوال تجد أن هنالك عنصر المعرفة قد توفر، سواء معرفة إجمالية أم تفصيلية.

المعرفة الإيجابية والمعرفة السلبية كلاهما يفضي للكفر:

فالإنكار: يكون بعد معرفة، والجحود يكون بعد معرفة، والعناد والاستكبار يكونان بعد معرفة، سواء معرفة إيجابية، بأن يعترف بهذا الحق ويتبين له الهدى على حد تعبير القرآن، ثم يشاقق، أو المعرفة السلبية بأن لا يقتنع، ولا يرى أن هذا هو الحق، ففي الحالتين أقيمت عليه الحجة ويكون كافرا، والنفاق قد يكون ثمرة أي من الأمور الثلاثة السابقة ولكن صاحِبَهُ تظاهر بالإيمان وقلبه منه خاو.

إننا حين نتفكر في معنى كلمة كافر وكفر، نراه غطَّى الحقَّ بغطاءِ الكفر، وسَتَرَ الحقيقةَ عن نفسه برداءِ الجحود أو الإنكار، فحتى يغطي الحقيقة، لا بد أن يكون عرفها، وَأعْرَضَ عنها، ليسمى كافرا، أو تعرض للحق ولكنه لم يأخذ به، كأن لم يعتقد أنه هو الحق، في كلا الحالتين لا بد أنه تفاعل مع الحق ثم كفر به، وكذَّب به، تماما كمن يكفر النعمة، فإنه حصل عليها أولا، ثم كفر بها، ولا يكون كافرا بالنعمة قبل أن يحصل عليها، هذا هو إنزال المعنى اللغوي على الواقع، ولكننا نريد أن نبين حقيقة الكفر من جهة الشرع، وهو بحث أعمق من الوقوف على معنى الكلمة اللغوية، فنقول:

مقدمة مهمة لمسألة التصديق والمعرفة:

إننا إذ نبحث في كيفية ستر الكفر للإيمان [كحال الكافر المرتد، غطى الكفرُ على إيمانه في قلبه ونفاه]، أو ستر الكفر للتصديق [كحال الجاحد استيقَنَ وشاقَقَ]، أو ستر الكفر للمعرفة [كحال من عانَدَ أو أنكَرَ، عَرَفَ وأنكَرَ وأبَى] عند الكافر، وطمْسه لمعالمه في قلبه، ينبغي لنا أن نسأل أنفسنا إن كان في قلب هذا الكافر نوعٌ من المعرفة أو التصديق، تمَّ سترهما بحجاب الكفر، ويتبادر للذهن أكثر صورة الكافر الذي أنكر الحق ولم يصدقه، وكذب به، ولم يقتنع به، ولكننا رأينا نوعا آخر إذ نتأمل في أحوال بعض الكافرين، ممن بين لنا القرآن الكريم خبايا نفوسهم، وأن قلوبهم صدَّقت ببعض قضايا الحق، تصديقا جازما، ولكنهم ستروا هذا التصديق وغطوه بحجب كثيفة من الجحود والعناد، فكفروا:

نقول هذا، لنتبين الترابط بين الكفر وضده في نفس المرء، وكيف ينفي الضدُّ ضدَّهُ ويمحوه.

البلاغ المبين:

معنى البلاغ المبين الإجمالي، أن يُؤتى على كل قضية من قضايا الاعتقاد بالأدلة القاطعة الواضحة التي تثبت صحتها، فلا يملك العقل بعدها إلا أن ينقاد للحق انقيادا عن رضا واختيار.

وأن تُسد كافة ذرائع الكفر، فلا تبقى للمرء من حجة يحتج بها أمام اللّه تعالى، فمن تغافل عن تلك الحُجة، فمشكلته هو أنه تعامى عنها، لكن الحق سبحانه وتعالى أقام دعائمها، عَلِمَها من عَلِمَها، وجهلها من جهلها، ونبَّه الحق سبحانه إلى آلية الوصول لتلك الحقيقة، سواء بسؤال أهل الذكر، أو بالتفكر، أو بالأدلة القاطعة التي هدمت أركان الباطل وأقامت دعائم الحق، أو بتطبيق الاسلام عمليا في الواقع، أو من خلال إيجاب التبليغ وحمل الدعوة، وما إلى ذلك حتى لا تبقى حجة لمحتج أمام اللّه تعالى، سواء الغافل اللاهي، أو الجاهل الذي قد سنحت له سانحة للتعرض لنفحات الحق، فكلاهما أقيمت عليه الحجة، أما الجاهل الذي لم تسنح له سانحة للتعرض لنفحات الحق، وحجب عنه بحجب كثيفة من القهر والإضلال، ولم تصله الدعوة بأي صورة من الصور، فقد يُعذر على جهله بالحق، وأمره إلى اللّه وقد يقاس على أهل الفترة واللّه أعلم.

التبليغ والإنذار وإقامة الحجة

مبحثنا هنا يقتضي فهم آلية وصول الحق للمرء على وجه يقيم عليه الحجة، وهذا الأمر يتطلب منا البحث في الآليات التي من الممكن أن يصل بها الخبر عن وجود القرآن، وأنه معجزة الرسول صلى اللّه عليه وسلم، التي ينبغي على المرء أن يتخذ حيالها إجراء اتباعه، والحال هنا هو إما أن الـمُبَلَّغ لم يسمع عن وجود الاسلام، أو لم يسمع أن القرآن معجزة، وأن محمدا عليه سلام اللّه نبي، فيكون التبليغ له إخبار بوجوده، أو أن يكون سمع به والمراد هو إقامة الحجة عليه، والتبليغ في الحالتين إخبار ولكن يتبعه إقامة أدلة، إذ أن الإخبار وحده لا يقيم حجة، ولا ينبني عليه الحكم ذاته الذي ينبني على التصرف الذي يتلو إقامة الحجة، والإخبار يتم بإحدى طرق ثلاث: الرواية، والشهادة، والتبليغ،

قال الأستاذ فتحي سليم رحمه اللّه تعالى: هنالك فوارق بين الرواية والشهادة والتبليغ، ولكل واحدة من هذه الثلاثة مقام توضع فيه وشروط متطلبة تختلف عن بعضها. وهي وإن كانت كلها أخباراً؛ إلا أن محل كل واحدة يغاير الأخرى، فالرواية إخبار، والشهادة إخبار، والتبليغ إخبار.

فالرواية محلها السُّنَّة والتاريخ واللغة. فيشترط في كل واحدة من هذه الثلاثة عند نقلها شروط في غاية الدقة والضبط والتوثيق... فالعدالة والضبط والثقة واتصال السند لا بد منها في الرواية....

أما الشهادة فإن محلها القضاء، وهي عبارة عن توفير البينات ليستبين الواقع أمام القاضي لينزل الحكم عليه....

أما بالنسبة للتبليغ فيُكتفى فيه بالواحد. فيُقبل إخبارُ الواحدِ وتبليغِه في أي أمر من الأمور، سواء كان التبليغ تبليغ أمر الحاكم أو القاضي أو الرسول أو السفير أو طالب النجدة أو غير ذلك، فإنه يُكتفى في هذه الأحوال بخبر الواحد. وهو ليس إلا مخبراً ومبلِّغاً، وإخباره وتبليغه لا يحمل صفة الإلزام، وإنما الإلزام آتٍ من أهمية الأمر المبلَّغ، وما يصحبه من حجج وبراهين-، أو من قوة من أرسل المبلِّغ ليبلغ الأمر المطلوب، فرسول الحاكم يحمل أمر الحاكم ممهوراً بختمه أو توقيعه. فلا يسع المبلَّغ إلا الحضور، فحضوره ليس آتياً من قوة الرسول حامل التبليغ، وإنما من قوة صاحب التبليغ أو من أهمية الأمر المبلَّغ. فالرسل الذين بعثهم محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى الملوك والأمراء، كانوا فرادى[٤١٠]، ولكن الأمر الذي كانوا يحملونه وكُلِّفوا

---

٤١٠) ولا شك أنهم كانوا مجهولي العدالة بالنسبة لمن حملوا الرسالات لهم من الملوك، وبالتالي فخبرهم ولا شك بالنسبة لمن أرسلوا إليهم لا يتعدى صفة الظني، وقد علمنا أن

بتبليغه يفوق في أهميته أي أمر من أمور الحياة الإنسانية على الإطلاق، فهو يتعلق بمعتقد أمم من الناس يعيشون من أجله، ويموتون من أجله. وعقيدة الإنسان أغلى ما لديه. ثم إنهم أتوهم من فوقهم، أي أتوا إلى ملوكهم وأمرائهم يحملون إليهم أمراً يحطّم عقيدتهم؛ التي ترجح بكيانهم وكيان أمتهم على الإطلاق وأمروهم بالتخلي عنها واعتناق عقيدة جديدة.

فالقوة في التبليغ هنا آتية من أهمية الأمر المبلَّغ من أفراد الرسل المبعوثين من قبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فيبقى عملهم تبليغاً لا أكثر ولا أقل. وهو وإن كان تبليغاً لعقيدة؛ ولكنه ليس دليلاً على العقيدة[٤١١]. وهذا التفريق مهم جدا، ويتسق تمام الاتساق مع مسألة البلاغ المبين، وإقامة الحجة، ثم بعد ذلك على الـمُبَلَّغ أن يتخذ إجراءات معينة يحاسب عليها بحسب ما وصله:

الشرع حرَّمَ اتباع الظن في العقائد، مما يدل على أن التبليغ هنا إخبار عن وجود الحق، ثم يتبعه نقاش وإقامة أدلة هي التي بها تقوم الحجة على المرسَل إليهم، أي أن الحجة لا تقوم بمجرد إبلاغ الرسل، وإنما بإقامتهم الأدلة والبراهين، ولا أدل على ذلك من أن الرسل أنفسهم، أي رسل اللّه صلوات اللّه عليهم أجمعين أُرفِدوا بالمعجزات لتدل على صدقهم، ولو كان يكفي مجرد إخبارهم لتقوم الحجة ما احتيج إلى المعجزات، وهم أصدق الخلق وأطهرهم وأعدلهم والأحرى بالاتباع، ولكن اللّه تعالى سن سنة المعجزات لإثبات نبوتهم، مما يعني أن إخبار الواحد لا تقوم به الحجة إلا بما يعضده من الأدلة أو البينات أو المعجزات.

٤١١) الاستدلال بالظني في العقيدة للأستاذ العلامة فتحي سليم رحمه اللّه تعالى، مختصرا.

قال العلامة تقي الدين النبهاني رحمه الله تعالى: ولا يُقال إن قبول تبليغ الإسلام هو تبليغ للعقيدة، لا يُقال ذلك لأن قبول تبليغ الإسلام قبول لخبر، وليس قبولا للاعتقاد بما أخبروا عنه، بدليل أن على المُبَلَّغ أن يعمل عقله فيما بلغه، فإذا قام الدليل اليقيني عليه اعتقده، وحوسب على الكفر به، وإذا لم يقم الدليل القطعي عليه لا يحاسب على الكفر به، فرفضُ الخبر بالإسلام لا يعتبر كفرا، ولكن رفض الإسلام الذي قام الدليل اليقيني عليه هو الذي يعتبر كفرا.[٤١٢]

أما التبليغ أو الإخبار فليس على المُبَلَّغ حُجة بمجرد التبليغ، وإنما الحجة فيما يحمل المبلِّغ من دليل قطعي سواء أكان عقليًا أم سمعيًا فالبحث في نفس الأمر المبلَّغ لا في مجرد التبليغ فالله سبحانه قد بعث الرسل إلى أقوامهم فرادى فليست الحجة على المبلَّغين في شخص الرسول وإنما الحجة فيما يحمل معه من حجة ودليل ومعجزة يثبت بذلك نبوته أو رسالته، أي أن الدين بأدلته ومعجزته هو الحجة ولولا ذلك لما كان من معنىً للمعجزات ولما كان لوجودها من داع لو كان مجرد إبلاغ الرسول تقوم به الحجة التي بيَّن الله أنه يريد إقامتها على الناس –وهو عنهم غني- فقد أرسل عيسى عليه السلام وأمده بمعجزة إحياء الموتى وغيرها فلم تكن الحُجة هي

---

٤١٢) ربط الأفكار والأحكام بالعقيدة الإسلامية.

شخصه عليه سلام اللّه وإنما الدليل القاطع الذي يحمله، وحُجَّةُ سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة هي الآيات المعجزات والكلمات البيّنات التي أذهلت العرب ببلاغتها والتي لا تنقضي عجائبها إلى يوم الدين فكانت هي الحجة على من نال شرف مشاهدة شخصه الكريم ولمن جاء من بعده فتدبر!

أنظر مثلا ما شرح به الامام النووي رحمه اللّه الحديث المروي في صحيح مسلم كتاب الرسول صلى اللّه عليه وسلم إلى هرقل حيث قال: في هذا الكتاب جمل من القواعد، وأنواع من الفوائد: ومنها: وجوب العمل بخبر الواحد وإلا فلم يكن في بعثه مع دحية فائدة، وهذا إجماع من يعتد به. انتهى.

فعد إرساله تبليغا للاسلام لا إخبارا بخبر يترتب عليه العلم فافهم، إذ أنه عد الفائدة منها وجوب العمل، وذلك لإن إرساله هو عمل تبليغ للدعوة، وطلب النظر في أمر الاسلام.

وقد نقل عنه هذا الرأي الامامُ ابن حجرٍ في شرحه للحديث المروي في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن باب [قل يا أهل الكتاب تعالوا] حيث قال ابن حجر رحمه اللّه: قال النووي: في هذه القصة فوائد، منها جواز مكاتبة الكفار ودعاؤهم إلى الإسلام قبل القتال، وفيه تفصيل: فمن بلغته الدعوة

وجب إنذارهم قبل قتالهم، وإلا استحب، ومنها وجوب العمل بخبر الواحد وإلا لم يكن في بعث الكتاب مع دحية وحده فائدة. انتهى[٤١٣].

ومن أحكام التبليغ أن على المبلَّغ أن يُعمل عقله فيما بلغه، فإذا قام الدليل القطعي عليه اعتقده، ومن هنا وجدنا أن اللّه في غير موضع من كتابه العزيز طلب استعمال العقل للوصول إلى حقائق الاعتقاد بل إلى أعظم حقائقه أي إلى وجوده عز وجل، ويحاسب بالتالي على الكفر به، أما ما جاءه عن طريق خبر الواحد إن لم يقم الدليل القطعي عليه فلا يحاسب على الكفر به أو على رده، فرفض الاعتقاد بناء على خبر الواحد لا يعتبر كفرًا لأنه أصلا ظني بنفسه محتاج إلى قرائن ترفعه من مرتبة الظن إلى اليقين كما مر، بله انه يحرم عليه الاعتقاد بناء عليه إن لم يقم معه دليل قطعي.

والدليل القطعي محل النظر هنا هو تأييد اللّه لرسوله عليه سلام اللّه بالمعجزة، وأدلة إثبات صحة العقيدة.

كذلك رفض الخبر بالإسلام إن كان هذا الخبر ظنيًا لا يعتبر كفرًا، أي لو جاء واحد خبره ظني إلى من كان على دين عيسى الحق أو على التوحيد ممن

---

٤١٣) الحديث المروي في صحيح مسلم باب الجهاد والسير كتاب الرسول صلى اللّه عليه وسلم إلى هرقل، وانظر فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن باب [قل يا أهل الكتاب تعالوا]، وانظر: مقدمة صحيح مسلم باب صحة الاحتجاج بالحديث المعنعن.

جاء قبل الإسلام وأخبره بظهور محمد ولم يصدقه فإنه لا يُعتبر كافرًا لكن لو جاءه بدليل كآيات من القران مثلا (وهي دليل قطعي لإعجازها، فلو جاء علي رضي اللّه عنه بآيات من القرآن، يبلغ بها عربيا في الصحراء، تقوم بها الحجة لأنها معجزة بذاتها، فتنبه لهذا، فالمعجزة تكفي لوحدها للتدليل على صدق الدعوة، إذ بها صدقنا خبر الرسول عليه السلام وهو واحد) ولم يصدقه فإنه يكفر، إذن فرفض الإسلام الذي قام عليه الدليل القطعي كفر- واللّه أعلم-!

ولنلاحظ في هذا كله أننا نتكلم عن الإخبار عن الاسلام، عن النبي، عن القرآن، لمن لم يسمع به، مثل الملوك والأكاسرة والقياصرة الذين راسلهم الرسول الكريم عليه سلام اللّه، ليخبرهم عن الاسلام،

لذلك، فحال من سمع عن الاسلام اليوم ليس كحالهم من حيث النذارة، فقد طبق خبر الاسلام الأرض، وبقي الشق الثاني من البحث وهو موضوع إقامة الحجة بعد وصول الخبر عن الاسلام.

أما وقد بيّنّا بعض أحكام التبليغ فقد صار لزامًا أن نرجع لمسألتنا فنقول أن رسول اللّه حرص على إقامة الحجة على من بلغهم من الملوك، وحملهم وزر أقوامهم إن منعوهم من اتباع الحق، ولكن لم تكن حجته هي الخبر الذي رواه عنه واحد بل ما زوده لهذا الرسول من حجج وبراهين، فرسله لم يكونوا

سعاة بريد ولا رواة أخبار يلقونها في وجه الملوك ويعودون، بل كانوا علماء دعاة معهم من الأدلة ما يكفي لإقناع القوم، فنجد مثلا أن دحية بن خليفة الكلبي رضي اللّه عنه قد ناقش قيصر وبين له علامات النبوة ودلائل الحق ما جعل قيصر يعلن إسلامه، فهل كان هذا الأمر منه لمجرد سماع خبر النبي من أعرابي كان الروم يستعبدون قومه في الجاهلية؟ بل إنه جمع رهبانه في قاعة أمعن في إغلاقها وحراستها وبرز عليهم من الشرفة وقرأ عليهم كتاب رسول اللّه وأعلن أنه على دينه فلما رأى منهم بوادر العصيان خاف على ملكه وغلبته الدنيا فارتد، كذلك كبير رهبانه صغاطر الذي أسلم وثبت حتى ذبح وما ارتد أكان هذا كله نتيجة خبر الواحد أم حججه وبراهينه، وتصديق الخبر عنه الذي في التوراة والانجيل، وكانوا ينتظرون زمانه، خاصة إذا ما علمنا أن الإسلام وقتها كان على وشك الاكتمال وكان الصحابة على علم بعقائد النصارى وإثبات خطئها، ثم انظر مثلا إلى نص في رسالة النبي عليه السلام إلى النجاشي فيه: فخلقه اللّه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، ففيها الدليل العقلي الصريح الذي يغفل عنه معظم النصارى!! وانظر مثلا فعل رسوله إلى عُمان وكيف جاء بالقوم مسلمين بفضل اللّه وحنكة رسول رسوله وحسن تدبيره[٤١٤] كذلك كان عندهم العلم الذي به تقوم

---

٤١٤) أنظر تاريخ الطبري ج٢ ص٦٤٤ –٦٥٧ دار المعارف

الحجة على الوثنيين وغيرهم فقد كانوا دعاة علماء ولا ننسى أن هـذه الكتـب كانت من الأعمال السياسـية للدولـة الإسـلامية لبيـان أن هـذا الـدين لـيس للعرب دون غيرهم بل للناس كافة!

المسئولية عن كفر الكافر وحمل الدعوة إليه:

ثم إنه يترتب على ذلك تحمل المسؤولية عن الكفر على كافة المستويات، فالذي خوطب بالبحث عن الحقيقة، يتحمل مسؤولية تقاعسه عن ذلك، وحامل الدعوة المسلم، يتحمل مسئولية تقصيره في حمل الدعوة، إذ أنه يقوم مقام النذير، فقد أُمِرَ بالإبلاغ، وأُمرَ بحمل الدعوة، وأنيطت به مسئولية حمل الهداية إلى الناس، وسيحاسب على التقصير في أدائها،

[وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ] الانعام١٩، قال عبد الرزاق: عن معمر عن قتادة، في قوله تعالى: [لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ] إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " بلغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله " وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو كالذي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ينذر بالذي أنذر، ونحو هذا من الأحاديث كقوله " من بلغه هذا القرآن فأنا نذيره "

وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن، فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا التفسير فيحصل في الآية حذف، والتقدير: وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به، ومن بلغه هذا القرآن إلا أن هذا العائد محذوف لدلالة الكلام عليه،

إذن فيتقرر من هذا مسئولية حمل الدعوة الاسلامية على المسلمين وأن يقوموا مقام النذير.

وكـذلك الدولـة الإسـلامية تتحمـل مسـئوليتها فـي أداء ذلـك الواجـب العظيم، فهي تطبق الاسلام في الداخل ابتداء، ثم إن اللّه تعالى قد شرع لها حمل الدعوة، وأمرها به، وأمرها بالجهاد لكسر الحجب التي تقف بـين النـاس وبين أن يحيوا حياة في ظل أحكام الاسـلام وعدلـه، ليعيشـوه واقعـا إسـلامياً يتفيأون ظلالـه، فيسـعدوا بتطبيقـه علـيهم، ويـروا المثـال الحـي مـاثلا أمـام أعينهم، فيعينهم على البحث عن الحق، فإن قصرت الدولـة فـي تحمـل هـذه المسئوليات أثمَ أصحابُ القرار فيها، وأثـم المسـلمون إذ لـم يحملـوهم علـى القيام بواجبهم هذا.

ثم إن الأمة الاسلامية قد جُعلت خير أمـة أخرجـت للنـاس، وهـي مطالبـة بالكفر بالطاغوت نظامَ حياةٍ، والاستقامةَ على أمر اللّه كي تتحقق فيها هداية اللّه فلا تضل، وإضافة إلى ذلك فهي مسئولة عن حمل مشعل هـذه الهدايـة للأمم كافة، لتشهد عليهم، وعلى حسن أداء هذه الأمانة سـيوقفها اللّه بـين يديه ليسألها: [وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَـهِيداً عَلَـى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَـا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ تِبْيَانـاً لِّكُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ] ٨٩ النحل

فإذا التزمت الأمة بأمر ربها استحقت المكانة العظيمة التي أعدها اللّه لها:

[وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً] ١٤٣ البقرة

فعلى ماذا ستشهد الأمة؟ وكيف تبلغ الأمة المنزلة العظيمة بأن تكون أمة الوسط: العدالة والخيرية؟

يقول رب العالمين سبحانه: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ] ١١٠ آل عمران.

فخيرية الأمة تتحقق بتحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والايمان باللّه، ولقد قدم اللّه في هذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان باللّه، كما أن سائر الأمم التي خلت ممن خلت فيهم رسل اللّه كانت رسلهم تأمرهم بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ويؤمنوا باللّه، فكيف جعل اللّه هذه الأمة خير الأمم؟

لا شك أن الربط المحكم بين شهادة الأمة على الأمم بالمنهج الرباني الذي أمر اللّه أن يقوم الناس كل الناس عليه، الذي يضمن بتطبيقه إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، بحمله إليهم بالدعوة، فإن أبوا فيُقاتَلون عليه حتى يدخلوا في الدين عن رضا واختيار أو يدخلوا في سلطان

الاسلام فيطبَّق عليهم الاسلام جبرا عنهم أو برضاهم، لإحقاق العدل في الأرض، ليحل محل أنظمة الجور البشرية، دون قهر على تغيير الدين، فإذا ما عاشوا في ظل الاسلام، سهل عليهم مقارنة الحق بالباطل، ورأوا الحق من غيرما حجب كثيفة من الدعاية المغرضة للباطل، والتشويه المقيت للحق، فيسهل عليهم الاقتناع به،

هذا الأمر الذي تفردت به هذه الأمة عن سائر الأمم جعلها خير الأمم، وجعل لها الشهادة على الأمم جميعا، وكل رسول إنما بُعث في قومه إلا محمداً ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم فقد بُعِثَ للناس كافة بشيرا ونذيرا، والمسلمون حملة دعوة لهداية الناس وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان والأنظمة والشرائع إلى عدل الاسلام ورحمته، فهذه مسئولية عظيمة ألقيت على كاهل هذه الأمة العظيمة، بقيامها بها تكون خير أمة أخرجت للناس،

فمن دخل في هذا الأمر تحقق فيه قول رب العالمين سبحانه:

[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ](٣٦) النحل

فمدار شهادة الأمة على الأمم هو تطبيق شرع الله على البشرية كافة لتجنيبها عبادة الطاغوت، لإخراجها من جور الأديان والشرائع والنظم والقوانين الوضعية أو المحرفة إلى عدل الاسلام، فمن اتبع واستقام على أمر الله كما أمر الله فقد رَشَدَ ومن زاغَ ضَلَّ وحقَّتْ عليه الضلالةُ فاستحقَّ العذابَ.

من هنا قلنا أن الأمر يتعدى الناحيةَ الفرديةَ، بأن تقام الحجة على كل فرد بعينه، لتكون المسئولية أعظم، بأن يقوم الاسلام مثالا حيا في الواقع، ونظامَ حياةٍ يقيمُ أركانَ الحقِّ والعدلِ، ويمنعُ الظلمَ والجورَ، ويزيلُ الأغشية التي على القلوب، فيسهل على البشر الانقياد للحق، لذلك حرص الرسول الاكرم عليه سلام الله على إقامة الدولة الاسلامية لتسهل عليه تبليغ الدعوة:

وقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وقوله [وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا] قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له. وقال قتادة فيها: إن نبي الله صلى الله عليه وسلّم علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسُلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله،

ولإقامة دين اللّه، فإن السلطان رحمة من اللّه جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكَلَ شَديدُهم ضَعيفَهم[٤١٥].

فهذه الأمم التي تحيا في ضلالة اليوم، ما أحوجها إلى الدولة الاسلامية التي تقيم لها مثال الاسلام حيا في الأرض، وتعينُ حَمَلَةَ الدعوة على تبليغ الدعوة للناس كافة، فينقذوا البشرية من براثن الكفر، وأنّى لهم أن يتحقق لهم ذلك بصفتهم الفردية، وأنّى للبشرية كافة أن تجد لكل فردٍ فيها فردًا يبلغُهُ الدعوة والنذارة ويقيم عليه الحجة لينقذه من الجهل والغفلة، إلا أن يقيم المسلمون الدولة الاسلامية فتنطلق بطريقتها الشرعية في حمل الدعوة، بالحكمة والموعظة الحسنة، والدعاية، وتطبيق الاسلام، ثم بالجهاد، فيسهل حينها أمر انقياد البشرية للحق وإخراجها من الظلمات إلى النور، فليعلم من يتقاعس عن واجب إقامة الدولة أيَّ فرضٍ عظيمٍ قد ضَيَّعَ، وأية مسئولية عظيمة ألقيت على كاهليه قد قصر في تحملها، وأية تبعات عظيمة سيلقاها أمامَهُ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم!

ثم ها أنت ترى بأم العين أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما قام في مكة يدعو لدين اللّه، لَـمَّا يؤمن معه إلا القليل، ولكنه بعد أن أقام الدولة في المدينة، ومكن أركانها، دخل الناس في دين اللّه أفواجا، فالشاهد هنا أن

---

٤١٥) تفسير ابن كثير

طبيعة النذارة، وطبيعة حمل الدعوة، وطريقة الاسلام في نشره بالشكل المفضي إلى التغيير الجذري على مستوى البشرية جمعاء إنما هو توأم تطبيق الاسلام في دولة، تحمله، وتحمل الدعاية له، والدعوة إليه، وتطبقه مثالا حيا يمشي على رجلين، فلا غرو إذن أن تزداد الشُّقَّةُ بعدا بين وصول الحق للناس كافة، وإقامة الحجة عليهم، وبين ما نصبوا إليه نحن معاشر المسلمين من إبلاغهم أمر اللّه وإقامة الحجة عليهم، ودعوتهم للحق، طالما أن الدولة الاسلامية غائبة عن الوجود، والباطل يرتع ويشوه بدعايته المغرضة المقيتة معالم الحق!

الحد الأدنى من النذارة الذي به تقام الحجة:

فلنسأل أنفسنا عن الحال الذي عندما يصل إليه المرء يُقال أنه بلغه الأمر على وجه مبين، وأقيمت عليه الحجة، ووجب عليه الإنضواء تحت لواء الحق، وإن لم يتبع حينها كان كافرا، لنسأل أنفسنا بعدها عن حال الجاهل والغافل، البعيد النائي الذي لم يصله الحق، هل هو كافر؟ هل يعذب؟ هل يشبه أهل الفترة في واقعه؟ وهي لا شك منطقة حرجة وعرة المسالك نسأل اللّه تعالى أن يجعل حَزَنها سهلا لنا بكرمه:

لنبدأ أولا بتجلية مفهوم البلاغ المبين:

[وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ]

قوله تعالى [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ]، فإن ظاهر مفهوم هذه الاية ان الكفر حاصل في حالة عدم الانذار، أي في حالة عدم الدعوة على وجه يلفت النظر.

[وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١)]

فالآيات موجودة، فمن طمس الباطلُ معالمَ فِكره، لم تغن عنه الآيات مع أنها تملأ جنبات الكون، بل جنبات نفسه التي بين جنبيه، فحال هذا لا تغني عنه النذر، ولكن هذا لا يعني أن اللّه تعالى تركه هاملا، بل إنه أرسل إليه الرسل بالبلاغ المبين، ليقيم عليه الحجة فتأمل!

لأننا يجب أن نفهم هذه الآيات على ضوء الآيات الأخرى لنخرج بالفهم الصحيح الدقيق!

فإذا وعيت هذا، قلنا أن البلاغ يجب أن يكون مبينا، وقد بين رب العزة سبحانه أن الرسل يبلغون رسالات ربهم على نحو مبين يستقيم معه أن

يقيم اللّه تعالى الحجة على الخلق، فيأخذ مسيئهم بالحق أخذا، لكن هذا البلاغ المبين يشمل كل قضية من قضايا الايمان، عليها أدلة مبينة واضحة جلية، ولكن ليس المطلوب حتى نقول أن الحجة قد قامت أن تدرس كل تلك القضايا، وتنجلي دلائل الحق عليها كلها ثم يكون المرء وقتها مطالبا باتخاذ إجراء الإيمان، لا يقال هذا، بل إن النذارة تحصل على نحو مبين بأقل من هذا كله، وسنفصل بعد قليل في الحد الأدنى المطلوب منها، وملخصه أن يستعمل العقل ابتداء لإثبات وجود اللّه، وهذا لا حاجة للرسل ولا للمعجزات لبلوغه، ومن ثم تتحقق النذارة التي تقام فيها الحجة بوصول مقدار آية من القرآن يفهمها، ويدرك أنها معجزة عجز الخلق كلهم على الاتيان بها، فيثبت له بذلك صدق الرسول صلى اللّه عليه وسلم، هذا إن لم يكن من أهل الكتاب، أما إن كان من أهل الكتاب، فيكفي أن يسمع بالاسلام، أو بمحمد صلى اللّه عليه وسلم لتقوم عليه الحجة، لوجود خبره في الكتب، واللّه أعلم.

بعد سماعه بخبر الاسلام، ووصول القرآن إليه، وتمكنه من الوصول للأدلة بِلُغَته، يجب عليه النظر، والتمعن والتفحص ليتبع الحق، ولا نقول هنا يؤمن لمجرد سماع آية إن لم يكن ممن يحسن البلاغة وتحسس موضع الإعجاز فيها، بل نقول أن الحجة قامت عليه بوجوب النظر واستعمال العقل، فإن توفرت الحجج القاطعة بلغته، فسواء وعاها وأدرك وجه الدلالة فيها، أو

لم يعيها فقد أقيمت عليه الحجة وإن لم يؤمن بها كان كافرا، وأما إن لم تتوفر بلغته، أو بلغة يفهمها، فلا تكون الحجة قد قامت عليه. والله أعلم.

قال الإمام النبهاني: (الواجب على الدولة ان تبلغ الدعوة على وجه يلفت النظر، لان الله يقول [و ما على الرسول الا البلاغ المبين] و كلمة المبين وصفٌ مفهمٌ، و لذلك تكون قيدا للتبليغ...) انتهى[416]

---

416) المادة ١٧٥ من مواد دستور الدولة الاسلامية- يعتبر إظهار عظمة الأفكار الإسلامية في رعاية شؤون الأفراد والأمم والدول من أعظم الطرق السياسية.

هذه المادة مما يجب على الدولة أن تقوم به، فهو فرض وليس مباحاً. وذلك أن الواجب على الدولة أن تبلغ الدعوة على وجه يلفت النظر، لأن الله يقول: [وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين]، وكلمة المبين وصف مفهِم، ولذلك تكون قيداً للتبليغ. ولا يتأتى تبليغ الدعوة على وجه يلفت النظر إلاّ بإظهار عظمة الأفكار الإسلامية. ومن عظمة الأفكار الإسلامية معاملة الدولة الإسلامية للذمي والمستأمَن والمعاهِد، وكون الحاكم منفذاً للشرع لا متسلطاً على الناس، وكون الأمّة تحاسِب الحاكم بانضباط تام. فكما تجب عليها محاسبته تجب عليها طاعته ولو ظلم، ويحرم عليها أن تطيعه في معصية، وتتمتع بحق الثورة تمتعاً تاماً، ويجب عليها أن تثور إذا رأت كفراً بواحاً، ويتساوى فيها الحاكم والمحكوم في كل شيء، وتشكو الحاكم كما تشكو أي فرد في الحقوق أمام أي قاض، وتشكوه لقاضي المظالم إذا خالف الشرع في قيامه بالحكم، إلى غير ذلك من الأفكار، فإنه يجب إظهارها وإبراز العظمة التي فيها حتى تبرز عظمة الإسلام، وحتى تكون بتبليغه على وجه يلفت النظر. وإظهارها ليس من الأساليب السياسية وإنما هو من الطرق السياسية.

على أن الحكم الشرعي أن قتال الكفار قتالاً فعلياً لا يجوز إلاّ بعد تبليغهم الدعوة، أخرج الطبراني في الكبير عن فروة بن مسيك المرادي، قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

لقد كان من رحمة الله تعالى بالخلق أن جعل الحق واضحا جليا، سهلا، بَيِّناً، فقال عز من قائل: [قد تبين الرشد من الغي]: ومعنى [تَّبَيَّنَ] انفصل وامتاز، فكأن المراد أنه حصلت البينونة بين الرشد والغي بسبب قوة الدلائل وتأكيد البراهين، أي تميز الحق من الباطل؛ والإيمان من الكفر والهدى من الضلالة بكثرة الحجج والآيات الدالة، إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الإقامة على الكفر إلا أن يُقْسَرَ على الإيمان ويُجْبَرَ عليه، فكأن الآية تقول: بعد كل هذا الوضوح والبيان في الدين، لم يبق على صاحب اللب إلا أن يدخله، إذ لا يتصور قهره على الدخول فيه ولا يحتاج لذلك لشدة ما فيه من الوضوح، فطبيعته إذن أنه مبين، وقد أُقيم على قواعد من الوضوح يسهل الوصول إليها، لذا فالحجة قائمة، وقد سهّل الله على الخلق استبانة الحق من الغي،

فقلت: يا رسول الله، أقاتل بمن أقبل من قومي من أدبر منهم؟ قال: نعم، فلما أدبر دعاه، فقال: ادعهم إلى الاسلام، فإن أبوا، فقاتلهم، وأخرج نحوه الترمذي، وعن ابن عباس قال: ما قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما حتى دعاهم، أخرجه الدارمي وأحمد والحاكم، وهذا دليل على وجوب الدعوة إلى الاسلام قبل القتال. وحتى تتم الدعوة إلى الإسلام لا بد من تبليغهم الدعوة على وجه يلفت النظر. ومن هنا كان إظهار عظمة الأفكار الإسلامية فرضاً لأنه به يحصل التبليغ على وجه يلفت النظر. فهو من أحكام الطريقة وليس من الأساليب. من كتاب مقدمة الدستور أو الأسباب الموجبة له.

واجب الوصول للحق وإيصاله يتوزع على صُعُدٍ ثلاثة

وتوزع واجب إظهار وجه الحق واستبانته على صُعُدٍ ثلاثة، ينبغي فهمها بدقة:

أما الصعيد الأول، فالإنسان الذي يحيا في هذه الدنيا، عليه واجب البحث عن هذا الحق، ودراسته، وقد أعطاه اللّه العقل وجعل تكليفه منوطا بوجوده، وأعطاه الدلائل جلية واضحة يسهل عليه إدراكها ولكن الحجة لا تقوم إلا بالمعجزات والنذارة، لا بالعقل وحده.

وأما الصعيد الثاني: فصعيد الأفراد من المسلمين، والجماعات والأحزاب، فقد أناط بهم مسئولية حمل الدعوة الاسلامية إلى غير المسلمين وسيحاسبون عليها، ويتحملون واجب إظهار هذا الحق في نطاق قدرتهم وطاقاتهم كأفراد، وإمكانياتهم كأحزاب، فإن قصروا في أداء واجباتهم حوسبوا على ذلك.

وأما الصعيد الثالث فهو أهم الصُّعُدِ كلها، وأكثرها إيتاء للأُكُل، وهو صعيد مسئولية الدولة الاسلامية أن تحمل الدعوة للاسلام لغير المسلمين على نحو مبين واضح، ويكون ذلك بالبلاغ المبين، وبتطبيق الاسلام في

الداخل والجهاد لتطبيقه في الأرض[٤١٧]، فإن طريقة الاسلام في نشره تمثلت بهذين الأصلين: الدعوة والجهاد من جهة، وتطبيق طريقة العيش الاسلامية من جهة ثانية، حتى يرى البشر كلهم الاسلام حيا يمشي على رجلين في الواقع، فيروا العدل والحق ينتقل بالبشرية من دركات الجاهلية والكفر إلى معارج الايمان والبشر، فتنشرح له قلوب الخلق وتهفو له أفئدتهم، فيتبعوه وينقادوا له عن رضا واختيار.

فإذا لم تكن في الأرض دولة إسلامية تطبق الاسلام في الواقع وتحمله للخارج، فوجب على المسلمين الانشغال بإقامتها، وأُعذر منهم من انشغل بإقامتها بعد أن يستفرغ وسعه في حمل الدعوة لغير المسلمين أيضا بحسب أولوية إقامة الفروض إذا تدافعت، فيُقدَّمُ الفرض الأكبر على ما كان دونه،

---

٤١٧) معلوم أن الاسلامَ يُحَرِّمُ إكراه غير المسلمين على قبول العقيدة الاسلامية، لا إكراه في الدين، والاسلام لم يُنشر بالسيف، ولم يُقهر غير المسلمين على الدخول في الاسلام بالسيف يوما، ولم تُقم لهم محاكم التفتيش عن عقائدهم كما يفعل الرأسماليون المجرمون اليوم، وكما فعلت الكنيسة الاسبانية لما قهرت المسلمين على تغيير عقائدهم بعد سقوط الأندلس، ولكن الاسلام لا يترك لشرائع البشر أن تحكم البشر بما فيها من ظلم وتعسف وجور وفساد، بل يقرر لهم أن الحق والعدل المطلقين لا يقومان إلا من خلال شريعة الاسلام، فيجاهد لفرض القوانين الاسلامية في واقع الحياة، وهي التي تضمن للذمي أن تراعى حقوقه، ويتساوى أمام القضاء مع أمير المؤمنين نفسه، ومن آذاه فقد آذن بحرب من اللّه ورسوله، فالجهاد إذن إنما هو لفرض طريقة الاسلام في العيش، ولتطبيق الشريعة الاسلامية في الأرض، فافهم.

إذا لم يستطع الجمع بينهما، وأما إذا استطاع، فلا بـد مـن القيـام بـالواجبين معا بحسب طاقته وقدرته، واللّه تعالى أعلم.

قلنا أن الشق الأول من إقامة الحجـة علـى الخلـق أن يكـون الـبلاغ مبينـا، وأن الشق الثاني لهـا هـو أن يؤيـد الرسـل والأنبيـاء بـالمعجزات الدالـة علـى صدق ادعائهم النبوة،

المعجزة

فما هي الحاجة إلى المعجزة إذا كانت الأدلة وحدها كافية؟ بمعنى آخر، لو نظر المرء في صفحات الكون أو في صفحات نفسه، لتوصل إلى الخالق، فهل هذا يكفي ليتوصل إلى صدق العقيدة والإيمان، فلا يحتاج حينها أن يأتي الرسول بمعجزة؟

ليكن معلوما أن ثلاثة أمور تشكل أساس الإيمان، لا يستقيم من دونها، وحين يبحث المرء عن الإيمان ليعتنقه، فإنه سيسلك طريقا يمر بثلاث محطات رئيسة يُبنى عليها سائر الإيمان:

نبحث في موضوع طريق الايمان مسألة الوجود، وجود الله ومسألة إثبات صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وإثبات وجود الاعجاز في القرآن الكريم، وهي ما تكفينا في مسألة طريق الايمان لنبني أساسا راسخا للايمان، أي أصل الاعتقاد.

إذن فاعلم أن دور العقل في أمور الاعتقاد أن يتوصل إلى أصل الايمان أي إلى أساس الاسلام، وأساس الايمان هو اليقين القطعي بوجود الإله، واليقين القطعي بأن القران كلام الله، واليقين القطعي بأن محمدا رسول

الله. هذا اليقين القطعي بهذه الثلاث معا هو أساس الاسلام وعنها تتفرع جميع عقائد الاسلام وأحكامه، وتبنى عليه،

والعقل حَكَمٌ في هذه الأصول الثلاثة، ووظيفته بعد الاقتناع بها تنتقل من وظيفة الحَكَم إلى وظيفة الفاهم ليتبع بعد أن تبين له الرشد من الغي وتيقن أن هذا هو الحق.

فقد قررنا أن العقل يستطيع الاستدلال على وجود الله تعالى، ولكن عليه بعد ذلك أن يستدل على أن محمدا رسوله، فعليه إذن أن يبحث في دليل صحة نبوته لله تعالى، وطريقها أن يأتي محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم بالمعجزة التي يخرق الله تعالى له فيها السنن الكونية، ليؤيده بهذا الخرق فيمتاز عن مدعي النبوة الكذابين، فيثبت صحة أنه هو نبيه المرسل رحمة للعالمين،

ومعجزته هي القرآن، فسيبحث العقل ولا شك في إثبات أنها معجزة، فيقبل التحدي، ويثبت له أنه عاجز عن الإتيان بمثلها، أو بعشر سور منها، أو بسورة منها، بل بحديث مثلها مهما قل حجمه، أو يعلم يقينا عجز من خوطبوا بالتحدي عن الإتيان بشيء مثله، فيثبت للعقل عندها أن هذه معجزة خالدة أبدية، تثبت صدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وكما أسلفنا

هذا الحد الأدنى من النذارة يكفي لإقامة الحجة، وبعدها يكون دور العقل البحث والاستقصاء والنظر حتى يتبين له الحق ليتبعه.

سؤال وجوابه:

السؤال: فهمنا منك أن توفر الإنذار والحجة للمُبلَّغ وسماعه بهما ينتج عنه حصول التبليغ وبالتالي إن أنكرها أو جحدها فقد استحق العذاب ولو لم يُعمل عقله، لأن الواجب عليه أن يُعمل عقله فيما بُلّغ به. وأن الأية من القرآن تحمل الإنذار والحجة، فالقرآن معجزة الرسول عليه السلام فهو الحجة، وكذلك خطابه النذارة.

فإن كان المُبلَّغُ فصيحَ اللسان فإن آيات القرآن تكون حجة ونذارة له، فهو يفهم الخطاب فيتحقق الإنذار، ويُدرك الإعجاز لأنه فصيح اللسان.

ولكن من لا يعرف العربية، فترجمة القرآن له تجعله يفهم الخطاب فتتحقق النذارة، ولكنه ليس فصيح اللسان ليدرك الإعجاز فبالتالي لا تتحقق الحجة، ولا يثبت له أن الرسول عليه سلام الله نبي،

وقد يُقال له: أن القرآن قد أعجز الفصيح فهو معجز لك، وهذا يعني.. أن الأمر يحتاج معه إلى جلوس وكلام وبيان.. وليس سماعه لآية معجزة تكفيه كما تكفي الأعرابي فصيح اللسان.

وبالتالي تلاوة الآيات على العرب أهل الفصاحة والبيان تكفي للإنذار وإقامة الحجة فيتحقق التبليغ الذي يترتب على إنكاره عقاب، ولكن الأعاجم لا

تكفي معهم تلاوة الآيات وترجمتها لهم حتى يتحقق التبليغ فيترتب العقاب على انكاره،

فالنصوص التي وردت بأن الأية تحمل البلاغ بالإنذار والحجة هي للعرب أهل الفصاحة والبيان لا للعجم؟ وجزاكم اللّه خيرا...

الجواب:

الحمد للّه والصلاة والسلام على رسول اللّه:

اعلم يرحمك اللّه أن المعجزة تثبت صدق ادعاء مدعي النبوة أنه نبي من اللّه، والمعجزة بحد ذاتها هي دليل، أليس كذلك؟

هي دليل على أنه نبي، والدليل هذا عقلي، والتعامل معه مثل التعامل مع أي دليل

وقد ثبت أن القرآن تحدى، وثبت عجز الجن والانس عن القيام بالإتيان بسورة من مثله،

ثبت العجز، وقامت الحجة أي قام الدليل على أن الرسول هذا رسول من اللّه تبارك وتعالى.

إذن: هناك مسألتان منفصلتان:

كون القرآن أعلى مراحل البلاغة والفصاحة، و يمكن للعربي أو من تعلم اللسان العربي أن يدرسه ليرى سموه وبيانه وخطابه، فيقف على أنه كتاب راق ليس له نظير، وأنه نمط جديد من الكلام لم يرق لمثله كتاب آخر، لا على مستوى الكتاب كله ولا على مستوى أقصر سورة منه.

وكون القرآن معجز، وهذه المسألة عبارة عن ثبوت وجود تحد، وثبوت عجز المتحدين عن الاتيان بشيء ينقض التحدي، ومن أراد أن يختبر فليجرب بنفسه أن يأتي بمثله وإلا فهو عاجز.

فهاتان مسألتان منفصلتان، رغم أنهما متداخلتان:

منفصلتان من حيث أن الأولى تلزم البعض لتقوم عليه الحجة ولا تلزم الكل.

والثانية ملزمة للكل.

فصاحب الصنعة، والبليغ، ومن يستطيع تذوق النص، والناقد، والأديب، وأمثالهم، يمكنهم دراسة الأولى للوصول للثانية، فيقفون بأنفسهم على وجوه البلاغة، ومواطن الفصاحة، ويتذوقون النصوص تذوقا بلاغيا أدبيا،

بينما الناس العاديون، ومن لم يكن صاحب الصنعة، فقد لا يستطيع تمييز السمو القرآني بسهولة، ليميزه عن غيره من الكلام، ويتذوقه ليدرك

أنه معجز بمجرد قراءته، مع أنه قد يدركه في مواطن وسور وآيات منه، إلا أنه لا يستطيع بسهولة أن يميز كل نص، وكل آية، أنها في قمة البيان، وذلك طبيعي لأن التذوق، والنقد ومثل هذه الدراسة تحتاج لأصحاب اختصاص، أو لمن يدرسها، أو لمن ملك الذائقة الأدبية، أو لمن تمرس عليها، وهكذا.

لذلك فعجز أهل الاختصاص عن تقليد القرآن ومحاكاته، ودراسة أهل الاختصاص لبلاغته وفصاحته، تكفي للتدليل على أن القرأن معجز.

فيقوم الدليل بهم، ويلزم غيرهم، لأنهم عشرات الملايين عبر التاريخ، ولأن منهم أعداء الدعوة من الكفار الفصيحين البلغاء، ومنهم المستشرقين والمستغربين، والنقاد والشعراء، وأرباب الفصاحة والبلاغة والمعاني، ومنهم الفقهاء والأصوليين، وأهل اللغة، كل يغرف من هذا البحر، ولا يجد فيه انخفاضا في موضع حرف منه، لا في الصياغة ولا في الموضوع والمفاهيم التي أتى بها.

فالحجة قائمة، وليس المطلوب من كل شخص أن يدرس وجوه البلاغة والفصاحة، ويتمكن من إدراك الفرق في التصوير بين قول الشاعر امرئ القيس:

ولقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
بين هذا التشبيه، وهذا البيت الرائع، وبين قوله تعالى:

[والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا]

وستجد دراسة مفصلة لهذا في تفسير سورة العاديات من هذا التفسير ان شاء اللّه تعالى لتقف على ذلك.

ليس بمكنة الانسان العادي غير المختص الوقوف على الفرق الشاسع الهائل بينهما، ولكن رأي الاختصاصي له ملزم، كما يلزم العامي رأي الطبيب في مسائل الطب، ورأي المهندس في مسائل الهندسة، وهكذا، على هذا قامت الحياة في الأرض، واللّه تعالى أعلم.

العقل وحده لا يكفي لإقامة الحجة

إذن فاعلم أن المطلوب ليس فقط إثبات وجود الإله، بل المطلوب هو معرفة هذا الإله، ومعرفة دينه الحق، حتى يدخل المرء في الإيمان، فلا يكفي إذن أن يستطيع العقلُ التوصل إلى وجود الإله ليقال بأنه قادر فتناط به مسئولية الخروج من الكفر إلى الإيمان وحده، لذلك كانت الحاجة للرسل، وللوحي، وللكتب السماوية التي تبين المنهج الحق، ليخرج الناس من الضلالة إلى الهدى بهذا المجموع كله، فثبت إذن أن الحجة القاطعة على الخلائق لا تقوم بوجود العقل وحده دون الوحي فافهم هذا جيدا.

بمعنى آخر، فإن العقل دون وجود وحي لا يستطيع الوصول إلى الدين الحق، وهذا يثبت خرافة قصة حي بن يقظان وأمثالها، نعم قد يعرف الإله سبحانه، ويؤمن بوجوده، لكن إن لم يبلغه وحي منه بطريق الرسل، فإنه لن يصل بعقله وحده للدين الحق.

إذن فقد ثبتت لدينا الحاجة للمعجزة، لتسير جنبا إلى جنب مع البلاغ المبين لإقامة الحجة على الخلق.

فلو لم يكن البلاغ المبين مع المعجزة واجبين لإقامة الحجة، لما لزم أحدهما أو كلاهما لتقوم الحجة، ولكننا وجدناهما متلازمين مع كل رسل الله

تعالى، فتبين أن البلاغ المبين والمعجزة هما حد الحجة التي يقيمها اللّه تعالى على الخلق،

فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو هل يجب أن يصل المرءَ الإنذارُ على نحو مبين؟ أم يكفي أن تكون طبيعة الدين أنه مبين، حججه قائمة جهلها من جهلها وعلمها من علمها؟ وبالتالي فهل المطلوب هو أن يعرفَ المرءُ بوجود دين اسمه الاسلام، ونبي اسمه محمد صلى اللّه عليه وسلم، وأن لدى هذا النبي معجزة تثبت صحة نبوته، وأنه مخاطب بهذا الدين، فإذا عرف إجمالا بوجود هذا وجب عليه النظر في دلائل الحق حتى يتبينه ويتبعه، فتكون الحجة قائمة بمجرد وجود الحق المبين، وسماعه بهذا الحق، لا أن يصله الحق على وجه مبين، فهذان فهمان ينبغي التحقيق فيهما لنر أيهما ينتج عنه الكفر؟ أو هل ينتج عن أيهما وجد؟

فلا بد إذن أن تبلغ النذارة من تبلغه على نحو مبين، أو أن يعلم بوجود نذير لديه معجزة، فتقوم عليه الحجة بتلك المعرفة، ويكون من واجبه -الذي يحاسب عليه إن قصر فيه- البحثُ عن دلائل الحق.

بمعنى آخر، هل يكفي النصراني الذي يعيش في أوروبا منغمسا في حياته، أن الاسلام موجود في الأرض بأدلته الصحيحة، وقرآنه المعجز، لتقوم

عليه الحجة، أم أن على دولة الإسلام أو على مسلم ما، أن يوصل له الدعوة على نحو مبين ويشرح له وجه الإعجاز لتقوم عليه الحجة؟

وهل يوصف بالكفر إن لم يعلم حقيقة الإسلام، ولم يتعرف على أدلته؟ لنر ما يقول كتاب الله تعالى:

التحقيق في الحد الأدنى من النذارة

[وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ] الانعام١٩، قال عبد الرزاق: عن معمر عن قتادة، في قوله تعالى: [لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ] إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بلغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله" وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو كالذي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ينذر بالذي أنذر، ونحو هذا من الأحاديث كقوله "من بلغه هذا القرآن فأنا نذيره"

وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن، فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا التفسير فيحصل في الآية حذف، والتقدير: وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به، ومن بلغه هذا القرآن إلا أن هذا العائد محذوف لدلالة الكلام عليه،

فالمدقق يرى أن من بلغه القرآن، لا يعني بالضرورة أن يبلغه كل القرآن بتفاصيله، حتى نقول أنه وصلته النذارة، فأنت ترى أن بعض المسلمين لا يقف على جل مفاهيم القرآن وأحكامه، فالمعنى إذن أن يعلم بوجود كتاب من الله اسمه القرآن، وأنه نذير له، وقد دلل على صحة هذا الفهم الحديثُ الآخر: فمن بلغته آية من كتاب الله، والحديث الثالث: بلغوا عني ولو آية، فهذا يعني أن المطلوب هو المعرفة بوجود معجزة اسمها القرآن، تنذره، حتى تقام الحجة، وقد حصل التكليف بالنظر كما بينا سابقا، فتبين أن النذارة تحصل بمجرد سماع المرء بوجود القرآن، وإمكان أن يطلع عليه أو على معانيه، ليكون قادرا مع ذلك على النظر فيه لمحاكمته، فمن كان القرآن مترجما للغته ممن لا يعرف العربية، وتهيأت السبل له بأن كان قادرا على دراسة القرآن، فإنه يحاسب على تقصيره ويكون منكرا له، كافرا به والله تعالى أعلم.

[وَهَـذَا كِتَـابٌ أَنزَلْنَـاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُوا إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـابُ لَكُنَّآ أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ]، نعم لم يكن أهل مكة من أهل الكتاب، ومع أنهم لم يطلعوا على كتب أهل الكتاب، ولم يسمعوا من خلالها بخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فإن عليهم أن يدرسوا هذا القرآن ليتبينوا صدق نبوة محمد

عليه سلام اللّه، فقد جاءكم هذا القرآن فأقيمت عليكم الحجة بوجوده، وكلفتم بدراسته.

قال الآلوسي في تفسيره: وأخرج أبو نعيم وغيره عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم " من بلغه القرآن فكأنما شافهته " واستدل بالآية على أن أحكام القرآن تعم الموجودين يوم نزوله ومن سيوجد بعد إلى أن يرث اللّه تعالى الأرض ومن عليها. واختلف في ذلك هو بطريق العبارة في الكل أو بالإجماع في غير الموجودين وفي غير المكلفين. فذهب الحنابلة إلى الأول والحنفية إلى الثاني وتحقيقه في الأصول.

وعلى أن من لم يبلغه القرآن غير مؤاخذ بترك الأحكام الشرعية، ويؤيده ما أخرجه أبو الشيخ عن أبي بن كعب قال: " أُتِي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأسارى فقال لهم: هل دعيتم إلى الإسلام؟ فقالوا: لا فخلى سبيلهم ثم قرأ [وَأُوحِيَ إِلَيَّ] الآية " وهو مبني على القول بالمفهوم كما ذهب إليه الشافعية، واعترض بأنه لا دلالة للآية على ذلك بوجه من الوجوه لأن مفهومها انتفاء الإنذار بالقرآن عمن لم يبلغه وذلك ليس عين انتفاء المؤاخذة وهو ظاهر ولا مستلزماً له خصوصاً عند القائلين بالحسن والقبح العقليين إلا أن يلاحظ قوله تعالى: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً]، [الإسراء: ١٥] وفيه أن عدم استلزام انتفاء الإنذار بالقرآن لانتفاء المؤاخذة

ممنوع، والحسن والقبح العقليان قد طوي بساط ردهما، وجوز أن يكون [مِنْ] عطفاً على الفاعل المستتر في [أنذركم] للفصل بالمفعول أي لأنذركم أنا بالقرآن وينذركم به من بلغه القرآن أيضاً، وروى الطبرسي ما يقتضيه عن العياشي عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما ولايخفى أنه خلاف المنساق إلى الذهن[٤١٨]

وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأُسَارَى فَقَالَ لَهُمْ: " هَلْ دُعِيتُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ؟ " قَالُوا: لَا. فَخَلَّى سَبِيلَهُمْ ثُمَّ قَرَأَ [وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ] ثُمَّ قَالَ " خَلُّوا سَبِيلَهُمْ حَتَّى يَأْتُوا مَأْمَنَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُدْعَوْا ".

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ من طريق قتادة عن الحسن أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: يا أيها الناس بلغوا ولو آية من كتاب الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذها أو تركها.

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمر وعن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قال بلغوا عني ولو آية.

---

٤١٨) تفسير الالوسي

وأخرج أبو الشيخ، وَابن مردويه عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية [وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به] كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر والنجاشي وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل وليس بالنجاشي الذي صلى عليه.

فكما ترى، فإن النذارة تتحقق بوصول القرآن الكريم، ولو بآية منه، مما يدل على أن العقل وحده لم يكن كافيا لإقامة الحجة، بل وجب أن تنضم إليه المعجزة التي تتمثل في بلوغ القرآن الكريم للمُبَلَّغ حتى تقوم عليه الحجة، والقرآن يعني إثبات صدق رسول الله عليه سلام الله في أنه رسول، لذا فهي تجمع الأصول الثلاثة التي سبق وبينا أنها هي أصل الإيمان: وجود الله، وصدق رسوله، وصدق أن القرآن كلامه ووحيه ورسالته، فتأمل هذا جيدا واقبض عليه بكلتا اليدين.

قال رشيد رضا في تفسير المنار: قَالَ الْبَيْضَاويُّ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ تَعُمُّ الْمَوْجُودِينَ وَقْتَ نُزُولِهِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَأَنَّهُ لَا يُؤَاخَذُ بِهَا مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ اهـ. يَعْنِي أَنَّ الْعِبْرَةَ فِي دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ بِالْقُرْآنِ، فَمَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ الْقُرْآنُ لَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ، وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ مُخَاطَبًا بِهَذَا الدِّينِ، وَمَفْهُومُهُ أَنَّ الْحُجَّةَ لَا تَقُومُ بِتَبْلِيغِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ بِالْقَوَاعِدِ الْكَلَامِيَّةِ وَالدَّلَائِلِ

النَّظَرِيَّةِ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا ذَلِكَ الْعِلْمُ، أَيْ إِلَّا أَنْ يَنُصَّ فِيهَا عَلَى أُصُولِهِ وَأَحْكَامِهِ، إ.هـ.[419]

بمعنى أدق لا بد من انضمام وجود الحجة والمعجزة إلى الأدلة النظرية والقواعد الكلامية لتقوم الحجة، ولا تكفي هذه الأدلة بدون وجود القرآن لتقوم الحجة والله تعالى أعلم.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان: قَوْلُهُ تَعَالَى: [وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ]، صَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُنْذِرٌ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ كَائِنًا مَنْ كَانَ، وَيُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْإِنْذَارَ بِهِ عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَهُوَ كَذَلِكَ. أَمَّا عُمُومُ إِنْذَارِهِ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ، فَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَاتٌ أُخَرُ أَيْضًا كَقَوْلِهِ: [قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا] [١٥٨\٧]، وَقَوْلِهِ: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ] [٢٨\٣٤]، وَقَوْلِهِ: [تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا] [١\٢٥].

وَأَمَّا دُخُولُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ النَّارَ، فَقَدْ صَرَّحَ بِهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: [وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ] [١٧\١١]. [بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ

٤١٩) تفسير المنار

مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)] وَأَمَّا مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَهُ حُكْمُ أَهْلِ الْفَتْرَةِ الَّذِينَ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. [٤٢٠]

لاحظ أننا نرى والله تعالى أعلم، أن معنى من لم تبلغه دعوة الرسول، أي أنه لم يسمع عن الاسلام، ولم يسمع عن القرآن، ولم يتوفر له القرآن ولا الاسلام بلغته التي يفهمها، لا أن يكون مجرد غافل عنها، والله تعالى أعلم.

وأدلل على هذا بالآية العظيمة: [كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ].

ومعلوم أن قوله جلَّ وعلا: [كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ] يعم جميع الأفواج الملقين في النار.

فمجرد أن يعلموا أن محمدا عليه سلام الله أتاهم برسالة، ويبْلُغَهم شيءٌ من القرآن، فقد أقيمت عليهم الحجة، ووجب عليهم النظر في صحة دعواه، حتى إذا تبين لهم الحق وجب اتباعه، وقد أقام الله عليهم الحجة يوم القيامة بمجرد علمهم بوجود النذير: [أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ

---

٤٢٠) أضواء البيان، والشنقيطي رحمه الله يرى أن أهل الفترة يفتنون يوم القيامة ويحكم الله بينهم بناء على ذلك يوم القيامة.

فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ]، لذلك قلنا أن الإنذار الملفت للنظر يتضمن إعلامهم بوجود نذير وانهم مخاطبون بنذارته، ويضاف إليها أن يتوفر لهم بلغتهم ترجمة القرآن ويتيسر لهم سبيل الاطلاع على أوجه الدلالة في الأدلة، فإن توفر هذا، فسواء عليهم اطلعوا عليه أم غفلوا عنه فقد أقيمت عليهم الحجة، والله تعالى أعلا وأعلم.

سواء كان تكذيبهم هذا بعد دراسة ما أتاهم به النذير، أم قبل ذلك، مجرد ردهم لدعوته، يصدق عليه أنه تكذيب بالرسول، مع علمهم بوجوده، وهنا ينبغي التفصيل، حتى لا يُقال: أكلما ادعى مدعٍ النبوة وجب البحث في دعواه؟ لنقول: أما أهل الكتاب، فقد جاءهم خبره في كتبهم فهم ينتظرونه، وأما النبي الخاتم عليه سلام الله فقد أتى بالمنهج الحق وثبت صدقه، وثبت أنه خاتم الأنبياء، ويكفي خبره لتكذيب كل مدع للنبوة بعده، وهذا كله يدعم الفهم القائم على أن مجرد السماع به وتوفر إمكانية دراسة دعواه يغني في إقامة الحجة والله تعالى أعلم.

وقال ابن عاشور: واقتصر على جعل علّة نزول القرآن للنذارة دون ذكر البشارة لأنّ المخاطبين في حال مكابرتهم التي هي مقام الكلام لا يناسبهم إلاّ الإنذار، فغاية القرآن بالنسبة إلى حالهم هي الإنذار، ولذلك قال [لأنذركم به] مصرَّحاً بضمير المخاطبين. ولم يقل: لأنذر به، وهم المقصود ابتداء من هذا الخطاب وإن كان المعطوف على ضميرهم ينذر ويبشّر. على أنّ لام

العلّة لا تؤذن بانحصار العلّة في مدخولها إذ قد تكون للفعل المعدّى بها علل كثيرة.

[ومن بلغ] عطف على ضمير المخاطبين، أي ولأنذر به من بلغه القرآن وسمعه ولو لم أشافهه بالدعوة، فحذف ضمير النصب الرابط للصلة لأنّ حذفه كثير حسن، كما قال أبو علي الفارسي[٤٢١].

قال ابن بطال في شرح البخاري: وقال تعالى: [وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ] [الأنعام: ١٩]، فأنذر به سائر الناس، والإنذار إنما يكون بما يفهمونه من لسانهم، فيقرأ أهل كل لغة بلسانهم؛ حتى يقع لهم الإنذار به، وإذا فُسِّرَ لهم بلسانهم فقد بلغهم[٤٢٢]،

وأزيدُ عليه بأن وجوده مفسرا بلسانهم يعني أنه بلغهم مع علمهم بوجوده.

جاء في تلقيح الأفهام العلية بشرح القواعد الفقهية: لا تكليف إلا بعلم ولا عقاب إلا بعد إنذار:

---

٤٢١) التحرير والتنوير

٤٢٢) شرح ابن بطال على صحيح البخاري، ومعلوم أن القرآن لا يترجم نصا، فالنص المترجم لا يسمى قرآنا، ولا يكون معجزا، ولكن يترجم معنى، فتقوم الحجة بوصول المعنى والفكرة التي تقضي بتحدي الخلق وعجزهم.

وهذه القاعدة تمثل أصلاً كليًا عند شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة اللّه عليه -، بل هي من أكبر القواعد الكلية عنده، لتعلقها بالتكليف، ومعناها أن اللّه تعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليدل الناس عليه ويعرفهم به، وليبين لهم ما يجوز التعبد به له مما لا يجوز وذلك لا يمكن أبدًا على وجه التفصيل إلا بمعرفة ما جاءت به الرسل، وإلا فالإنسان بلا رسالة في ضلال مبين وفي ظلمة حالكة لا يبصر فيها طريقه، لكن من رحمة اللّه تعالى بنا أن أبان لنا الحجة وأوضح لنا المحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ومن رحمته أيضًا ومن مقتضى عدله أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد أن تقوم عليه الحجة الرسالية ببلوغها إليه وفهمه لها، قال تعالى: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا] وقال تعالى: [وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ] أي وأنذر من بلغه وأما من لم يبلغه هذا القرآن فإن النذارة لم تقم عليه، ولذلك اشترط الأصوليون العلم بالمكلَّف به لقيام التكليف على الشخص، فمن لم يعلم ما كلف به فهو غير مكلف به، إن كان جهلُهُ به من الجهل الذي يُعذر به صاحبه، وبالتالي فلا يعاقب على تركه إن كان مأمورًا بفعله ولا بفعله إن كان مأمورًا بتركه، ذلك أن العقوبة لا تكون إلا بعد قيام الحجة بالإنذار فالتكليف مشروط بالقدرة على العلم والعقوبة مشروطة بقيام الحجة وقد دل على هذه القاعدة أدلة كثيرة جدًا... فمن ذلك: كل آية تدل على أن الشريعة لا تكلف نفسًا إلا وسعها ولا تحمل أحدًا ما لا طاقة له به، وأنها تريد اليسر لا

العسر وأن اللّه قد وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا، كل ذلك يدل على هذه القاعدة إجمالاً.

ومنها: حديث عدي بن حاتم لما أكل في رمضان وقد طلعت الصبح متأولاً قوله تعالى: [وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنْ الْفَجْرِ] فأخبر النبي - صلى اللّه عليه وسلم - بذلك فقال: (إن وسادك لعريض إنما هو نور الفجر وظلمة الليل) ولم يأمره بقضاء لأنه لم تقم عليه الحجة الرسالية لعدم فهمه للآية وعدم الفهم الصحيح لمراد المتكلم نوع من أنواع الجهل كما قرر ذلك أهل اللغة فعذر؛ لأنه لم يعلم المراد ولم يعاقب؛ لأنه لم تقم عليه الحجة، ولم يؤمر بالقضاء؛ لأنه لم يكلف بما في الآية لعدم فهمه لها، فصدق قولنا أنه لا تكليف إلا بعلم ولا عقوبة إلا بإنذار.

ومنها: الرجل الذي جاء براوية خمرٍ للنبي - صلى اللّه عليه وسلم - بعد أن حرمت فأهداها له فقال: (ما هذا ألم تعلم أنها حرمت) ففتح الأعرابي الزق فأراقه بين يديه والحديث عند مسلم، فهذا الأعرابي لم يكلف بامتثال ما جاء في تحريم الخمر؛ لأنه لا يعلم بها، فلا تكليف إلا بعلم، وبالتالي لم يعاقب على عمله ذلك؛ لأنه لم ينذر، ولا عقوبة إلا بعد إنذار.

ومنها: (جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد فزجره الناس فنهاهم النبي - صلى اللّه عليه وسلم - عن ذلك ... إلخ) الحديث، وهو من حديث أنس في الصحيحين، وهو مشهور ووجه الاستشهاد منه أن هذا الأعرابي لم يكلف بالأدلة الدالة على تحريم ذلك الفعل؛ لأنه لا يعلمها، ولا تكليف إلا بعلم ولم يعاقب على فعله ذلك لأنه لا عقوبة إلا بإنذار وهو لم تقم عليه الحجة.

وأيضًا قولنا: (ولا عقوبة إلا بعد إنذار) نريد بها ما يفيده قوله تعالى: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا] وقوله تعالى: [وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ] وقوله تعالى: [وَأنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ] فهذا البيان هو ما نعنيه بالإنذار.[٤٢٣]

ومِن فوائِد حَديث المُسيء صَلاتَه: " عَدَم مُؤاخَذَة العَبْد إذا لم يَبْلُغْه الأمر مِن الكِتاب أو السُّنَّة، أو كان مُتأوِّلًا. فلا يُطالَب بإعادَة ما فَرَّط فيه حال جَهْلِه أو تأويلِه ".

ووَجْه الدَّلالَة مِنه: أنَّ ظاهِرَه يُفيد أنَّ الأعْرابي كان يُصَلِّي طيلةَ حَياتِه على نَفْسِ صُورَة تِلك الصَّلاة التي صَلَّاها أمامَ النبي صلى اللّه عليه وسلم؛ فقد قال: " والذي بعثك بالحق؛ ما أُحْسِن غيره؛ فَعَلِّمني ". ومع ذلك؛ فلم

---

٤٢٣) تلقيح الأفهام العلية بشرح القواعد الفقهية

يأمُرْه صلى الله عليه وسلم أن يُعيد كُلَّ صَلواتِه السَّابِقَة؛ وإنَّما بَيَّن لـه أنَّهـا لا تَصِحّ، وعَلَّمَه صِفَةَ الصَّلاة الصَّحيحة. وذلك لِجَهْلِه.

ويَـدُلُّ لهـذه القاعِـدَة قولُـه - - عـز وجـل - - [وَأُوحِـيَ إِلَـيَّ هَـذَا الْقُـرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ] [الأنعام: ١٩]. يعني: أُنْذِرَكم بهذا القُرآن ومَن بَلَغْته النذَارَة. وهذا الجاهِل أو المُتأوِّل ما بَلَغَه الأمرُ مِن الكِتاب أو السُّنَّة.[٤٢٤]

٤٢٤) شرح كتاب آداب المشي إلى الصلاة، السعد

طريق الإيمان:

اعلم يرحمك اللّه برحمته وإيانا، أن اللّه تعالى أمر بالنظر ابتداء، فقال عز من قائل سبحانه: [وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١)]، فأول الأمر الذي خوطب به كل البشر النظر في السموات والأرض وفي الأنفس حتى يتبين للمرء وجود الإله، الخالق، وهذا كما أسلفنا لا يحتاج معه إلى معجزة، ولا إلى بلاغ مبين، بل خوطب فيه باستعمال العقل مباشرة،[كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] [البقرة: ٢٤٢]، هذا وقد أثبتنا قبل قليل أن العقل وحده لا يغني في إقامة الحجة على الناس بالتزام الدين واتباعه، إلا أن يصحبه وجود البلاغ المبين، ليفكر في أدلته ويجب عليه اتباعه، وحينها فإن من سمع عن الاسلام، وجب عليه النظر فيه، وإن لم ينظر فقد أقيمت عليه الحجة، وذلك لأننا رأينا أن تبليغ الدعوة الهدف منه الإعلام بوجود الاسلام، ثم يأتي دور محاكمة أفكاره بغية اعتناقها، فلما عم الخبر بالاسلام وانتشر وذاع ولم يعد بحاجة لإخبار الفرد عن وجوده، ولما كان الاسلام قائما على أساس أنه بذاته مبين، واضح، لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أقام دعائمها

بالبرهان، فقد وجب النظر فيه على من بلغه بشكل ملفت للنظر، ومعنى ملفت للنظر أن يبلغه أن الاسلام دين من عند الله تبارك وتعالى، وأنه مخاطب باتباعه، ويتيسر له سبيل الاطلاع عليه بلغة يفهمها، وحجج يستطيع الوقوف على وجه دلالاتها، فإن أعرض عن الآيات البينات والأدلة الدامغة، فيكون حينها ممن قال فيهم رب العزة سبحانه: [وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا] ٥٧ الكهف [وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ٩٩ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ١٠٠ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا] ١٠١ طه، أي من أعرض عن القرآن، بعد أن بلغه خبره، وذُكِّرَ به، فقد أقيمت عليه الحجة.

قالَ تعالى: [أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ] (٤٦) الحج

إن ذلك الكافر الذي لم يتفكر في آيات الله التي توصله للحق لو تفكر فيها، بعد أن وصلته، فبقي على أصل تكذيبه، فجهل ما كان شأنه لينقذه من الضلالة لو أولاه اهتمامه، قد عنفه الله تعالى بقوله جل وعلا: [أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] [النَّمْلِ: ٨٤]. وَقَالَ تَعَالَى: [بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ] [يُونُس: ٣٩]

وقال عز من قائل سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣] وقالَ جلَّ وعلا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢]. فمَنْ لا يعقلُ فلنْ يتوصلَ إلى الحقِّ، فجعلَ الحقُّ –سبحانَهُ- العقلَ وسيلةَ الوصولِ إلى الهدايةِ أيْ إلى النجاةِ.

وعن أبي الضحى قولُه في آيةِ ﴿وإلـهُكُمْ إلهٌ واحدٌ﴾ الآيةَ: «لما نزلتْ هذه الآيةُ عَجِبَ المشركونَ وقالوا: إن محمداً يقولُ: وإلـهُكم إلـهٌ واحدٌ. فليأتِنا بآيةٍ إنْ كانَ منَ الصادقينَ. فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] ».

وقال عز من قائل: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن

دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللّه وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّه مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

أهل الفترة:

وقد قال الحق سبحانه وتعالى: [مَّـنِ اهْتَـدَى فَإِنَّمَـا يَهْتَـدي لِنَفْسِـهِ وَمَـن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى وَمَـا كُنَّـا مُعَـذِّبِينَ حَتَّـى نَبْعَـثَ رَسُولاً] الإسراء١٥.

[مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ] المائـدة١٠٣، روى مسـلم عـن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: «رأيـت عمـرو بـن عـامر الخِزاعي يَجرّ قُصْبه في النار وكان أوّل من سيّب السوائب» وفي رواية «عمـرو بن لُحَي بن قَمَعة بن خِنْدِف أخا بني كعب هؤلاء يجرّ قُصْبه في النـار». وروى أبو هريـرة قـال سـمعت رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم يقـول لأكـثم بـن الجُون: «رأيت عمرو بن لُحَي بن قمعة بـن خنـدف يجـرّ قُصْـبه فـي النـار فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولا بـه منـك» فقـال أكـثم: أخشـى أن يضـرني شبهه يا رسول الله؛ قال: «لا إنـك مـؤمن وهـو كـافر إنـه أوّل مـن غيَّـر ديـن إسماعيل وبَحّر البحيرة وسيّب السائبة وحَمى الحـامي»، مـا هـو مفهـوم أهـل الفترة؟

والسؤال أيضا: نعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسالته للناس كافة، ومن كان قبله كان يبعث لقومه خاصة، فهل هم من عاصره؟ أم من وصـلته

الدعوة على نحو: البلاغ المبين؟ فإن حرفت واندثرت معالمها كان من أهل الفترة؟ وبالتحقيق نجد أن عمرو بن لحي لم يعاصر اسماعيل عليه سلام اللّه، ولكن دين اسماعيل كان واضح المعالم بينا في زمنه، وقد كان متبعا له ثم إنه هو أول من غيره، لذا فهو ليس من أهل الفترة.

قال الامام النبهاني (أما بالنسبة للرسول، فظاهر من صريح الآية؛ لأن نفي العذاب عن الناس، قبل بعثة الرسول، يدل على عدم تكليفهم بالأحكام والاعتقادات، أي عدم تكليفهم بشيء، ولا معنى لذلك إلا نفي الحكم نفياً باتاً عن الناس قبل أن يبعث اللّه لهم رسولاً، ومن هنا كان أهل الفترة ناجين، وهم الذين عاشوا بين ضياع رسالة وبعث رسالة، ويكون حكمهم حكم الذين لم تبلغهم رسالة، وذلك كمن عاشوا قبل بعثة الرسول محمد ﷺ، ومن هذا أيضاً من لم تبلغهم رسالة سيدنا محمد ﷺ على وجه يلفت النظر، فإنهم كأهل الفترة ناجون؛ لأنه تنطبق عليهم الآية، ويعتبرون أنه لم يبعث لهم رسول، إذ لم تبلغهم رسالته، ويكون إثم عدم التبليغ على القادرين عليه ولم يفعلوا.)[٤٢٥] انتهى و اللّه اعلم.

---

٤٢٥) الشخصية الاسلامية الجزء الثالث أصول الفقه، باب لا حكم قبل ورود الشرع.

التحقيق في مفهوم أهل الفترة

قال محمد أمين الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان: قوله تعالى: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا].

ظاهر هذه الآية الكريمة: أن الله جلَّ وعلا لا يعذب أحداً من خلقه لا في الدنيا ولا في الآخرة. حتى يبعث إليه رسولاً ينذره ويحذره فيعصى ذلك الرسول، ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار.

وقد أوضح جلَّ وعلا هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: [رُّسُلا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ] فصرح في هذه الآية الكريمة: بأن لا بد أن يقطع حجة كل أحد بإرسال الرسل، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم النار.

وهذه الحجة التي أوضح هنا قطعها بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين. بينها في آخر سورة طه بقوله [وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى].

وأشار لها في سورة القصص بقوله: [وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ]، وقوله جلَّ وعلا: [ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ

وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ]، وقوله: [يَـأَهْلَ ٱلْكِتَـابِ قَدْ جَـآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أن تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ]، وكقوله: [وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أن تَقُولُوا إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويوضح ما دلت عليه هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم من أن الله جلَّ وعلا لا يعذب أحداً إلا بعد الإنذار والإعذار على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ تصريحه جلَّ وعلا في آيات كثيرة: «بأن لم يدخل أحداً النار إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل. فمن ذلك قوله جلَّ وعلا: [كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ].

ومعلوم أن قوله جلَّ وعلا: [كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ] يعم جميع الأفواج الملقين في النار.

قال أبو حيان في «البحر المحيط» في تفسير هذه الآية التي نحن بصددها ما نصه: «وكلما» تدل على عموم أزمان الإلقاء فتعم الملقين. ومن ذلك قوله جلَّ وعلا: [وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا

فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ]، وقوله في هذه الآية: [وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا] عام لجميع الكفار.

وقد تقرر في الأصول: أن الموصولات كالذي والتي وفروعهما من صيغ العموم. لعمومها في كل ما تشمله صلاتها، فقوله تعالى: [وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا] إلى قوله [يَوْمِكُمْ هَـٰذَا] عام في جميع الكفار. وهو ظاهر في أن جميع أهل النار قد أنذرتهم الرسل في دار الدنيا. فعصوا أمر ربهم كما هو واضح.

ونظيره أيضاً قوله تعالى: [وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ]. فقوله [وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ] إلى قوله [النَّذِيرُ فَذُوقُوا] عام أيضاً في جميع أهل النار. كما تقدم إيضاحه قريباً.

ونظير ذلك قوله تعالى: [وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا

بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إلا فِى ضَلالٍ]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن جميع أهل النار أنذرتهم الرسل في دار الدنيا.

وهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن تدل على عذر أهل الفترة بأنهم لم يأتهم نذير ولو ماتوا على الكفر. وبهذا قالت جماعة من أهل العلم.

وذهبت جماعة أخرى من أهل العلم إلى أن كل من مات على الكفر فهو في النار ولو لم يأته نذير، واستدلوا بظواهر آيات من كتاب الله، وبأحاديث عن النَّبي صلى الله عليه وسلّم. فمن الآيات التي استدلوا بها قوله تعالى: [وَلا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا]، وقوله: [إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ]، وقوله: [إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلارْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَى بِهِ أُولَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ]، وقوله: [إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ]، وقوله: [وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ]، وقوله [إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ]، وقوله: [قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ]، إلى غير ذلك من الآيات.

وظاهر جميع هذه الآيات العموم. لأنها لم تخصص كافراً دون كافر، بل ظاهرها شمول جميع الكفار[٤٢٦].

ومن الأحاديث الدالة على أن الكفار لا يعذرون في كفرهم بالفترة[٤٢٧] ما أخرجه مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟. قال: «في النَّار» فلما قفى دعاه فقال: «إنَّ أبي وأباك في النَّار» اهـ وقال مسلم رحمه الله في صحيحه أيضاً: حدثنا يَحْيَى بن أيوب، ومحمد بن عباد ـ واللفظ ليحيى ـ قالا: حدثنا مروان بن معاوية، عن يزيد يعني ابن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي» حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب قالا: حدثنا محمد بن عبيد،

---

٤٢٦) بل الصواب، والعلم عند الله، أن هذا دليل على أن الكافر هو من كفر بعد نذارة، وأقيمت عليه الحجة، استحق النار بذلك، لذلك نقول أن هذا هو تحقيق معنى الكفر، فتأمل ذلك يرحمك الله بعين المحقق المدقق، لأن إعمال الأدلة أولى من إهمال بعضها، فالأدلة الأولى بينت أن أهل النار كلهم جاءهم النذير، وأتتهم رسلهم بالبينات، وهذه الآيات تبين أن الكفار لهم نار جهنم، فثبت بالجمع بين الأدلة أن الكفار هم من كفروا بعد نذارتهم.

٤٢٧) وهي من أخبار الآحاد، وهي ظنية الثبوت، والدلالة، والآيات قطعية في أن الله لا يعذب من غير نذير، وأن هؤلاء لم يكن فيهم نذير كما سيأتي بعد قليل ان شاء الله، وبالتالي فلا يُحتج بها على صواب هذا الفهم، لمعارضتها للقطعي إن حملت على هذا الفهم، والله أعلم.

عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: زار النَّبي صلى الله عليه وسلّم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكِّر الموت» اهـ إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على عدم عذر المشركين بالفترة.

وهذا الخلاف مشهور بين أهل الأصول ـ هل المشركون الذين ماتوا في الفترة وهم يعبدون الأوثان في النار لكفرهم. أو معذورون بالفترة؟ وعقده في «مراقي السعود» بقوله:

ذو فترة بالفرع لا يراع   وفي الأصول بينهم نزاع

حجة القائلين بأن أهل الفترة في النار

وممن ذهب إلى أن أهل الفترة الذين ماتوا على الكفر في النار: النووي في شرح مسلم، وحكى عليه القرافي في شرح التنقيح الإجماع. كما نقله عنه صاحب «نشر البنود».

وأجاب أهل هذا القول عن قوله تعالى: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا] من أربعة أوجه:

الأول ـ أن التعذيب المنفى في قوله [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ]، وأمثالها من الآيات. إنما هو التعذيب الدنيوي[٤٢٨]. كما وقع في الدنيا من العذاب بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم موسى وأمثالهم. وإذاً فلا ينافي ذلك التعذيب في الآخرة.

---

٤٢٨) وهو تحكم في الأدلة ليس عليه ما يسوغه، وينقضه قوله تعالى: [وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ ءَايَـتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى] فهو يمنع عذاب الدنيا عنهم عقوبة لهم على الكفر إلا بعد أن يرسل لهم الرسل، أي لو أنا أهلكناهم بعذاب من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن، لاحتجوا بعدم وجود رسول، ومعنى أهلكناهم بعذاب، أخذناهم بعذاب، وهي للعذاب الدنيوي أقرب منها معنى للعذاب الأخروي، فتأمل.

ونسب هذا القول القرطبي، وأبو حيان، والشوكاني وغيرهم في تفاسيرهم إلى الجمهور.

والوجه الثاني ـ أن محل العذر بالفترة المنصوص في قوله: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ] وأمثالها في غير الواضح الذي لا يخفى على أدنى عاقل[٤٢٩]. أما

---

٤٢٩) وهو غير دقيق، لأن أساس الإيمان يقوم على الإيمان بوجود اللّه، وبوجود صدق المعجزة، وبوجود صدق رسالة محمد عليه سلام اللّه، وهذه مجتمعة احتاجت لمعجزة لتثبت مجموعها، وبدون هذا المجموع لا يحصل الإيمان، ولا ينتقل المرء من الكفر إلى الايمان، كذلك الأمر فإن العقل وحده لا يصل لحقائق الإيمان القطعية كلها مجتمعة مستغنيا عن هدى اللّه تعالى، فقد أثبت ذلك على لسان إبراهيم الخليل عليه سلام اللّه، بعد أن بين لقومه أن القمر والشمس لا يصلحان أن يكونا إلهين طلب بعدها من اللّه الهداية: [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ] الأنعام، فوجود اللّه تعالى أمر يسهل إدراكه بالعقل، لكن صفاته: هل هو يأفل؟ أم هو إله لأنه ينير الليل؟ أم

الواضح الذي لا يخفى على من عنده عقل كعبادة الأوثان فلا يعذر فيه أحد. لأن الكفار يقرون بأن اللّه هو ربهم، الخالق الرازق، النافع، الضار. ويتحققون كل التحقق أن الأوثان لا تقدر على جلب نفع ولا على دفع ضر. كما قال عن قوم إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: [لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ] وكما جاءت الآيات القرآنية بكثرة بأنهم وقت الشدائد يخلصون الدعاء للّه وحده. لعلمهم أن غيره لا ينفع ولا يضر. كقوله [فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ]، وقوله: [وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ]، وقوله: [وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ]، إلى غير ذلك من الآيات. ولكن الكفار غالطوا أنفسهم لشدة تعصبهم لأوثانهم ـ فزعموا أنها تقربهم إلى اللّه زلفى، وأنها شفعاؤهم عند اللّه. مع أن العقل يقطع بنفي ذلك.

الوجه الثالث ـ أن عندهم بقية إنذار مما جاءت به الرسل الذين أرسلوا قبل نبينا صلى اللّه عليه وسلّم. كإبراهيم وغيره[430]. وأن الحجة قائمة عليهم بذلك. وجزم بهذا النووي في شرح مسلم، ومال إليه العبادي في (الآيات البينات).

لأنه أكبر؟ ما ينبغي للخالق من صفات لا يمكن للعقل الوقوف عليها كلها بدقة وصحة من غير هدى من اللّه!

٤٣٠) وهذا القول يناقض نص القرآن القطعي كما سيأتي بعد قليل ان شاء اللّه.

الوجه الرابع ـ ما جاء من الأحاديث الصحيحة عن النَّبي صلى اللّه عليه وسلّم، الدالة على أن بعض أهل الفترة في النار. كما قدمنا بعض الأحاديث الواردة بذلك في صحيح مسلم وغيره.

رد خصومهم على هذه الحجج:

وأجاب القائلون بعذرهم بالفترة عن هذه الأوجه الأربعة ـ فأجابوا عن الوجه الأول، وهو كون التعذيب في قوله: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا] إنما هو التعذيب الدنيوي دون الأخروي من وجهين:

الأول ـ أنه خلاف ظاهر القرآن. لأن ظاهر القرآن انتفاء التعذيب مطلقاً، فهو أعم من كونه في الدنيا. وصرف القرآن عن ظاهره ممنوع إلا بدليل يجب الرجوع إليه[431].

الوجه الثاني ـ أن القرآن دل في آيات كثيرة على شمول التعذيب المنفي في الآية للتعذيب في الآخرة. كقوله: [كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى] وهو دليل على أن جميع أفواج أهل النار ما عذبوا في الآخرة إلا بعد إنذار الرسل. كما تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية.

وأجابوا عن الوجه الثاني ـ وهو أن محل العذر بالفترة في غير الواضح الذي لا يخفى على أحد ـ بنفس الجوابين المذكورين آنفاً. لأن الفرق بين الواضح وغيره مخالف لظاهر القرآن، فلا بد له من دليل يجب الرجوع إليه،

431) كما أنه يفرغ الآية من معناها!

ولأن الله نص على أن أهل النار ما عذبوا بها حتى كذبوا الرسل في دار الدنيا، بعد إنذارهم من ذلك الكفر الواضح، كما تقدم إيضاحه[٤٣٢].

وأجابوا عن الوجه الثالث الذي جزم به النووي، ومال إليه العبادي وهو قيام الحجة عليهم بإنذار الرسل الذين أرسلوا قبله صلى الله عليه وسلّم بأنه قول باطل بلا شك. لكثرة الآيات القرآنية المصرحة ببطلانه، لأن مقتضاه أنهم أنذروا على ألسنة بعض الرسل والقرآن ينفي هذا نفياً باتاً في آيات كثيرة. كقوله في «يس»: [لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ] و[مَا] في قوله [مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ] نافية على التحقيق، لا موصولة، وتدل لذلك الفاء في قوله [فَهُمْ غَـٰفِلُونَ]، وكقوله في «القصص»: [وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ]، وكقوله في «سبأ» [وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ]، وكقوله في «ألم السجدة»: [أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ]، إلى غير ذلك من الآيات.

٤٣٢) فما الحاجة إذن للبلاغ المبين، وللمعجزة إن كان المرء يستطيع وحده بلوغ مطالب أصل الإيمان دون أن يأمن على نفسه من الزلل؟ فإن قلنا يستطيع أن يتوصل لوجود الله تعالى بالعقل وحده، فمن أين له أن يتحقق من صدق ادعاء مدعي النبوة ليتوصل من خلالهم لمنهج الله تعالى؟ والذي سيعرفه بالخالق تعالى وصفاته؟

وأجابوا عن الوجه الرابع - بأن تلك الأحاديث الواردة في صحيح مسلم وغيره أخبار آحاد يقدم عليها القاطع، وهو قوله: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا]، وقوله: [كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى]، ونحو ذلك من الآيات.

وأجاب القائلون بالعذر بالفترة أيضاً عن الآيات التي استدل بها مخالفوهم كقوله: [وَلا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا]، إلى آخر ما تقدم من الآيات - بأن محل ذلك فيما إذا أرسلت إليهم الرسل فكذبوهم بدليل قوله: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا].

وأجاب القائلون بتعذيب عبدة الأوثان من أهل الفترة عن قول مخالفيهم: إن القاطع الذي هو قوله تعالى: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا] يجب تقديمه على أخبار الآحاد الدالة على تعذيب بعض أهل الفترة، كحديثي مسلم في صحيحه المتقدمين - بأن الآية عامة، والحديثين كلاهما خاص في شخص معين. والمعروف في الأصول أنه لا يتعارض عام وخاص. لأن الخاص يقضي على العام كما هو مذهب الجمهور، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، كما بيناه في غير هذا الموضع.

فما أخرجه دليل خاص خرج من العموم، وما لم يخرجه دليل خاص بقي داخلاً في العموم. كما تقرر في الأصول.

وأجاب المانعون بأن هذا التخصيص يبطل حكمة العام. لأن الله جل وعلا تمدح بكمال الإنصاف. وأنه لا يعذب حتى يقطع حجة المعذب بإنذار الرسل في دار الدنيا، وأشار لأن ذلك الإنصاف الكامل، والإعذار الذي هو قطع العذر علة لعدم التعذيب. فلو عذب إنساناً واحداً من غير إنذار لاختلت تلك الحكمة التي تمدح الله بها، ولثبتت لذلك الإنسان الحجة التي أرسل الله الرسل لقطعها.

كما بينه بقوله: [رُّسُلا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ]، وقوله: [وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى] كما تقدم إيضاحه.

وأجاب المخالفون عن هذا ـ بأنه لو سلم أن عدم الإنذار في دار الدنيا علة لعدم التعذيب في الآخرة، وحصلت علة الحكم التي هي عدم الإنذار في الدنيا، مع فقد الحكم الذي هو عدم التعذيب في الآخرة للنص في الأحاديث على التعذيب فيها. فإن وجود علة الحكم مع فقد الحكم المسمى في اصطلاح أهل الأصول. بـ «النقض» تخصيص للعلة، بمعنى أنه قصر لها

على بعـض أفـراد معلولـها بـدليل خـارج كتخصـيص العـام. أي قصـره علـى بعض أفراده بدليل[٤٣٣].

٤٣٣ أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن لمحمد أمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

واقع أهل الكتاب، وأولادهم، ومن اتبع دينهم:

قال الامدي في الاحكام (انه خلاف الاجماع في صحة اطلاق اسم الكافر على من اعتقد نقيض الحق، و ان كان عن اجتهاد) انتهى. وأشرُطُ له أن تكون أقيمت عليه الحجة. و الله اعلم.

فصلنا في موضوع من يعتبر كافرا، بالجحود والإنكار والعناد، وبقي تفصيل حال من اعتقد نقيض الحق بعد تعرضه للحق المبين أو تعرض الحق المبين له، وواقعه أنه كافر، وأما من لم يتعرض للحق، ولم يتعرض الحق له، من باب الغفلة أو من باب الجهل، فإما أن يكون من أهل الفترة، فهو ناج[٤٣٤]، بإذن الله، لأن الله لا يعذب قبل إرسال الرسل، وأما إن لم يكن من أهل الفترة، فلا بد من التحقيق في تفاصيل الصورة التي يكون عليها مكذبا حتى يقال عنه كافر، وهل يكون مكذبا إن لم يصله خبر الحق بتاتا؟ وحينها ليس من الأمر ذي البال تسميته بالكافر أو المسلم، إذ أن التحقيق فيه هو أنه ناج من العذاب لا أكثر، بمعنى أن إطلاق اسم الايمان والكفر شرعي، ولم يطلق الشرع على أهل الفترة مسمى الكفر، ولا الإيمان، وإنما بيَّن أنهم ناجون.

---

٤٣٤) ولا يوصف بالإيمان ولا بالكفر وأمره لله تعالى، سبقت منه الكلمة أنه ما كان ليعذب إلا بعد إقامة الحجة وإرسال النذر.

ثم إن كان من أتباع نبي، وحرف دين هذا النبي، فإنه يكفر، كحال عمرو بن لحي لما بدل دين إسماعيل عليه سلام اللّه، لكن من أتى بعده وقد اندثرت معالم تلك الرسالة، فإنه لا يؤاخذ على شركه إن لم يكن بين ظهرانيه نذير،

وإن كان من أهل الكتاب، فيكفي معه أن يسمع بمحمد صلى اللّه عليه وسلم فإن لم يتبعه يكفر.

إننا إذا تأملنا حال المشركين من أهل الفترة قبل الاسلام نجدهم كانوا يعبدون الأصنام، ومع ذلك فهم ناجون، وهذا يعني أن العبرة هي بوجود النذير ووصول النذارة، وليست في اتباع غير الحق، وعلى هذا نقول: وبنفس الصورة، فإن من قال إن اللّه ثالث ثلاثة، بعد خلو عصره من نذير، ولم يكن هو من حرف الدين الصحيح، أو ترك الدين الصحيح، أو علم أن الدين الصحيح لا يقول بالتثليث، واصر رغم ذلك على التثليث، فإن خلا من ذلك كله: فإنه لا يؤاخذ على شركه ذلك، وتفصيل ذلك هو:

أن من قال أن اللّه ثالث ثلاثة: قال فيه رب العالمين سبحانه [لقد كفر الذين قالوا إن اللّه ثالث ثلاثة] فمن حرف دينه ابتداء وأشرك مع اللّه، فهو كافر، وقد أقيمت عليهم الحجة بالنذير، هذا وقد كان عيسى عليه سلام اللّه قد أرسل إلى قومه، ولم تكن رسالته عامة كشأن رسالة محمد صلى اللّه

عليه وسلم، فلا يؤاخذ بعدم اتباع رسالته الا قومه، لذا فمن كان مخاطبا بها، وقال بالتثليث محرفا رسالة عيسى عليه سلام الله، فقد كفر.

ثم إن طائفة من علماء النصارى بقيت تحتفظ بالحق، وبأناجيل فيها صفة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يوم بعثته، وكذلك علماء يهود، وهذا يعني أن القائل منهم بالتثليث لم يكن إلا متبعا دينا محرفا، ولم تندثر معالم الدين الحق، ولكن هؤلاء العلماء الذين بقوا على الدين الحق لم يؤمروا بالتبليغ، لكن من سألهم عن الحق وعلمه وقال بالتثليث بعدها فهو كافر، ثم جاء النذير وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقيمت عليهم الحجة، لذلك قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وعليه فاتباع عيسى واتباع موسى هم قوم عيسى وقوم موسى، عليهما سلام الله، فلا يطالب برسالتيهما غيرهم، فبعد عيسى وموسى إن ترك هؤلاء رسالة نبيهم ولم يأت نبي بعده يكون أولاد من ترك الرسالة من أهل الفترة أي أن أولادهم هم يكونون من أهل الفترة لا هم، فمن ترك يكون كافرا، وأما أولادهم فلأنه لم تبلغهم رسالة، والقوم الذين أرسل اليهم

عيسى وموسى عليهما سلام الله[٤٣٥]، لم يكونوا مطالبين بتبليغ الرسالة، ولذلك فإن باقي الناس في عصرهم لا يؤاخذون بعدم اتباع الرسالة، وكذلك اولادهم من بعدهم،

لكن من اتبع منهم الرسالة، أو إن اتبع اولادهم رسالة النبي الذي أُرسل لابائهم ثم حرفوها أو تركوها فانهم يعاقبون ويعذبون ويعتبرون غير ناجين، فعليهم التزام تلك الرسالة، هذا لأن رسالة هؤلاء الرسل عليهم سلام الله لم تكن للناس كافة بل أُرسلوا إلى أقوامهم، بخلاف رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهي للناس كافة إلى يوم الدين.

أما إن اتبع من لم يخاطبوا بهذه الرسالة هذه الرسالة، فمع أنهم لم يكونوا مخاطبين بها ابتداء، إلا أنهم يكونون من أهل الكتاب، وتجري عليهم أحكامهم بالمثل، ودليل ذلك أن القرآن أباح للمؤمنين نكاح نساء أهل الكتاب المحصنات، وتزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه نايلة بنت الفرافصة الكلبية على نسائه، وتزوج طلحة بن عبد الله يهودية من الشام،

---

٤٣٥) ليكن معلوما أنه لم تنقطع الأنبياء ما بين موسى وعيسى عليهما سلام الله والله أعلم، فقد كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، كما أخبرنا الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري رضي الله عنه.

وتزوج حذيفة يهودية، وغير ذلك، وكانت نصارى العرب يعاملون معاملة أهل الكتاب مع أنهم ليسوا من بني إسرائيل.

أما من وصلته الرسالة محرفة، فإن وصل إلى رجل على الرسالة الصحيحة، واتبعه كان مؤمنا، ويترتب عليه إثم الترك إن ترك ويكفر بهذا الترك، أو التحريف إن حرف، لكن إن لم يتصل برجل على الرسالة الصحيحة فلا يؤاخذ بالكفر لأنه من أهل الفترة طالما لا يوجد بين ظهرانيه نذير، ولأنه غير مخاطب بتلك الرسالة ابتداء، مع أنه يطلق عليه اسم أهل الكتاب ويعامل معاملتهم، هذا كله قبل رسالة محمد عليه سلام الله ونذارته.

اما الان فإن من لم تبلغه رسالة الرسول على وجه يلفت النظر فيعتبر من أهل الفترة، وخلاصة الامر ان النبي كان يرسل لقومه فلا يطالب بالرسالة سوى قومه، ومن كان من غير قومه يعتبر من اهل الفترة إلا أن يتبع ذلك الرسول فلا يعود من أهل الفترة، حتى أتى محمد صلى الله عليه وسلم، وعليه من كان واقعه واقع أنه لم تبلغه النذارة على وجه يلفت النظر، - وقد سبق وبينَّت حده- فيعتبر من اهل الفترة وتسميتهم مسلمين او كفارا ليست ذات موضوع.

فهل من عبد غير اللّه من أهل الفترة لا يعذب ولا يوصف بالكفر؟

قال الزمخشري: فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل، لأنّ معهم أدلة العقل التي بها يعرف اللّه، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة، لئلا يقولوا: كنا غافلين فلولا بعث إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل. انتهى.

ملحق: كتاب الإيمان من فيض الباري شرح صحيح البخاري للعلامة الكشميري

للعلامة الكشميري كلام متين في موضوع الإيمان، لمست فيه اطلاعا كبيرا، وعلما جما، فأحببت نقله للفائدة: قال:

كتاب الإِيْمَان

الإيمانُ وَمَعْنَاهُ اللُّغوي

الإيمان في اللغة: عبارة عن التّصديق، وقد يجيءُ بمعنى الوثُوق، لأنه إفعال من الأمن، وهمزة الإفعال إذا دخلت على الفعل المتعدي، فإما أنْ يعديه إلى مفعولٍ ثانٍ، أو يجعله لازماً على معنى الصَّيرورة.

فالأول، أي التَّصديق، منقولٌ من الأفعال المتعدية، يقال: آمنته فلاناً، أي جعلتُه آمناً منه، وآمَنْته غيري، أي جعلت غيري آمناً منه، وكلا المعنيين اللغويين، معنيان حقيقيان لِلَفظ الإيمان، وُضِعَ أولاً لجعل الشيء أمناً من أمر، ثم وُضِعَ ثانياً لمعنىً يناسبه وهو التَّصديق، فإنك إذا صَدَّقْتَ المخبر فقد أمنته من تكذيبكَ إياه. وتعدِيتُهُ بالباء لتضمِينه معنى الاعتراف، فإنك إذا صدَّقت شيئاً فقد اعترفت به.

والمعنى الثاني منقول من الأفعال اللازمة، بمعنى صار ذَا أمن، فيتعدى بالباء، ليقال: آمن به، أي وثِقَ به، لأن الواثِقَ بالشيء صار ذا أمنٍ منه، وحينئذٍ لا يحتاج إلى التَّضمين. وأضاف الحافظ ابن تيمية رحمه اللّه تعالى على معناه اللغوي، فبدأ قيداً آخر، وقال: إن الإيمان اسم للتَّصديق بالمغيبات خاصة، ولا يطلق الإيمان على غير ذلك، فلا يقال: آمنت بذلك في جواب من قال: السماء فوقنا، ولذا قال تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} (البقرة: ٣)، فقيَّد الإيمانَ بالغيبِ، لأنه لا يتعلق إلا به، وقال: إن الإيمانَ هو تصديق السامِع للمخاطب، واثِقاً بأمانته، ومعتمداً على دِيانته.

وأصلُ الإيمان تبجيل الذاتِ وتعظيمها، ثم استعمل في التصديق مطلقاً، ويتعلق بالذوات والأخبار. فإن تَعَلَّقَ بالذات يُؤْتَى بالباء في صِلته، وإن تعلق بالأخبار فباللام لتضمينه معنى الإقرار، وعليه قوله تعالى: {وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا} (يوسف: ١٧) أي بمقر لنا، ولم يقولوا: بنا، لأن المرادَ التصديقُ بخبرهم دونَ ذَوَاتِهِم، وفي خلافه يكون التَّضمين، ولم نجد تعديتُهُ بعلى إلا ما عند مسلم: (ما مِنْ نبيَ إلا أُتِي من الآيات ما مثلُهُ آمن عليه البشرُ) أي آمن معتمداً عليه البشر.

ثم الكفر لغةً: الستر وجَحْدُ النِّعمة وتناسيها، وحينئذٍ لم يبق التقابل بين الإيمان والكفر لغة إلا باعتبار اللازم، فإنّ جحود النعمةِ والتناسي لا يجتمع مع التَّصديق بأحد، وتصديقه لا يجتمع معه جحود نُعمتِهِ، وأما ضِدُّه الصريح

فهو الخيانة، كما أن ضِدُّ الكفر هو الشكر. ثم ههنا ألفاظ ينبغي الفرق بينها فالعلم دانستن والتصديق إن كان صفة القضية فمعناه: راست داشتن وإن كان صفة القائل فمعناه: راست كوداشتن وباوركردن والمعرفة شناختن واليقين إزاحة الشَّكِ وتحقيق الأمر، والفِكْر انديشيدن والفهم فهميدن فهذه ألفاظ ميزها أهلُ اللغة أي تمييز، فَرَاعِها تغنيك عن حدودِهِم الطويلة.

الإيمانُ وتَفْسِيْرُهُ عند الشَّرْع

قال عامة الفقهاء والمتكلمين: إن الإيمان تصديق بأمور مخصوصة عُلِم كونُها من الدين ضرورة. فلنتكلم أولاً على معنى التَّصديق وما يتعلق به، ثم لنبحث عن معنى الضرورة فالتَّصديق هو الإذعان عند الحكماء، وهو إما إدراك أو من لواحق الإدراك، والحق عندي هو الثاني ثم التَّصديق قد يجتمع مع الجُحود أيضاً وهو كفرٌ قطعاً قال تعالى: {وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} (النمل: ١٤)، وقال تعالى أيضاً: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءهُمْ} (البقرة: ١٤٦)، وقال تعالى: {فلما جاءهم ما عَرَفُوا كفروا به} (البقرة: ٨٩) فانظر كيف اجتمع اليقين والإذعان، والمعرفة مع الجحود فيلزمُ على التعريفِ المذكور أن يجتمع الإيمان مع الجحود، واللاّزمُ باطلٌ، ولذا جعل الفقهاء الإقرارُ شرطاً للإيمان، لإخراج تصديق الجاحدين، فإن الجاحد لا يُقر بلسانه البتة، ومن أقر باللسان لا يمكن منه الجحود، فكأنهم فهموا أن الإقرار مقابلٌ للجحودِ فجعلوه شرطاً، أو شطراً، احترازاً عن مثل هذا اليقين والمعرفة. وحينئذٍ فالجواب عندهم: إن هؤلاء وإن كانوا مستيقنين به، لكنهم لم يكونوا يقرُّون بألسنتهم، بل كانوا يجحدون، فلم يعتبر تصديقهم، ولم يُحكم عليهم بالإيمان، لأن التصديق المعتبر ما كان مع الإقرار باللسان ولم يوجد، وهو الفاصل في الباب.

واختلف فيه صدر الشريعة رحمه اللّه تعالى، والعلامة التَّفْتَازَاني رحمه اللّه تعالى، فقال صدر الشريعة رحمه اللّه تعالى: إن التصديق المنطقي أعم من الاختياري والاضطراري، والمعتبر في الإيمان هو الاختياري فقط؛ لأن الإيمان مُثّاب عليه، والثواب لا يترتب إلا على فِعله الاختياري، فما هو معتبر في باب الإيمان ليس بجامعٍ مع الجحود، وما هو بجامع معه ليس بمعتبر في الإيمان، وكأنه فَهِمَ أن الرجل إذا صدّق أحداً عن اختياره وطوعه، بدون إكراه مُكْرِه، لا يتمكّن على الجحود. والذي يجحدُ به لا يُمكنه التَّصديق عن اختياره. نحو أن يقعَ بصركُ على الجِدار، ويحصلُ لك الإذعان بوجوده اضطراراً، فهذا النوع من اليقين يمكن أن يجامع الجحود، فإنه ليس من فعله، بخلاف ما صدر عن اختياره، فإنه فعله، والظاهر أنه إذا فعل فعلاً عن اختياره لا يفعل نقيضه إلا أن يكون به جِنَّة، أو يكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

وادعى التفتازاني أن تلك المعرفة الحقة اليقينية المجامعة مع الجحود ليست بتصديق، بل هي من التصورات والتصديق اسمٌ لليقين المجامع مع التسليم، فكأنه أخرجَ تصديقَ الجاحدين عن مُسَمَّى التصديق ومتناولاته رأساً، وحينئذٍ ساغَ له أن يقول: إن المعتبر في الإيمان هو التصديق، وما وُجِد منهم هو اليقين المجامع مع الجحود، وهو تصورٌ وليس بمعتبر في الإيمان، وكأنه فَهِمَ أن التّصديق إذا قارنه التسليم لا يكون إلا اختياراً.

وحينئذٍ فالتصديق عنده مساوٍ للإيمان، بخلافه على الأول، فإنه كان أعم من الإيمان.

والذي يظهر عندي أن الصواب مع صدر الشريعة، فإن أرباب المعقول لعلهم لا يحكمون على تلك المعرفة اليقينية بكونها تصوراً، والظاهر أنها تصديق عندهم ثم العجب من صدر الشريعة كل العجب حيث اعترض على شيخ التسليم في «باب الزكاة» من «شرح الوقاية» بقوله: فانظر إلى هذا الذي أدرج ركناً زائداً في الإيمان... إلخ كيف، مع أن صدر الشريعة أيضاً قيدَ التصديقَ بالاختياري، وهذا الاختياري ليس أمراً وراء التسليم، على أنه مصرحٌ به في القرآن أيضاً: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} (النساء: ٦٥) فهذا التسليم هو الذي أضافه الشيخ رحمه الله، فلم يكن أمراً زائداً، كما ألزمه صدر الشريعة.

والحاصل: أن الفقهاء رحمهم الله شرطوا الإقرار لإخراج مثل هذا التصديق عن مُسمّى الإيمان. والشيخ الهروي: التسليم. وصدر الشريعة وإن عَمَّم التصديق أولاً، لكنه خصصه آخراً، وأراد منه الاختياري فقط، والتفتازاني خصصه من أول الأمر، وأخرجه عن مُسمّى التصديق ابتداءً، فلم يحتج إلى التخصيص، فالبيت واحدٌ وتلك أبوابه فأته من أيها شئت، ولعلك علمت مما

ذكرنا مرامى الفقهاء والعلماء، وأنهم لماذا يختلفون في العبارات وماذا يريدون منها.

ثم رأيتُ حكايةً في «الفتح» عن أحمد رحمه الله تعالى لا أرى في نقلها بأساً، وأريد أن أنبه على ما استفدت منها. قال أحمد رحمه الله: بلغني أن أبا حنيفة رحمه الله يقول: إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وكيف يكون هذا مع أنه رُوي عن ابن مسعود في الصحيحين، أن المرء إذا أسلم فأحسن في إسلامه، فهو كفارة له، وإلا فيؤخَذُ بالأول والآخر، فإنه يدل على أن الإسلامَ لا يهدم ما كان قبله مطلقاً، بل تبقى عليه المؤاخذة بعده أيضاً. واستفدت منه أن الإيمان عند أحمد رحمه الله كالتوبة الكلية، وهي عزمٌ على الإقلاع عن المعصية فيما يأتي، فمن أحسن بعد إسلامه، فقد صحت توبتُهُ وصار إسلامه كفارةً له، ومن أساء بعده ولم يقلع عن المعصية لم تصح توبته، فيؤخذ بالأول والآخر، وإذا كان الإسلام عنده كالتوبة، يكون وسيلة للأعمال، والأعمال مقصودة، فإنها المقصودة من التوبة، وإليه يشير ما نُقل عنه، أن الإيمان معاقدةٌ على الأعمال، أي أنه عقدٌ على التزام الطاعات على نفسه، والعقد يكون وسيلةً للمعقودِ عليه.

والإمام الهمام رحمه الله تعالى جعله من أكبر الأعمال وأساسها، ومقصوداً لذاته غير وسيلة لشيء. ثم لا اعتراض عليه بحديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، فإنه إن كان عند أحمد رحمه الله حديث ابن مسعود

رضي اللّه عنه، فعنده أيضاً حديث صريح عند مسلم: «إن الإسلام يَهدِمُ ما كان قَبْلَه» فلو كان عند أحمد رحمه اللّه محمل لحديث الهدم، فيمكن أن يكون عند الإمام الأعظم رحمه اللّه أيضاً محملٌ لحديثه. واللّه تعالى أعلم.

بحث في معنى الإقْرار

واخْتُلِفَ في الإقرار، فقال المرجئة: إن الإقرار ليس بشطرٍ ولا شرطٍ للإيمان، فالتصديق وحده يكفي للنجاة عندهم، حتى اشتهر القول عنهم: بأنه لا تضرُ مع الإيمان معصية. وعلى خلافهم الكرَّامية، فإنهم زعموا أن الإقرار باللسان يكفي للنجاة، سواءٌ وُجِدَ التصديق أم لا، فكأنهما على طرفي نقيض. وعندنا لا بد من الإقرار أيضاً، إما شطراً أو شرطاً.

قال التفتازاني: إن الإقرار لو كان شرطاً لإجراء الأحكام فلا بد أن يكون على وجه الإعلان والإظهار للإمام وغيره من أهل الإسلام، وإن كان لإتمام الإيمان، فإنه يكفي مجرد التكلم به وإن لم يظهر على غيره. ومن جعل الإقرار ركناً كالتصديق فرّق بينهما بكون التصديق لا يحتملُ السقوطَ في حال، بخلاف الإقرار، فإنه يسقطُ عند الأعذار. وفي «المسايرة» وجَعْلُ الإقرار بالشهادتين ركناً من الإيمان هو الاحتياط بالنسبة إلى جعله شرطاً خارجاً عن حقيقة الإيمان. ثم إنه شرطاً كان أو شطراً، لا بد منه عند المطالبة عند الكل، فإن طُولِبَ به ولم يُقر، فهو كافر كفر عناد، وهو معنى ما قالوا: إنّ تَرْك العناد شرطٌ في الإيمان. كذا صرح به ابن الهمام رحمه اللّه.

تنبيه: وههنا إشكالٌ يردُ على الفقهاءِ والمتكلمين وهو أن بعضَ أفعال الكفر قد توجد من المُصدِّق، كالسجود للصنم والاستخفاف بالمصحف، فإن

قلنا: إنه كافر، ناقض قولنا: إن الإيمان هو التصديق. ومعلومٌ أنه بهذه الأفعال لم ينسلخ عن التصديق، فكيف يُحْكم عليه بالكفر؟ وإن قلنا: إنه مسلم، فذلك خلافُ الإجماع. وأجاب عنه الكَسْتلّي تبعاً للجُرْجَاني: أنه كافر قضاءً، ومسلم دِيَانَة. وهذا الجواب باطلٌ مما لا يُصْغى إليه، فإنه كافر دِيَانة وقضاءً قطعاً، فالحق في الجواب ما ذكره ابن الهمام رحمه اللّه تعالى، وحاصله: أن بعض الأفعال تقوم مَقَام الجحود، نحو العلائم المختصة بالكفر، وإنما يجب في الإيمان التبرؤ عن مثلها أيضاً، كما يجب التبرؤ عن نفس الكفر. ولذا قال تعالى: {لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَنِكُمْ} (التوبة: ٦٦)، في جواب قولهم: {إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} (التوبة: ٦٥)، لم يقل: إنكم كذبتم في قولكم، بل أخبرهم بأنهم بهذا اللعب والخوض اللذين من أخصِّ علائم الكفر خلعوا رِبْقَةَ الإسلام عن أعناقهم، وخرجوا عن حِمَاهُ إلى الكفر، فدل على أنّ مثلَ تلك الأفعال إذا وجدت في رجل يُحكم عليه بالكفر، ولا يُنظر إلى تصديقه في قلبه، ولا يلتفت إلى أنها كانت منه خوضاً وهزأً فقط، أو كانت عقيدة. ومن ههنا تسمعهم يقولون: إن التأويل في ضروريات الدين غيرَ مقبول، وذلك لأن التأويلَ فيها يُساوق الجحود وبالجملة: إن التصديق المجامعُ مع أخصِّ أفعال الكفر، لم يعتبره الشرع تصديقاً، فمن أتى بالأفعال المذكورة فكأنه فاقدٌ للتصديق عنده وأوضحه الجصّاص، فراجعه.

المحورُ الذي يدورُ عليه الإيمان

وإذا قد علمت أن التَّصديقَ والتسليمَ والمعرفةَ واليقينَ كلُّها يُجَامِعُ الجحود، فلا بد من تفسير يتميز به الكفرُ من الإيمان. كيف وهذا القرآن يشهدُ بمعرفة الكفار، قال تعالى: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءهُمْ} (البقرة: ١٤٦) وهذا أبو طالب يُقِرُ بنبوتِهِ ونباهته صلى اللّه عليه وسلّمويُعْلنُ بها في أبياته، حتى دارت وسارت، فيقول:

ودعوتَني وزعمتَ أنَّكَ صادِق وصدقت فيه وكنت ثَمّ أمِيناً
وعرفتُ دينَك لا محالةَ أنه من خير أديانِ البَريَّةِ دِينا
لولا الملامةُ أو حَذَار مَسَبَّةٍ لوجدتَّني سمحاً بذاك مُبيناً

وهذا هرقل عظيم الروم يقول: لو أني أعلم أني أَخْلُصُ إليه لتجَشَّمْتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغَسَلْتُ عن قدميه، وفي «فتح الباري»: عن مرسل ابن إسحق عن بعض أهل العلم: أن هرقل قال: ويحك، واللّه إني لأَعْلَمُ أنه نبيٌ مرسل، ولكني أخاف الرومَ على نفسي، ولولا ذلك لاتَّبعتُهُ. فهل تريدُ من التصديق أمراً وراء ذلك؟ فلما وُجِد منهم التصديقُ والتسليمُ والإقرارُ بهذه المثابة، وَجَبَ على التعريفِ المذكور أن يُحْكم عليهم بالإسلام، مع اتفاقهم على كونهم كافرين.

فأقول: إنّ الجزءَ الذي يمتاز به الإيمان والكفر، هو التزام الطاعة مع الردع والتبري عن دين سواه، فإذا التزم الطاعة فقد خرجَ عن ضلالة الكفر ودخل في هَدْي الإسلام. وحينئذٍ تبين لك وجه كفر هؤلاء الكفرة مع تصديقهم ومعرفتهم، وذلك لأن أبا طالب وإن أعلن بحقية دينه، إلا أنه لم يلتزم طاعته، ولم يدخل في دينه، ولذا قال: لولا الملامة أو حذار مسبة.... إلخ، فآثر النار على العار. وهكذا هِرَقل، وإن تمنى لقاءه وَبجَّلَه وعظمه بظهر الغيب، لكنه خشي الرومَ أشدَّ خشية، فلم يلتزم طاعته. وكذلك حال الكفار الذين أخبر الله سبحانه عن معرفتهم، فإنهم مع معرفتهم الحقَ، صفحوا عن كلمة الحق، ولم يَدِينُوا بدين الإسلام.

ولذا أقول: إن الإيمان من الإرادات وترجمته في الهندية (ماننا) فهذا هو الصواب في تفسيره، فقد نقل الحافظ ابن تيمية رحمه الله تعالى الإجماعَ على كون هذا الجزء مما لا بد منه في باب الإيمان، وحينئذٍ ينبغي أن يراد من الإقرار في قول الفقهاء: الإقرار بالتزام الطاعة. وإن كان المراد منه الإقرار بالشهادتين كما هو المشهور، يبقى الإشكال.

ثم إنهم اكتفَوا بذكر هذه الأشياء، وفسروا بها الإيمان، لأن الإيمانَ بعد تحقُّقِها يتحققُ في أكثر المواد، وإن تخلَّف عنها في بعض، فبالنظر إلى مواد الاجتماع، جعلت كاللوازمِ المساوية له. وزعم أنها عين الإيمان، ثم إذا أمعنتَ النظرَ في مادة الافتراق وعلمت أنها ليست بإيمان ولا لوازمَ مساوية له،

وجب عليك أن تطلبَ أنَّ حقيقةَ الإيمانِ ماذا؟ فهذا الذي نبهناك عليه، هو حقيقة الإيمان، وذلك وإنْ لم يقرع سمعُكَ، لكنه هو الصواب إن شاء اللّه تعالى، فإن هذا الجزء لا يجامعُ الكفرَ بأنواعه، أي نوع كان.

ونُقِل عن إمام الحرمين رحمه اللّه تعالى وعن الأشعري رحمه اللّه تعالى أيضاً كما في «المسايرة»: أنّ الإيمانَ كلامٌ نفسيٌّ، وكأنهم أرادوا به: أن القلب إذا تكلَّمَ بكلمة الشهادةِ وأذعن بها فقد تم الإيمان، لأنه لا يمكن منه الجحود بعده، بخلاف الإقرار باللسان، فإنه يمكن الجحود بعده أيضاً. فالإيمان على هذا التقدير ليس عِلماً من العلوم، بل قول من أقوال القلب. فقول القلب تصديقٌ وإيمان عندهم، وقول اللسان إقرار. ويمكن أن يُحْمَل عليه قول مَنْ قال: إن الإيمانَ قولٌ وعملٌ. ولست أريدُ أنّه مراد البخاري رحمه اللّه تعالى أو المحدثين، بل أريدُ أن له وجهاً أيضاً. وأما ما نُقل عن إمامنا رحمه اللّه تعالى: أن الإيمان معرفة.

فالمراد منه المعرفةُ المصطلحةُ عند الصوفية رحمهم اللّه تعالى، وهي التي تحدثُ بعد الرياضات، وهي الإيمان الكامل. وتلك لا تجامِعُ الجحود أصلاً، بل قلما توجد في قلوب عامة المسلمين، وليس المرادُ منها المعرفة اللغوية ونحوه.

نُقل عن علي رضي اللّه عنه وأحمد رحمه اللّه: أن الإيمان معرفةٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان. وأما ما شَرَطَه جَهْمٌ، فقد ردّ عليه إمامنا رحمه اللّه، كما نقله أصحابنا، فالمراد من المعرفة ما يستوجب العمل، لا التي تجامع الجحود أيضاً، وهي التي تراد في مواضع المدح، وهي التي من الأحوال والأعمال.

أما الإيمان أو المعرفة إذا أطلق على غير هذا مما لا يكون معتبراً، فيُحْترسُ هناك ولا يُتركُ بدون تنبيه. قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الأخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ} (البقرة: ٨) فنبَّه أن إيمانهم غير معتبرٍ. ثم اعلم أنه أطلق في «الإحياء» الحال على الإيمان. أقول: والأولى لفظ العمل، لأن العمل في اللغة يختص بالاختياري وأما ما يقال: «مات زيد»، فمات فعلٌ، فهو اصطلاحُ النُّحاة. وأما أهل اللغة فلا يُسمُّونَه فعلاً، وإنما الفعلُ عندهم ما يصدر عن اختيار، فالإيمان فعلٌ اختياري، ولا بُدٌّ، فإن المرء لا يُثاب إلا على ما فعله من اختياره، بخلاف الحال، فإنه يُنبىءُ عن عدم الاختيار، ثم له وجه أيضاً، فإن الإيمان وإن كان عملاً في الابتداء، لكنه بعد الرسوخ يصيرُ حالاً غير اختياري، فإطلاق الحال عليه أيضاً صحيحٌ بنحو من الاعتبار.

وعن أحمد رحمه اللّه: أنه معاقدةٌ على الأعمال، أي الإيمان عقدٌ، على أنه التزامٌ بأداءِ جميع الأعمال على نفسه. أقول: وحينئذٍ يكون الإيمان كالوسيلة، والأعمال مقصودة، فإن العقد وسيلةٌ، والمقصودُ هو المعقود عليه، مع أن

الإيمانَ من أسنى المقاصد، وبعد اللُّتيا والتـي أن الإيمـان تصـديقاً اختياريـاً كان، أو معه تسليم، كلاماً نفسياً كان، أو معرفة، أو معاقدة، لا يفنك عن هـذا الالتزام، والطاعة له صلى اللّه عليه وسلّمفي جميع مـا جـاء بـه. فأمـا أن يـراد بألفاظهم هذا، أو يُزادُ عليها هذا الجزء. بقي إصـلاح الاصـطلاحات والألفـاظ، فهذا أمر نَكِلُهُ إليك، ولسـنا بصـدده بعـد وضـوح حقيقـة الحـال. واللّه تعـالى أعلم وملمُهُ أتم.

المَعْرِفَةُ شرطٌ في الإيمان أم لا؟

فالمشهور عن الأئمة الأربعة رحمهم اللّه: أنها ليست بشرط، بخلاف المعتزلة فإنها شرط عندهم، ومعناه عندهم: أن يكون عنده من الدلائل على التوحيد والرسالة ما يوجب اليقين، بحيث لا يزولُ بتشكيكِ المشكِّك، ويجبُ عند أئمتنا اليقين، ولا يجب سُنُوحُ الدلائل معه، وهو الحق، فإنه يُعلم من الصحيحين العبرةُ بإسلام رجالٍ أسلموا في الحروب والسيوف تلمع عليهم. وكذلك أمرنا أنْ نَكُفَّ سيوفنا عمن قال: لا إله إلا اللّه، لأنه دليل صادق على رضائه بالإسلام، والترك لدينه، وحسابُهُم على اللّه، وأين تحضرهم الدلائل في هذا الحين. وهذا معنى ما يقال: إن إيمانَ المقلدُ معتبرٌ عندنا، فمن آمن تقليداً وأذعن به قلبه، فإنه مؤمنٌ وإن لم يكن عنده دليل على ذلك، بخلاف المعتزلةِ وزعم بعض السفهاء: أن الاختلافَ في عبرةِ إيمان مقلدي الأئمة رحمهم اللّه تعالى وعدمها، وهو حمقٌ، والصواب ما علمت.

والحاصل: أنّ أولَ الواجبات عند المعتزلة: هو المعرفة، ثم الإيمان. وعندنا: الإيمان، هو أول الواجب، وليست تلك المعرفة شرطاً أصلاً، ثم رأيتُ، في «جمع الجوامع»: أن لو حصل لرجل ظن، ولم يكن عنده اعتقادٌ جازمٌ،

فهو أيضاً كاف لإيمانه، بشرط أن لا يخطر الكفرُ فـي قلبـه، ولا يوسـوس بـه صدرُهُ، ولا تترددُ فيه نفسُه.

قول وعمل

وفـي عامّـة نُسـخ البخـاري: قـولٌ وفعـلٌ، ولا أعلـم وجهَـه. ولفـظ السَّـلف: الإيمان: اسم للاعتقاد والقول والعمل، فلا أدري ما وجه تغييرهِ عُنوان السلف، ووضعُ الفعل بدل العمل، مـع أن الأظهـرَ هـو العمـل. ولمـا أراد البخـاري مـن القول مـا يوافـقُ البـاطنَ انـدرج الاعتقـاد تحتـه. ولـذا حذفـه مـن مقـولتهم. فالإيمان عند السلف عبارة عن ثلاثـة أشـياء: اعتقـاد، وقـول، وعمـل. وقـد مـر الكلام على الأولين: أي التصديق، والإقرار، بقي العمل، هل هو جـزءٌ للإيمـان أم لا؟ فالمذاهب فيه أربعة: قال الخوارج والمعتزلة: إن الأعمال أجزاءٌ للإيمان، فالتارك للعمل خارج عن الإيمان عندهما. ثم اختلفوا، فـالخوارجُ أخرجـوه عـن الإيمـان، وأدخلـوه فـي الكفـر، والمعتزلـةُ لـم يـدخلوه فـي الكفـر. بـل قـالوا بالمنزلةِ بين المنزلتين.

والثالث: مذهب المرجئة فقـالوا: لا حاجـة إلـى العمـل، ومـدار النَّجـاة هـو التصديق فقط. فصار الأوَّلونَ والمرجئة على طرفي نقيض.

والرابع: مذهب أهل السنة والجماعة وهم بـين بـين، فقـالوا: إن الأعمـال أيضاً لا بد منها، لكنّ تَاركها مُفَسَّقٌ لا مُكَفَّـر. فلـم يُشـددوا فيهـا كـالخوارج، والمعتزلة، ولم يهوِّنوا أمرهـا كالمرجئـة. ثـم هـؤلاء افترقـوا فـرقتين، فـأكثر المُحدِّثين إلـى أن الإيمـانَ مركـبٌ مـن الأعمـال. وإمامنـا الأعظـم رحمـه اللّه

تعالى وأكثر الفقهاء والمتكلمين إلى أن الأعمال غير داخل في الإيمان، مع اتفاقهم على أن فاقدَ التَّصديق كافرٌ، وفاقدَ العمل فاسقٌ، فلم يبق الخلاف إلا في التعبير. فإن السلف وإن جعلوا الأعمال أجزاء، لكن لا بحيثُ ينعدمُ الكل بانعدامِهَا، بل يبقى الإيمان مع انتفائها.

فلنشرح أولاً مراد السلف، والكشف الغِطاء عن قولهم: الإيمان: قول وعمل، ثم لنبحث أن الأعمال هل تصلح لجزئية الإيمان أم لا؟ فاعلم أن قولهم هذا ليس نصاً في الجزئية كما فهموا، لأنه ليس من لفظ السلف أن الأعمالَ أجزاءٌ للإيمان، بل لفظهم: «قول وعمل» وهو يحتملُ شروحاً يصدقُ بعضها على مذهبنا[٤٣٦] أيضاً، بل هو أولى الشروح كما ستعرف.

فإن قيل: فما مِقْدَارُ الطاعات التي يَخْرُجُ بتركها من الإيمان؟ قلنا: عِلمُها عند الله، وعدم علمنا بمقدارها، لا يقتضي أن لا يكون لها مقدار في الواقع. وهذا كالسواد والبياض، إذا انتقصْتَ من السواد درجة، لا يأخذُ البياضُ مكانها. نعم، لا تزال تنحطّ منه درجة بعد درجة، حتى إذا انتفت جميع مراتب السواد، يجيء البياضُ بدله. فهكذا الإيمان والكفر، لا يزال الإيمانُ ينقصُ بالمعاصي، حتى إذا انتفت المرتبة التي هي مَدَار النَّجاة، استخَلَفه الكفر، فيصبح من الكافرين.

---

٤٣٦) المذهب الحنفي.

وبعد ذلك أقول إن الزيادة والنقصان في الإيمان باعتبار التصديق، لم يجر البحث عنهما في السلف، لا نفياً ولا إثباتاً، فإن الكلام في أجزاء الشيء بعد التحليل، بحثٌ منطقيٌ. وإنما أوجَدَه المتكلمونَ من المتأخرين، وأول من تكلم فيه القاضي أبو بكر البَاقِلاني. والكلام في السلف، إنما كان في زيادة الإيمان ونقصانه، سواء كان من تلقاء الأجزاء أو من جهة السراية. وعلى هذا فالبحث عنه في «صحيح البخاري» لغو.

إلا أني أتكلم عليه يسيراً على طورهم. فأقول: إن الزيادة والنقصان في الإيمان بحسَبَ نفس التصديق، مما يمكن عقلاً قطعاً، وإن لم يتكلم فيه السلف. وغاية ما ذكروه في النفي أمران:

الأول: أن التصديق ماهية من الماهيات، فلو قلنا بالزيادة والنقصان لزم التشكيك في نفس الماهيات، وهو باطل. قلتُ: الاستمداد في مثل هذه المسألة بقواعد الحكماء مما لا يزول عنك عاره. فالعجب من الشيخ ابن الهمام رحمه الله تعالى كيف اتسمد به مع أن المسألة في نفسه باطلة عند محققيهم أيضاً. وقد جوَّزَ بحر العلوم التشكيك في الماهية بنوعيه، على أنه يلزم حينئذٍ أن لا تكون الصلاةُ أيضاً ناقصة وزائدة بعين ذاك الدليل، لأنها أيضاً ماهية من الماهيات، مع أنَّ الزيادة والنقصان فيها مما لا ينكِرُه أحد.

والثاني: أنهم قالوا: لو جُوِّزَ التشكيكُ في التصديق. لـزمَ اجتماعـه مـع الشك، لأنه إذا انتفى جزءٌ منه جاء جزءٌ من الشك بدله، فلا يبقى منجياً، فلا يكون إيماناً.

قلت: وهو أفحشُ من الأول، ألا ترى إلى سواد الثوب فإنه أضعفُ من سواد الغُرَاب بداهة، ولا يقول عاقلٌ إنه إذا كان أضعفُ لزمَ أن يكون فيه جزء من البياض، فكذلك لا يلزمُ من فوات جزءٍ من التصديق أن يجيءَ بدلَه جزء من ضِده. والحق أن السوادَ عَرْض عريض، وفيه مراتب لا يَعُدها عادّ، وبنقص واحد منها لا يجيء جزءٌ من البياض بدله، بل إذا نتفى جميعُ مراتبه ولم تبق مرتبة منه يجيءُ البياضُ قطعاً، وما دام مرتبةٌ من مراتب السواد باقية، لا يَحُكم عليه عاقلٌ أن جزأ من البياض موجودٌ فيه.

ونحوه نقولُ في تقسيم الجسم، بأن تقسيمَ الجسم ليس إلى ما لا نهاية له كما زعمه الفلاسفة، بل ينتهي إلى العدم، فإنهم قالوا: إن الاتصال ذاتي للجسم، فإذا فات جميع الاتصالات فلينعدم الجسم لا محالة على قولهم، فإن ارتفاع الذاتي يستلزمُ ارتفاع الذات ومنشأ غلطهم: أن إعدام جميع الاتصالات ليس في طوق البشر؛ لأنه في الحقيقة إعدامٌ للشيء، والإعدامُ والإيجادُ كلاهما في يد المبدئ والمعيد، لا إله إلا هو، فإذا لم يقدروا على إعدام جميع الاتصالات، فهموا أن تقسيم الجسم لا ينتهي إلى نهاية، وليس كذلك، بل ليس هذا في قُدرَتِنَا. ولو استطعنا إفناء جميع الاتصالات لانْتَهَى

التقسيم، وانعدم الجسم، إلا أنه بيد الواحد القهار، لا شريك له هو يحيي ويميت.

فكما أنّ الجسمَ لا يزالُ ينقسم، ويطلق عليه الجسم ما دام يبقى فيه اتصال ما، ولا يجيءُ العدم أصلاً إلا إذا فات جميع مراتب الاتصال، كذلك التصديق لا ينتفي إلا بعد انتفاء جميع مراتبه. ولا يلزمُ بانتفاء جزء منه أن يقومَ مَقَامَهُ جزءٌ من الكفر، فإن الإيمان أيضاً عَرْض عريضٌ. نعم بفوات مرتبة بعدمرتبة، يجيءُ زمان ينتفي فيه جميع مراتبه، ثم يطرأ الكفر عليه البتة. ولكنا لا ندري عدد هذه الأجزاء، وأنه متى يجيءُ زمان فوات جميعها؟ إلا أنه نعلم إجمالاً أنه يجيءُ وقتٌ ما قطعاً ينتفي فيه جميع مراتبه. وحينئذٍ ينسلخ عنه اسم الإيمان.

وقد نبهتُك آنفاً على أن هذا البحث لم يجر في السلف، بل هو بحث عقلي، أوجدَه المتأخرون من جانبهم عقلاً. والسلف إنما اختلفوا في نفس الإيمان، لا في جزءٍ منه بعد التحليل. فمن قال: إنه قول وعمل، ذهب إلى الزيادة والنقصان أيضاً، لأنه إذا أدخل العمل في الإيمان، فمن عمل عملاً صالحاً فقد تم إيمانه. ومن نَقَصَ فيه انتقص إيمانه لا محالة على تحقيقه. ومَنْ لم يُدخل الأعمال في الإيمان، بل جعله عبارةٌ عن التصديق، لم يلزم عليه ذلك. فأصل النزاع في إدخال الأعمال في مُسمّى الإيمان، وإخراجها عنه، وإن الإيمان أمرٌ أو أمور. ولذا بوَّبَ البخاري فيما بعد: باب أمور الإيمان نعم،

من يجعل الإيمان مركباً يلزمه أن يذكَر له أموراً، ومن يجعله بسيطاً لا تكونُ له أمور عنده. ولذا قيل: إن تلك المسألة ليست مستقلةً، بل من فروع الأُولى، أي كون الإيمان قولاً وعملاً.

هكذا كنتُ أفهمُ تحقيق الاختلاف، وإليه ذهب أكثر الشارحين. ثم رأيت زيادةً في مَقُولَة السلف، انقلب منها المراد ففهمتُ حقيقة الحال، وهي أنهم قالوا: الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فبان منه أنهم قائلون بالزيادة والنقصان في التصديق الباطني، دون الإيمان المركب. فإن عبارتَهم هذه تدلُ على أن الأعمال دخيلةٌ في ازدياد الإيمان ونقصانه، وسبب له، لا أنها داخلة وإن لها سرايةً وتأثيراً في نماء التصديق والإيمان، لا أنها أجزاء. فلم يكن الإخلال بالعمل عندهم كقطع الغصن من الشجرة، بل كعدم سقيها بالماء، فلا بد أن تيبس. وتبيَّنَ منه أن البخاري اختصر في نقل قولهم اختصاراً مخلاً.

والحاصلُ: أن الأعمال على الشرح الأول كانت كالأصابع لليد، بخلاف هذا الشرح، فإنها أسباب. وإن الاختلاف على الأول كان بحَسَب الكمية، والآن جاء البحث في الكيفية فقولهم: الإيمان قول وعمل يحتمل شروحاً، كما مر، وقولهم هذا انحصر في السببية، وليس له شرح غيره. وحينئذٍ صارت تلك أيضاً مستقلة. ولم تَصِر من فروع الأولى. فإن الإيمان مركباً كان أو بسيطاً يصلحُ محلاً لاختلاف الزيادة والنقصان بهذا المعنى. ثم الزيادة والنقصان

بهذا المعنى لا ينكره الإمام أيضاً، فإن الانفساخ والانشراح زائدٌ وناقصٌ قطعاً، وهو المبحوثُ عنه في القرآن. وعليه يحمل ما تلا المصنف من الآيات.

وحاصل الخلاف على هذا التقدير: أن الإمام الأعظم رحمه الله تعرَّض إلى أمرٍ لم يتعرض إليه السلف، فإنه تكلم في مرتبة محفوظة، وهي التي يدور عليها أمر النجاة، وليس بعدها إلا الكفر

فالتصديق وإن كان زائداً، أو ناقصاً، باعتبار مراتب الكمال، والانفساخ، والانشراح، إلا أن الإمام الهُمام أفرز بالبحثِ حصةً منه، وهو التصديق بمعنى انتفاء الشك، ولا تفاوت بين الانتفاءِ، والانتفاءَ. وإنما التفاوت في الانشراح والاسْتِيلاء.

قال الغزالي رحمه الله: إن الإيمان قد يطلق على اليقين، بمعنى انتفاء النقيض، ولا تفاوت فيه، فإن الانتفاء رأساً لا تقام فيه المراتب، وقد يُطلق على استيلاء اليقين على القلب وجعلِهِ الجوارحَ تابعاً له وهو الأكثر، وهذا هو الذي فيه التفاوت، فوقع الالتباس بين المعنيين، فقيل ما قيل، فإما أن نقول: كما قال الغزالي، أي بتعدد الإطلاق في الإيمان. أو نقول: إن الإمام بحث في جُزءِ من الإيمان، لأن نَظَرَ الفقهاء يتعلق بالخلود والنجاة، أولياً، كان أو مآلياً، بخلاف أنظار المحدثين، فإنها تقتصرُ على النجاة الكاملة الأولية، ولا يمكن إلا بالأعمال الصالحة. فالفقيه يبحثُ عن مراتبِ التصديق عما هو مدارٌ

للنجاة، ولو مآلاً، ومن الكفر عما يوجب الخلود. وهذا كالشهادة، فإن الفقهاء إنما يبحثون عنها باعتبار أحكامهم في الدنيا، والذين تجرى عليهم تلك الأحكام قليلون، بخلاف ما في الحديث، فإن إطلاقَ الشهادة فيه أعمُ وأعم.

ومثله وقع في كثير من المواضع، فالقرآن والحديث إنما تعرَّض إلى انفساحِ التصديق. والانفساحُ أيضاً تصديق في نظر، لأنه تابعٌ له ناشيء عنه، ولذا أطلقَ عليه البخاريُّ الإيمانَ، والإمام الهُمَام لم يتعرض إليه، بل تعرض إلى مرتبة مخصوصة، كما يدل عليه عبارة الطحاوي في «عقيدته»، وهي أثبتُ شيءٍ في هذا الباب. قال: الإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل في الخشية، والتُّقى ومخالفة الهوى، وملازمة التقوى... إلخ فجعل للإيمان أصلاً، وجعل الناسَ كلهم فيه سواء، وهو الذي لو انحط عنه الإيمان لجاء الكفرُ مكانَهُ، وأبقى التفاضل في أمور تتعلق بالإيمان من الخشية وغيرها. فالإيمانُ بمعنى التقوى والخشية، يزيد وينقص، والناس يتفاضلون فيه على نص الطحاوي نعم، هناك أصلُ الإيمان، وهو واحد، ولا تفاوت فيه.

ومن ههنا علمت: أن هذا الاختلاف ليس من باب النزاع اللفظي على اصطلاح المناطقة، فإنه ليس من دَأب المحصلين، فضلاً عن الأئمة المجتهدين، بل من باب الاختلاف في الأنظار، بمعنى أن هذا مؤدٍ لِطَرفٍ صحيح. وهذا أيضاً لطرفٍ آخر صحيح. وعند كل حِصةٌ صحيحة. والناجي عندَ واحدٍ ناجٍ عند آخر، وكذلك الهالك عند واحد هالك عند آخر. وإنما تعرض

الإمامُ إلى تلك المرتبة، لأن الإيمانَ عند السلفِ كان عبارة عن المجموع، ولم يكن هذا المجموع مداراً للنجاة، بحيث تنعدم النجاةُ بانعدام جزء منه، فوجب أن يُنَبِّه على الحصة التي يدورُ عليها أمر النجاة، وهذا أيضاً كان أهم، فنبَّه الإمام على أن الإيمانَ المركبَ ليس مداراً للنجاة المطلقة، بل هو مدارٌ للنجاة الأولية.

أما الذي تنتفي النجاةُ بانتفائه مطلقاً فهو التصديق، ولذا لم ينقل أحد في لفظ الإمام: بأن الإيمان لا يزيد بالطاعة، ولا ينقص بالمعصية. وهو النقيض الصريح لما يقوله السلف، ويلزمُ منه انتفاءُ الزيادة والنقصان، بمعنى السراية والتأثير أيضاً، ولم يكن مراداً للإمام، فأُوردَ النفيُ على غير محل الإيجاب.

والحاصل: أنه نُقل عن السلف: إثبات الزيادة والنقصان مجملاً، فأوهم ثبوتهما باعتبار نفس الإيمان، ثم نقل عنهم إثباتهما من تلقاء الأعمال، فتحققت السراية. وإذا كانت الأعمال أسباباً، لم يبق الإيمان إلا عبارة عن التصديق، والزيادة فيه على طريق السلف لا تكون إلا في نمائه ونوره، فانكشف الأمرُ وثَلَجَ به الصدر. وأن ما يزيد وينقص عندهم هو انبساط الإيمان، وللأعمال سراية فيه، وهو تصديق أيضاً إطلاقاً للشي على مبدئه. ولو أرادوا جُزئية الأعمال لقالوا: الإيمانُ يتحقق بالطاعة وينعدمُ بعدمها، فلم يتوجهوا إلى الجزئية، بل أرادوا به بيانَ سراية الأعمال وتأثيرها في الإيمان.

والإمام لما لم يقل: إن الإيمانَ لا يزيد بالطاعة، ولا ينقص بالمعصية، عُلم أنه لم يَرد بنفي الزيادة إلا الزيادة في مرتبة محفوظة، ولذا لم ينف الزيادة في الانبساط بالطاعات، وإنما نفاها عن أصل الإيمان الذي يحصل قبل الأعمال، وأبقى الزيادةَ والنقصانَ في الخشية والتقوى، كما مر عن الطحاوي رحمه الله تعالى، فلم يكن مورد النفي عين مورد الإيجاب، فمعنى قوله: لا يزيد ولا ينقص: أي أصله، ومعنى قولهم: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، أي بهائه ونمائه، فأين الخلاف؟ نعم أدى كلّ حِصة صحيحة. ولذا صرح الحافظ ابن تيمية رحمه الله تعالى بكون مقولتِهِ من بدعة الألفاظ، فكأنه لم يجد بُداً من تسليم صحة مقولة الإمام رحمه الله تعالى.

ثم رأيت في «الكشاف» من الإمام الهمام رحمه الله تعالى نفسَه في الجواب عن الآيات التي تدل على الزيادة والنقصان، أن الإيمان كان يزيد في زمن النبي صلى الله عليه وسلّمباعتبار المؤمن به، لأن الشريعة كانت تنزلُ وتزيدُ يوماً فيوماً. أما إذا كملت الشريعة وتمّ الدين ولم يبق احتمالٌ للنسخ والتبديل، استحالت الزيادة فيها، فلا زيادة ولا نقصان في الإيمان بعد زمنه صلى الله عليه وسلّم واستفدت منه أن الإيمان عند الإمام رحمه الله تعالى إرادةٌ على إطاعة النبي صلى الله عليه وسلّمبجميع ما جاء به. وتلك الإرادة تنسحِبُ على جميع الشريعة، بحيث لا يشذُ عنها شاذ. فمعنى قوله: لا يزيد

ولا ينقص أن يدخل جميعُ المؤمن به تحتَ الالتزام، لا أنه يلتزم بعضاً دون بعض آخر.

فإذا كان الإيمان إسماً لالتزام الجميع بحيث لا يزاد عليه شيء ولا ينقص منه شيء فكيف يزيد الإيمان وينقص بهذا المعنى؟ فالنفي بالحقيقة راجعٌ إلى المؤمن به دون الإيمان. وإذن معنى قولهم: يزيد وينقص أي الإيمان بنفسه. ومعنى قوله: لا يزيد ولا ينقص أي باعتبار المؤمن به. وظاهر أنه لا تفاوت فيه بين إيمان أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه وبين إيمان أدنى مؤمن من أمته صلى اللّه عليه وسلّم لأن إيمان أدنى مؤمن يشتملُ على جميع الأشياء التي يشتملُ عليها إيمان أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه، فكما أن أبا بكر رضي اللّه تعالى عنه التزم الإتيان بجميع الشريعة، كذلك أدنى مؤمنٌ من الأمة أيضاً التزم بجميعها، فلا فرق في هذا المعنى. إنما الفرق في الخشية والتُّقى ومخالفة الهوى. فلو وزنت إيمانَه بهذا المعنى لترجح إيمانه، على جميع أمته.

ونظيره ما روى الترمذي عن عبد اللّه بن عمر وقال: خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّموفي يديه كتابان، قال: «أتدرون ما هذان الكِتَابان؟» قلنا: لا يا رسول اللّه إلا أن تُخْبِرَنا فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتابٌ من رب العالمين فيه أسماءُ أهلِ الجنة، وأسماء آبائهم، وقبائِلِهم، ثم أجمل على آخِرهم، فلا يُزَادُ فيهم ولا يُنْقَصُ منهم أبداً»... إلخ فكما أن نفي الزيادة

والنقصان راجع فيه إلى من فيهما من أسماء أهل الجنة والنار، كذلك نفي الزيادة والنقصان عن الإيمان راجع باعتبار ما فيه من الأحكام، وهي المؤمن بها.

بقيت الصورة المثالية فهي زائدة وناقصة قطعاً.

وإذا سمعت أن الاختلافَ فيه اختلاف الأنظار فقط، فلننظر أن أي النظرين أنفع، فنقول: إن الإيمان إذا كان إسماً للمجموع لم تتضح له مزية على الأعمال في التعبير. ويتوهم كون جميع أجزائه متساوية الأقدام. ولما كان الإيمانُ من أسنى المقاصد، وأبرِّ الأعمال، وشرطاً لسائرها وأساسها ودِعامتها، لا كما يُتوهم مما قاله أحمد رحمه الله تعالى: أنه معاقدة، جعلناه منفرداً عن الأعمال تاماً بنفسه، ومختَتَمَاً بذاته، غيرُ منتظر إلى الأعمال، فلا يُخفف أمره، ولا تُحطّ رتبته، بجعله مركباً مع غيره، فإن الأعلى لا يعدّ مع الأدنى، والأصل مع الفرع، والتابع مع المتبوع، فلا بد أن يُظْهِرَ حقيقته في نفسه أيضاً، ويرى مكانه ومنزلته. ولا يمكن إلا بجعله منفصلاً عن الأعمال، وإذا انفصل أصلُ الإيمان لعظمة أمره عن الأعمال، فلا يكون إلا بسيطاً.

فما قاله السلف أيضاً نظر صحيح. وما قاله الإمام الهمام أيضاً نظر صحيح. إلا أنّ كلامَ السلف يُبْنى على النظر الإجمالي وعَدِّ متعلقات الشيء والفروع مع الأصل. وكلام إمامنا يكشف عن الحقيقةِ ويعطي كل ذي حظ

حظه، ويضعُ كل شيء مكانه. ولا خلاف في الحقيقة كما مر مراراً. ثم بعد التفتيش عُلم أن هذه الأقوال لم تصدر عنهم في بيان العقيدة، وإنما هو من باب مقتضيات الأحوال، لأن السلف أرادوا الردَّ على المرجئةِ الآخذين من الإيمان التصديق فقط، والقائلين بأنه لا يضرُ مع الإيمان معصية. فكأنهم حطُّوا الأعمال عن مرتبها، وعطَّلُوها؛ وجعلوها كالمطروح في البين، وهذا جهل عظيم فردّ السلفُ عليهم واهتموا بذكر الأعمال، حتى أوْهَم بجزئيتها وانتفاء الإيمان بانتفائها.

فقالوا: إن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، فله تعلقٌ عظيمٌ مع الأعمال، حتى إن ازديَادَها مؤثر في زيادته، ونقصَانها في نقصانه، فأين هؤلاء من الإيمان؟ فكأنهم أرادوا بهذا القول أن لا يتهاون الناس في أمر الأعمال، ولذا تواتروا بذلك القول، وتتابعوا عليه، حتى صارَ علماً لأهل السنة والجماعة عندهم. ومن خالفهم في هذا القول رَمَوه بالإرجاء وغيره، لأنهم ابتلوا بهم، فمن خالفهم ولو في التعبير، أدخلوه في زمرتهم وحزبهم، وزعَمُوه معيناً ونصيراً لهم.

ثم جاء إمامنا الأعظم رحمه الله تعالى ورأى في زمنه فتنة الاعتزال والخروج، وكانوا يقولون: إن مرتكب الكبير مخلد في النار، فأراد الردَّ على هؤلاء المتوغلينَ في أمر الإيمان والمعطين الأعمال ما ليس لها بحق، فلو قال: في مقابلتهم أيضاً كما قال السلف لكان إعانة لهم فغير عنوانهم،

فقال: إن الإيمانَ لا يزيد ولا ينقص، فالأعمال ليس كما قلتم، بل هي وإن كانت أهم في نفسها، إلا أن أمرَ الإيمان أيضاً ليس بهينٍ، فهو أيضاً أمرٌ مستقلٌ وليس بتابع، بل أصلٌ وعليه يدور أمر النجاة. فلو لم يعمل أحدٌ طولَ عمره، وكان آخرُ كلامِهِ: لا إله إلا اللّه، دخل الجنة، لا كما قلتم: إن الرجل لو آمن وصدق أي تصديق، ثم صدرت عنه كبيرة لا يغفر له فجعل الأعمال كالمطروح في العبارة فقط، دون الحقيقة ليظهرَ استقلالُ الإيمان وتماميته بدونها، فأراد أن يكشفَ عن حقيقةِ الحال لئلا ينخدع أحدٌ من عبارة السلف، فيجعل الأعمال داخلة في الإيمان، مع أنها كانت دخيلة، فينفي النجاة بترك الأعمال.

تتمَّةٌ في بَحْثِ الزِّيَادةِ والنُّقْصَان

وليعلم أن القرآن لا يدل بمنطوقه إلا على زيادة الإيمان، أما على نقصانه فلا، إلا أن يؤخذ عنه باللزوم، ويقال: إن الإيمان إذا ثبتت فيه الزيادة أمكن فيه النقصان أيضاً. وعند أبي داود حديث في كتاب الفرائض، عن معاذ رضي اللّه تعالى عنه مرفوعاً: أن النبي صلى اللّه عليه وسلّم قال: «الإسلام يزيدُ ولا يَنقْصُ». واستدل منه معاذ رضي اللّه تعالى عنه في قصة التوريث ونحوه. روى الزَّبيدي عن أبي حنيفة رضي اللّه تعالى عنه: أن الإيمان يزيد ولا ينقص، ولعله كلام في مرتبة محفوظة، كما هو ملحظ الإمام، وهي التي تقبلُ الزيادة باعتبار الانبساط والانشراح، فلو كان مجرد الاتباع في التعبير شيئاً، فالاتباع بلفظ الحديث أولى كما رُوي عن الإمام رضي اللّه تعالى عنه.

محل الإيمان

نُسب إلى الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أن الإيمان محله القلب، ونُسب إلى إمامنا رحمه الله تعالى أنه في الدِّماغ، كما في «مجمع البحار» ولا أعتمد عليه، لأني لم أجد تلك النسبة في أحد من كتب القدماء، مع أن في كتاب الجنائز من «الهداية»: أن الإمام إنما يقوم حذاء الصدر، لأن الإيمان في القلب، فدل على كونه محلَّ الإيمان عند الحنفية.

قلت: وذهب الأطباء إلى أن العلوم في الدِّماغ.

وصَدَعَ القرآن في غير واحد من الآيات أن الإيمان في القلب وقد تحقق عندي أن مَعْدِنَ الإيمان هو القلب، والمُظْهِرُ هو الدِّماغ، ولقلة الفصل بين الانبعاث من القلب وظهوره في الدماغ قيل: إن الإيمان في الدماغ. وإنما اضطررتُ إلى التأويل المذكور، لأن القرآن صَدَعَ في غير واحد من الآيات بكون محله هو القلب، وإذن لا أصرفها عن ظاهرها.

فائدة: واعلم أن القلبَ كأنه إنسانٌ صغير بين جَنبي الإنسان الكبير، عليه مدارُ صحته، وسَقمِهِ، وصلاحِهِ، وفساده، وقد خلقه الله تعالى منكوساً. ووجهه على ما ظهر لي: أن الله تعالى خلق الخلق على أنحاء: فمنه ما هو شاخصٌ من التحت إلى الفوق كالشجر. فإن أصله في الأرض وفرعه في

السماء. ومنه ما هو منبسط في العرض كالحيوانات، فإنها خَلْق متوسط. وأما الإنسان فإنه لما هبط من السماء إلى الأرض صارَ خلقه كله من الفوق إلى التحت، فإن رأسه الذي هو أصلُهُ نحو الفوق على خلاف شاكلة الشجرة، فإن أصلها في الأرض وتنحدر أعضاؤُها كلها إلى التحت كاليدين، والرجلين، والأشعار، وحينئذٍ ناسب أن يكونَ القلبُ أيضاً إلى التحت، ففي خلقه إشعار بكونه عُلْوياً، على خلاف شاكلة سائر الخلق، ثم جعله في اليسار ليكون مِلْكُهُ في اليمين.

وأما محل المعرفة فذهب المصنف رحمه الله تعالى: إلى أنها في القلب.

أقول: المعرفة أقرب من العلم وليست بإيمان، بل هي من مقدماته. وقال المعتزلة: إن المعرفة الحقة اليقينية شرط للإيمان كما مر، لأنه لا إيمان عندهم إلا بالاستدلال المفيد للقطع. وعندنا يكفي له الجزم وإن حصل بالتقليد، والاستدلال غير ضروري. ونقل النووي ههنا عن القاضِي عِيَاض: أن الإيمان يزيد وينقص لزيادة المعرفة ونقصانها، فدل على أنها غير الإيمان، وهذا صحيح جداً. وحينئذٍ تردد النظر في محلها هو القلب، أو الدماغ. نعم، المعرفة المكتسبة التي تحصل بعد الرياضات، وهي الإيمان الكامل، لا شك أن محلها القلب. وعلى هذا لو قال المصنف رحمه الله في الترجمة الآتية: وإن الإيمان فعل القلب، لكان أحسن.

النِّسْبَةُ بين الإسْلام والإيْمَان

وقد جوَّز الغزالي رحمه الله تعالى بينهما النِّسبَ الثلاث من الأربع، غير العموم من وجه، باعتبارات مختلفة، ويقرُب منه ما قال الدوَّاني: أن الإسلام هو الانقياد الظاهري، وهو التَّلفظ بالشهادتين، والإقرار بما يترتب عليهما. والإسلام الكامل الصحيح لا يكون إلا مع الإيمان، والإسلام الظاهري قد ينفك عن الإيمان، قال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا} (الحجرات: ١٤) وأما الإسلام الحقيقي المعتبر عند اللَّهِ فلا ينفكُ عن الإيمان. وما وَضَحَ لدي: أن الإيمان يتدرج من القلب إلى الجوارح، على عكس الإسلام، فهما في مسافة ذهاباً وإياباً، فإن ظهر الإيمان على الجوارح، ورسخ الإسلام في القلب فهما واحد، وإن بقي الإيمان في القلب واقتصر الإسلام على الجوارح فهما متغايران.

وأعني باتحادِ المسافة وسراية الإسلامِ إلى الباطن نسبةَ الإحسان. كما سيجيء في حديث جبريل: «أن تعبد الله كأنك تراه» فالعبادةُ التي هي من الجوارح، إذا حصلت بحيث يجد العبد ربه بمرأى عينيه، فهذه أمارة على اتحاد المسافتين، فإن تلك الرؤية من صفةِ القلب، فإذا اجتمعت تلك الرؤية مع خشوع الجوارح، فقد اتحدت المسافتان، وحينئذٍ صار إيمانُهُ عينَ إسلامه، وإسلامهُ عينَ إيمانِهِ، لا فرق بينهما، وإلا فالإسلام على جوارحه والإيمان في

قلبه، لم يسر ذلك إلى باطنه، ولـم يَـرْق هـذا إلـى ظـاهره، واللّه تعـالى أعـلـم بالصواب.

وإذ قد فَرَغنا من بحث التصديق، وأنه علمٌ أو عمـل، يزيـد ويـنقُصُ، أو لا، وإن محله ماذا؟ إلى غيـر ذلـك مـن المباحـث، فـالآن نـذكر: معنـى الضـرورة، والتواتر وماذا أراد منهما المتكلمون، وماذا قصَّر فيه القاصرون، فنقول:

بحثٌ في معنى الضَّرورَةِ وما يَتَعلَّقُ بها

والمراد من الضرورة ما يُعرف كونُهَا من دين النبي صلى اللّه عليه وسلّمبلا دليل. بأن تواتر عنه واستفاض، حتى وصل إلى دائرة العوامّ وعلمَهُ الكوافّ منهم، لا أن كلاً منهم يعلمه، وإن لم يَرْفَع لتعليم الدِّينِ رأساً، فإن جهلَه لعدمِ رغبتِهِ في تعليم الدين، وعلمته العامَّة، فهو ضروريٌّ كالواحدانية، والنبوة، وختمَهَا بخاتم الأنبياء، وانقطاعها بعده، والبعث والجَزَاء، وعذاب القبر سُمِّي ضرورياً لأن كلَّ واحدٍ يعلم أن هذا الأمر مثلاً من الدين. وإن كانت متوقفةً في نفسها على النظر والاستدلال، كالتوحيد، والنبوة، والبعث والجزاء، فإن كلَّ واحد منها وإن كان نظرياً في نفسه، لكن كونه من دينه صلى اللّه عليه وسلّممعلومٌ بالضرورة. وكذا لا يريدون بالضرورة أن الإتيانَ بها بالجوارح لا بد منه كما يُتَوهم.

فقد يكونُ استحبابُ شيءٍ وإباحته ضرورياً، يكفر جاحده، ولا يجبُ الإتيان به كالسِّواك، فالضرورةُ في الثبوت عن حضرة الرسالة وفي كونه من الدين، لا من حيث العمل، ولا من حيث الحكم المتضمن، لأن الحديث قد يكون متواتراً، ويُعلم ثبوته عنه صلى اللّه عليه وسلّمضرورة، ويكون الحكم المتضمن فيه نظرياً من حيث العقل، كحديث عذاب القبر، ثبوته عنه صلى اللّه عليه وسلّممستفيض، وفهم كيفية العذاب مشكل. وليُعلم أن الإيمانَ

هو التصديق بكل ما جاء بـه رسـول اللّه صـلى اللّه عليـه وسـلّموإن لـم يكـن متـواتراً، والتـزامُ أحكامِـهِ، والتبـرؤُ مـن كـل ديـن سـواه.ومن قَصَـرَه مـن المتكلمين على الضروريات، فلأن موضوعَ فَنهِّم هـو القطعـي، لا أن المـؤمنَ به هو القطعي فقط. نعم، التكفير عنـدهم إنمـا يكـون بجحـوده فقـط. وأمـا الفقهاء فإنهم يبحثونَ عن أخبار الآحاد أيضاً، بخلاف المتكلمين. ولذا تـراهُم يكَفِّرون بإنكار الأمر الظني أيضاً، وحينئذٍ كان الأنسـب للفقهـاء أن لا يعرِّفُـوا الإيمانَ بالحدِّ المذكور، لأن قيدَ الضـرورة يناسـب موضـوع المتكلمـين دون الفقهاء. والمناسبُ لهم أن يقولوا: هو الاعتقاد بما جـاء بـه النبـي صـلى اللّه عليه وسلّمإن قطعاً فقطعاً، وإن ظناً فظناً.

والسرُ فيـه أن الموجِـبَ لكفـر الرجـل فـي نفسـه، هـو إنكـار قطعـيَ. وأمـا المُنَبِّهُ للمُفتي في تكفيره، فقد يكون حديثاً آحادياً، فيُنبِّهُ على أن إنكارَ أمـر كذا، كفر. ثم لا يكونُ ذلك الأمرُ في الواقع إلا قطعياً، ومثالـه: أن رجـلاً عالمـاً عدّ المتواترات والقطعيات وفهرسها، وذَهَلَ وغَفَلَ عـن بعضـها، فلـم يُدْخلـه في ذلك الفهرس، فجاء واحد آخر ونبَّه على قطعيات أُخر، فأدخلـه بقـول ذلـك الواحد في هذا الفهرس، فقد تَنَبَّه بقول واحدٍ للقطعي. فهكذا الأمرُ ههنا لم يكْفُر الرجلُ إلا بإنكار قطعي في نفسه، لكن المُفتي قد يأخذُ مسـألةَ التكفيـر من خبر واحد، فيجوز بناءُ التكفير على الظني بلا خطر، لأن الظـنَّ فـي طريـق العلم بالحكم، لا في أمر الموجِبِ لكُفْر المكفَّر.

وهذا كإثبات الفرض والحرام بالقياس، نظراً إلى حقيقة الشيء، لا نظراً إلى طريق ثبوتِهِ، أو كالإجماع المنقول آحاداً. نعم، تكفيرُ المتكلِّمينَ يكون قطعياً، وتكفير الفقهاء قد يكون ظنياً، فليس هذا في الحقيقةِ خلافاً في المسألة وإنما هو اختلاف الفن والموضوع، فموضوع الفقهاء فِعْلُ المكلف، وكثير من مسائلهم ظني. وموضوع المتكلمين القطع، فلو تكلم متكلمٌ في الفقه يوافقهم في التكفير، ولو ذهبَ فقيهٌ إلى فنِ المتكلمين، لا يَحْكُم به إلا بعد إنكار القطعيات.

أقسَامُ التَّوَاتُر

ثم إن التواترَ قد يكونُ من حيث الإسناد وهو معروفٌ، كحديث: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

وقد يكون من حيث الطبقة كتواتر القرآن، فإنه تواتر على البسيطة شرقاً وغرباً، درساً وتلاوةً، حفظاً وقراءةً، وتلقاه الكافةُ عن الكافة، طبقة عن طبقة، فهذا لا يحتاجُ إلى إسناد معين، يكون عن فلان عن فلان. وقد يكون تواترَ عملٍ وتوارث، بتواتر العمل على شيء من لدن صاحب الشريعة إلى يومنا هذا، كالسواك. والرابع: تواتر القدر المشترك، كتواتر المعجزات، فإن مفرداتها وإن كانت آحاداً، لكن القدر المشترك متواترٌ قطعاً، كسخاء حاتم، فإن أخباره وإن كانت آحاداً، إلا أن سخاءه معلومٌ متواتراً. وقد يجتمعُ أقسامٌ منها في شيء واحد.

وعلى هذا نقول: إن الصلاة فريضةٌ، واعتقاد فريضتَها فرضٌ، وتحصيل علمُها فرض، وجَحدها كفر، وكذا جهلُهَا، والسِّوَاك سنةٌ، واعتقادُ سنيتَه فرضٌ، لأنه ثَبَتَ متواتراً بأنحاء التواتر وتحصيل علمُهُ سنةٌ، وجحوده كفرٌ، وجهلهُ حِرمانٌ، وتركُه عتَابٌ أو عِقَاب.

ثم إن التواترَ يزعمه بعـض النـاس قلـيلاً، كمـا نقلـه الحـافظ فـي «شـرح نُخْبَةِ الفِكر»: أن بعضهم أنكروا مِثاله، وبعضهم ادعوا العِزَّة فيـه، ولـم يـأتوا إلا بمثال أو مثالين. وهو على ما قلت كثير فـي شـريعتنا، بحيـث يفـوت عنـه الحصر، ويعجزُ الإنسان أن يفهرسَه، ولكن ربما يـذهل الإنسـان عـن التفاتـه، فإذا التفت إليه رآه متواتراً كالبديهي، وهذا مما ينبغي أن يُنَّبه عليه.

أَقْسَامُ الكُفْر

هذا آخرما أردنا تحريره في هذا المقام، لتكون على ذكرٍ من أمر الإيمان ومواضعِ الخلافِ فيه، ثم يأتي عليك أشياء في أثناء الكلام. وسنقررها في مواضعها إن شاء اللّه تعالى.

وقد علمتَ أنّ الكفرَ بالمعنى اللغوي، لا يقابل الإيمان. نعم، يقابلُهُ بالمعنى الشرعي. قال الوَاحِدِيّ: وهو كفرُ إنكارٍ، وجحودٍ، ومعانَدَةٍ، ونفاقٍ، فمن لقيه بشيء من ذلك لم يُغفَر له.

أما كفر الإنكار: فهو أن يكفر بقلبه، ولسانه، ولا يعتقد بالحق، ولا يقر به.

وأما كفر الجحود: فهو أن يعرف الحقَ بقلبه، ولا يُقرُ بلسانه، ككفر إبليس، وهو قوله تعالى: {فَلَمَّا جَآءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ} (البقرة: ٨٩) يعني كفرُ الجحود.

وأما كفرُ المعاندة: فهو أن يعرفَ بقلبه، ويقرَّ بلسانِهِ، ولا يقبلُ ولا يتدينُ به، ككفر أبي طالب.

وأما كفرُ النِّفاق، فبأن يقرَّ بلسانِهِ، ويكفرَ بقلبه.[٤٣٧] .

---

٤٣٧) كناب الإيمان من فيض الباري بشرح صحيح البخاري للكشميري. من الجامع الأكبر للتراث الإسلامي إصدار شركة العريس، الإصدار الثاني.

ملحق: في نحت الحد وشروط صحته:

عقد الإمام الزركشي في البحر المحيط فصلا طويلا مهما في الحد، أي التعريف، واختصرته بأهم ما فيه مما يتعلق بموضوعنا، ثم وضعت ملاحظاتي التي تعين على فهمه، وضعتها بين أقواس مربعة [ ] فقال: حقيقة الحد: فَالْقَوْلُ الدَّالُّ عَلَى مَاهِيَّةِ الشَّيْءِ. وَقِيلَ: خَاصِّيَّةُ الشَّيْءِ عَلَى الْخِلَافِ فِي تَفْسِيرِ مَا هُوَ الْغَرَضُ بِالْحَدِّ؟ هَلْ حَصْرُ الذَّاتِيَّاتِ أَوْ مُجَرَّدُ التَّمْيِيزِ كَيْفَ اتَّفَقَ؟ أَوْ الشَّرْطُ أَنْ يَكُونَ لِوَصْفٍ خَاصٍّ؟... وَقَالَ الْقَاضِي: يُرْجَعُ إلَى قَوْلِ الْوَاصِفِ، وَهُوَ عِنْدَهُ الْقَوْلُ الْمُفَسِّرُ لِاسْمِ الْمَحْدُودِ وَصِفَتِهِ عَلَى وَجْهٍ يَخُصُّهُ وَيَحْصُرُهُ. فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ مَا هُوَ مِنْهُ. قَالَ الْإِمَامُ: وَهُوَ مُنْفَرِدٌ بِذَلِكَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ. وَقَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو مَنْصُورٍ: الْحَدُّ وَالْحَقِيقَةُ عِنْدَنَا بِمَعْنًى؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الشَّيْءِ مَانِعَةٌ لَهُ مِنْ الِالْتِبَاسِ بِغَيْرِهِ نَاطِقَةٌ بِمَا لَيْسَ مِنْهُ مِنْ الدُّخُولِ فِي حُكْمِهِ،... وَالصَّحِيحُ عِنْدَنَا: أَنَّ حَدَّ الشَّيْءِ: مَعْنَاهُ الَّذِي لِأَجْلِهِ اسْتَحَقَّ الْوَصْفَ الْمَقْصُودَ بِالذِّكْرِ.[٤٣٨] [إذن ففي تعريف الإيمان نحن نبحث عن المعاني التي لأجلها استحق الإيمان هذا الوصف].

---

٤٣٨) البحر المحيط > المقدمات > الحد النظر في حقيقته وأقسامه وشروط صحته

ثم يعدد طرق اقتناص الحد أي نحت التعريف، فمنها: أَنْ تُجْمَعَ الْأَوْصَافُ الَّتِي تَصلُحُ أَنْ تُحمَلَ عَلَى الشَّيْءِ الْمَحْدُودِ كُلُّهَا، ثُمَّ تَنْظُرَ مَا فِيهَا ذَاتِيٌّ وَمَا فِيهَا عَرَضِيٌّ، فَتَطْرَحَ الْعَرَضِيَّ، ثُمَّ تَرجعَ إلَى الذَّاتِيِّ فَتَأْخُذَ مِنْهَا الْمَقُولَ فِي جَوابِ مَا هُوَ؟ فَتَجْمَعَهَا كُلَّهَا، ثُمَّ تَطرَحَ الْأَعَمَّ فَالْأَعَمَّ حَتَّى تَنْتَهِيَ إلَى الْجِنْسِ الْأَقْرَبِ، ثُمَّ تَرْجِعَ إلَى الْفُصُولِ فَتَجْمَعَهَا أَيْضًا كُلَّهَا، ثُمَّ تَطْرَحَ الْأَبْعَدَ فَالْأَبْعَدَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إلَى الْفَصْلِ الْقَرِيبِ جِدًّا، وَحِينَئِذٍ فَيَكْمُلُ[٤٣٩].

الْقَصْدَ مِنْ الْحَدِّ التَّمْييزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غيْرِهِ، ولِهَذَا قَالَ الْأَنْصَارِيُّ فِي "شَرْحِ الْإِرْشَادِ": قَالَ إمَامُ الْحَرَمَيْنِ: الْقَصْدُ مِنْ التَّحْدِيدِ فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَكَلِّمِينَ: الْفَرْقُ بِخَاصَّةِ الشَّيْءِ وَحَقِيقَتِهِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْفَصْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ. ا هـ. وَلِهَذَا كَانَ الِاضْطِرَادُ وَالِانْعِكَاسُ لَا يَتِمُّ الْحَدُّ إلَّا بِهِمَا. وَأَمَّا الْمَنَاطِقَةُ فَقَالُوا: إنَّ فَائِدَةَ الْحَدِّ التَّصْوِيرُ، وَبَنَوْا عَلَى ذَلِكَ أُمُورًا سَتَأْتِي. قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ تَيْمِيَّةَ فِي كِتَابِ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ: وَالَّذِي عَلَيْهِ جَمِيعُ الطَّوَائِفِ أَنَّ فَائِدَتَهُ التَّمْيِيزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ صَنَّفَ فِي هَذَا

---

٤٣٩) البحر المحيط > المقدمات > الحد النظر في حقيقته وأقسامه وشروط صحته > مذاهب اقتناص الحد.

الْبَـابِ مِـنْ أَتْبَـاعِ الْأَئِمَّـةِ الْأَرْبَعَـةِ. بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لَـا يُجَـوِّزُ الْحَـدَّ إِلَّـا بِمَـا يُمَيِّـزُ الْمَحْدُودَ[٤٤٠].

لاحظنا ورود المصطلحات التالية: الحد، والفصل، والجنس، والخاصية والماهية، وقد عرفنا الحد، وبقي أن نعرف مقصودهم بالفصل والجنس: يرى الرازي أن: الـمَاهِيَّةَ الـمُرَكَّبَةَ مِنْ ذَاتٍ وَصِفَةٍ أَخَصُّ مِنْهَا، كَالْحَيَوَانِ الْكَاتِبِ يَكُونُ الذَّاتُ جِنْسَهَا، وَالصِّفَةُ فَصْلَهَا مَعَ امْتِنَاعِ كَوْنِ الصِّفَةِ عِلَّةً لِلذَّاتِ لِتَأَخُّرِهَا عَنْهَا... وَالْحَقُّ: أَنَّ الْفَصْلَ لَا تَجُوزُ زِيَادَتُهُ عَلَى وَاحِدٍ؛ لِأَنَّهُ يَقُومُ لِوُجُودِ حِصَّةِ النَّوْعِ مِنْ الْجِنْسِ، فَإِنْ كَفَى الْوَاحِدُ فِي التَّقْوِيمِ اُسْتُغْنِيَ عَنْ الْآخَرِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ فَصْلًا، وَحَيْثُ وُجِدَ فِي كَلَامِ الْعُلَمَاءِ تَعَدُّدُ الْفُصُولِ بِقَوْلِهِمْ: فَصْلٌ ثَانٍ وَثَالِثٌ، فَلَا تَحْقِيقَ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ. فَإِنَّ الْمَجْمُوعَ فَصْلٌ وَاحِدٌ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِمَّا جَعَلُوهُ فَصْلًا هُوَ جُزْءُ الْفَصْلِ، وَلَمَّا ذَهَبَ الْإِمَامُ إلَى بُطْلَانِ قَاعِدَةِ الْعِلِّيَّةِ جَوَّزَ الْفُرُوعَ الثَّلَاثَةَ. الْأَوَّلُ: لِجَوَازِ تَرْكِيبِ الشَّيْءِ مِنْ أَمْرَيْنِ كُلُّ مِنْهُمَا أَعَمُّ مِنْ الْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ كَالْحَيَوَانِ، وَالْأَبْيَضِ. فَالْمَاهِيَّةُ إذَنْ تَرَكَّبَتْ مِنْهُمَا، لِكَوْنِ الْحَيَوَانِ جِنْسًا وَالْأَبْيَضِ فَصْلًا لَهَا بِالنِّسْبَةِ إلَى الْحَيَوَانِ الْأَسْوَدِ وَبِالْعَكْسِ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْجَمَادِ الْأَبْيَضِ. فَيَكُونُ كُلُّ مِنْهُمَا جِنْسًا وَفَصْلًا، وَهُوَ

---

٤٤٠) البحر المحيط > المقدمات > الحد النظر في حقيقته وأقسامه وشروط صحته > مذاهب اقتناص الحد

الْحُكْمُ الْأَوَّلُ. وَفَصْلًا يُقَارِنُ جِنْسَيْنِ لَهُ مِنْ الْحَيَوَانِ وَالْجَمَادِ وَالْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ. وَهُوَ الْحُكْمُ الثَّانِي الْمُسْتَلْزِمُ لِلثَّالِثِ. وَقَالَ ابْنُ وَاصِلٍ: ذَهَبَ الْإِمَامُ إلَى أَنَّ الْفَصْلَ الْوَاحِدَ بِالنِّسْبَةِ إلَى نَوْعٍ وَاحِدٍ قَدْ يَكُونُ جِنْسًا لَهُ، وَيَجُوزُ اقْتِرَانُهُ بِجِنْسَيْنِ، فَيَكُونُ مُقَوِّمًا لِنَوْعَيْنِ، وَذَلِكَ فِي الْمَاهِيَّةِ الْمُرَكَّبَةِ مِنْ قَيْدَيْنِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَعَمُّ مِنْ الْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ، كَالْحَيَوَانِ الْأَبْيَضِ، فَإِنَّ الْحَيَوَانَ يَصْدُقُ عَلَى الْأَبْيَضِ وَغَيْرِهِ، وَالْأَبْيَضَ يَصْدُقُ عَلَى الْحَيَوَانِ وَغَيْرِهِ. فَإِنْ جَعَلْت الْحَيَوَانَ جِنْسًا لِهَذِهِ الْمَاهِيَّةِ كَانَ الْأَبْيَضُ فَصْلًا لَهَا. وَإِنْ جَعَلْت الْأَبْيَضَ جِنْسًا لَهَا كَانَ الْحَيَوَانُ فَصْلًا. قَالَ ابْنُ وَاصِلٍ: وَاَلَّذِي نَقُولُهُ: إنَّا نَمْنَعُ أَنَّ مَاهِيَّتَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ تَتَأَلَّفُ عَنْ هَذَيْنِ الْمَفْهُومَيْنِ وَإِنَّمَا يَتَأَلَّفُ عَنْهُمَا مَاهِيَّةٌ اعْتِبَارِيَّةٌ. وَكَلَامُنَا إنَّمَا هُوَ فِي الْمَاهِيَّاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَارِجِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَلَا نُسَلِّمُ أَنَّ شَيْئًا مِنْهَا يَتَرَكَّبُ مِمَّا هَذَا شَأْنُهُ[٤٤١]

[أَقْسَامُ الْحَدِّ] وَأَمَّا أَقْسَامُهُ: فَحَقِيقِيٌّ وَرَسْمِيٌّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ثَلَاثَةٌ، وَيَزِيدُ اللَّفْظِيَّ، وَعَلَيْهِ جَرَى ابْنُ الْحَاجِبِ، وَمَا ذَكَرْنَا أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ الْحَدَّ نُطْقٌ يُفِيدُ تَصَوُّرَ الْمَنْطُوقِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَهَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ حَاصِلٍ مِنْ اللَّفْظِيِّ، لِمَا سَنَذْكُرُهُ. فَالْحَقِيقِيُّ هُوَ مَا اشْتَمَلَ عَلَى مُقَوِّمَاتِ الشَّيْءِ الْمُشْتَرَكَةِ

---

٤٤١) البحر المحيط > المقدمات > الحد النظر في حقيقته وأقسامه وشروط صحته > الحد الحقيقي والحد الرسمي

وَالْخَاصَّةِ. وَالرَّسْمِيُّ مَا اشْتَمَلَ عَلَى عَوَارِضِهِ وَخَوَاصِّهِ اللَّازِمَةِ. وَرُبَّمَا قِيلَ: إنَّهُ اللَّفْظُ الشَّارِحُ لِلشَّيْءِ بِحَيْثُ يُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ الْمَوْجُودُ فِي أَكْثَرِ التَّعْرِيفَاتِ[٤٤٢]،

[كَيْفِيَّةُ تَرْكِيبِ الْحَدِّ] وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ تَرْكِيبِهِ فَمِنْ شَيْئَيْنِ، وَهُمَا مَادَّتُهُ وَصُورَتُهُ. وَالْمُرَادُ بِهِمَا جِنْسُهُ وَفَصْلُهُ، وَأَمَّا جِنْسُهُ: فَيَقُومُ مَقَامَ مَادَّتِهِ ذَلِكَ الْمُعَيَّنُ، وَأَمَّا فَصْلُهُ: فَيَقُومُ مَقَامَ صُورَتِهِ ذَلِكَ الْمُعَيَّنُ. كَذَا اقْتَصَرَ الْغَزَالِيُّ وَمَنْ تَبِعَهُ كَالْآمِدِيِّ، وَابْنِ الْحَاجِبِ عَلَى ذِكْرِ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضَا لِلْفَاعِلِيَّةِ وَالْغَائِيَّةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْحَدَّ إنَّمَا وُضِعَ لِيُبَيِّنَ صُورَةَ الشَّيْءِ، إذْ الصُّورَةُ إنَّمَا هِيَ كَمَالُ وُجُودِ الشَّيْءِ، [إذن فالتعريف لا بد أن يفضي إلى الوصول إلى أكمل صورة تظهر الماهية بأشرف ما به قوامها] وَهِيَ أَشْرَفُ مَا بِهِ قِوَامُهُ، فَلِهَذَا وَجَبَ أَنْ تُوجَدَ أَجْزَاءُ الْحَدِّ مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ لَا مِنْ جِهَةٍ غَيْرِهَا، [فكمال الحد أي كمال دلالة ما تظهر مقومات التعريف الماهية به، لا بد أن يأتي من جهة الصورة لا بأن يحتاج معه إلى غيره، كأن يختلف مثلا في الأعمال وعلاقتها بالإيمان، فيقال مثلا أن الإيمان له أصل، لا تدخل الأعمال في هذا الأصل، ويقال: بأن له كمال، ولكنه لا يكمل إلا بالأعمال، فاحتاج إلى كمال

---

٤٤٢) البحر المحيط > المقدمات > الحد النظر في حقيقته وأقسامه وشروط صحته > أقسام الحد

صورته من غيره، فهذا لا يجوز، فلا بد أن يكون ما به قوام تعريف الإيمان أصلا، ما يظهره بكماله من جنسه وفصله، فإما أن تكون الأعمال من جنسه أو فصله، فبها يكون كماله على أنها جنس أو فصل، أو لا تكون فلا يصح عندها أن يؤتى بها على أنها بها كمال التعريف، فإن كانت مغايرة له، فتكون علاقتها به علاقة الشرطية على أنها شرط كمال لا شرط صحة كما سيأتي إن شاء الله] وَلَا شَكَّ أَنَّهُ إذَا أُوجِدَ الْحَدُّ بِجِنْسِهِ وَفَصْلِهِ صُوِّرَ الشَّيْءُ بِصُورَتِهِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ مِنْ مَادَّتِهِ، وَأَرَدْنَا كَمَالَ الْحَدِّ بِذِكْرِ بَاقِي أَسْبَابِ وُجُودِهِ، فَلَا بَأْس أَنْ تُذْكَرَ فِي الْحَدِّ عَلَى جِهَةِ التَّبَعِ، فَيَكُونُ الْحَدُّ حِينَئِذٍ كَامِلًا قَدْ كَمُلَتْ فِيهِ جَمِيعُ أَسْبَابِ الشَّيْءِ الدَّاخِلَةِ فِي ذَاتِهِ، وَهُمَا مَادَّتُهُ وَصُورَتُهُ، وَالْخَارِجَةُ عَنْ ذَاتِهِ وَهُمَا فَاعِلُهُ وَغَايَتُهُ. وَكَذَا قَالَ الْعَبْدَرِيُّ فِي " شَرْحِ الْمُسْتَصْفَى ". قَالَ: وَتَرْتِيبُه فِيهَا عَلَى تَرْتِيبِهَا فِي السَّبَبِيَّةِ، فَتُؤْخَذُ الصُّورَةُ أَوَّلًا الَّتِي هِيَ أَقْوَى سَبَبَيْ الشَّيْءِ الدَّاخِلَيْنِ فِي ذَاتِهِ، ثُمَّ تُتْبَعُ بِالْمَادَّةِ، ثُمَّ بِالْخَارِجَيْنِ عَنْ ذَاتِهِ. فَيَكُونُ هَذَا الْحَدُّ أَكْمَلَ الْحُدُودِ، وَلَوْ اقْتَصَرْنَا عَلَى صُورَتِهِ لَكَفَى لَكِنَّ هَذَا أَكْمَلُ[٤٤٣].

---

٤٤٣) البحر المحيط > المقدمات > الحد النظر في حقيقته وأقسامه وشروط صحته > أقسام الحد

[شُرُوطُ صِحَّةِ الْحَدِّ] وَأَمَّا شُرُوطُ صِحَّتِهِ: فَمِنْهَا مَا يَرْجِعُ إلَى اللَّفْظِ، وَمِنْهَا مَا يَرْجِعُ إلَى الْمَعْنَى. فَمِنْ الْمَعْنَوِيَّةِ أَنْ يَكُونَ جَامِعًا لِسَائِرِ أَفْرَادِ الْمَحْدُودِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ: الِاطِّرَادُ، وَمَانِعًا عَنْ دُخُولِ غَيْرِ الْمَحْدُودِ فِي الْحَدِّ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ: الِانْعِكَاسُ. قَالَهُ الْقَرَافِيُّ. وَقَالَ الْغَزَالِيُّ، وَابْنُ الْحَاجِبِ: الْمُطَّرِدُ هُوَ الْمَانِعُ وَالْمُنْعَكِسُ هُوَ الْجَامِعُ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ أَوْفَقُ لِلِاسْتِعْمَالِ اللُّغَوِيِّ.

تَنْبِيهٌ هَلْ الطَّرْدُ وَالْعَكْسُ شَرْطُ الصِّحَّةِ أَوْ دَلِيلُهَا؟ خِلَافٌ. حَكَاهُ الْأَنْبَارِيُّ فِي شَرْحِ الْبُرْهَانِ "، فَإِنْ كَانَ شَرْطًا لَمْ يَلْزَمْ مِنْ وُجُودِهِ صِحَّةُ الْحَدِّ، وَيَلْزَمُ مِنْ الِانْتِفَاءِ الْفَسَادُ، [مثاله قالت المعتزلة الأعمال شرط صحة للإيمان، فإن انتفت الأعمال انتفت صحة الإيمان، وإن وجدت الأعمال لم يلزم من وجودها صحة الإيمان] وَإِنْ كَانَ دَلِيلُ الصِّحَّةِ لَزِمَ مِنْ الْوُجُودِ الصِّحَّةُ وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْ الِانْتِفَاءِ الْفَسَادُ. قَالَ: وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ شَرْطٌ لَا دَلِيلٌ؛ لِأَنَّا نَجِدُ حُدُودًا مُطَّرِدَةً وَمُنْعَكِسَةً، وَلَا يَحْصُلُ مِنْهَا مَقْصُودُ الْبَيَانِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالصِّحَّةِ، كَقَوْلِنَا: الْعِلْمُ مَا عَلِمَهُ اللَّهُ عِلْمًا. فَهَذَا وَإِنْ كَانَ يَطَّرِدُ وَيَنْعَكِسُ فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ.

وَعِبَارَةُ الْأُسْتَاذِ أَبِي مَنْصُورٍ الْبَغْدَادِيِّ بِأَنْ تَكُونَ الْعِبَارَةُ أَوْضَحَ مِنْهُ وَأَسْبَقَ إلَى فَهْمِ السَّامِعِ، وَأَنْ يَكُونَ شَائِعًا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِ الْمَحْدُودِ، وَلَا يَجُوزُ تَحْدِيدُ

الشَّيْءِ بِمَا يَكُونُ عِلَّتَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ[٤٤٤]. [وقريب منه الفعل، منه فعل مكفر ينتفي الإيمان بوجوده، ومنه فعل لا يترتب عليه الإيمان وجودا أو عدما، فلا يدخل الفعل في التعريف، لأنه يدور معه وجودا وعدما فقط في بعض الأحوال]

فَمُرَادُ الْمَنْطِقِيِّينَ بِالتَّرْكِيبِ هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ جِنْسٍ وَفَصْلٍ، وَهُوَ صَحِيحٌ فِي الْحَدِّ، وَالتَّرْكِيبُ الَّذِي أَرَادَهُ الْأُصُولِيُّونَ هُوَ تَدَاخُلُ الْحَقَائِقِ، وَهُوَ مُبْطِلٌ لِلْمَحْدُودِ. مِثَالُهُ: إذَا حُدَّ الْعِلْمُ بِأَنَّهُ الَّذِي يَصِحُّ مِنْ الْمُتَّصِفِ بِهِ إحْكَامُ الْفِعْلِ وَإِتْقَانُهُ، فَيُقَالُ: هَذَا فِيهِ تَرْكِيبٌ؛ لِأَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ، فَتَكُونُ الْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ عِلْمًا؛ وَلِأَنَّهُ إنْ كَانَتْ الْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ دَاخِلَتَيْنِ فِي الْعِلْمِ لَزِمَ التَّرْكِيبُ الْمُفْسِدُ لِلْحَدِّ، وَإِنْ كَانَتَا خَارِجَتَيْنِ عَنْ الْعِلْمِ، فَالْعِلْمُ بِانْفِرَادِهِ لَا يَصِحُّ بِهِ الْإِحْكَامُ؛ لِأَنَّ الْعَالِمَ الْعَاجِزَ لَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ الْإِحْكَامُ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ.[٤٤٥]

جاء في شرح الكوكب المنير: "شَرْطُ الْحَدِّ الصَّحِيحِ (أَنْ يَكُونَ مُطَّرِدًا وَهُوَ) أَيْ وَالْمُطَّرِدُ هُوَ (الْمَانِعُ) وَالْمَانِعُ هُوَ الَّذِي (كُلَّمَا وُجِدَ) الْحَدُّ (وُجِدَ الْمَحْدُودُ) وَأَنْ يَكُونَ أَيْضًا (مُنْعَكِسًا وَهُوَ) أَيْ الْمُنْعَكِسُ هُوَ (الْجَامِعُ) الَّذِي

---

٤٤٤) البحر المحيط > المقدمات > الحد النظر في حقيقته وأقسامه وشروط صحته > شروط صحة الحد

٤٤٥) البحر المحيط > المقدمات > الحد النظر في حقيقته وأقسامه وشروط صحته > الخفاء هل يعتبر الخفاء بالنسبة إلى الحاد أو إلى كل أحد

(كُلَّمَا وُجِدَ الْمَحْدُودُ وُجِدَ) الْحَدُّ فَإِنَّهُ عَكْسُ الِاطِّرَادِ الَّذِي هُوَ كُلَّمَا وُجِدَ الْحَدُّ وُجِدَ الْمَحْدُودُ (وَيَلْزَمُ) مِنْ ذَلِكَ (أَنَّهُ كُلَّمَا انْتَفَى الْحَدُّ انْتَفَى الْمَحْدُودُ) قَالَ فِي شَرْحِ التَّحْرِيرِ: وَفَسَّرَهُ ابْنُ الْحَاجِبِ وَغَيْرُهُ بِلَازِمِهِ. فَقَالَ: الْمُنْعَكِسُ كُلَّمَا انْتَفَى الْحَدُّ انْتَفَى الْمَحْدُودُ. وَالتَّحْقِيقُ الْأَوَّلُ"[٤٤٦]

قَالَ الْقَرَافِيُّ فِي شَرْحِ التَّنْقِيحِ، فَإِنْ قُلْتَ: إذَا لَمْ يُطَالِبْ عَلَى صِحَّةِ الْحَدِّ بِالدَّلِيلِ وَنَحْنُ نَعْتَقِدُ بُطْلَانَهُ فَكَيْفَ الْحِيلَةُ فِي ذَلِكَ؟ قُلْت: الطَّرِيقُ فِي ذَلِكَ أَمْرَانِ: أَحَدُهُمَا: النَّقْضُ كَمَا لَوْ قَالَ: الْإِنْسَانُ عِبَارَةٌ عَنْ الْحَيَوَانِ. فَيُقَالُ: [لَهُ] يُنْتَقَضُ عَلَيْك بِالْفَرَسِ. فَإِنَّهُ حَيَوَانٌ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ بِإِنْسَانٍ وَثَانِيهِمَا: الْمُعَارَضَةُ[٤٤٧]

وقال الآمدي عن الاسم: وعلى كل تقدير إما أن يكون ذاتياً للمشتركات فيه أو عرضياً.

فإن كان ذاتياً فالمشتركات فيه إما أن تكون مختلفة بالذوات أو بالعرض: فإن كان الأول فإما أن يقال عليها في جواب ما هي فهو الجنس أو لا يقال كذلك فهو ذاتي مشترك إما جنس جنس أو فصل جنس وإن كانت

---

٤٤٦) شرح الكوكب المنير > الحد لغة واصطلاحا

٤٤٧) شرح الكوكب المنير > الحد لغة واصطلاحا > أقسام الحد

مختلفة بالعرض فإما أن يقال عليها في جواب ما أو لا والأول هو النوع والثاني هو فصل النوع[٤٤٨].

وقال الغزالي في المستصفى: الْمَطْلَبُ الثَّانِي: مَا يُطْلَبُ بِصِيغَةِ " مَا ". وَيُطْلَقُ لِطَلَبِ ثَلَاثَةِ أُمورٍ: الْأَوَّلُ: أَنْ يُطْلَبَ بِهِ شَرْحُ اللَّفْظِ كَمَا يَقُولُ مَنْ لَا يَدْرِي الْعُقَارَ: مَا الْعُقَارُ؟ فَيُقَالُ لَهُ: الْخَمْرُ، إذَا كَانَ يَعْرِفُ لَفْظَ الْخَمْرِ الثَّانِي: أَنْ يُطْلَبَ لَفْظٌ مُحَرَّرٌ جَامِعٌ مَانِعٌ يَتَمَيَّزُ بِهِ الْمَسْئُولُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِهِ كَيْفَمَا كَانَ الْكَلَامُ سَوَاءٌ كَانَ عِبَارَةً عَنْ عَوَارِضِ ذَاتِهِ وَلَوَازِمِهِ الْبَعِيدَةِ عَنْ حَقِيقَةِ ذَاتِهِ أَوْ حَقِيقَةِ ذَاتِهِ كَمَا سَيَأْتِي الْفَرْقُ بَيْنَ الذَّاتِيِّ وَالْعَرَضِيِّ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ: مَا الْخَمْرُ؟ فَيُقَالُ: هُوَ الْمَائِعُ الَّذِي يَقْذِفُ بِالزَّبَدِ ثُمَّ يَسْتَحِيلُ إلَى الْحُمُوضَةِ وَيُحْفَظُ فِي الدَّنِّ. وَالْمَقْصُودُ أَنْ لَا يُتَعَرَّضَ لِحَقِيقَةِ ذَاتِهِ بَلْ يُجْمَعُ مِنْ عَوَارِضِهِ وَلَوَازِمِهِ مَا يُسَاوِي بِجُمْلَتِهِ الْخَمْرَ بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ خَمْرٌ وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ مَا لَيْسَ بِخَمْرٍ. وَالثَّالِثُ: أَنْ يُطْلَبَ بِهِ مَاهِيَّةُ الشَّيْءِ وَحَقِيقَةُ ذَاتِهِ، كَمَنْ يَقُولُ: مَا الْخَمْرُ؟ فَيُقَالُ: هُوَ شَرَابٌ مُسْكِرٌ مُعْتَصَرٌ مِنْ الْعِنَبِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ كَاشِفًا عَنْ حَقِيقَتِهِ ثُمَّ يَتْبَعُهُ لَا مَحَالَةَ التَّمْيِيزُ. وَاسْمُ الْحَدِّ فِي الْعَادَةِ. يُطْلَقُ عَلَى هَذِهِ الْأَوْجُهِ الثَّلَاثَةِ بِالِاشْتِرَاكِ، فَلْنَخْتَرِعْ لِكُلِّ وَاحِدٍ اسْمًا وَلْنُسَمِّ الْأَوَّلَ حَدًّا لَفْظِيًّا إذْ السَّائِلُ لَا يَطْلُبُ بِهِ إلَّا شَرْحَ اللَّفْظِ، وَلْنُسَمِّ الثَّانِي حَدًّا رَسْمِيًّا إذْ هُوَ مَطْلَبٌ مُرْتَسِمٌ

---

٤٤٨) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي الفصل الرابع: في الإسم.

بِالْعِلْمِ غَيْرُ مُتَشَوِّفٍ إِلَى دركِ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ، وَلِنُسَمِّ الثَّالِثَ حَدًّا حَقِيقِيًّا إِذْ مَطْلَبُ الطَّالِبِ مِنْهُ دركُ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ، وَهَذَا الثَّالِثُ شَرْطُهُ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى جَمِيعِ ذَاتِيَّاتِ الشَّيْءِ، فَإِنَّهُ لَوْ سُئِلَ عَنْ حدِّ الْحَيَوَانِ فَقِيلَ جِسْمٌ حَسَّاسٌ فَقَدْ جِيءَ بِوَصْفٍ ذَاتِيٍّ، وَهُوَ كَافٍ فِي الْجَمْعِ وَالْمَنْعِ وَلَكِنَّهُ نَاقِصٌ بَلْ حَقُّهُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ الْمُتَحَرِّكُ بِالْإِرَادَةِ، فَإِنَّ كُنْهَ حَقِيقَةِ الْحَيَوَانِ يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ بِمَجْمُوعِ أَمْرَيْنِ، فَأَمَّا الْمُرْتَسِمُ الطَّالِبُ لِلتَّمْيِيزِ فَيَكْتَفِي بِالْحَسَّاسِ وَإِنْ لَمْ يَقُلْ إِنَّهُ جِسْمٌ أَيْضًا[٤٤٩].

وقال الغزالي: الْقَانُونُ الثَّانِي: أَنَّ الْحَادَّ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِالْفَرْقِ بَيْنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ وَاللَّازِمَةِ وَالْعَرَضِيَّةِ، وَذَلِكَ غَامِضٌ فَلَا بُدَّ مِنْ بَيَانِهِ فَنَقُولُ: الْمَعْنَى إِذَا نُسِبَ إِلَى الْمَعْنَى الَّذِي يُمْكِنُ وَصْفُهُ بِهِ وُجِدَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ، إِمَّا ذَاتِيًّا لَهُ وَيُسَمَّى صِفَةَ نَفْسٍ، وَإِمَّا لَازِمًا وَيُسَمَّى تَابِعًا، وَإِمَّا عَارِضًا لَا يَبْعُدُ أَنْ يَنْفَصِلَ عَنْهُ فِي الْوُجُودِ، أَمَّا الذَّاتِيُّ أَعْنِي بِهِ كُلَّ دَاخِلٍ فِي مَاهِيَّةِ الشَّيْءِ وَحَقِيقَتِهِ دُخُولًا لَا يُتَصَوَّرُ فَهْمُ الْمَعْنَى دُونَ فَهْمِهِ، وَذَلِكَ كَاللَّوْنِيَّةِ لِلسَّوَادِ وَالْجِسْمِيَّةِ لِلْفَرَسِ وَالشَّجَرِ فَإِنَّ مَنْ فَهِمَ الشَّجَرَ فَقَدْ فَهِمَ جِسْمًا مَخْصُوصًا فَتَكُونُ الْجِسْمِيَّةُ دَاخِلَةً فِي ذَاتِ الشَّجَرِيَّةِ دُخُولًا بِهِ قِوَامُهَا

---

٤٤٩) المستصفى > مقدمة الكتاب > بيان حصر مدارك العلوم النظرية في الحد والبرهان > الدعامة الأولى في الحد > الفن الأول في القوانين

فِي الْوُجُودِ وَالْعَقْلِ لَوْ قُدِّرَ عدمُهَا لَبَطَلَ وُجُودُ الشَّجَرِيَّةِ، وَكَذَا الْفَرَسُ، وَلَوْ قُدِّرَ خُرُوجُهَا عَنْ الذِّهْنِ لَبَطَلَ فَهْمُ الشَّجَرِ وَالْفَرَسِ مِنْ الذِّهْنِ وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى فَلَا بُدَّ مِنْ إدرَاجِهِ فِي حَدِّ الشَّيْءِ، فَمَنْ يَحُدُّ النَّبَاتَ يَلْزَمُهُ أَنْ يَقُولَ: " جِسْمٌ نَامٍ " لَا مَحَالَةَ. وَأَمَّا اللَّازِمُ فَمَا لَا يُفَارِقُ الذَّاتَ أَلْبَتَّةَ وَلَكِنَّ فَهْمَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَاهِيَّةِ غَيْرُ مَوْقُوفٍ عَلَيْهِ، كَوُقُوعِ الظِّلِّ لِشَخْصِ الْفَرَسِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَازِمٌ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُفَارِقَ وُجُودَهُ عِنْدَ مَنْ يُعَبِّرُ عَنْ مَجَارِي الْعَادَاتِ بِاللُّزُومِ وَيَعْتَقِدُهُ وَلَكِنَّهُ مِنْ تَوَابِعِ الذَّاتِ وَلَوَازِمِهِ وَلَيْسَ بِذَاتِيٍّ لَهُ، وَأَعْنِي بِهِ أَنَّ فَهْمَ حَقِيقَتِهِ غَيْرُ مَوْقُوفٍ عَلَى فَهْمِ ذَلِكَ لَهُ إذْ الْغَافِلُ عَنْ وُقُوعِ الظِّلِّ يَفْهَمُ الْفَرَسَ وَالنَّبَاتَ بَلْ يَفْهَمُ الْجِسْمَ الَّذِي هُوَ أَعَمُّ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَخْطِرْ بِبَالِهِ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ كَوْنُ الْأَرْضِ مَخْلُوقَةً وَصْفٌ لَازِمٌ لِلْأَرْضِ لَا يُتَصَوَّرُ مُفَارَقَتُهُ لَهُ، وَلَكِنْ فَهْمُ الْأَرْضِ غَيْرُ مَوْقُوفٍ عَلَى فَهْمِ كَوْنِهَا مَخْلُوقَةً فَقَدْ يُدْرِكُ حَقِيقَةَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ مَنْ لَمْ يُدْرِكْ بَعْدُ أَنَّهُمَا مَخْلُوقَتَانِ فَإِنَّا نَعْلَمُ أَوَّلًا حَقِيقَةَ الْجِسْمِ ثُمَّ نَطْلُبُ بِالْبُرْهَانِ كَوْنَهُ مَخْلُوقًا، وَلَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَعْلَمَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ مَا لَمْ نَعْلَمْ الْجِسْمَ. وَأَمَّا الْعَارِضُ فَأَعْنِي بِهِ مَا لَيْسَ مِنْ ضَرُورَتِهِ أَنْ يُلَازِمَ بَلْ يُتَصَوَّرُ مُفَارَقَتُهُ إمَّا سَرِيعًا كَحُمْرَةِ الْخَجَلِ أَوْ بَطِيئًا كَصُفْرَةِ الذَّهَبِ وَزُرْقَةِ الْعَيْنِ وَسَوَادِ الزِّنْجِيِّ، وَرُبَّمَا لَا يَزُولُ فِي الْوُجُودِ كَزُرْقَةِ الْعَيْنِ وَلَكِنْ يُمْكِنُ رَفْعُهُ فِي الْوَهْمِ. وَأَمَّا كَوْنُ الْأَرْضِ مَخْلُوقَةً وَكَوْنُ الْجِسْمِ الْكَثِيفِ ذَا ظِلٍّ مَانِعِ نُورَ الشَّمْسِ فَإِنَّهُ مُلَازِمٌ لَا تُتَصَوَّرُ مُفَارَقَتُهُ. وَمِنْ مُثَارَاتِ

الْأَغَالِيطِ الْكَثِيرَةِ الْتِبَاسُ اللَّازِمِ التَّابِعِ بِالذَّاتِيِّ فَإِنَّهُمَا مُشْتَرِكَانِ فِي اسْتِحَالَةِ الْمُفَارَقَةِ، وَاسْتِقْصَاءُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ الَّتِي هِيَ كَالْعِلَاوَةِ عَلَى هَذَا الْعِلْمِ غَيْرُ مُمْكِنٍ، وَقَدْ اسْتَقْصَيْنَاهُ فِي كِتَابِ مِعْيَارِ الْعِلْمِ ". فَإِذَا فَهِمْتَ الْفَرْقَ بَيْنَ الذَّاتِيِّ وَاللَّازِمِ فَلَا تُورِدُ فِي الْحَدِّ الْحَقِيقِيِّ إِلَّا الذَّاتِيَّاتِ، وَيَنْبَغِي أَنْ تُورِدَ جَمِيعَ الذَّاتِيَّاتِ حَتَّى يُتَصَوَّرَ بِهَا كُنْهُ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَمَاهِيَّتُهُ، وَأَعْنِي بِالْمَاهِيَّةِ مَا يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ فِي جَوَابِ " مَا هُوَ " فَإِنَّ الْقَائِلَ: مَا هُوَ؟ يَطْلُبُ حَقِيقَةَ الشَّيْءِ فَلَا يَدْخُلُ فِي جَوَابِهِ إِلَّا الذَّاتِيُّ. وَالذَّاتِيُّ يَنْقَسِمُ إِلَى عَامٍّ وَيُسَمَّى جِنْسًا وَإِلَى خَاصٍّ وَيُسَمَّى نَوْعًا...

وَأَمَّا مَا هُوَ أَخَصُّ مِنْ الْإِنْسَانِ مِنْ كَوْنِهِ طَوِيلًا أَوْ قَصِيرًا أَوْ شَيْخًا أَوْ صَبِيًّا أَوْ كَاتِبًا أَوْ أَبْيَضَ أَوْ مُحْتَرِفًا فَشَيْءٌ مِنْهُ لَا يَدْخُلُ فِي الْمَاهِيَّةِ إِذْ لَا يَتَغَيَّرُ جَوَابُ الْمَاهِيَّةِ بِتَغَيُّرِهِ، فَإِذَا قِيلَ لَنَا: مَا هَذَا؟ فَقُلْنَا إِنْسَانٌ وَكَانَ صَغِيرًا فَكَبِرَ أَوْ قَصِيرًا فَطَالَ فَسُئِلْنَا مَرَّةً أُخْرَى: مَا هُوَ؟ لَسْتُ أَقُولُ مَنْ هُوَ لَكَانَ الْجَوَابُ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ. وَلَوْ أُشِيرَ إِلَى مَا يَنْفَصِلُ مِنْ الْإِحْلِيلِ عِنْدَ الْوِقَاعِ وَقِيلَ: مَا هُوَ؟ لَقُلْنَا نُطْفَةٌ، فَإِذَا صَارَ جَنِينًا ثُمَّ مَوْلُودًا فَقِيلَ: مَا هُوَ؟ تَغَيَّرَ الْجَوَابُ وَلَمْ يَحْسُنْ أَنْ يُقَالَ نُطْفَةٌ بَلْ يُقَالُ إِنْسَانٌ. وَكَذَلِكَ الْمَاءُ إِذَا سَخُنَ فَقِيلَ: مَا هُوَ؟ قُلْنَا مَاءٌ، كَمَا فِي حَالَةِ الْبُرُودَةِ وَلَوْ اسْتَحَالَ بِالنَّارِ بُخَارًا ثُمَّ هَوَاءً ثُمَّ قِيلَ: مَا هُوَ؟ تَغَيَّرَ الْجَوَابُ. فَإِذَا انْقَسَمَتْ الصِّفَاتُ إِلَى مَا يَتَبَدَّلُ الْجَوَابُ عَنْ الْمَاهِيَّةِ بِتَبَدُّلِهَا وَإِلَى مَا لَا يَتَبَدَّلُ فَلْنَذْكُرْ فِي الْحَدِّ الْحَقِيقِيِّ مَا يَدْخُلُ فِي الْمَاهِيَّةِ. وَأَمَّا الْحَدُّ

اللَّفْظِيُّ وَالرَّسْمِيُّ فَمُؤْنَتُهُمَا خَفِيفَةٌ إذْ طَالِبهُمَا قَانِعٌ بِتَبْدِيلِ لَفْظِ الْعُقَارِ بِالْخَمْرِ وَتَبْدِيلِ لَفْظِ الْعِلْمِ بِالْمَعْرِفَةِ أَوْ بِمَا هُوَ وَصْفٌ عَرَضِيٌّ جَامِعٌ مَانِعٌ، وَإِنَّمَا الْعَوِيصُ الْمُتَعَذِّرُ هُوَ الْحَدُّ الْحَقِيقِيُّ وَهُوَ الْكَاشِفُ عَنْ مَاهِيَّةِ الشَّيْءِ لَا غَيْرَ.

الْقَانُونُ الثَّالِثُ: أَنَّ مَا وَقَعَ السُّؤَالُ عَنْ مَاهِيَّتِهِ وَأَرَدْتَ أَنْ تَحُدَّهُ حَدًّا حَقِيقِيًّا فَعَلَيْك فِيهِ وَظَائِفُ لَا يَكُونُ الْحَدُّ حَقِيقِيًّا إلَّا بِهَا، فَإِنْ تَرَكْتَهَا سَمَّيْنَاهُ رَسْمِيًّا أَوْ لَفْظِيًّا وَيَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ مُعْرِبًا عَنْ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَمُصَوِّرًا لِكُنْهِ مَعْنَاهُ فِي النَّفْسِ. الْأُولَى: أَنْ تُجْمَعَ أَجْزَاءُ الْحَدِّ مِنْ الْجِنْسِ وَالْفُصُولِ، فَإِذَا قَالَ لَك مُشِيرًا إلَى مَا يَنْبُتُ مِنْ الْأَرْضِ: مَا هُوَ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ تَقُولَ: جِسْمٌ، لَكِنْ لَوْ اقْتَصَرْتَ عَلَيْهِ لَبَطَلَ عَلَيْك بِالْحَجَرِ فَتَحْتَاجُ إلَى الزِّيَادَةِ فَتَقُولُ: نَامٍ، فَتَحْتَرِزُ بِهِ عَمَّا لَا يَنْمُو، فَهَذَا الِاحْتِرَازُ يُسَمَّى فَصْلًا أَيْ فَصَلْتَ الْمَحْدُودَ عَنْ غَيْرِهِ. الثَّانِيَةُ: أَنْ تَذْكُرَ جَمِيعَ ذَاتِيَّاتِهِ وَإِنْ كَانَتْ أَلْفًا وَلَا تُبَالِي بِالتَّطْوِيلِ.... الثَّالِثَةُ: أَنَّك إذَا وَجَدْتَ الْجِنْسَ الْقَرِيبَ فَلَا تَذْكُرْ الْبَعِيدَ مَعَهُ فَتَكُونَ مُكَرِّرًا، كَمَا تَقُولُ: مَائِعٌ شَرَابٌ،... فَإِذَا ذَكَرْتَ الْجِنْسَ فَاطْلُبْ بَعْدَهُ الْفَصْلَ إذْ الشَّرَابُ يَتَنَاوَلُ سَائِرَ الْأَشْرِبَةِ فَاجْتَهِدْ أَنْ تَفْصِلَ بِالذَّاتِيَّاتِ إلَّا إذَا عَسُرَ عَلَيْك ذَلِك وَهُوَ كَذَلِك عَسِيرٌ فِي أَكْثَرِ الْحُدُودِ فَاعْدِلْ بَعْدَ ذِكْرِ الْجِنْسِ إلَى اللَّوَازِمِ وَاجْتَهِدْ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ اللَّوَازِمِ الظَّاهِرَةِ الْمَعْرُوفَةِ فَإِنَّ الْخَفِيَّ لَا يُعَرِّفُ، كَمَا إذَا قِيلَ: مَا الْأَسَدُ؟ فَقُلْتَ: " سَبُعٌ أَبْخَرُ " لِيَتَمَيَّزَ بِالْبَخَرِ عَنْ الْكَلْبِ، فَإِنَّ الْبَخَرَ مِنْ خَوَاصِّ

الْأَسَدِ لَكِنَّهُ خَفِيٌّ، وَلَوْ قُلْتَ: سَبُعٌ شُجَاعٌ عَرِيضُ الْأَعَالِي، لَكَانَتْ هَذِهِ اللَّوَازِمُ وَالْأَعْرَاضُ أَقْرَبُ إلَى الْمَقْصُودِ لِأَنَّهَا أَجْلَى [٤٥٠]

وقال البزدوي: وَقَوْلُهُ غَيْرَ أَنَّهُ نَوْعَانِ لَيْسَ بِمُجْرًى عَلَى ظَاهِرِهِ؛ لأَنَّ النَّوْعَ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يُوجَدَ فِيهِ تَمَامُ مَاهِيَّةِ الْجِنْسِ مَعَ زِيَادَةِ قَيْدٍ وَلا يُوجَدُ تَمَامُ مَاهِيَّةِ الإِيمَانِ فِي الإِقْرَارِ وَلا فِي التَّصْدِيقِ عَلَى مَا اخْتَارَهُ الشَّيْخُ فَيَكُونُ مَعْنَاهُ غَيْرَ أَنَّهُ رُكْنَانِ أَيْ هُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى رُكْنَيْنِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَصْدِيقٌ وَهُوَ رُكْنٌ وَإِقْرَارٌ هُوَ رُكْنٌ. [٤٥١]

---

٤٥٠) المستصفى > مقدمة الكتاب > بيان حصر مدارك العلوم النظرية في الحد والبرهان > الدعامة الأولى في الحد > الفن الأول في القوانين

٤٥١) أصول فخر الإسلام للبزدوي باب بيان صفة الحسن للمأمور به وهو نوعان.

خاتمة

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣

مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ

غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾

آمين

اللهم صل وسلم وبارك على خير خلقك نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم صلاة أهل السموات والأرضين عليه وأجر يا رب لطفك الخفي في أمورنا بفضل رحمتك وكرمك ولطفك يا كريم.

اللهم إني أسألك بك يا رب العالمين، أسألك باسمك الأعظم الذي إن سئلت به أجبت، وإن استغفرت به غفرت، وإن استرحمت به رحمت، وإن استشفيت به شفيت، يا مجيب دعوة الداعين:

أسألك يا رب بك يا أيها الذي ليسَ إلَّاهُ ربٌ يُدعى، سألتك يا مالك حوائج السائلين الذي يُعطِي إذا سُئل، ولا يزداد على كثرة السؤال إلا جودا وكرما، وعلى كثرة الإلحاح إلا تفضلا وإحسانًا، يأتيه المُثقَلُ بالهموم شاكيا، فيفرج كرباته، والغارق في الذنوب مستغفرا، فيغفر زلاته، والمستيئس من النجاة، فيمد له يد نجاته، إذا أساءت العباد حَلِمَ وأمْهَلَ، وإن أحسنوا تفضلَ وقبِلَ وإن عصوا ستر، وإن أذنبوا عفا وغفر، وإذا دعوه أجاب، فكان أقرب إليهم من حبل وريدهم، وأرحم بهم من والدهم على وليدهم، وإذا نادوه سمعهم، وإذا أقبلوا عليه أسرع إليهم، من تقرب إليه بشبر قربه ذراعا، ومن أتاه يمشي أسرع إليه هرولة، وإذا ولَّوا عنهُ تكرم وتفضل ودعاهم، ولم يوصد بابه أمامهم، شديد العقاب، وهو الغفور الرحيم، لكل مُسترحمٍ لديه رحمة، ولكل راغبٍ إليه زُلفى، تتابعت نعمه وآلاؤه، حتى اطمأنت الأنفس بتتابعها، وتظاهرت المنن منه حتى اعترف أولياؤه بالتقصير عن حقه، أسبغ نعمه عليهم ظاهرة وباطنة، سألتك بمن تظاهرت العِبَرُ حتى نطقت الصوامتُ بحجته، ودل كل ما كُتب على صفحة نجوم السماء، وحبات رمل أديم الأرض على عظيم قدرته، وأظهر من الآيات حتى أفصحت السماوات والأرضون بأدلته، وقهر بعظيم قدرته حتى خضع كل شيء لعزته وعنت الوجوه لعظمته .

سألتك يا اللّه بك أن تنزل علينا شآبيب رحمتك، وأن تتقبل أعمالنا وان تجعلها خالصة لوجهك، وان تستر علينا في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك لنا وللمسلمين أجمعين من خير ما سألك الحبيب المصطفى صلى اللّه عليه وآله وسلم وعبادك الصالحون، وأعوذ بك لهم ولنا من شر ما استعاذ بك منه الحبيب المصطفى صلى اللّه عليه وآله وسلم وعبادك الصالحون

أسألك الخير كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم ونعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد خير خلقك، وعلى آله وصحبه وسلم صلاة أهل السموات والأرضين عليه وأجر يا رب لطفك الخفي في أمورنا وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين

الحمد للّه على نعمائه، ونسأله تعالى أن يكون أجرى الحق على ألسنتنا وبأيدينا، وأن يكون عصمنا من الزلل، وأن يتجاوز عنا برحمته، وفضله، وكرمه، فإنا واللّه لذاته العلية محبون، على ما فينا من التقصير، والشرود عن الجادة، والانغماس في الدنيا، ومع أن هذا كله يدل على تقصير من جانب المحب، إلا أننا نسأله تعالى أن لا يكون حبنا له ادعاء،

أنا مذنب أنا مخطىء أنا عاصي ... هو غافر هو راحم هو عافي

قابلتهن ثلاثة بثلاثة ... وستغلبن أوصافه أوصافي

حدثنا المزني قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت: يا أبا عبدالله، كيف أصبحت؟ فرفع رأسه، وقال: أصبحت من الدنيا راحلا، ولاخواني مفارقا، ولسوء عملي ملاقيا، وعلى الله واردا، ما أدري روحي تصير إلى جنة فأهنيها، أو إلى نار فأعزيها، ثم بكى، وأنشأ يقول(٤٥٢):

إليك إله الخلق أرفع رغبتي ... وإن كنتُ-يا ذا المنِّ والجود-مجرماً
ولَّما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوكَ سُلّمَا
تعاظمني ذنبي فلَّما قرنتهُ ... بعفوكَ ربي كانَ عفوكَ أعظما
فَمَا زلْتَ ذَا عفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ ... تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا
فلولاكَ لم يصمد لإبليسَ عابدٌ ... فكيفَ وقد أغوى صَفيَّكَ آدما
فإن تعفُ عني تعفُ عن متمردٍ ... ظَلُومٍ غَشُومٍ لا يزايلُ مأثما
وإن تنتقمْ مني فلستُ بآيسٍ ... ولو أدخلوا نفسي بجُرْم جهنَّما
فَللَّهِ درُّ الْعَارفِ النَّدبِ إنَّهُ ... تفيض لِفَرْطِ الْوَجْدِ أجفانُهُ دَمَا
يُقِيمُ إذَا مَا الليلُ مَدَّ ظَلاَمَهُ ... على نفسهِ من شدَّة الخوفِ مأتما
فَصِيحاً إذَا مَا كَانَ فِي ذِكْرِ رَبِّهِ ... وَفِي مَا سِواهُ فِي الْوَرَى كَانَ أعْجَمَا
ويذكرُ أياماً مضت من شبابهِ ... وَمَا كَانَ فِيهَا بِالْجَهَالَةِ أجْرَمَا
فَصَارَ قَرِينَ الهَمِّ طُولَ نَهَارهِ ... أخا السُّهدِ والنَّجوى إذا الليلُ أظلما

---

٤٥٢) روى المزني بعض هذه الأبيات، وألحقت بها باقي القصيدة من مراجع أخرى.

يَقُولُ حَبِيبِي أَنْتَ سُؤْلِي وَبُغْيَتِي كفى بكَ للراجينَ سؤلاً ومغنما
ألستَ الذِّي غذيتني وهديتني وَلاَ زِلْتَ مَنَّاناً عَلَيَّ وَمُنْعِمَا
عَسَى مَنْ لَهُ الإِحْسَانُ يَغْفِرُ زَلَّتي ويسترُ أوزاري وما قد تقدما
حَوالِيَّ فضلُ اللَّه من كل جانب ونورٌ من الرحمن يفترش السَّمَا
وفي القلب إشراقُ المحبِّ بوصلِهِ إذا قارب البشرى وجاز إلى الحمى
حواليَّ إيناسٌ من اللَّه وحده يطالعني في ظلمة القبر أنجما
أصونُ ودادي أن يدنسه الهوى وأحفظ عهد الحبِّ أن يتثلما
ففي يقظتي شوقٌ وفي غفوتي مُنًى تلاحق خطوي نشوة وترنُّما
ومن يعتصم باللَّه يسلم من الورى ومن يَرْجُه هيهات أن يتندَّما

كذلك ونسأله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، صائبة، خالية من حب الشهرة، وحب الذكر، وأن لا يكون نصيبنا منها إلا الخير في الدنيا والآخرة، وأن يغفر بفضله لسادتنا العلماء، ولمن أخذنا عنهم هذا الدين العظيم، وأن لا يجعل في صدورنا غلا للذين آمنوا، فإنا واللّه نحب المسلمين، ونحب لهم الخير، ونحب لهم أن يجتمعوا على ما جمع اللّه عليه قلوب من لو أنفق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما في الأرض جميعا، ما ألف بين قلوبهم، ولكن اللّه ألف بينهم، فاللهم ألف بين قلوب المسلمين

واجمعهم على محبتك وطاعتك وحسن الإيمان بك، وحَسَنِ العمل الخالص لوجهك الكريم.

وبعد، فهذا ما اجتهدنا فيه في هذه المسألة ، وهو جهد المقل، وللمسلم على المسلم حق النصح، فمن أراد مخاطبتي وأداء واجب النصح لي على زلة غير مقصودة، أو رأي مرجوح، أو استفسار عن شيء من ذلك، فعليه مكاتبتي على بريدي الالكتروني:

imammalek@hotmail.com

المراجع

١- القران الكريم

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي. الريان للتراث.

٣- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر العسقلاني. دار الريان للتراث.

٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة. الألباني. المكتب الإسلامي.

٥- المحصول في علم أصول الفقه. فخر الدين محمد بن عمر الرازي. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. المكتبة العصرية الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ.

٦- الموافقات في أصول الشريعة. لأبي اسحاق الشاطبي. شرح فضيلة الشيخ عبد الله دراز. دار المعرفة.

٧- إحياء علوم الدين. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. دار إحياء الكتب العربية

٨- الإحكام في أصول الأحكام. سيف الدين علي بن محمد الآمدي. دار الفكر. ط١

٩- نشر البنود على مراقي السعود، سيدي عبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي. طبع اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المغرب والإمارات المتحدة.

١٠- الشخصية الإسلامية. للإمام تقي الدين النبهاني.دار الأمة. الجزء الأول

١١- الشخصية الإسلامية. للإمام تقي الدين النبهاني.دار الأمة. الجزء الثالث (أصول الفقه)

١٢- نفائس الأصول في شرح المحصول. شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس المصري المعروف بالقرافي. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. مكتبة نزار الباز.

١٣- الإيمان. ابن تيميه. تحقيق وتخريج عصام الدين السبابطي. دار الحديث.

١٤- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.ابن قيم الجوزية اختصار الشيخ محمد بن الموصلي الطبعة الأولى. دار الكتب العلمية.

١٥- الواضح في أصول الفقه. محمد حسين عبد الله. دار البيارق.

١٦- الإستدلال بالظني في العقيدة. فتحي سليم. دار البيارق.

١٧- الرسالة. الشافعي. تحقيق أحمد محمد شاكر. دار الفكر.

١٨- المحلى. ابن حزم الأندلسي. دار الآفاق الجديدة.

١٩- الفصل في الملل والأهواء والنحل. للإمام أبي محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي. دار الجيل. بيروت.

٢٠- الدوسية. تقي الدين النبهاني

٢١- الواضح في إبطال المصالح. محمد الشويكي. ط٢. دار البيارق

٢٢- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد. الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ تحقيق محمد الفقي.ط٨.دار إحياء التراث العربي.

٢٣- لسان العرب ابن منظور.دار صادر.

٢٤- القاموس المحيط. الفيروزابادي. مؤسسة الرسالة. بيروت ط٥ (١٤١٦هـ)

٢٥- مفردات ألفاظ القران. الراغب الأصفهاني. دار القلم والدار الشامية.

٢٦- إعجاز القران الكريم. د.فضل حسن عباس.

٢٧- مجموع الفتاوى. العلامة أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني. تحقيق د.صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد. الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ.

٢٨- الاستقامة. ابن تيمية. الطبعة الأولى. جامعة محمد بن سعود. المدينة المنورة. تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

٢٩- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. ابن قيم الجوزية. تحقيق محمد حامد الفقي. الطبعة الثانية. دار الكتاب العربي ١٩٧٣

٣٠- مجلة الوعي. تصدر في بيروت عن ثلة من الشباب المسلم الجامعي

٣١- الدكتور محمد جميل الغازي في محاضرة له مسجلة عن التوحيد.

٣٢- تاريخ الطبري. ابن جرير الطبري. دار المعارف.

٣٣- الحكم الشرعي في بحث أسماء الله وصفاته. هشام البدراني. دار البيارق

٣٤- عقيدة أدعياء السلفية في ميزان أهل السنة والجماعة. أبو عبد الله محمد بوالنِّيت المراكشي. دار البيارق.

٣٥- قواعد في التكفير. عبد المنعم مصطفى حليمة. دار البشير

٣٦- روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني للعلامة محمود الألوسي. دار الفكر.

٣٧- دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق د.محمد السيد الجليد. مؤسسة علوم القران. دمشق.

٣٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. مكتبة العبيكان.

٣٩- التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي. دار إحياء التراث العربي.

٤٠- بحث في قوله تعالى: يوم يكشف عن ساق. الدكتور أحمد نوفل.

٤١- الأساس في التفسير. سعيد حوى. دار السلام.

٤٢- تفسير القران الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل. الإمام النسفي. مؤسسة الرسالة

٤٣- تفسير القران الحكيم الشهير بتفسير المنار. محمد رشيد رضا. دار المعرفة

٤٤- في ظلال القران. سيد قطب. دار الشروق. الطبعة العاشرة

٤٥- تفسير القران العظيم. ابن كثير. دار الجيل.

٤٦- تفسير القران العظيم. ابن كثير. دار الفكر العربي.

٤٧- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي. تحقيق الرحالي الفاروقي وغيره الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ الدوحة.

٤٧- اللباب في علوم الكتاب. للإمام المفسر أبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وغيره. دار الكتب العلمية.

٤٨- التيسير في أصول التفسير. المهندس عطا أبو الرشتة.

٤٩- تفسير الحسن البصري. جمع وتوثيق د.محمد عبد الرحيم. دار الحديث.

٥٠- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية. عبد القاهر البغدادي. دار الآفاق الجديدة. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٧. تحقيق د. عبد العزيز العثيم.

٥١- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. أبو الحسن الأشعري. دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الثالثة. تحقيق: هلموت ريتر.

٥٢- الإيمان حقيقته. أركانه. نواقضه. د. محمد نعيم ياسين. ط ٣/ ١٩٨٢

٥٣- توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم. المكتب الإسلامي. الطبعة الثالثة. تحقيق زهير الشاويش. ١٤٠٦هـ.

٥٤- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. ابن القيم. الطبعة الثالثة. دار العاصمة. الرياض. تحقيق الدكتور علي بن محمد الدخيل الله.

٥٥- شرح العقيدة الطحاوية

٥٦- معجم مقاييس اللغة. ابن فارس

٥٧- الزهد والورع والعبادة. ابن تيمية. مكتبة المنار الأردن. تحقيق د. محمد عويضة. و حماد سلامة. الطبعة الأولى.

٥٨- عقيدة المسلم وما يتصل بها. عبد الحميد السائح

٥٩- بداية المجتهد ونهاية المقتصد. ابن رشد القرطبي

٦٠- الصفدية. ابن تيمية. الطبعة الثانية. تحقيق. د. محمد رشاد سالم

٦١- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. ابن تيمية. دار العاصمة. الرياض. الطبعة الأولى. تحقيق د. علي حسن ناصر وآخرون.

٦٢- أحكام أهل الذمة. ابن القيم. دار ابن حزم. تحقيق يوسف أحمد البكري الطبعة الأولى ١٩٩٧

٦٣- الرد على المنطقيين. ابن تيمية. دار المعرفة

٦٤- أجوبة أسئلة. تقي الدين النبهاني ملف النشرات الفكرية ١٩٥٣-١٩٩٠

٦٥- نيل الأوطار الشوكاني

٦٦- نسخ التلاوة بين النفي والإثبات للدكتور أحمد نوفل

٦٧- آداب الزفاف في السنة المطهرة. الألباني

٦٨- مقدمة الدستور أو الأسباب الموجبة له. تقي الدين النبهاني

٦٩- بحث للدكتور محمد عبد الله عويضة بعنوان: حجية خبر الآحاد في العقائد، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات –المجلد الأول، العدد الأول/ ١٩٩٩، الزرقاء، الأردن

٧٠- البرهان في أصول الفقه. لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف. حققه الدكتور عبد العظيم الديب. الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ

٧١- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. الإمام الحافظ محمد بن علي الشوكاني. تحقيق. محمد حسن إسماعيل الشافعي. منشورات دار الكتب العلمية. بيروت

٧٢- الدكتور عبد العزيز الخياط. تأليف الباحث زياد أحمد سلامة.

٧٣- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة. د. راجح الكردي. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. مكتبة المؤيد. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٧٤- التشريع والفقه في الإسلام تاريخاً ومنهاجاً. مناع القطان. مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى

٧٥- موسوعة الحديث الشريف. الإصدار الثاني. شركة البرامج الإسلامية الدولية. أقراص مدمجة. تحوي الكتب التسعة وبعض شروحها. صخر http://www.sakhr.com

٧٦- مؤلفات العلامة وتلميذه ابن القيم. مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي. الإصدار الأول. ١٤٢٠ هـ. الأردن http://www.turath.com

٧٧- مكتبة العقائد والملل. مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي. الإصدار ١.٥ a. ١٤٢٠ هـ. الأردن http://www.turath.com

٧٨- موقع حزب التحرير على الانترنت http://www.hizb-ut-tahrir.org

٧٩- موقع مجلة الوعي على الانترنت http://www.al-waie.org

٨٠- برنامج المحدث http://www.muhaddith.org

٨١- موقع شركة حرف لتقنية المعلومات على شبكة الإنترنت. http://www.harf.com/arb/

٨٢- موقع نسيج على الإنترنت http://www.naseej.com

٨٣- تفسير القران العظيم للشعراوي. الشركة الهندسية لتطوير نظم الحاسبات. أقراص مدمجة. http://www.rdi-eg.com

٨٤- السنة ومكانتها في التشريع. د. مصطفى السباعي. المكتب الإسلامي الطبعة الثانية.

٨٥- نظم المتناثر من الحديث المتواتر للإمام محمد بن جعفر الكتاني

٨٦- الايمان لابن أبي شيبة

٨٧- الايمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته لأبي عبيد القاسم بن سلام

٨٩ - كتاب الايمان من فتح الباري ابن رجب الحنبلي

٩٠- كتاب الايمان من فتح الباري بشرح صحيح البخاري للامام ابن حجر العسقلاني

٩١- التعريفات: الجرجاني مكتبة لبنان

٩٢- إجابة السائل شرح بغية الآمل للصنعاني

٩٣- أصول السرخسي

٩٤- التمهيد لجمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي

٩٥- الإبهاج في شرح المنهاج أبو الحسن علي بن عبد الكافي الأنصاري الخزرجي الشافعي

٩٦- تحفة المحتاج في شرح المنهاج للشيخ مَنْصُورٌ سِبْطُ الشَّيْخِ الطَّبَلَاوِيِّ الشَّافِعِيِّ
٩٧- المنهاج: أَحْمَدُ بْنُ قَاسِمٍ الْعَبَّادِيُّ الْأَزْهَرِيُّ
٩٨- طرح التثريب: زَيْنُ الدِّينِ عَبْدُ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيُّ
٩٩- رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين
١٠٠- التقرير والتحبير لابن أمير الحجاج
١٠١- الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف الكويتية
١٠٢- موقع الاسلام / جامع الفقه الاسلامي http://feqh.al-islam.com/
١٠٣- موقع نداء الايمان http://www.al-eman.com/default.asp
١٠٤- التحرير والتنوير لابن عاشور
١٠٥- أقاويل الثقات لمرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي

مفاهيم في العقيدة
الجزء الثاني
القول الفصل في
مفهوم الإيمان شرعا
مفاهيم في العقيدة
الجزء الأول
مفهوم الظن
في القرآن الكريم وعلاقته باليقين
ثائر سلامة (أبو مالك)
الطبعة الثانية : مزيدة ومنقحة
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
الجزء الثالث
أدلة الاعتقاد
ثائر سلامة (أبو مالك)
الطبعة الثانية : مزيدة ومنقحة
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
موقف العقل والعلم
من وجود من بيده ملكوت السموات والأرض
ثائر سلامة (أبو مالك)
الطبعة الأولى : مزيدة ومنقحة
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
مفاهيم في العقيدة
الجزء الرابع
ضوابط التعامل مع مسائل
صفات الله تعالى
ثائر سلامة (أبو مالك)
الطبعة الثانية : مزيدة ومنقحة
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م